تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السادسة • العددان ٦٤ - ٦٥ • شباط (فبراير) - آذار (مارس) ١٩٨٤م • الموافق جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ





□ بغداد في العهد العباسي (اواخر القرن الثاني عشر)

تـاريخ العـرب والعـالـم

مجلة شهرية مصورة تعنى بتاريخ العرب

العددان ٦٤/٦٥ ــ شباط ــ آذار ١٩٨٤ م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والابحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع. الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 6 — No. 64/65 — Feb./Mar. 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الإمام مالك بن أنس

ت : ١٧٩هـ

د. سُهيل زكار

كانت المدينة المنورة دار هجرة النبي، واصحابه، ومقر العلم الاسلامي، حيث فيها كمل بناء الشريعة الاسلامية، وفيها طبقت مبادىء هذه الشريعة أيام النبي و خلفاء الراشدين من بعده، وفي أيام النبي كان هو المرجع بالنسبة لكل شؤون الأمة، وبعد وفاته صار أصحابه هم المرجع، وبعد الصحابة جاء عصر التابعين، وكانت الدولة الاسلامية العظمى قد قامت، وانتشر الاسلام في الارض، وبدأ يظهر إلى الوجود معالم مدارس الفقه الاسلامي والفكر بشكل عام.

□ مسجد الرسول بالمدينة المنورة من الداخل

□ د. سهيل زكار: أستاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق.



وعرف تاريخ الاسلام عددا من المدارس منها ما كتب له استمرار الحياة ومنها ما انقرض، وكان على رأس المدارس المستمرة مدرسة أهل العراق ومدرسة أهل الحجاز وقد عرفت مدرسة أهل العراق باسم مدرسة أهل الرأي، في حين اشتهرت مدرسة أهل الحجاز باسم مدرسة أهل الحديث، ذلك بسبب أن أهل الحجاز كانوا في القرنين الأول والثاني أعرف الناس بحديث الرسول، وأخبرهم بقوله وعمله وتقديراته، مع سيرته ومغازيه، وكانوا أقدر من غيرهم على فهم القرآن، فهو قد نزل بلغة قريش.

ومن بين أهل الحجاز كان سكان المدينة هم الأغنى علما بالتراث، وقد برز في المدينة عدد من أقطاب العلماء كان مسلكهم في العمل الفقهي قائم على الوقوف عند النص لكثرة بضاعة أهل بلدهم من النصوص، ولطبيعة المواريث وسذاجة الحياة وقلة مشاكلها بالمقارنة مع البلدان الاسلامية الأخرى، ولوجود الكعبة وقبر الرسول في الحجاز.

ورأى علماء المدينة أن أتباع الرأي أخذ بالهوى والغرض، وبالتالي إدخال في دين الله ما ليس منه، لذلك كانوا إذا استفتوا في مسألة عرضوها على كتاب الله ثم سنة رسوله، فإن وجدوا أحاديث مختلفة فاضلوا بينها بالراوي، أو عرضوا الحلول دون إبداء الرأي في المفاضلة.

والاعتماد على الحديث كان له الأثر الأكبر في الانصراف نحو جمع السنة النبوية، وتنقيتها من كافة الشوائب بوضع قواعد نقدية كانت من الدقة بمكان، جعلت فيما بعد العمل في ميدان جمع الحديث فنا قائما بذاته، وعلما له قواعده وقوانينه، مع أهدافه ومواضيعه، وبات من المسلم به أيامنا هذه أن ما توصلت إليه العلوم الحديثة من إبداع لقواعد النقد التاريخي الوثائقي لا يسمو لنفس درجة قواعد المحدثين في الدقة والأصالة وسلامة النتائج.

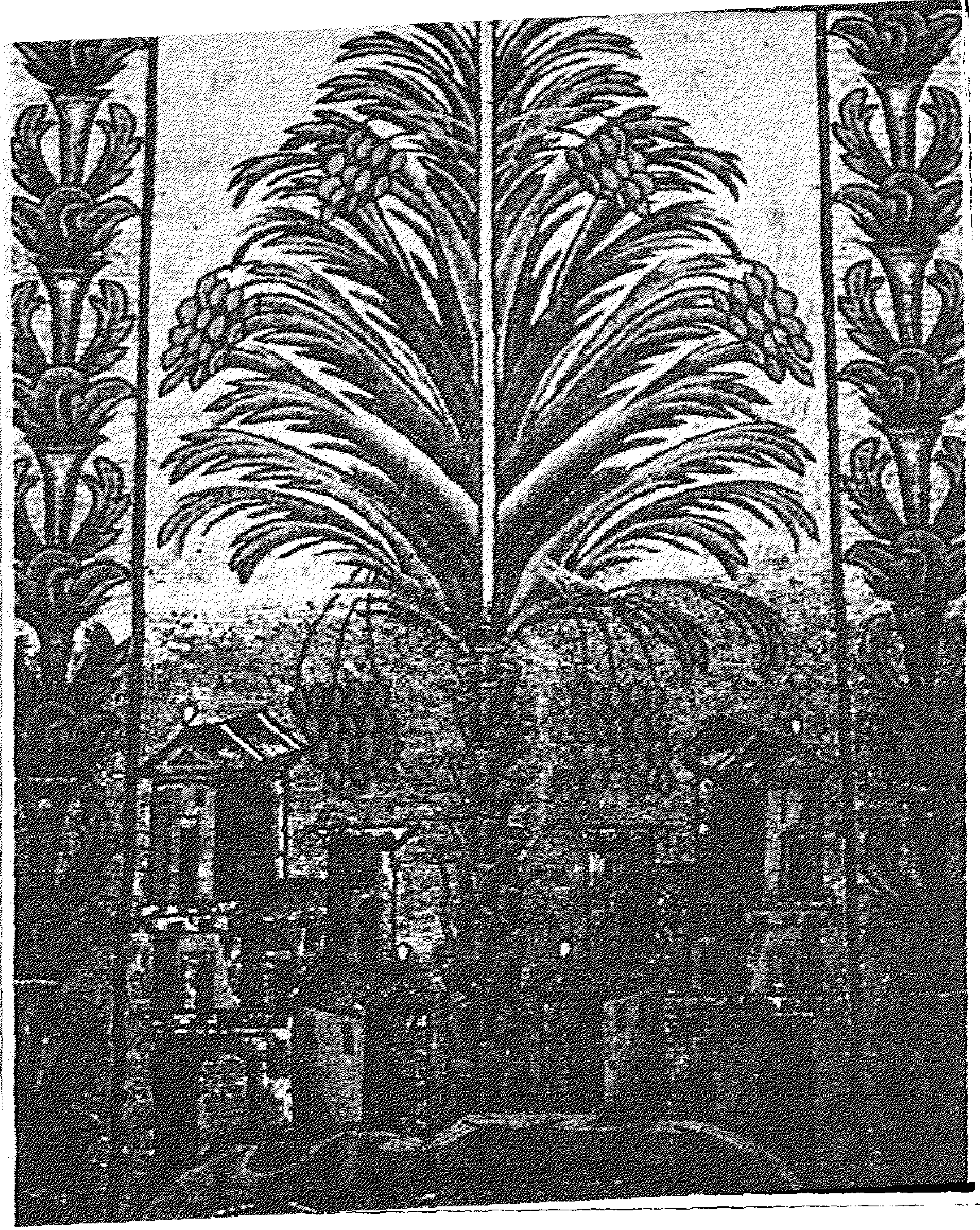
من الصعب القيام بتقديم عرض دراسي عن مشاهير الذين أسهموا في بناء أسس مدرسة الحديث، لكن لعل الحديث عن الامام مالك بن أنس يغني عن ذلك، لا من منطلق تمجيد دور الفرد في صناعة التاريخ، إنما على أساس القول أن علما بارزا كالامام مالك هو في الأصل محطة لدور سابق، أضيف إليه عبقرية شخصية. فالامام مالك هو أبرز واضعي أسس مدرسة الحديث الفقهية، وعلى تراثه بني مذهب المالكية وطور من قبل علماء منهم من أخذ على مالك مباشرة ومنهم من يلقه ولم يأخذ عنه مباشرة، وهذا المذهب هو الصانع الأكبر لحضارة وتاريخ المسلمين في الغرب الاسلامي وإفريقية. وهو أيضا المؤثر الاسلامي الأكبر في تاريخ التشريعات الأوروبية.

وقبل الاستطراد على هذا النحو ضروري أن نقف عند معالم حياة الامام مالك، فهو مالك بن انس، ولدكما هو مرجح في المدينة سنة ٩٣ هـ، من أبوين عربيين، من أصل يماني، وفي طفولته دفع إلى من مكنّه من حفظ القرآن، ثم اذن له اهله بحضور مجالس العلماء، وكانت امه أشد المتحمسين لتعليمه، عنيت بشبابه ومظهره الخارجي، وسهرت على اختيار أحسن الأساتذة له، ووجهته نحو العلماء وساعدته على التنقل في مجالسهم، وكان ربيعة الرأي وعبد الرحمن بن هرمز أهم شيوخ مالك فهو قد لزم ابن هرمز ثلاث عشرة سنة، وكان معجبا به، مقدرا لعلمه.

وكان الامام مالك مجدا في طلب العلم، صبورا، بذل ما كان في طاقته الجسمانية والمادية للتحصيل دونما ملل، وكان يضحي بكل شيء في سبيل العلم، ويتحمل المشاق مع حدة الشيوخ، وشغل الامام نفسه بجمع الحديث النبوي، وكان صارما مع نفسه أديبا أمام الحديث النبوي، يطلبه من عند الثقات وأهل الفهم والدراية، وكان قد أوتي فراسة المؤمن في فهم الرجال وإدراك قوة عقولهم، ومقدار فقههم.

وكان الامام مالك يتلقى العلم بوعي وعقل، بحيث كان لا يزدرد ما كان يلقى إليه ازدرادا، بل كان يفحصه ويمحصه، فيقبل بعضه ويرفض بعضه الآخر، وبعد تحصيل طويل، وشهادة العلماء بالعلم له، جلس في المسجد النبوي يحدث ويملي، وقد اختار من المسجد المكان الذي كان عمر بن الخطاب يجلس به، كما اتخذ من الدار التي كانت لعبد الله بن مسعود دارا له...

كان الامام مالك لفترة من حياته يدرس في المسجد وفي بيته، إنما اضطر بسبب مرض ألم به



□ موزاييك يرجع إلى القرن الثامن للميلاد (الجامع الاموي).

إلى التزام بيته فقط، وكانت أيام عمله مبرمجة، بحيث خصص أوقاتا للحديث وأخرى للافتاء في النوازل، واستمر هكذا مدة خمسين عاما، أي حتى وفاته عام ١٧٩هـ، وكان في مجلسه يأخذ نفسه أخذا شديدا، كان جادا كل الجد، ومتواضعا وكريما إلى أبعد الحدود، وكان لا يجيب في نازلة إلا بعد فحص وتريث، ولا يخجل أن يقول: لا أعرف، رغم أنه كان أعلم أهل زمانه، ومرد هذا إلى كونه كان قوي العزم، حديد الارادة، قهر أهواء النفس وأمات شهواتها فلذلك لم يضعف إلا أمام الخالق.

هابه كل ذي سلطان حتى المنصور العباسي نفسه، وكان زهده وإيمانه وسلوكه محمديا، بحيث أنه اعتنى بمظهره بلا تفاخر أو رياء، واعتنى بأثاث بيته وبملبسه ونظافته.

ومعروف أن الامام مالك شهد نهاية الدولة الأموية، ثم قيام الخلافة العباسية، وفي أيام المنصور سعى هذا الخليفة نحو تطبيق سياسة دينية خاصة استهدفت تقريب العلماء ليكونوا إحدى أدوات السلطة، واعتبر المنصور كل من لا يتعاون معه يمكن أن يكون مرتبطا بقوة معادية له، وقد تشدد في هذا الموقف أيام ثورة النفس الزكية، وصدف أن أفتى الامام مالك أثناء الثورة بحديث «ليس على مستكره يمين» فرأت السلطة العباسية في ذلك تقديم تسهيلات للثورة، فاعتقلت الامام وعرضته للاهانة والعذاب، وكان لهذا الأمر وقع شديد على المسلمين، فسارع المنصور بإصدار أمره بإطلاق سراح الامام مالك، وفي الموسم جاء المدينة، واجتمع بالامام، واعتذر له، وكلفه بتدوين كتاب في الفقه والحديث فاستجاب الامام وصنف كتاب الموطأ.

والموطأ أول كتاب من نوعه تم تدوينه، رغم أن محاولات جمع السنة وتدوينها أقدم منه، وهو كتاب فقه وحديث، ذكر فيه الامام مالك المواضيع الفقهية، ومع كل موضوع الأحاديث الواردة حوله، ثم عمل أهل المدينة، ثم آراء

وفتاوى الصحابة والتابعين ومن عمل الامام في هذا الكتاب يمكن أن نرى قواعد عمله في مذهبه الذي انتشر في الغرب الاسلامي ولم يكتب له النجاح في الشرق.

وتعود أسباب ذلك إلى خلفيات سياسية وحضارية واجتماعية منها ما امتد لما قبل الاسلام، ومنها ما ارتبط بشأن تطور مدرسة أهل العراق الفقهية، وقيام الثورة العباسية، فأثر ذلك على أوضاع بلدان الاسلام خاصة في الغرب الذي لم تدخل بعض أراضيه تحت الحكم العباسي.

ومفيد أن نتذكر أنه بعد قيام الدولة الاسلامية الكبرى، وبناء القوة البحرية الاسلامية، صار الجزء الأكبر من البحر المتوسط بيد المسلمين، وحدث تحول في طرق التجارة العالمية، فقد تغيرت الأسواق المستهلكة، كما تبدلت أنواع البضائع، ولم تعد كل الطرق تقود إلى روما بل إلى حواضر الاسلام، وبعد قيام الخلافة العباسية، صارت بغداد «روما» العرب والاسلام، وصارت كل القوافل وجهتها الأخيرة ومنطلقها بغداد.

ومن الملاحظ أن موقع مكة لما قبل الاسلام على طرق التجارة العالمية دفعها نحو تزعم عالم شبه الجزيرة، ثم هيأها مع عوامل أخرى خطيرة، لتكون مركز تفجر ثورة الاسلام، ومرة ثانية بعد قيام الاسلام، وانتشاره في الشمال الافريقي والأندلس، وجد المسافرون من الغرب نحو الشرق، أنفسهم عند حلولهم مصر أن المدينة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق، وهكذا نال القادمون للتعلم والتفقه دروسهم الأساسية في المدينة، ثم ذهب بعضهم لاستكمال التعليم في العراق، وكثير منهم لم يذهب، بل اكتفى بما نهله من دار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا المجال ينبغي ألا يفوتنا التنبه إلى أن العباسيين كان لهم سياسة دينية خاصة ونشطة، ثم إن عالم القرن الثامن للميلاد ثم التاسع من بعده، عرف تيارات فكرية سياسية نادت بوحدة المذهب العقائدي للدولة، وطبيعي أن نجد هذا لدى العباسيين، فهم قد وصلوا إلى السلطة بواسطة ثورة انطلقت من شرعية مفاهيم الاسلام القائمة على المزج، وبهذا اختلف حالهم عن بني امية، فمعاوية نال الخلافة من وراء المطالبة بدم عثمان.

وبعد شيء من التردد اعتمد العباسيون الأوائل في سياستهم الدينية على مدرسة العراق السنية، ذلك أن العراق بكوفته عرف عدة مدارس مذهبية، كان أبرزها: المدرسة السنية، ثم المدرسة الشيعية، ثم مدرسة الخوارج، وحيث أن العباسيين كانوا أعداء الخوارج، ثم لعملهم منذ أيام المنصور على الانفصال الكلي عن الحركة الشيعية، فقد دعم العباسيون الأول مدرسة أهل السنة، وتبنوها وأرادوا احتضانها، فتم لهم ذلك بعدما تأسست أركان هذه المدرسة على يد أبي حنيفة بوقت وجيز.

وفي الغرب الاسلامي، خاصة في الأندلس، وجد أمراء الأندلس، بعد عبد الرحمن بن معاوية، أنفسهم بحاجة إلى تقليد طرائف العباسيين، أو لنقل: إن الحكم الذي تم نيله بالاعتماد على الصراع القبلي، وجد نفسه بحاجة إلى دعائم لسلطته غير عمليات التوازن بين العصبيات، فكان أن لجأ إلى اعتماد سياسة دينية خاصة، وطبعا أن هذا العمل كان أمرا لا بد منه في أي دولة إسلامية، وخاصة لدى دول المواجهة مع أعداء الاسلام.

وكانت المواجهة هذه تفرض التظاهر بمظهر المثالية كما فرضت التشدد والتعصب ومثالية الاسلام تؤخذ من المدينة لا من سواها، والمدينة هي غير الكوفة، وتلميذها متميز عن تلميذ مدرسة الكوفة، ومستقل عنه وغير تابع.

هذا وإن اعتماد السلطة العباسية على مدرسة الكوفة السنية، جعل بلا شك القادمين على مدرسة المدينة يفتشون عن مناطق نفوذ ونشاط: ويؤيد هذا استقرار تلاميذ الامام مالك الكبار في مصر، ثم ما روي عنه نفسه من تحبيذ لبعض أمراء الأندلس.

وعلى كل حال مهما قلنا عن الأسباب التي ادت إلى انتشار مذهب المالكية في الغرب الاسلامي، فإنه مما لا ريب فيه أن المالكية حملت مسؤولية نشر الاسلام في إفريقية وكانت المبدع الأساسي لتاريخ وحضارة وشخصية الغرب الاسلامي. ●

هجرة الكفاءات العربية

الأستاذ أنطوان ب. زحلان

(الحلقة الثانية)

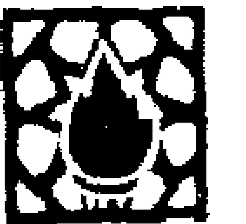
تتضمن هذه الدراسة المعلومات المتاحة عن تحركات القوى العاملة العربية ذات المستويات العالية. ولقد تناولنا فيها التعقيدات الخاصة بالتدفقات. وكذلك النقص وعدم الدقة في المعطيات. أضف إلى ذلك، ان صورة كمية لتدفقات القوى العاملة العربية ذات المستويات العالية قد رسمت على سبيل التجربة.

وبنيت هذه الصورة على أساس افتراضات مؤداها أن أفراد القوى العاملة ذات المستويات العالية الذين يسكنون الولايات المتحدة بشكل دائم يبلغ تقريبا ثلاثة أضعاف عدد المهاجرين إليها، في حين بلغ عدد المهاجرين إلى كندا وفرنسا وبريطانيا والبلدان الأوروبية الأخرى على التوالي ١ و ٢ و ١ و ٠,٥ من المرات لعدد القوى العاملة ذات المستويات العالية المهاجرة إلى الولايات المتحدة.

وقد تم تقدير ذوي الكفاءات العالية من القوى العاملة العربية حسب نوع دراستهم. وتقدر نسبة المهندسين والعلماء والأطباء الذين هاجروا بـ ٢٣ و ١٥ و ٥٠ بالمئة على التوالي. كما قدرت نسبة حاملي شهادة الدكتوراه بـ ٢٤٠٠٠ أي بزيادة تبلغ ١٠ بالمئة سنويا. وتبلغ نسبة الهجرة عند فئة الأطباء حوالي ٣٣ بالمئة.

وقد تم البحث في أسباب هجرة الكفاءات على ضوء وجهات النظر لفئات مختلفة من البلدان. ويتساءل الكاتب في ختام البحث عن سبب بقاء هذا العدد من أصحاب الكفاءات ذات المستويات العالية في بلدانهم، وليس عن سبب هجرتهم. ويؤكد على الأهمية التي يجب إعطاؤها لطريقة الاستفادة من هذه المجموعات استفادة كلية. وفيما يلي الحلقة الثانية والأخيرة من هذه الدراسة.

معايير ومقاييس



إن اعتبار هجرة ١٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ مهندس إلى الخارج أمر خطير أو غير ذي بال يخضع لعدة عوامل. والمعياران الأكثر أفضلية هما: (١) حجم مجموعة الاخصائيين الفنيين التي تشهد تدفق العقول للخارج، (٢) معدل الانتاج السنوي لهذا النوع من الاخصائي أو الفني.

في الشكل رقم (١) رسم بياني على سلم شبه لوغاريتمي بالعدد التراكمي لخريجي الجامعات العربية في عشر دول عربية[٥]. وقد افترضنا أن

□ الأستاذ انطوان ب. زحلان: أستاذ زائر ـ جامعة سكس.

(*) يشكل هذا البحث موجزا عن الدراسة التي قدمت إلى ندوة السكان والتنمية في منطقة اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا والتي عقدت في عمان، الأردن، بين ١٨ و ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨.

اول صف للتخرج كان في عام ١٩٥٠/١٩٥١ (الذلك ينحرف المنحنى عن النمو الأساسي في الفترة ١٩٥٠ ــ ١٩٥٨). ويتضاعف عدد الخريجين كل ٥,٣ سنوات. وبذلك، كان هنالك على سبيل المثال حوالي ٧٦٠٠٠٠ خريج في عام ١٩٧٥ وسيصبح عددهم في عام ١٩٨٠ ١,٥ مليون، وهكذا دواليك.

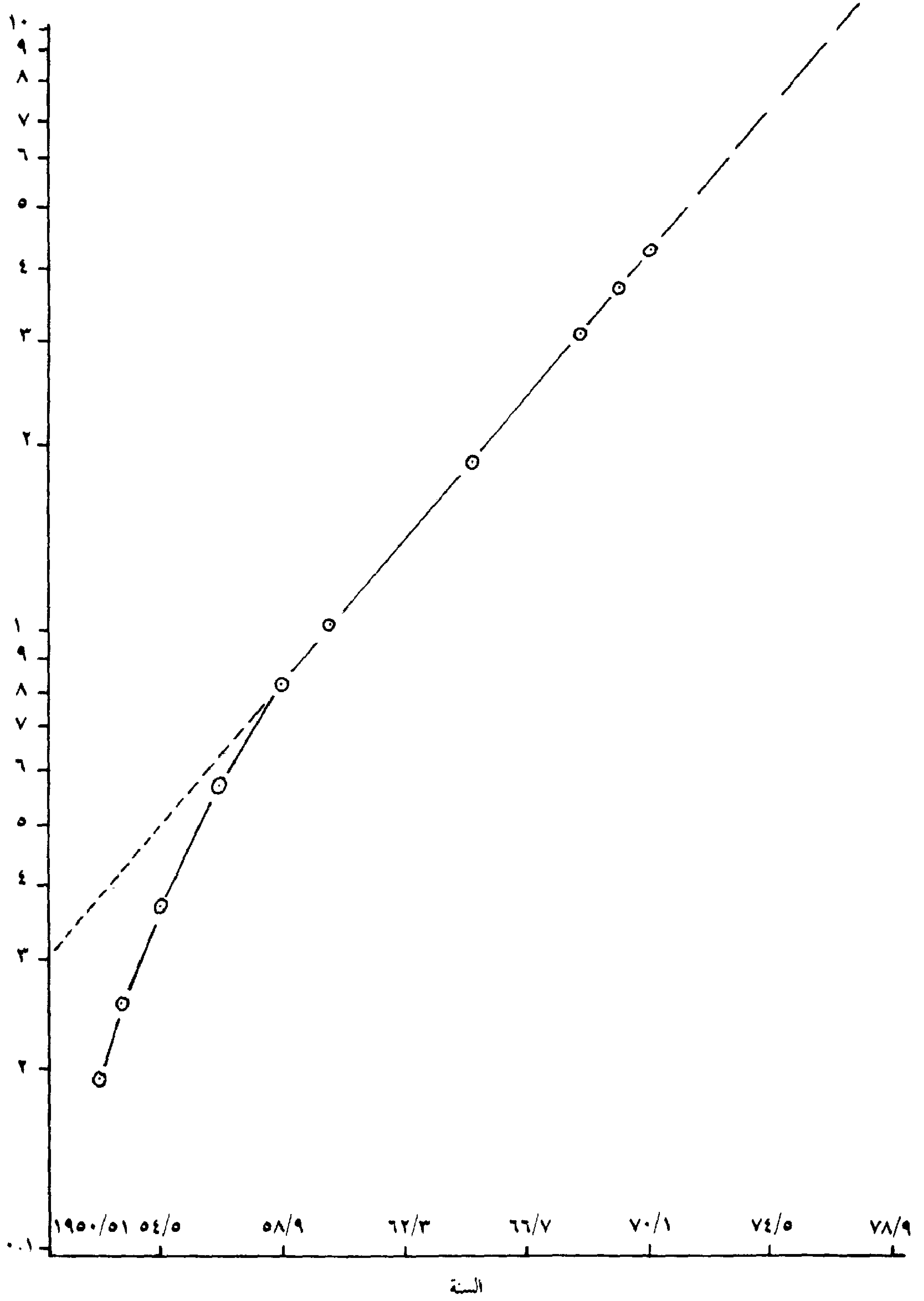
ونحن لا نعرف، بالطبع، أين يوجد هؤلاء الخريجون، إذ أن جزءا صغيرا منهم اختفى ويواصل حوالي ١ ــ ٢ بالمئة دراساتهم بالخارج للحصول على درجات البكالوريوس في العلوم والماجستير أو الدكتوراة. ولا تشمل هذه البيانات الـ ٧٥٠٠٠ شخص من القوى البشرية ذات المستويات العالية والذين كانوا يتابعون كل تعليمهم العالي في الخارج. وخلال عام ١٩٧٦ كان حوالي ١٠٠٠٠٠ من القوى البشرية ذات المستويات العالية يعملون في الخليج والمملكة العربية السعودية وليبيا والجزائر. أما البيانات (١٩٦٢ ــ ١٩٧٦) المتوافرة لدى دائرة الهجرة والتجنس الاميركية، فإنها إذا أضيفت إلى بعضها البعض واستكملت بالنسبة لمطلع تلك الفترة، نجدها ملخصة في الجدول (٦). وإذا قبلنا أن تكون نسبة هجرة العقول إلى المهاجرين إلى العالم الغربي مساوية لـ ٧,٥ فإنه ينتج عن ذلك ١٧٠٠٠ مهندس و ٧٥٠٠ اخصائي في العلوم الطبيعية و ٢٤٠٠٠ طبيب غادروا العالم العربي ويقيمون في بلدان غربية.

وحتى أضفي معنى على هذه الأرقام، فقد جمعت كل المعلومات التي استطعت الحصول عليها بشأن خريجي الجامعات العربية، ما عدا جامعات المغرب والجزائر بسبب النقص في البيانات عن هذين البلدين، لذلك لم أجد مبررا في إدراجها في الجدولين (٥) و (٦). ثم قمت باستكمال كل الأرقام حتى عام ١٩٧٥. ومن هنا، فإن الأرقام الواردة تعطينا فكرة صحيحة عن خريجي عشر دول عربية. ويقل مجموع ٥٨٥٠٠٠ خريج (الجدول ٥) بحوالي ٨٠٠٠٠ شخص عن المجموع الذي يحصل عليه المرء من الشكل (١) لعامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥. ومرد ذلك إلى عدم إدراج بضعة فروع كالفنون الجميلة والدين وغيرها في الجدول (٥).

واعتمادا على ذلك، فإن مجموع الأطباء المصدرين إلى الغرب بحلول عام ١٩٧٥، يشكل نسبة ٥٠ بالمئة من الانتاج الوطني التراكمي للعالم العربي و ٥٠٠ بالمئة من ناتج عام ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥. وحسب الجدول (٤) تجد أن عدد الأطباء اللبنانيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة خلال الأعوام ١٩٦٢ ــ ١٩٧٦ بلغ ٥٩ بالمئة من الناتج التراكمي[٦]. وفي دراسة مفصلة قمت بها عن أنماط الهجرة لخريجي كلية الطب في الجامعة الأميركية ببيروت، وجدت أن ٣٣ بالمئة منهم هاجروا إلى الولايات المتحدة قبل عام ١٩٧٠. أما في ما يتعلق بالفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٧٦، فإن خسائر سورية ومصر بلغت ٢٠٠ بالمئة و ٢٥ بالمئة على التوالي من إنتاجها للأطباء عام ١٩٧٥.

ومن الواضح أن التدفقات من مصر ولبنان وسورية إلى الخارج تمثل جزءا كبيرا من الانتاج الحالي. والأطباء الأردنيون، يهاجرون بالرغم من أن الجامعة الأردنية لم تكن تخرج الأطباء حتى زمن قريب. وأذا تمسكنا بالمضاعف ٧,٥، فإن عدد الأطباء اللبنانيين والسوريين المهاجرين يزيد على عدد المتخرجين من المعاهد الطبية في كلا البلدين. ويؤكد هذا التدفق إلى الخارج على اهمية المعاهد غير المحلية والمصرية، على الأرجح، في إنتاج الأطباء اللبنانيين والسوريين والأردنيين. وفيما يتعلق بلبنان والأردن وسورية، فإنه يبدو أن طلاب الطب، بعد التحاقهم بالخارج، يبقون هناك باعداد كبيرة. وقد يكون المضاعف ٧,٥ مرتفع جدا بالنسبة لبعض المهن أو لبعض الدول الفردية. وتدعم النتائج التي خرج بها (Oldman) و (Gish) عن التدفق إلى الخارج نحو المملكة المتحدة خلال الفترة ١٩٧٥ ــ ١٩٧٧ وحدها، القيمة المرتفعة لهذا المضاعف. وفي تقريرهما أن ٥٥٧ طبيبا عربيا «تم تسجيلهم مؤقتا في المملكة المتحدة للمرة الأولى» في الفترة القصيرة ما بين ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧ (Oldman and Gish 1970). وقد أتى هؤلاء من السودان (٣٣)، مصر (٣١٦)، العراق (١٤٩)، لبنان (١٩)، سورية (٤٠). وقدّر المؤلفان أيضا أن ألف طبيب مستخدم في المملكة المتحدة في عام ١٩٦٧ اتوا من بلدان مثل بورما ومصر والعراق

الشكل (١) العدد التراكمي لخريجي الجامعات العربية × ١٠٠ ألف



والسودان. ومن الطبيعي أن ينوي كثير من الأطباء من البلدان الأقل نموا، والذين يعملون في مستشفيات الدول المتقدمة، تأمين تدريب إضافي ثم العودة إلى أوطانهم. وبعضهم يعود بالطبع، وقد تكون هذه العودة مؤقتة أو دائمة. وتشير بيانات من عدة دول عربية إلى أن معدل عودة الطلاب الذين يدرسون في الخارج بمنح حكومية مرتفع. غير أن هذه العودة تكون مؤقتة أحيانا، ولا يعرف شيء عن دوام العودة بعد الوفاء بالالتزامات القانونية المترتبة على أصحاب المنح.

مناقشة

رأينا أن البيانات المتوافرة مجزاة ولكننا تمكنا بمساعدة مضاعفين من إنشاء نموذج لتقدير

الجدول (٤)

مجموع المهاجرين الى الولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٧٦ (١)

	الاحتصاصيون والعمال الفنيون وما شابههم	المهندسون	الاخصائيون في العلوم الطبيعية	الطب
العراق	١ ٤٥٠	٢٠٠	٨٠	١٧٠
الاردن/ فلسطين	٢ ١٠٠	٢٦٠	٩٠	٢٦٠
الكويت (٢)	٣٠٠	٨٠	٥	٧٠
لبنان	٣ ٧٠٠	٦٠٠	٥٠٠	٨٤٠
سورية	١ ٤٠٠	٢٠٠	١٠	٥٣٠
مصر	٥ ٢٠٠	٧٥٠	٣٤٠	٩٧٠
ليبيا (٢)	٢٠٠	٣٠	١٠	٨٠
المغرب	٤٠٠	٣٠	١٠	٣٠
كل الدول الاخرى (٢)	١ ٧٠٠	١٦٠	٤٠	٣٠٠
المجموع	١٦ ٤٥٠	٢٣١٠	١٠٨٥	٣٢٥٠

(ب) تقدير اجمالي التدفق الخارجي وبسب اجمالي السكّان المؤهلين والناتج السنوي (٣)

٧,٥ × المجموع	١٢٤ ٠٠٠	١٧٠٠٠	٧٥٠٠	٢٤٠٠٠
النسبة المئوية لمجموع السكّان	٢١	٢٣	١٥	٥٠
النسبة المئوية لناتج ١٩٧٥	٢٠٠	٢٣٠	١٨٠	٥٠٠

(١) ان الارقام مبنية على بيانات وزارة العدل الاميركية، قسم الهجرة والتجنس. اما الارقام بالنسبة للفترة ١٩٦٧ ــ ١٩٧١ فقد تم إدراجها.

(٢) تقتصر هذه الأرقام على الفترة ١٩٧٢ ــ ١٩٧٦ فقط. والمهاجرون الموجودون في الكويت، ليبيا، المملكة العربية السعودية وقطر، هم في معظمهم (حوالي ٨٠ بالمئة) من الدول العربية الأخرى.

(٣) النسب مبنية على المعطيات في الجدولين ٥ و ٦.

تدفقات القوى البشرية ذات المستويات العالية من العالم العربي إلى البلدان المتقدمة. وباستطاعة هذين المضاعفين أن يصبحا أكثر دقة، كلما توافر لدينا مزيد من المعلومات الدقيقة.

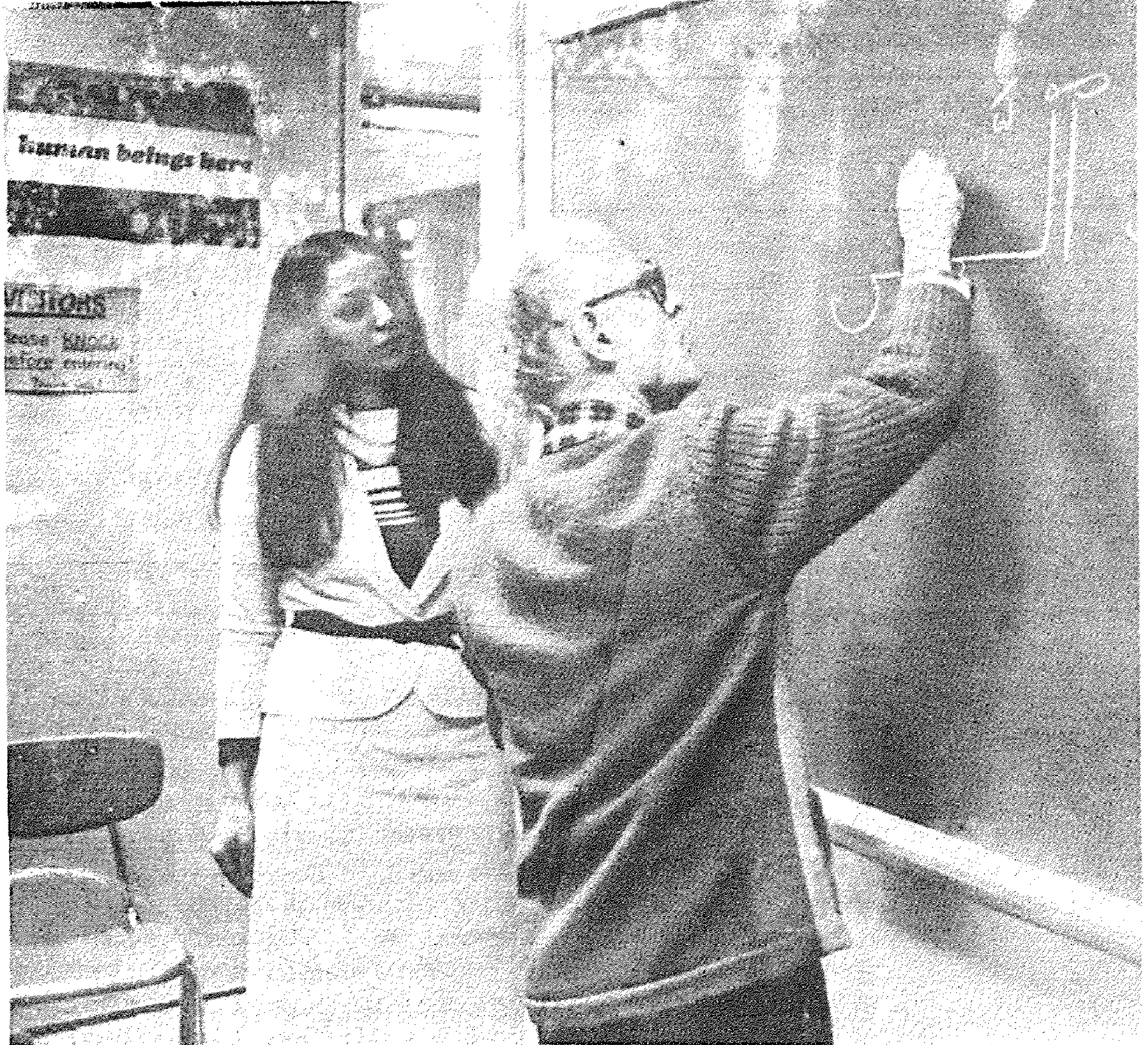
إن البيانات حول الهجرة إلى الولايات المتحدة تبرز عدة سمات هامة، إذ نرى أن عدد المهاجرين العرب قد ازداد أربعة أضعاف عندما اصبحت قوانين الهجرة أقل صرامة في عام ١٩٦٥. كما أن تعديل قانون الهجرة عام ١٩٧١ لم يساهم في الحد من التدفق. وكان التغير في تركيب فئات المهنيين هو نتيجة للتغيرات في سوق العمالة الامريكية أكثر منه نتيجة لتعديل قانون الهجرة.

وقد تغيرت نسبة المهندسين إلى الاخصائيين في العلوم الطبيعية إلى الأطباء من ضمن عدد المهاجرين الذين سمح لهم بدخول الولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٧٦ كالآتي:

السنة	النسبة
١٩٦٢ ـ ١٩٦٧	١,١:١:٢,٢
١٩٦٧	١,٥:١:٢,٥
١٩٧٢	٢,٨:١:٢,٣
١٩٧٦	١٢:١:٥,٦

إن التغيرات التي طرأت على تركيب فئات المهنيين المهاجرين هي نتيجة مباشرة لسياسات الولايات المتحدة في ميداني العلم والتكنولوجيا. فقد قلصت حكومة الرئيس نيكسون في عام

□ صباح مقلد: استاذة اللغة العربية في معهد التاهيل المهني في «ارلنغتون».



١٩٦٨ برامج الفضاء وجمدت مستوى الانفاق على البحوث والتنمية مما أدى إلى ارتفاع مستوى البطالة بين المهندسين والاخصائيين في العلوم الطبيعية. وقد أثرت التغيرات في هذه السياسة، في المدى البعيد، على العلوم الطبيعية أكثر من تأثيرها على مهنة الهندسة. ولم يؤثر تعديل عام ١٩٧١ على الطلب على الأطباء بل استمر في الزيادة استجابة لزيادة تدفق الكفاءات الطبية الذي رافقه نقص في تخريج الأطباء في المعاهد الطبية الامريكية. وهكذا تضاعف التدفق السنوي للأطباء العرب عشر مرات في عشر سنوات.

والجدير بالذكر ان عامل الجذب النسبي للمهنيين العرب في البلدان المنتجة للنفط ليس مرتفعا ولم تقلل الزيادة المفاجئة في الدخل بعد



□ اميل نخلة: استاذ العلوم السياسية، ورئيس دائرة في جامعة «ماونت سانت ماري»، واستاذ مساعد في معهد «اميركان انتربرايز» لابحاث السياسة العامة في واشنطن.

الجدول (٥) . تقدير لعدد خريجي الجامعات العربية . ١٩٥٠ ــ ١٩٧٥

الميدان	مصر	سورية	العراق	لبنان	الأردن	السودان	المملكة العربية السعودية	تونس	ليبيا	الكويت	المجموع
الطب	٣٧ ٢٦٥	٢ ٦١٧	٤ ٩٥٠	١ ٤٢٧	—	٨١٠	—	—	—	—	٤٧ ٠٦٩
الصيدلة	١١ ٦٣٣	١ ٦٢٣	٢ ٢٩٢	٦٦٣	—	—	١٧٥	—	—	—	١٦ ٣٨٦
الهندسة	٥٩ ٧٨٩	٣ ٣٩٢	٦ ٩٦٠	٢ ٧٠٤	—	٨٢٦	٣١٥	—	٥٨٧	—	٧٤ ٥٧٣
الزراعة	٤٩ ٣٦٠	١ ٣٩٨	٣ ٥٥٦	١ ٠٢١	—	٥٩١	١٥٥	٧٢٠	٢٦٩	—	٥٧ ٠٧٦
العلوم الانسانية	٥١ ٦٤٠	١٥ ٠٣٦	١٩ ٣٤٠	٢٧ ٠٧١	٢ ٠٠٦	٣ ١٠٥	١ ٣٤٦	٥ ٤٤٢	٢ ٨٨٥	١ ١٧٩	١٢٩ ٠٥٠
العلوم	٢٣ ٢٣٥	٣ ٩٢١	١٠ ٩١٠	٣ ٧٥٣	٦٨٤	٥٥٨	٦٣٨	٢ ١١٠	٦٢٦	٣٦٩	٤٦ ٨٠٤
القانون	٣٧ ٧٠٩	١٥ ١٦٧	١١ ٥٧٠	٤ ٥٩٤	—	٥٢٥	—	٢ ٣٦٨	٤٣٤	١٨٩	٧٢ ٥٥٦
التجارة	٦٩ ٤٤٠	٧ ٢٦٧	١٠ ١٣٠	٩ ٤٤٤	١ ٥٩٠	—	١ ١٠٧	—	٩٩٦	٧٨٤	١٠٠ ٧٥٨
التربية	١٣ ٦٧٦	٣ ٨١٠	١٧ ٣٧٠	—	٢٧٣	٥٢٧	٦٤٨	٤ ٨٧١	—	—	٤١ ١٧٥
المجموع	٣٥٣ ٧٤٧	٥٤ ٢٣٥	٨٧ ٧٠٧	٥٠ ٦٧٧	٤ ٥٥٣	٦ ٩٤٢	٤ ٣٨٤	١٥ ٥١١	٥ ٧٩٧	٢ ٥٢١	٥٨٥ ٤٤٧

مصادر الجدول (٥):

(١) تم جمع البيانات عن خريجي الجامعات العربية من كل حكومة على حدة، ومما نشر في حولياتهم الاحصائية السنوية، وإحصاءات التعليم للسنوات ١٩٥٠ ــ ١٩٧٠.

(٢) مصادر أخرى:

(أ) Al-Said (1960).

(ب) Cairo University Prospectus (1970).

(ج) جامعة عين شمس (١٩٦٧)، تقويم جامعة عين شمس ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨، القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس.

(د) Al-Malih and al-Ikabi.

(هـ) Unesco (1970).

(و) Waardenburg (1966, Vol. 2).

(٣) تم تقويم البيانات عن خريجي الجامعات السنوية ١٩٧٠ ــ ١٩٧٥، في حال عدم توفرها، على أساس أرقام سجلات السنوات ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠.

الجدول (٦) تقدير العدد السنوي لخريجي البلدان العربية حسب مختلف الميادين . ١٩٧٥ (*)

الميدان	مصر	سورية	العراق	لبنان	الاردن	السودان	المملكة العربية السعودية	تونس	ليبيا	الكويت	المجموع
الطب	٣ ٩٠٠	٢٢٦	٤٧٥	١١٠	—	٧٨	—	—	—	—	٤ ٧٨٩
الصيدلة	١ ٤٣٠	٢٢٠	٣٨٠	٤٢	—	—	٣٤	—	—	—	٢ ١٠٦
الهندسة	٥ ٧٧٥	٤٤٠	٩٢٠	٢٩٥	—	٨٣	٥٥	—	١١٣	—	٧ ٦٨١
الزراعة	٥ ٠٠٠	١٦٠	٤٥٠	٩٠	—	٦٣	٣١	٨١	٦١	—	٥ ٩٣٨
العلوم الانسانية	٢ ٦٣٢	١ ٩٢٠	٣ ١٠٠	٥ ٣٤٦	٢٨٠	٣٥٢	١٩٨	٨٨٠	٥٢٥	٢٣٥	١٥ ٤٦٨
العلوم	١ ٣٧٨	٤٠٠	١ ٦٢٠	٤٠١	١٥٨	٣٥	١٢٧	٤١٠	٥٤	٨٦	٤ ٤٦٩
القانون	١ ٧٨٢	١ ٥٦٠	١ ٠٢٠	٥٢٠	—	٥١	—	٣٨٥	٧٤	٥٢	٥ ٤٤٤
التجارة	٣ ٨٦٧	١ ٠٢٠	١ ١١٠	٢ ٣٧٩	٢٤٦	—	١٥٠	—	١١٩	٢٦٠	٩ ١٥١
التربية	٦٤٠	٣٨٠	٢ ٠٧٥	—	٥٢	١٠٦	١٣٠	٨١٠	—	—	٤ ١٩٣
المجموع	٢٦ ٤٠٤	٦٣٢٦	١١ ١٥٠	٩ ١٨٣	٧٣٦	٧٦٨	٧٢٥	٢ ٥٦٦	٩٤٨	٦٣٣	٥٩ ٤٣٩

(*) انظر هوامش الجدول (٥). وهذه التقديرات مبنية على إسقاط اتجاهات البيانات المتوافرة بالنسبة للعقد الماضي.

عام ١٩٧٣ من التدفق العربي إلى الولايات المتحدة، وعلاوة على ذلك فإن الوضع القانوني والشخصي للمهنيين العرب في البلدان الغربية أفضل منه في البلدان العربية الأخرى. فالظروف المهنية الممتازة مقرونة بقبولهم كمواطنين مخلصين، تصعب قبولهم بالقيود المفروضة عليهم في بعض البلدان العربية فيما يختص بالملكية الخاصة أو بالتصرفات الاعتباطية المألوفة والمرتبطة بالاستخدام.

ومن المفيد أن نذكر بإيجاز بعض الآراء الرائجة والمطروحة في كل ما نشر حول هجرة الكفاءات، ان أكثر الانقسامات وضوحا هو بين الذين يعتبرون التدفق للخارج ظاهرة دولية والذين يعتبرون حركة القوى البشرية ذات المستويات العالية مؤشرا هاما للعمليات الاجتماعية والسياسية في مجتمع قومي. أما النظرة العالمية فتختلف اختلافا كبيرا إذ أن بعض الباحثين يعتبر أن هذا التدفق الخارجي ناجم عن «سطو» متعمد تقوم به البلدان المتقدمة على موارد البلدان الأقل نموا، والبعض الآخر يعتبر أن الهجرة تعكس فائضا في عرض القوى البشرية ذات المستويات العالية في البلدان الأقل نموا وان الهجرة من هذه البلدان المتقدمة تؤدي إلى تخفيف العبء عنها.

وقد تم تبني نهج «المؤشر» في هذه الدراسة: فالتدفق إلى الخارج يعكس تأدية النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية لوظائفها في البلدان الأقل نموا، وبالتالي فهو ذو فائدة كبرى بالنسبة لمخططي التنمية. وهنا فإن التأكيد ليس على تحليل الخسارة أو الربح، بل على تلك العوامل الثقافية والمهنية والمؤسسية التي تساهم في هذا التدفق إلى الخارج.

ولقد استعرضت، بإيجاز، في دراسة أخرى، هذه الآراء تحت عناوين ثلاثة: الرؤية القومية للبلدان الأقل نموا، الرؤية الانسانية، رؤية البلد المتقدم (Zahlan 1977).

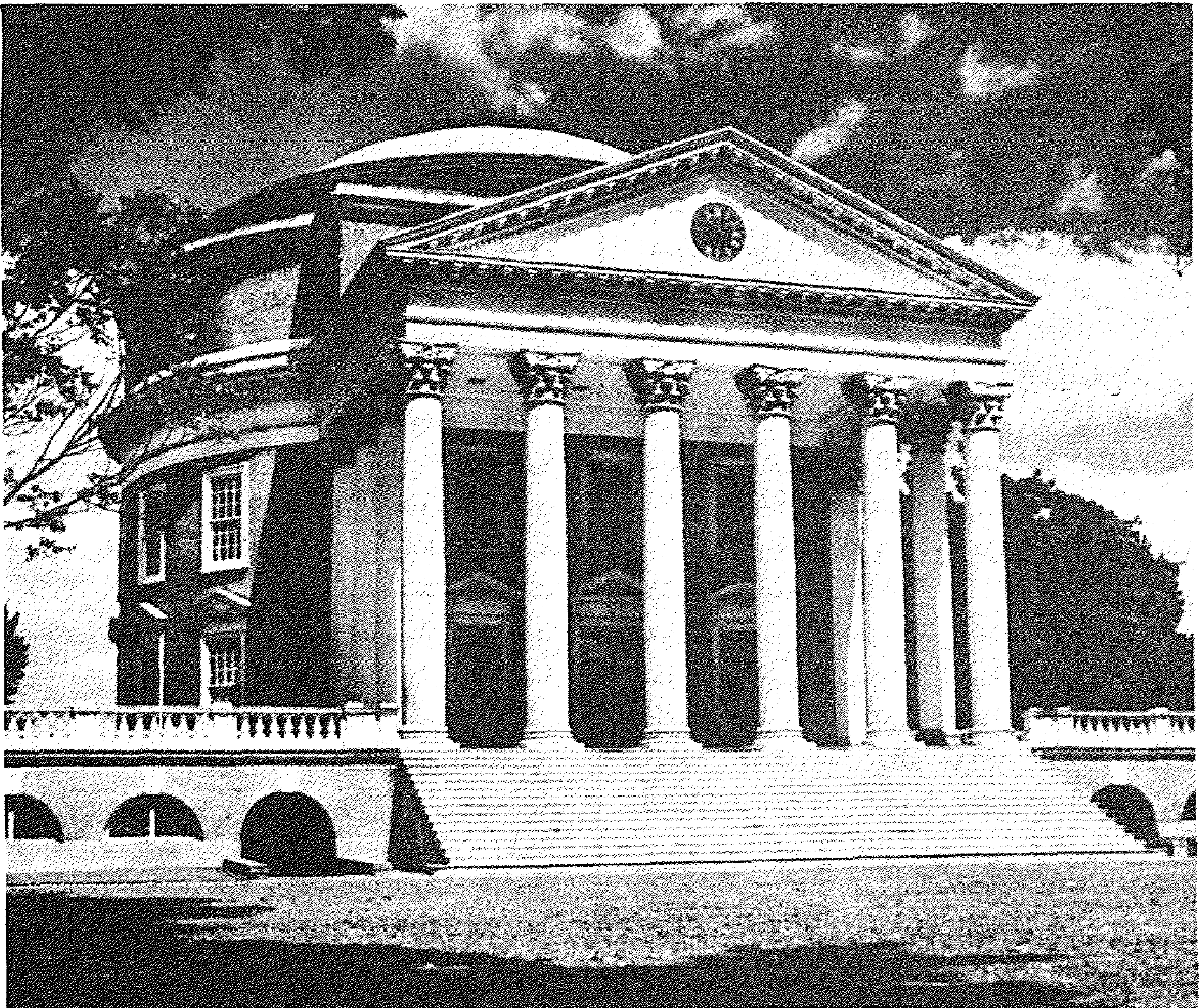
وفي الآونة الأخيرة، دافع مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (UNCTAD) عن مبدأ اعتبار هجرة الكفاءات كنقل عكسي للتكنولوجيا. وقد تم بذل جهد كبير في حساب القيمة النقدية «لبرنامج المعونة هذا والذي تقدمه البلدان الأقل نموا إلى البلدان المتقدمة». ونظم مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية اجتماعا للخبراء الحكوميين حول موضوع النقل العكسي للتكنولوجيا في جنيف، من ٢٧ شباط (فبراير) إلى ٧ آذار (مارس) ١٩٧٨ قدمت فيه سبع دراسات. وكانت أكبر مساهمات هذا الاجتماع هي الدراسات التي صممت لتطوير مقاييس حسابية مناسبة

الجدول (٧) . الخطط الطويلة الأمد لمجموعات الطلاب الأساسية

بلد المنشأ	العائدون الى الوطن والمستقرون فيه نهائيا	قد يعودون الى الوطن ويستقرون فيه	عودة غير أكيدة	يذهبون الى الخارج ويستقرون هناك على الأرجح	يذهبون الى الخارج ويستقرون فيه حتما	مجموع الطلاب في المسح
الشرق الأوسط						
وشمالي افريقيا	٣٤٪	١٨	١٠	١٣	٢٥	٦٦٤
تونس	٦١٪	٢١	٧	٦	٥	١٢٤
مصر	١٥٪	١٥	٩	٢٠	٤٠	١٩٢
ايران	٤٢٪	٢١	١٨	٧	١٢	١٢٥
لبنان	٣٩٪	١٥	١٣	١٥	١٨	١٣٥
تركيا	٢٧٪	٢٧	٢٤	٠	٢٢	٣٥

المصدر: Glaser 1978, p. 27

□ جامعة فرجينيا ــ الولايات المتحدة الاميركية.



لتحويل التدفق الخارجي للقوى البشرية ذات المستويات العالية من البلدان الأقل نموا إلى تعويض مادي تدفعه البلدان المتقدمة إلى البلدان الأقل نموا. وقد تم أيضا طرح طرق مختلفة لجمع (ضرائب) ولطريقة دفع هذا التعويض وإدارته[٧]. وكما يمكن للمرء أن يتوقعه، فإن معظم هذه النظريات قد منيت بالرفض من قبل مندوبي البلدان المتقدمة لأسباب فنية وغير فنية. ومن المشكوك فيه جدا أن يكون مصير النهج الذي تبناه خبراء الاستراتيجية في مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية أكثر نفعا من النهج الذي اتبعه الحوار بين الشمال والجنوب أو مدونة قواعد السلوك.

غير أن أكثر آثار نهج مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ضررا هو نقل مشكلة هجرة الكفاءات من البلدان الأقل نموا حيث نشأت، إلى ميدان العلاقات الدولية. ان استغلال القوى البشرية ذات المستويات العالية على الصعيد التجاري يشكل إحدى النتائج المؤسفة الناجمة عن كثير مما كتب عن الموضوع. ومن اليسير جدا، تحديد مقدار تكاليف التعليم والتفاوتات في الدخل، ونسيان الأسباب الجوهرية للعملية.

بعض الآراء العربية

سجلت في العالم العربي ردود فعل حكومية وغير حكومية تجاه موضوع هجرة الكفاءات. وكانت ردود الفعل الحكومية على شكل دراسات وإجراءات غير كاملة لتعزيز العودة من البلدان الغربية. وسنستعرض بعض ردود الفعل هذه بإيجاز.

يعتبر التدفق إلى الخارج من لبنان، وهو بلد رائد في تصدير القوى البشرية ذات المستويات العالية، كجزء من «الاشعاع الثقافي اللبناني». وتشجع الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتكررة التي تهز البلاد هذا التدفق إلى الخارج. ولدى لبنان وزارة للشؤون الخارجية والمغتربين، لكن يبدو أن اهتمام لبنان بهذا الموضوع ينتهي عند حدود هذه الوزارة. وتنشر الصحافة مقالات قصيرة عن هجرة الكفاءات كلما ظهر تقرير جديد عن الموضوع في مكان ما. فقد نشرت مجلة الصياد الاسبوعية، على سبيل المثال، مقالا يستند إلى دراسة قام بها الكونغرس الاميركي بعنوان «الولايات المتحدة تسرق علماءكم» (الصياد ١٩٦٧). وفي عام ١٩٧١ نشرت صحيفة (L'Orient) تقريراً أعدته جامعة القديس يوسف عن أزمة التعليم العالي في لبنان وفيه بعض الاهتمام بهجرة الكفاءات (L'Orient 1971). وفي عام ١٩٧٤ نشر من جديد، مقال وجيز، كتب في دمشق ويشير إلى هجرة الكفاءات خلال الفترة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦ (L'Orient-Le Jour 1974) لكن الاهتمام بهجرة الكفاءات لم يتعد أبدا الاعراب عن هذا الاهتمام إلى اتخاذ مبادرة عملية للحد منه[٨].



□ قيصر فرح: استاذ دراسات الشرق الاوسط والدراسات الاسلامية بجامعة «مينسوتا».

لقد كان الاهتمام الذي أظهرته الحكومة المصرية والصحافة متكافئا بينهما، وخضع لتغير كبير في الفترة ١٩٦٦ ــ ١٩٧٨ استجابة للتغير الاجتماعي والاقتصادي الداخلي. ويقلل التقرير الذي أعده أنور قريطم ومدحت حمدي (Kuraitem, Hamdi 1966)، بشكل اساسي، من أهمية هجرة الكفاءات المصرية ويبسط ملابساته، بأخذه في الاعتبار فقط الـ ١٤٨ مصريا الذين لم يعودوا إلى بلدهم، كما تنص عليه شروط منحهم الدراسية. وفي عام ١٩٦٩ اصدر حمدي رشاد في القاهرة دليلا لمساعدة المصريين الراغبين في الهجرة (رشاد ١٩٦٩). وفي تلك السنة بدت مصر وكأنها تنتهج سياستين

متناقضتين: فقد كانت الهيئة المركزية للادارة الحكومية تنصح بسن تنظيمات جديدة بهدف تشجيع هجرة خريجي الجامعات (سامي ١٩٦٩)، في حين أعلن الدكتور مصطفى طلبه وكيل وزارة شؤون التعليم العالي أن مصر تدعو اليونسكو «إلى إصدار تعهد دولي تمنع بموجبه الدول الأعضاء الطلاب الأجانب بالبقاء فيها بعد إتمام دراستهم (Daily Star 1969). وذكر عبد الوهاب مطاوع أن هناك ٥٠٠٠٠ مصري في الخارج وأنه من المرتقب أن تبلغ ودائعهم من العملة الأجنبية في البنوك المصرية في عام ١٩٦٩ حوالي ٥ ملايين جنيه مصري، وان حجم الودائع سيزداد بزيادة التشجيع على الهجرة (مطاوع ١٩٦٩). وذكر الكاتب نفسه أن عدد المصريين الذين ذهبوا إلى الخارج كان ٢٠٠٠ عام ١٩٦٥ و ٧٠٠٠ عام ١٩٦٦ و ٦٠٠٠ عام ١٩٦٧ و ٢٣٠٠٠ عام ١٩٦٨.

وبعد ذلك بقليل كتب فهمي هويدي أن وزيري الري والصناعة يخسران موظفين هندسيين هما في حاجة إليهم، وان من بين الـ ٢٨٠٠٠ شخص الذين طلبوا بأن يسمح لهم بالهجرة خلال الستة اشهر الأولى عام ١٩٦٩، هناك ١٥٠٠٠ من خريجي الجامعات أو الفنيين. وبالرغم من هذه الاتجاهات، فقد كان الرأي السائد بين عدد من الوزراء هو أن عامل الجذب الذي يمارس على القوى البشرية المصرية ذات المستويات العالية لا يمكن مقاومته، وان بإمكان مصر، في أحسن الأحوال، التقليل من عوامل الدفع، كما أن طريق العمالة بالخارج يجب أن تظل مفتوحا، ويجب أن لا يعامل المصريون الذين استقروا بشكل دائم في الخارج كمجرمين بل يجب تحسين وسائل الاتصال بهم (هويدي ١٩٦٩). وقد تم الابقاء على سياسة الباب المفتوح، وزاد تدفق المصريين إلى الخارج بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٨ بمعدل سريع جدا. وقد يكون عدد المصريين الذين يعملون بالخارج والمقدر بـ ٥٠٠٠٠ شخص في عام ١٩٦٩ قد ارتفع إلى أكثر من مليون شخص في عام ١٩٧٨.

لقد تطورت فكرة تحسين الاتصالات بالعلماء المصريين الذي يعيشون بالخارج ببطء. فقد كتب صلاح جلال في عام ١٩٧١ مقالا عن العلماء المصريين في الولايات المتحدة مع بعض الاشارة إلى أوروبا (جلال ١٩٧١). وبحلول ذلك الوقت كان بإمكان العالم المهاجر أن يسافر إلى مصر ويؤمن الاذن له بالمغادرة دون صعوبة. وفي عام ١٩٧١ انعقدت الاجتماعات التمهيدية لما أصبح يسمى بـ «جمعية أصدقاء العلماء المصريين بالخارج» في حين كانت «جمعية العلماء المصريين الاميركيين» قيد الانشاء في الولايات المتحدة. وقد نظمت هاتان الجمعيتان في عام ١٩٧٤ مؤتمرا في القاهرة حول «مصر بين اليوم وعام ٢٠٠٠» بإشراف الرئيس أنور السادات.

بيد أن الشعور بالغبطة المنعكس في الاتجاه السابق لم يكن يلقى الترحيب في كل الأوساط المصرية. ففي عام ١٩٧٢ كتب رشدي سعيد عن هجرة الكفاءات المصرية والأوهام التي نجمت عنها وبدأ تحليله بالتذكير بسحب السلطان سليم للقوى البشرية الفنية من مصر في عام ١٥١٧، وأكد أن خسارة هذه القوى البشرية الفنية آنذاك ادت إلى انحطاط اقتصادي واسع النطاق في مصر. وقدر أن عدد أولئك الذين غادروا مصر إلى الآن تجاوز ١٥٠٠٠٠ شخص ثم لاحظ أن انحطاطا واضحا في كل الأعمال الفنية قد حل نتيجة لهذا التدفق الخارجي. وانتقد السياسة السارية وكانت حجته في ذلك أن التحويلات المالية لا تستطيع أن تعوض عن الخسائر الهائلة (سعيد ١٩٧٢). وفي عام ١٩٧٣ خصصت مجلة «الطليعة» في عدد نيسان ١٩٧٣ حوالي ٤٧ صفحة لموضوع «هجرة الكفاءات». وقد ركزت المقالات المنشورة على عوامل الدفع في نقد للسياسات المصرية الراهنة والنتائج الاقتصادية الناجمة عن تدفق القوى البشرية إلى الخارج. وناقشت المقالات تناقضات السياسة العامة، حيث قابل المرسوم الرئاسي لانشاء لجنة للعمل على تشجيع الهجرة بين أفراد الشعب، توصية اصدرتها لجنة وزارية لايقاف الحملة الداعية إلى الهجرة (الطليعة ١٩٧٣، ص ٣٧). ولفت عدد من المعلقين في هذا الحوار العام في مصر الانتباه إلى ندرة المعلومات والتحليل الدقيقين. ولا يزال الفكر المصري منقسما حتى اليوم وعلى الرغم من سياسة الباب المفتوح المنتهجة.

وقد واجهت القطاعات العامة والخاصة في

البلدان المنتجة للنفط، مشكلات قليلة في تأمين خدمات القوى البشرية ذات المستويات العالية. وعلى سبيل المثال، نجد أن الكويت التي لا تملك الميزات التعليمية والتاريخية التي يتمتع بها لبنان، قد تمكنت من إنشاء فئة من القوى البشرية ذات المستويات العالية مشابهة، على صعيد الفرد، للفئة اللبنانية. وتوفر دول الخليج والمملكة العربية السعودية رواتب أفضل من تلك التي توفرها أوطان المغتربين العرب.

أما حكومة العراق فقد انتهجت استراتيجية مختلفة إذ أصدرت في عام ١٩٧٤ القانون رقم (١٨٩) الذي يشجع أصحاب المستويات العالية من العراقيين على العودة إلى الوطن، ولكن الاستجابة لهذا القانون لم تكن مشجعة. لذا صدر في عام ١٩٧٤ القانون رقم (١٥٤) الذي ينص على أن يتمتع العراقيون الذين عادوا قبل إصدار القانون (١٥٤) وأولئك الذين استجابوا لهذه الدعوة ببعض المنافع العادية (كالحق في استيراد سيارة معفاة من الرسوم الجمركية)، وقد عاد حوالي ٧٠٥ أشخاص إلى الوطن استجابة لهذا القانون الجديد، ومعظم العائدين من خريجي عام ١٩٧٤، ولم يعد من أولئك الذين تخرجوا قبل عام ١٩٧٠ سوى عدد قليل (Abdel Jaber 1978).

أسباب هجرة الكفاءات

يوجد في الوقت الحاضر عدد من الدراسات عن أسباب هجرة الكفاءات(٩). وليس ثمة ما يدعو هنا إلى استعراض المفاهيم والمبادىء الأساسية. وبالتالي فإننا سنبحث موضوع التدفق إلى الخارج بالنسبة لعدد من العوامل التي لم تستوف بشكل كاف.

إن النموذج الهيدروديناميي لهجرة الكفاءات يحظى بقبول واسع، وهو مسؤول عن «التدفق» بمعنى الدفع من قبل البلدان الأقل نموا، والجذب من جانب البلدان المتقدمة. ويشبه سلوك القوى البشرية ذات المستويات العالية سلوك سائل لا يضغط وينتهي في المكان الذي يدفع أو يجذب إليه. وفي هذا النموذج الحتمي لا يستطيع المرء سوى التساؤل عن عدم هجرة الكثيرين حتى اليوم، وعن طريقة استغلال المرء لهذه السلعة من سلع القوى البشرية تجاريا. وهكذا فإن النهج الذي اتبعه مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية في تناول مشكلة هجرة الكفاءات تحت عنوان «النقل العكسي للتكنولوجيا» (reverse transfer of technology) يقبل النموذج ويحاول أن يبرر اقتصاديات العملية. والقضية التي يثيرها نوع التحليل الذي يقوم به مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية تتلخص في الطريقة التي استطاعت بها البلدان المصدرة للقوى البشرية ذات المستويات العالية الحصول على حصتها العادلة من الأرباح الناجمة عن استهلاك قواها البشرية في البلدان المتقدمة. وعلى الرغم من الشعبية التي يحظى بها النموذج الهيدروديناميي في البلدان الأقل نموا، والاهتمام الذي أبداه العالم الثالث في تأمين بعض المدفوعات مقابل صادراتها عن القوى البشرية، فإنني سأسلك نهجا مختلفا في البحث. فالنهج المتبع هنا ينسجم مع الاتجاه الشامل لهذه الدراسة: أي أن هجرة الكفاءات ليست سوى مؤشر على الأحداث والعمليات الجارية في البلدان الأقل نموا، ولفهم العملية بشكل أفضل علينا أن ندرس وضع البلدان الأقل نموا ووضع المهاجرين من الكفاءات.

الاستفادة المثلى من الاختيار الشخصي

يحاول الشخص الذي ينتمي إلى القوى البشرية ذات المستويات العالية، بوصفه كائنا بشريا عاقلا، أن يختار طريق عمل يفيده في حياته إفادة مثلى. وهو يحاول التقليل من التعرض للمخاطرة، وزيادة دخله، وأمن أسرته في المدى البعيد. وهذا النوع من السلوك يتعارض بالطبع مع الافتراضات الأساسية للفكر الانمائي حيث أن الاستراتيجية من الناحية النظرية على الأقل، تمثل في الاستفادة القصوى من كل العوامل التي تحكم المجتمع لا الفرد أو المنافع القصيرة الأجل. وقد ناقشت بعض هذه المواقف والاستراتيجيات في دراسة أخرى (Zahlan 1973, pp. 43-58). وباختصار، فهناك استراتيجيتان في أي مجتمع بإمكان الفرد والدولة اتباعهما: وقد وصف هاردينغ (Harding

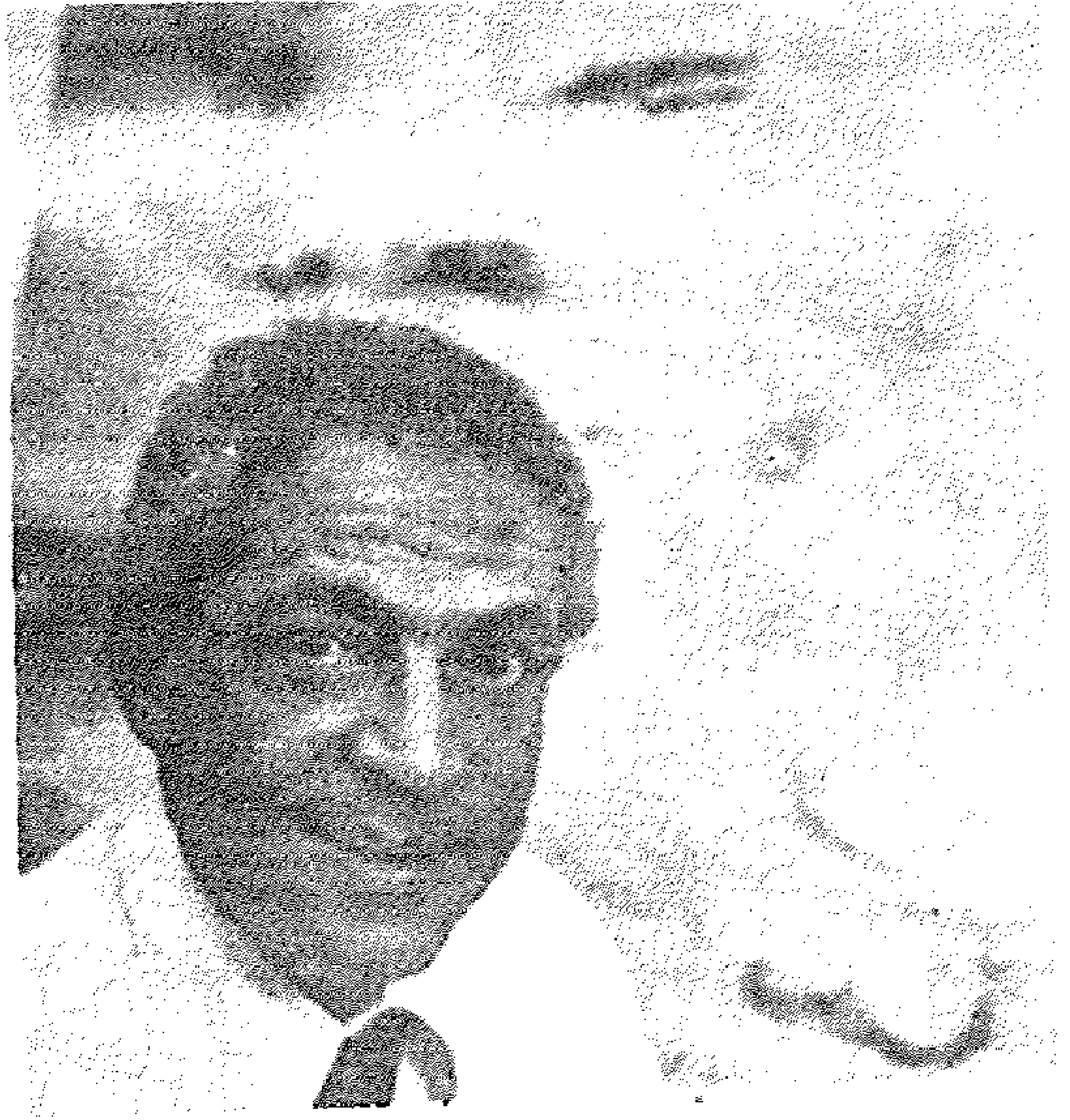
1970, p. 4442) هاتين الاستراتيجيتين بأنهما نشدان الفعالية، ونشدان الحقيقة. ويحاول الباحثون عن الفعالية أن يستثمروا حياتهم ورساميلهم في المشروعات والأماكن التي يستطيعون أن يستفيدوا منها استفادة قصوى في المدى القصير. وتؤدي مثل هذه السياسة إلى هجرة المهنيين من القرية إلى المدينة، ومن المنطقة الفقيرة في المدينة إلى المنطقة الغنية فيها. ومن هنا، نجد تجمعا كبيرا من الأطباء في رأس بيروت، وعددا قليلا منهم في الدورة والبقاع أو جنوب لبنان (٧٨ بالمئة من مجموع الأطباء اللبنانيين موجودون في بيروت). وعلاوة على ذلك فإن الأطباء يهاجرون بأعداد كبيرة من العراق ومصر ولبنان إلى فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة وكندا. أما الباحثون عن الحقيقة فإنهم يحاولون إنفاق حياتهم ورأسمالهم في مشاريع ومجالات تمليها عليهم الاحتياجات والعدالة الاجتماعيتان. والهدف من وراء ذلك هو التقليل من المظالم الاجتماعية. وحيث أن الفجوة بين الفقراء والأغنياء وبين الأثرياء والمعدمين كبيرة في المجتمعات النامية، فإن الباحثين عن الفعالية يساهمون في توسيع هذه الفجوة وترسيخها. ولذلك يرى الباحثون عن الحقيقة أن استراتيجية البناء على القوى الراهنة في حد ذاتها أمر غير مسؤول وجائر اجتماعيا. وليس باستطاعة المرء، في المدى البعيد، إنشاء مجتمع مبني على قواعد قوية ووطيدة دون أن يتبنى سياسة يتم فيها نشر التنمية في المجتمع بأسره. وفي رأي الباحث عن الحقيقة أن الحلول الفعالة القصيرة الأجل تفضي إلى مزيد من عدم العدالة الاجتماعية والصراع الطبقي (مثال ذلك إيران). وهكذا فإن الباحث عن الحقيقة يقرر أن يعمل في صعيد مصر أو جنوب اليمن ليس لأن العمل سيعود عليه بمكافآت مالية كبيرة، بل لأن الناس هناك في أشد الحاجة إلى خدماته. ويفسر (Harding) الثورة الثقافية في الصين في ضوء ذلك، أي كمحاولة لتأمين التنمية والتحديث مع العدالة الاجتماعية.

ويمكن للمرء أن يقول دون أن يخطىء، أن لا وجود للباحثين عن الحقيقة في العالم العربي حتى نتحدث عنهم. وقد ذكر نبيل أ. شعث (Shaath 1965, p. 201) أن ٦٠ بالمئة من المهندسين الزراعيين و ٧٨,٥ بالمئة من خريجي المعهد الطبي و ٧٤ بالمئة من خريجي التجارة في مصر في أوائل الستينات كانوا يعملون في القاهرة والجيزة والاسكندرية. ويشكل مجموع سكان هذه المدن ١٨ بالمئة من مجموع سكان مصر. ولا يختلف هذا الوضع عند خريجي الجامعات في الدول العربية الأخرى. وقلة هم المهندسون الزراعيون الذين يعيشون ويعملون مع المزارعين الذين هم في أمس الحاجة لخبرتهم بحيث يساهمون في تطوير الزراعة ونوعية الحياة الريفية.

وما من شك في أن للباحثين عن الفعالية من العرب حججا ممتازة يتحججون بها للهجرة إلى المدن وإلى الولايات المتحدة. لذلك نجد أن نظام التعليم في البلدان الأقل نموا يمجد فضائل نشدان الحقيقة. وعندما يواجه الشباب التناقضات العنيفة بين المثل المطبوعة في النفس وبين حقائق نشدان الفعالية في السياسات العامة والخاصة، فإنهم يتزعزعون بعنف وينعزلون بالتدريج عن مجتمعاتهم. وقد أشارت الدراسات الحديثة التي لم تنشر عن النزوع إلى الهجرة، إلى أن انسلاخ الشباب عن مجتمعهم يبدأ في وقت مبكر نوعا ما في المرحلة الثانوية ويزداد خلال سنوات التعليم الجامعي. والتحقيق الذي قام به (Glaser) في أوجه هذه المشكلة يظهر في الجدول (٧) من هذه الدراسة. ويتضح من دراسة (Glaser) أن الطالب الأجنبي ينفر من العودة إلى وطنه حتى قبل أن يواجه مشكلاتها.

هجرة الكفاءات والفكر الانمائي

إن الفكر الانمائي في العالم العربي يسيطر عليه، عمليا، الفكر الغربي المبني بدوره على التركيز على الفعالية الاقتصادية للمشاريع. وخطط التنمية العربية هي مجموعة من المشاريع يعتقد أن فائدة كل واحد منها تتناسب مع كلفته. وتستخدم الصناديق العربية أساليب المصرف الدولي للانشاء والتعمير والأساليب الغربية في «تقييم المشاريع» وإجراءات اتخاذ القرارات بالنسبة لاختيار مستشاري ومقاولي المشاريع. والاعتماد شبه الكلي على «نهج تسليم المفتاح



□ الأستاذ فاروق الباز، الجيولوجي العربي الكبير، الذي كسب شهرته كمخطط علمي لرحلات ابولو إلى القمر. يعمل في متحف مؤسسة سميثسونيان للجو والفضاء.

باليد» (turnkey approach)، الذي لا يتطلب من الدولة المعنية قدرة تقنية على تخطيط المشاريع وتنفيذها، هو من وضع ناشدي الفعالية العرب الذي يسعون إلى الحصول على المكافآت المثلى في الأمد القصير. وهناك دراسات غربية وسوفياتية كثيرة تنتقد هذا الأسلوب في التفكير. بيد أن التخطيط الانمائي في العالم العربي لا يعكس أي وجه من أوجه التجربة العربية أو البحث المتقدم في هذا الموضوع.

وبإيجاز، فإن الفكر الانمائي في العالم العربي يتطلع إلى خلق «جيوب عصرية» (modern enclaves) يستطيع فيها المنتفعون بالتنمية الاقتصادية أن يمارسوا الأساليب العصرية في حياتهم. وليس هذا، بالطبع، هدفا قوميا معلنا بل هو نتيجة واضحة للسياسات العامة. ان السمة المميزة للباحث العام عن الفعالية، بالمقابلة مع الباحث الخاص عن الفعالية، هي أن الأول يحاول أن يصل إلى حلوله المثلى داخل الحدود الوطنية وتخوم «الجيب العصري». ان تطور الفكر المصري حول موضوع هجرة الكفاءات بين ١٩٦٦ و ١٩٧٤ يظهر القبول المتدرج لسلوك نشدان الفعالية على صعيد الفرد بعد ممارسته على صعيد الدولة بوقت طويل، وان ما يثير الدهشة هو أن بعض المراسلين يتساءلون عن السبب وراء وجود ٧٠ بالمئة من مشاريع «الباب المفتوح» (open doors) في القاهرة ووجود البقية في الاسكندرية والجيزة. ان الجيوب العصرية موجودة داخل المراكز الحضرية الكبرى وهي الأهداف الأساسية للتخطيط الانمائي الباحث عن الفعالية (غيث ١٩٧٨).

ان طاقة الجيب العصري على الاستيعاب هي عامل أساسي في تدفق القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى الخارج. كما أن المستشفيات التي تتطلب خدمات موظفين طبيين متخصصين إنما تخدم طبقات محددة من المجتمع في البلدان الأقل نموا. ولا تملك حكومات البلدان الأقل نموا الموارد لتقديم هذا النوع من الخدمة لكل مواطن. ومع ذلك فإن التعليم الطبي في معظم الدول العربية مماثل للتعليم الطبي الغربي، وهكذا فإنه موجه نحو المعالجة في المستشفى بدلا من الوقاية. لذا يجب على «فائض الأطباء» أي، الأطباء الذين ليس بوسعهم أن يجدوا عملا بالمستشفى أو مرضى من الطبقة المتوسطة، أن يهاجروا إلى الخارج. وليس مطلوبا من المهندسين والعلماء أن يخططوا أو ينفذوا مشاريع «تسليم المفتاح باليد» التي لا تتطلب التقنية من قبل المستفيدين. وهنا، أيضا، ليس بإمكان الباحثين عن الفعالية أن يضيعوا جهودهم في بناء قدرات ومؤسسات وطنية، إذ أن إرسال الابن إلى اوكسفورد أو معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وإيكال مهمة تنفيذ المشاريع الجدية إلى شركات أجنبية ذات كفاءة دولية ثابتة، أمر أكثر فعالية وأمنا وسرعة.

وعلى أساس هذا النهج تطرح مشكلة هجرة الكفاءات بشكل معكوس: ما علينا أن ندرسه ونفسره هو سبب بقاء عدد كبير من القوى البشرية ذات المستويات العالية في بلدانها.

هجرة الكفاءات، المركز والمحيط

لقد طور علماء اميركا اللاتينية مدرسة التبعية الفكرية القائلة بأن بلدان العالم الثالث تحكمها أقلية من السكان تشكل القطاع الحديث الذي يعتبر جزءا من النظام الرأسمالي العالمي. وليس

لتحرك القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى داخل الجيب العصري، أو منه إلى خارجه، أو بتحركها نحو البلدان المتقدمة او منها، علاقة تذكر بالتنمية. فهذا التحرك هو في الواقع منافسة بين فئات النخبة في المركز والمحيط. والعلاقة الوحيدة بين الجيب العصري و ٧٠ إلى ٩٠ بالمئة من القاعدة السكانية هي من خلال «مفعول التسيب» (trickle effect). ان الاقتصاد التقليدي برمته يقع خارج التخطيط الانمائي أو التفكير الاجتماعي والاقتصادي السائدين.

وحسب نهج التبعية، فإنه لا يمكن تحقيق انخفاض في تدفق القوى البشرية ذات المستويات العالية إلى الخارج إلا من خلال التغيير في توزيع الدخل، وتغيير العلاقة بين القطاعين التقليدي والحديث. ونجد في الواقع أن هذه المدرسة الفكرية، متشائمة تماما بشأن إمكانية إيجاد حلول للمشكلات الاقتصادية للبلدان الاقل نموا في إطار نظام الفكر الاقتصادي الراهن[١٠].

هجرة الكفاءات والتعليم العالي

إن النظم العربية للتعليم العالي تهيء شبابها للعيش الحضري ولسد حاجات الجيب العصري. ولا تشير العمليات التربوية سوى إشارة ضئيلة إلى القطاع التقليدي للاقتصاد أو حتى إلى المشاريع الضخمة التي انجزت، أو هي قيد الانجاز. كما أن أفكار الأساتذة وطرق تعليمهم والكتب المستعملة هي أجنبية في معظمها. فلا عجب إذن من نزعة العزلة المرافقة للعملية التربوية، وعليه فإن الهجرة الداخلية للكفاءات والتنافر بين المجتمع بكل مشكلاته وحقائقه والقوى البشرية ذات المستويات العالية تعتبر جميعها مؤشرات للقلق الثقافي.

الهجرات الاقليمية للقوى البشرية ذات المستويات العالية

لقد أشرنا فيما سبق إلى أن ١٢ إلى ١٥ بالمئة تقريبا من مجموع القوى العربية ذات المستويات العالية قد هاجرت إلى دول الخليج والمملكة العربية السعودية وليبيا. ويفسر البعض هذا التدفق إلى الخارج بأنه انعكاس للتضامن العربي والتعاون بين العرب. وتثني البلدان



□ جامعة اكسفورد ــ انكلترا.

المصدرة للقوى البشرية ذات المستويات العالية على نفسها لمساعدة الدول العربية الشقيقة، في حين أن مواقف البلدان المضيفة تتراوح بين الارتياب والرضى. وقد آن الآوان، دون شك، للقيام بدراسات ميدانية مفصلة لوصف الحقائق بدقة. ويجب أن يلفت مجال البحث هذا انتباها كبيرا في البلدان المستوردة للقوى البشرية ذات المستويات العالية وفي البلدان المصدرة لتلك القوى على حد سواء.

استنتاجات

لقد حاولنا في هذه المناقشة لهجرة الكفاءات التأكيد على الأوجه التي تمت بأوثق الصلات إلى مجتمع نام. ويختلف مفهوم «هجرة الكفاءات» باختلاف الناس. ويبدو لي ان القضايا الجوهرية قد ضاعت في خضم المعاملات المعقدة بين الشمال والجنوب وفي استغلال القوى البشرية تجاريا. إن البلدان الاقل نموا قد تضيع وقتا ثمينا في سعيها لمعالجة المشكلة على طريقة مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، أو حسب مدونة قواعد السلوك. وقد اتخذ عدد كبير من البلدان الأقل نموا مجموعة كبيرة من الاجراءات

لتشجيع العودة إلى الوطن مثل تأمين مناصب امتياز ومنح دراسية ومكافآت مالية وسحب جوازات السفر إلى غير ذلك. ولكن هذه الاجراءات لم تحرز سوى نجاح محدود جدا.

وقد تساءلنا في هذه الدراسة عن سبب بقاء العديد في بلادهم أكثر من تساؤلنا عن سبب هجرتهم. ومهما يحدث فإن حوالي ٨٠ بالمئة من مجموع القوى البشرية ذات المستويات العالية هم في أوطانهم، وأن حوالي ٣٠ ــ ٧٠ بالمئة من حملة الدكتوراة العرب في الهندسة والعلم قد عادوا إلى أوطانهم بمحض إرادتهم. ونحن نشعر بأن نقطة البداية لأي برنامج فعال للقوى البشرية هو في تعلم الطريقة التي تؤدي إلى زيادة إنتاجية القوى البشرية المتاحة حاليا، وطريقة دمج هذه القوى ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا، وطريقة تطوير المؤسسات العربية. ان عددا كبيرا من القوى البشرية ذات المستويات العالية يهاجر بدافع اليأس. وينبغي تقويم الظروف التي أدت إلى ذلك، بصرف النظر عما إذا كان أولئك الذين هاجروا من الوطن قد عادوا أم لم يعودوا. وبعد كل ما تقدم، فإنه من المتوقع أن يتخرج حوالي ١٢ مليون عربي من الجامعات بين عامي ١٩٧٩ و ٢٠٠٠. وينبغي أن تساعدنا دراسة هجرة الكفاءات على إصلاح التعليم الجامعي العربي والمؤسسات العربية وسياسات القوى البشرية في الوقت المناسب لاستخدام الموارد البشرية التي تملك مثل هذه الامكانات الضخمة استخداما أفضل.

الهوامش

(٥) مصر، سورية، العراق، لبنان، الأردن، السودان، المملكة العربية السعودية، تونس، ليبيا والكويت. ولم تتوافر معلومات مفصلة عن الاحدى عشرة دولة عربية الاخرى.

(٦) حسب تقدير أعدته جامعة القديس يوسف ببيروت، تلقى ٦٢ بالمئة من الأطباء الذين انضموا إلى الجمعية الطبية اللبنانية بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٧ تعليمهم بالخارج. المصدر: (L'Orient-Le Jour 1978).

(٧) للحصول على محضر الاجتماع وقائمة بدراسات مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية انظر: UNCTAD (1978).

(٨) منذ بداية الحرب في لبنان في عام ١٩٧٥ لفتت عدة مقالات في الصحافة اللبنانية الانتباه إلى هجرة القوى البشرية من جميع الفئات، ولم يتم إلى الآن اي جمع رسمي للوثائق.

(٩) مثلا: Mejia (1975)، انظر ايضا: Kidd (1970)، والفصول التالية وثيقة الصلة بهجرة الكفاءات العربية:

— George B. Baldwin, «The General Picture in the Middle East», pp. 261-268.

— A.B. Zahlan, «Migration Patterns of the Graduates of the American University of Beirut», pp. 269-297.

— Charles V. Kidd, «Migration into Britain and Western Europe: An Overview», pp. 505-507.

— Michel Bouvier and Marie-France Desbruyères, «France: Immigration of Scientific and Medical Personnel», pp. 533-562.

— Geoffrey Oldham and Oscar Gish, «Migration of Professionally Qualified Manpower from the Developing Countries to Britain», pp. 563-633.

— The Committee on the International Migration of Talent, «Modernization and the Migration of Talent: Overall Conclusions and Recommendations», pp. 667-724.

انظر ايضا: زين (١٩٨٢) وربيع (١٩٧٢) و:
— Glaser (1978); Tapinon (1974); Zahlan (1972).

(١٠) انظر مثلا:
Herrera et al. (1976) and Herrera (1978)

المراجع العربية:

ـ جامعة عين شمس ١٩٦٧: **تقويم جامعة عين شمس، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨**. القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس.

ـ جلال، صلاح ١٩٧١: «جسر بين القاهرة وعلمائها المهاجرين». **الأهرام**، ٢٥ كانون الثاني (يناير).

ـ ربيع، محمد ١٩٧٢: **هجرة الكفاءات العلمية**. الكويت، جامعة الكويت.

ـ رشاد، حمدي ١٩٦٩: **دليل المهاجرين للخارج**. القاهرة، المطبعة الانجلو مصرية.

ـ زين، الياس ١٩٧٢: **هجرة الأدمغة العربية**. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ـ سامي، محمود ١٩٦٩: **الأهرام**، ٢٣ نيسان (أبريل).

ـ سعيد، رشدي ١٩٧٢: «نزيف الهجرة والأوهام المتصلة به». **الاهرام**، ٦ تشرين الثاني (نوفمبر).

ـ **الطليعة** ١٩٧٣، (القاهرة) نيسان (أبريل).

ـ غيث، أسامة ١٩٧٨: «توزيع المشاريع الناجمة عن سياسة الباب المفتوح في مصر». **الأهرام**، ٢ آب (أغسطس).

ـ مطاوع، عبد الوهاب ١٩٦٩: «خمسون الف مصري في الخارج». **الاهرام**، ٢٠ نيسان (أبريل).

ـ ١٩٦٧، «نداء إلى شعوب العالم الثالث: أميركا تسرق علماءكم». **الصياد**، ٢٤ آب (أغسطس)، عدد ١١٩٧، مجلد ٢٤.

ـ هويدي، فهمي ١٩٦٩: «هجرة الخبراء والتقنيين بين عوامل الجذب والدفع». **الأهرام**، ٤ تموز (يوليو).

المراجع الأجنبية:

Abdel-Jaber, Taysir. 1978. *The Brain Drain from the ECWA Countries.* Beirut. August, pp. 21-22 (E/ECWA/57).

Amin, Galal. 1974. *The Modernization of Poverty.* Leiden: E.J. Brill, Pubs.

Bahig, Ahmed Fathy. 1971. "Graduate Study Missions to the United States As Serving the National Interest of the United Arab Republic (Egypt)." Ph.D dissertation. Catholic University of America. Washington, D.C.

Bouvier, Michel, and Desbruyeres, Marie-France. 1970. "France: Immigration of Scientific and Medical Personnel." In *The International Migration of High-Level Manpower: Its Impact on the Development Process*, edited by Charles V. Kidd. New York: Praeger.

Cairo University Prospectus. 1970. Cairo: Cairo University Press.

Daily Star. 1969. "Egypt Will Ask Countries to Return Students After Courses Are Finished." 5 August.

Dedijer, Stevan. 1961. "Why Did Daedalus Leave?" *Science*, Vol. 133.

Egypt between Now and the Year 2000. 1974. Cairo: n.p.

France, Ministère de l'Education. 1977. *Les étudiants: effectifs des étudiants dans les universités, année scolaire 1975-1976.* Paris, pp. 56-62.

France, Ministère du Travail. 1977. *Les étrangers au recensement de 1975, migrations et sociétés.* Paris.

Glaser, William. 1978. *The Brain Drain.* Oxford: Pergamon Press.

Harding, Harry. 1970. *Modernization and Mao: The Logic of the Cultural Revolution.* Santa Monica, California: Rand, August.

Herrera, Amilcar O. 1978. "An Approach to the Generation of Technologies Appropriate for Rural Development." In *Technology Transfer and Change in the Arab World*, edited by A.B. Zahlan. Oxford: Pergamon Press.

Herrera, Amilcar O., et al. 1976. *Catastrophe or New Society, a Latin American World Model.* Ottawa: IDRC.

Kidd, Charles, ed. 1970. *The International Migration of High-Level Manpower: Its Impact on the Development Process.* New York: Praeger.

Kuraitem, Anwar, and Hamdi, Midhat. 1966. *Brain Drain from the United Arab Republic.* Cairo: Department of Missions, Ministry of Higher Education.

Al-Malih, Sabah Yusef, and Al-Ikabi, Ibrahim. N.d. *Higher Education in Iraq, 1960/61-1969/70, Trends and Developments.* Baghdad: Department of Educational Planning, Ministry of Planning.

Mejia, Alfonso. 1975. *Multinational Study of the International Migration of Physicians and Nurses.* Geneva: World Health Organization.

Oldham, Geoffrey, and Gish, Oscar. 1970. "Migration of Professionally Qualified Manpower from the Developing Countries to Britain." In *The International Migration of High-Level Manpower: Its Impact on the Development Process*, edited by Charles U. Kidd. New York: Praeger.

L'Orient. 1971. "Le rapport de l'U.S.J. sur la crise de l'université." 21 March.

L'Orient-Le Jour. 1974. "Un problème crucial: l'exode des cerveaux arabes." 17 March.

———. 1978. "Le rapport triennal de l'U.S.J. sur la crise de l'université." 19 November.

Al-Said, Mostafa Al-Said. 1960. *The Expansion of Higher Education in U.A.R.* Cairo: Cairo University Press.

Shaath, Nabeel. 1965. "Education, High-Level Manpower, and the Economic Development of the United Arab Republic." Ph.D. dissertation, University of Pennsylvania, Philadelphia.

Shakrani, Ali M. 1971. "Iraqi Highly Skilled Manpower in the United States Labour Force." *IDCAS Bludan Conference, 1971.*

Tapinos, Georges. 1974. *L'économie des migrations internationales.* Paris: Colin.

United Nations Conference on Trade and Development (UNCTAD) Secretariat. 1975. *The Reverse Transfer of Technology: Its Dimension, Economic Effects, and Policy Implications.* Geneva (TD/B/C.6/7).

———. 1978. *Report of the Groups of Governmental Experts on Reverse Transfer of Technology, Geneva, 27 February-7 March 1978.* Geneva (TD/B/C.6/28).

United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization (UNESCO). 1971. *UNESCO Statistical Yearbook, 1970.* Louvain, Belgium.

U.S. Congress. House. Committee on Government Operations. 1967. *The Brain Drain into the United States of Scientists, Engineers, and Physicians.* Staff Study. Research and Technical Programmes Subcommittee, July.

———. 1968. *The Brain Drain of Scientists, Engineers, and Physicians from the Developing Countries into the United States. Hearing.* 23 January.

U.S. National Science Foundation. 1973. *Immigrant Scientists and Engineers in the United States.* 73-302. Washington, D.C.: Government Printing Office.

———. (Relevant years). *Scientists and Engineers from Abroad.* Washington, D.C.

Waardenburg, Jean-Jacques. 1966. *Les universités dans le monde arabe actuel.* Vol. 2. Paris: Mouton & Co.

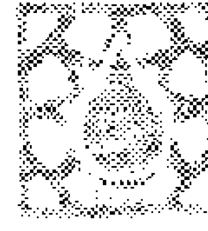
Watanabe, S. 1969. "The Brain Drain from Developing to Developed Countries." *International Labour Review.* Vol. 99.

Whelan, Joseph G. 1974. *Brain Drain: A Study of the Persistent Issue of International Scientific Mobility.* Washington, D.C.: Government Printing Office.

Zahlan, A.B. 1972. "The Arab Brain Drain." *M.E.S.A. Bulletin.* Vol. 6, No. 1.

———. 1973. "The Social Responsibility of the Arab Scientist." In *The Arab Today: Alternatives for Tomorrow,* edited by E. Said and F. Suleiman. Columbus, Ohio: Forum.

———. 1977. "The Brain Drain Controversy." In *Proceedings of the International Population Conference.* Vol. 5.



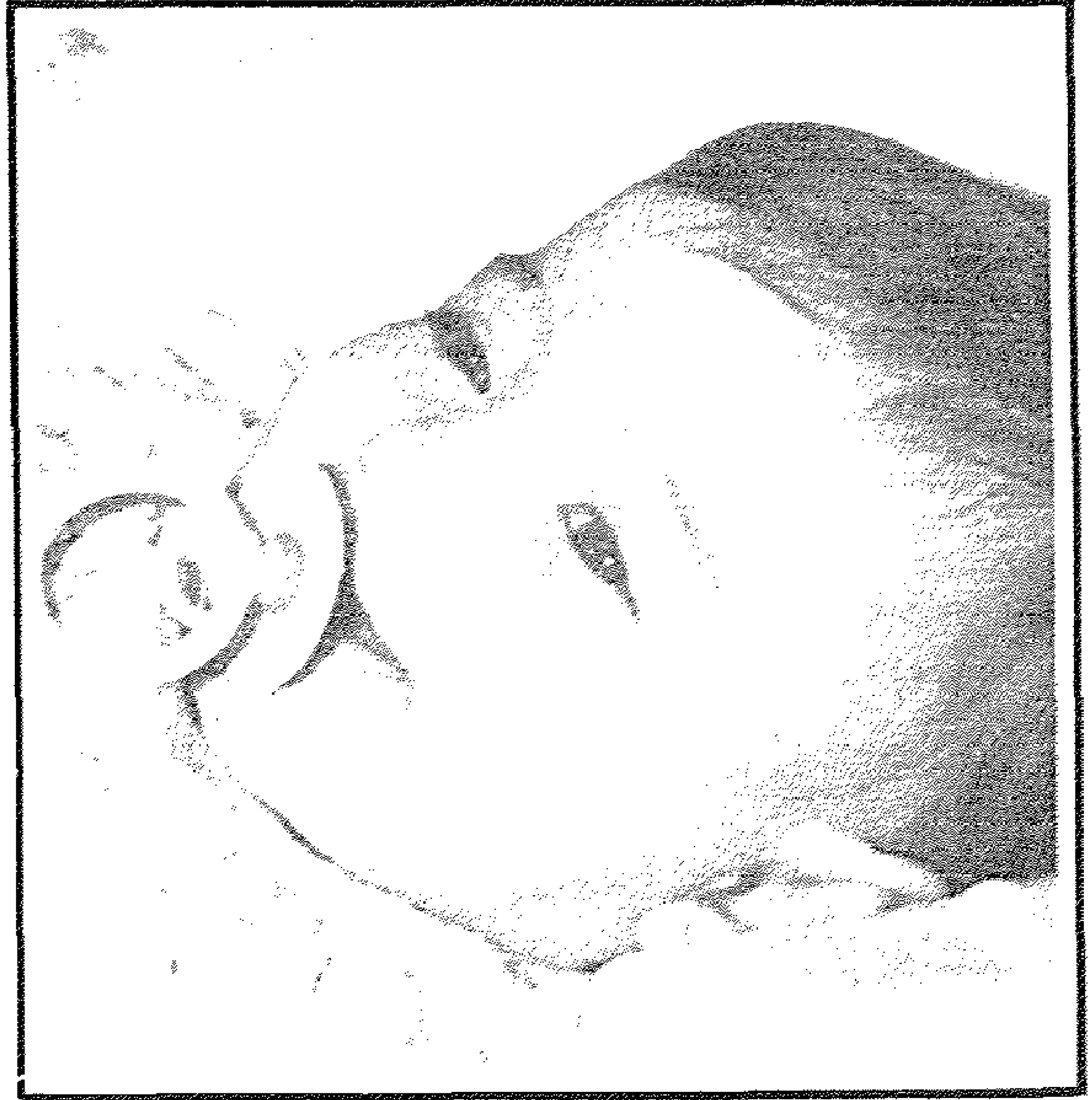
الخليفة الزاهد

□ كان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أزهد خلفاء بني أمية في الدنيا، وأعد لهم في الحكم، وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

من كان حين تمس الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوماً مرغماً جدثا
تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثاً

أشد خلق الله

□ قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أشد جنود ربك عشرة: الجبال الرواسي، والحديد يقطع الجبال، والنار تذيب الحديد، والماء يطفيء النار، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء، والريح تقطع السحاب، وابن آدم يغلب الريح، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته، والسكر يغلب ابن آدم، والنوم يغلب السكر، والهم يغلب النوم، فأشد خلق الله عز وجل الهم.



طب الأطفال (*)

د. محمود الحاج قاسم محمد

أبدع الأطباء والتربويون والعلماء العرب والمسلمون في الأمور المتعلقة بالطفل: نشأته، تطوره، معالجة أمراضه وتربيته. وسجلوا ذلك فيما خلفوه لنا من مخطوطات عربية صارعت عوادي الزمن واستطاع النزر اليسير منها أن يبقى ساطعا في كتب مطبوعة أو مخطوطة بحاجة إلى دراسات جيدة.

وكان لنا شرف المساهمة بدراسات متواضعة حول هذا الموضوع في مؤلفنا «تاريخ طب الأطفال عند العرب» وفي كتاب «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان» لأحمد بن محمد البلدي الذي قمنا بتحقيقه، إلا أننا نعتقد بأن تراثنا في هذا الحقل لا زال بحاجة إلى دراسة موضوعية تحليلية لا يمكن أن تقوم بجهد فردي وإنما بعمل جماعي يقوم به عدد من العلماء والباحثين والأطباء.

وان تواجد هذه النخبة الخيرة في هذه الندوة فرصة سانحة لكي نرسي القواعد الأساسية لكيفية إحياء هذا التراث وجمعه وانتقاء الصالح منه للحفاظ عليه ودراسته حتى نتمكن في النهاية من طرح استقراء علمي عربي لطب الأطفال عند العرب والمسلمين، ومن ثم نكون قد حققنا لأنفسنا ولأجيالنا القادمة من أطباء الأطفال والمربين انتماء «علميا» لتقوم حياتنا العلمية والطبية المعاصرة على أسس من جهود علمائنا وأطبائنا السابقين دون تفريط في امتدادها التاريخي.

□ د. محمود الحاج قاسم محمد: «عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب».

(*) بحث ألقي في الندوة العالمية عن «الطفل في الطب العربي» طرابلس ــ الجماهيرية العربية الليبية ــ في الفترة ١٥ ــ ٢٠ مارس/ ١٩٨٢.



حاولنا في هذه الدراسة الاحاطة بكل ما كتب باللغة العربية في طب الأطفال من قبل الأطباء العرب والمسلمين حتى بدايات القرن العاشر الهجري (بداية تخلف الحضارة الطبية العربية الاسلامية). وفي استعراضنا لتلك المؤلفات وجدنا بأن أهمها وأشهرها خمس وأربعون مؤلفا بين مخطوط ومطبوع فيها ما هو بشكل كتاب مستقل وبعضها فصول ضمن مؤلفاتهم الموضوعية.

الكتب التي لا زالت مخطوطة حسب التسلسل الزمني لمؤلفيها:

١ ــ مقالة في الجنين وكونه في الرحم ــ ليوحنا بن ماسويه.
٢ ــ مواضيع كتاب جالينوس في المولودين لسبعة أشهر/ لثابت بن قرة.
٣ ــ مقالة في صفة كون الجنين ــ لثابت بن قرة.
٤ ــ رسالة في الجدري والحصبة ــ لثابت بن قرة.
٥ ــ مقالة في كون الجنين ــ لحنين بن اسحاق.
٦ ــ كتاب في اللبن/ الجنين ــ لحنين بن اسحاق.
٧ ــ المولودون لسبعة أشهر لحنين بن إسحاق.
٨ ــ كتاب في اللبن/ لأبي بكر بن زكريا الرازي.
٩ ــ كتاب المنصوري/ لأبي بكر بن زكريا الرازي.
١٠ ــ المعالجات البقراطية/ لأحمد بن محمد الطبري.
١١ ــ مقالة في الجدري والحصبة والحميقاء/ لأحمد بن أبي الأشعث.
١٢ ــ رسالة في أوجاع الأطفال/ لابن مندويه الأصفهاني.
١٣ ــ رسالة في علاج صبي أصابه المرض المسمى بداء الفيل ــ لعلي بن رضوان.
١٤ ــ مقالة أن جالينوس لهم يخلط في أقاويله في اللبن على ظن قوم لعلي بن رضوان.
١٥ ــ كتاب في الأغذية/ لأبي مروان عبد الملك بن زهر.
١٦ ــ رسالة في أوجاع الأطفال/ لابن النفيس.
١٧ ــ جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض/ لابن القف.

إن بعض هذه المؤلفات مفقودة وبعضها لم يتهيأ لنا الاطلاع عليها. والمخطوطات التي قمنا بدراستها كانت على التوالي:

١ ــ الأرجوزة في الطب/ لابن طفيل.
٢ ــ مقالة في الجنين وكونه في الرحم/ ليوحنا بن ماسويه.
٣ ــ المنصوري/ للرازي.
٤ ــ المعالجات البقراطية/ لأحمد بن محمد الطبري.
٥ ــ رسالة في أوجاع الأطفال/ لابن مندويه الأصفهاني.
٦ ــ كتاب في الأغذية/ لابن زهر.

اما الكتب المطبوعة فاننا استطعنا دراستها جميعا وهي حسب التسلسل الزمني لمؤلفيها كما يلي:

١ ــ فردوس الحكمة/ لعلي بن زين الطبري.
٢ ــ الذخيرة في علم الطب/ لثابت بن قرة.
٣ ــ كتاب المولودين/ لحنين بن اسحاق.
٤ ــ الحاوي في الطب/ للرازي.
٥ ــ كتاب في الجدري والحصبة للرازي.
٦ ــ رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم/ للرازي.
٧ ــ خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين/ لعريب بن سعد القرطبي.
٨ ــ سياسة الصبيان وتدبيرهم/ لابن الجزار القيرواني.
٩ ــ كامل الصناعة الطبية/ لعلي بن العباس المجوسي.
١٠ ــ رسائل أخوان الصفاء.
١١ ــ تدبير الحبالى والأطفال والصبيان/ لأحمد بن محمد البلدي.
١٢ ــ التصريف لمن عجز عن التأليف/ للزهراوي.
١٣ ــ القانون في الطب/ لابن سينا.
١٤ ــ الأرجوزة في الطب/ لابن سينا.
١٥ ــ تقويم الأبدان/ لابن جزلة البغدادي.
١٦ ــ المختارات في الطب/ لابن هبل البغدادي.
١٧ ــ حي بن يقظان / لابن طفيل.

١٨ ــ العمدة في الجراحة/ لابن القف.
١٩ ــ تحفة المورود بأحكام المولود/ لابن القيم الجوزية.
٢٠ ــ تذكرة أولي الألباب/ لداود الأنطاكي.

وهناك كتب مطبوعة في تربية وتعليم الطفل كان لا بد من دراسة بعضها لما لها من علاقة في بناء شخصية الطفل وتقويمه النفسي والتربوي وهي:

١ ــ رسالة السياسة/ ابن سينا.
٢ ــ احياء علوم الدين/ الغزالي.
٣ ــ رسالة أيها الولد/ الغزالي.
٤ ــ احصاء العلوم/ الفارابي.
٥ ــ تدبير الأخلاق وتطهير الأعراق/ ابن مسكويه.
٦ ــ آداب المتعلمين/ محمد بن سحنون.
٧ ــ الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين/ القابس القيرواني.
٨ ــ جامع شتات العلم وفصله/ القرطبي الأندلسي.
٩ ــ مقدمة ابن خلدون.

والآن وبعد الاستعراض السريع للمؤلفات العربية في طب الأطفال لا بد من وقفة قصيرة عند كل واحد من تلك المؤلفات الأساسية والتي حالفنا الحظ في الاطلاع عليها لتقييمها من الناحية العلمية والتاريخية لاعطاء كل صاحب حق حقه وللوصول للحقيقة الدامغة في تبيان فضل الأطباء العرب والمسلمين ومدى مساهماتهم في هذا الفرع المهم من فروع الطب. وسوف نتناول تلك المؤلفات حسب التسلسل الزمني لمؤلفيها.

١ ــ فردوس الحكمة

مؤلفة أبو الحسن علي بن سهل رين الطبري (ولد سنة ٧٨٠ أو ٧٧٠ في مدينة مرو من أعمال طبرستان). يعتبر هذا الكتاب أقدم تأليف جامع لفنون الطب بالعربية، وهو مقتبس عن الكتب الطبية اليونانية والهندية.

خصص الطبري الباب الأول والثاني من المقالة الرابعة للتحدث عن تربية الأطفال وحفظ الصحة وتربية الصبي إذا ترعرع، وهي بمجموعها منقولة عن جالينوس.

٢ ــ مقالة في الجنين وكونه في الرحم

مؤلفة يوحنا بن ماسويه (ولد في سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م وتوفي في سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م). لا زالت مخطوطة، اطلعنا على النسخة الخطية منها والموجودة في مكتبة المتحف العراقي ضمن مجموعة برقم (١٣٢١٢) مكتوبة سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م).

لهذه المخطوطة أهمية تاريخية من حيث كونها أول مؤلف مستقل في علم الأجنة باللغة العربية. أن هذا المؤلف مقتبس في مجموعة عن كتاب الأجنبية لأبقراط وآراء جالينوس في هذا الموضوع.

٣ ــ كتاب الذخيرة في علم الطب

لثابت بن قرة المتوفي سنة ٢٨٨/ ٩٠٠م.
يحوي الكتاب فصلاً قصيرا في أوصاف الحليب.

٤ ــ كتاب المولودين

(أو كتاب فيمن يولد لثمانية أشهر على طريقة المسئلة والجواب) لحنين بن اسحق العبادي (المولود في الحيرة عام ١٩٤هـ/ ٨١٠م).

اعتمد في تأليفه على كتاب أبقراط في المولودين لثمانية أشهر وإن كان ليس له ترجمة حرفية. حاول فيه تعليل سبب عدم إمكانية عيش المولودين لثمانية أشهر بشكل منطقي بالنسبة لزمانه، إلا أن العلم الحديث لا يوافقه فيما ذهب إليه.

٥ ــ الحاوي في الطب

تأليف أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (المولود في الري جنوب طهران في حدود ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م والمتوفي فيها ٣١٣هـ/ ٩٢٥م).

على الرغم من كون الحاوي سجلا لمشاهدات الرازي ليس إلا، فاننا نجد فيه تدوينا للملاحظات السريرية لأول مرة في تاريخ الطب، يبتدىء الحاوي بفصل عن العناية بالوليد. ونجد في أجزائه المختلفة كثيرا من الملاحظات عن أمراض الأطفال على سبيل المثال تحدث عن كيفية مساعدة الطفل على النوم والاسترخاء والتقيء



□ الطبيب العربي ثابت بن قرة

والاختلاجات والحصبة والجدري، والكزاز، والحصى المتولد في الصبيان وأمور كثيرة أخرى متعلقة بالأطفال جاءت متفرقة هنا وهناك.

٦ ــ المنصوري/ للرازي أيضا

المقالة الرابعة «في تدبير الأطفال». يتكلم هنا الرازي بشكل موجز عن كيفية العناية بالوليد ثم كيفية الرضاعة والفطام وعن اختيار المرضعة وتدبيرها ثم يتكلم عن معالجة الصبيان وكيفية العناية بهم، وفي موضع آخر شرح الوقاية من كبر الخصية في الأولاد وكبر الثدي في البنات.

٧ ــ رسالة في أمراض الأطفال والعناية بهم

ألفها الرازي في حدود ٩٠٠م. وهي تعتبر باتفاق المؤرخين أول مؤلف مستقل في طب الأطفال. حيث فصل فيها الرازي بين طب الأطفال والأمراض النسائية لأول مرة في تاريخ الطب على خلاف من سبقوه حيث كانوا يدمجون طب الأطفال مع الأمراض النسائية في مؤلفاتهم.

ان هذه الرسالة لا توجد منها على علمنا أية نسخة باللغة العربية الآن، ولا نعلم على وجه

التحقيق فيما إذا كان الرازي ألفها باللغة العربية أم الفارسية كما يقول رادبل. وإن كنا نميل إلى كونها ألفت باللغة العربية لأن المعروف عن الرازي أنه لم يؤلف أي كتاب طبي بأية لغة غير العربية.

ترجمت هذه الرسالة قديما إلى العبرية ثم إلى اللاتينية والايطالية والانكليزية. وقام بترجمتها عن الايطالية مؤخرا رادبل (Samuel X. Radbill) إلى الانكليزية ونشرها في مجلة الأطفال الأميركية عام ١٩٧١م، وأن هذه الترجمة تعتبر أول وأكمل ترجمة مطبوعة باللغة الانكليزية وهي الترجمة التي اعتمدنا عليها في ترجمتنا للرسالة إلى العربية. الرسالة تحوي أربعة وعشرون بابا وتبحث في مختلف أمراض الأطفال ومعالجتها وهي (السعفة، الجرب، كبر الرأس، انتفاخ البطن، العطاس، السهر، السعال، الصرع، جريان السم والصديد في الأذن، أمراض العين، أمراض الأسنان، تقرحات الفم، القي، الاسهال، السعال، الحكة والنفاط، الديدان، بروز السرة، الفتق، حصى المثانة، شلل الأطفال). إضافة للقيمة التاريخية للرسالة من حيث كونها أول مؤلف في طب الأطفال فان لها قيمة علمية أيضا حيث أنها تتضمن آراء ونظريات الرازي في طب الأطفال مكتوبة بطريقة جديدة مخالفة لمن سبقه من الأطباء اليونانيين وبعض الأطباء العرب، فقد تناول أمراض الأطفال بصورة عامة وليس كما تناوله السابقون له بتقسيم أمراض الأطفال حسب أعمارهم أو كما سموه (أسنان الطفل).

٨ ــ كتاب في الجدري والحصبة/ للرازي

نال هذا الكتاب شهرة عظيمة في أوروبا فترجم للاتينية وغيرها من اللغات عدة مرات.

للكتاب قيمة تاريخية وعلمية من حيث كونه الأول من نوعه فقد صور الرازي فيه مرضى الجدري والحصبة تصويرا علميا صحيحا وفرق بينهما لأول مرة في تاريخ الطب عندما وصف كلا على حدة بصورة تفصيلية خلافا لمن سبقه من الأطباء اليونان والعرب إذ أنهم كانوا يعتبرون المرضين واحدا.

والرازي فرق بين المرضين في كتابه هذا في ثلاثة مواضع.

(أ) في الفصل الثاني حين ذكر أوقات انتشار المرضين كلا على انفراد.

(ب) في الفصل الثالث أعطى الدليل القاطع بأن الحصبة والجدري ليسا مرضا واحدا.

(ج) في الفصل الرابع عشر وصف الطفح لكلا المرضين كلا على حدة في أسلوب علمي يعتبر قمة المعرفة بالنسبة لزمانه.

٩ ــ المعالجات البقراطية

لأحمد بن محمد الطبري، لا نعرف بالتحديد سنة ولادته ووفاته إلا أنه عاصر ركن الدولة الذي ملك (من سنة ٣٢٠هـ ــ ٣٦٦هـ).

أن هذا الكتاب هو أحد أقدم ما وصل إلينا من كتابات الأطباء العرب والمسلمين في هذا الموضوع باللغة العربية وهو ليس كتابا مستقلا بطب الأطفال إلا أنه خصص جزء كبيرا منه للتحدث عن علل الأطفال وتدبيره حين يولد، وآداب المرضعة وتدبيرها. وهذا الجزء يتكون من ستين بابا تكلم في الأبواب من الأول حتى الثامن والخمسين عن أمراض الأطفال ومعالجتها والباب التاسع والخمسين تناول فيه آداب المرضعة وتدبيرها. وأفرد الباب الأخير للتحدث عن كيفية العناية بالطفل وتدبيره من الولادة وكيفية تغذيته وتربيته حتى تنبت أضراسه.

أما الأمراض التي ذكرها فكانت على التوالي (الجرب والأمراض الجلدية الأخرى، أمراض الأنف، أمراض العين، البكاء، الخرخرة انطباق المري، تعوج الرقبة، العطاس، أورام المعدة، السرطان، اضطرابات الهضم، القراقر، أنواع القيام (الاسهال)، المغص، نفث الدم، الجدري، والحصبة، الديدان، خروج المقعدة، تورم الخصية، تورم الأربتين.

١٠ ــ سياسة الصبيان وتدبيرهم

لأحمد بن الجزار القيرواني (ولد سنة ٢٨٥/ ٨٩٥م وتوفي سنة ٣٧٧هـ. يعتبر هذا الكتاب أكمل تأليف مستقل مطبوع في طب الأطفال باللغة العربية.

أن أكثر محتويات الكتاب تناولها ابن سينا في

□ الصفحة الأولى من رسالة ابن مندوية في أوجاع الأطفال. مكتبة النجف العراقي ٣٧٧٠.

كتاب القانون في الجزء الأول وفي قسم (التعليم الأول)، وعرض هذه الموضوعات في نظام وأسلوب مشابه لنظام وأسلوب ابن الجزار ولا يستبعد أن يكون ابن سينا قد اطلع على الكتاب ونقل عنه، فنحن نعثر أحيانا على بعض الجمل التي هي نقل حرفي لما في سياسة الصبيان كما يقول محقق الكتاب يحتوي الكتاب على اثنين وعشرين بابا.

يتكلم ابن الجزار في الستة الفصول الأول عن كيفية تدبير الأطفال حين خروجهم من الرحم، في صفة المرضعة، في صفة الضئر المحمود والمذموم، في الأطعمة والأشربة التي تدبر بها المرضعة ليكون لبنها صحيحا، في سبب قلة اللبن وتغير لونه، في تدبير المرضعة القليلة اللبن في رؤوس الصبيان، الداوس، كبر الرأس وصغره، ورم اليافوخ، انتفاخ البطن، داء العطاس، الصرع، السهر، الرطوبة السائلة من آذان الصبيان، الحول، وجع نبات الأسنان، قروح الفم، السعال، القيء، الاختلاف، الدود، نتوء السرة، حصى المثانة).

الباب الواحد والعشرون: ناقص من المخطوطة.

الباب الأخير: أفرده للتحدث عن طباع الصبيان وتربيتهم.

١١ ـ خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين

ألفه عريب بن سعد الكاتب القرطبي سنة ٣٥٢هـ، وهو كتاب نفيس يبحث في علم الولادة وطب الأطفال على السواء.

هناك من يعتبره أقدم من كتاب المعالجات البقراطية لأحمد الطبري إلا أنه لا يمكن الجزم بذلك حيث أننا نجهل تاريخ ولادة ووفاة الطبري وعريب كما نجهل تاريخ تأليف كتاب المعالجات البقراطية.

يحتوي الكتاب خمسة عشر بابا.

يبحث المؤلف في الخمسة الأولى منها في علم الأجنة من ابتداء خلق الانسان إلى غاية كماله وعن كيفية تكون المنى وأسباب العقم وعن الأعضاء التناسلية للذكر والأنثى وأفرد الباب السادس للتحدث عن مدة الحمل وحدوده وعن المولودين لسبعة أشهر، وتكلم في الأبواب الثلاثة التي أعقبت ذلك عن كيفية العناية بالحامل ومعالجتها، وعن أسباب الاسقاط وعلاجه وكيفية الولادة وتسهيل ذلك وكيفية العناية بالمولود الجديد، وكيفية استحمامه، وتدبير النفساء وعن استخراج المشيمة، وعن تكون اللبن ورضاع المولود وحفظ صحة المرضع.

أما القسم المتبقي من الكتاب فخصصه لطب الأطفال ومنهجه في ذلك كسابقيه فقد قسم أسنان المولودين (أجزاء حياتهم) حسب أعمارهم، تكلم في كل جزء من الأجزاء عن كيفية نمو الطفل وأعضاءه وحواسه وحركاته والأمراض التي تصيبه في كل دور وكيفية علاج ذلك. وأخيرا عن تأديب الطفل وتعليمه. والأمراض/ التي ذكرها بصورة عامة كانت القلاع، القيء، السهر، الفزع، ورم السرة، الرواس (كبر الرأس)، صفر الرأس، مصيص اللثة، الاسهال، الحميات، علة الصبيان (الاختلاجات، ورم الحلق، الربو، الحصاة، الديدان، البول في الفراش، عسر التبول، الجدري والحصبة، احتلام الغلمان.

١٢ ـ كامل الصناعة الطبية

لعلي بن العباس المجوسي (من أبناء القرن العاشر الميلادي) يعتبره البعض من أحسن الكتب الطبية باللغة العربية حتى ظهور قانون ابن سينا ومنهم من يساويه بالقانون جودة حتى اليوم، خصص علي بن العباس في الجزء الثاني من كتابه ثلاثة أبواب لطب الأطفال.

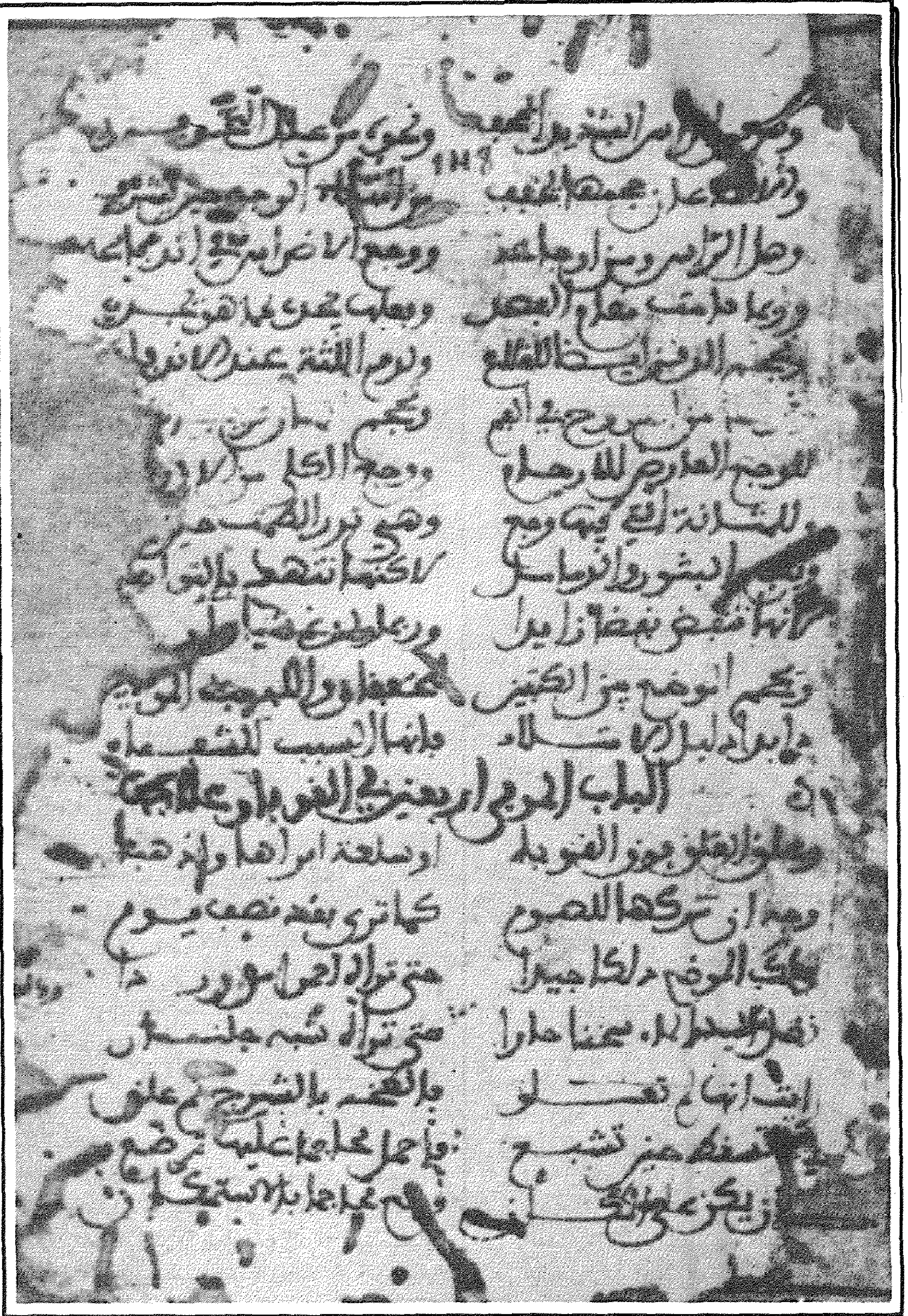
الباب العشرون/ في تدبير أبدان الأطفال ويبحث فيه كيفية العناية بالمولود حديث الولادة وبعض الأمراض التي يصاب بها ومعالجتها.

الباب الحادي والعشرون/ في تدبير الظئر/ ويبحث فيه عن شروط المرضعة وكيفية العناية بصحتها.

الباب الثاني والعشرون/ في تدبير الصبيان الذين تجاوزوا حد الرضاع/ ويبحث فيه كيفية العناية بالطفل وتربيته حتى سن اثنا عشر سنة.

١٣ ـ رسائل أخوان الصفا

(ألفت في مطلع القرن الرابع الهجري من قبل جماعة سرية).



□ احدى الصفحات من مخطوطة كتاب «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان» لأحمد بن محمد البلدي.

الرسالة الخامسة والعشرون/ في «مسقط النطفة» تبدأ الرسالة في التحدث عن مدة الحمل ثم تطور نمو الجنين في الرحم والتغيرات التي تحدث فيه شهرا بعد شهر، وعن موعد الولادة.
الرسالة الثانية والخمسون/ جاء فيها ذكر خمسة فصول قصيرة لها علاقة بالحامل متى كان الحمل، ومتى تلد، وفي اختيار وقت الحمل، وفي موت الجنين في بطن أمه، وحال المولود في بطن أمه.

وأساس علمهم كله مبني على التنجيم وقراءة الطالع حيث أنهم يعتقدون بأن كل ذلك مرتبط بشكل أساسي بالكواكب السيارة السبعة ومسار افلاكها.

١٤ ـــ تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم

لأحمد بن محمد بن يحيى البلدي (كان حياً قبل سنة ٣٦٨هـ).
ان هذا الكتاب في نظرنا يعتبر اكمل وأحسن ما كتب في بابه ليس بالنسبة لزمانه فحسب بل حتى عصر النهضة العلمية الأوروبية بسنوات، لاحتوائه آراء الأطباء الذين سبقوه وعاصروه اضافة لحصيلة ضخمة من خبراته وتجاربه في كيفية العناية بالحامل وعلم الولادة ومعالجة الأمراض النسائية. والعناية بالطفل من الناحية الجسمية والنفسية والتربوية، ومعالجة أمراضه المختلفة.
الكتاب يتكون من ثلاثة مقالات:
المقالة الأولى/ في تدبير الحبالى والأطفال والأجنة ومداواة ما يعرض من الأعراض والأمراض فيهم وهي تشتمل على سبعة وخمسين بابا تبحث في علم الأجنة وكيفية العناية بالأم الحامل وعلامات الحمل والولادة والأمراض النسائية.
المقالة الثانية/ في تربية الأطفال والصبيان وتدبيرهم وحفظ صحتهم وهي تشتمل على ثمانية وأربعين بابا. تبحث في العلامات الدالة على صحة المولود والعناية به عند الولادة في اختيار المرضعة والعناية بها، في العناية بالطفل من ناحية استحمامه، نومه وفي فطام الطفل وتعويده على الأغذية، في أسس تربيته وتوجيهه خلقيا ومهنيا.
المقالة الثالثة/ في الأوجاع والأمراض الحادثة بالأطفال والصبيان ومداواة كل واحد منها وما ذكره المتقدمون من الأطباء والفلاسفة فيها وفي مداواتها وهي تشتمل على واحد وستين بابا تبحث في مختلف أمراض الأطفال ومعالجتها وهي (قروح الرأس، ورم الدماغ، السهر والتفزع، التشنج، الكزاز، السكتة، الصداع، الصرع، الرمد، بياض العين، الحول، رطوبة وأورام وقروح الأذن، اللحم النابت في الأذن، ديدان الأذن، الرعاف، الزكام، القلاع، مصيص اللثة، اورام الحلق الخوانيق، اخراج العظم من حلق الصبي، السعال، الربو، القيء، العطش، ورم المثانة فيمن يبول في الفراش، الديدان، المغص، الاختلاف، في خروج مقعدة الصبي، خروج سرة الصبي، البثور والقروح، القوبا الثواليل، سحج الفخذين، الحميات، الجدري والحصبة.

١٥ ـــ التصريف لمن عجز عن التأليف

لأبي القاسم خلف الزهراوي (كان مولده ٩٣٦م ووفاته سنة ١٠١٣م) نجد في هذا الكتاب آراء الزهراوي في جراحة الأطفال والتي تبين بصورة جلية مبلغ احاطة الأطباء العرب بهذا الفرع المهم من فروع الجراحة.

١٦ ـــ رسالة في أوجاع الأطفال

لأحمد بن مندويه الأصفهاني المتوفي سنة ٤١٠هـ/ ١٠١٩م. وهي رسالة مخطوطة لا جديد فيها يذكر وكل ما جاء فيها حول أمراض الأطفال تكرار لما قاله السابقون من الأطباء العرب والمسلمين.

١٧ ـــ القانون في الطب

لأبي علي الحسين بن سينا (ولد في بخارى سنة ٣٧١/ ٩٨٠م. في الجزء الأول منه قسم خاص عن تربية الأطفال وأمراضهم سماه ابن سينا (التعليم الأول في التربية) وهو أربعة فصول:
الفصل الأول/ في تدبير المولود كما يولد إلى ان ينهض/ في هذا الفصل نجد آراء ابن سينا وآراء من سبقوه في الأمور الواجب اتخاذها في رعاية المولود حديث الولادة.

□ احدى الصفحات من مخطوطة «الارجوزة في الطب» لابن طفيل.

الفصل الثاني/ يتكلم هنا عن كيفية الرضاعة، وعن اللبن، وشروط المرضعة الجيدة، والفطام.

الفصل الثالث/ تحدث هنا عن أمراض الأطفال وعلاجها وهي (أورام ولذع اللثة، انتفاخ العين، بياض في الحدقة، سلاق، وجع وسيلان الأذن، سوء التنفس، السعال، الزكام، ورم الحلق، استطلاق البطن، القيء، الفواق، المغص، ضعف المعدة، خروج المقعدة، الزحير، الديدان، البكاء، عدم النوم، ريح الصبيان، الأحلام، المفزعة.

الفصل الرابع/ خصصه لتدبير الصبيان إلى سن الصبا وفيه يستعرض أصول التربية الخلقية والنفسية للأطفال وآراءه في التعليم والتوجيه المهني في المستقبل.

أما في بقية أجزاء القانون الأخرى فإننا نقع هنا وهناك على ملاحظات أخرى عن أمراض الأطفال فمثلا عن التبول في الفراش، علة الصبيان (التشنجات)، الحصبة والجدري، الخنثى، الخ).

١٨ ـ الأرجوزة في الطب/ لابن سينا

في الأجوزة ست وخمسون بيتا سرد فيها ابن سينا آراءه بشكل موجز في مسألة العناية بالأم الحامل والولادة والعناية بالجنين أثناء الحمل والطفل عند الولادة واختيار المرضعة الملائمة بأسلوب شعري سلس ممتع لم يسبقه إلى ذلك أحد من قبل في هذا الفرع.

١٩ ـ رسالة السياسة (أو في سياسة الرجل ولده)، لابن سينا

وهي رسالة قيمة في التربية والتعليم شملت آراء ابن سينا في مسألة اختيار الاسم الحسن والمرضعة الجيدة للطفل وكيفية تأديبه وعقابه وأسس تعليمه وصفات المؤدب ومنهجه التربوي وتربيته لكسب العيش.

٢٠ ـ احياء علوم الدين

للامام أبو حامد الغزالي (ولد عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م وتوفي ٥٠٥هـ/١١١١م. فيه قسم بعنوان (بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم) يسرد فيه الغزالي آراءه القيمة في تعليم الطفل وتربيته الخلقية والجسمية.

٢١ ـ رسالة أيها الولد للغزالي أيضا

يقوم في هذه الرسالة مبادىء تربوية وآراء فلسفية علمية ووصايا رائعة لا تقف حدود فائدتها عند الطفل بل تتعداه إلى الحدث والصبى والشاب.

٢٢ ـ تقويم الأبدان في تدبير الانسان

مؤلفه ابن جزلة البغدادي المتوفي سنة ٤٩٣هـ. يفرق ابن جزلة في هذا الكتاب بين امراض الأطفال والشباب والشيوخ على شكل جداول مقارنة. إلا أنه لا يحوي جديدا لم يذكره الآخرون.

٢٣ ـ المختارات في الطب

لأبي الحسن علي بن هبل البغدادي (المتوفي سنة ٦١٠هـ) الكتاب يحوي ثلاثة فصول لها علاقة بالأطفال. حيث سرد في فصل «خلق الانسان» علم الأجنة بالنسبة لزمانه. وفي فصل «في تدبير المولود» ابتدأ بتقديم النصائح للحامل للحفاظ على الجنين من أي مكروه ولتسهيل ولادته. ثم تكلم عن كيفية استقبال المولود والعناية به عند الولادة وكيفية تغذيته ونومه. وصفات الحليب الجيد وشروط المرضعة وكيفية تغذيتها وكيفية تعويد الطفل على الأكل وفطامه والعناية به عند بروز أسنانه ومشيه.

وفي الفصل الذي يلي ذلك تحدث عن مداواة أمراض الأطفال وفي الفصل الذي بعد ذلك/ تكلم عن كيفية العناية بغذاء الطفل وتربيته بعد أن يكبر وكيفية اختيار المعلم الجيد وتعويده الخصال الحميدة وتوجيهه الوجهة الصحيحة بالنسبة لمستقبله. أن في كتابات البغدادي في هذا الكتاب الكثير من الأفكار العلمية القيمة والآراء التربوية السديدة.

٢٤ ـ كتاب الأغذية

لأبي مروان عبد الملك بن زهر (١٠٩٤ ـ ١١٦٢م) في هذا الكتاب فقرتان قصيرتان لها علاقة بالأطفال الأولى ذكر ما يحفظ

الأجنة في الأجواف والثانية القول في تدبير الطفل.

٢٥ ـ حي بن يقظان

قصة فلسفية لابن طفيل فيها إشارات لمسألة خلق الجنين وغذاء الطفل وتربيته.

٢٦ ـ العمدة في الجراحة

لأبي الفرج بن القف (١٢٣٢ ـ ١٢٨٦م)/ تكلم في بعض فصول الجزء الثاني عن أمور تتعلق بطب وجراحة الأطفال ذكرها متفرقة هنا وهناك ومن بين ذلك في الفصل الثاني من المقالة الرابعة عشرة تكلم عن علاج الحصبة وفرقه من علاج الجدري.

وفي الفصل السادس من المقالة التاسعة عشر تكلم عن أنواع وعلاج الماء الذي يجتمع في رؤوس الصبيان.

وفي الفصل العشرين والذي يليه من نفس المقالة تكلم عن علاج من يولد من الأطفال وكمرته (ذكره) ومقعدته غير مثقوبة وعن تطهير الأطفال وفي الفصل الحادي والثلاثين تكلم عن الأصابع الزائدة والملتصقة.

٢٧ ـ تحفة المودود في أحكام المولود

لابن القيم الجوزية (ولد ٦٩١هـ وتوفي ٧٥١هـ) يبحث ابن القيم في هذا الكتاب في الأبواب الخمس عشرة الأولى في الناحية الشرعية في أحكام المولود.

وفي الباب السابع عشر والثامن عشر نجد حشداً وخلاصة لآراء الأطباء في بعض ما يتعلق بطب الأطفال حتى زمانه إضافة لآراءه.

٢٨ ـ تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب

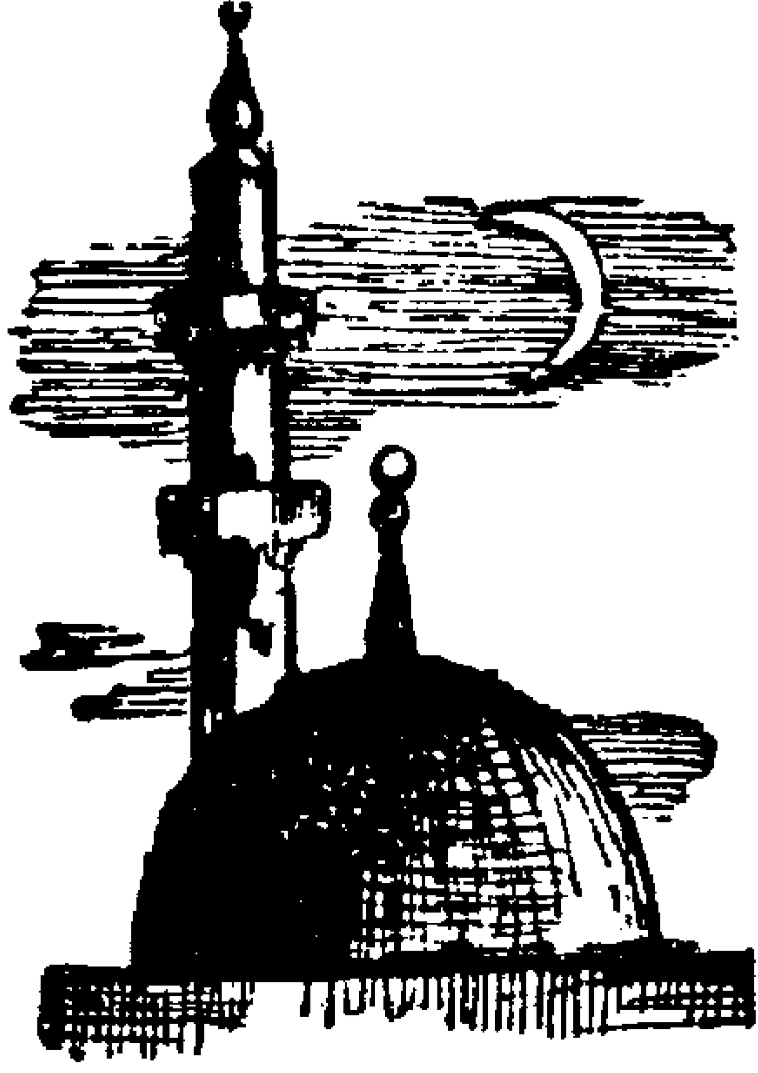
لداود الأنطاكي (من أطباء القرن العاشر الهجري) يحوي الكتاب إشارات لبعض أمراض الأطفال مثل أم الصبيان وكلاما عن كيفية العناية بالمولود حديث الولادة وتركيب الحليب وعن الفطام.



الدهر والأصحاب

□ لقي عالم من العلماء راهباً من الرهبان، فقال له: يا راهب كيف ترى الدهر؟. قال: يخلق الأبدان، ويجدد الآمال، ويباعد الأمنية، ويقرب المنية. قال: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به نصب، ومن فاته تعب. قال: فما الغنى عنه؟. قال: قطع الرجاء منه. قال: فأي الأصحاب أبر وأوفى؟. قال: العمل الصالح. قال: فأيهم أضر وأبلى؟. قال النفس والهوى. قال: فأين المخرج؟. قال: في سلوك المنهج. قال: وفيم ذاك؟. قال: في خلع الراحات وبذل المجهود.

بعد طعن عمر بن الخطاب *



خرج عمر(1) بن الخطاب يوماً يطوف في السوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة — وكان نصرانيا — فقال: يا أمير المؤمنين: أعدني(2) على المغيرة بن شعبة، فان عليّ خراجا كثيرا. قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم. قال: ما صناعتك؟ قال: نجار، نقاش، حداد، قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني انك تقول: لو اردت ان اعمل رحا تطحن بالريح فعلت، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحا. قال: لئن سلمت لأعملن لك رحا يتحدث بها من بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه.

فقال عمر: لقد توعدني العبد انفا، ثم انصرف عمر الى منزله، فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين: اعهد، فانك ميت في ثلاثة ايام، قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل، التوراة. قال عمر: الله! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة! قال: اللهم لا؛ ولكني اجد صفتك وحليتك، وانه قد فني أجلك — وعمر لا يحس وجعا ولا الما.

فلما كان من الغد جاء كعب، فقال: يا أمير المؤمنين: ذهب يوم، وبقي يومان، ثم جاءه من غد، فقال: ذهب يومان: وبقي يوم وليلة، وهي لك الى صبيحتها.

فلما كان الصبح خرج عمر الى الصلاة، وكان يوكل بالصفوف رجالا، فاذا استوت جاء هو فكبر، ودخل ابو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له رأسان، نصابه(3) في وسطه، فضرب عمر ست ضربات؛ احداهن تحت سرته، وهي التي قتلته.

فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يا امير المؤمنين؛ هو ذا. قال: تقدم فصل بالناس. فصلى عبد الرحمن بن عوف، وعمر طريح، ثم احتمل، فأدخل داره.

ولما احس الناس قرب موته قالوا له: يا أمير المؤمنين، لو استخلفت! قال: ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني، وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني، ولو كان ابو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته، فإن سألني ربي، قلت: سمعت نبيك يقول: «انه امين هذه الأمة». ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالما يحب الله حبا، لو لم يخفه ما عصاه(4).

قيل له: فلو انك عهدت الى عبد الله بن عمر: فإنه لذلك اهل؛ لدينه وفضله وقديم اسلامه، فقال: بحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن امة محمد، ولوددت اني نجوت من هذا الأمر كفافا(5)، لا لي ولا عليّ.

ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين؛ لو عهدت! فقال: قد كنت اجمعت(6) بعد مقالتي لكم ان اولى رجلا أمركم ارجو أن يحملكم على الحق — وأشار الى علي — ثم رأيت الا اتحملها حيا وميتا. فعليكم بهؤلاء الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض:

سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعلي بن ابي طالب: وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام: وطلحة الخير.

وقال لعبد الرحمن ادع عليا وعثمان والزبير وسعدا وقال: انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا — وكان غائباً — فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم. انشدك الله يا علي إن وليت من امور الناس شيئا ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس! أنشدك الله يا عثمان إن وليت من امور الناس شيئا ان تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس! انشدك الله يا سعد ان وليت من امور الناس شيئا ان تحمل اقاربك على رقاب الناس؛ قوموا فتشاوروا، ثم اقضوا امركم، وليصل بالناس صهيب.

ثم دعا ابا طلحة الأنصاري، فقال: قم على بابهم فلا تدع احدا يدخل اليهم، وأوصي الخليفة من بعدي بالأنصار الذين تبوءوا الدار والايمان: ان يحسن الى محسنهم، وان يعفو عن مسيئهم، وأوصي الخليفة من بعدي بالعرب؛ فانهم مادة الاسلام: أن يأخذ من صدقاتهم حقها فتوضع في فقرائهم، واوصي الخليفة من بعدي بذمة محمد رسول الله: أن يوفي لهم بعهدهم، اللهم هل بلّغت! تركت الخليفة من بعدي على انقى من الراحة.

يا عبد الله بن عمر؛ اخرج فانظر من قتلني؟ فقال: يا أمير المؤمنين: قتلك ابو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة، يا عبد الله بن عمر: اذهب الى عائشة، فسلها ان تأذن لي ان ادفن مع رسول الله وأبي بكر، يا عبد الله بن عمر: إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، وإن كانوا ثلاثة وثلاثة فاتبع الحزب الذي فيه عبد الرحمن، يا عبد الله: ائذن للناس.

فجعل يدخل عليه المهاجرون والأنصار فيسلمون عليه ويقول: أعن ملأٍ(٧) منكم كان هذا؟ فيقولو: معاذ الله! ودخل في الناس كعب، فلما نظر اليه عمر قال:

فاوعدني كعب ثلاثا اعدّها
ولا شك ان القول ما قال لي كعبُ
وما بي حذارُ الموت إني لميّتٌ
ولكن حذارُ الذنب يتبعه الذنبُ

ثم فاضت روحه، رحمه الله.

(*) تاريخ الطبري: ٥ — ١٢، العقد الفريد: ٢ — ٢٥٦.

(١) عمر بن الخطاب: ثاني الخلفاء الراشدين، المضروب بعدله المثل، اسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر، وقتل سنة ٢٣هـ.

(٢) اعداه: اعانه.

(٣) نصاب السكين: ما يقبض عليه.

(٤) هذه الجملة تدل على تقرير عدم العصيان على كل حال، وعلى ان انتفاء المعصية مع ثبوت الخوف اولى (المغني، ص٢٠٢، ج ١).

(٥) الكفاف: الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة اليه، وهو نصب على الحال، وقيل: اراد مكفوفا عن شرها.

(٦) اجمعت: عزمت.

(٧) أي مشاورة من اشرافكم وجماعتكم.



«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تدعو أصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية والأجنبية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الألف كلمة والألف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة إلى مكان وزمان تقديمها وإسم الأستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب أمام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى أن تحقق بعضاً من الأهداف والتي أهمها:

- أولا - التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.

- ثانيا - التعرف على توجهات الجامعات العربية والأجنبية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.

- ثالثا - توفير جانب من البيبليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

حول الثنائية في الحركة الوطنية السودانية

عفاف عبد الماجد أبو حسبو



□ سعد زغلول

اتصفت الحركة الوطنية في السودان بقيادة الخريجين في عهد الحكم الثنائي بصفة الثنائية (Dudlity) والمقصود بالثنائية هنا هو وجود تيارين أو فكرتين وطنيتين متصارعتين واحدة تنادي بالذاتية السودانية المنفصلة عن مصر وتطالب بالاستقلال للسودان ورفعت شعار (السودان للسودانيين) والفكرة الأخرى تنادي بوحدة وادي النيل تحت التاج المصري.

والمتأمل لتاريخ السودان الحديث الذي بدأ ببداية الحكم الثنائي عام ١٨٩٨ يبدو له جليا أن هذه الثنائية كان لا بد لها من أن تظهر وتشطر الحركة الوطنية إلى شطرين متضادين ـ استقلالي واتحادي ـ وفي هذا المقال نستعرض العوامل الرئيسية التي أدت لظهور هذه الثنائية...

في المقام الأول تستوقفنا طبيعة الحكم الثنائي ذاتها التي وصفها أحد قادة الحركة الوطنية بأنها (هجين) غريب لم يسبق له مثيل[1]. فدولتي الحكم الثنائي حين ابرمتا اتفاقية عام ١٨٩٨ لم تحددا بوضوح لمن ستكون السيادة على السودان.. مصر لأنها، حسب قولها في المفاوضات المتكررة عقب الفتح، افترضت أن السيادة على السودان ستكون لمصر فقط على أساس أن إعادة الفتح تم أساسا لاعادة السودان الذي هو جزء من مصر منذ حكم محمد علي باشا وأن كون «دراويش» المهدية قد استولوا عليه لعدد من السنين لا يعني أن سيادة مصر على السودان قد توقفت أو أن السودان لم يعد مقاطعة من مقاطعات مصر.. كما أن حملة الفتح قد مولت بالأموال المصرية وقام بها جيش مصري في أغلبه.

اما إنجلترا فقد كانت حجتها المتكررة في المفاوضات التي تلت الحرب بينها وبين مصر أن السيادة على السودان يجب أن تكون للسودانيين لأنهم شعب مختلف تمام الاختلاف عن الشعب المصري وأن السودان لا يمكن أن يضم لمصر إلا إذا أعلن السودانيون أنفسهم عن رغبتهم في ذلك بعد الاحتكام لهم.. كانت هذه العقبة الرئيسية في المفاوضات الانجليزية/ المصرية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى عام ١٩٥٣ حين تنازلت مصر عن إصرارها على حق السيادة على السودان وأقرت بمبدأ الاحتكام للسودانيين في استفتاء عام حول الاستقلال أو الاتحاد مع مصر.

انطلاقا من هذا المفهوم المتضارب لمسألة السيادة عملت كل من دولتي الحكم الثنائي على التدليل على صحة رأيها حول هذا الموضوع: بريطانيا بتشجيع قيام الفكرة الاستقلالية لدى الخريجين ومصر بتشجيع الفكرة الاتحادية.. ودخلت الدولتان في منافسة عنيفة لكسب الطبقة المثقفة من السودانيين فكان طبيعيا أن تؤثر هذه المنافسة العنيفة على حركة الخريجين الوليدة والتي كانت قد بدأت أولى علاماتها عقب حوادث عام ١٩١٩ في مصر.. كان الخريجون على قلة عددهم قد أنشأوا (نادي خريجي مدارس السودان) ــ نادي الخريجين ــ عام ١٩١٨..

وفي عام ١٩٢٠ تأسست جريدة الحضارة الناطقة باسم زعماء الدين الثلاثة ــ السيد/ عبد الرحمن والسيد/ علي المير غني والشريف الهندي ــ والممثلة أيضا لوجهة النظر الحكومية.. استهلت الصحيفة مولدها بسلسلة من أربع مقالات للسيد حسين شريف رئيس التحرير وقريب السيد عبد الرحمن ــ وعنوان المقالات «المسألة السودانية» وقد تولى السيد حسين شريف في هذه المقالات الرد على الوفد المصري الذي سافر إلى مؤتمر السلام عقب الحرب العالمية الأولى ليعلن مطالبه على الدول الكبرى المجتمعة ومن ضمن المطالب الاستقلال لمصر والاعتراف بالسيادة المصرية على السودان.

تولت الحضارة الرد على حجة الوفد المصري في سلسلة المقالات تلك والتي يمكن تلخيصها في: أن السودان ومصر فعلا دولتان شقيقتان تربط بينهما روابط الدين واللغة ولكن العواطف لا ينبغي أن تغلب على المصالح الوطنية وأنه صحيح أن مصر هي الدولة الرائدة في الشرق ولكنها عاجزة عن أن تحكم نفسها فكيف بحكم الآخرين.. وأنه إذا استبعدنا مصر لعدم قدرتها لا يبقى أمامنا سوى الشريك الآخر لدولتي الحكم الثنائي، أي بريطانيا.. واستطرد يقول أن بريطانيا قد أثبتت كفاءتها في العديد من الدول التي تحكمها وأنه من الخير للسودان أن يستمر تحت حكمها حتى يتهيأ السودانيون لتولي إدارة شؤون بلادهم ويصبح السودان للسودانيين.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها دعوة «السودان للسودانيين» من المعسكر الموالي لبريطانيا والمؤلف من الزعماء الدينيين وكبار الخريجين وحكومة السودان الممثلة لبريطانيا.

اما مصر فقد حاولت هي الأخرى دعم موقفها عن أن السودان جزء من مصر وحاولت هي أيضا استمالة الشباب السوداني المثقف على أساس أن السودان ومصر بلدان عربيان مسلمان يرزحان تحت نير الحكم البريطاني وأنه لا سبيل لواحدة منهما في الخلاص من بريطانيا دون معاونة الأخرى وقد ساعد مصر في محاولتها تلك أن الشباب السوداني المثقف لم يكن له من وسائل للاتصال بالعالم الخارجي إلا عن طريق مصر وبريطانيا وقد كانت النزعة العربية



□ السيد علي الميرغني.

والاستعمار الذي يعاونه يجعلهم يقرأون أمهات الكتب العربية والاسلامية وكل ما كتب عن امجاد العرب ونهضتهم وحتى في اختيارهم للأدب الانجليزي نجدهم يتخيرون الكتابات الثورية أمثال (كتاب الشهر اليساري) وما كانت تخرجه أقلام الفابيين (The Fablans) من دعوات تحررية. كان طبيعيا إذن أن يتأثر بعض شباب الخريجين بالدعوة المصرية والأفكار التي ظهرت عقب الحرب ومبادىء ويلسون الداعية لحسن تقرير المصير والحكم الذاتي فظهرت في دوائر الشباب المثقف السوداني الجمعيات السياسية الداعية إلى (وحدة وادي النيل) عقب الحرب ومن أشهر هذه الجمعيات (جمعية اللواء الأبيض) التي قدمت دليلا على تفاعل الشباب السوداني بما يحدث في مصر وذلك بتحريكها للمظاهرات في السودان حتى تطورت إلى ثورة عام ١٩٢٤. والمتأمل لتاريخ السودان السياسي قبل الاستقلال يلاحظ أن اشتداد العداء الوطني لبريطانيا ممثلة بحكومة السودان كان دائما يأتي عقب تصادم المصريين في مصر مع بريطانيا. فحركة عام ١٩٢٤ في السودان أتت كامتداد لحركة سعد زغلول في مصر عام ١٩١٩ كما أن تحقيق الاستقلال للسودان جاء عقب الانقلاب العسكري المصري عام ١٩٥٢ والاطاحة بالنظام الملكي الموالي لبريطانيا.

ولكل من مصر وبريطانيا مصالح عديدة في السودان غير ما كانت الدولتان تعلنانه وسنحاول هنا ذكر الأسباب الرئيسية.. بالنسبة لبريطانيا السبب الأساسي في تمسكها بالسودان هو موقعها الاستراتيجي.. فالسودان يمكن أن يكون بديلا لمصر في حالة فقدان الأخيرة ويمكن لبريطانيا عن طريق السودان أن تربط مصالحها المتعددة في جنوب أفريقيا مع الشرق الأوسط والشرق الأقصى. وحتى أن لم تفقد بريطانيا مصر تظل اهمية السودان قائمة لأنه عن طريقه يمكن التحكم في مصر التي أصبح خطرها يتزايد يوما بعد يوم عن طريق التحكم في مياه النيل المصدر الوحيد للحياة في مصر.

وهناك أيضا مصلحة اقتصادية بجانب الأهمية الاستراتيجية فبريطانيا قد اكتشفت في زراعة القطن منجما لتشغيل رؤوس الأموال البريطانية بفائدة كبيرة خاصة بعد النجاح الكامل الذي لقيه مشروع الجزيرة.

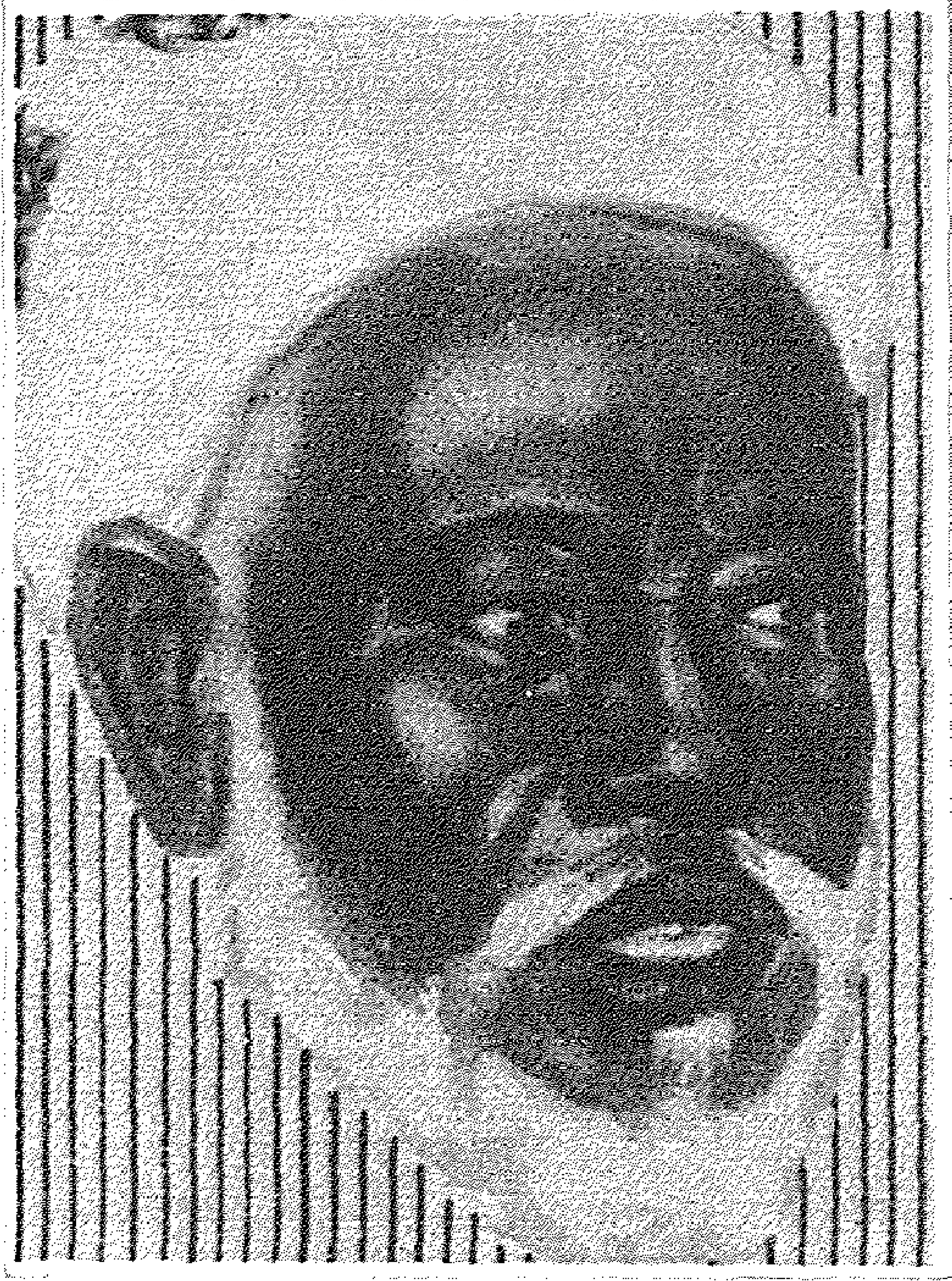
وهناك سبب آخر في تعلق بعض الاداريين البريطانيين الذين عملوا بالسودان بها.. فحين تم إعادة فتح السودان وجدته بريطانيا في حالة يرثى لها من فعل المجاعات والحروب في عهد المهدية فعملت حكومة السودان على خلق إدارة منظمة ونجحت في ذلك وفق توفير الحماية للمواطنين عن طريق إنشاء مراكز البوليس وتوزيعها على جميع الأماكن كما نجحت حكومة السودان في إبعاد نظام الامتيازات الأجنبية ولذلك أصبح بعض الاداريين البريطانيين يرون في السودان مثالا ناجحا للادارة البريطانية ومن هنا كانت معارضتهم لأي قول ينادي بوحدة السودان مع مصر وفي بعض الأحيان معارضتهم أيضا لبعض القرارات التي أصدرتها الحكومة البريطانية بخصوص السودان.

أما مصر فإن السودان كان بالنسبة لها يعني مصالح عديدة ولكن تعتبر مياه النيل وحاجتها المتزايدة لها هي العامل الأساسي في تمسكها بالسودان خاصة وأن مصر بلد زراعي في المقام الأول.. وقد كان قيام مشروع الجزيرة يشكل

تهديدا مباشرا لكمية مياه النيل التي تصل لمصر ومن هنا كان هجوم الوطنيين المصريين على المشروع ووصفه بأنه (مؤامرة استعمارية) وقد وجدت مصر إثباتا لشكوكها وتخوفها من استغلال مياه النيل في السودان للضغط عليها في الانذار الذي وجهه اللورد النبي لمصر عقب قتل السير لي ستاك في القاهرة عام ١٩٢٤، فقد أنذر اللورد مصر من ضمن الانذارات بأن حكومة السودان سوف تزيد الرقعة المزروعة في الجزيرة إلى مساحة غير محدودة.. وحين سئل اللورد النبي عن السبب الذي دعاه إلى إدخال الفقرة الخاصة بزيادة الأرض المزروعة في إنذاره لمصر اجاب (أنها قد ضمّنت حتى نبرهن لمصر أننا يمكن أن نحكمها عن طريق السودان)[٢].

وبجانب مياه النيل نجد أن لمصر مصلحة أخرى هامة في ضم السودان، فمصر كانت تعاني من ارتفاع متزايد في السكان وقد ذهلت الحكومة المصرية عقب إجراء تعداد سكاني عام ١٩٢٧ من الارتفاع السكاني ولذا تقرر أن الحل الوحيد لمثل هذه المشكلة هو فتح باب الهجرة للسودان وتبعا لهذا نجد أن مصر أصبحت تصر في جميع المفاوضات مع إنجلترا عقب إجراء التعداد على حق المصريين في الهجرة للسودان دون قيد أو شرط وفعلا ضمن هذا الحق في اتفاقية عام ١٩٣٦م.

بجانب وجود شريكين متنافسين في الحكم نجد أن واحدا من الأسباب الرئيسية الأخرى المساعدة على انقسام حركة الخريجين هو وجود طائفتين دينيتين متنافستين ــ طائفة الأنصار وطائفة الختمية.. وزعيميهما معروفان بالعداء لبعضهما البعض منذ ظهور المهدية ومحاولتها تدمير الطوائف الكبيرة الأخرى وعلى رأس هذه الطوائف الختمية.. وقد هرب معظم زعماء الختمية إلى مصر.. وطائفة الختمية كانت من مساندي الحكم التركي الأصل والسبب في مساندتها يرجع أولا إلى طبيعتها الاسلامية الدينية التي لا ترى ضيرا في أن تحكم السودان تركيا ــ مقر الخلافة الاسلامية ــ كما أن السودان أصبح يحكم لأول مرة حكما مركزيا وحّد البلاد إلى حد ما بعد أن كانت مقسمة إلى ممالك صغيرة لا رابط بينها.. اذن بقيام المهدية،



□ السيد عبد الرحمن المهدي.

كان طبيعيا أن يركز الحكم الجديد على تدمير الحليف القوي للعهد الذي سبقه وهو طائفة الختمية.

وقاست هذه الطائفة حتى مجيء الحكم الثنائي، فكان طبيعيا أن يهب زعماء الختمية لمعاونة الحكم الجديد على الانقضاض على الأنصار. ومن جانبها فإن دولة الحكم الثنائي شجعت الختمية بكل قوتها وبمختلف الطرق لتكون سلاحا مضادا لأي حركة انصارية كما أن حكومة السودان ــ التي تسيطر عليها بريطانيا بمفردها دون مصر ــ كانت تتخوف من قيام حركة إسلامية قد تنبع من تركيا أو الحجاز أو غيرهما من دول الشرق الاسلامي ولذلك وجدت الحكومة أن تقريب طائفة دينية كبيرة مثل الختمية تبعد عنها الشكوك فيما يتعلق بنواياها تجاه الاسلام والمسلمين، كما أن طائفة الختمية سوف تساعد الحكم الجديد في التقرب إلى المواطنين وعدم انقيادهم للحركات الاسلامية الخارجية.. ولكن مع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت تركيا الحرب كحليف لألمانيا ودعت الدول الاسلامية أن تحذو حذوها «لمحاربة الكفرة المستعمرين» ــ أي الحلفاء.. حينئذ قررت

حكومة السودان أن تسارع بطلب المعونة من جميع زعماء الطوائف الدينية في السودان في محاربة الدعوة التركية.. وهنا لم تستطع حكومة السودان أن تتجاهل السيد عبد الرحمن المهدي والعدد الهائل من الأتباع خلفه ــ الأنصار.. فوجهت له الدعوة مثلما وجهتها لغيره من زعماء الدين والمشايخ.. وكانت هذه المرة الأولى التي تتخلى فيها الحكومة عن سياسة التجاهل للأنصار كطائفة، واعتبرت دعوة السيد عبد الرحمن شبه اعتراف رسمي بطائفته وبزعامته لهذه الطائفة.

منذ ذلك الحين استعانت الحكومة بالسيد عبد الرحمن عددا من المرات، كما استغل السيد عبد الرحمن حاجة الحكومة له لبناء عدد من المشاريع الزراعية التي درت عليه ثروة ضخمة وساعدته على جمع طائفته المشتتة.. هنا بدأ الصراع مرة أخرى بين المهدية والختمية واستطاعت حكومة السودان الاستفادة من هذا الخلاف فساعدت على إبقاء النار مشتعلة بين السيدين عن طريق تقريب هذا وإبعاد ذاك تارة ثم العكس.. وقد وجدت حكومة السودان أن هذه السياسة أفضل من سياسة تدمير طائفة تدميرا كاملا وإبقاء الأخرى لحفظ التوازن. وقد كان سلاحها في ذلك العامل الاقتصادي أو الرخص الزراعية التي كانت تمنح للسيدين.

وفي الثلاثينات، وبعد أن ظهرت قوة الطبقة السودانية المثقفة عقب حوادث عام ١٩٢٤ وإضراب طلبة كلية غردون عام ١٩٣١ وبعد أن اتضح للسيدين أن الخريجين يمكن أن يكونوا حليفا قويا تهابه الحكومة، نقل السيدان منافستهما إلى دوائر الخريجين واستعملا في ذلك جميع الوسائل.. وقد أدى هذا إلى انشطار الخريجين إلى شقين أحدهما بقيادة أحمد السيد الفيل، أحد أوائل الخريجين ويسانده السيد علي الميرغني والغالبية من شباب الخريجين، والمعسكر الآخر بقيادة محمد علي شوقي وهو أيضا من كبار الخريجين ويلتف حوله عدد آخر من الخريجين خاصة أبناء الأسر الأنصارية.. وقد تبنى معسكر الفيل (الفيلست) دعوة «وحدة وادي النيل تحت التاج المصري» وفيه تكونت نواة الأحزاب الاتحادية التي ظهرت في الأربعينات.. كما تبنى الشوقيست شعار «السودان للسودانيين» وفيه تكونت نواة الأحزاب الاستقلالية التي ظهرت فيما بعد.

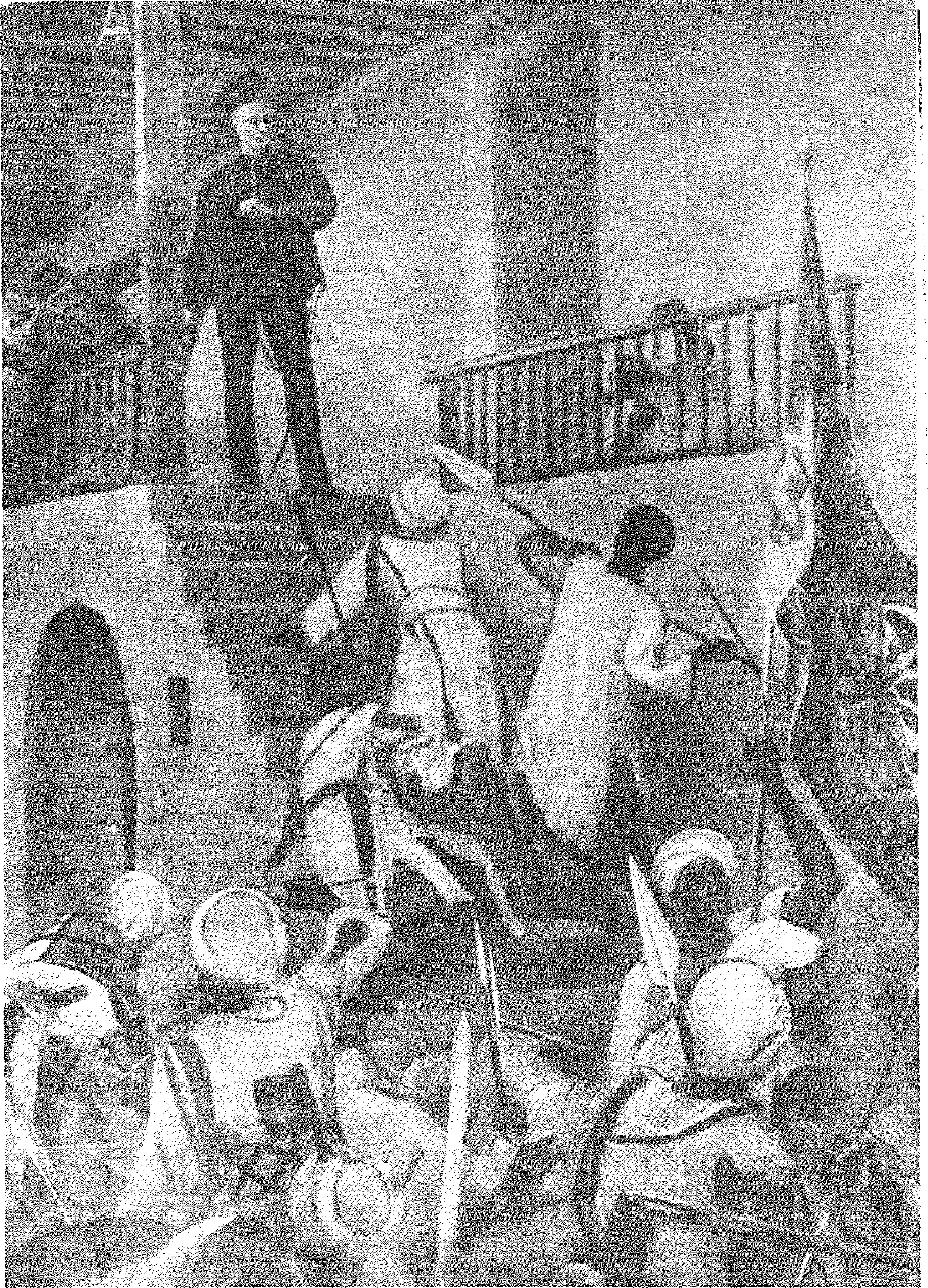
وقد نجح الخريجون الموالون للسيد عبد الرحمن في السيطرة على نادي الخريجين منذ عام ١٩١٨ وحتى قيام مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٨ وذلك لأنه كان يساعدهم بالمال والنفوذ الشخصي، أما الفيلست فقد منوا بالهزيمة المرة تلو الأخرى وذلك لأن السيد علي كان حريصا على أن لا يتدخل في الأمور العامة وخاصة السياسية إلى الحد الذي قد يلفت إليه نظر الحكومة وقد كان مبدأه دائما أن «لأتباعه مطلق الحرية»[٣] وأن «الداخل علّي يخلع كل رداء إلا رداء الطائفة».

وقد تصعدت المنافسة داخل مؤتمر الخريجين حتى تفتت المؤتمر إلى أحزاب في الأربعينات فظهر حزب الأمة والأشقاء ومجموعة الأحزاب الاتحادية والاستقلالية.

إذن المنافسة بين السيدين كانت ثاني العوامل الرئيسية المسببة لظهور (الثنائية) في حركة الخريجين الوطنية.

وبجانب هذين العاملين الرئيسين هناك العوامل التي نجدها عادة في جميع المجتمعات والحركات الوطنية التي تظهر مثل المنافسة بين الأشخاص والاختلاف في العقليات والمبادىء والمثل بين الجيل القديم والجيل الحديث.. وفي السودان وضح الاختلاف في الرأي حول مستقبل السودان بين كبار وشباب الخريجين بشدة خاصة بعد ثورة ١٩٢٤ أو بالتحديد في أوائل الثلاثينات.. فكبار الخريجين هم الجيل القديم من أوائل الخريجين ممن احتلوا أعلى المناصب الحكومية للسودانيين وذلك بحكم أنهم أوائل الخريجون وهم أيضا من كبار السن بالنسبة لمن بعدهم من الخريجين ولذلك نجدهم من دعاة التطور الدستوري المتأني تحت رعاية بريطانيا.. وقد أدت دعوتهم تلك لأن يتهمهم صغار الخريجين بارتباط تلك الدعوة بحكومة السودان وبريطانيا وأنها ليست إلا إرضاءا للحكام طمعا في الاحتفاظ بمراكزهم والتقرب للحكومة.

وقد استعان كبار الخريجين في منافستهم لبعضهم البعض بمساندة السيدين لتقوية



□ غوردون يواجه المصير: في هذه الصورة التاريخية، نرى غوردون واقفا على درج منزل قصره، عندما احاط به الثوار، واقتحموه.. وتقدم أحدهم فرمى سهمه إلى قلب غوردون.. فلقي حتفه.



□ يوزباشي قاسم السيد خلف الله، من ابطال حركة عام ٢٤، وإلى جانبه اليوزباشي عبد الفراج محمد، احد المجاهدين

نفوذهم بين شباب الخريجين وفعلا نجحوا في أوائل الثلاثينات في شطر الخريجين شطرين انضم كل منهما إلى زعيم من كبار الخريجين فظهر إلى الوجود الفيلست والشوقيست.. ولكن كما حاول كبار الخريجين استقطاب الشباب في المنافسة المحتدمة لتقوية النفوذ كذلك كانت فكرة الشباب في الثلاثينات استغلال الصراع الشخصي القائم بين كبار الخريجين لتحقيق اهدافهم.

فالقسم الذي تجمع حول شوقي من الشباب كان يؤمن فعلا بأن للسودان ذاتيته المستقلة عن مصر وكينونته الخاصة به وبأن السودان يجب أن يكون فعلا للسودانيين لا لمصر أو إنجلترا.. هذا القسم من الشباب اختار شوقي زعيما له لأنه كان يتمتع بمساندة السيد عبد الرحمن كما أن شباب هذا المعسكر كان ينتمي إلى أسر ذات صلة بالمهدية ومعظمهم شعروا بالمرارة تجاه مصر خاصة عقب حوادث عام ١٩٢٤.. أما القسم الآخر من الشباب فقد اختار الفيل زعيما له وواجهة لدعوة وحدة وادي النيل، وأغلبية شباب هذا المعسكر ينتمون إلى أسر ختمية.

إذن قرار شباب الخريجين باستغلال المنافسة القائمة بين كبار الخريجين ساعد على انشطار حركة الخريجين الوطنية إلى التيارين المتضادين الاستقلالي والاتحادي.

ونجد أن طبيعة السودان الاجتماعية والجغرافية بمساحته الواسعة وقبائله المتعددة والمختلفة تمام الاختلاف عن بعضها البعض، وتغلب عصبية الانتماء الطائفي على المصلحة الوطنية قد هيأت المناخ المناسب في نفسية السودانيين — حتى الخريجون منهم — للانقسامات والتحزبات وقد استغلت بريطانيا هذا الضعف لخلق التيارين المتصارعين داخل حركة الخريجين وكانت من أهم وسائلها في ذلك خلق المنافسة بين الطائفتين الكبيرتين حتى امتدت هذه المنافسة إلى دوائر الخريجين وايضا خلق طبقة من كبار الموظفين من الخريجين الأوائل حتى تصبح لهم مصلحة في استمرار الحكم الثنائي على ما هو عليه دون تغيير، ومن هنا كانت مناداتهم بدعوة السودان للسودانيين، واستمرار الحكم الثنائي تحت رعاية بريطانيا لحين تحقيق الحكم الذاتي.



□ اللورد كتشنر.

ولكن هنـاك من يعتقد أن ظهـور فكرتـين او تيارين متصارعين وسط الخريجين كانت له بعض الحسنات فقد أدى هـذا إلى احتـدام المنافسة بين الشريكين الحاكمـين كل يحـاول استمالة العدد الأكبر من الطبقة المستنيرة من الخـريجين وذلك عن طريق تقـديم التنـازلات والعـروض، ومن هنـا كـان ظهـور الجمعيـة التشريعية والمجلس الاستشاري كدليل على أن حكومة السودان ـ الممثلة لبريطانيا ـ تسير فعلا في طريق التطور الدستوري المؤدي للحكم الذاتي ومن هنا أيضا كان تنازل مصر عن مبدأ السيـادة المصريـة على السـودان عام ١٩٥٣ لكسب رضـاء السودانيـين في الاستفتاء عـلى الاتحاد والاستقلال، وهناك قائـل بأن التيـار الاتحادي كان تيارا مفتعلا ولم يكن الايمـان بوحدة وادي النيل حقيقيا، بل كان خطوة نحو تحقيق الاستقـلال الكـامـل للسـودان ولهـذا لم يتردد الاتحاديون في التصويت للاستقلال عند إعطائهم الفرصة.. ولقد كان التيار الاتحادي بمثابة صمام أمان للحركة الوطنية وذلك بمنع الاستقلاليين من تقديم تنازلات دون قيد أو شرط للمستعمر وذلك خوفـا من اتهامـات ومراقبـة الاتحاديين كما ساعد التيار الاستقلالي وازدياد قوته في نهاية الأربعينات على أن تتنازل مصر عن دعواها بالسيادة المطلقة عـلى السودان فتمت بذلك اتفاقية عام ١٩٥٣ بعد أن عرضتها مصر على الأحزاب الاستقلالية.

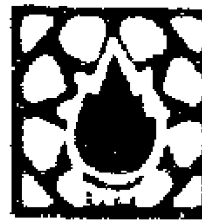
ومهما كانت حسنات (الثنائية) التي حكمت الحركة الوطنية في السودان فلا بد أن نتذكر دائما أن الاتحاد في الحركات الوطنية قوة لها ولا أحد يعرف ماذا كان سيكون تاريخ الحركة الوطنية في السودان لو لم تنقسم.. لربما كان السودان استقل قبل الهند لو عرفت الحركـة الوطنيـة كيف تشعل هي نـار المنافسـة بـين الشريكين في الحكم على كسب رضاءها بدلا من أن تتركها لتستغل التقسيم الطائفي الموجـود والمنافسات الشخصية. ●

الهوامش

(١) احمد خير في مقابلة مسجلة بتاريخ سبتمبر ١٩٧٤.

(٢) مكي عبـاس ـ المسألة السـودانيـة ـ الفصـل السابع.

(٣) من مقـابلات مـع عدد من المعـاصرين للحـركة الوطنية: احمد خير ـ علي حامد الهادي أبو بكر.



«إنني رجل قد وضعت تحت تصرف عقلي واختباري وبياني، فإن استفادت الأمة من عملي فذلك ما يجعلني سعيداً، وإلا فهو واجب قد أخذته على نفسي، فأنا أقوم به لأريح ضميري».

سعد زغلول

«قالوا تصان البلاد ويحر الملك بالبروج المشيدة، والقلاع المنيعة والجيوش العاملة والأسلحة الجيدة، قلنا نعم هي احراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها فلا صيانة بها، ولا حراسة إلا ان يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأي وحكمة يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب».

محمد عبده

● لجنة للعناية بشؤون التراث العربي الاسلامي في الكويت

ضمن اهتمامات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية في الكويت بشؤون التراث العربي الاسلامي شكلت الوزارة مؤخرا لجنة خاصة للعناية بأمور التراث العربي الاسلامي وإحياء منتخبات منه عن طريق تحقيقها ونشرها.

تعمل اللجنة (تتبع لجنة الموسوعة الفقهية بالوزارة) برئاسة الدكتور محمد سليمان الأشقر الخبير بالموسوعة الفقهية وتضم في عضويتها كلا من: الدكتور عبد الستار عبد الكريم أبو غدة مقرر الموسوعة، والدكتور عجيل النشمي العميد المساعد في كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الكويت، والأستاذ عبد الحفيظ منصور الباحث في معهد المخطوطات العربية، والأستاذ عبد الحميد البسيوني الباحث في قسم التراث العربي التابع للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

تهدف اللجنة إلى تنسيق الجهود في نشر التراث وتأمين وسائل دراسته وفهرسته ووضعه في متناول الباحثين، وذلك عن طريق إعداد خطة لنشر التراث العربي في الوزارة وترشيح كتب للتحقيق أو المراجعة أو الطبع، مع الاهتمام بدراسة ما تتطلبه العناية بالتراث الاسلامي لا سيما المخطوطات والوقفيات ووضع السياسة العامة والوسائل العلمية في هذا المجال.

هذا وكانت اللجنة قد عقدت أول اجتماع لها في شهر اكتوبر (تشرين الأول) الماضي.

● معهد التراث العلمي العربي في حلب يعقد مؤتمره الثامن في إبريل المقبل

يبدأ معهد التراث العلمي العربي في الحادي عشر من إبريل (نيسان) المقبل ولمدة يومين المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب، كما يحتفل بذكرى مرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب ومؤرخ الطب العربي ابن ابي أصيبعة.

يهدف المؤتمر إلى تقديم أبحاث أصيلة لم تنشر سابقا في موضوعات تاريخ العلوم الأساسية والعلوم الطبية عند العرب.

كما يهدف المؤتمر الذي سيعقده المعهد في جامعة حلب بالتعاون مع الجمعية السورية لتاريخ العلوم إلى إبراز مساهمة الحضارة العربية في إغناء الحضارة الانسانية، وبيان مكانة العلوم العربية، ومدى ما أسهم به العلماء العرب في تقدم العلوم، إضافة إلى إلقاء الضوء على حياة وأعمال الطبيب والمؤرخ أحمد موفق الدين بن أبي أصيبعة.

من المتوقع أن تدور أبحاث ومناقشات المؤتمر خلال يومي الانعقاد على:

— تاريخ العلوم الأساسية، وتشمل: الرياضيات — الكيمياء — الفيزياء — النبات — الحيوان — الجيولوجيا.

— تاريخ الفلك والتنجيم.

— تاريخ الطب والطب البيطري والصيدلة والعلوم الطبيعية.

— تاريخ التكنولوجيا والصناعات العربية وتشمل: الهندسة الميكانيكية — الهندسة الهيدروليكية — الهندسة المعمارية — الهندسة المدنية — الهندسة الحربية — الصناعات الكيميائية.

— وهناك موضوعات تتعلق بالاحتفال بذكرى مرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب والمؤرخ أحمد موفق الدين بن ابي اصيبعة.

وكان معهد التراث العلمي العربي في حلب قد عقد عدة مؤتمرات علمية متخصصة أهمها:

— المؤتمر الأول للجمعية السورية لتاريخ العلوم أثناء انعقاد الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب في الفترة الواقعة ما بين ٥ — ١٢ نيسان ١٩٧٦.

— المؤتمر السنوي الثاني للجمعية في الفترة الواقعة ما بين ٦ — ٧ نيسان من عام ١٩٧٧.

— المؤتمر السنوي الثالث للجمعية في الفترة الواقعة ما بين ١٢ — ١٣ نيسان من عام ١٩٧٨.

— المؤتمر السنوي الرابع للجمعية أثناء انعقاد الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم في الفترة الواقعة ما بين ٥ — ١٢ نيسان ١٩٧٩.

— المؤتمر السنوي الخامس للجمعية في الفترة ما بين ١٣ — ١٤ أيار من عام ١٩٨١.

— المؤتمر السنوي السادس للجمعية في الفترة الواقعة ما بين ١٤ — ١٥ نيسان من عام ١٩٨٢.

— المؤتمر السنوي السابع للجمعية في الفترة الواقعة ما بين ١٣ — ١٤ نيسان ١٩٨٣.

ومن الجدير بالذكر أن المعهد بدأ في العاشر من ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٣ ولمدة خمسة أيام الندوة الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب والتي انعقدت في الكويت بمشاركة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب لبحث موضوع: «إسهامات العلماء العرب في علوم النبات والري والفلاحة».

● معهد التراث العلمي العربي يبدأ بمنح دبلومات جديدة في تاريخ العلوم العربية

بدأ معهد التراث العلمي العربي في حلب في هذا العام الدراسي (١٩٨٣/١٩٨٤) بمنح دبلومات جديدة في تاريخ العلوم العربية، وذلك في المجالات التالية:

— دبلوم الدراسات العليا في تاريخ العلوم الطبية.

— دبلوم الدراسات العليا في تاريخ العلوم الأساسية.

— دبلوم الدراسات العليا في تاريخ العلوم التطبيقية.

ومدة الدراسة لنيل هذه الدرجة العلمية سنة واحدة.

● كتب جديدة في معهد التراث العلمي العربي بحلب

يوشك معهد التراث العلمي العربي التابع لجامعة حلب أن ينتهي من طباعة عدد من الكتب منها:

— أقرباذين القلانسي، تحقيق الدكتور محمد زهير البابا.

— بغية الطلاب في شرح منية الحساب لمحمد احمد بن غازي المكناسي، تحقيق الدكتور محمد سويسي.

— المجلد الثاني من موسوعة حلب المقارنة لخير الدين الأسدي (أدب — اجتماع — لغة).

● تحقيق مجموعة من الكتب في لجنة التراث بأكاديمية المملكة المغربية

ضمن اهتمامات وزارة الثقافة المغربية في إحياء التراث العربي وبعثه ونشره عقدت لجنة التراث لأكاديمية المملكة المغربية اجتماعا لها في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٨٣ لبحث موضوع خطة نشر المخطوطات هناك، حضر الاجتماع كل من محمد باحنيني وعبد الرحمن الفاسي وابراهيم الكتاني ومحمد بنشريفة.

● مجلة المجمع العلمي الهندي

صدر المجلد الخامس من «مجلة المجمع العلمي الهندي» التي اسست سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٧٦م وهي مجلة نصف سنوية تعنى بالشؤون الثقافية والحضارة الاسلامية ودراسة المخطوطات العربية. وتصدر عن المجمع العلمي الهندي بجامعة عليكرة الاسلامية في الهند بإشراف الدكتور مختار الدين أحمد أمين عام المجمع.

والمجلة التي تصدر باللغة العربية يسرها أن تتلقى البحوث المبتكرة والأصيلة في مجال تخصصها على العنوان التالي:

Dr. Mukhtar El Deen Ahmad Majallat Al-Majma Al-Ilmi Al-Hendi, Muslim university Aligarh India.

● ترميم بعض المخطوطات اليمنية

□ تتعاون الهيئة العامة للآثار ودور الكتب اليمنية في صنعاء مع هيئة الآثار اليابانية على ترميم عدد من المخطوطات اليمنية. تضم هذه المخطوطات ٦٣٠ مصحفا مكتوبا على الرق، و ٣٥٠ مصحفا مكتوبا على الورق عثر عليها عند إصلاح الجدار الغربي للجامع الكبير في صنعاء سنة ١٩٧٢ وعلم أن العمل في الترميم سيستمر ثلاث سنوات.

«المهنة: فنان ــ رسام» هكذا كان أدولف هتلر يقدم نفسه في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى. حين كان طالباً، كان يكرس سراً معظم وقته الدراسي، بعمل تخطيطات. فإذا سئل عما يعتزم أن يمتهن في المستقبل، قال بثقة: سأكون رساما كبيرا. ولما كان يتيما فقد استغل هذه الموهبة للكسب، في فيينا وميونيخ، راسما لوحات ينقلها عن بطاقات بريدية.

لوحات رسمها هتلر تغزو أنحاء العالم



د. رياض العالي

تفرغ أميركي من تكساس، اسمه بيلي ف برايس، وهو مؤرخ عصامي، لجمع أعمال الفوهرر المنسية. وقد ساعده أستاذان في تاريخ الفن: ألماني اسمه أوغست بريساك، ونمساوي اسمه بيتر جاهن، فوجد ٧٢٣ رسما ولوحة رسمها هتلر بين عامي ١٨٩٩ و١٩٤٣. وقد نشر صورها في مجموعة «Adolf Hitler Als Maler und Zeichner» (رسام ومصور). وقد صدرت عن دار أمبر فيرلاغ في ميونيخ. وقد وجد برايس خلال البحث، مجموعات سرية من رسوم هتلر، في كل أنحاء العالم. تملك الحكومة الأميركية نفسها أربعة مناظر من غنائم الحرب. وقد ارتفع سعر بعض هذه الأعمال، حديثا، إلى ٢٥٠٠٠ دولار. يتنازعها هواة الذكريات التاريخية. وكان ألبرت سبير، مفتش عام مباني برلين، قد احتفظ بعدة مشاريع ومصورات هندسية، لمستقبل «رايخ الألف عام المقبلة». كان هتلر يقول: «لولا الحرب لكنت أحد كبار مهندسي ألمانيا، إن لم اكن أعظمهم».

رسم ٣٠٠ لوحة بالأكواريل

ترك هتلر مدينة لنز في النمسا، بعد موت أمه، وقصد فيينا في أيلول عام ١٩٠٧. كان حلمه في الثامنة عشرة أن يصبح رساما فنانا. وتقدم مرتين، دون أن ينجح، إلى مدرسة الفنون الجميلة. فقد قرر الأساتذة أن الرسوم التي قدمها لا تدل على «كفاءة» ملحوظة. في نهاية عام ١٩٠٩، استنفد كل إرثه البسيط، واضطر إلى ترك غرفته المستأجرة، وانتقل إلى ملجأ من لا ملجأ لهم في ميدلينغ. وهناك لقي شخصا يدعى رينولد هانيش، الذي رآه يرسم في غرفة المطالعة، فدعاه إلى التحالف معه، فيرسم هتلر، ويسوق هانيش. تم الاتفاق، فراح هتلر يرسم كل يوم لوحة بالأكواريل، فيبيعها هانيش ويتقاسمان الثمن. لم يكن هتلر يرسم نماذج، وإنما كان يستوحي أو ينقل بطاقات البريد، التي تحمل مناظر معروفة، كالتماثيل، أو روائع البناء القديم، وما اشبه. وقد وجد الزبائن في اللوحات مادة تزيينة جيدة، كانوا

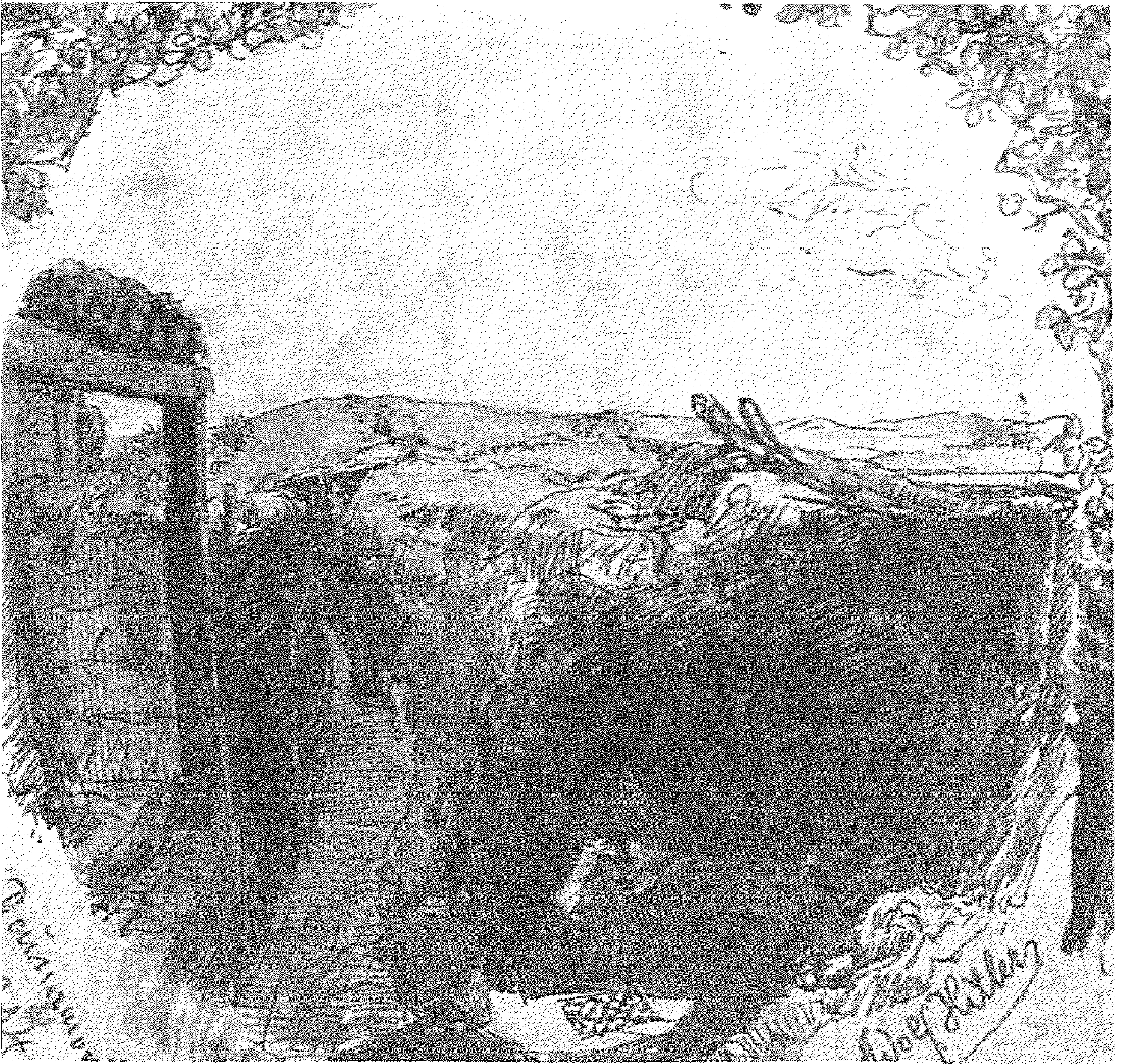


□ حانة الساحة في ميونيخ (١٩١٣).

يضعونها في الخزائن الزجاجية أو على المقاعد، جريا على نمط ذلك العصر.

الزهور، العائلة، الحرب

ما لبث هتلر أن انفصل عن هانيش الذي حاول «استغلاله». ولم يطب له المقام في فيينا، التي بدت له، خلال بؤسه، عاصمة كل انواع الفساد. في ٢٤ أيار، حل في ميونيخ مدينة الفن، حيث كان كاندنسكي وكلي يقومان بثورتهما الفنية. أما هـو فظل أمينـا لمثله الأعلى: كانت لوحاته تترجم إيحاءاته، وذوقه الفني. وقدم إلى ليوندنغ، ضاحية لنز، حيث يرقد أبواه، لوحة ساذجة للعذراء وطفلها، تحيط بها الزهور، الشبيهة بزهور لوحاته بالأكواريل. وقد وجدت هذه اللوحة لدى تاجر في فيينا، وجدها المستشار فون بابن، وكـان يومذاك سفيرا لألمانيا في النمسا، وقدمها إلى الفوهرر في عيده الخمسيني. في آب ١٩١٤ جند هتلر، وبعد تدريب سريع أرسل إلى الجبهة في تشرين الثاني. وقد صور الخنادق في دوومون، التي لم يعد إليها بعد ذاك.



□ خنادق دوومون (١٩١٤).

ايفا براون وجيلي ابنة أخته

جند هتلر نفسه، بعد الحرب، للسياسة، وكان لا يعود إلى أقلامه وريشه إلا نادرا. وقد أسس الحزب الوطني — الاشتراكي، وقام بانقلاب فاشل، فسجن في حصن لندسبرغ، فانصرف فيه إلى الكتابة، وكتب «كفاحي». وبدأ يسير على طريق تسلم السلطة. واستدعى إلى ميونيخ ابنة أخته جيلي روبال، وكان عمرها ١٩ سنة. كان يحبها حبا جما ويدللها، ولكنها ثارت ضد حكمه. ويقال إن هتلر رسمها وهي عارية، رسوما فاضحة. ولكن الواقع أنه رسم لوحة واحدة، فقد انتحرت عام ١٩٣١ ليل ١٧ أيلول. تخلى عن الرسم زمنا، ولم يعد إليه إلا حين رسم إيفا براون، مع العلم أن لوحات إيفا المنسوبة إليه غير موقعة.

يرسم نابليون الذي كان معجبا به

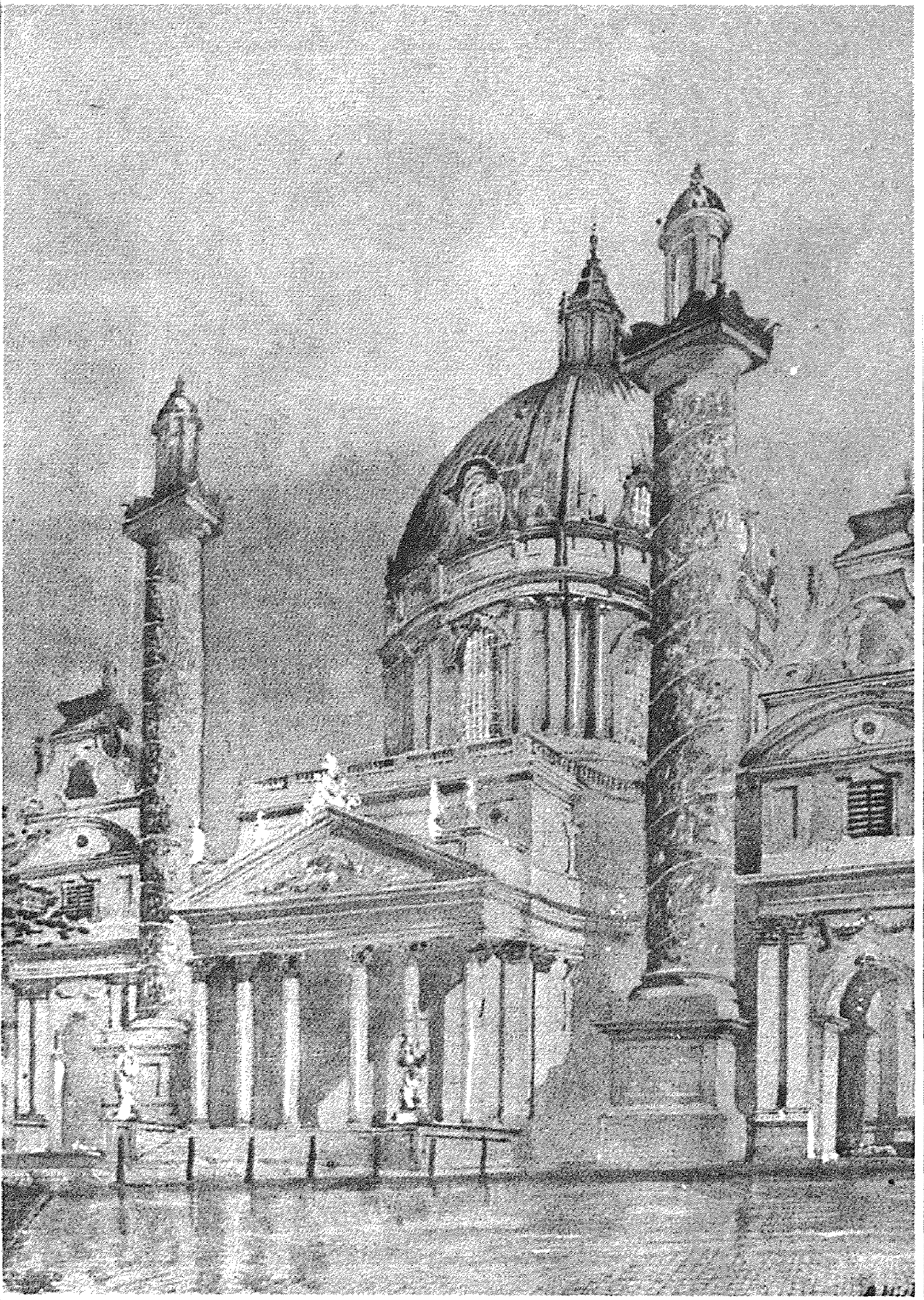
أعجب هتلر بفتوحات نابليون الأوروبية، منذ دخل عالم السياسة. وحين زار باريس عام ١٩٤٠، زار



□ نابليون
(١٩٢٥ ــ ٢٨).



□ لوحة «غريتل سليزاك» ابنة مغني التينور ليوسليزك (١٩٣١)



□ كنيسة سان شارل في فيينا بعد العاصفة (١٩١٠)

□ بحيرة الملك في بافيير (١٩١١).

قبره تعظيما له، ووقف في الأنفاليد، وقبعته على صدره، مستغرقا في تأمل طويل. وبعد زمن أعاد إلى فرنسا رفات ابن نابليون «الصقر» ويقال إنه كان يتمنى، حتى آخر لحظة، أن يموت في ٥ أيار، يوم وفاة نابليون، فيما كانت برلين تحترق.

في نهاية العشرينات، رسم هتلر صورة شخصية لنابليون، وصورة أخرى نادرة لمغنية الأوبرا غريتل سليزاك، ابنة أحد كبار مغني التينور في فرقة أوبرا فيينا. وكانت تقاسم هتلر حب فاغنر. وكانت حاشية هتلر تعتقد أنه سيتزوجها. وقد أهداها اللوحة بمناسبة عيد الميلاد.



□ إنك تقرأ كتب التاريخ لتستفيد من أعمال الناس، وما وقع لهم، وما صدر منهم، وما كان من نتائج أعمالهم وتقرأ سير العظماء لتتشبه بهم، وتدرك موضع عظمتهم. وتقرأ الطبيعة والكيمياء لتستفيد من استكشاف قبلك لقوانين الطبيعة، فالحياة كلها تجارب، والتجارب مدرسة للانسان والاستفادة منها أهم سبل النجاح في الحياة.

أحمد امين



ساطع الحصري

توفي في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٨

يعد «أبو خلدون»، ساطع الحصري، أحد دعاة القومية العربية الذي أعطوا كل حياتهم الفكرية لها، والذين خاضوا في سبيلها كثيراً من معارك الفكر والقلم، ولذلك لم يكن غريبا أن يترك العديد من المؤلفات دفاعا عن فكرته، والذود عنها.

وفي مقدمة هذه المؤلفات:

«العروبة أولاً» و «دفاع عن العروبة» و «ما هي القومية؟»، و «حول القومية العربية»، و «الاقليمية، جذورها وبذورها».

أما الأفكار الرئيسية التي عرضها «الحصري» في هذه الكتب فيمكن تلخيصها على النحو التالي:

— القومية مرتبطة أوثق ارتباط باللغة. والأمة جماعة قائمة على اللغة والتاريخ.

— فاللغة هي روح الأمة، والتاريخ هو ذاكرتها وشعورها ووعيها.

— والقومية هي السمة الطبيعية العريقة للانسان والمجتمعات الانسانية.

— وقد بدأت الفكرة القومية تحكم التاريخ منذ بدايات القرن التاسع عشر.

— ويرى «أبو خلدون» أن الصراع الأساسي في الوطن العربي هو في جوهره صراع بين القومية والاقليمية، وأن النصر معقود في النهاية للقومية.

وهكذا يتبين أن «ساطع الحصري» قد ركز السمات الأساسية للقومية في اللغة والتاريخ مستبعدا غيرها من العناصر التي يراها الآخرون ضرورية في تكوين القومية، وذلك كالأرض والدين والاقتصاد والتراث الفكري.. ولهذا دارت بينه وبين غيره من المفكرين مناقشات كثيرة ومحتدمة. ومهما يكن من أمر هذه الخلافات، وأين يكون الصواب فيها والخطأ، فإن الحلم الذي لم يغب عن خاطر هذا المفكر العربي كان هو الأمة العربية الواحدة في دولة عربية واحدة.

و«ساطع الحصري» من أصل سوري، أقام في الآستانة فترة طويلة. فكان لسانه الأول تركيا أكثر مما كان عربيا.

وقد شغل بعض الوظائف الهامة في وزارة التربية العثمانية.. وبعد سقوط امبراطورية العثمانيين بعد الحرب العالمية الأولى انتقل إلى دمشق وعمل فيها وزيرا للتربية بحكومة الملك فيصل. وعندما انتقل فيصل إلى العراق رافقه وعمل أيضا بالتربية. وكان له أثره الواضح في نشر الوعي القومي العربي.

وقد نفى «ساطع الحصري» بعد فشل الانقلاب الذي قام به «رشيد عالي الكيلاني» فعاش في دمشق وبيروت، وأخيرا انتقل إلى القاهرة، وظل يعمل موظفا بجامعة الدول العربية حتى توفي في الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٦٨.

مركز العالم من جديد

د. ارنولد توينبي

أسباب انحسار الحضارة عنه وأسباب عودتها إليه

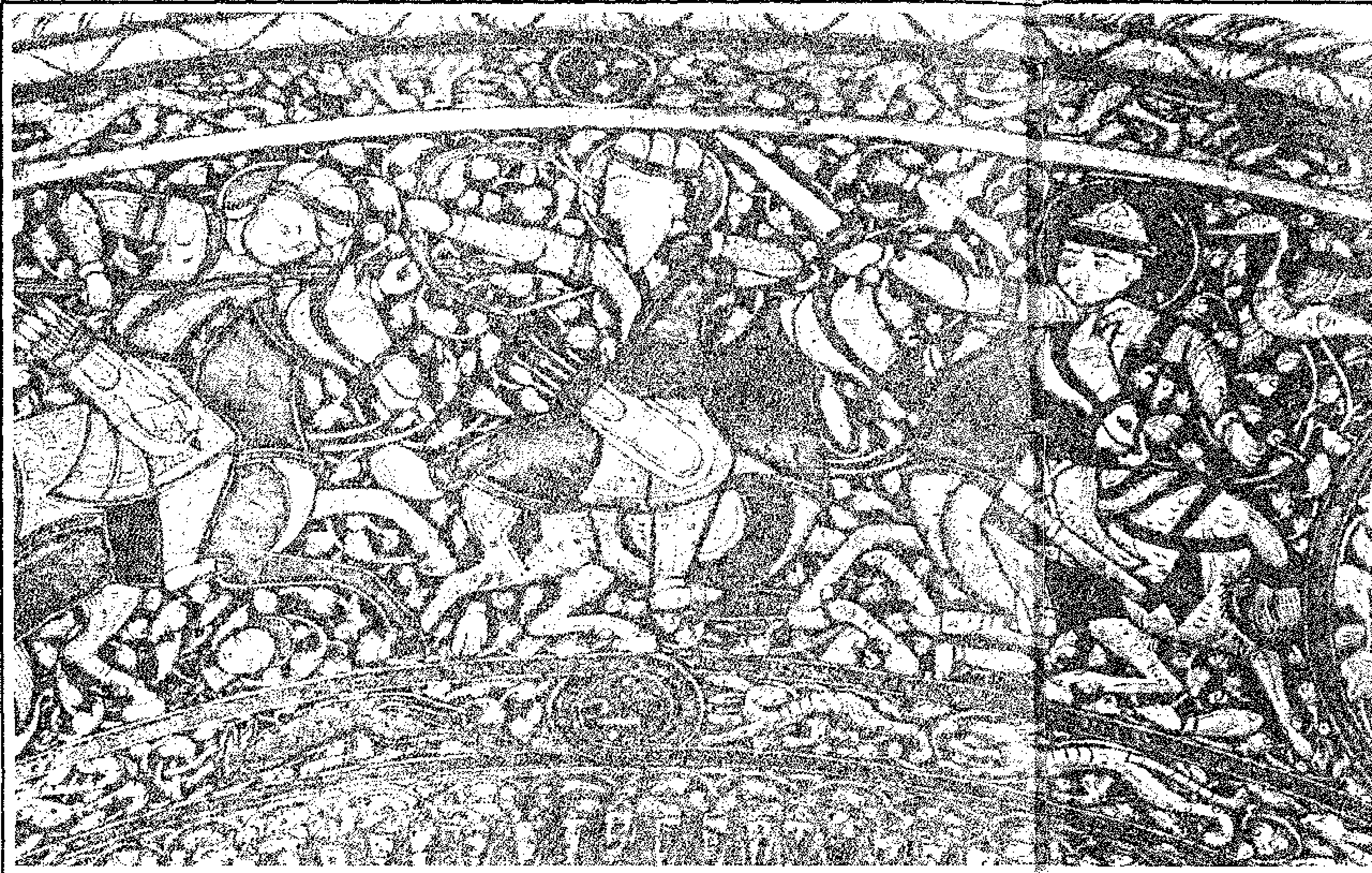
لقد جرت العادة على أن يقال أن الشرق الأوسط يشغل غالبا مكانا مركزيا من العالم المتمدن ككل. وقد كان الشرق الأوسط في مكان المركز خلال الشطر الأعظم من العصر الحجري الجديد وما بعد العصر الحجري الجديد. وأني اعتقد أن ذلك يرجع إلى ميزتين ماديتين:

الأولى هي النشاط المحلي العظيم فيما يتعلق بسلعة رئيسية. والثانية هي المركز المسيطر في نظام المواصلات بالنسبة للعالم المتمدن ككل. والسلعة الرئيسية الأصلية في الشرق الأوسط كانت هي القمح طبعا. القمح الذي زرع عن طريق الري في الوادي المنخفض للنيل وفي الوديان المنخفضة لنهري دجلة والفرات ووادي نهر السند.

وقد زرع القمح في مناطق كانت تغطيها الغابات والمستنقعات، كما كانت غير صالحة للحياة البشرية إلى أقصى حد قبل أن يستطيع الانسان أن يغزو الزمن هذا الغزو الخارق بالتعاون والجهود المشتركة.

وقد نهض المركز المسيطر للشرق الأوسط أصلا عن أساس ما توافر له من أقصر الطرق البرية والمائية بين اللسان الشرقي للمحيط الأطلسي وهو البحر الأبيض المتوسط واللسانين الغربيين للمحيطين الهادىء والهندي وهما الخليج والبحر الأحمر طبعا، وجميع الممرات البرية والمائية بينهما.

هذا هو الموقع الرائع المسيطر للشرق الأوسط بالنظر إلى طرق المواصلات. وقد كانت هذه الممرات البرية والمائية عن طريق الشرق الأوسط أسهل لأنه منذ بدء العصر الحجري الجليدي أو بالأحرى منذ الفترة الأخيرة للعصر الجليدي مهد جفاف شمالي افريقيا وجنوب غربي آسيا لتجريد هذه المناطق من الأدغال والنباتات وتحويلها إلى صحاري عارية ممهدة، أصبحت أسهل مناطق للعبور على وجه الأرض. وعلى ذلك فإن مراكز الحضارة في وديان انهار الشرق الأوسط لم تكن غنية بإنتاج القمح فحسب، ولكنها كانت غنية بإمكانات الاتصال بعضها ببعض، بفضل اكتشاف البلدان التي حولها. ونحن نعرف مدى تأثير تبادل المواصلات حين



خيالة من العصر المملوكي

نرى كيف تؤثر الحضارات المختلفة بعضها في البعض الآخر نتيجة لذلك، ومن الطبيعي أنه كانت هناك ملاحة نهرية داخلية في تلك المناطق بعد أن تمكن أهلوها من ترويض الأنهار فيها والسيطرة عليها.

غير أنه في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي فقد الشرق الأوسط ميزتيه العظيمتين.

فحين اكتشف سكان غرب أوروبا طريقهم البحري حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند والصين واليابان، وحين عبروا المحيط الأطلسي بغتة فقدت الممرات البرية والمائية بين البحر الأبيض المتوسط وبين البحر الأحمر أهميتها مؤقتا. ونحن نعلم مبلغ الاثارة والصدمة التي حدثت في البندقية حين وصلتها أنباء إبحار سفينة برتغالية محملة ببضائع هندية من شاطىء الهند مباشرة إلى لشبونة في البرتغال.



□ أرنولد توينبي.

ولم تكن البندقية وحدها هي التي تلقت الصدمة ولكن القاهرة تلقتها أيضا، لأن امبراطورية المماليك في مصر وسوريا كانت تنتفع بالتجارة مشاركة مع البندقية عن طريق هذه الممرات البرية والمائية القصيرة بين أوروبا والهند.

وحين شق البرتغاليون طريقهم إلى الهند بعد ذلك بوقت قصير وغزا العثمانيون امبراطورية المماليك، بذل العثمانيون خلفاء المماليك، كما نعلم، محاولة شديدة جدا لطرد البرتغاليين من المحيط الهندي.

ووقعت هذه المحاولة بين العثمانيين والبرتغاليين على أرض إثيوبيا.

وحدثت مواقع بحرية بين الأساطيل العثمانية والأساطيل البرتغالية في المحيط الهندي.

غير أن الشقة كانت بعيدة بالنسبة لمعظم أجزاء الامبراطورية العثمانية.

فلم يلبث العثمانيون أن تخلوا عن المنافسة وعن المحيط الهندي للبرتغاليين.

وهكذا أصبح المحيط، لفترة من الزمن هو الطريق الرئيسي للمواصلات بدلا من الطرق البرية.

ثم فقد الشرق الأوسط أيضا تفوقه كمنتج رئيسي للقمح في العالم. غير أن فقدان هذا التفوق كان تدريجيا وعلى فترة أطول كثيرا.

فقد استقر نظام الري بالمياه في العراق في الوقت نفسه الذي استقر فيه تقريبا في مصر.

وربما كان ذلك في سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد.

وقد سمحت الظروف باستمرار هذا النظام وتقدمه دون أزمات سياسية أو حروب فيما عدا بعض الفترات وربما حتى قيام الحروب العظمى بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية قبل الغزو العربي.

مناطق أخرى

وقد أدى نجاح الزراعة في موطنها الأصيل إلى انتشارها في مناطق أخرى عديدة، الأمر الذي قلل من أهمية هذا الموطن الأصلي أي وادي النيل ودجلة والفرات والأندوس.

وقد انتشرت إلى أقاليم ومناطق جديدة عديدة مثل جنوب شرق آسيا وأندونيسيا وجنوب الصين واليابان وجنوب روسيا وأوروبا وأميركا الشمالية وشمال الصين والأرجنتين وأستراليا وأجزاء أخرى كثيرة من العالم.

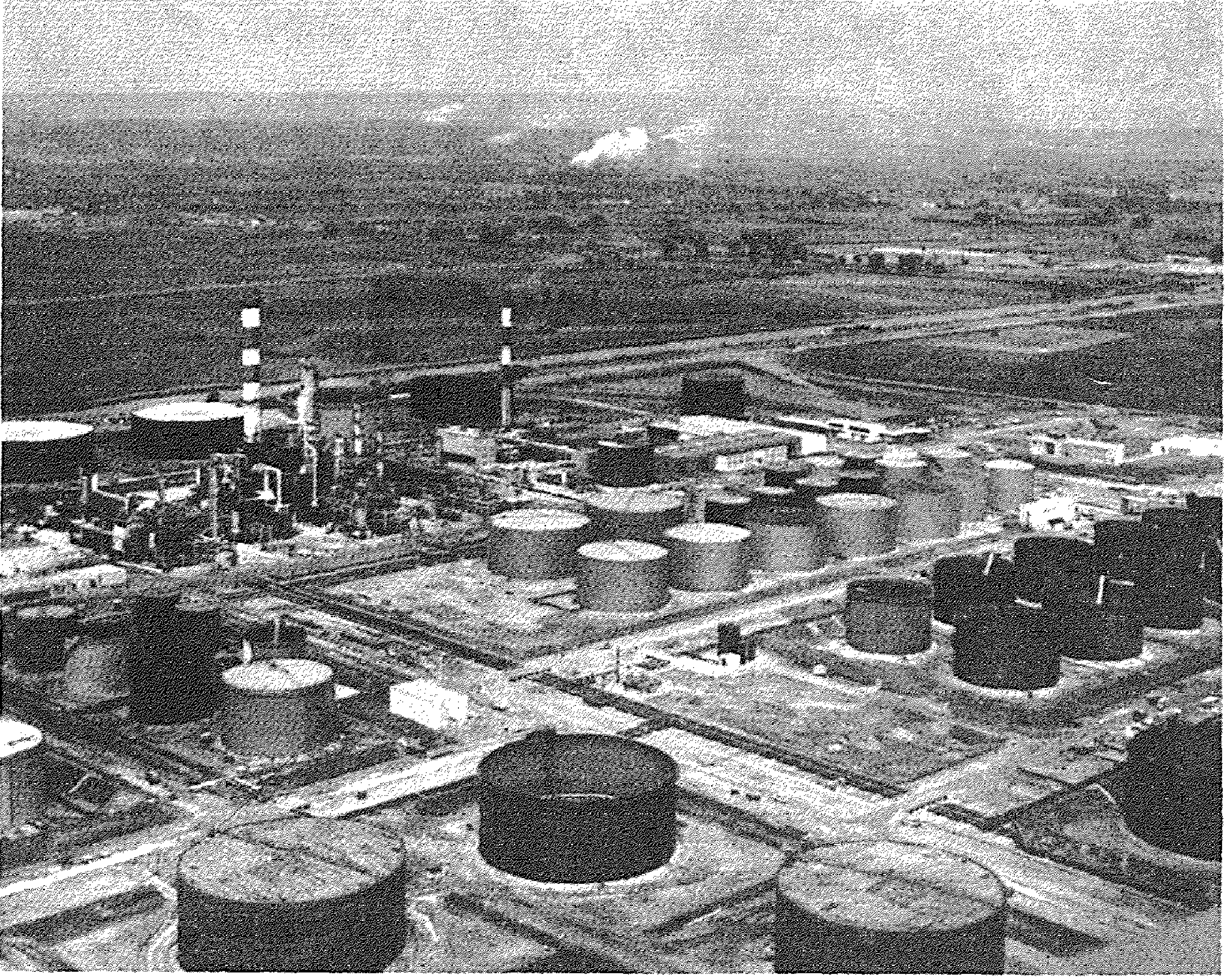
وإني أعتقد أن أحواض دجلة والفرات والأندوس لا تستطيع أن تأمل بعد الآن في أن تصبح المركز الرئيسي لانتاج الحبوب في العالم.

البترول

ومع ذلك فإنني أظن أن بعض الأجزاء المتصلة بالشرق الأوسط في عصرنا الحاضر وهي الشرق الأدنى والعراق وجنوب غرب إيران والكويت وشرق المملكة العربية السعودية... هذه الأجزاء وبعض أجزاء الشرق الأوسط الأخرى سوف تصبح مصادر مهمة لانتاج شيء يتساوى مع الحبوب ولكنه مختلف تماما في الوقت نفسه وأعني البترول. ولكننا يجب ألا نبالغ كثيرا بالنسبة للبترول لأن شأنه قد يكون شأن الفحم فتستجد أنواع من الوقود أحدث منه قبل أن تنضب موارده.

إني أعتقد أن بني البشر يتركون دائما بعض المواد قبل أن يستنفدوا الاحتياطي منها لأنهم يجدون دائما بديلا أفضل لهذه المواد.

وقد ظهر البترول موزعا ومخزونا في بلدان الشرق الأوسط حتى لقد عوض العراق وإيران مثلا عما فقدناه بسبب انهيار نظام الري والزراعة خاصة في العراق. كذلك ظهر البترول في المناطق شبه الصحراوية مثل المملكة العربية



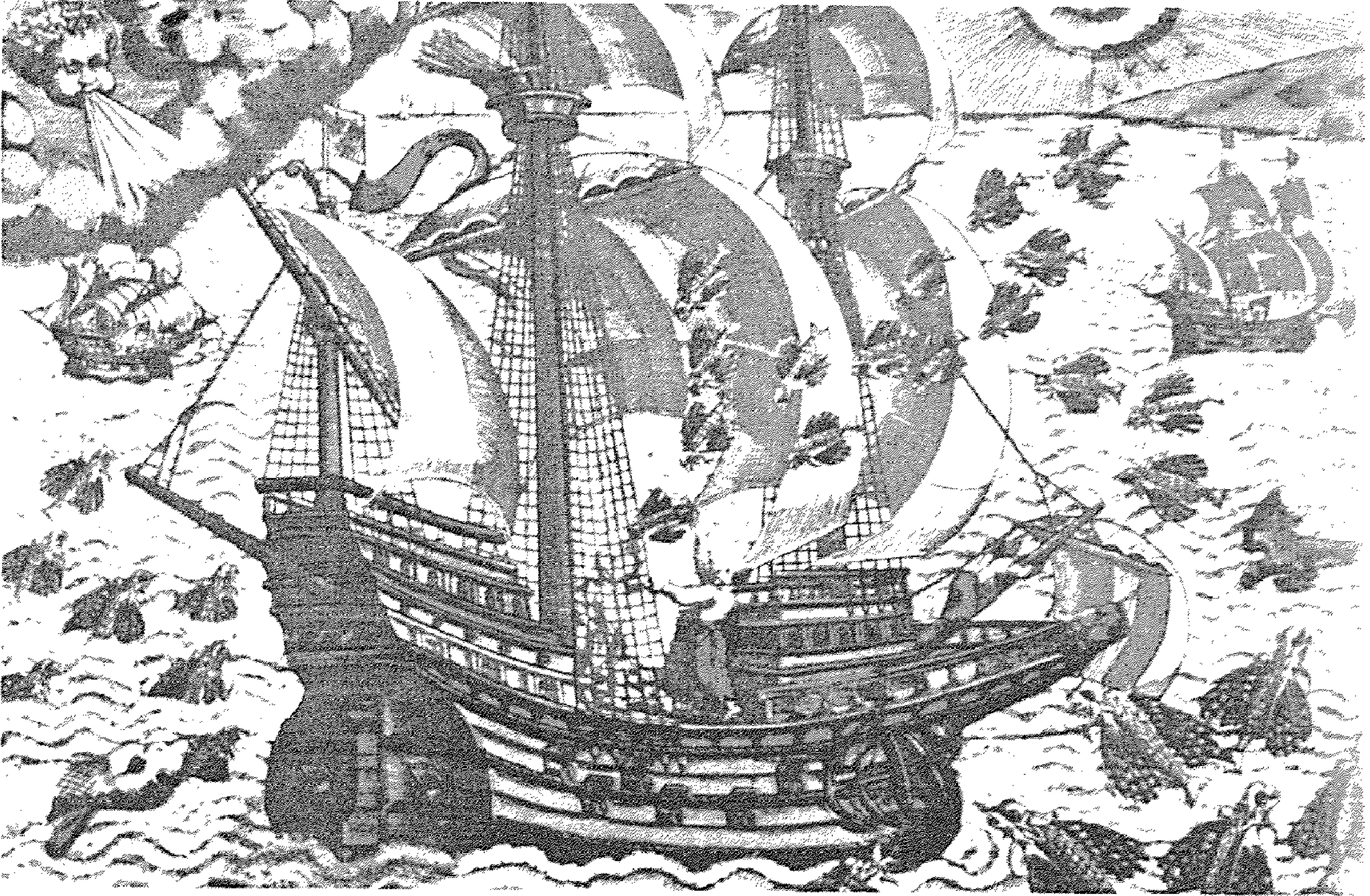
□ آبار البترول... ثروة العرب الجديدة..

السعودية والكويت بكميات كبيرة. ويستطيع (توباس) وهو خبير في احتياطي البترول أن يثبت أن احتياطي البترول في الكويت وحدها يعادل احتياطي البترول في الولايات المتحدة الأميركية كلها. وأظن أن ٧١ ٪ من احتياطي البترول في العالم كله يوجد اليوم في الشرق الأوسط. وفي الوقت نفسه استرد الشرق الأوسط مركزه الطبيعي المسيطر في نظام المواصلات العالمي ذلك أن السيطرة المؤقتة لغرب أوروبا على جنوب وشرق آسيا عن طريق الهند والصين أعادت فتح طريق قصير عبر الشرق الأوسط بين جنوب وشرق آسيا من ناحية وغرب أوروبا من ناحية أخرى.

ذلك أنه ما أن استطاعت شعوب غرب أوروبا أن تثبت أقدامها في جنوب آسيا وشرقها حتى تعبت من اضطرارها إلى الدوران حول شواطىء أفريقيا للوصول إلى هناك. وبدأت البحث عن طريق قصير بين الهند وأوروبا مرة أخرى.

وتوجد في كل مكتبة كتب للرحلات كتبها رحالة أوروبيون من فرنسا وانكلترا إلى الهند برا مارين بمصر أو بحلب عن طريق وادي الفرات. وكان هؤلاء الرحالة يعيدون فتح الطريق القديم القصير مرة أخرى وإنه وإن كان نزول نابليون في مصر عام ١٧٩٨ يعتبر حدثا سيئا من وجهة نظر معينة إلا أنه كان حدثا أفاد مصر في نهاية الشوط بأن جعلها مرة أخرى في موضع المركز من العالم. وإن نظرة نابليون ومحاولة احتلال مصر لتدل طبعا على أنه كان يعتقد أن مصر تحتل مركزا مسيطرا في العالم.

وقد كان من بين أجدادي أحد الأعمام الذي كان يعمل ربانا في إحدى تلك السفن



□ صورة ماخوذة من «اطلس مركاتور» عام ١٥٩٥ لسفينة الرحالة الشهير ماجلان الذي وصل إلى البحار الدافئة عام ١٥١٩.

الشراعية القديمة الطراز التي كانت تبحر لحساب شركة الهند الشرقية من لندن إلى كلكتا ومن كلكتا إلى لندن. وحين أبحر لأول مرة وهو في الثلاثين أو الأربعين من عمره كان عليه أن يدور حول رأس الرجاء الصالح.

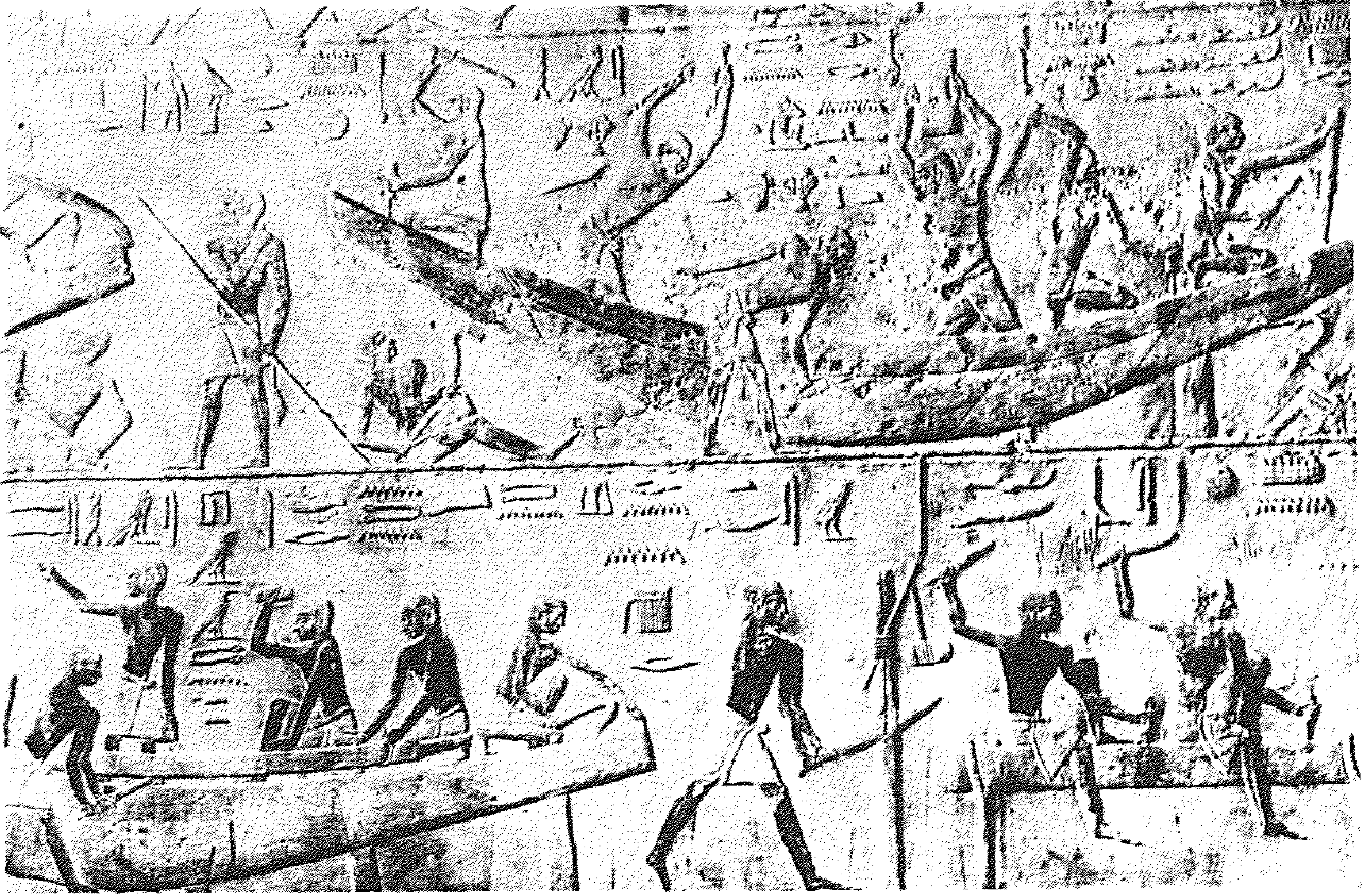
وفي عام ١٨٥٧ حين ثار جيش شركة الهند الشرقية البريطانية ضد البريطانيين في الهند وقامت الحرب في الهند كان على هذا العم من أسلافي أن ينقل القوات البريطانية إلى الهند عن طريق السفر في المحيط حول رأس الرجاء الصالح.

وكانت الرحلة تستغرق عدة شهور وكانت تمضي أسابيع دون أن تكون هناك أية أنباء. وقبل أن يتقاعد هذا العم من أسلافي عن العمل في البحر كانت مصر قد أنشأت خطا حديديا من الاسكندرية إلى القاهرة ثم إلى السويس. وفي السنة الأخيرة التي عمل فيها ربانا لتلك السفينة الشراعية كان يصل بها إلى ميناء الاسكندرية ثم ينزل إلى البر هو وركاب السفينة فيستقلون القطار إلى القاهرة حيث يتقابل هو وربان انكليزي آخر مع ركاب سفينة القادمين من الهند. وفي القاهرة يتبادلان أوراق السفينتين فيعود الربان القادم من الهند بسفينة هذا العم إلى لندن ويبحر هو بالسفينة الأخرى من السويس إلى كلكتا.

قناة السويس

وقد تقاعد هذا العم من أسلافي في عام ١٨٦٦ أي أن فرصة الابحار عن طريق قناة السويس فاتته بثلاث سنوات فقط. غير أنه عاصر الوقت الذي رأى فيه العودة إلى استخدام الطريق القصير عبر مصر بين أوروبا وجنوب غربي آسيا مرة أخرى.

ونحن لو نظرنا إلى خريطة للطرق الجوية العالمية فإننا نجد أنها تمر كلها تقريبا عبر منطقة الشرق الأوسط كما أننا إذا فكرنا في المطارات المهمة في العالم فإننا نفكر بمطارات القاهرة وبيروت واستانبول وبمباي وبغداد وطهران وكراتشي ونيودلهي. كما أن بقية الخطوط الجوية تقع على مقربة من هذه المجموعة المركزية



□ بناء السفن وصناعة الأسرة، مقبرة في بسقارة من كتاب الموسوعة المصرية، ١٩٦٠، القاهرة. «من كتاب حضارة الشعوب والأمم»، الجزء الرابع، رولان موسنييه.

للخطوط الجوية المهمة على أمل أن تستطيع أن تشارك في يوم من الأيام في هذه الحركة العالمية المهمة للنقل الجوي.

ومهما يكن من أمر الحاجة إلى البترول والسعي وراءه في المستقبل فإنني أعتقد أنه أصبح من الواضح أن الشرق الأوسط. قد استعاد مكانته الأولى بالنسبة لطرق المواصلات. وهناك عدة أسباب لذلك. والسبب الأول في نظري هو أن أي وسائل ميكانيكية حديثة للنقل ستبقي على الأرجح في حاجة إلى محطات برية تتزود فيها بالوقود. ومن ثم فهي ستبقى مرتبطة بالأرض بالمقارنة مع السفينة الشراعية. ومع ذلك فإننا لا نعرف بعد، ما إذا كانت وسائل النقل الميكانيكية سواء السفن أو الطائرات ستستطيع أن تستغني عن التزود بالوقود في وقت قصير أو طويل.

نحن لا نستطيع أن نتعارض مع العلم. ولكننا نستطيع أن نقول بثقة أن الشرق الأوسط يقع الآن على أقصر طريق بين المركزين الرئيسيين لكثافة السكان في العالم. فالكثافة الهائلة القديمة للسكان في الهند والصين قد تضاعفت بدرجة عظيمة منذ القرن الثامن عشر كما أن أوروبا وأميركا الشمالية أصبحتا مركزا جديدا لكثافة السكان منذ القرن التاسع عشر وبين هذين الجنسين هائلي العدد من السكان في العالم يقع الشرق الأوسط على أقصر طريق. وأعتقد أن هذا يضمن للشرق الأوسط مكانته كمركز للمواصلات.

التركيب الجيولوجي

لقد كانت سوريا طوال التاريخ ما عدا القرنين الأخيرين الشاذين، بمثابة المدينة الكبيرة التي تنتهي حدودها في إيران. وأنا مثلا حين اركب السيارة في القاهرة أصل إلى أماكن رئيسية تتشعب منها الطرق. وعلى هذا الأساس فإن سوريا وإيران تشبهان هذه الأماكن التي تتجمع فيها الطرق ثم تتشعب إلى جميع الاتجاهات في أنحاء العالم. فهما لا تربطان مصر والعراق وشبه القارة الهندية بعضها بالبعض فحسب ولكنها تربطان هذه الأقاليم كلها بجميع أنحاء العالم



□ كولومبس

المتحضر. وإن سكان المدن في العالم القديم أي الذين كانت بلادهم تقع في وقت من الأوقات إلى الغرب في قلب الأمبراطورية الرومانية ربما يؤمنون بالمثل الأوروبي القائل إن جميع الطرق تؤدي إلى روما. غير أن ذلك ليس صحيحا فإنني أعتقد أن نصف طرق العالم تؤدي إلى مدينة حلب وهي نقطة البداية للطريق عبر سوريا. كما أن النصف الآخر لطرق العالم يؤدي إلى مكان آخر في أفغانستان وهو المكان الذي كان الممر دائما من وسط آسيا ومن الاتحاد السوفياتي إلى جنوب شبه القارة الهندية.

ولقد احتلت شعوب الشرق الأوسط مكانا متفوقا سابقا في التاريخ. ذلك أن تطور الزراعة في الشرق الأوسط وفي أحواض أنهار المنطقة أتاح الفرصة لنشوء المراكز الاقتصادية التي تؤدي بدورها إلى قيام المدن. كما أن طرق المواصلات البرية والنهرية وصلاحية المنطقة للسفر عبرها قد أدت إلى ازدهار التجارة. وهكذا تيسر للشرق الأوسط أن يحقق المكسبين العظيمين من الناحية الاقتصادية والاجتماعية. وإنه لمما يستحق الاهتمام أن تنظيم المسافات وتقريبها لا يزال هو العامل المسيطر من الناحية الاقتصادية والناحية التكنولوجية في عالم اليوم. وهذا يعني أن الشرق الأوسط كان هو البادىء في المجالين الاقتصادي والاجتماعي بالاتجاهات التي لا تزال ذات أهمية دائمة حتى يومنا هذا. فهذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي تنشأ عن صناعة البترول مثلا والتي نسميها الحضارة لا تزال هي التي تشكل الاتجاه المستمر دواما إلى الأمام.

ويقول عالم أجناس أميركي أن الحضارة هي المضي قدما في الاتجاه إلى الأمام. فما أن ينزح الناس عن قراهم ويأتون إلى المدن حتى يبدأوا في السير ويثبتوا وجودهم في حركة متفاعلة هائلة ونحن نستطيع أن نشاهد هذا في جميع أنحاء العالم اليوم، ففي القاهرة يتألف السكان من النازحين من الريف المصري ومن الدول العربية.

بل إننا نستطيع أن نشاهد هذا أيضا في مدينة أريحا في الأردن وهي أقدم المدن إذ يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد فقد تألف سكان هذه المدينة من الذين نزحوا إليها من القرى المجاورة والذين تفاعلوا بعضهم في البعض وبدأت حركتهم المدنية أو الحضرية. وعلى ذلك فإنني أقول مرة أخرى إن منطقة الشرق الأوسط كانت هي المنطقة الرائدة والتي مهدت للأحداث العظمى التي نجد أنفسنا في غمارها الآن. ●



□ في حديث بين فولتير وأحد أصدقائه قال الصديق: إنها لشهامة منك أن تثني دائما ثناء طيبا على فلان على حين أنه لا يجد غير الذم إذا ذكرت.

فقال فولتير: لعلّ كلينا مخطىء!

ادنا سميث في كتابها «احسن ما اعرف»

هندنبرغ

أكبر منطاد في العالم يتحول إلى ركام في ثلاث دقائق

إنعام الجندي

□ لحظة الانفجار

التاسع عشر من تشرين الأول ١٩٣٣، كان لركاب المنطاد الألماني غراف زيبلين، الحق في غداء مناسب مكون من الشوربا، والغولاش، والأناناس، والكيرش والحلوى. وكان المنطاد يرود الفضاء فوق الأطلسي بسرعته العادية (١٢٥ كم في الساعة) وحجمه الضخم (٢٣٥ م طولا، و ٣١ م قطرا). وكانت محركاته الضخمة الخمسة (قوة ٥٠٠ ch) كل واحد، لا تنزر بأي خطر، ولا تقلق راحة المسترخين في قاعة الطعام الضخمة.

كان المنطاد يقوم برحلة اعتيادية. رحلة من ستمائة وخمسين رحلة قام بها، من بينها ١٥٠ رحلة فوق الأطلسي. عام ١٩٢٩ لم يستغرق أكثر من ٢١ يوما ليدور حول العالم. وحيث حل، كان يثير إعجاب الجماهير، الذين يتجمعون للتفرج عليه والتصفيق له.

وكان إذا عاد إلى ألمانيا من إحدى رحلاته يخف الجمهور الألماني ليستقبله في حماسة منقطعة النظير، ويردد نشيد: «ألمانيا فوق الجميع».

عام ١٩٥٢ قررت شركة زيبلين بناء منطاد اضخم وأكبر وأسرع. ولم تكن الطائرة تحلم بمنافسة المناطيد، التي كانت تحيا أجمل أيامها.

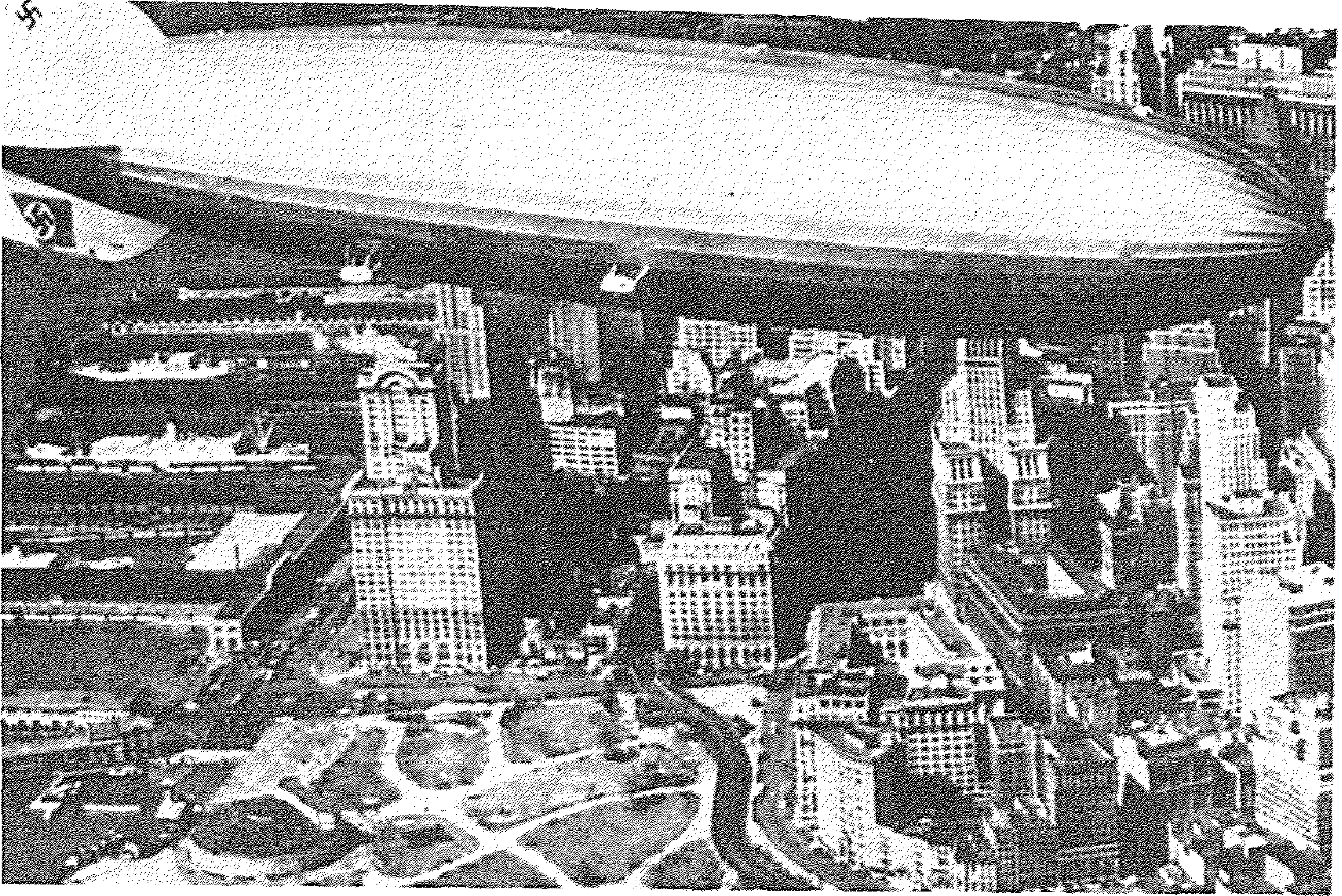
كانت محركات المناطيد أقوى، وأدوات الطيران أكثر اتقانا، بينما البوينغ ٢٤٧ لم تكن تحمل أكثر من عشرة ركاب، ولا تقطع أكثر من ثلاثمائة كيلو متر. بينما غراف زيبلين يقطع ١٠٠٠٠ كيلومتر في طيران واحد.

صانع المناطيد

الكونت فرديناند فون زيبلين، هو الذي أعطى إسمه للمناطيد الضخمة. ولد عام ١٨٣٨ في كونستانس من عائلة بروسية. عام ١٨٦١ سافر إلى الولايات المتحدة التي كانت الحرب الأهلية تمزقها. خاب أمله في الحرب. فقرر أن يستكشف الغرب. وقد أتيح له، بهذه المناسبة، أن يقوم برحلته الأولى، في بالون عادي غير موجه.

عام ١٨٧٠، خلال الحرب الألمانية ــ الفرنسية، اشتهر بإقدامه، حتى لقب «بالكونت المجنون». كان، على كل حال، يدرس، تلك الفترة مشاريع إنشاء مناطيد موجهة. كانت أوروبا كلها مشغولة بفكرة إنشاء المناطيد. وكان الفرنسي هـ. جيفار أول من سير منطادا بواسطة مروحة يحركها محرك بخاري.

□ إنعام الجندي: أستاذ في الأدب العربي، له العديد من الكتب في الأدب العربي والترجمات.



□ هندنبرغ يحلق فوق نيويورك. ويرى الصليب المعكوف على جناحي المؤخرة.

٢ تموز، ١٩٠٠ صعد زيبلين إلى غرفة منطاد موجه صنع حسب مخططاته. وكان طوله ١٥٠م وذا محركين على البنزين، كل منهما من أربع اسطوانات. وقد صممه عبقري آخر هو غوتليب ديملر. كان المنطاد يطير ثماني عشرة دقيقة ثم يهبط ملتصقا إلى مسند ضخم مثبت على أرض بودانسي.

اضطر زيبلين إلى وقف تنفيذ مشاريعه بسبب النقص المالي، فقد صرف أكثر من مليون مارك على المنطاد السابق.

غير أنه حصل على المال الضروري من ملك ورتنبرغ والمستشار برنهاردفون بولو. بيد أن ما حصل عليه لم يكن كافيا. لذلك أوجد «يانصيب»، وباع اصطبلاته، وصرف خدمه. وابتكر لنفسه نظام حياة فيه تقتير شديد. وصنع المنطاد (LZ2) فحطمته العاصفة. فكان (LZ3) الذي نبه الجيش الألماني إلى استخدام المناطيد من أجل الحرب.

تلك الأثناء تعرف زيبلين إلى الدكتور هوغو إيكنر، الذي غدا شريكه الأساسي، ووريثه الروحي.

١٤ آب انتهى العمل من LZ4 (١٤٢ م). وقد احتاج نفخه إلى ١٥٠٠٠ م^{3} من الهيدروجين. ولكنه أصيب بعطب فهبط في أكتردنجن. ولم يكد يصلح العطب حتى اشتعل فيه حريق ذهب به. وقد استاء الشعب الألماني للمصائب التي حلت بالكونت المجنون فأجرى اكتتابا جمع منه ستة ملايين مارك أهديت إلى الكونت. ١٩٠٩ بدأ استخدام البالونات تجاريا على خطوط في سماء الرايخ.

كان الألمان يتلقون، بين الحين والآخر، انباء اختفاء بعض البالونات غير الألمانية. فالمنطاد الفرنسي «الوطن» الذي كان فخر فرنسا، فقد ليل ٣٠ تشرين الثاني ١٩٠٧ مما حدا بالحكومة الفرنسية على العدول عن المناطيد الموجهة. ووجهت الجهد لتحسين الطيران.

١٩١٤ كان أحد المناطيد يقوم باستكشاف الخطوط العسكرية الفرنسية فتحطم فوق الأشجار. واعتقلت الخيالة الفرنسية قادة المنطاد وتجهيزاته.

١٩١٦ جرت محاولات القاء قنابل على لندن بالمنطاد. وقد وصل أسطول المناطيد وألقى قنابله

"All the News That's Fit to Print."

The New York Times.

LATE CITY EDITION

VOL. LXXXVI....No. 28,888. NEW YORK, FRIDAY, MAY 7, 1937 TWO CENTS

HINDENBURG BURNS IN LAKEHURST CRASH; 19 KNOWN DEAD, 14 MISSING; 64 ESCAPE

ANARCHISTS RENEW BARCELONA STRIFE; 5,000 LEAVE BILBAO

Revolters, Regaining Part of Catalan Capital, Demand Shock Troop Dissolution

SOCIALIST MINISTER SLAIN

Insurgents Reported Gaining Unresisted in Aragon as Foes Withdraw 12,000

EVACUATION IN NORTH SPED

British Warships Protect Craft Taking Women and Children From Bilbao to France

Judge Sentences Himself By Signing Papers Unread

HUGHES SEES CHOICE IN LAW OR TYRANNY

Courts Must Be Maintained, He Tells Law Institute, or We Replace Reason by Force

TEST OF BAR TO ROOSEVELT

Stewardship Is Questioned by Laymen, He Writes in Warning of 'Critical Audience'

NOTABLES ABOARD

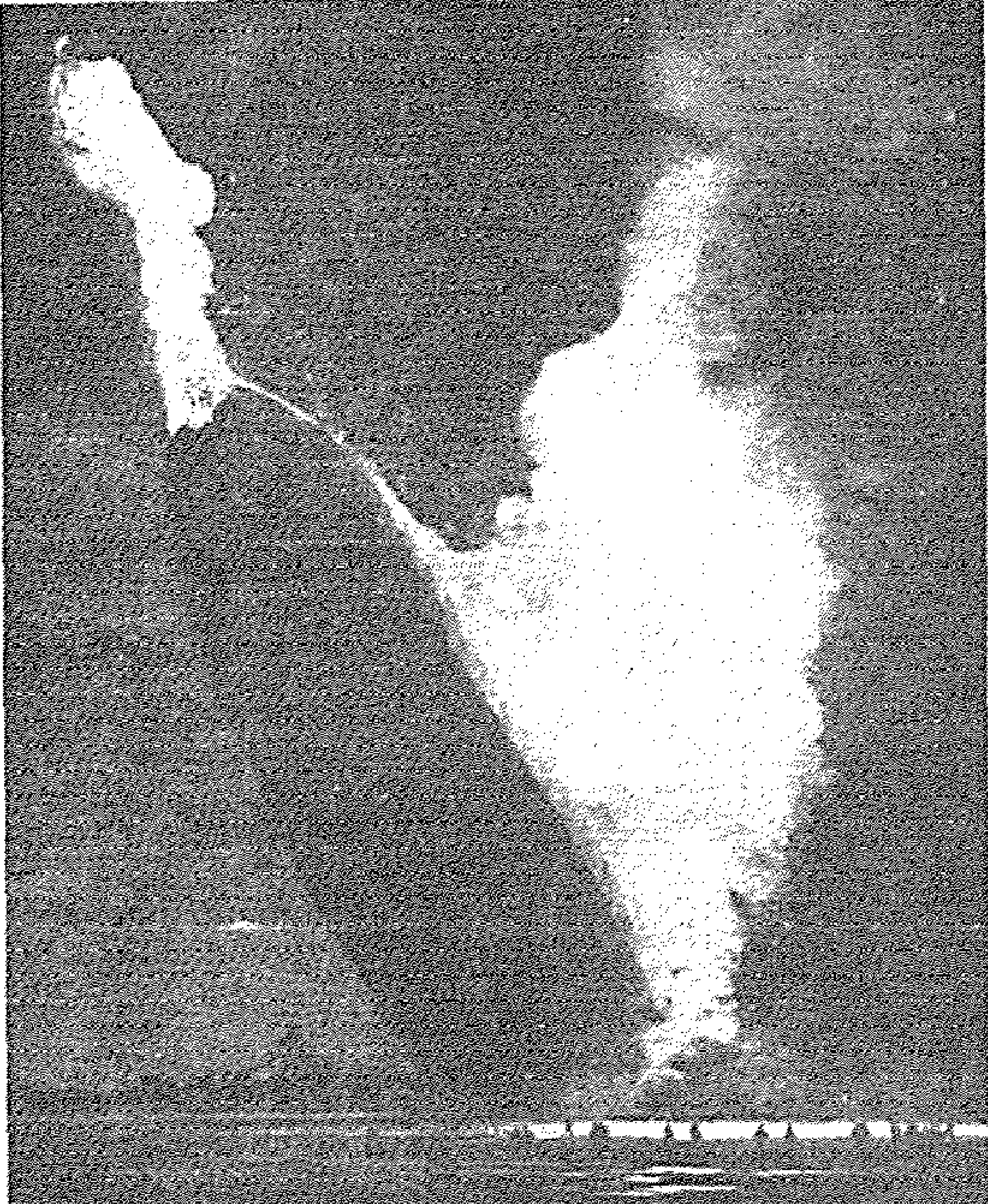
Merchants, Students and Professional Men on the Dirigible

LEHMANN IS A SURVIVOR

Veteran Zeppelin Commander Acted as Adviser on Trip—Capt. Pruss Also Safe

OSBUN SAVED 2D TIME

Sales Manager Once Escaped in Plane Crash—Many Leap From Windows



THE HINDENBURG IN FLAMES ON THE FIELD AT LAKEHURST

The giant airliner as she settled to the ground near her mooring mast at 7:23 o'clock last night

DISASTER ASCRIBED TO GAS BY EXPERTS

Washington Sees Dangerous Combination of Hydrogen and Blue Gas as Cause

Airship Like a Giant Torch On Darkening Jersey Field

Routine Landing Converted Into Hysterical Scene in Moment's Time—Witnesses Tell of 'Blinding Flash' From Zeppelin

By CRAIG THOMPSON

GERMANY SHOCKED BY THE TRAGEDY

At First Disbelieving, Line's Officials Tell of Receiving Message of Landing

SHIP FALLS ABLAZE

Great Dirigible Bursts Into Flames as It Is About to Land

VICTIMS BURN TO DEATH

Some Passengers Are Thrown From the Blazing Wreckage, Others Crawl to Safety

GROUND CREW AIDS RESCUE

Sparks From Engines or Static Believed to Have Ignited Hydrogen Gas

By RUSSELL B. PORTER

□ جريدة «النيويورك تايمز» تاريخ ٧ آيار ١٩٣٧.

□ غراف زيبلين مشدودا إلى عمود قاعدته.

المحرقة. وفي طريق العودة هبط أحدها في الخطوط الفرنسية.

قرر الطيران ضرب المناطيد. ولكن الطائرات لم تكن تستطيع الصعود أكثر من ٤٠٠ م بينما المناطيد كانت ترتفع إلى ٦٠٠٠ م و٧٠٠٠م أحيانا.

أواخر الحرب طورت بريطانيا طائرة ذات جناحين مزدوجين، تصعد إلى علو ٥٥٠٠ م. وقد استطاع الطيار ثقب أحد المناطيد برصاص فوسفوري، فحدث في الجو انفجار رهيب بسبب الهيدروجين، ذهب ضحيته كل طاقم المنطاد.

حوادث ما بعد الحرب

تسلم الحلفاء في نهاية الحرب، كل المناطيد الألمانية، على اعتبار أنها كانت أدوات حرب. ونصت معاهدة فرساي على منع الألمان صنع



□ قائد هندنبرغ الكابتن بروس خلال رحلته الأخيرة

المناطيد الحربية. واقيمت مراقبة على الشركة التي تصنعها.

مات الكونت زيبلين عام ١٩١٧. أما الدكتور أكنر فحرص على آلات صنع المناطيد، حتى يأتي زمان أفضل!.

وشاء الحلفاء الاستعانة بخبرة الألمان. فاحتجزوا عدة خبراء، مع مخططاتهم لصناعة المناطيد. ولكن التجربة جاءت مأساوية فتحطم (ZR2) البريطاني، ثم ديكسمود الفرنسي. وفقد الأميركان إثنين. واصطدم الايطالي «روما» بأشرطة الكهرباء والتهب، ومات فيه ٣٣ راكبا. عندئذ تخلى الأميركان عن الهيدروجين واستعانوا بالهليوم. وهو غاز غير متفجر. ولكنه أقل قدرة على حمل المنطاد (٩ مرات أقل)، ومكلف جدا.

بعث شركة زيبلين

في هذه الفترة كانت شركة زيبلين تنتج الطناجر وأواني الألمنيوم حتى لا تنقطع عن الانتاج. وكان المنطاد البريطاني (R 34) قد قطع الأطلسي دون توقف. وكان تقليدا حرفيا عن منطاد زيبلين.

كلفت أميركا شركة زيبلين صناعة منطاد لبحريتها. فكاد المنطاد (LZ 126) وطوله ٢٢٠ م، وحجمه ٧٤٠٠٠ م^{3} من الهليوم. طار المنطاد بقيادة الدكتور اكنر نفسه، فقطع الأطلسي دون توقف، في ٨١ ساعة. وقد حط في مطار نيويورك بعد أن قطع ٨٠٠٠ كم. وسلم إلى البحرية الأميركية. ولكن الخبراء الألمان أمنوا الصيانة الدائمة. ووقعت شركة الدكتور اكنر اتفاقية مع شركة غوديير. وبدأ بصناعة غراف زيبلين الذي طار أول مرة في ١١ تشرين الأول ١٩٢٨ حاملا عشرين راكبا، وقطع ١٠٠٠٠كم في ١١١ ساعة. وكان استقباله في نيويورك حماسيا. كما استقبل قائده في البيت الأبيض. وعند عودة المنطاد إلى المانيا كان في استقباله هندنبورغ رئيس جمهورية ويمار.

بناء هندنبورغ

تكونت شركة الأسطول الجوي زيبلين عام ١٩٣٥ تمولها شركتان: لوفتشيفباو (٥٨ ٪) ولوفتهانزا (٤٢ ٪). وقد قامت مصهرة الشركة بصناعة كل عناصر الغلاف الخارجي، من خليط معدني، اختير لخفته وهو الدوراليوم. والغلاف مكون من ٣٦ حلقة، جمعت إلى بعضها بواسطة عوارض طولانية، بالاضافة إلى أقواس وحبال تؤمن المتانة والتلاحم. أما اتساع الأجنحة في الذيل فقرابة خمسين مترا. وقد غلف الهيكل بقماش قطني، غلف هو الآخر بقشرة من الكولوديوم المزيج بالفضة، ليعكس حرارة الشمس، ودهن باطنه باللون الأحمر ليمنع تأثير الاشعاعات فوق البنفسجة.

وجعل الهيدروجين في ستة عشر كرة، غلافاتها مصنوعة من ١٥٠٠٠٠٠ غشاء من أمعاء الثيران، اختيرت بسبب إحكام تماسكها. ولكل كرة صمام يسمح بالحصول على المقدار المطلوب من الهيدروجين. أما مجموع حجومها فهو ٢٠٠٠٠٠ م^{3}.

أما طول المنطاد هندنبورغ — وهو اضخم منطاد عرف — فهو ٢٤٥ م. وله أربعة محركات موضوعة على جوانبه، وكل منها في غلاف خاص، بقوة مقدارها (١١٠٠ ch) ويدير مروحة خشبية، ذات أربعة أجنحة، اتساع كل منها ٧ م.

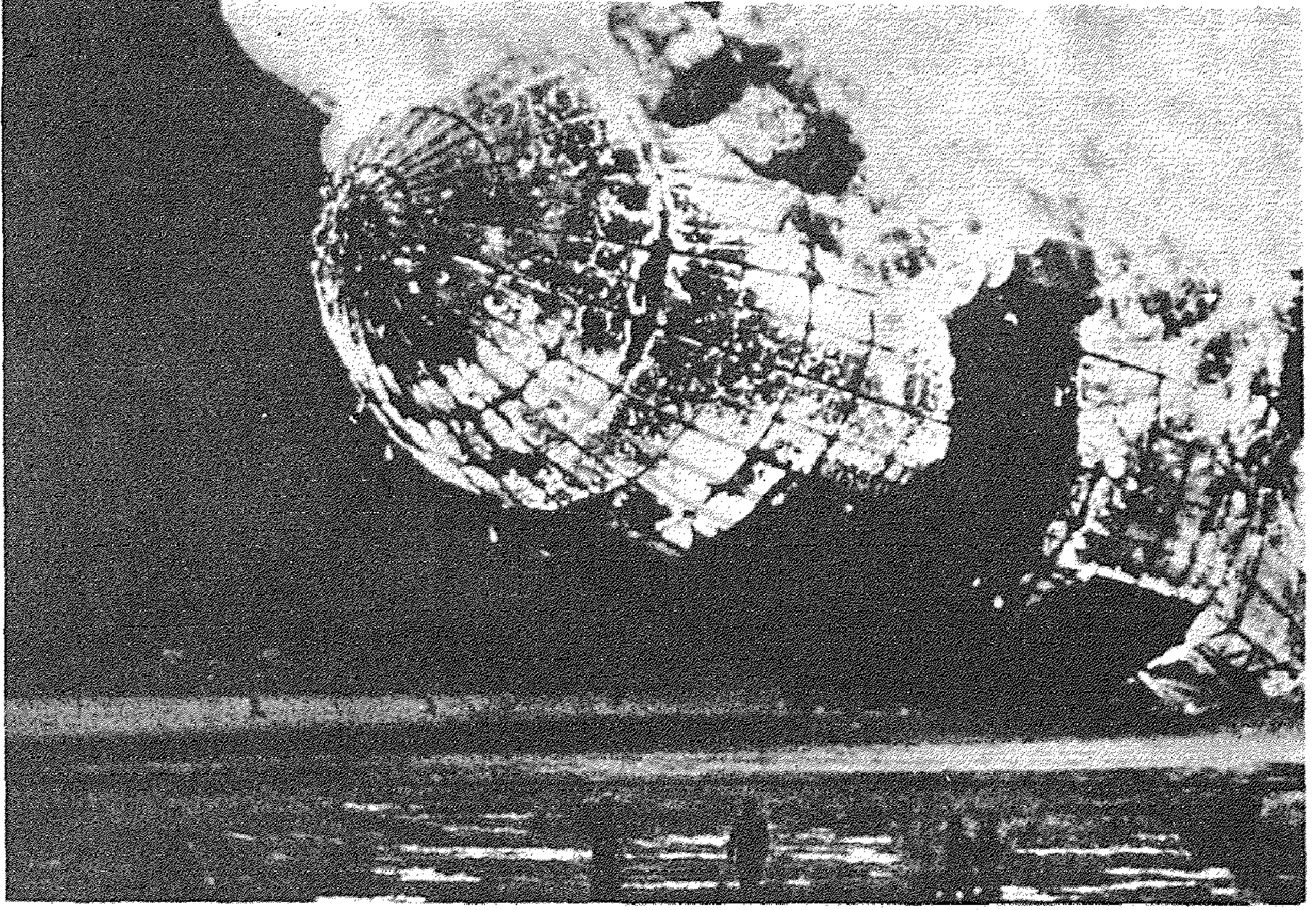
أما أماكن الطاقم والمسافرين والحمولة ففي داخل جسم المنطاد. مما كان يتيح استعمال مساحة أكبر.

وفي المنطاد ٢٥ شقة مزدوجة. وصالون واسع، وصالة طعام، وصالة مطالعة، وممران للتنزه. والكل مؤثث بذوق رفيع. مما يشعر المسافر أنه في سفينة من عابرات الأطلسي. أما غرفة الطاقم فمثبته تحت بطن المنطاد. هذا بالاضافة إلى قاعتين للسباحة.

أما الانارة فكان يؤمنها محركا ديزل، قوة كل منهما ٣٠ ك واط. وثمة خطوط هاتفية تسمح بالاتصال من طرف المنطاد إلى طرفه.

رجال ذوو خبرات نادرة

كان الطاقم من ذوي الخبرات. ويقوم على خدمة المسافرين مجموعة مدربة تدريبا نموذجيا. ويعني بالمحركات سبعة عشر ميكانيكي وثلاثة مهندسين. أما القيادة والحركة، فيقوم بها عشرون مجهزا، وكهربائيا، ومسؤولا عن المخابرات وضابطا. وكان القائد ليهمان السيد



□ امتداد النار إلى جميع الأقسام.

المطلق بعد إكنر، الذي كانت مشاغله الادارية، والعلاقات الصعبة مع سلطات الرايخ، لا تسمح له بالسفر في كل الرحلات. وقد اختاره اكنر منذ ١٩١٣ وكان ملازما ثانيا في البحرية الألمانية. وقد ساهم في الغارة على لندن، ٢ نيسان ١٩١٦. فنال وسام بطولة الحرب. وكان لطيفا جدا، رصينا، فيه كل صفات القائد. وكان رجاله جميعا على مثل طباعه، إذ كانوا يحبون مهنتهم، ويعرفون انهم نخبة تحظى بامتيازات لا يحظى بها غيرهم.

وكان المنطاد يحتاج إلى رقة وحذق في القيادة، فإذا هو شديد الطواعية. وكانت أثقاله عبارة عن مستودعات ماء موزعات على جهات المنطاد، تعدل ميلانه، وتنظم ارتفاعه. وكان تقدير الأحوال الجوية من أهم ما تعني به القيادة. غير أن هندنبرغ كان شديد الاستقرار حتى في العواصف التي تتخللها البروق والرعود. وعام ١٩٣٦ استطاع القائد ليهمان أن يتفادى عاصفة سرعتها ١٦٠ كم في الساعة، فقد انزلق في تيار مضاد بعثر العاصفة.

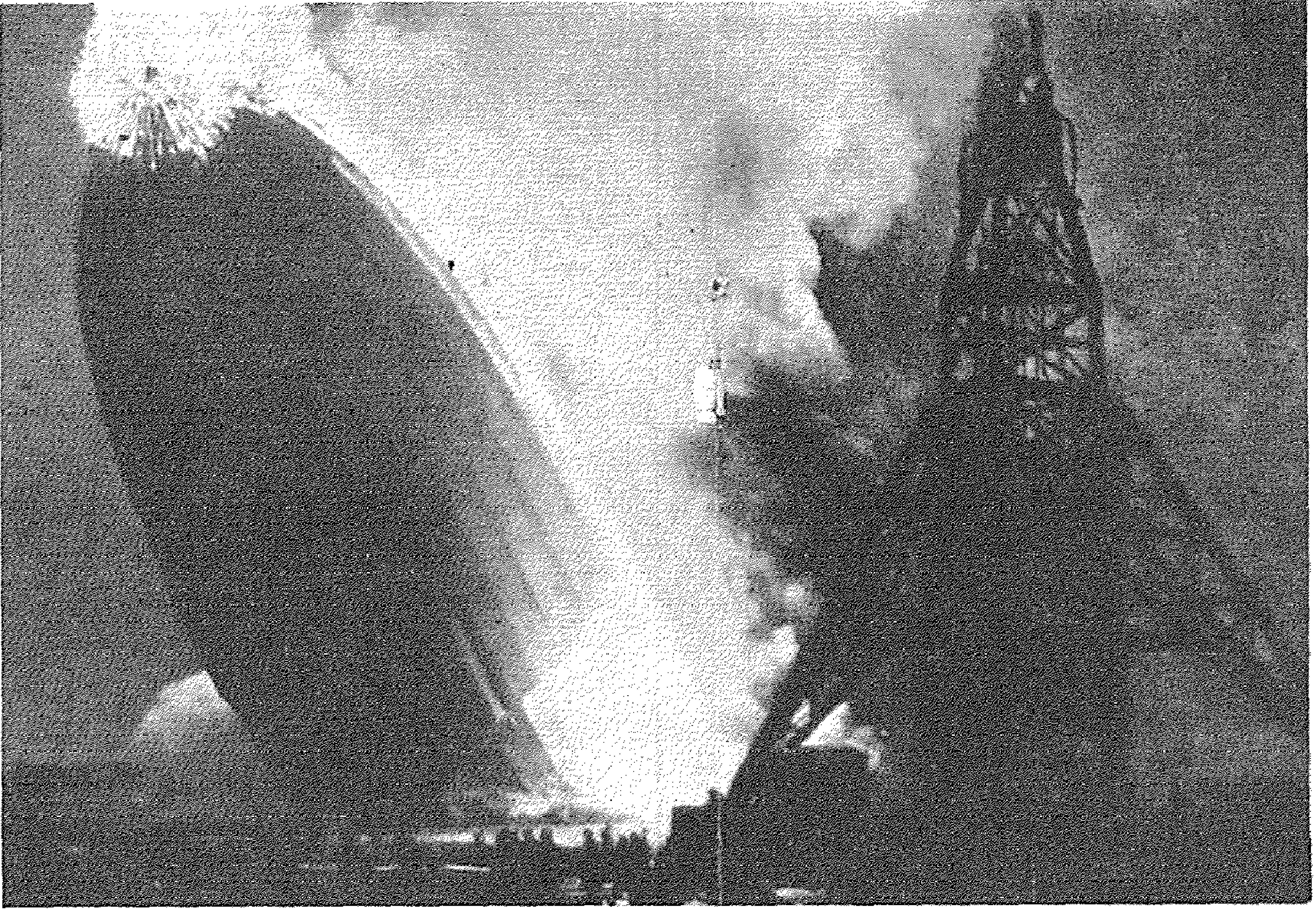
اما أدق عملية فهي هبوط المنطاد، فلا بد من ٢٥٠ رجلا ليثبتوا الحبال المرسلة من المنطاد. وقد بني عمود ضخم في لاكهورست ليثبت جهاز ربط المنطاد إلى الأرض.

رحلات هندنبرغ الأولى

قام هندنبرغ برحلات التجارب، ربيع عام ١٩٣٦. وبعد احتلال هتلر منطقة ريناني، دعي هندنبرغ وغراف زيبلين إلى رحلة دعائية. عبر فضاء المانيا كلها. فطارا فوق المدن على علو منخفض، وألقيا ملايين القصاصات لتأييد حركة هتلر التوحيدية، وأعدادا كبيرة من أعلام الصليب المعكوف. وطار هندنبرغ فوق مدينة تاننبرغ حيث يرقد المارشال هندنبرغ الذي أعطت الشركة إسمه لآخر ما صنعته من مناطيد.

أما رحلة عبر الأطلسي فقام بها هندنبرغ في ٦ أيار ١٩٣٦. وبعد ٦٠ ساعة كان فوق ناطحة سحاب مانهاتان.

ويوم افتتح أولمبياد برلين، طار المنطاد هندنبرغ فوق الملاعب.



□ إنهيار هندنبرغ.

ثم استخدم للأغراض التجارية، فكان نجاحه استثنائياً. وكانت طلبات الحجز ترد من كل أنحاء العالم، ولابد من انتظار شهور قبل الحصول على مكان. مع العلم أن أجر المقعد أربعمائة دولار، يومذاك. وكانت الرحلات تجتذب رجال الأعمال الذين كانوا يؤملون في إنشاء أعمال لهم في مختلف أصقاع العالم. وكان من أوائل من حجزوا على هندنبرغ: دوغلاس فيربانكس، وزوجته الليدي آشلي، والملاكم ماكس شمنلغ، والكندي اليوت رايت سبرينغز، والألماني أوتوفورستر وزميله فون ريختوفن «البارون الأحمر» هذا علا رجال الصحافة، والمليارديرية. كل ذلك حدا بالبحرية الأميركية على التفكير بتكليف الشركة إنشاء عدة مناطيد لحسابها.

آخر رحلاتهم

كان المسافرون في رحلة ٣ أيار ١٩٣٧ من رواد هندنبرغ الدائمين. كان ثمة صحافيان ألمانيان، زميلان لستيفان زفايغ. وتاجر شاي يعيش في درسو وعائلة من خمسة أشخاص، ربها مدير شركة منتجات كيميائية في مكسيكو، ودزينة من رجال الأعمال الأميركيين، وصحافي سويدي، ورسام، وعجوز تقطن روما، وطالب أميركي يدرس في السوربون، الخ... يضاف إلى هؤلاء ثلاثة ضباط بالثياب المدنية، مكلفين سريا بالمراقبة خلال الرحلة. ذلك أن الشركة تلقت مخابرات، وهواتف إنذار، تهدد بتفجير هندنبرغ. وكانت جرت محاولة تفجير على السفينة بريمان، لذلك اتخذت الاحتياطات الأمنية الدائمة، وعام ١٩٣٥ وجدت متفجرة في قاعة الطعام على غراف زيبلين.

كان على متن المنطاد عدة مسافرين مشبوهين في نظر الحكم الألماني: كالزوجين آديلت المعروفين بصداقتهما للكاتب الألماني المهاجر ستيفان زفايج، وشخص إسمه دوغلاس، وهو من العاملين في حقل الدعاية ويقطن أوروبا منذ ١٩٢٠، ويخدم في الاستخبارات الأميركية. كذلك الأكروبات اليهودي بن دوفا، الذي تزوج أميركية مشبوهة. لذلك كله فتش رجال الأمن هندنبرغ وما عليه من أدوات وحقائب تفتيشا دقيقا.

المجهز إريك سبيهل

ليلة السفر، الأحد ٢ أيار ١٩٣٧، اجتمع قسم من الطاقم، كما جرت العادة قبل كل رحلة، في قاعة من مطعم في فرنكفورت. شرب الرجال كمية كبيرة من البيـرة. وتحدثـوا عن الماضي السعيد، وغنوا أغاني حربية. وانضمت إليهم بعض النســاء، من زوجاتهم أو صـديقـاتهم، كهيلدا شميدت، صديقة إريك سبيهل، وهو ابن قرويين من الغابة السوداء. وكان تعلم مهنـة صانع سروج. ولكنه فقد صنعته بسبب الأزمة الاقتصادية، فظل زمنا يدور من مدينة إلى مدينة بحثا عن عمل. وقد اغتبط كثيرا لاستلام هتلر الحكم فانضم إلى قوافل العاملين في المصانع، وقـد استخدمـه مصنع زيبلين. والتقى هيلدا شميدت التي كانت أكبر منه سنا، وكانت زوجة رسام، مات في صفوف الجمهوريين في إسبانيا. وكانت شيوعية على طريقتها الخاصة. وقد أعجب بها سبيهل، فمارست عليه تأثيرا متصـاعدا، وحاولت تجريده من إيمانه الكاثوليكي. وجعلته يقرأ كل الكتب التي تـركها زوجهـا، خاصـة ما يتصل بما قيل عن تعذيب النازي للرهبـان الكاثوليك.

كان سبيهل خلال السهرة هادئا جدا. وكانت معه قنبلة مربوطة إلى ساعة توقيت. وقد وضعها بين كاميرات التصوير الذي كان مشغوفا بها.

أتيح له أن يضع متفجرة قرب غرفة الغاز، فلم ينتبه إليه أحد، لأنه أحد العاملين في الشركة والمنطاد.

رحلة دون مشاكل

قبل إقلاع المنطاد، دعي ضابطان من الأمن لتفتيش هنـدنبرغ، فلم يجـدا شيئا، عـرضت الحقائب على الأشعة X. ثم أمر القائد الجديد بروس، تلميذ ليهمان، وقائد غراف زيبلين ست عشرة مرة عبر الأطلسي. عبر المانيا، فشمـال فرنسا، والمانش، ثم اتجه غـربا. وقـد حجب الضباب البحر. وقدم الفطور للركاب في قاعة الطعام، فتخللته الأحاديث والضحكات. وكـان بعض الأطفال يلهون بإشراف راهبـة. فأخـذ الضابط كوبيس منهم سيارة ترسل شرارات.



□ الدكتور اكنر باني المنطاد. يبكي لدى سماعه النبأ.

حتى اليوم الثاني كان المنطاد يطير عبر ضباب كثيف. خلال الافطار أشر أحد المحركات على تعب فيه، فأوقف. وبدلت مضخة الزيت، وانطلق يعمل على أحسن ما يرام.

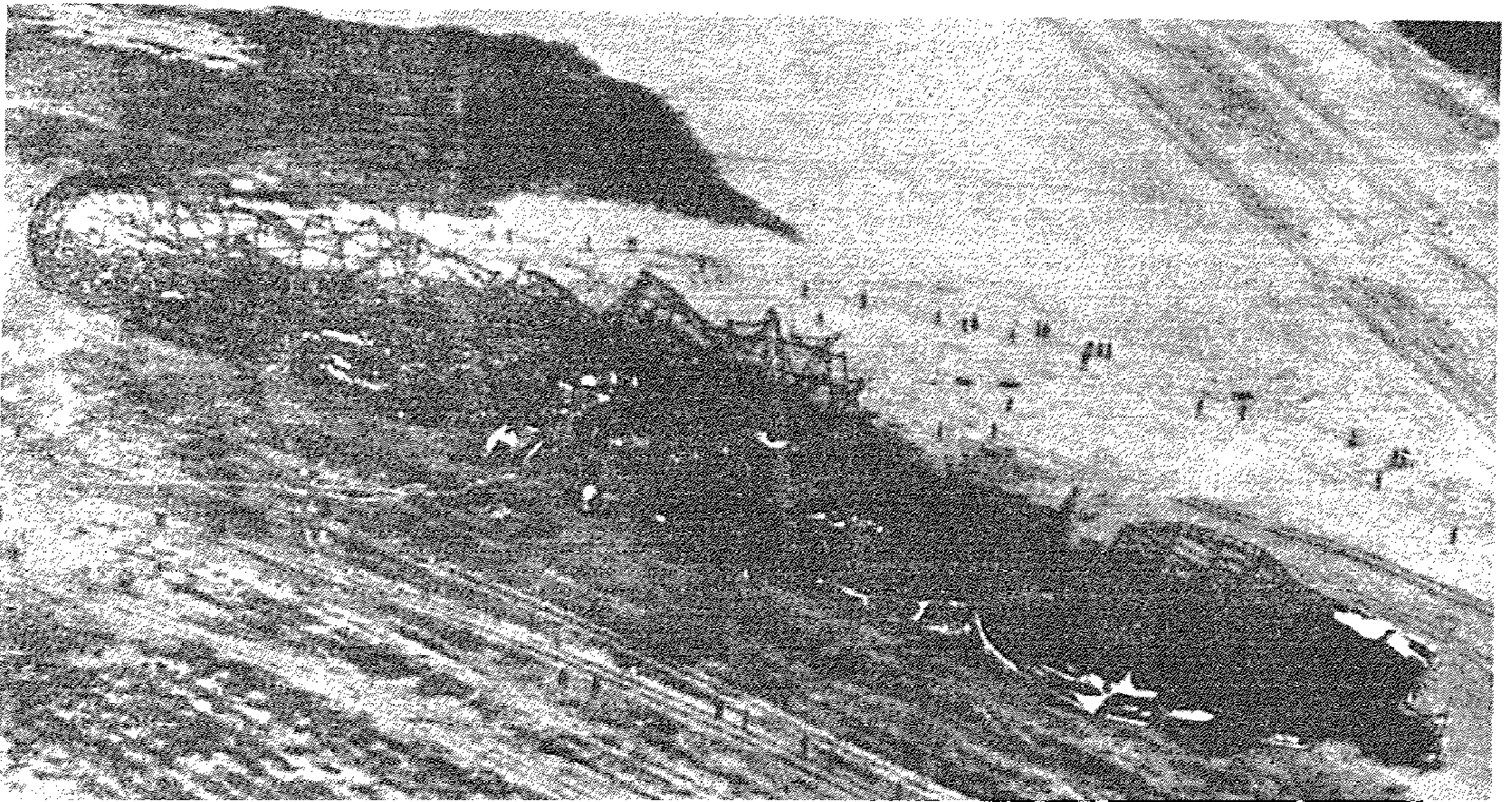
بعد الظهر، انجلت الغيـوم، وبدأ المحيـط، وبعض كتل الثلوج، وظهرت التيرنيوف فانحرف المنطاد إلى الجنوب الغربي.

المساء، أخذ ليهمان الأكورديون وأمتع ضيوفه بالعزف. وأنشدت أناشيد محبة. ثم ذهب الجميع إلى النوم. أما سبيهل فكان نومه قلقـا، ورأى أحلاما مزعجة، أخافت زميله في الغرفة.

فجر السادس من أيار، كان هندنبرغ يتخطى آخر مرحلة، ويطير فوق حدود الولايات المتحدة، ويبلغ بوسطن على علو ١٥٠ م. ظهرت نيويورك: حي التايمز، برودواي، بروكلين. وواكبت طائرات هندنبرغ فبدت كالذباب.

المأساة

الساعة ١٦. لاكهورست تحت مرمى النظر. ولكن عاصفة تجتاح المنطقة والسماء سوداء، ترسم عليها البروق خطوطا واضحة. والرعود تقطع أحاديث الركاب. ولكن هذا الوضع لا يزعج ضباط هندنبرغ. الساعة ١٨،١٢ أبلغت القاعدة القائد بروس، أن أرض المطار صالحة لهبوط



□ بقايا ركام منطاد هندنبرغ بعد الكارثة.

المنطاد، وأن العاصفة ابتعدت. غير أن الاتصال بالراديو كان يعاني تشوشا كبيرا. كان كل واحد من الطاقم في مكانه الخاص. على الأرض، اتخذ مدير عمليات المطار كل الاحتياطات الضرورية. ولا بد من العمل بسرعة لأن هندنبرغ لا يبقى طويلا على الأرض. وكان ٢٣١ ينتظرون أن تدلى حبال المنطاد لشدها إلى الأوتاد في الأرض. وكان جمهور من السينمائيين والاذاعيين ينتظر. الساعة ١٩,١٥ توقفت المحركات، وثبت هندنبرغ في الفضاء على علو ١٣٠ م. وبدأ بالهبوط وشرع في إفراغ خزانات الهواء. الساعة ١٩,٢١ دلي الحبل الأول، ثم الثاني. واندفع الرجال لتلقيهما.

لم يصدق الشهود عيونهم. لمحوا نورا أصفر شاحبا عند المؤخرة. تبعتها شعلة هائلة اجتاحت كل أطراف المنطاد، وألقت به مزقا على الأرض. دقيقة واحدة كفت لالتهام كل هندنبرغ.

هرب كل الناس مذعورين. ثبت مذيع في مكانه، ذاهلا. أطلق سيلا من الكلام تقطعه العبرات. وسجل المصورون الحادث وهم ذاهلون، كما صوروا الناس الهاربين المذعورين، والذين ألقوا بأنفسهم من المنطاد، والذين كانوا يشتعلون على الأرض.

ظلت مقدمة المنطاد مرفوعة فترة، ثم انهارت دفعة واحدة. انتشرت بعد عشر دقائق رائحة كريهة، صادرة عن هيكل المنطاد. وأقبلت سيارات الاسعاف.

قتل ٣٦ شخصا بينهم القائد ليهمان وسببهل. ولكن الكابتن بروس، الذي أصيب إصابة خطرة في وجهه، أنقذ.

عملية تخريب

اهتزت ألمانيا كلها للفاجعة التي أصابت عنصرا من عناصر اعتزازها. وأوقفت نشاطات شركة زيبلين، والرحلات التجارية. وتولت لجنة التحقيق. وبعد شهور من الاستجوابات والبحث، أعلنت أن هندنبرغ كان ضحية الكهرباء. فقد تسرب شيء من الهيدروجين، واتصل بشرارة كهربائية، فانفجر الغاز.

أما الكابتن بروس فيؤكد أن المنطاد كان ضحية عمل تخريبي.

الفلك ومنازل الشمس في حركتها الظاهرية

الأستاذ نقولا شاهين

عندما نلقي نظرة على ما يجري حولنا في هذه الأيام، من تطورات في حياة مجتمعنا، لا نتمكن من التغاضي عن النقص الذي يحصل في حياتنا الثقافية، بينما تكثر المنشورات من كتب وصحف ومجلات، بدون أن يكون هناك ما هو جدير بالذكر في حقل تراثنا العلمي. ذلك التراث الذي كان ولا يزال معجزة للعالم فيما مضى. ولا يزال علماء الغرب ينقبون في المخطوطات التي تركها العرب والتي كانت أساساً لما نراه اليوم في حقول العلم المختلفة. أما أن العرب هم رواد عالم الأفلاك فهو أمر اثبته تاريخ العلم.

وفيما يلي دراسة للأستاذ نقولا شاهين عن منازل الشمس في حركتها الظاهرية وعن الدور الذي لعبه العلماء العرب في النهضة العلمية.

منازل الشمس في حركتها الظاهرية

تقطع دائرة البروج خط الاستواء السماوي في نقطتين. هما نقطة الاعتدال الربيعي فهي مركز الشمس في ٢١ آذار (مارس) وتكون الشمس في مركز الاعتدال الخريفي يوم ٢٣ أيلول (سبتمبر). وقد قسم الفلكيون دائرة مدار البروج إلى ١٢ قسما، كل قسم يرمز إلى ٣٠ درجة على تلك الدائرة، وأعطوا كل قسم اسما يتفق مع وضعه بين البروج. لذلك نراهم يطلقون على القسم الأول الذي يبتدىء عند الاعتدال الربيعي برج الحمل حيث يتساوى الليل والنهار. وفي هذا البرج تنزل الشمس من ٢١ آذار (مارس) إلى ٢٠ نيسان (ابريل). ثم تنتقل إلى برج الثور وتبقى هناك من ٢١ نيسان (ابريل) إلى ٢١ أيار (مايو). وبعدها تنتقل إلى برج الجوزاء وتحل فيه من ٢١ أيار (مايو) الى ٢١ حزيران (يونيو) حيث يحصل أطول يوم في السنة. وتعرف هذه البروج الثلاثة بمنازل الربيع.

اما منازل الصيف فهي السرطان أولا، وتعتد من ٢٢ حزيران (يونيو) إلى ٢٢ تموز (يوليو)، ثم الأسد وهنا تبقى الشمس من ٢٣ تموز (يوليو) إلى ٢٣ آب (أغسطس) وبعدها تنتقل الشمس إلى برج العذراء وتبقى فيه من ٢٤ آب (أغسطس) إلى ٢٢ أيلول (سبتمبر) عندما يحدث الاعتدال الخريفي ويساوى الليل والنهار.

وتنزل الشمس في الخريف في برج الميزان من ٢٤ أيلول (سبتمبر) إلى ٢٣ تشرين الأول (اوكتوبر)، وفي برج العقرب من ٢٤ تشرين

☐ الأستاذ نقولا شاهين: استاذ في العلوم، معلم في الجامعة الاميركية في بيروت مدة ثلاثين عاما، مدير سابق لمرصد الجامعة الاميركية ممثل في مؤتمر الدقائق الذرية الذي رعته الاونيسكو في الجامعة السورية في دمشق سنة ١٩٥٦. تخرج على يديه طائفة من العلماء البارزين، وهو لا يزال يكتب إلى الآن علما بانه مولود في بلدة بشمزين في الكورة سنة ١٨٩٧.



□ الفلكيون العرب كما تخيلهم ابناء الغرب، في كتاب ظهر في البندقية (ايطاليا) في القرن السادس عشر. يبدو في الصورة بعض ما كان يستعمله الفلكيون العرب من اجهزة للرصد.

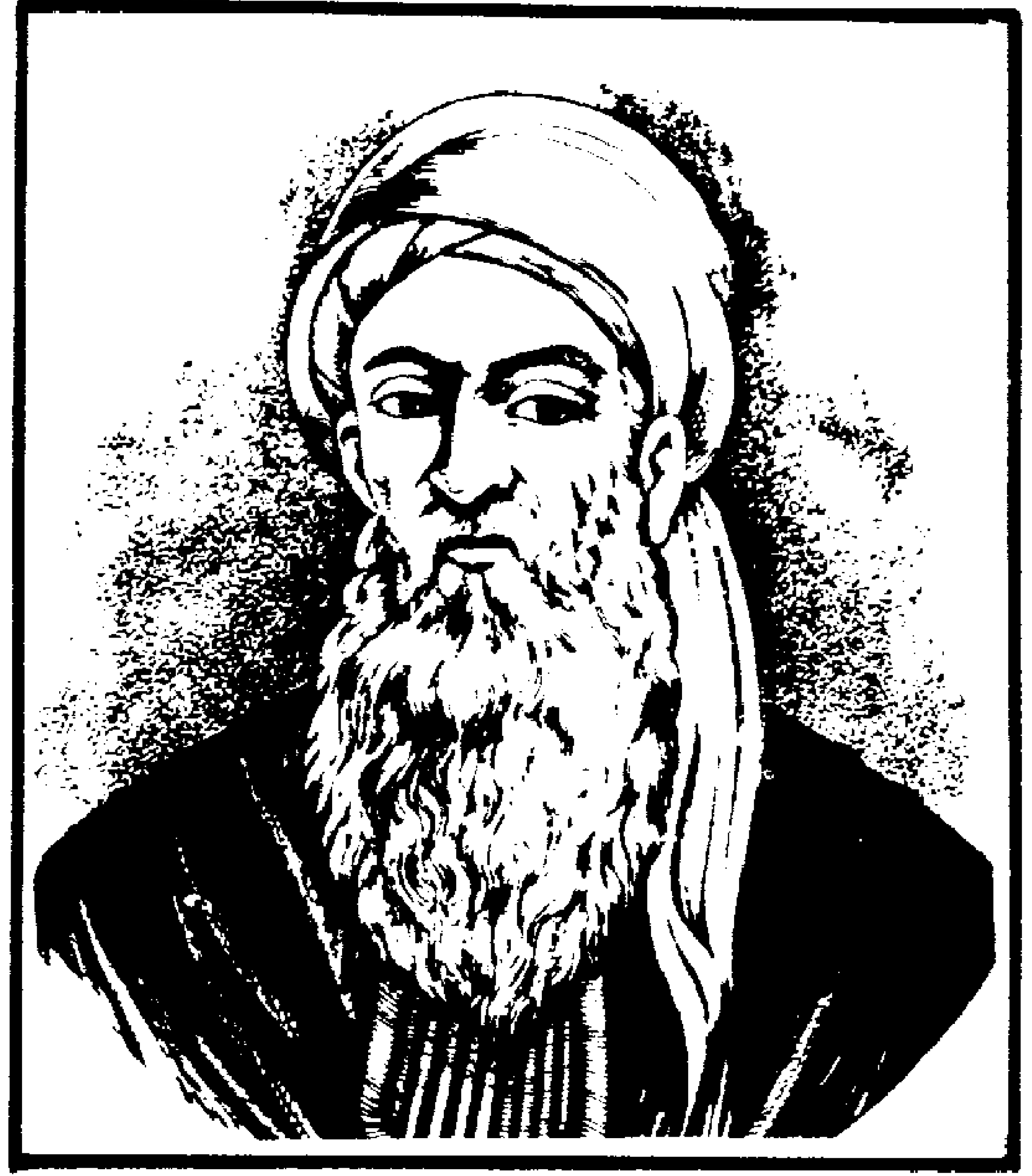
الأول (اوكتوبر) إلى ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، وفي برج القوس من ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) إلى ٢١ كانون الأول (ديسمبر) عندما يحصل أقصر نهار في السنة.

ومنازل الشتاء ثلاثة، أولها الجدي من ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) إلى ٢١ كانون الثاني (يناير) ويليها الدلو من ٢١ كانون الثاني (يناير) إلى ١٨ شباط (فبراير)، ثم الحوت من ١٩ شباط (فبراير) إلى ٢١ آذار (مارس)، حيث يتساوى الليل والنهار، فتكون الشمس قد أكملت دورتها السنوية وعادت إلى نقطة الانطلاق.

منازل الشمس على مدار السنة

إن ما نشاهده اليوم من ارتباط وثيق بين الأرض والشمس والقمر، هو قديم العهد وقد مر عليه نحو خمسة آلاف مليون سنة، بدون أن يطرأ تغيير جوهري على العوامل التي يقوم عليها هذا الارتباط، فالأرض تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلومترا في الثانية، أو ١٠٨٠٠٠ كيلومتر في الساعة، وهذا يساوي ألف ضعف سرعة السيارات وعشرات أضعاف سرعة أحدث الطائرات، ونحن سكان الأرض نرافقها في هذه الرحلة السنوية حول الشمس، تشدنا إلى الأرض قوة الجاذبية فلا نفلت عن سطحها. وقد تمكن الفلكيون من تعيين الزمن لهذه الدورة بصورة دقيقة للغاية، وهي ٣٦٥ يوما و٦ ساعات و٩ دقائق و٩ ثوان.

علاوة على هذا تدور الأرض على نفسها كل ٢٤ ساعة، حاملة معها سكان الأرض ومنازلهم وكل ما على سطح الأرض من كائنات حية وغيرها. وذلك بسرعة تختلف باختلاف بعد المنطقة عن خط الأستواء، حيث تبلغ نحو ١٦٠٠٠ كيلومتر في الساعة. أما عند القطبين الشمالي والجنوبي، فان سرعة الدوران بسبب دورة الأرض على نفسها فهي صفر، وتأخذ الازدياد كلما اقتربنا من خط الاستواء، أما النيجة البارزة لهذه الدورة فهي الليل والنهار كما هو معروف، وقد تبين من حسابات دقيقة أن



ابن الهيثم: العالم العربي
الذي حل للعالم مشكلة الأبصار.

اليوم قد ازداد بمقدار جزء من ألف جزء من الثانية في المائة والعشرين عاما الأخيرة التي مضت. فيما عدا هذا نعتبر طول اليوم ثابتا لا يتغير.

ويدور القمر حول الأرض دورة كاملة، ويعود إلى المركز الذي كان فيه أولاً، بالنسبة للنجوم، في مدة ٢٧ يوما وثلث اليوم تقريبا، ويقال لهذه المدة الشهر النجمي، فهو إذن يدور حول الأرض في المدة هذه وبذات الوقت يصحبها في دورتها حول الشمس. في هذه المدة يدور القمر على نفسه دورة كاملة فلا نتمكن من رؤية نصفه الخلفي، ويبقى ذلك النصف في الجانب غير المقابل للأرض.

وقد تمكن علماء من تصوير نصف القمر الخلفي في عصرنا هذا بواسطة مركبات فضائية تدور حوله. أما وجوه القمر فانها تتوقف على المقدار المضاء من نصفه المواجه للأرض، أثناء مشاهدتنا إياه.

ولما كان سير القمر بين النجوم أسرع من سير الشمس، فهو يدركها ويجتازها في أزمنة تكاد تكون قانونية ومتساوية. وبما ان أوجهه تتوقف على مركزه الظاهر بالنسبة إلى الشمس، فالمدة بين وقت الهلال الفلكي والذي يليه هو الشهر القانوني ومعدله نحو ٢٩ يوماً و ١٣ ساعة و ٤٤ دقيقة و ٣ ثوان، ومقدار اختلافه نحو ١٣ ساعة، وذلك بالنسبة إلى مباينة فلك القمر. لذلك لا يوجد شهران قمريان قانونيان من طول واحد.

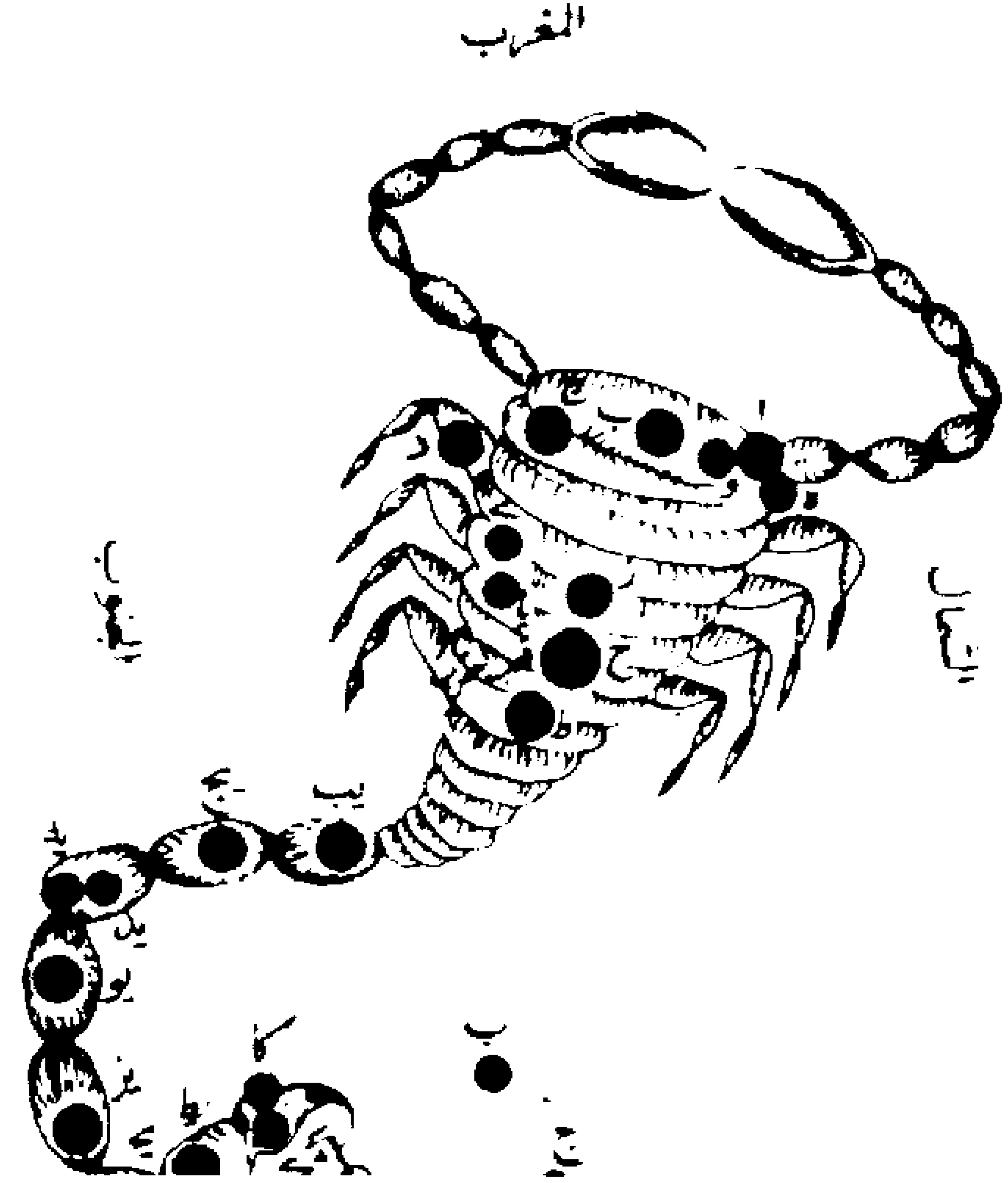
ومن يراقب الشمس على مدار السنة، يجد انها تحتل مراكز مختلفة في القبة الزرقاء من وقت إلى اخر، يرافق ذلك تطورا على سطح الأرض تعرف بالفصول. أما القمر فانه يبدو لنا في أوضاعه المختلفة بشكل جلي كل شهر، فيصل إلى أبعد الحدود جنوبا، ثم إلى أبعد الحدود شمالا، ويرتد بعدها إلى حيث ابتدأ تقريبا. وقد توصل الأقدمون إلى تعيين مراكز الشمس والقمر في الأوقات المختلفة، بالنسبة إلى تجمعات النجوم المعروفة بالأبراج أو البروج. فجدير بنا أن نكون مطلعين على هذه المنازل، فالشمس والقمر هما رفيقان ملازمان لنا، والواجب يقضي بأن يكون الرفيق عارفاً بأمور رفيقه، خصوصا عندما يكون احد الرفيقين سبب حياة وأنسا للآخر، كما هي الحال بين الشمس والقمر والأرض.

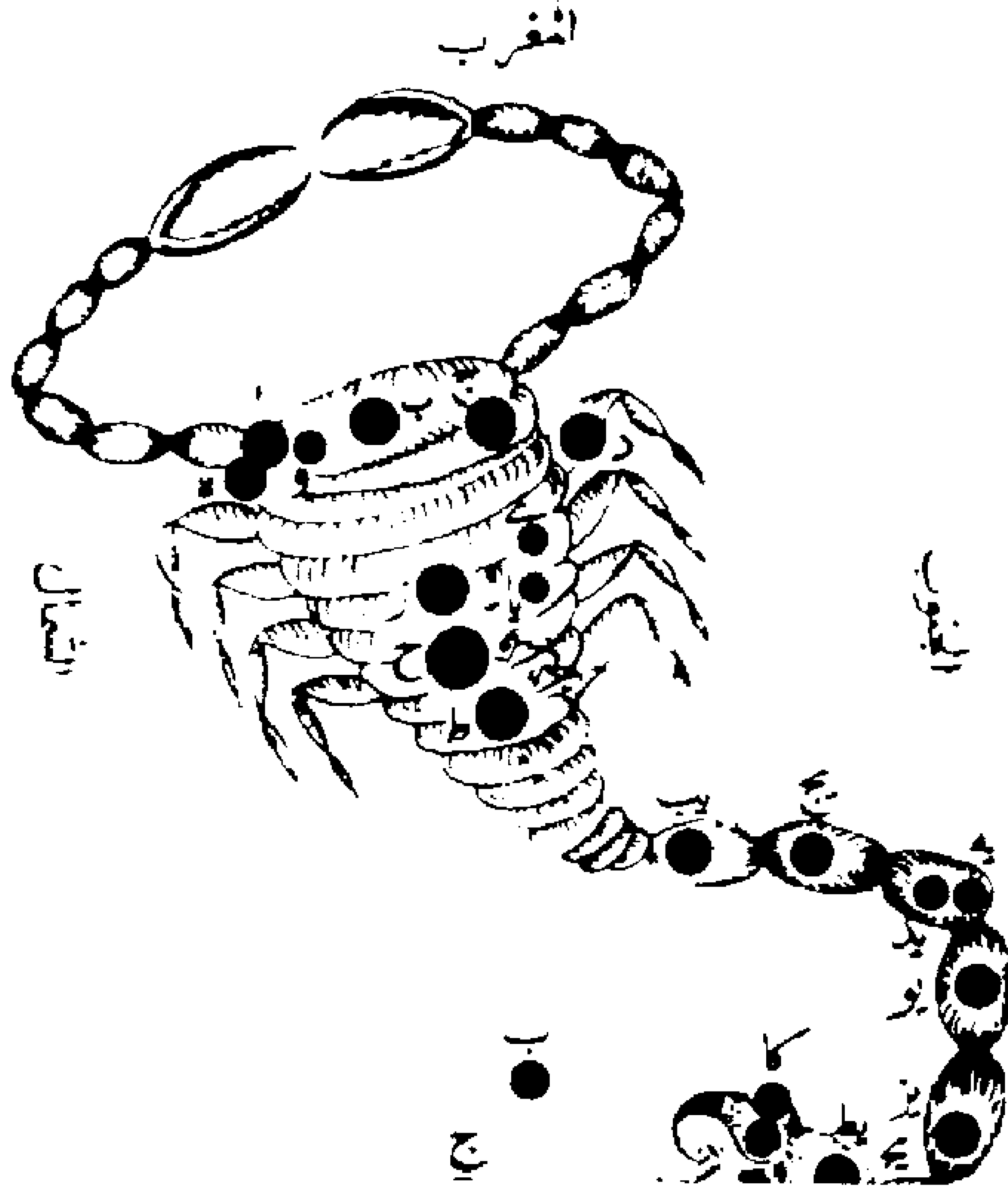
دائرة البروج

الشمس هي مركز دوران الكواكب السيارة حولها، وليست حركة الشمس الظاهرة حول الأرض مرة واحدة كل سنة، إلا نتيجة دورة الأرض الحقيقية حول الشمس في تلك المدة. ولما لم يكن بامكاننا أن نشعر بحركة الأرض حول الشمس، أصبح لابد من اللجوء إلى حركة الشمس الظاهرة أو أي نجم آخر. فعندما تكون الأرض في برج الميزان، تظهر الشمس في برج الحمل. وعندما تنتقل الأرض إلى برج العقرب، تغير الشمس مركزها فتصبح في برج الثور، كما يتبين من رسم يجمع مدار البروج والأرض والشمس. ولما تكون الأرض في الميزان، نرى الميزان طالعا عند الغياب والحمل آفلا. وعند وصول الأرض إلى الحمل، نرى الحمل طالعا عند الغياب والميزان آفلا. لذلك تظهر نجوم أحيانا في الشرق، وغيرها على خط نصف النهار، وأخرى في الغرب عند غروب الشمس، فيبدو كأن للنجوم حركة من الشرق إلى الغرب مثل الشمس، أما الحقيقة فهي أن هذا حاصل عن حركة الأرض من الغرب إلى الشرق في دورتها حول الشمس. ويمكننا فهم هذه الظاهرة وتبسيطها، إذا تصورنا

منور الكواكب لابي الحسين الصوفي

صورة العقرب على ما ترى في الكرة صورة العقرب على ما ترى في السماء





عموداً في وسط بركة ماء، وقد وضع في أعلاه مصدر للضوء. فإذا دار إنسان حول البركة وجرب أن يعين مركز الضوء بالنسبة للأجسام وراءه، يجد أن الضوء يقع في مراكز مختلفة. فالإنسان هنا يمثل الأرض بدورتها حول الشمس الثابتة، والدائرة التي تجمع مراكز الضوء المختلفة، وترمز إلى دورة الشمس الظاهرية.

أما دائرة البروج التي تنزل فيها الشمس على مدار السنة، فهي منطقة في القبة الزرقاء، عرضها ١٦ درجة، يتوسطها ممر الشمس الظاهري. وهو يحتوي على اثني عشر برجاً تحمل أسماء حيوانات ما عدا برج الميزان. وفي دائرة البروج هذه تقع الكواكب السيارة الرئيسية وكذلك القمر على مدار السنة، وهي متوسطة بين صدر النصف الشمالي والنصف الجنوبي في السماء. ودائرة البروج هذه تميل على خط الاستواء السماوي بمقدار ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة و٨ ثوان (حسب مقاييس عام ١٩٠٠) وينقص هذا الميل بمعدل ٥٠,٢ ثانية كل سنة تقريبا، إلى أن يصل إلى حد أدنى، ثم يعود فيزداد وتتكرر العملية إلى الأبد، وتتم الدورة في مدة ٢٥٨١٧ سنة تقريبا. فدائرة البروج إذن تساعدنا على معرفة موقع الشمس لكل يوم بالنسبة إلى خط الاستواء، فيكون الميل الأعظم في ٢١ آذار (مارس)، ثم يزداد تدريجيا شمالا إلى ٢٢ حزيران (يونيو)، فيبلغ ما بلغه جنوبا، ثم ينقص ويتلاشى في ٢٢ أيلول (سبتمبر). جميع هذه الأمور تبين لنا مقدار الجهود التي صرفها الأقدمون للوصول إلى هذه الدقة الفائقة في تعيين أزمنة الأحداث الفلكية.

لقد عرف الكثير من إلتقاء الأدب والعلم في الشعر العربي، فهناك مناسبات عديدة ذكر فيها الشعراء العرب بعض النجوم والبروج والكواكب السيارة، فألبسوا الأجرام السماوية حلة قشيبة زادت على نورها نورا وعلى جمالها جمالا. علاوة على هذا توفق أدباء العرب في نظم قواعد اللغة والشعر والبيان وتقاليد العرب شعرا، فسهل بذلك حفظ الوقائع لما في أبيات الشعر من ارتباط واتزان. ولم يقصر العالم الشيخ ناصيف اليازجي في هذا المضمار، فكتابه مجمع البحرين غني بهذه الأمور، ومنها بعض أبيات عن منازل الشمس حسب ترتيبها على مدار السنة، وهذه هي الأبيات:

مـن البـروج في السمـاء الحـمـل
تـنـزل فيـه الشـمس إذ تـعـتـدل
والثـور والجـوزاء نـعـم المـنـزلة
وسـرطان أسـد وسـنـبـله
كـذلك المـيـزان ثـم العـقـرب
قـوس وجـدي دلو حـوت يشـرب

وبرج النسبلة هو المعروف ببرج العذراء ايضا.

عربيان يكتشفان نجمين جديدين

تدل الاحصاءات في مرصد هارفرد بأميركا على أن عشرة نجوم جديدة تظهر كل سنة، مقدارها من القدر التاسع. أما نور نجم جديد عادي فانه يساوي ٥٠٠٠٠ ضعف نور الشمس، ونور نجم جديد جبار يساوي ٢٠٠ مليون ضعف نور الشمس.

ومن أغرب ما جاء في اكتشاف نجوم جديدة ان شابا عربيا وهو علي بن رضوان اكتشف نجما جديدا في عام ١٠٠٦ ميلادي، عندما كان يدرس في الفسطاط أحد مراكز القاهرة. كثيرون شاهدوا هذا النجم اللامع قرب الأفق، لكن عليا هذا كان الوحيد الذي عين مركزه بدقة بالنسبة إلى النجوم الأخرى وحدد موقعه في برج العقرب بالتفصيل.

ظلت المعلومات هذه محفوظة في مكتبة أحد الأديار قرب مدريد في اسبانيا، حتى قام بترجمتها إلى الانكليزية من العربية برنهارد غولدشتين أحد أساتذة التاريخ في جامعة يال في الولايات المتحدة الأميركية. اكب هذا الاستاذ على درس هذه الوثيقة العلمية فوجد أن النجم الذي شاهده علي كان من النوع الجبار بالقرب من برج العقرب، واوصلته التفاصيل التي اعطاها علي إلى أن هذا النجم ظهر ليلة ٣٠ نيسان (أبريل) عام ١٠٠٦ ميلادية، اي ٥٥ عاما قبل وفاة علي. تابع غولدشتين دراسته فوجد سجلات في بلدان أخرى تشير إلى هذا النجم الجديد، لكنها لم تكن مضبوطة كما جاء في شرح بن رضوان. فقد ورد ذكر هذا النجم من قبل الصينيين في كوريا، وفي أوروبا كان ملاصقاً الأفق، كما أن راهباً في سويسرا وصفه كنجم من قدر فوق المعتاد، ظهر في الجنوب القاصي كأنه يتقلص ويتمدد وذلك لمدة ثلاثة اشهر. وبموجب تعليمات غولدشتين تمكن القائمون على مرصد يال في أميركا الجنوبية، من الحصول على صورة ربيع ١٩٦٥ ظهر فيها قرص من مقدار ٢٥ ثانية من قوس، هو نتيجة الانفجار الذي حصل منذ عشرة قرون. وبفضل أجهزة حديثة دقيقة صار التثبت من حدث هام قديم له اهمية كبيرة في فهم نشوء الكون.

وفي عام ١٠٥٤ وفي الرابع من تموز (يوليو)، انفجر نجم في الفضاء فجأة فتولد من ذلك نجم جبار، شاهده الفلكيون الصينيون ووضعوا تفاصيل دقيقة لذلك الحدث. وهكذا فعل المعاصرون اليابانيون. وبالرغم من أن هذا النجم الجبار ظل مرئياً لمدة ٢٣ يوما في النهار ولمدة ٦ أشهر في الليل، ظل المؤرخون الفلكيون محتارين لعدم وجود ذكر لهذا من قبل فلكيي أوروبا والشرق الأوسط.

وفي ٢٢ من شهر تموز (يوليو) عام ١٩٧٨ وجدت مخطوطة عربية تشير إلى نجم شديد اللمعان ظهر عام ١٠٥٤، وقد أكد أستاذ في معهد مساتشوستس أن هذه الظاهرة هي نجم جديد جبار.

وقد سجل هذا الحدث ابن بطلان وهو أحد علماء بغداد في الفيزياء كان يسكن في القسطنطينية، عندما حدث ذلك. لم يكن هذا فلكيا محترفا كما يتبين من المخطوطة، لكنه كان يخصص قسماً كبيراً من اهتمامه في درس النجوم، لاعتقاده بأن هناك علاقة بين الظواهر الفلكية والصحة العامة.

لوحات شعرية للنجوم

كان للشعراء ولع خاص بالنجوم، وساعدتهم لغتهم العربية على رسم لوحات شعرية خلدت مع تقلبات العصور، وها أن أبا العلاء المعري قد تأثر بما كان يسمعه عن النجوم المتغيرة، وظهورها بألوان مختلفة واشراقات ترفعها من قدر إلى قدر، فأعطانا صورة شعرية جميلة لا تقل رونقا عما نشاهده فعلا بالعين المجردة، وذلك عندما قال:

رب ليـل كـأنـه الصبـح في الحسن
وإن كـان أسـود الطيلسـان

لابي الحسين الصوفي

صورة ساكب الماء على ما ترى في السماء



قد ركضنا فيه إلى اللهو لما
وقف النجم وقفة الحيران
ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جمان
هرب النوم عن جفوني فيها
هرب الأمن عن فؤاد الجبان
وكأن الهلال يهوي الثريا
فهما للوداع معتنقان
وسهيل كوجنة الحب في اللون
وقلب المحب في الخفقان
يسرع اللحم في احمرار كما تسرع فـ
ـي اللحم مقلة الغضبان
ضرجته دما سيوف الأعادي
فبكت رحمة له الشعريان
ثم شاب الدجى وخف من الهجر
فغطى المشيب بالزعفران

«أما الشعريان فهما الشعري اليمانية أو الشعري العبور والشعري الشامية أو الغميضاء. والشعري اليمانية هي ألمع نجم في صورة الكلب الأكبر، والشعري الشامية هي ألمع نجم في الكلب الأصغر. وقد قيل أن سهيلا تزوج بالجوزاء وكسر ظهرها فهرب نحو الجنوب خوفا من أن يطالب بكسر الجوزاء. والشعريان هما أختاه. فعبرت شعري العبور المجرة إلى سهيل وبقيت الشامية أو الغميضاء في الشمال فبكت على سهيل وأغمضت عيناها».

وله في الكواكب السيارة:

زحل أشرف الكواكب دارا
من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الدهـ
ـر مطف وإن زهت باتقاد
والثريا رهينة بانفراط الشمـ
ـل حتى تعد بالآحاد

وأمرؤ القيس يقول في معلقته:

فيا لك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في نصابها
بأمراس كتان إلى صم جندل

ويقول ابن المعتز:

كأن الثريا هودج فوق ناقة
يحث بها حاد إلى الغرب مزعج

وقد لمعت حتى كأن بريقها
قوارير فيها زئبق يترجرج

كتاب
صور الكواكب الثمانية والأربعين
تأليف
الفلكي الشهير
ابي الحسن عبد الرحمن بن عمر الرازي
المعروف بالصوفي
المتوفي سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م

على أثر إتلاف عدد كبير من المخطوطات العربية في غرناطة عام ١٤٩٩ ميلادي، أصبح عدد المخطوطات في العالم العربي قليلا، بالنسبة لما هو موجود في تركيا والعجم والهند، وهذا الكتاب هو نسخة لاحدى هذه المخطوطات، وقد طبع هذا الكتاب حديثا عام ١٩٥٤ ميلادي بمطبعة حيدر أباد ـــ الدكن (الهند).

كان ذلك من أربعة عكوس عن نسخ قديمة من كتاب صور الكواكب، الأول من مكتبة توبقابو سراي استانبول، والثاني من مكتبة الفاتيكان، والثالث نسخة برلين، والرابع نسخة الغ بيك في المكتبة الأهلية في باريس، والخامس نسخة بحيدر أباد الدكن ـــ الهند.

وكانت نسخة الغ بيك قد تمت بمناسبة المؤتمر الفلكي في سمرقند في عام ١٤٣٥ تقريبا، وكانت بألوان زاهية غاية في الجمال. وكانت الصور بالزي المونغولي السائد في ذلك العصر. وترمز كل صورة إلى أحد البروج مع المراكز الرئيسية التي ترى منها البروج.

وفي آخر الكتاب أرجوزة لابن الصوفي، وفيها ذكر لألف وعشرين كوكبا، منها ثلاثماية وستة وأربعون كوكبا على منطقة الفلك في طريق الشمس.

وهنا وصف الدب الأصغر في هذه الأرجوزة.

الدب الأصغر

أقربهن فأعلمن للقطب
كواكب هن على صورة دب

وهذه صورة الدب الاصغر على ما ترى فى الكرة

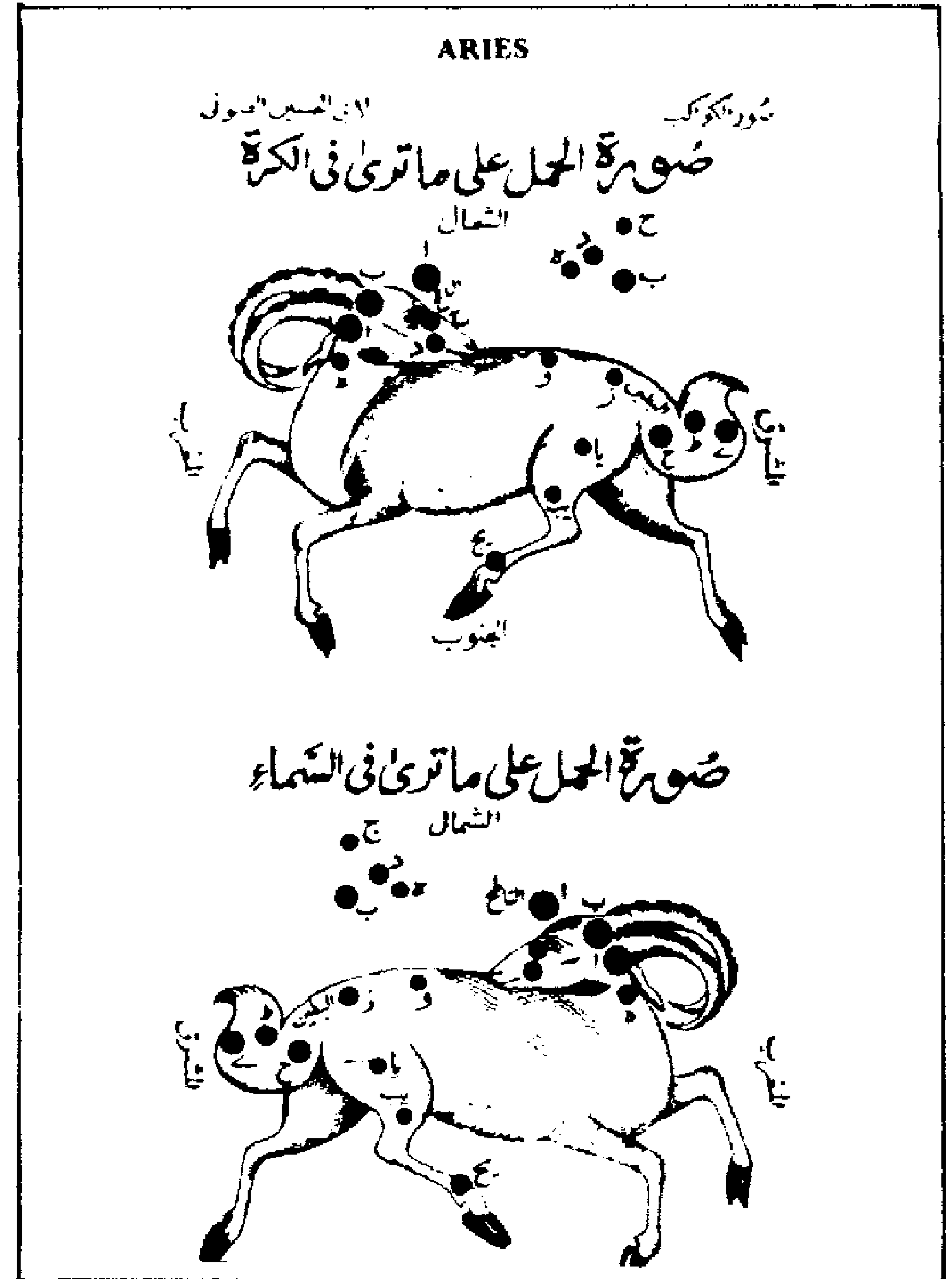


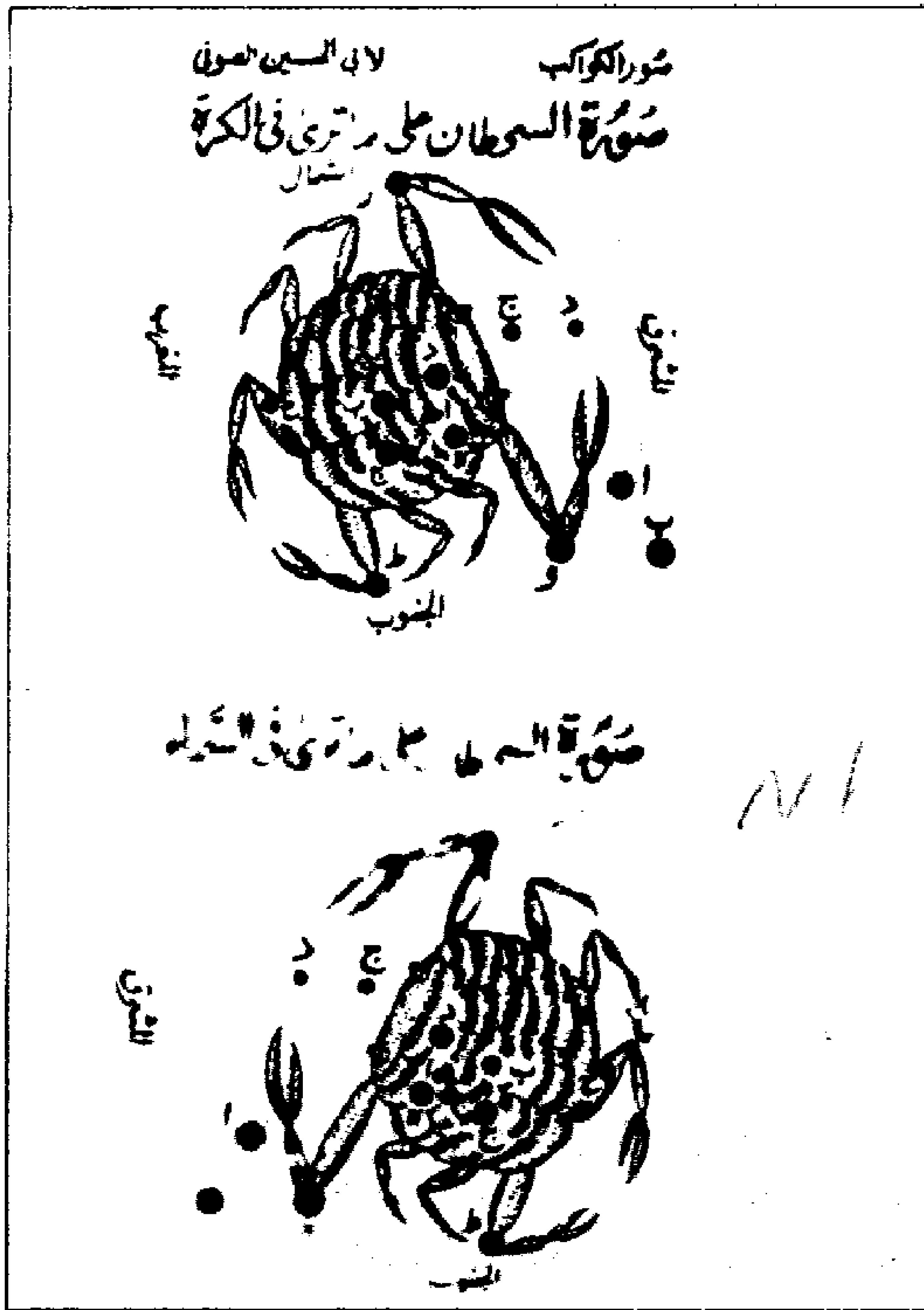
وهذه صورة الدب الاصغر على ما ترى فى السماء




صور الكواكب
لابي الحسين الصوفي
صورة الجدي على ما ترى في الكرة
الشمال
المغرب
المشرق
الجنوب


صورة الجدي على ما ترى في السماء
الشمال
المشرق
المغرب
الجنوب





هن إذا أحصيتهن سبعة
رسمن والقطب معا في بقعة
في جملة الصورة كوكبان
مقدار ما بينهن شبران
سمتهما العرب بفرقدين
ترى دوين أنور الاثنين
كويكب أخفى من الرسم أمحّى
تدعوه أعراب الفلا فأس الرحى
نعم ونجم تعرف القبلة به
هو من الدب فويق ذنبه
يعرف بالجدي عند العرب
من كان بالبعد ومن بالقرب
مداره مقارب للقطب
وهذه الأنجم عند العرب
تعرف أيضا ببنات نعش
يوجدها الفرد القديم المنشي

فعسى أن تتبنى احدى الدول العربية طبع هذا الكتاب وتعميمه في الأوساط الخاصة والعامة، لأنه فخر للأمة العربية لا يزول مع زوال الثروات المادية كالزيت، والدليل على ذلك أن هذا الكتاب ظل خالدا بفضل الغرب الذي عرف قيمته.

لقد قيل إن انكلترا ربما تستغني عن احدى مستعمراتها، لكنها لا تتخلى عن الشاعر شكسبير. وأنا واثق من أن الدول العربية تتخلى عن أحد آبار الزيت ولا تتخلى عن الصوفي وابنه. ●



● ان الجرائم التي ترتكبها اسرائيل ضد العرب، هي تكرار لجرائم هتلر ضد الشعوب الأوروبية.

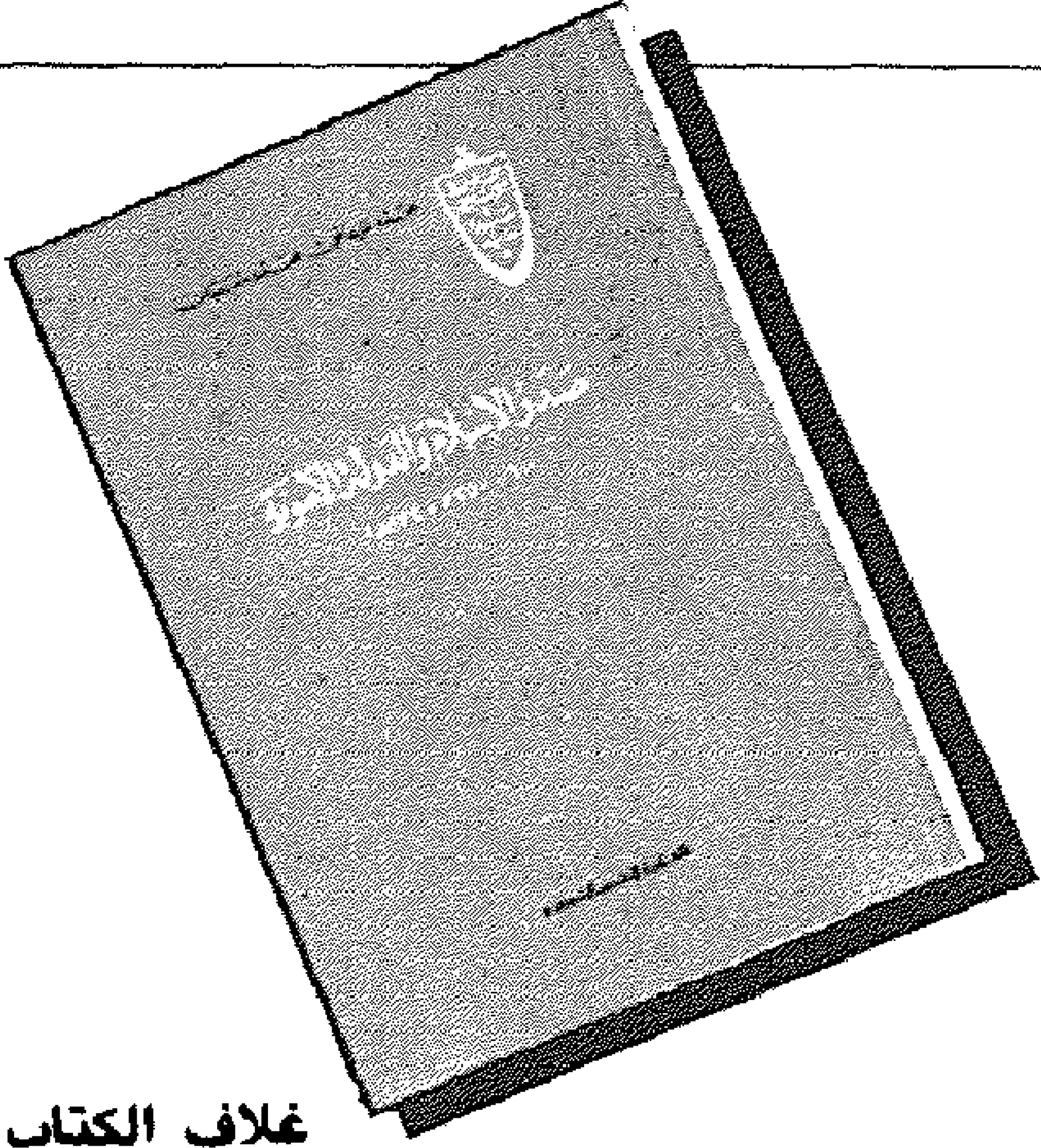
(كازيميرز روزينيك)

● ليس الأشقياء هم الذين يسيئون إلى العالم. ولكنهم الأغبياء!

(الاكسبريس)



صدر الإسلام(*) والدولة الأموية


غلاف الكتاب

مراجعة: د. خالد زيادة



المحاولة التي قام بها المؤرخ محمد عبد الحي شعبان تهدف بشكل صريح إلى إعادة قراءة التاريخ الاسلامي وفق تفسير جديد. وقد نشر المؤرخ شعبان، الأستاذ في كامبردج العديد من الدراسات ابرزها: «الثورة العباسية» و «الدولة العباسية والفاطميون» ثم الدراسة التي بين أيدينا وتحمل عنوان: «صدر الاسلام والدولة الأموية». وهذه الدراسات الكتب صدرت جميعها في الأصل عن جامعة كامبردج، ثم ترجم كتاب الدولة العباسية والفاطميون ونشرته الدار الأهلية للنشر والتوزيع السنة الماضية، كما نشرت الدار ذاتها الكتاب الآخر ـــ الذي نتناوله بالعرض الآن ـــ والذي يشمل بدايات الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية عام ٧٥٠م/ ١٣٢هـ.

ويمكننا أن نلخص طريقة المؤرخ شعبان في عمله على الوجه التالي: فهو يعمد إلى طرح التفاصيل الجزئية جانبا، كما أنه يهمل ذكر الأحداث مهما بدت هامة ومؤثرة إذا لم تكن ذات قيمة اساسية في متابعة السياق والتفسير، وعلى سبيل المثال، لا يذكر بشيء فتح أفريقيا على ايدي عقبة بن نافع، أو فتح الأندلس على أيدي طارق بن زياد. إن هذه الأحداث باتت معروفة للغاية، من حيث هي أحداث عظيمة وجليلة. ومن الضروري أن يكون القارىء على اطلاع على احداث التاريخ العربي ـــ الاسلامي حتى يتمكن من قراءة عمل شعبان. فليس هدف المؤلف إعادة ترتيب ذكر هذه الأحداث، بل إعطاء تفسير جديد لسيرورة التاريخ.

هذا من حيث الطريقة، أما من حيث المضمون، فإن شعبان يبحث عن معنى للأحداث أكثر من بحثه عن الأحداث ذاتها. وهذا يعني أن فعل أو سياسة ينتهجها هذا الخليفة أو ذاك الأمير لا بد أن يكون لها تفسير واقعي أو مادي إذا شئنا. والمعنى لا يترافق بالضرورة مع الحدث الكبير فحسب، بل ربما كمن في أحداث أو إشارات لم يعرها المؤرخون اهتماما كبيرا. كذلك، فإن خلف الطابع الشخصي لهذا الخليفة أو ذاك لا بد من أن نبحث عن الدوافع الموضوعية. فالسياسة التي انتهجها عمر بن عبد العزيز مثلاً لا يمكن أن نردها فقط إلى تقواه، وهي حقيقة واقعة، بل إلى صراعات القوى الموجودة في زمنه.. إلخ.

والموضوع الذي يتناوله شعبان: صدر الاسلام والدولة الأموية بات معروفا إلى حد بعيد، وقد حظي بدراسات متعددة، عربية، إسلامية وأوروبية. من هنا

(*) محمد عبد الحي محمد شعبان: صدر الاسلام والدولة الأموية. الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ـــ ١٩٨٣.

□ د. خالد زيادة: استاذ في الجامعة اللبنانية ـــ معهد العلوم الاجتماعية ـــ دكتوراه من السربون ـــ باريس ـــ ١٩٨٠. له مؤلفات عديدة ابرزها: اكتشاف التقدم الاوروبي والصورة التقليدية للمجتمع المديني، وتحقيقات ودراسات في مجلات عديدة.

صعوبته النسبية، إذا ما قارناه بغيره من موضوعات وحقبات التاريخ الاسلامي، ومع ذلك فإن المؤلف شعبان يلجأ إلى المصادر المعروفة إياها: ابن الأثير، الطبري، البلاذري، النوبختي، ابن سعد، ابن عساكر وغيرهم، فلا يمكن القول انه يضع يده على مصادر لا يعرفها غيره من المؤرخين. إلا أنه يعتمد الطريقة التي أشرنا إليها سابقا، وهي البحث عن معنى للأحداث، ويمكن أن نسمي منهجه في هذا المجال، بالمنهج «النقدي». ولست أدري ما إذا كان شعبان يتقبل هذه التسمية، إلا أنني سأستخدمها هنا بالحدود التالية: يأخذ شعبان بالتأويلات التي درج المؤرخون الذين سبقوه، من عرب وأوروبيين، ودون أن يذكرها مباشرة يحاول أن يرد عليها بإعطاء تفسير مقابل لها. إن الطابع الذي يصيغ به شعبان مؤلفاته ليس سجاليا، اي انه لا يكلف نفسه عرض الآراء والتأويلات المناقضة ليرد عليها، ولكنه في سعيه إلى صياغة تفسيره الجديد يعمل على الرد على اطروحات شائعة دون أن يسميها بشكل متعمد.

ما هو العنصر الغالب في سير التاريخ لدى شعبان؟ يبدو من خلال قراءة هذا الكتاب، وكذلك من خلال قراءة مؤلفاته الأخرى ان شعبان يعير للعامل الاقتصادي الدور الرئيسي في تحريك القوى وتحديد مواقفها وصراعاتها وتحالفاتها. وهو أمر يمكن الاتفاق عليه بشكل عام، خصوصا ان التركيز عليه يهدف إلى إبعاد التفسيرات الشخصية للتاريخ. لكن هذا لا يعني أن شعبان ينتمي إلى «المدرسة الاقتصادية» في التاريخ، أو «المدرسة المادية». على عكس من ذلك، فهذه المدارس التي تمثلها تيارات محددة، لا نرى شعبان ينتهي إلى واحدة منها بشكل خاص.

ومع ذلك فإن قراءة شعبان تعطي انطباعا واضحا حول إهماله للعوامل الايديولوجية وللعوامل الدينية، فتبدو غائبة عن تحليلاته وتفسيراته. وهذا ما يشكل إحدى القضايا التي لا يتطرق إليها تفسير شعبان الجديد كما يسميه. فإذا لم تكن العوامل الدينية والايديولوجية والثقافية كامنة في الأسس، فإنها ولا ريب ظاهرة في النتائج. وتبقى العملية الشائكة هي في ربط سير الأحداث مع التعبيرات الايديولوجية، والتي نمت بغزارة في نهاية الحقبة الأموية. لا نتحدث عنها عن نقص يعتري تفسير شعبان، وإنما نشير إلى مسألة، ربما، لم يكن يريد أن يتطرق إليها، مكتفيا بالبحث عن «معنى» للأحداث وتشابكها ونتائجها.

حاولنا، حتى الآن، أن نعرض طريقة شعبان في عمله، وليس عمله بحد ذاته. ومن الطبيعي فإننا، في هذا المجال المحدود، لا نستطيع أن نلخص كتابا يتناول فترة سديدة من أخصب فترات التاريخ الاسلامي. علما بأن هذا الكتاب قد كتب باختصار في الأصل. وطالما أن أحداث هذه الفترة المديدة معروفة للقراء العاديين المهتمين، فإننا سنتوقف عند أبرز المحطات التي توقف عنها المؤلف، والتي اعطاها تفسيرا جديدا، او أنه قرأها قراءة لم نعهدها بوضوح لدى المؤرخين الآخرين.

يركز المؤلف على وضع مكة في نشأة الاسلام. وطالما أن المؤلف يبحث عن تاريخ البشر أنفسهم فهو يرى حسب تعبيره: «... أما محمد (ص) القائد فقد انشأ مجتمعا يقوم على التعاون في ميدان العلاقات البشرية جميعها. مرة أخرى أنه لم يكن في هذا التنظيم الاجتماعي شيء جديد أساسا. لقد كان عربيا بكل تأكيد، مستندا إلى تقاليد عربية، موضوعا في قوالب أو أشكال تشريعية. إن التجديد الحقيقي في ذلك يكمن بكل بساطة في عبقرية الرسول التنظيمية. إنه استخدام القوالب أو الأشكال والتقاليد العربية المقبولة... هكذا ظلت القبيلة أساس الوحدة الاجتماعية ولو أنها كادت أن تذوب كليا ببناء الأمة الفوقي» (ص ٢٥).

إن اختيار أبي بكر الصديق بعد وفاة الرسول (ص) يتفق مع السير الطبيعي للأمور. ومع المحافظة على وضع قائم. إلا أن أبا بكر لم يكن يملك سوى الحد الأدنى من الصلاحيات الفعلية. فاختياره للخلافة لم يكن يعني اختيار قائد للأمة، يقول شعبان: «الواقع أن أبا بكر ظل طوال ستة أشهر خليفة لبعض وقته فقط بينما استمر يقوم بالأعمال التجارية إلى جانب ذلك. لقد كان عليه أن يحلب شياه جيرانه لتوفير دخل كاف له قبل أن أدركت الأمة انها بحاجة إلى قائد يصرف وقته كله لشؤونها. عند ذاك فقط صُرف له من بيت مال الأمة مبلغ كاف لمعيشته ومعيشة عائلته فقط. وليس أدل من هذا على سلطته الزمنية المحدودة».

والاندفاع في الفتوح كان لا بد منه. أما اختيار أبي بكر لخليفته الذي جاء مشروطا بموافقة الأمة، فكانت أمرا طبيعيا لم تمتع به عمر بن الخطاب من صفات ويتوقف المؤلف وقفة طويلة عند جملة الأحداث التي رافقت عهد عمر وما رافقه من فتوحات. إلا أن الشيء الذي نتوقف عنده هنا هو منصب الخليفة الثاني بالذات. فقد كان مشهورا بقوته وهيبته، إلا أننا لا نستطيع أن ننسب

«نجاحات» المسلمين إلى صفاته فقط. فالأحداث التي كانت تجري خارج الجزيرة العربية كانت تتقرر بمواقعها. وهذا يعني أمرين على اقل تقدير حسب استنتاجات المؤلف: إن الخليفة الثاني كان إلى حد بعيد ناصح وراشد أكثر مما هو حاكم فعلي، بسبب فقدانه لمؤسسات يعتمد عليها في حكمه. وإن حكومة المدينة لم تكن قادرة على ملاحقة التطورات التي كانت تحدث في أقاليم هي أوسع وأكبر.. ومع ذلك فإن عمر بن الخطاب الذي استطاع بشخصيته القوية أن يحتفظ بموقعه كناصح، لم يحجب ما حدث فيما بعد حين احتل منصبه من لا يتمتع بقوته.

كان بمقدور عمر بن الخطاب أن يسمي خليفته، ومع ذلك فإنه لم يشأ أن يفعل ذلك، بل ترك للمسلمين أن يقرروا الشكل الذي يريدونه، يقول شعبان: «لقد آثر عمر، كالرسول قبل وفاته، أن يبقي قضية القيادة مفتوحة وأن يترك للأمة ممثلة بلجنة الصحابة الستة البارزين، تقرير القضية بنفسها. إن التفسير المألوف، إذا صح، لا ينقص هذا التفكير لأن شخص الخليفة ونوع القيادة المطلوبة كان بطبيعتهما قضيتين متشابكتين لا يمكن الفصل بينهما.. (ص ٧٣).

إن الأحداث المتشابكة والمعقدة والمتلاحقة زمن عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب تحتاج إلى قراءة متأنية، ومع ذلك فإن عنوانها الرئيسي هو نشوء مشاكل تفوق قدرة حكومة المدينة على حلها. من هنا فإن وصول معاوية إلى قمة السلطة، أتى كما هو في الواقع بعد حروب متلاحقة وكنتيجة طبيعية لسلسلة التطورات. فبعد اغتيال علي بن ابي طالب برز معاوية كقائد لا ينازع وصارت له قوة لا تقاوم. فوقع منصب أمير المؤمنين في يديه دون معارضة بارزة (انظر ص ٨٩).

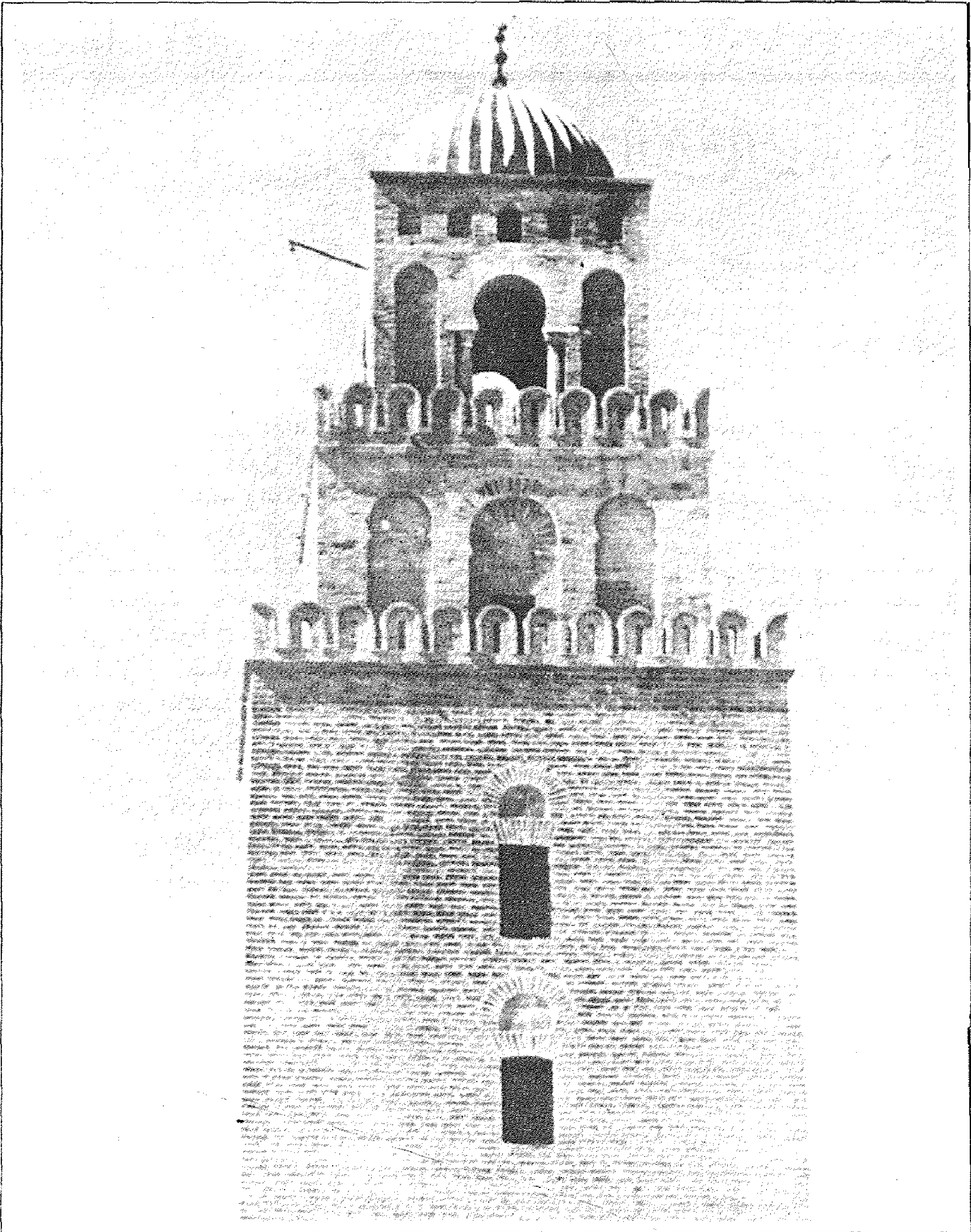
لقد حافظ معاوية على التوازنات العربية. إلا أن ولاء زعماء القبائل العربية لا يمكن أن يضمن في زمن ولده يزيد. هنا نشأت الحرب الأهلية الثانية والتي كان للحجاج بن يوسف أن يخمدها لصالح المروانيين. إنه عصر الحجاج حسب رأي المؤلف. الذي يمكن أن نلخص سياسته بأنها إخضاع للولايات وخصوصا العراق، عبر جيش سوريا العربي، اي الجيش المرواني، والفصل بين العرب والموالي، ومواصلة الفتوحات.

ومن قلب هذه السياسة نشأ الصراع القيسي — اليمني الذي ميز عصر بني أمية. ومن المهم أن نورد تفسير شعبان لهذا الصراع: «ومما له مغزاه أن الصراع بين اليمنية (قحطان) والقيسية المضرية لم يحدث إلا في هذه الفترة التي نتناولها. لم يكن صراعهما في عصر ما قبل الاسلام، ولا في حروب الردة، ولا في حروب الفتوح، أو في جميع النزاعات والاصطدامات التي جرت خلال الحرب الأهلية الأولى. ثم أن هذا الصراع سرعان ما انتهى بعد سقوط الأمويين وقيام العباسيين. ومن السخف أن نفسر هذا الصراع على أنه مجرد صراع قبلي وحسب. ومن السخف ايضا أن نعتبره نزاعا بين ما يدعى بعرب الشمال وعرب الجنوب. إن مثل هذه التعبيرات تسيء إلى الحقائق أشد الاساءة وتستخف بقدرة العرب على إدراك قضايا اكثر اهمية من قضايا المنافسات والحساسيات القبلية..» (ص ١٣٥ — ١٣٦).

وحسب رأي شعبان فإن (القيسية) الحاكمة اعتمدت في حكمها على سياسة حروب الفتوح كعلاج شامل لجميع مشاكل الامبراطورية ولم تهتم بأمر اندماج السكان. أما (اليمنية) فقد ادركت مغزى التطور والاندماج وتمسكت به بديلا للنظام القيسي. وهذا ما يفسر لنا بشكل خاص سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أوقف جميع الحملات العسكرية مع بيزنطة او في الشرق. وبدل سياسة التسلط العربي أحل سياسة التعايش الاسلامي بين جميع الأقوام. يقول شعبان: «لقد كان عمر الثاني مقتنعا بأن الأصول الايديولوجية لا القوات السورية هي التي يجب عليها — ويمكنها — أن تحافظ على وحدة الامبراطورية. إن مثل هذه الايديولوجية متوفرة في الاسلام، مقبولة ومعترف بها في جميع انحاء الامبراطورية، وكل ما عليه أن يفعله هو تطبيق مبادئها بدون تمييز لانشاء مجتمع على أساس الحقوق المتساوية مقابل المسؤوليات المتساوية. لقد كان هذا يعني انصهار جميع المسلمين، عربا وغير عرب، في مجتمع إسلامي واحد» (ص ١٤٩).

نكتفي بهذا المقدار من الأمثلة، مشيرين إلى اننا لم نشأ أن نعرض كل ما تضمنه الكتاب بقدر الاشارة إلى بعض ما يدلل على الأسلوب المؤرخ في قراءته للتاريخ الذي يدرسه. عارضين في النهاية الملاحظات التالية:

— لا بد لكل مهتم أن يتابع محاولات شعبان مهما اتفق معها أو عارضها، فالتفسيرات التي يقدمها هامة وجريئة، كما انها تقلب بعض الأسس الدارجة لهذا من الضروري الاطلاع عليها بمقدار ما تثير من قبول او اعتراض.



□ جامع عقبة بن نافع (القيروان) ــ القرن السابع الميلادي.

ــ إن بعض التفسيرات التي يقدمها تبدو مثيرة وهامة بالرغم من عدم إثباتها إثباتا نهائيا، مثل أصل القراء، فإذا اتفق المؤرخون على اعتبار أصل تسميتهم تعود إلى القراءة، فإن شعبان يعجب لعددهم الهائل ويعتبر أن أصلهم من القرى حيث يسكنون أو يعملون. وهذا التفسير وما يشبهه يحتاج إلى جهد أكبر لاثباته.

●

الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب

د. الياس زين



إنعقدت «الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب» في مدينة الكويت ما بين ١٠ و ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٣. ونظم الندوة قسم التراث العربي في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالتعاون مع معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب بالجمهورية العربية السورية.

وقد استغرق الاعداد لهذه الندوة سنتين وذلك لانجاز البحوث التي قدمت في اجتماعاتها. وبلغ عدد البحوث المقدمة خمسة وستين بحثاً علمياً. ومن هذه البحوث ١٥ بحثاً تناول القضايا التي تتعلق بالمخطوطات والدراسات العربية حول أصوليات علم النبات وتصنيفاته واستخداماته الاقتصادية، و ٢٠ بحثاً علمياً تتناول دور العلماء العرب والمهندسين والمخترعين في تطوير نظم الارواء ووسائل انتقالها إلى أنحاء العالم، و ٢٠ بحثا علميا آخر تعالج الموضوعات المتصلة بنظم الفلاحة (الزراعة) العربية وأساليبها وطرائقها التي كانت سائدة في الوطن العربي وتأثيرها على العالم الخارجي، بالاضافة إلى ١٠ بحوث علمية عامة أخرى حول موضوعات الندوة السابقة التي انعقدت في العام ١٩٧٩.

وشارك في أعمال الندوة وبحوثها عددا كبيرا من العلماء العرب والأجانب، من غير دولة عربية وأجنبية. منهم ستة علماء من دولة الكويت، واثنان من المملكة العربية السعودية، واثنان من اليمن الشمالي واليمن الجنوبي، وعالم واحد من دولة البحرين، واثنا عشر عالما من مصر، وثلاثة علماء من تونس، واثنان من لبنان، وتسعة من العراق، وعشرون من سورية.

وشارك في الندوة أيضا أغلب الجامعات العاملة في العالم العربي، بممثلين عنها.

واعدت اللجنة المشرفة على الندوة كتابا، يضم ملخصات البحوث التي قدمت في الندوة في اللغتين العربية والانكليزية. ويقع الكتاب في ١٨٨ صفحة من الحجم المتوسط.

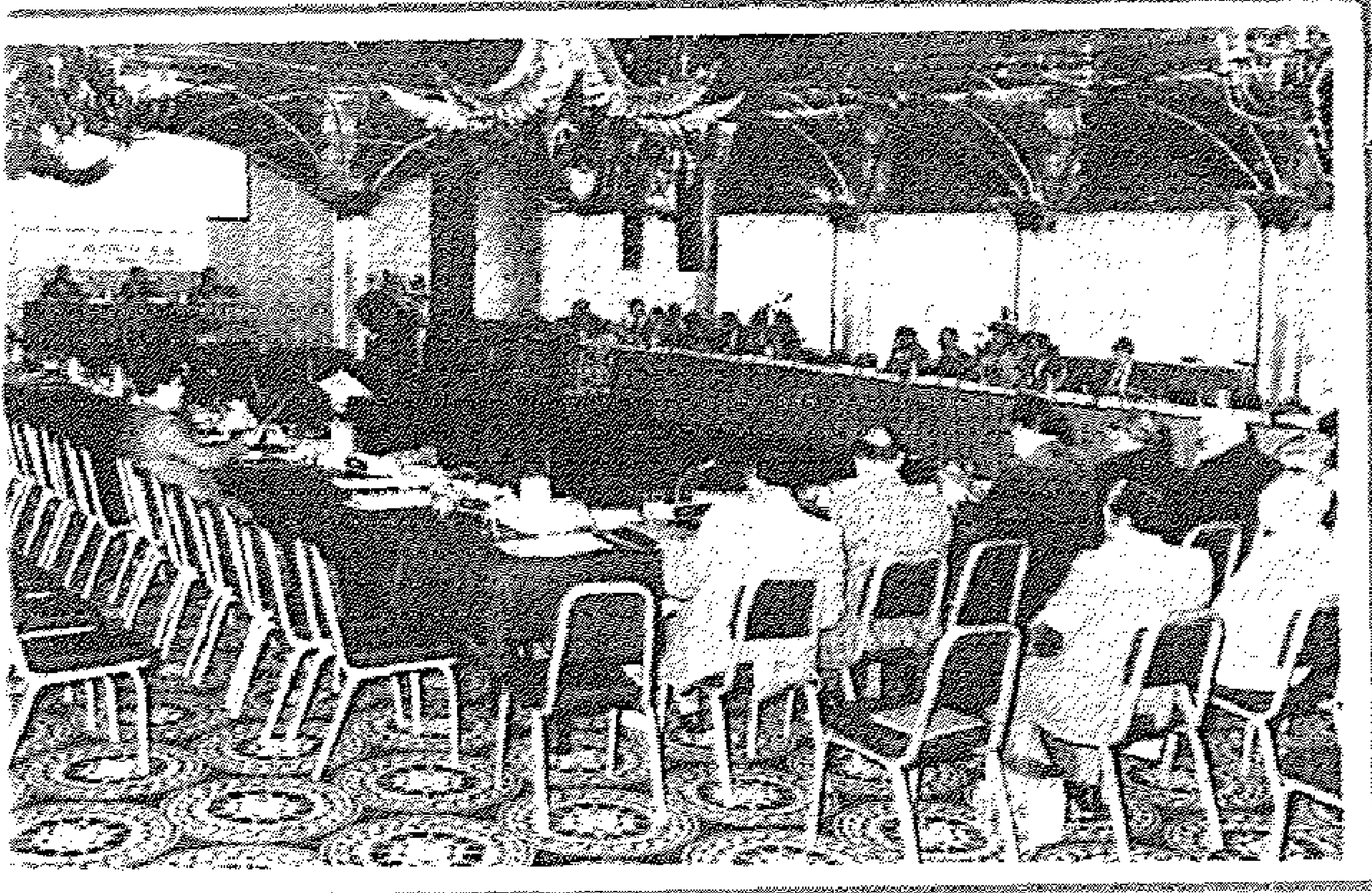
ومن الجدير بالذكر أن الندوة العالمية لتاريخ العلوم عند العرب، ندوة تنعقد مرة واحدة كل اربعة سنوات. وعقدت الندوتان السابقتان في مدينة حلب، سوريا، في السنة ١٩٧٦ وفي السنة ١٩٧٩. وتناولت الندوتان استطلاعاً مسحياً للجهود العربية في مجالات تقدم العلم بكل فروعه.

ومع تزايد الاهتمام بالتراث العلمي العربي في كثير من الأوساط الأكاديمية انتقلت الندوة من العموم إلى الخصوص، وكان هذا المؤتمر التخصصي الأول الذي عقد في الكويت في أواخر العام الماضي.

□ د. الياس زين: رئيس قسم اللغة الانكليزية وآدابها في الجامعة اللبنانية سابقاً. يعمل حالياً كباحث في دولة الكويت.



□ رئيس الجلسة ومقررها والباحث.



□ الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب

واستقر راي المؤتمرين على ان تعقد الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب في موعدها الدوري، أي بعد أربع سنوات من الآن في السنة ١٩٨٧. وترك الأمر لمعهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب تحديد مكانها والموضوع الذي تتناوله.

ومن خلال البحوث التي قدمت إلى الندوة تم مناقشتها في ثماني جلسات، خلص المشاركون من واقع النقاش العلمي إلى إصدار توصيات في مجال علم النبات والري والفلاحة. كما أصدروا توصيات عامة برصد المخطوطات العلمية العربية بشكل شامل في إطار أسلوب علمي تتكاتف فيه الجهود وتتضافر، بحيث يتناول هذا الرصد الكتب العلمية الخالصة أو ما يدخل في ثنايا المخطوطات والموسوعات.

وتوصي الندوة بالعمل على جمع التراث العلمي العربي عن طريق المؤسسات العلمية والأكاديمية، على أن تتم فهرسته وتصنيفه والتعرف به وتيسر الانتفاع به للباحثين والدارسين.

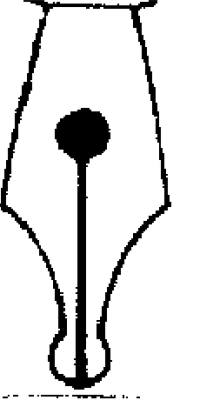
وتدعو الندوة إلى إصدار فهرس جامع لما تم طبعه من تراث علمي على أن يوجد سبيل يجمع الجهود في هذا المجال ويضمن الشمولية ويصون الجهود من التكرار والتبديد.

وتحث الندوة المؤسسات المسؤولة عن نشر التراث أن تعطي الجانب العلمي حظه من الاهتمام وتقوم على نشر المخطوطات المحققة في مجالات العلوم العربية والاتجاه إلى إعادة طبع الكتب التراثية في مجال العلوم وبخاصة ما هو منها في حكم النادر أو ما وجدت له من مخطوطات جديدة تضيف إليه أو تقوِّم نصه.

وتوصي الندوة الاهتمام البالغ بفهرسة الكتب التراثية العلمية فهرسة تكشف عن محتواها وتضيء جوانبها وتيسر الوصول إلى المعلومات في ثقة ووضوح على أن يتم ما امكن ــ لهذا التراث ــ بالاضافة إلى الاهتمام بالترجمة لخدمة التراث العلمي العربي سواء الترجمة إلى اللغة العربية أو منها إلى اللغات الأجنبية الحية لتحقيق الاستفادة من جهود كبيرة أصيلة غير عربية وللتنويه بقيمة هذا التراث عالميا.

كما توصي الندوة بحث المسؤولين عن التعليم الجامعي وما مستواه على الاهتمام بالتراث العلمي العربي. فتخصص له مقررات في الكليات ذوات العلاقة على أن يولي الأساتذة الجانب التراثي ما هو له أهل من الدراسة ويعرفوا طلابهم به وبقيمته ويجعلوا له نصيبا من بحوثهم.

وتدعو الندوة وسائل الاعلام في الدول العربية إلى الاهتمام بقضايا التراث العربي وإبراز الاسهامات التي أسدتها الحضارة العربية للحضارة الانسانية والاستفادة عن وعي وبصيرة بالأساليب الحديثة، كالحاسبات (الكمبيوتر) في حفظ التراث وتخزينه والاستفادة منه في استرجاع المعلومات حسب خطط مدروسة بناءة.



أمير الأمراء مجاهد العامري

مؤسس مملكة دانية والجزائر الشرقية في الأندلس

محمد عبد العزيز عثمان

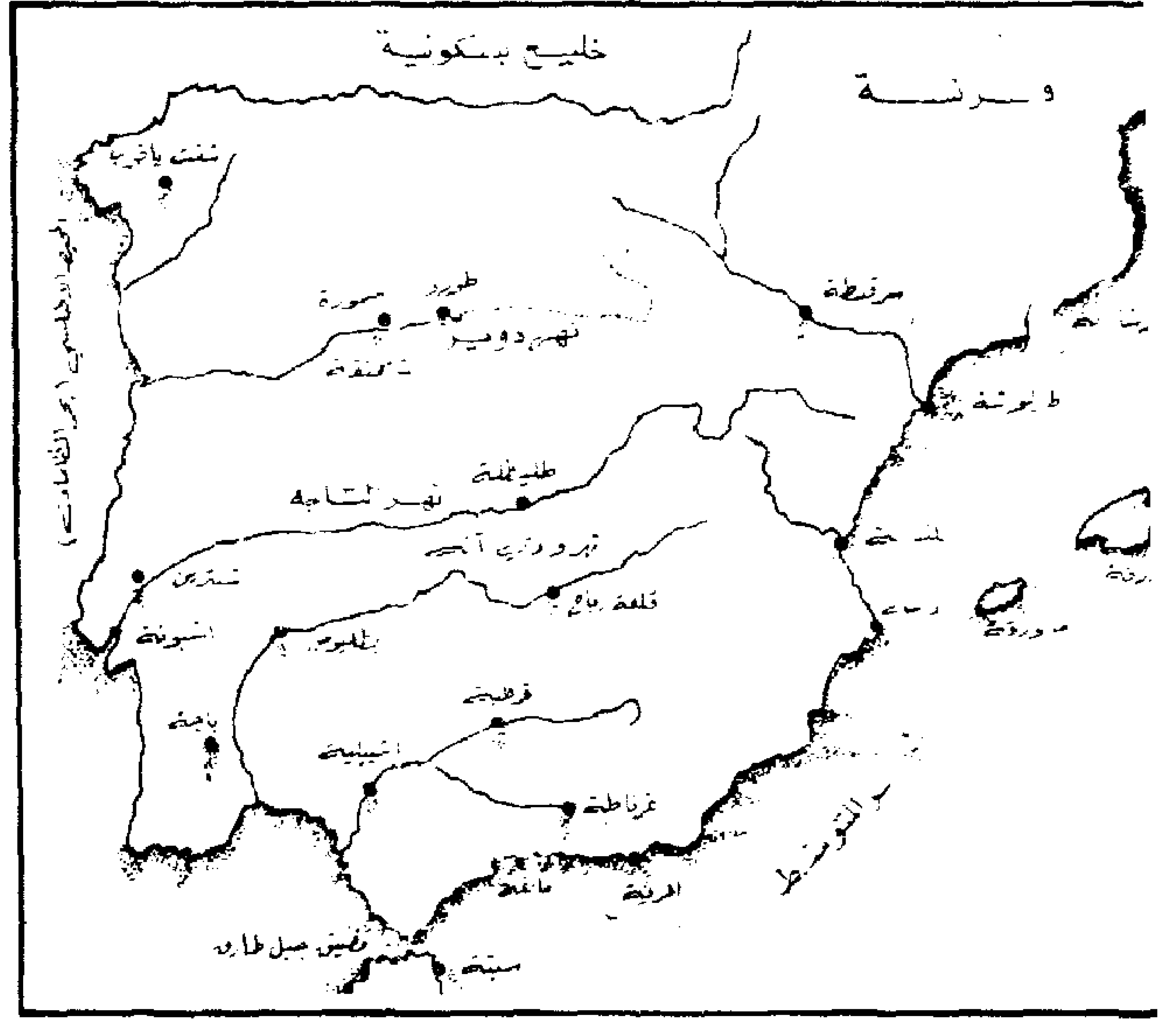


مجاهد العامري من الشخصيات البارزة التي كان لها دورا «كبيرا» على الساحة الأندلسية في فترة سادها الاضطراب والتمزق السياسي هي فترة ملوك الطوائف (٤٠٠ ـ ٤٨٤هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٩١م). وهو مجاهد بن يوسف بن علي العامري رومي الأصل من الفتيان الصقالبة حسب رأي أغلب الروايات، نشأ وتربى في بلاط المنصور بن أبي عامر الذي تولاه بالعناية والرعاية وجعله من مواليه ولهذا ينتسب كما ينتسب غيره من الموالي إلى العامريين وإذا تتبعنا طفولة مجاهد نلاحظ أنه قد ظفر بتعليم واسع في بلاط المنصور، وهذا التعليم شمل التدريب على استعمال السلاح ونظم الفروسية في القتال من جهة والتزود بالعلم والثقافة من جهة أخرى، فقد كان شغوفا بالدراسة والاطلاع فانكب على حفظ القرآن الكريم ودراسة الأحاديث النبوية وقراءة كتب اللغة والأدب، حتى استطاع أن يضرب فيها بسيف وافر، واستمر حبه للعلم ينمو مع نمو جسمه، فقد استمر في طلب العلم من صباه حتى اكتهاله، كما يقول ابن الخطيب. وما خلا جوانب تحصيل مجاهد الثقافي والعلمي نرى المصادر العربية تنقصها الاحاطة بحياة مجاهد حتى يظهر إسمه ويبرز على مسرح الأحداث السياسية عند اشتداد الفتنة بعد سقوط الخلافة الأموية وضعف دولة أبناء المنصور بن أبي عامر، حيث نزح هو ومجموعة من الزعماء العامريين إلى شرقي الأندلس وأسسوا مجموعة من الممالك. واستقر المقام بمجاهد في ثغر دانية ذات الموقع الاستراتيجي المهم، حيث أسس دولة امتدت إلى الجزائر الشرقية (منورقة) ميورقة، يابسة). واستطاع الاستقلال عن نفوذ حكومة قرطبة، ولكي يؤكد عدم اعترافه بشرعية خلافة المستعين (الذي وصل إلى الحكم بمساعدة البربر) فقد عمد إلى تنصيب خليفه في دانية وهو أحد الفقهاء الذي كان ينتسب إلى بني أمية وإسمه عبيد الله بن الوليد المعيطي، وشيء طبيعي أن المعيطي لم يمتلك من السلطة إلا إسمها فقط.

توسع مملكة دانية:

بعد أن وطد مجاهد حكمه في دانيه والجزائر الشرقية بدأ يتطلع إلى مد نفوذه على جزر البحر المتوسط الأخرى وبخاصة جزيرة سردانية التي حاول العرب المسلمين مرات متعددة السيطرة عليها، لكنهم لم يفلحوا بسبب استماتة سكانها في الدفاع عنها لاعتزازهم بحريتهم. فقد كانت الجزيرة تحت حكم الدولة البيزنطية ثم خضعت لسيطرة اللمبارد الايطاليين بعد ضعف الدولة البيزنطية، ثم حكمها الافرنج بشكل إسمي منذ القرن الثامن الميلادي وينوب عنهم في حكم الجزيرة، أمراء محليون يتمتعون باستقلال فعلي، فأبن الخطيب يقول: «إن فيها ملوكا أربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة». وبقي سكان الجزيرة محافظين على استقلالهم ويتلقون المساعدات من الجمهوريات الايطالية وملوك فرنسا والمانيا.

بعد خمسة أشهر من سيطرة مجاهد على جزائر البليار، بدأ مجاهد يعد العدة لغزو جزيرة سردانية، فحشد اسطولا كبيرا مكونا من مائة وعشرين مركبا بين كبير وصغير ومعه ألف فارس.



□ خارطة الأندلس حيث تبدو دانية، مقر العامري.

ابحر مجاهد باتجاه جزيرة سردانيـة التي كانت تستغرق الرحلة إليها يومئذ مسيرة ثمانية ايام في البحر، وصلت طلائع السفن إلى خليج كالياري في جنوب الجزيرة في ربيع الأول سنة ٤٠٦هـ = أيلول ١٠١٥م، وما أن بدأ جند مجاهد بالنزول على أرض الجزيرة حتى تصدى لهم سكـان الجزيـرة، فوقعت معـركة فـاصلة لم يتمكن سكان المدينة من الصمود فيها ووقع عدد كبير منهم قتلى وأسرى، وكان في مقدمة قتلاهم قائدهم المسمى مالتو، واستطاع مجاهد أن يحتل مناطق واسعة من الجزيرة وينفذ إلى المناطق الجبلية الوعرة منها، إلا أنه لم يتمكن من احتلالها وشرع ببنائها وانتقل إليها بأهله وولده، لكنه بقي حذرا من سكان المدينة الذين استمروا في مقاومته. ولكي يقطع كل مساعدة تقدم إلى الجزيرة من الجمهوريات الايطاليـة، سيطر على سواحل كورسيكا ومن ثم مدينة ليوني التي تعتبر من ثغور البحر التيراني مما دفع هذه الجمهوريات التي أحست باقتراب الخطر العربي إلى التحالف، فيما بينها، وقبل أن تقـوم هذه الجمهوريات بعمل عسكري ضد مجاهد عمد إلى مهاجمة جمهورية بيزا لكنه لم يستطع احتلال مدينة بيزا بسبب المقاومة العنيفة التي لقيها فآثر الانسحاب إلى مدينة لوني التي كان قد اتخذها قاعدة للهجوم. وهنا عمدت الجمهوريات المتحالفة (جمهورية بيزا وجمهورية جنوه) وبمساعدة البابا إلى القيام بهجوم معاكس لاستعادة مدينة لوني وفعلا تمكنوا من استعادتها سنة ١٠١٦م بعد معركة بحرية فاصلة هزم فيها مجاهد العامري والتجأ إلى جزيرة سردانية التي كان قد حصنها واختط فيها مدينة للبقاء فيها كما أشرنا، ولكن الجمهوريات المتحالفة واصلت هجومها باتجاه سردانية وبمساعدة كل من الافرنسيين والألمان يقـول ابن الخـطيب: «وتـداعى ملوك الأرض الكبيرة واستجاشـوا وبلغه (أي مجـاهد) من امرهم ما لا يطيقه». فقد عبر أسـطول ضخم البحر التيراني متجهـا إلى سردانيـة لمحاربـة مجاهد العامري، وقد وقعت في أول الأمر معركة بحرية سنة ٤٠٦هـ وأخرى عند سواحل جزيرة سردانية في نفس العـام، وهنا شعـر مجاهـد بحراجة موقفه، ذلك أن العرب المسلمين وجدوا أنفسهم بين عدوين: الأساطيل المهاجمة من جهة البحر وأهالي الجزيرة الذين دب الحمـاس في نفوسـهم فانقلبوا ثائرين. هذا من جهة ومن جهة أخـرى واجهت مجاهـد صعوبـة أخـرى هي اختلاف أهواء الجند وتمردهم عليـه، خاصـة أولئك الذين كانوا من أصل إسبـاني، وهكذا كانت الحالة المعنوية في جيش مجاهد الذي شعر بضعف موقفه، فقرر الاجلاء عن سردانية بأقصى سرعة قبل وصول الأسطول المهاجم إليها فأمر بالابحار بسرعة إلى عرض البحر، وهنا تدخلت قوى الطبيعة ضده فهبت ريح عاصفة دفعت مجاهدا إلى الالتجـاء إلى مرسى عـلى ساحـل الجزيرة على الرغم من نصيحة قائده البحري المسمى بأبي خروب الذي نصحه بعدم الالتجاء إلى المرسى، فأطبق على أسطول مجاهد الأعداء، فجعلت الريح تقذف مراكب المسلمين مركبا مركبا إلى الساحل والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل. وكان ممن وقع في الأسر نساء مجاهد وبناته ومنهم زوجتـه النصرانيـة وابنه عـلي. ولم ينج من أسطول مجاهد الضخم سوى بضع سفن شقت به عرض البحر مسرعة نحو مياه الأندلس لقد خسر مجاهد المعركة ونجا بنفسه عائدا إلى دانية بخمسة مراكب واربعة قوارب. وقد وقعت هذه الهزيمة بمجاهد العامري سنة

٤٠٧هـ = ١٠١٦م، وكانت المدة التي قضاها مجاهد وجيشه في سردانية نحو عشرة أشهر.

وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم ولم ينجح العرب المسلمون في الاستقرار في جزيرة سردانية، كما أتيح لهم الاستقرار من قبل في صقلية ولو نجح مجاهد في مشروعه واستقر في سردانية لتغيرت صورة وواقع هذه الجزيرة، فكما هو معلوم فإن العرب ما أن يحلوا في مكان ما حتى ينقلوا إليه حضارتهم من علوم وفنون وعمارة وهذا ما حصل في جزيرة صقلية الايطالية.

وقد انصرف مجاهد بعد عودته إلى مدينة دانية إلى تنظيم شؤون مملكته ووجه همه إلى افتكاك من أسر من نسائه وبناته وولده علي الذي تمكن من فدائهم جميعا ما عدا ابنه عليا الذي بقي في الأسر إلى سنة ٤٣٢هـ حيث افتداه بمال كثير. ثم اتجه إلى المشاركة في أحداث الأندلس مرة أخرى. بقي مجاهد العامري في حكم دانية والجزائر الشرقية إلى أن توفي بمدينة دانية سنة ٤٣٦هـ = ١٠٤٤م، وخلفه من بعده ابنه علي الذي كان قد افتداه من الأسر وتلقب بإقبال الدولة، وسار على نهج أبيه وخطته إلى أن تمكن جاره وصهره المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة من الاستيلاء على دانية بعد حصارها وإجبار علي على التسليم له وذلك سنة ٤٦٨هـ. أما الجزائر الشرقية فقد ظل حكمها في أسرة مجاهد إلى أن احتلها المرابطون سنة ٥٠٨هـ = ١١١٤م.

لم يكن مجاهد العامري رجل حرب وسياسة فحسب بل كان رجل علم كذلك حتى لقب بفتى امراء دهره وأديب ملوك عصره، يقول عنه ابن عذاري بأنه كان ذا نباهة ورئاسة زاد على نظرائه من ملوك طوائف الأندلس بالأنباء البديعة منها العلم والمعرفة والأدب وكان مع ذلك من أهل الشجاعة والتدبير والسياسية. لذلك أصبحت مركز استقطاب في عهده للعلماء والأدباء والشعراء يقول عنه ابن حيان: «وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه واتت إليه العلماء من كل صقع فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم كأبي عمر والمقرىء وابن عبد البر وابن مَعْمَر اللغوي وابن سيدة، فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانه، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن ويشاركون في فنون العلم يجملونه وبها ويشرفون دولته».

كل هذا يؤكد أن مجاهدا قد جمع الشجاعة والفروسية إلى جانب الثقافة والعلم إلى الحد الذي ناظر فيه علماء عصره ولهذا كان يلقب بذي الوزارتين وبأبي الجيوش. كما أن غاراته على الشواطىء الايطالية والفرنسية جعلت منه الروايات الأوروبية شخصية خيالية مروعة، فهو موجيت أو موجيتو القرصان المرعب ومؤسس مستعمرة قطاع العراق في سردانية، وهذا يدل على ما تركه إسم مجاهد في نفوس سكان السواحل والجزر من الخوف والرعب الذي دام لفترة طويلة حتى بعد وفاته. ●

المصادر والمراجع:

(١) ابن عذاري المراكشي: البيان المقرب في اخبار المغرب. الجزء الثالث، نقلا عن شكيب ارسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية، القاهرة ١٩٣٩.

(٢) احمد بن يحيى الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الأندلس. طبع في مدينة مجريط (مدريد) ١٨٨٤م.

(٣) محمد بن احمد المقري: نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الرابع، بيروت ١٩٤٩.

(٤) محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٩٥٢.

(٥) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون. (العبر)، المجلد الرابع، بيروت ١٩٥٨.

(٦) عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ. المجلد التاسع، بيروت ١٩٦٦.

(٧) لسان الدين ابن الخطيب: اعمال الاعلام. تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٦.

(٨) خير الدين الزركلي: الاعلام. الطبعة الثانية، الجزء السادس، القاهرة ١٩٥٥.

(٩) محمد عبد الله عنان: دول الطوائف. القاهرة ١٩٦٩م.

(١٠) كليليا سارنللي تشركوا: مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غربي البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري، القاهرة ١٩٦١.

(١١) شكيب ارسلان: تاريخ غزوات العرب. بيروت ١٩٦٦.

كيف تصبح رئيسا للولايات المتحدة؟

سألني أحد الشبان ذات يوم سؤالا مثيرا، فقال: «هل صحيح أن كل من يولد في الولايات المتحدة ويشب فيها يمكنه أن يكون رئيسا لجمهوريتها؟».

فأجبته: هذا صحيح يا ولدي، إذا كان لديه مالا كافيا لاجتياز التصفيات الأولى للمرشحين.

● وهل يحتاج المرء إلى مال كثير؟

ــ إنك تحتاج لمال كثير لخوض انتخابات الكونغرس. ولكنك تحتاج للملايين لانتخابات الوصول لحديقة الورود (حديقة في البيت الأبيض).

● وكيف يمكن للمرء تدبير أمر الحصول على المال؟

ــ حسنا، ينبغي عليك أولا أن تجتمع مع المفاتيح الانتخابية في أجنحة الفنادق، وأن تتناول الطعام مع المدراء التنفيذيين للمؤسسات، وتلتقي مع زعماء نقابات العمال في نوادي الغولف. وسيطرح كل هؤلاء عليك أسئلة، وينبغي عليك أن تجيبهم بالاجابات التي يحبون سماعها، ثم تأمل بعد ذلك أن يعطوك المال اللازم لتصبح رئيسا للولايات المتحدة.

● وهل يعطونك كل المال اللازم؟

ــ كلا، فكل واحد منهم لا يستطيع أن يعطيك إلا ألف

آرت بوكوالد



دولار عن نفسه وألف دولار عن زوجته. غير أن بعضهم لا يعتمد عليه كثيرا هذه الأيام بحيث لم يعد بإمكانك ضمان دفعه للألف دولار التي من المفروض أن يدفعها عن زوجته.

● ولكن، إذا كان الواحد من هؤلاء لا يدفع أكثر من ألف دولار، الا ترى أن من يسعى للرئاسة سيتعين عليه مقابلة الكثيرين؟

ــ إنك لا تقابل في أجنحة الفنادق، وغرف الطعام التابعة للمؤسسات، وملاعب الغولف الناس الذين يدفع الواحد منهم ألف دولار، فهؤلاء الناس سيقوم كل واحد منهم بإجراء العديد من المكالمات الهاتفية لأناس آخرين ممن يدفع الواحد منهم ألف دولار. وسيكون عليك أن تأمل أن يتصل كل واحد من دافعي الألف دولار بالاتصال بأصدقائه ليدفع كل منهم مبلغا مماثلا وهكذا إلى ما لا نهاية.

● وماذا يقول الواحد منهم حين يتصل بصديق له من أجل هذه الغاية؟

ــ ما اسمك يا ولدي؟

● آرتشي دانيلوف يا سيدي.

ــ حسنا، ما ستأمله هو أن الواحد من هؤلاء سيتصل بصديقه ليقول له: التقت مجموعة صغيرة منا بآرتشي دانيلوف الليلة الماضية وهو يرى الأمور كما نراها.

● ولكن، كيف يعلمون أنني أفكر مثلهم؟

ــ لأنك أخبرتهم بذلك في الليلة السابقة.

ولنفترض أنك التقيت بعمال مناجم الفحم الحجري، فقبل الاجتماع بهم سيكون مدير أعمالك للشؤون السياسية قد أوجز لك موقفك من موضوع الفحم الحجري بحيث يلتقي

موقفك مع موقف هؤلاء الرجال.

● ولكن ماذا لو كان موقفي يختلف عن موقفهم؟

— في هذه الحالة ينبغي عليك الا تلتقي بهم، لأنك لا تستطيع إضاعة وقتك في محاولة جمع المال من أناس لا تتفق وجهة نظرك مع وجهة نظرهم. ولا بد لك حين تلتقي بهم أن تكون قد جمعت ما يلزمك تقريبا ثم تقول لهم أنك تتفق معهم في نظرتهم لشأنهم أو على الأقل أن تجعلهم يظنون انك تتفق معهم.

● ومتى أتحدث للناخبين؟

— في وقت متأخر جدا، بعد أن تكون قد جمعت المال اللازم من اللجان السياسية. واهمية هؤلاء تتزايد باستمرار، لأنهم لا يقدمون لك المال الذي يجمعونه من اتباعهم فقط وإنما سيتعهدون لك بأن يرسل مؤيدوهم لك الشيكات.

فالدعم المالي أصبح الآن هو أساس اللعبة السياسية.

● وهل أستطيع بعد الحصول على أموال المؤيدين أن اعبر عن موقفي الذي أؤمن به من مختلف القضايا؟

— كلا ينبغي عليك أن تنتظر حتى تقوم بشن حملة إعلانية بريدية لجمع الأموال لصندوق الحملة الانتخابية.

● وكيف أقوم بهذه المهمة؟

— تأخذ المال الذي جمعته من القطط السمان ومن اللجان السياسية ثم تحوله إلى أحد البيوت المتخصصة في تنمية صناديق الحملات الانتخابية.

● وماذا اقول في رسالتي لمثل هذا البيت؟

— عليك أن تقول لهم أنك الشخص الأفضل تأهيلا لمنصب رئيس الولايات المتحدة. ولكنك لا تفعل ذلك بدون تأييد المجموعات الصغيرة من الناس الذين لهم اهتمامات معينة بمصالحهم، ودعم زعماء الاتحادات والنقابات الذين لهم مصلحة في دعمك. وهذا هو سبب قيامك بدعوتهم لمساندتك عن طريق البريد. ولا يمكنك العمل لاستعادة الحلم الأميركي بدون مساهمتهم، مهما كانت هذه المساهمة ضئيلة. والحملة البريدية قد تكلفك مليوني دولار، ولكنك بقليل من الحظ ستكسب خمسة ملايين دولار. وعند ذلك تكون قد حصلت على ما يجعل حملتك ناجحة.

● هل أنت متأكد أن كل شاب ولد وشب في الولايات المتحدة يمكنه أن يصبح رئيسا؟

— بالطبع، يا آرتشي، ما دامت لك القدرة على جمع المال.

●

□ أرت بوكوالد: من أشهر المعلقين السياسيين الساخرين في الولايات المتحدة الأميركية.

عن جريدة «الهيرالدتربيون» الأميركية.





كتب وردتنا

- **المرشد الطبي والاسعاف الأولي:**
دليل مصوّر للطوارىء والاعراض
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣ ــ ٢٢٥ صفحة .... اميل خليل بيدس

- **دليل الطفل الطبي: مع صور إيضاحية**
دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٣ ــ ٢١٢ صفحة .... نقله إلى العربية: أميل خليل بيدس

- سلسلة من التراث العربي: **معيد النعم ومبيد النقم**
الإصلاح السياسي والاداري في الدولة العربية الإسلامية
دار الحداثة للطباعة والنشر ــ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣ ــ ١٨٦ صفحة .... تاج الدين عبد الوهاب السبكي

- **العلوم عند العرب**
تبويب وتعاريف ونصوص:
منشورات دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٣ ..... إعداد: الدكتور يوسف ق. خوري

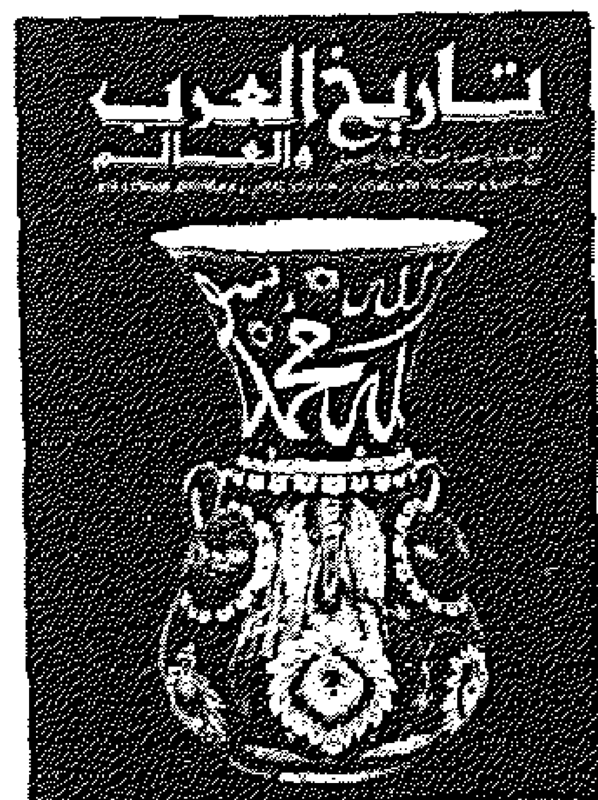
- **السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية:**
دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ١٩٨٣ .... تأليف: الامام شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس احمد بن تيمية ٦٦١ ــ ٧٢٨هـ
تحقيق: لجنة احياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة.

- **الاسلام والتاريخ**
الاسلام في نظره إلى الله والانسان والمجتمع والتاريخ
دار الكتاب العربي ١٩٨٣ ــ ١٩١ صفحة .... تأليف: عمر فروخ

- **البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر**
«محمد بن قايتباي» (٩٠١ ــ ٩٠٤هـ / ١٤٩٥ ــ ١٤٩٩م) المنسوب إلى «ابن الشحنة»
دار الكتاب العربي، طبعة أولى ١٩٨٣م
١٨٤ صفحة .... تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري

- **أشجار الحدائق وشوارع المدن بالوطن العربي**
الناشر: شركة الصفحات الذهبية المحدودة للطباعة والنشر الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م
١٦٥ صفحة .... دكتور مهندس: محمد حماد
المهندس: فتحي سالم

□□ حوض الوضوء الكبير يتوسط الصحن الواسع في مدرسة السلطان حسن في القاهرة. تعلوه قبة تقوم على ثمانية أعمدة من الرخام ويجلل أعلاها آيات قرآنية كريمة.



الغلاف الأول:

قنـديل

قدمه محمد باشا الاستانبولي إلى مسجد «سوقلو». وهو من سيراميك «ازنيق» وتاريخه حوالي ١٥٧١. ويقدر ارتفاعه بـ ٤٧,٥ سم. مودع في متحف طوبقبو سراي باستانبول.

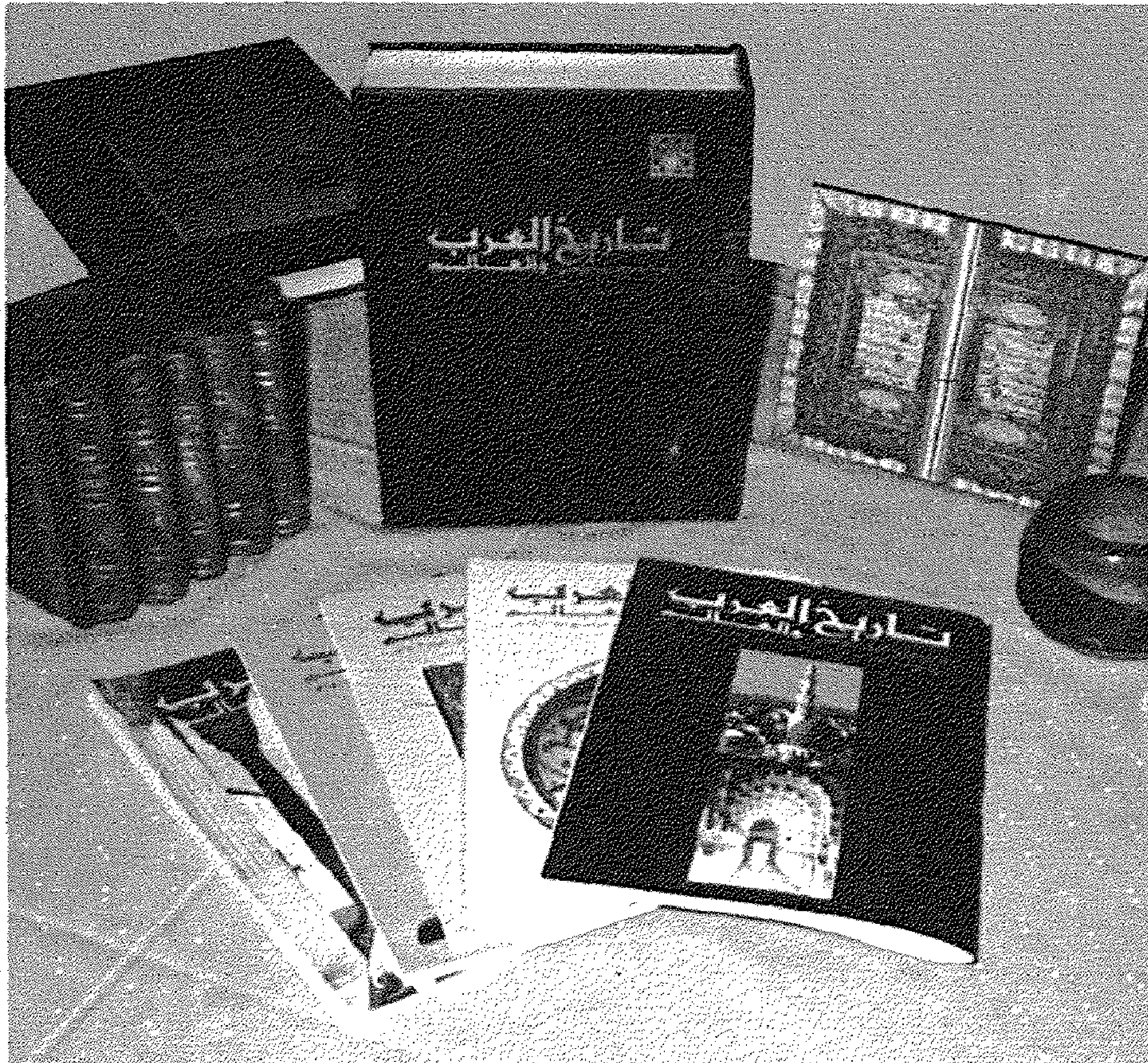
- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

إحتفظ بمجلدات السنوات الخمس من مجلة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

تسعة مجلدات فخمة + اشتراك مجاني لعام كامل



٤٠٠ دولار أو ما يعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ______________________

العنوان: ______________________

المدينة: ______________________

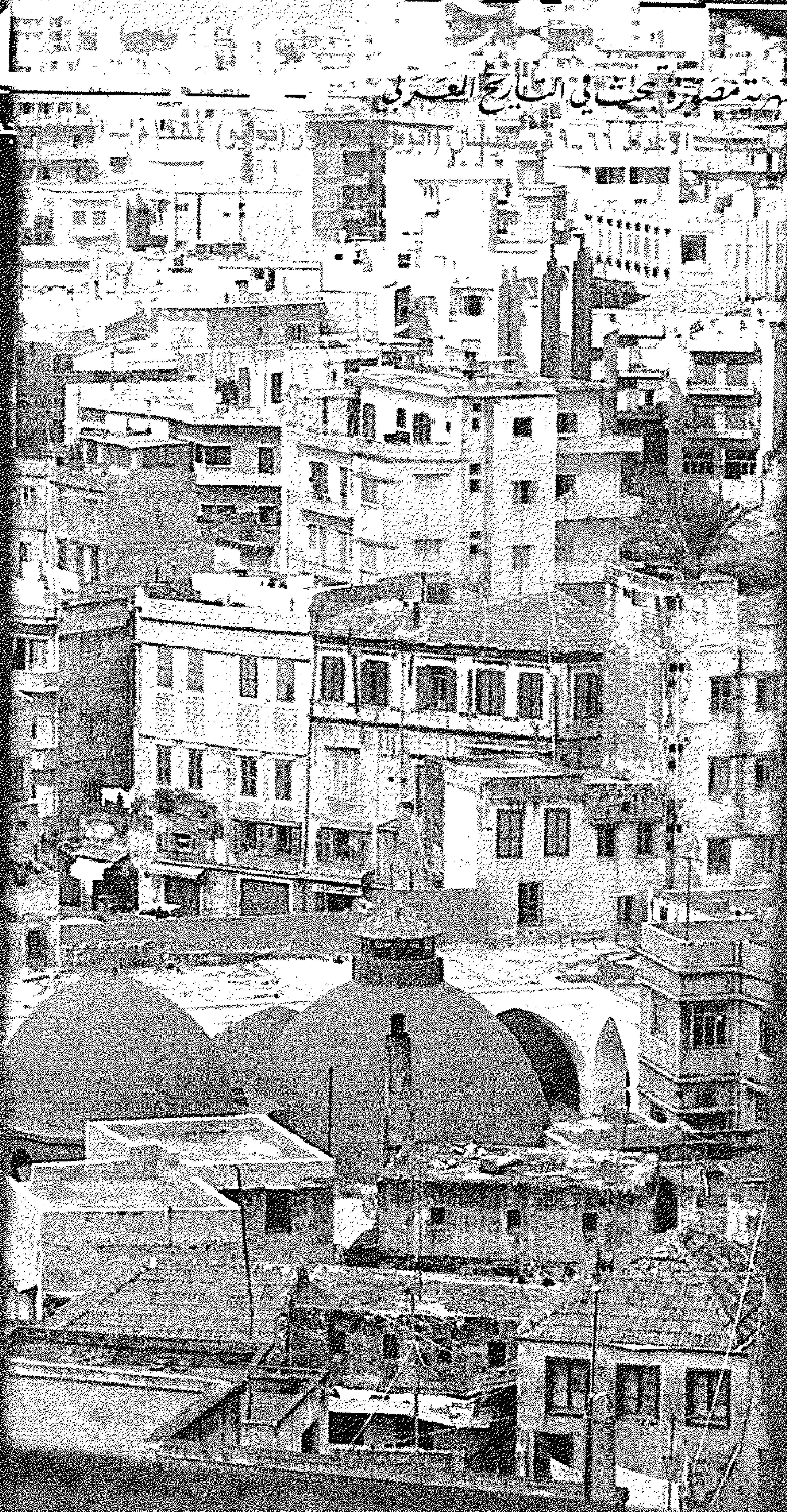
الامضاء: ______________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

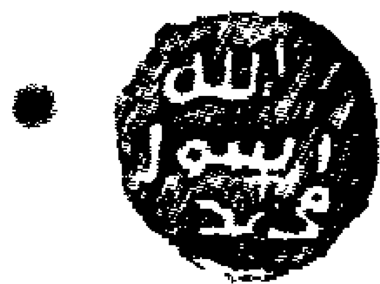
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة ال[illegible] [illegible] جب ـ شوال ١٤٠٤هـ



بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله الى
المنذر بن ساوى سلام عليك فاني احمد الله
الذي لا اله غيره واشهد ان لا اله الا
الله وان محمد عبده ورسوله اما بعد فاني اذكرك
[illegible]



□ صورة رسالة النبي (صلعم) إلى المنذر بن ساوي.

من كتاب: دراسات في تاريخ الخط العربي. تأليف: الدكتور صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد ــ بيروت.



الغلاف الأول
□ طرابلس من نافذة قلعتها «سان جيل».
من كتاب: Lebanon:
Fulvio Roiter

تاريخ العرب والعالم

الأعداد ٦٦ ـــ ٦٩ • نيسان ـــ تموز ١٩٨٤

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها . فاروق البربير

المستشار د. أنيس صايغ المدير المسؤول . محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

المخرج الفني سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	١٢ ل.ل.	سوريا	١٢ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـــ بيروت. لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ـــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 6 • No. 66-69 • April — July 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

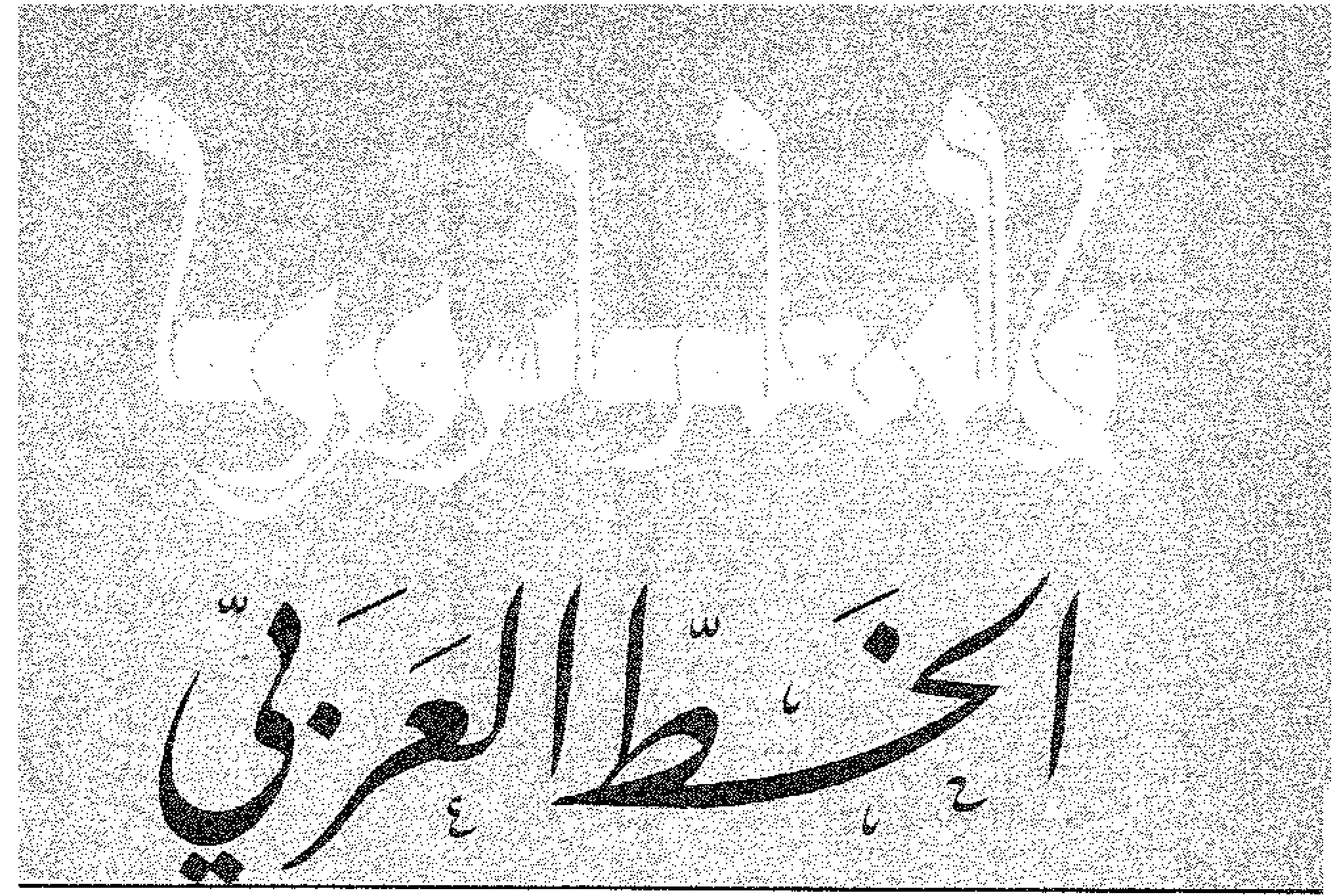
في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

• المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

• المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

• المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



الخط العربي في الحضارة الإسلامية

يؤدي الخط العربي غرضين: أولهما، الإبانة عن معاني الألفاظ مثل سائر الكتابات، وثانيهما، عرضه في رسوم تجريدية جميلة، فصارت من أهم الفنون التي أنتجتها الحضارة الإسلامية، فقد واكبها من بدايتها، ولا يزال شاهداً على تطورها ونموّها.

والمواضيع التي سنتعرّض لها هي: نشأة الكتابة العربية، ثم تطورها في المصاحف لارتباطها به، ثم مساهمة الأئمة الثلاثة في الخط وهم: ابن مقلة، وابن البواب، وياقوت المستعصمي.

ونرى بعد ذلك، الفروق بين الخط اليابس واللينّ الذي اختير للكتابة في كل المجالات. وكانت الأدوات التي ينتج بها الخط هي القلم،ثم نتطرق إلى أهم المدارس الموجودة للخط، ثم نذكر بعض أدوات الكتابة وآدابها. ولاكتمال أبعاد هذا البحث نتعرّض للخطاط وشخصيته، وميادين إنتاجه ثم نتعرّف على أعمال الخطاطين في مجال اللوحات الخطية، والمصاحف الشريفة.

وقد حاولنا قدر الاستطاعة شرح المقال بالصور، فهي أوضح طريقة للوقوف على أصالة الخط العربي. والنص الذي لم نوفق إلى عرض ما يناسبه، سيكون مصحوباً بالزخارف والخطوط المتنوعة.

■ د. محمد شريفي

كانت الكتابة العربية قليلة عند العرب، قبيل الإسلام، فهي تتبع الحضارة والعرب حينئذ أمة بداوة. لكن اختلاطهم بالقبائل المتحضرة المجاورة بأسباب التجارة. واتصال هذه القبائل بالحجاز لغرض الحج حفزت العرب إلى تعلم كتابتهم.

روي عن سمرة بن جندب قال: نظرت في الكتابة العربية، فوجدتها قد مرّت بالأنبار قبل أن تمر بالحيرة[١].

أما النقوش التي عثر عليها، فتدلّ على اقتباس العرب كتابتهم من صور الكتابة النبطية، وهم أيضاً قوم عرب. «ظهرت دولتهم في شبه جزيرة سيناء على أنقاض الدولة الأدومية وكانت عاصمتها سلع، وباليونانية بترا. ومن هنا امتدت إلى صحراء سوريا حتى شملت دمشق وأطراف نهر الفرات من ناحية كما أنها توغلت في بلاد الحجاز من ناحية أخرى»[٢].

وكان من خصائص الكتابة النبطية وصل الحروف. واستعملت حروفاً للابتداء مغايرة لصور حروف الانتهاء للتفريق بين الكلمات. وكانت كتابتهم خالية من الأعجام، وتؤدي بعض الحروف أغراض الأخرى. ومن مميزاتها حذف الحركات الممدودة مثل مالك، تكتب ملك، والنبين، بياء واحدة.

وانتشرت الكتابة النبطية لتظهر روحها في الكتابة العربية الجاهلية وذلك في القرنين الخامس والسادس الميلادي، كما شوهد في نقش زبد المؤرخ سنة ٥١١م، ونقش حران سنة ٥٦٨م[٣].

* ألقيت هذه المحاضرة في المؤتمر التاسع للآثار، الذي نظمته جامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم-إدارة الثقافة) في صنعاء، ١٦ ــ ٢٢ شباط ١٩٨٠.

بعث النبي (ص) ونزلت عليه أول آيات القرآن تحث على القراءة، وتنسب العلم للقلم، وأقسم الله تعالى في آية أخرى به وهي: «ن والقلم» وأمرت آيات الدين بالكتابة بين المتداينين[٤].

وكانت فدية الأسرى المشركين الذين يعرفون الكتابة، في غزوة بدر تعليم عشرة صبيان من المسلمين.

واتخذ النبي (ص) الكتبة لتدوين القرآن بين يديه فور نزوله، واشتهر منهم الصحابة رضوان الله عليهم، علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت[٥].

وفي خلافة عثمان بن عفان جمع القرآن الكريم في مصحف واحد. وقال الداني: أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية من النواحي بواحدة منهن: إلى الكوفة والبصرة والشام وأمسك عنده واحدة[٦].

لم تحفظ القرون السوالف إحدى تلك النسخ، وأغفل الراءون وصف خطه ما عدا ملاحظات عامة مثل التي ذكرها ابن كثير في ذيل تفسيره حين رأى النسخة التي كانت بطبرية، ونقلت في حدود ثمان عشرة وخمسمائة هجرية إلى جامع دمشق. وقال: «وقد رأيته كتاباً جليلاً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم، في رق أظنه من جلود الابل»[٧].

وتوجد في متحف طوب كابي باستانبول نسخة معروضة عليها آثار دماء تنسب إلى سيدنا عثمان بن عفان حين مقتله. ولكن جودة خطها وصناعته تبعدها عن كونها هي المصحف الأمام. وتظهر مقارنتها مع النسخة المحفوظة في المتحف الإسلامي باستانبول أيضاً أولوية هذه في القدم عن تلك، وقد أشار بذلك مدير متحف طوبكابي.

ونسخة المتحف الإسلامي بها تطريس، وهي إعادة الكتابة على المكتوب والصنعة بادية عليها.

ومن النسخ التي عليها آثار الدماء نسخة جليلة محفوظة مع كنوز متحف طشقند. وقد شاهدناها سنة ١٩٦٨م. وإن الزخارف الفاصلة بين صورها والدّقة المتناهية في مطاتها خصوصاً حروف الباء الراجعة. تجعلنا نذهب إلى ما ذهب إليه الدارسون الأجانب حين سجلوا في أوائل النسخ المصوّرة عنها، أنها نقلت عن أحد المصاحف الأئمة.

والروايات أيضاً تذهب مؤيدة إلى «أن خط الطومار هو قلم مبسوط كله ليس فيه شيء مستدير». وكثيراً ما كتبت به مصاحف المدينة القديمة[٨].

ونحن نرى بكل اطمئنان أن الله أراد لها الفناء بعد أن قامت بمهمتها أحسن قيام وهي حفظ القرآن بالتواتر في الصدور، وإجماع المصاحف الكثيرة المكتوبة عن هذه المصاحف الأئمة.

وقد كتب الله من قبل أن تشقق الصحف التي جمع منها المصحف الامام. وكانت قد أرجعت إلى حفصة فلما ماتت أمر بها مروان فشققت وقال: «إنما فعلت هذا لأني خشيت أن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب»[٩].

وإننا لنجد في المصاحف الناقلة عن المصحف الامام، دلالة قوية على أن المصاحف الأئمة كتبت على ذلك النحو. لأن الناقل سيتأثر حتماً بالخط الذي ينقل عنه. ناهيك إذا عزم على التقليد تقديساً للمكتوب، وربما قلّد أيضاً الدماء فسكبها على أوراقه لذلك نرجح أن تكون خطوط المصاحف العثمانية على منوال المصاحف التي بقيت آثارها. إلا أن هذه بها مسحة من التجويد والتحسين التي أضافتها الكوفة على الكتابة لما انشئت، ونزل بها قوم من اليمن وقد عرفوا بخطهم المسند. وبعد ذلك أطلق اسم الكوفي على الخطوط اليابسة.

وعند مقارنة الخط المبسوط أو الكوفي مع خط المراسلات المسمى بالمقور الذي وصل إلينا في البرديات في القرن الأول، لا نجد اختلافاً في الهيكل ولا في الخصائص، أو في الوصل والفصل. وما المقور إلا أن زواياه محذوفة منه ومكتوب بسن حادة مع صغر الخط وقلة الورق. بينما الخط الكوفي مسجل بقلم عريض له سمك وزاويتان. ويستلزم تسطيره مدة من الوقت والتأني.

وكلما أسرع الكاتب لليونة المادة التي يكتب عليها، مال إلى التدوير، ويلاحظ ذلك في الشاهد المكتشف في أسوان الذي يحمل تاريخ سنة إحدى وثلاثين هجرية. فإن الكاتب قد ضيق في السطور الأولى وعندما قرب النص من نهايته وبقي الفراغ واسعاً، أسرع في خطه فمال إلى الليونة رغم قساوة المادّة التي سجل عليها[١٠].

ولما شاعت الكتابة وقراءة القرآن في الأمصار، وقع التصحيف، فطلب زياد بن أبيه والي البصرة من أبي الأسود الدؤلي فوضع نقطاً في المصحف للحركات الثلاث والتنوين.

وكان الإصلاح الثاني في زمن الحجاج بن يوسف حيث طلب من يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم إدخال نقط الأعجام للتفريق بين الحروف المتشابهة ثم جاء الخليل بن أحمد بعد قرون من الزمان فأبدل الشكل بالعلامات المستقرة حتى زماننا هذا[١١].

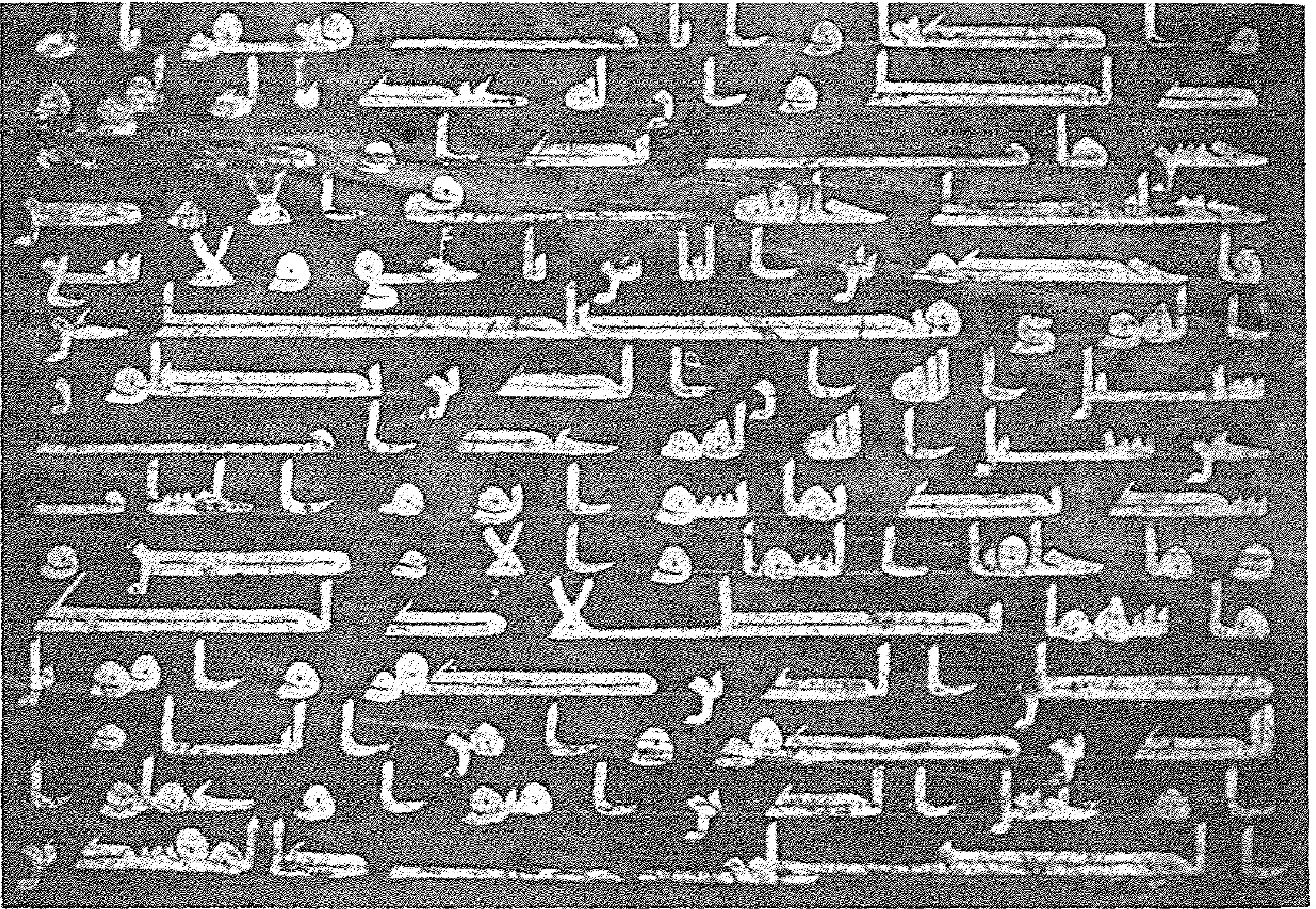
تنافس الخطاطون والوراقون في تجويد الخط، وسارت الكتابة نحو الليونة لسهولتها ولكونها أقرب إلى الحضارة من اليابسة البدائية التي تتحكم فيها المواد المسجلة عليها.

وأشهر من طور الخط وضبطه هو ابن مقلة[١٢] ولم تصل إلينا خطوطه بعد، ولو أن أحد الباحثين قد ذكر لي أنه يملك ثلاثة نماذج من خطه المصحفي مع العلم أن ابن مقلة قال أنه كتب المصحف دفعتين[١٣].

وباستقراء الروايات والنظر إلى خطوط من بعده، نرجح أن يكون خطه شبيهاً بالمسمى، الخط «نصف كوفي» فهو الذي بدأ هندسة الحروف بنسب فاضلة وقواعد جمالية، وأضفى الليونة عليها بمقادير موزونة، وهذه الرواية توضح ما ذكرناه.

روى المقري ما يلي: وقال ابن خليل السكوني في فهرسته:

«شاهدت بجامع العديس بأشبيلية ربعة مصحف في أسفار ينحى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطاً وأبينه وأبرعه وأتقنه، فقال لي



□ صفحة من القرآن الكريم بالخط الكوفي.

الشيخ الأستاذ أبو الحسين بن الطفيل بن عطية: هذا خط بن مقلة» ثم قال: «ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل في القدر والوضع، فالالفات على قدر واحد، واللامات كذلك، والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة»[١٤].

ولعل أبلغ مدح قيل في خطه ما سمعه التوحيدي حين سأل عبدالله بن زنجي: ما تقول في خط بن مقلة قال: «ذاك نبي فيه أفرغ الخط في يده كما أوحى إلى النحل في تسديد بيوته».

ولكن كيف هندس ابن مقلة الكتابة العربية، وما سرّ جمالها واعتدالها؟ كانت الحضارة الاسلامية في القرن الثالث في تقدم وازدهار، وكان المسلمون لا يرفضون الجديد بل يدرسونه ويأخذون أحسنه، ويضيفون حتى يتلاءم مع معيشتهم، ويكسونه بمسحة من أذواقهم حتى لا تكاد تجد أصولاً لاقتباساتهم.

وترجمت العلوم اليونانية والحضارات الأجنبية إلى العربية، ونجد إخوان الصفا يقرون بالنسب الفاضلة، وهي: «المثل، والمثل والنصف، والمثل والثلث، والمثل والربع، والمثل والثمن»[١٥].

ويذكرون أن تركيب الكتابة هي على تلك النسب، وهندستها على مقياس طول الألف الذي هو قطر الدائرة الضابطة لحروف المعجم. ولا يضيرنا أن نقول إن العلوم الأجنبية قد سبقت إلى هذه النسب. فاننا سنجد الخط العربي في مظهره بعيداً كل البعد عن الهندسة البحتة، أو لها شبه أو صلة بالحروف الأجنبية. فقد أخذ الفنان المسلم منها هيكلها ونسبها الجمالية ثم كساها بالترطيب اللائق بالذوق العربي. ومثاليته في ذلك الوضوح والاختزال والجمال.

ونجد الدليل الثاني في محاورة عابرة في كتاب «مثالب الوزيرين» للتوحيدي. إن صديقاً لابن ثوابة الكاتب أبي العباس[١٦] يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم أنك رجل بحمد الله ومنه، ذو أدب وفصاحة وبراعة وبلاغة، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسي

وعلم الأمثال الدالة على حقائق الأشياء، وقرأت كتاب أقليدس وتدبرته. فقال له ابن ثوابة وما اقليدس؟ قال له: رجل من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أمثال كثيرة مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبة، يشحذ الذهن، ويدقق الفهم ويلطف المعرفة، ويصفي الحاسة، ويثبت الرؤية، ومنه أنتج الخط، وعرفت مقادير المعجم[١٧]...

ونرى أن ابن مقلة الذي هندس الخط اللين كان قد درس تلك المقاييس وتلك النسب فاشتهر بذلك.

وهناك فروق واضحة عند مقارنة الخط الكوفي باللين الذي ظهر تاماً في ابن التواب فقد ارتبط الكوفي بأصوله فكان في بعض حروفه آثار الحروف المفردة.

أما اللين فأهم ميزاته، هندسته على نحو مختزل، ووضع الحروف الموصولة في ربط محكم، قاعدته الأساسية تسيير القلم إلى الأمام. وهذه هي الميزة التي نود الفات النظر إليها وشرحها. وهي موجودة في مواضع الاتصال، علماً بأن بعض الحروف لا يتصل بها ما يليها، وهي: الألف والدال والذال والراء والزال والواو. لكي لا تشتبه بالحروف الأخرى. ويرسم الحرف بكامل صورته في آخر الكلمة علامة لانتهائها. ونوضح مثال الاتصال في ثلاث مركبات. أولها «بحسعفمهها».

أول هذه الحروف هي السين التي تمثل الباء وأخواتها والنون والياء في الابتداء، والثانية تمثل الحروف السابقة الذكر في الوسط. وقد رسمت في الكوفي على هذه الصورة ( ) فنضطر إلى رفع القلم لرسم الجيم، أما في اللين فصارت على هذين الصورتين ( )

وتسير السين إلى قدام بلا رفع القلم. وللعين رجوع إلى اليمين ولكن بلا رفع للقلم، ويعكس سيره للحصول على مثلث موزون. وقد رسمت قديماً على شكلها في الابتداء ( ) ثم تطورت في الكوفي إلى هذا الشكل ( )، ثم اتصل طرفاها من أعلى فرسمت بخط سير واحد ( ) والفاء والقاف على شكل معين وكانت في الكوفي على صورة واحدة في الابتداء والتوسط ( ) ثم تطورت إلى هذا الشكل ( ). ورسمت صورتها الأخيرة في اللين على هذا الشكل ( ).

وأما الميم فهي على عدّة أشكال نكتفي في الاتصال على شكلين فهي مثل الفاء إلا أن رأسها يوجد أسفل الربط ( ) والشكل الثاني فيه رجوع قدر نقطة ( ).

والهاء بنوعيها المشقوق والمدغم، مثل الميم بتكرار مثالها من أعلى ( ) وترسم الألف بالصعود بها، وكانت في الكوفي ترسم من أعلى لذلك ينزل نتوؤها تحت السطر ( ).

ثانيها: بها حرفان، يفرش الأول للثاني للاتصال تدريجياً حتى يلتصقا ويتحدا في سمك واحد وهما الصاد والطاء ( ) وقديماً ترسم الطاء ابتداء من قائمها.

ثالثها: عن القوائم، وهذه يضطّر فيها للرجوع إلى السطر. ولكن تبدو على صورة فنية طبيعية، رسمت على قاعدة تفريع البنات ومثال ذلك: ( ) والكاف المشكولة تزاد شكلتها عند التوسط وقد يستغني عنها وتعرض بكاف صغيرة ( ) ويصعد باللام ويرجع بها في التوسط. والكاف المعرات في التطرف في حكم اللام، وكذلك الدال والهاء المردوفة ( ) وقد كانت الكاف والدال على صورة واحدة في الابتداء والتوسط. والتطرف وبهذه الطريقة الشيقة اختزلت الكتابة فاستلذت الأنامل، واستحسنتها الأعين، وهي تتابع انسيابها بكل ارتياح.

ونرى أن الخط العربي لم توضع أصوله اعتباطاً، أو كما اتفقت أذواق الكتاب أو نزوات الوراقين، ولكنه رسوم مدروسة وموزونة أخذت بنسب متوازنة مقدرة من الخطوط المستقيمة والمستديرة حتى سميت بالكتابة المنسوبة. وأدى التناوب بينها في الحرف والكلمة إلى قيم جمالية تجمع بين الرقة والقوة واليبس والليونة.

ولكي تحفظ تلك النسب وضعت لها مقاييس تضبط بها. فتقاس طولها بشعرات البرذون، توضع متتابعة لقياس طول الألف على ما في ذلك من عناء. وأما أجزاء الحروف فتقاس بالمثل والنصف والثلث والثلثين.

وللحفاظ على انسجام الحروف، وضعت قواعد تنص على مواضع المط أو المد في الكلمة الثنائية والثلاثية والرباعية. وقيدت الحروف التي تعادل

حرفين لحفظ توازن الكلمة ونظام السطر. كل هذه القواعد قد كملت منذ القرن الثالث، ووردت مفصلة في كتاب الصاحبي لابن فارس المتوفي سنة ٣٩٥هـ.

ثم جاء دور علي بن هلال المشهور بابن البواب، كان في أول أمره مزوقاً يصور الدور ثم صور الكتب، ثم تعانى الكتابة ففاق فيها المتقدمين وأعجز المتأخرين وكان يعظ بجامع المنصور[١٨] وتتلمذ على أستاذه محمد بن أسد[١٩].

بعد مصحف ابن البواب الذي فرغ من كتابته سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة أقدم مصحف موجود بالخط اللين. وقد كمل فيه الربط بين الحروف ولا يأتي جديد بعده إلا التحاسين وتغيير بعض النسب وتحريف القلم. ومن أهم الدلالات على مكانة ابن البواب تقليد الطيبي في مصر لخطوطه، فقد جمع في القرن العاشر كتاباً به نماذج لستة عشر قلماً نسبها لابن البواب. مما يدل على استمرار طريقته إلى ذلك العهد. وقد برز مجودون كانت لهم مدارسهم ولكن ابن البواب كان له شرف السبق وفضل الاجادة، وحق الأستاذية.

وتنسب عدّة أعمال لابن البواب، ولكن الدارسين ينظرون إليها بحذر وريبة وتثبت فقد كثر تزوير خطوطه وتوقيعها باسمه لشهرته وللاثمان الباهظة التي تدفع في سبيل الحصول على توقيعه.

ولكي نقدر فنه يجب أن نراه بالمقارنة مع سابقيه، مع استحضار حضارة زمنه وذوق عصره. فإن للزمن الفاصل بيننا وبينه رقياً وتطوراً جيدين في مجال الخط العربي وتوفي ابن البواب ببغداد سنة ٤٢٣هـ ــ ١٠٣٢م.

ثم يأتي في القرن السابع دور ياقوت المستعصمي[٢٠] الملقب بقبلة الكتاب، والمشهور عنه نسخ ألف مصحف ومصحف. وإن الاختراع الذي أدخله على الخط وبقي معمولاً به حتى الآن، هو تحريف قطة قلمه التي نتج عنها رسم الخطوط الأفقية بكامل سمك القلم، والخطوط القائمة بثلثي سمك القلم، وما بين القوائم والأفقيات سمك متدرج بين النسبتين على قدر ميل القلم ودورانه وتم بذلك أهم مميزات الخط العربي.

ويمكننا الآن أن نطلع على أحد أسرار الخط العربي بتتبع سير القلم: إن سنه مركب من صدر أو عرض، وزاويتان يمنى ويسرى. وفي الصورة فرقنا بين الزاويتين لتوضيح سير القلم، فنرى كيف تتعاقبان في سيرهما وتتبعدان وتلتقيان ثم تفترقان في تدرج وانسياب. وتختزل احداهما خط سيرها عند المنعرجات بينما تواصل الأخرى دورانها، وتتقاطعان وتتناوبان مكانيهما يمنة ويسرة. ومنظرهما العام يوحي بوضع أسفلهما ظلاً للأخرى التي تعلوها. وهذه الخطة في سير القلم هي التي تبنى سراً من أسرار الخط العربي المتمثل في الأشكال المختلفة التي يتكون منها الحرف. أما الحشوات التي زدناها في الرسم فيضعها عند الكتابة عرض القلم الذي يفصل السن الأيمن عن الأيسر.

هذا ما أنتجه الأئمة الثلاثة في الخط اللين وهم ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمي. وهو ما يمكن أن نطلق عليه المدرسة العراقية ويكفيها فخراً أنها أرست قواعد الخط وفنونه.

ولقد كانت دار الخلافة هي الرائدة في تحسين الخط العربي، وإشاعته في الأقطار الاسلامية عن طريق المراسلات الرسمية، وبواسطة الوفود والتجار الذين يجلبون المخطوطات إلى أوطانهم فحيثما انتشر الإسلام شاع الخط فيه وقلد أجوده وتنافس الكتّاب في تحسينه. ولما انقرضت الدولة العباسية في العراق، لم ينقرض الخط العربي معها لأن كل الأقطار كان بها خطاطون وكتبة.

المدرسة المصرية

ولقد ساهمت المدرسة المصرية في كل الأزمان بمجودي الخط فيها واشتهر في العهد الطولوني طبطب[٢٦] واعتنى المماليك في عهودهم بالفنون أيما اعتناء. وكتبت المصاحف الكريمة ذات الخط الجليل، والزخارف الغنية المتقنة، وبنيت المساجد، واشتهر بعض أئمة الخط العربي، مثل الزفتاوي الذي كتب رسالة عن الخط، ونظم شعبان الآثاري ألفية عنه، وألف ابن الصايغ في

القرن التاسع تحفة عن الخط كما كتب مصحفاً جليلاً. وكل هذه الأعمال لا تزال محفوظة.

المدرسة الشامية

أما المدرسة الشامية فقد اشتهر بها الضحاك واسحق بن حماد في عهد الدولة العباسية، وعرف عن الأتابكة تحسين النسخ الذي بدأ استعماله في أغراض التدوين وفي كتابة المصاحف. ويروي ياقوت: «أن الحسن بن علي بن مقلة كان منقطعاً للكتابة عند سيف الدولة وأفرد له داراً قوراء، بها حوض للأقلام والمحابر، وعدة مجالس يتناوب الكتابة فيها»[٢٣]

المدرسة الفارسية

استعمل أهل فارس الخط العربي بدل خطهم بعد دخولهم الإسلام، وابتكروا خط التعليق وكان إضافة قوية أثرت بالخط العربي، له مميزاته الخاصة فهو متأثر بالتصوير. ويتدرج بين الدقة والغلظ، بلغوا به درجات عليا من الجمال والكمال. واشتهر فيهم شاه محمود وعماد الحسنى وسلطان علي. وعلي رضا عباس.

المدرسة المغربية

تشمل هذه المدرسة الأندلس والمغرب العربي. فقد جودت الخط الكوفي في القرون الخمسة الأولى للهجرة. وعندما لينته لأغراض التدوين حافظت على عدة حروف منه على حالتها في الكوفي، وكانت أنواع الخطوط قليلة، وفروقها ضئيلة وليس لها قواعد تضبطها، ونرى أن مرد ذلك إلى رقعتها الضيقة. وتعاقب الدويلات في تاريخها. ولكنها اعتنت كثيراً بالمصحف الشريف، قراءة وضبطاً وتجليداً.

المدرسة التركية

بدأت بوادر الخط الجميل في تركيا منذ أوائل القرن السابع الهجري، وتمثلت في مصحف كتب في مدينة قونية اعتبرناه فاتحة عهد الخط النسخي الذي سترسوا عليه كتابة المصاحف إلى يومنا هذا. واشتهر خطاطون بعد ذلك أمثال عبدالله الصيرفي، وأسدالله كرماني، وأحمد قرة حصاري.

وفي القرن العاشر، أجاد الشيخ حمدالله الخطوط الستة وكان أستاذاً للسلطان بايزيد الثاني، ونسب إليه وضع مقاييس الخط بنقط القلم المربعة الذي يكتب به. واشتهر بعده حافظ عثمان، ونشطت حركة الخط العربي، وسهر عليها السلاطين، وقد تولى منهم السلطة من القرن الخامس عشر إلى السابع عشر الميلادي عشرون سلطاناً اهتم منهم ما لا يقل عن تسعة أو عشرة بنسخ المصحف الشريف، ورسم اللوحات الخطية[٢٤] وقد قربوا إليهم الخطاطين واعتنوا بتقدير انتاجهم، وتوصل هؤلاء إلى ابتكار أقلام جديدة هي «سيافت» وهو خاص بديوان المحاسبة لا يفهمه إلا الخاصة، وخط الرقعة، وخط الديواني، وجليلة. وبلغوا بالخطوط العربية عصورها الذهبية ولا تزال فيهم البقية الباقية من الخطاطين الأفذاذ رغم هجرهم للحروف العربية.

أدوات الكتابة وآدابها

من آيات هذا الفن الجميل أن الله قدر صناعته بأداة القلم الذي هو نبات أجوف لا وزن له ولا ثمن، في متناول كل الخلق، ينبت نباته بإذن ربه في الجداول والأنهار والغابات. وكأن الارادة الالهية تقطع بذلك عذر أي متعلم أو كاتب بندرة أداتها أو قلتها، أو عجزه عن جلبها من أقطار مصنعة. وهذا النبات الطيب ينمو في كل الأقطار ولا فروق بينها إلا في الجودة. وليس هناك حقاً ما ينوبه لأن طواعية قلم القصب وليونته لا يضاهيه أي نوع من المبتكرات الحديثة وأجودها الأقلام السمراء التي تنبت في بلاد فارس. وأدقها الموجودة في جزيرة جاوة، تحتمل بريته كتابة جزء من ثلاثين من المصحف الشريف. أما ابن الصايغ فقد كتب مصحفاً طوله متر وثمان سنتمترات وعرضه ثمانون سنتمتراً، بقلم واحد في مدة ستين يوماً.

وقال المقري: «رأيت بالحجرة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام مصحفاً مكتوباً في آخره ما صورته: كتبته بقلم واحد فقط ما قط قط إلا مرة فقط»[٢٥].

ولبراية القلم آدابها وقيل عنها: «جودة البراية نصف الخط» ويبرى القلم من جهة نبات القصبة، وطول فتحته المسماة بالجلفة مقدار



□ قرآن اندلسي يعود للقرنين الحادي والثاني عشر ميلادي.

عقدة الابهام أو كمناقير الحمام. ثم تنحت جوانب القلم بسكين حادّة.

وقط القلم وهو قطع سنه عليه مدار الكتابة وقيل كان بعض الكتاب إذا أخذ الأنبوب ليبريها تفرّس فيها قبل ذلك فإذا أراد أن يقط توقف ثم تحرى فتوقف، ثم يقط على تثبت[٢٦].

ويوضع القلم على مقط يتخذ من الأبنوس أو العاج لكونها بين اليبس والليونة ولا يعرضان السكين للحفى. وتتم البراية الجيدة والقط الدقيق بسكين تتخذ من الصلب وتكون مسنونة جداً، ذات مقبض مريح ليكون البري دقيقاً ميسراً.

وتشق الجلفة بحسب صلابة القلم ورخاوته، فالمعتدل تشق جلفته إلى نصفها والصلب إلى أكثرها.

ويصنع الخطاطون أحبارهم بأنفسهم. وتوجد تراكيب اللون الأسود بعدد وفير. وأشهرها المتخذ من دهن بزر الفجل والكتان حيث يوضع في مسارح توقد، ويجمع سوادهما ثم يخلط بالغراء العربي والماء فيدق ساعات.

وأنشدوا في المداد قولهم:

ربع الكتابة في سواد مدادها
والربع حسن صناعة الكتاب
والربع من قلم تسوّى بريه
وعلى الكواغد رابع الأسباب[٢٧]

ويعتنى قديماً برابع الأسباب وصنعه ويصقل بالبيض والغراء، وتراكيب أخرى. وهو أجود الورق وأصلحه، وقد عدل عنه في الحاضر لوفرة الورق المصقول وان لم يبلغ مرتبة القديم.

ولجميع أدوات الخطاطين أوضاع منتظمة أمامه حتى تكون في متناول يده، ويبالغون في تعهدها ورعايتها، ويتنافس صنّاع مهرة في تزيينها وزخرفتها وتكفيتها بالذهب وتسجيل الآيات والأمثال على المقطات والمقلمات حتى تكون له مصدر الهام وتجويد.

ولقد شاهدنا في متحف مدينة بخارى مقطات مصنوعة من الورق المضغوط مزخرفة بالحكم وبأسماء أصحابها، مدهونة بلماع ليحفظ ألوانها.

وتوجد في متاحف استانبول أدوات رفيعة من مقلمات وسكاكين ومقاط هي آية في جودة الصنعة والزخرفة. وكانت إلى أوائل هذا القرن سوق خاصة بالوراقين بتوفير في دكاكينها كل لوازم الخطاطين. وأجود هذه الأدوات ممهورة بأسماء صانعيها المشهورين باتقانها.

شخصية الخطاط

بعد أن تطرقنا لتاريخ هذه الصنعة وتطورها ومدارسها وأدواتها وآدابها نتجه إلى الصانع لتكتمل عندنا رؤية صادقة وتامة لهذا الفن الإسلامي.

اكتسب الخطاط المسلم مكانة الصدارة منذ ظهور الإسلام لمكانة الكتبة من النبي (ص) وقيامهم بتدوين القرآن. فوجب على الخطاط أن يتصف بالأخلاق الطيبة، والسجايا الحميدة. واعتبرت العوامل النفسية والجسمية أيضاً ذات تأثير بالغ المدى في ما تخط الأنامل، وكان عمله مرآة لشخصيته وسلوكه ووضع ابن البواب شريعة للخط قال فيها: بنيّ الكتابة على خمس: قوّة الأخماس، وحدّة الألماس، وجودة القرطاس، ولمعان الانقاس، وحبس الأنفاس، ودوامة في تركيب المركبات، وفي ترك المنهيات، والمواظبة على الصلوات[٢٨].

والخط عند رجل الفن المسلم عبادة، لإيمانه بأن صنعته ليست مجرّد تحكم الأصابع في القلم وتدريبها، فهناك وراء ذلك الفكر الذي يسيطر على الجوارح. وأن عمله هو نسخ آيات الله، أو نشر فضيلة، أو إشاعة علم نافع.

ويقول باول بارتس: «يلعب الرازع الديني في الإسلام دوراً أساسياً في عمل الخطاط الذي يعبر عن التسليم لله والتوكل عليه»[٢٩].

وقال أيضاً: إن الشرط الأساسي لقدرة فنان الخط على الإنتاج هو درجة عالية من الشفافية والصفاء الروحي[٣٠].

إن الخطاط يكتب تقرباً لله، وطلباً لثوابه، ويخط في إجلال وتقديس وهو ما تشف عنه خطوط المجيدين فنشعر عند تأملها بالقدسية، والرهبة، والسحر الحلال، وأسرار الجمال.

وهذا تفسير لدلالة التواقيع التي يذيّلون بها أعمالهم ومن أمثلتها:

ـ كتبه الفقير إلى رحمة ربه القدير... حافظ عثمان[٣١].

ـ كتبه من لا قدر له ولا قدرة، ولا تخل بواديه ولا سدرة، أضعف العباد جرماً وأقواهم جرماً حمد الله المعروف بابن الشيخ عفى عنهما[٣٢].

ـ كتبه صغير الحجم كبير الجرم حمدالله[٣٣].

ـ كتبه أضعف الضعفاء وتراب أقدام المساكين والفقراء بهشتي السبزواري[٣٤].

ـ كتبه أضعف العباد وتراب الأقدام حسين الجزائري من تلاميذ درويش علي[٣٥].

أما حافظ عثمان أشهر من كتب بالنسخ، فلا يجلس إلى تدريس الخط والكتابة إلا إذا توضأ ولبس الأحرام.

هذه هي الناحية النفسية والخلقية، أما الجسمية فقد اكتشف العرب أثرها في الكتابة منذ القرن الرابع.

ويقول التوحيدي: سمعت علي بن جعفر الكاتب الطابع[٣٦]. وكان حسن الخط يقول: لا شيء أنفع للخطاط من أن لا يباشر شيئاً بيده من رفع ووضع خاصة إذا كان ذلك الشيء ثقيلاً، فإن الحركات إذا تمثلت بالحروف والحروف إذا اندفعت بالحركات كانت الصور الخطية والحروف الشكلية محفوظة الأعيان بامتلائهما بهما، محروسة الأبدان بانتسابهما إليهما قال: ولقد رفعت يدي بسوطي إلى الدابة مراراً في بعض الأيام وقنعتها به فتغير خطي مدة[٣٧].

أما الخطاط الايراني السيد حسين[٣٨] أستاذ ناصرالدين شاه[٣٩] فقد كان يضع في رقبته منديلاً يعلق يده فيه أثناء المشي زاعماً أن يده إذا اهتزت تأثر حسن خطي[٤٠].

وقد تحول خلقة الخطاط دون الاجادة. وهذا سيد إسماعيل نفسي زاده، الأستاذ الثاني لحافظ عثمان كان كبير البطن ومنعه ذلك عن الإجادة ولولا ذلك لما خالف خطه خط الشيخ حمدالله[٤١].

أما حبس الأنفاس الذي قرره ابن البواب فله تأثير في حركة اليد فلا مناص من حبسها عند جرّ القلم للحرف أو عند الاستمداد، حتى يسلم من التعاريج، لكن بعض الخطاطين، وهم قلة طبعاً ـ لهم قدرات خاصة يشذون عن هذه القاعدة.

فهذا شاد شاه المتوفى سنة ١٠٥٠هـ ــ ١٦٤٠م تلميذ مير علي. مجود الخط الفارسي، كان يكتب القطع الخطية، يد تكتب وأخرى تسن السكين في آن واحد(٤٢).

أما محمد نرجس بن أحمد التركي ــ من القرن الحادي عشر فقد اشتهر بالسرعة في الكتابة. فقد حرر مرّة كتيب «العوامل في الاعراب» ماشياً على قدميه بداية من مسجد بايزيد إلى الحمدية باستانبول(٤٣).

صعاب الصنعة

يحتاج الخط كأي فن إلى مواهب واستعدادات وتمارين شاقة للحصول على نتائج جيدة في اتقانه. ويقول أستاذ هذه الصنعة: ابن البواب في رسالة كتبها لأحد رؤسائه: ... «ولا خفاء عليك أدام الله تأييدك بفضل الحاجة ممن تعاطى هذه الصناعة إلى فرط التوفر عليها، والانصراف بجملة العناية إليها، والكلف الشديد بها والولوع الدائم بمزاولتها، فانها شديدة النفار، بطيئة الاستقرار، مطمعة الخداع، وشيكة النزاع، عزيزة الوفاء، سريعة الغدر والجفاء، نوار، قيدها الأعمال، شموس، قهرها الوصال لا تسمح ببعضها إلا لمن آثرها بجملته، وأقبل عليها بكليته، ووقف على تألفها سائر زمنه واعتاضها عن خله وسكنه، لا يوسيه حيادها، ولا يغره انقيادها، يقارعها بالشهوة والنشاط، ويوادعها عند الكلال والملال حتى يبلغ منها الغاية القصية، ويدرك المنزلة العليّة»(٤٤).

ويروي التوحيدي عن المرزبان قوله: «الخط هندسة صعبة، وصناعة شاقة، لأنه إذا كان حلواً كان ضعيفاً، وإذا كان متيناً كان مغسولاً وإذا كان جليلاً كان جافياً، وإن كان مدوراً كان غليظاً، فليس يصح له شكل جامع لصفاته، الكبر والصغر إلا في الشاذ المستندر(٤٥).

ويقول جلال أسعد. وهو مؤرخ تركي: «الخط كالرسم والموسيقى يتطلب استعداداً خاصاً ليس في متناول كل الناس، فمن بين الخطاطين الألف من الأتراك لا نجد بينهم سوى عشرة يمتازون بجمال الخط وأصالته»(٤٦). واستطرد يقول: «ونستطيع الجزم بأن تكوين الخطاط أصعب من تكوين الرسام. ومهما بلغ المصوّر من المقدرة فلن يستطيع تقليد لوحة خطية جميلة ما لم يتقن القواعد والنسب الخطية»(٤٧).

وهذا هو سبب قلة الخطاطين وبالتالي ندرة المجيدين منهم. ويحتاج الخطاط إلى تمارين شاقة ومداومة عليها، ويرشدنا ابن مقلة بعبارة وجيزة بليغة إلى ذلك بقوله: «إني لأجدني من يوم الخميس أخط من يوم السبت»(٤٨).

ويقضي الخطاطون الأتراك ساعات كل يوم في إدارة كرة من العجينة اللينة للحصول على الحساسية المرهفة في الأصابع، لتدير القلم بكل دقة(٤٩).

أما عماد الحسنى الذي بلغ بخط التعليق أعلى مراقبة فإن تمارينه المتواصلة في الخط لا تسمح له بحلاقة شعره سوى مرتين في السنة(٥٠).

ولا غناء في هذه الصنعة عن الأستاذ، فإن كثيراً من أسرارها معقودة بتوجيهاتهم، مخبوءة في إرشاداتهم.

وقال صاحب رسالة: كتاب الأبرار في بري القلم وعمل الأحبار في هذا العدد: «أعلم رحمك الله أنك إذا لم يكن لك شيخ فلا بدّ أن يدخل عليك الفساد» وعثرنا على أبيات تشير إلى أهمية الأستاذ تقول(٥١):

إذا شئت أن تحظى بحسن كتابة
ومرتبة في العالمين تزين
تخير ثلاثاً واعتمدها فانها
على بهجة الخط المليح تعين
مداد وطرسا محكما وبراعة
إذا اجتمعت قرّت بهن عيون
ولا بد من شيخ يريك شخوصها
يساعد في إرشادها ويعين
ومن لا له شيخ وعاش بعقله
فذاك هباء عقله وجنون

والملاحظ في سير الخطاطين ورود أسمائهم منسوبة إلى شيوخهم وغدا بالتالي عقوق الأستاذية مجلبة لسخط الله. وتروى أمثلة لذلك منها: أن الدرويش محمد المعروف بالكوكب، تلميذ حافظ عثمان، ادعى أنه يكتب أحسن من استاذه، وأخذ يوماً مصحفاً من أستاذه لينقل منه وعند بريه لقلمه قطع بسكينه اصبعين من

يده، فلم يبلغ بعد ذلك في حياته مرتبة المجيدين[٥٢].

وكان مير شلبي اسكندر من بخارى ــ تلميذ على هروي، متفوقاً على الخط وأذن له أستاذه بالتوقيع على أعماله باسم أستاذه، ولكنه كان سيء الخلق معجباً بنفسه، أجاب في وجه أستاذه، «من تكون أنت حتى أستعمل توقيعك». ومضت فترة وجيزة على هذه الصفعة الناكرة. فقد بعدها التلميذ العاق بصره[٥٣].

ومن تقاليد هذا الفن أنه لا يجوز للتلميذ تذييل أعماله بتوقيعه ما لم يحصل على إجازة من أستاذه. يكتب قطعة خطية يقومها له أستاذه حتى يبرع فيها، ثم يكتب عليها أستاذه إذن الكتبة، وربما شهد بذلك خطاط آخر. وتقام بهذه المناسبة وليمة يحضرها أهل هذا الفن.

إنتاج الخطاط

اهتم الخطاطون بفنهم، وصنفوا كتباً في فن الكتابة وأدواتها وآدابها، ووضعت للخطوط اسماؤها وللحروف أوصافها في كل أوضاعها والفت رسائل عن الخطوط مشفوعة بنماذجها. وأرخ لكبار الخطاطين ووجدت قواميس لأعلامهم وأعمالهم ونبذ من سيرهم. ونظم شعبان الأثارى الفية في الخط. والف الكفعمي كتاباً يحوي خمسين ورقة كلها ألغاز عن القلم[٥٤].

وخلد الخطاط اسمه عبر التاريخ الاسلامي في كل المجلات الفنية. فلا يخلو مسجد من أعماله، ولا القصور من لوحاته، ولا المكتبات من مخطوطاته التي حفظت التراث العربي والحضارة الإسلامية، وكل هذه الأعمال مذيلة باسم الخطاط وتاريخ إنجازها مما أدى إلى علم الآثار خدمة جليلة بعيدة الأثر. وأعني الخطاطون أيما اعتناء باللوحات الخطية صغيرها وكبيرها، وخطوا الآيات الكريمة، والأمثال السائرة، والحكم النادرة، والأشعار الخالدة، في أشكال معبرة ومؤثرة. والحق أن هذه اللوحات التي لا يكاد يخلو منها بيت مسلم كان لها الأثر الحسن في تربية النشء خلقياً، وتثقيفه فنياً، وإن تكرار رؤيتها يوحي للناظر إليها كل مرة بمعاني جديدة تضفي على النفس السرور والانشراح والارتياح. وكان لأنواع الخطوط تأثيرات متغايرة ومتباينة حتى عند اتحاد النص، فإن كل خطاط يظهر فيها رؤية جديدة من الفن المجرّد، يعالجه بأسلوبه الخاص، يساعده في ذلك رحابة الخط العربي وغناه المرتبط بغنى اللغة العربية واشتقاقاتها. ولذلك كثرت صور الحروف عند المركبات لتجانس الحروف وتتوافق الكلمات، وتتطابق السطور. وبهذا المثال ينجلي المقال: ونعرض عليكم الحكمة القائلة: «رتبة العلم أعلى الرتب».

نرى في لوحة حاجي نوري البساطة والاتزان وتوافقاً بين حرف العين الأول والثاني. والأصل رسم العين الأول مربعة ولكن الخطاط عدل عنها للحصول على التوافق في السطر. وهي مؤرخة في سنة ١٣٢٢هـ ــ ١٩٠٤م.

أما الخطاط محمد نظيف. فقد جمع حروفها في توافق وإبداع ورسم العين الأولى مربعة ومجموعة والثانية صادية مجموعة. وكتب محمد نجم الدين هذه الحكمة بخط التعليق الذي اشتهر به ووزنها بعراقة الباء الراجعة التي توسطت السطر.

ووفق الخطاط ماجد الزهدي برسمها في شكل دائري فنجد التوافق جيداً بين حرفي العين، كما انسجمت عراقة «رتبة». والتاء والباء من أعلى فكان التقابل جيداً وهي لا تحمل التاريخ أما ناشرها المهندس ناجي زين الدين فقد أرخها بسنة ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦٠م.

وأخيراً لم يترك الأولون للآخرين شيئاً. فالعبد لله أدلى بدلوه فكتب هذه الحكمة على الصورة التي تشاهدونها. وذلك سنة ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م.

ان بحور الخط العربي شاسعة وسخية لمن جد في الاغتراف منها. وإننا لنجد في عصرنا بعض الخطاطين قد توصلوا إلى استخراج أنواع من الخطوط، ظهرت في عناوين الصحف والتلفاز، تعبر عن المواضيع المعروضة من سرور وجد وهزل ورسمي ومدني.

وأضحى الخط العربي ذا تأثيرات عديدة في شتى ميادين الآداب والفنون والعلوم. واتخذ الشعراء الحروف العربية تشابيه في المدح والغزل وانبهر الأجانب بالخط العربي عند اتصاله بالحضارة الاسلامية فظهرت الكتابات العربية على صناعاتهم بل وحتى على صلبانهم.



□ كتابة وزخرفة تعود للقرن السادس عشر.

ووجدت الشهادتان منحوتة على عملاتهم. وظهرت الكتابات في فن التصوير في عصر النهضة ودخلت الكنيسة، ووشيت بها أوشحة الملوك والرهبان(٥٥) وتأثرت الكتابات القوطية بالخط الكوفي الأندلسي وتسربت الخطوط العربية إلى أعمال الفنانين التجريديين، أمثال بول كليه(٥٦) وكارل جورج هونز(٥٧) وبيكاسو(٥٨) الذي درس الخط العربي على يد خطاط تونسي.

وكان الخطاط المسلم هو الفنان الأول مرتبط بالدواوين والقصور، يغشى مجالس الخلفاء ويقوم بأعمالهم. ويحلوا للأمراء النظر ساعات طوالاً إلى الخطاط أثناء عمله. وذهب بعضهم في تقديرهم له إلى مسك الدواة أو الشمعدان له.

إلا أن شعور الحكام بمراتبهم وسطوتهم، واعتزاز الخطاطين بقدراتهم ومواهبهم يؤدي بالعلاقات بينهم إلى الاحتكاك والالتحام ثم الانتقام.

طلب الوالي محمد على الكبير من سلطان دولة إيران خطاط لتزيين جدران مسجد القلعة. فاختار لهذه المهمة ميرزا استكلاخ. وكان معروفاً باعتداده بنفسه. ولما وصل طلب منه الوالي أن يبعث إليه بلوحة من خطه يتأمل حسنها. فأرسلها له مع خادمه. وعندما مثل بين يدي الوالي تردد وتراجع واستفسره الوالي فأجابه: لقد أوصاني الخطاط أن أرجع باللوحة إن لم تقم احتراماً لها. فأنقذ الوالي الوقف بأن أمر الخادم بالخروج وإعادة الدخول ليقوم تعظيماً للقطعة(٥٩).

وكان السلطان العثماني محمود خان(٦٠) يتعلم الخط على يد أستاذه مصطفى راقم(٦١) قبل أن يتولى السلطنة. وعندما تولاها رغب مواصلة تعليمه وعند أول درس أعطى الخطاط الدواة للسلطان ليمسكها كالعادة فأخذها على رغمه ولما انتهى التعليم قبّل الأستاذ الأرض بين يدي السلطان ووقف مكتوفاً. فبادره السلطان ما هذا التناقض تقول لي امسك الدواة، ثم تقبل الأرض أمامي فأجابه الخطاط: يا مولاي، أما مسك الدواة فهو حق الأستاذية، وأما تقبيل الأرض فهو حق السلطنة أوفيته، وارتاح



□ كتابتان في اسلوبين مغاير كل منهما للآخر.

السلطان لهذا الجواب وأنعم عليه بألف غازي محمودي[٦٢].

ولكن ما كل مرة ينتهي الأمر بين الخطاطين والحكام بهذه النهاية السعيدة. كان عماد الحسنى من أسياد قزوين أشهر من كتب الخط الفارسي وكان الشاه عباس الأول يفضل علي رضا عباسي عليه وذهب إلى أن مسك له المشعل وهو يكتب في محضر عماد، كما عينه كاتباً خاصاً وأميناً لمكتبته. فلم يتحمل عماد هذه المحابات وهو من هو فنظم أشعاراً بها تورية تعرض بالشاه، فبعث إليه الشاه أعزّ أصدقائه يدعوه إلى عشاء عند أحد الكبراء فسطا عليه قطاع الطرق وقتلوه وقطعوه أشلاء. ولما علم جهانكير بن أقبار المغولي بما حدث حزن عليه وقال: لو أن الشاه سلمه لي بدل قتله كنت فديته بوزنه ذهباً[٦٣].

ونختم هذه الفصول بما بدأنا به:

إن المصحف الشريف هو أول وأهم مجال طوّر الخط العربي فيه وكان السبب في انتشار الخط وتجويده. وحفظ الله بالخط كلامه العزيز. فخدم المصحف والخط كل منهما الآخر. ونسخت عبر القرون الآلاف المؤلفة من النسخ. وكانت أمنية كل خطاط أن ينسخ المصحف مراراً وتكراراً.

وتصدى لذلك كل أئمة الخط العربي بلا استثناء.

ووصلت إلينا وشاهدنا صورها معاً. وقد شاء الله أن تبقى تلك المصاحف شاهدة على جودة خطوط ناسخيها.

وأوتي بعض الخطاطين قدرات عجيبة في غزارة الانتاج علاوة على حسن الخط. فقد بلغ عدد مصاحف رمضان أفندي تلميذ عبدالله الجزار المتوفي سنة ١٠٩١م، أربعمائة مصحف، وكأن شأنه عظيماً وزواره كثيرين وما لم ينجز عمله اليومي لا يخرج لزوار المنتظرين أمام بيته[٦٤].

وذكر أن ياقوت المستعصمي المتوفي سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م. قد كتب ألف مصحف ومصحف[٦٥].



□ نقش إسلامي يعود للقرن السابع عشر ــ لاهور ــ باكستان.

أما محمد بن عبدالله بن غطوس من أهل بلنسية فقد قال عنه ابن الأبار، «ويقال أنه كتب ألف نسخة من كتاب الله عزّ وجلّ...» وكان قد آلى على نفسه إلا يخط حرفاً من غيره ولا يخلط به سواه، تقرباً إلى الله، وتنزيها لتنزيله فما حنث فيما أعلم وأقام على ذلك حياته كلها[٦٦].

وتختلف أحجام المصاحف على حسب أغراضها:

لقد كتب عمر أقته مصحفاً لتيمور بخط الغبار الدقيق يحويه فص خاتم فرفضه، وقدم له بعد ذلك مصحفاً طول سطره ذراع محمولاً في عربة فاستقبله في جمع من العلماء وصاح عند رؤيته «هكذا يجب أن يكون»[٦٧].

وكتب سيد قاسم غباري تلميذ شريف عبدالله سورة الاخلاص على حبة الأرز. ونسب إلى الغبار لدقة هذا النوع من الخط الذي يتقنه[٦٨].

وعرف بعض الخطاطين بما أحببنا أن نطلق عليه «لزوم ما لا يلزم».

تحفظ دار الكتب المصرية مصحفاً بخط محمد روح الله كتبه سنة ١١٠٧هـ التزم فيه ابتداء كل سطر من سطوره بحرف الألف.

واشتهر في تونس الحاج زهير المتوفي سنة ١٣١٥هـ ــ ١٩٠٤م. فقد أتم سنة ١٢٧٥هـ ــ ١٨٥٩م. مصحفاً التزم فيه مقابلة بعض الحروف أو الكلمات في كل صفحة على اليمين بمثيلتها نصاً على اليسار في نفس المكان والسطر، وتمييزها باللون الأحمر. وهو ما لم يسبق إليه. والمصحف محفوظ بدار الكتب التونسية.

وذكر لي الأستاذ المرحوم عثمان الكعاك بوجود مصحف في تونس نقط حروفه ثقوب تصادف نقط الأوراق التي تحتها، وأن ذلك مقصود وليس من عمل الأرضة.

وتملك مديرية الآثار العامة العراقية مصحفاً كتبه إبراهيم بن عبدالله المروزي سنة ١٢٠٣هـ التزم فيه الخطاط أن يكون الحرف الأول من السطر الأول يطابق الحرف الأول من السطر الأخير في الصفحة. والحرف الأول بالسطر الثاني يطابق الحرف الأول بالسطر الثاني قبل الأخير.

في الهباء ولا حجة في اعطائه مثل العقير وكذلك المملوك
مثل البلية بن حيث يحسبانه خوف السطوة وقلة التمييز
يقول انا رأي ظان والظان به اكل الشيء وادومه رغبة واكلا
ومن لا يشتهي كثيرا الا بل فيستريح الرأي ولعله موونها
عن الرأي قالوا انحم من راعي ظان من بني لانه يتعاطاها ويعقله
فيقتص منها والنقمة موصوفة بشره الاكل ودوامه ومن اكل
من الكمثرى والرمكة اكل من البرذون وقيل لاعرابي لم الدواب
اكل قال البرذون رغوث فاذا كانت البرذونة اكمل الدواب فعلى
حساب ذلك يزيد اكلها اذا ارضعت ونعلم انه لو جمع اكل المراة
من غدوه الى الليل لكان اكثر من عمل الرجل ومعشاه هكذا
يحكونه في اكثر النساء ومن يشبع من غدوه الى الليل وكذلك
الحجر والعرس ○

ومن العرجان معاذ بن جبل قالوا وكان معاذ امرد وكان يشبه
ابراهيم خليل الرحمن ولم يكن في السلف احسن جرداً ولا انعم بشرا
من معاذ وسهل بن حنيف وقال النبي صلى الله عليه وسلم امر كل
شيء من معاذ حتى خاتمه وكان يعد من الزهاد السنة وفيه يشبه
المشاهدون للنبي الولايات وسبق الصحابة ونعلم الناس الاحكام
وتزويجهم العراق وهو ابن اقل من عشرين سنة وكان عند
رسول الله وجيها ○ وفي عيون المسلمين عظيما وقال الهيثم
انما ذا ابو الهيثم بل شعيب بن شبيب الطائفي في اشيائه له قال بعث

□ خط اندلسي.

والسطر الثامن ــ وهو الأوسط ــ يطابق الحرف الأول من السطر الثامن من الصفحة المقابلة، وعدد سطور الصفحات خمسة عشر سطراً[٦٩].

تلك هي قدرات الخطاط العربي، وتلك هي قدراتنا المتواضعة في تقدير عمله. ونرجو أن نكون قد أنصفناه وأدينا بعض حقوقه وأحللناه المكانة التي يستحقها. وعرفنا بالخطوط العربية، وبرسالتها التي أدتها عبر الأجيال فكونت بين البلدان الإسلامية على مختلف ألسنتها وحدة شاملة تفوق الوحدة اللغوية، وأشاعت الجمال، والبهجة في النفوس. وعلى كاهل الخطاطين مهمة إثراء فنون الخط العربي، وإن عجزوا فأضعف الواجبات، المحافظة على جدة القديم. ●

الهوامش

(١) ابو عمرو الداني: المحكم في نقط المصاحف ص ٢٥.

(٢) ولفنسن: تاريخ اللغات السامية، ص ١٣٤.

(٣) خليل يحيى ناجي: اصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الاسلام.

(٤) سورة البقرة: آيات ٢٨٢ ــ ٢٨٣.

(٥) الجهشياري: الكتّاب والوزراء.

(٦) الداني: المقنع في رسم المصاحف، ص ٩.

(٧) ابن كثير: فضائل القرآن، ص ٢٩.
وذكر المقري أن أبا القاسم التجيبي السبتي، رأى المصحف العثماني بمقصورة جامع بني أمية بدمشق سنة ٦٥٧هـ. وذكر أيضاً أن المصحف العثماني كان بقرطبة ثم آل أمره إلى الموحدين. (المقري: نفح الطيب، ج ٢ ص ١٣٥).

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ٣٨.

(٩) ابن حجر الهسقلاني: فتح الباري، ج ٩ ص ١٦.

(١٠) الحجر محفوظ بالمتحف الاسلامي بالقاهرة ونصه:
بسم الله الرحمن الرحيم. هذا القبر
لعبدالرحمن بن خير الحبري اللهم اغفر له
وادخله في رحمة منك واتنا معه
استغفر له إذا قرأ هذه الكتب
وقل آمين وكتب هذا ا
لكتب في جمدي إلا
خر من سنة إحدى و ثلثين.

(١١) الداني: المحكم، ص ٦ ــ ٧.
وانظر حفني ناصف: تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية، ج ١ ص ٨٩.

(١٢) هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة ولد لتسع بقين من شوال سنة ٢٧٢هـ ــ ٨٨٦م، ببغداد، وتوفي يوم الأحد عاشر من شوال سنة ٣٢٨هـ ــ ٩٤٠م.
ــ وفيات الأعيان، ج ٤ ص ١٩٨ ــ ١٠٢.
ــ الثعالبي: ثمار القلوب، ص ١٦٧.

(١٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٤) المقري: نفح الطيب، ج ٦ ص ٤٠.

(١٥) اخوان الصفا: الرسالة الخامسة في الموسيقى، ص ١٦٦.

(١٦) هو: أحمد بن محمد بن ثوابة من كبار منشيء القرن الرابع وكان كاتب ديوان الرسائل لمعزّ الدولة توفي سنة ٣٤٩. انظر ترجمته في معجم الأدباء.

(١٧) أبو حيان علي بن محمد بن عباس التوحيدي: مثالب الوزير، ص ١٥٧.

(١٨) ياقوت: معجم الأدباء، ج ١٠ ص ١٢١.

(١٩) هو أبو عبدالله محمد بن أسد بن علي بن سعيد القاري الكاتب البزار البغدادي توفي لليلتين خلتا من المحرم سنة عشر وأربعمائة ودفن بالشونيزي.

(٢٠) هو جمال الدين ياقوت المستعصمي الكاتب ظهر بعد الستمائة هجرية.

(٢١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ١٣.

(٢٢) هو أبو عبدالله الحسن بن علي بن مقلة، (اخو ابن مقلة الخطاط). كاتباً، اديبا بارعاً ٢٦٨ ــ ٢٣٨.

(٢٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٣ ص ٢٢.

(٢٤) آرنست كونل: صنعة الخط في الاسلام، مجلة فكر وفن، عدد ٣، ص ١٩.

(٢٥) المقري: نفح الطيب، ج ٦ ص ٤.

(٢٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ٤٦٢.

(٢٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ٤٧٣.

(٢٨) وجدنا هذه العبارات في أحد المخطوطات باستانبول. لم نتذكر اسمها وهي إلى الفاظ حبس الأنفاس، وظهرت كاملة في مشق الخطاط صائم أوزل أمام جامعة السليمانية «نمونة خطوط» طبع سنة ١٩٦٦م.

(٢٩) باول بارتيس، الفن الحديث وفنون الخط، مجلة فكر وفن، عدد ١٧ ص ٧.

(٣٠) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣١) سهيل أنور: أنواع الخطوط التركية (بالتركية)، ص ٣٧ توقيع لمصحف.

(٣٢) اكرم حقي: خطاطو عهد فاتح وصناعة الخط (بالتركية) توقيع لكتاب حنين بن أسحق في المسائل واجوبتها في الطب.

(٣٣) هيار: الخطاطون، ص ١١١.

(٣٤) توقيع لمصحف كتب سنة ٩٤٥هـ ــ ١٥٣٧م. انظر محمد بن سعيد شريفي، خطوط المصاحف (رسالة جامعية) ١٩٧٦، ص ٦٥.

(٣٥) توقيع لقطعة خطية من مجموعة متحف ابن الأمين، جامعة استانبول.

(٣٦) علي بن جعفر الكاتب ويكنى الحسن الفارسي، كان من أعيان الأدباء.

(٣٧) التوحيدي: رسالة في علم الكتابة (ضمن ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي)، ص ٣٤.
(٣٨) له قطعة خطية بتاريخ ١٢٨٢هـ.
(٣٩) ناصرالدين شاه، ١٨٣١ ــ ١٨٩٦، عاهل إيران من سلالة قاجار.
(٤٠) السباعي: رسالة اليقين، ص ١٨٩٦، مخطوط.
(٤١) هيار: الخطاطون، ص ١٣٨.
(٤٢) هيار: الخطاطون، ص ٢٤٩.
(٤٣) المرجع السابق، ص ٢٦٤.
(٤٤) ياقوت: معجم الأدباء، ج ١٥ ص ١٣١.
(٤٥) التوحيدي: رسالة في علم الكتابة (ضمن ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي)، ص ٣٦.
(٤٦) جلال أسعد: الفنون الزخرفية التركية، ص ٣٤١.
(٤٧) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٤٨) منية الكتاب (مخطوطة مغربية مجهولة الكاتب)، هامش الورقة الأولى.
(٤٩) جلال أسعد: الفنون الزخرفية التركية، ص ٣٤٧.
(٥٠) هيار: الخطاطون، ص ٢٣٩.
(٥١) أحمد بن الصلوتين: مجموعة رسائل في علم الخط (١١٨١هـ ــ ١٧٦٧م)، مكتبة جامعة استانبول رقم ٣٧٩٤. وتوجد أيضاً في كتاب تاريخ الخط العربي وآدابه للطاهر مكي، ص ٤٢٥، منسوبة لبعضهم.
(٥٢) هيار: الخطاطون، ص ١٦٣.
(٥٣) المرجع السابق، ص ٢٢٩.
(٥٤) هو إبراهيم بن علي بن الحسن الحارثي العاملي الكفعمي، أديب وكاتب ٨٤٠ ــ ٩٠٥هـ، ويوجد المخطوط في مكتبة السليمانية قسم أسعد أفندي برقم ٢٨٨١.
(٥٥) كريستي وغيره: تراث الاسلام، ج ٢ ص ١٧.
(٥٦) بول كليه: فنان ألماني، ١٨٧٩ ــ ١٩٤٠ تأثر فنه بالشرق، سافر إلى تونس سنة ١٩١٤ وإلى مصر سنة ١٩٢٩م.
(٥٧) فنان ألماني: انظر أعماله في مجلة فكر وفن، عدد ٣ ص ٥٤.
(٥٨) بيكاسو بابلو ١٨٨١ ــ ١٩٧٣م، مصور اسباني أحد كبار الفن التكعيبي، عاش في فرنسا.
(٥٩) السباعي: رسالة اليقين، ص ١٧.
(٦٠) لعله السلطان محمود الأول ١٧٣٠ ــ ١٧٥٤.
(٦١) خطاط تركي مشهور كتب مائة مصحف، تلميذ السيد عبدالله يدقله لي. توفي سنة ١١٨١هـ / ١٨٦٧م، تحفة خطاطين، ص ٥٢٣.
(٦٢) السباعي: رسالة اليقين، ص ٢٢ ــ ٢٦.
(٦٣) هيار: الخطاطون، ص ٢٣٩.
(٦٤) هيار: الخطاطون، ص ١٣٨.
(٦٥) المرجع السابق، ص ٨٦.
(٦٦) ابن الأبار: كتاب التكملة لكتاب الصلة، ج ٢ ص ٥٩٣.
(٦٧) هيار: الخطاطون، ص ٢٥٣.
(٦٨) المرجع السابق، ص ١٣٢.
(٦٩) انظر: مجلة منار الاسلام، عدد ٣، سنة ٢، ١٩٧٧.

بيان بأسماء الكتب والبحوث المشار إليها في هذا البحث

ــ القرآن الكريم.
ــ ابن الآبار (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القاضي البلنسي، ت ٦٥٩هـ):
التكملة لكتاب الصلة، جزآن، طبع مكتب نشر الثقافة الإسلامية ــ القاهرة ١٩٦٥.
ــ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد) ٧٧٣ ــ ٨٥٣:
فتح الباري بشرح الإمام أبي عبدالله البخاري، ج ٩ ــ القاهرة، المطبعة البهية المصرية، ١٣٤٨هـ.
ــ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ٦٠٨هـ ــ ٦٨١هـ / ١٢١١م ــ ١٢٨١م:
وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، ٦ أجزاء، طبع مكتبة النهضة العربية، ١٩٤٩م.
ــ ابن الصايغ: (عبدالرحمن يوسف) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م:
تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب ــ تحقيق هلال ناجي ــ طبع دار بوسلامة، تونس، ١٩٦٨.
ــ ابن فارس (أبو الحسين أحمد) ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م:
كتاب الصاحبي ــ المطبعة السلفية، مصر ١٩١٠م.
ــ ابن كثير (عمادالدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير) ت ٧٧٤هـ / ١٢٧٣م:
فضائل القرآن ــ طبع دار الأندلس ــ بيروت.
ــ أحمد (يوسف)
الخط الكوفي ــ الرسالة الأولى والثانية ــ طبع مصر ١٩٣٣م.
ــ أخوان الصفا:
رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا (رسالة الموسيقى)، طبع مصر ١٣٣٧هـ / ١٩٢٨م.

ـــ أوزل (صائم):
(نمونة الخطوط) مشق في الخط العربي ـــ طبع استانبول ١٩٦٩م.
ـــ بارتس باول:
الفن الحديث وفنون الإسلام، مجلة فكر وفن، عدد ١٧، طبع ألمانيا.
ـــ التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد) ت ٤١٤هـ / ١٠٢٣م.
رسالة في علم الكتابة (ضمن ثلاث رسائل للتوحيدي، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، طبع المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥٢م.
ـــ الثعالبي (أبو منصور عبدالملك بن محمد):
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر ـــ مصر ١٩٠٨.
ـــ الجهشياري (أبو عبدالله محمد بنعبدوس) ت ٣٣١هـ / ٩٤٣م.
كتاب الوزراء والكتاب ـــ طبع مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٨م.
ـــ الدني (أبو عمرو عثمان بنس سعيد) ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م.
المحكم في نقط المصاحف. تحقيق د. عزة حسن ـــ طبع دمشق ١٩٦٠م.
ـــ زين الديني (ناجي):
مصور الخط العربي ـــ طبع المجمع العلمي العراقي ـــ بغداد ١٩٦٧م.
بدائع الخط العربي ـــ طبع وزارة الأعلام ـــ بغداد ١٩٧٢م.
ـــ السباعي (مصطفى الحسن):
رسالة اليقين في معرفة أنواع الخطوط وذكر بعض الخطاطين من الترك والفرس والعرب أجمعين ١٩١٣م. نسخة مصورة بدار الكتب والوثائق المصرية، رقم: تاريخ / ٣٢٨٥.
ـــ الطيبي (محمد بن حسن)
جامع محاسن كتابة الكتاب ونزهة أولي البصائر والألباب.
تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٢م.
ـــ القلقشندي (أبو العباس احمد بن علي) ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م.
صبح الأعشى في صناعة الانشا. نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية مع استدراكات، القاهرة (بلا تاريخ).
ـــ مجهول:
كتاب الأبرار في بري القلم وعمل الأحبار، سنة ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م.
مخطوط في مجموعة خاصة بالمغرب.
ـــ كريتي ـــ أرنولد ـــ بريجس.
تراث الإسلام، جزآن ترجمة وتحقيق الدكتور زكي محمد حسن، مطبعة لجنة التأليف والنشر، مصر ١٩٣٦م.
ـــ الكفعمي (إبراهيم بن علي):
لغز في القلم (مخطوط) السليمانية ـــ قسم أسعد أفندي رقم ٢٨٨١ ـــ استانبول.
ـــ كونل (أرنست):
صنعة الخط في الإسلام، مجلة فكر وفن، عدد ٣ ص ١٩.
ـــ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر.
حلقة بحث الخط العربي، دار المعارف ـــ مصر ١٩٦٧م.
ـــ مستقيم زادة (سليمان سعدالدين، ١١٣١ ـــ ١٢٠٢هـ / ١٧١٩ ـــ ١٧٨٨م):
تحفة خطاطين. (باللغة التركية) طبع استانبول ١٩٢٨م.
ـــ المقري (أحمد بن محمد التلمساني) ت ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م.
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ـــ عشرة أجزاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ١ ـــ مصر ١٩٣٩.
ـــ مجهول:
منية الكتاب. قصيدة في الخط ٦ صفحات مبتورة ـــ خط مغربي ـــ مخطوط رقم ١٤٩٦ المكتبة الوطنية الجزائرية.
ـــ ناصف (حفني):
تاريخ الآداب أو حياة اللغة العربية، جزآن، طبع القاهرة ١٩١٠م.
ـــ ناحي (خليل يحيى):
أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد ٣ ج ١ ١٩٣٥م.
ـــ ولفنسن (إسرائيل) ـــ أبو ذؤيب:
تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٢٩م.
ـــ ياقوت (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م.
معجم الأدباء، ٢٠ جزء، طبع دار المأمون ـــ مصر.

الهندسة في الدولة المصرية القديمة

● د. حنيفة الخطيب

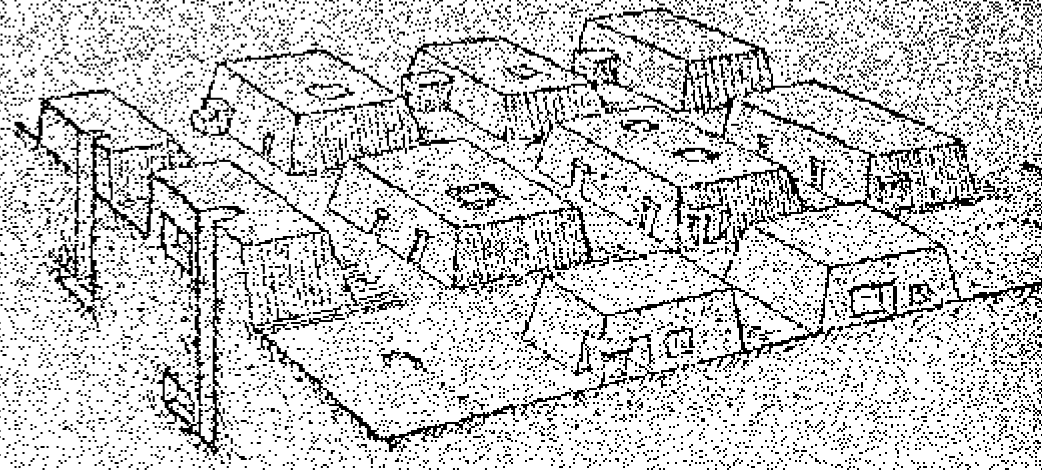
يقع تاريخ مصر القديمة في ثلاث فترات رئيسية: المملكة القديمة (٢٧٧٨ ـ ٢٢٨٠ ق.م) والمملكة الوسطى (٢٠٦٥ ـ ١٧٨٧ ق.م) والمملكة الحديثة (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق.م) ومنذ حوالي ٥٠٠٠ سنة، ما لبثت القبائل القديمة على امتداد نهر النيل أن اتحدت تحت إمرة قائد واحد هو مينا، الذي أصبح أول الفراعنة. ولا توجد سجلات باقية عن مينا، وإن قام الدليل على أنه هو نفسه الفرعون نعرمر، من أوائل حكام المملكة القديمة، الذي توافر عنه قدر معين من المعلومات وهكذا بدأ فصل فريد في تاريخ التقدم[1]

إن فترة المملكة القديمة، التي امتدت خلال الأسرات الست الأولى، كانت عهداً من السلم والرضا، وقد تميزت بالتقدم الكبير في عمارة البناء والعلوم الانسانية[2] فابتداء من الدولة المصرية القديمة تكشف الحضارة المصرية عن كامل شخصيتها، ولقد ظلت العقلية المصرية وفية لمقوماتها فيما قبل التاريخ. ويعتقد المصريون القدماء أن الروح المقدسة تعمل كقوة حيوية كامنة في الكائنات والأشياء، وعلى ذلك فإن المعتقدات المصرية تمدنا بمفهوم مادي للطبيعة أكثر مما تمدنا بنظام ما وراء الطبيعة؛ ولم يكن للطقوس الدينية والفنون التشكيلية والعمارة المقدسة في حيزة الحياة الواقعية مكان أقل مما للطب أو الزراعة أو صناعة الفخار[3].

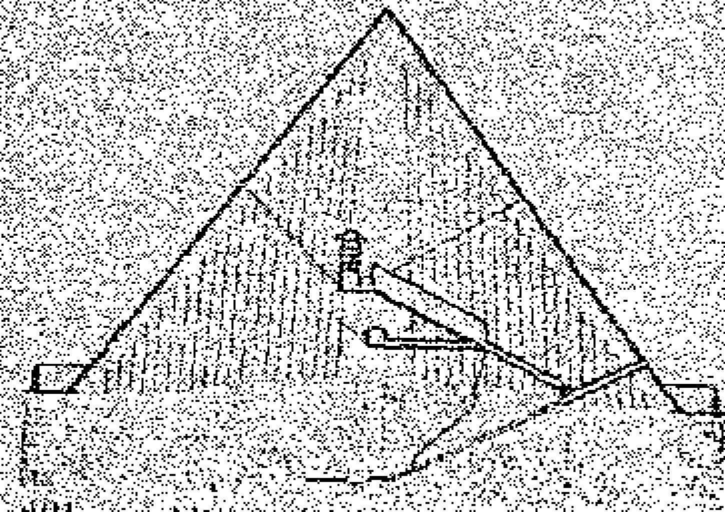
لقد استكملت الأسس الاجتماعية والحضارية لمصر الفرعونية مقوماتها في ظل الأسرتين الأولى والثانية اللتين حكمتا مصر بعد توحيدها، وتنتمي كل منهما إلى (تا أور) وهو الاقليم الذي سمي فيما بعد بإقليم طينة، ودام حكمهما ما يقرب من مائتي عام (حوالي ٣٠٠٠ ـ ٢٨٠٠ ق.م) وقد اثبت نواحي إيجابية عن أعمال أسرتي طينة من نقوش حجرية بالرموز وهي جزء من حوليات تاريخية كتبت ونقشت في مدينة منف في عهد الفرعون كاكاي من الأسرة الخامسة[4].

لم يبق من آثار أسرتي طينة إلا القليل، حيث عثر في طينة على مقابر الفراعنة الأول، وكانت مبنية باللبن (الطوب غير المشوي) وفي عهد الأسرات المنفية أي التي حكمت من مدينة منف، انبثقت دولة كاملة التنظيم من الناحيتين المالية والضرائبية، فاستتب الأمن فيها، وازدهرت في عهدها الحضارة ازدهاراً سريعاً، وتقدمت الصناعات والفنون خاصة فن البناء، إذ بنى زوسر أحد فراعنتها هرمه الكبير المدرج في سقارة[5] وهو في أغلب الظن أول وأضخم بناء حجري عرفه تاريخ الانسانية[6] والمعبد الجميل الذي حوله، وفي عهد الأسرة الرابعة بنيت السفن التجارية الكبيرة واستخرج النحاس الأحمر والفيروز من مناجم سينا[7] وشيد خوفو وخفرع ومنكرع من فراعنة تلك الأسرة أهرامهم الهائلة فوق هضبة الجيزة[8] التي دلت على رقي في الهندسة والعمارة. وكذلك بنى خفرع تمثال (أبو الهول) ولعله أشهر (تمثال) في العالم[9] وفي عهد الأسرتين الخامسة والسادسة بنى الفراعنة أهرامهم في أبي صير وسقارة وبنى المواطنون الأشراف مقابرهم ومصاطبهم حول أهرام ملوكهم. ونقشوا جدرانها بنقوش مدهشة بلغت حداً كبيراً من الجمال والكمال[10].

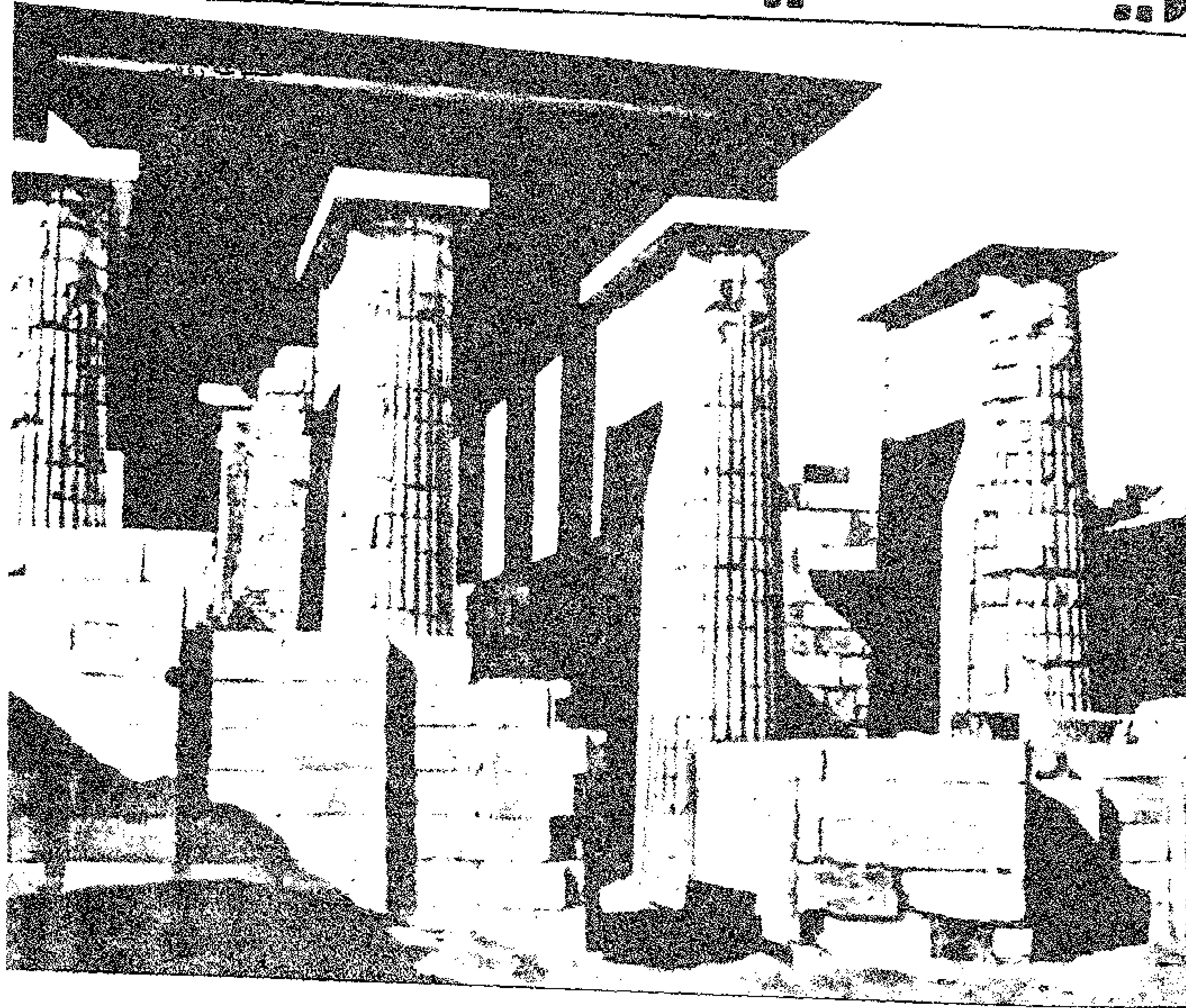
١ ـ **القبور**: اعتقد قدماء المصريين بخلود الحياة بعد الموت، وكان اهتمامهم بالحياة الثانية يفوق اهتمام أي شعب آخر في التاريخ القديم[11] مما دعاهم إلى تشييد مقابر متينة أطلقوا عليها اسم (برزرت) أي (البيت الأبدي) وترجع عقيدة الخلود عندهم إلى ما قبل الأسرات، حيث كان



□ رسم كروكي لمصاطب الأمراء بالجيزة ـ الأسرة الرابعة.



□ مقطع رأسي لشكل الهرم الأكبر الخاص بالملك خوفو، بالجيزة



المتوفي يوارى في حفرة عميقة في الرمل أو الصخر اللين الذي يلي الرمل، وأقدم هذه الحفرات كانت بيضاوية الشكل أو مستطيلة وتختلف في العمق من متر إلى مترين، وفتحتها لا تتجاوز متراً ونصف المتر لكل جانب. وكانت هناك حفرات كبيرة مستطيلة الشكل تقريباً وحافتها مستديرة قليلاً، ومساحتها أربعة أمتار في مترين، أما عمقها فكان كالحفرات السابقة، وكان المتوفي يوارى الحفرة على شكل الجنين، وتوضع معه الأدوات الجنائزية، ثم تنهال فوقه الرمال ولما زادت حاجة المتوفي إلى الأدوات الجنائزية، أضافوا إلى حجرة الدفن رفاً في الجهة الغربية، توضع فوقه الأواني الكبيرة. ثم تطور الحال وازداد عرض الرف. وكان هذا النوع من الحفرات يكسى براقة من اللبن حول الحافة المستديرة، وكانت هذه الحفرات تحفر موازية للنيل، كما كان الرأس يتجه في معظم الأحوال لجهة الجنوب(١٢) أما القصور وبيوت السكن فكانت تبنى من اللبن(١٣).

وقد جرى تقدم سريع في الهندسة المعمارية في ظل ملوك طينة، فارتفع سقف القصور الملكية، وبنيت المقابر الكبرى للملوك والأشراف، وكانت تحتوي على مجموعات واسعة من الغرف الجنائزية يعلوها بناء من اللبن. وكانت تلك الغرف مكسوة باللبن ومسقوفة بأخشاب وقد عمد الفراعنة إلى تكبير حجم مقابرهم لتمييزها عن مقابر الشعب(١٤).

ففي أواسط الأسرة الأولى زاد حجم المقابر الملكية وشيدوا حوائط متقطعة أدت إلى وجود عدد من الحجرات الصغيرة، ثم بنيت درجات من الطوب تؤدي إلى غرفة الدفن. ثم شيدت حولها عدة غرف صغيرة لاستعمالها كمخازن للأدوات الجنائزية وكمقابر لأفراد حاشية الفرعون المقربين. وسدت فوهة المقبرة بأكوام من الرمل والطوب، وأقيم عليها شاهدان يحملان رسم الفرعون ويدلان على موقع القبر. ومن أهم آثار العصر الطيني أي الأسرتين الأولى والثانية توجد مقبرة في ناحية نقادة بين أبيدوس والأقصر مبنية فوق سطح الأرض، وتبدو لأول وهلة كمصطبة من مصاطب الدولة القديمة وهي مقبرة الفرعون (عمح)، وقد شيدت بأكملها من اللبن. وقد اتخذت الثغرات الغائرة، والبروزات الناتئة في جهاتها الأربع فيما بعد كشواهد لقبور الدولة القديمة. وتمثل هذه الثغرات والبروزات في الواقع ما كانت تزدان به المساكن القديمة المبنية من اللبن والخشب. وكانت مقابر الخاصة محتفظة ببساطة مظهرها. وبمرور الزمن تطورت العقيدة فزادوا على البناء المستطيل المرتفع غرفة للصلاة ولحرق البخور، وكان هذا النظام هو نفسه الذي اتبع فيما بعد في مقابر الدولة القديمة(١٥).

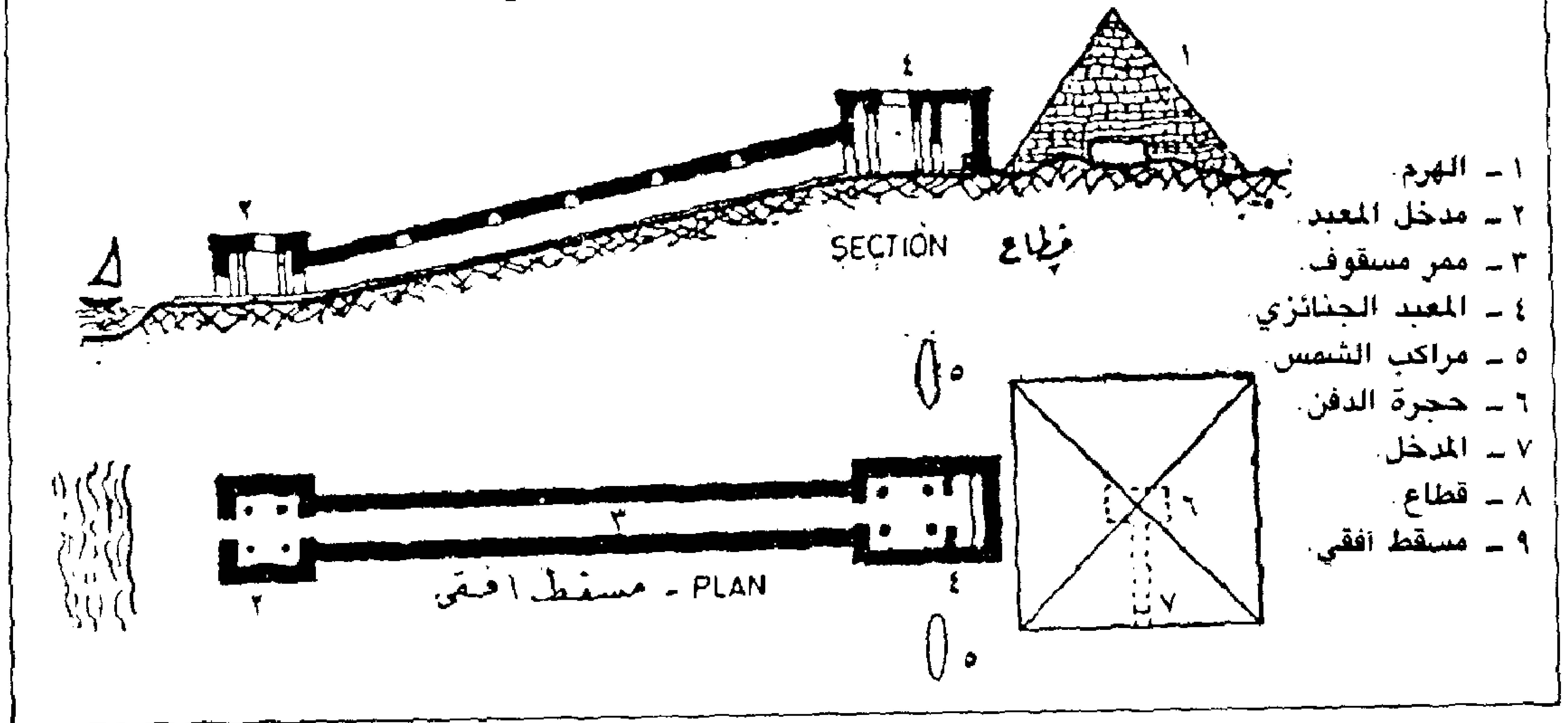
وكان الفرعون دن من الأسرة الأولى قد أمر بأن يصنع قبره من الحجر وأن تكون أرضيته من الغرانيت، غير أنه لم يعثر على مقبرة بنيت كلها من الحجر الجيري والغرانيت إلا في أواخر الأسرة الثالثة، ويلاحظ أنها أقيمت ومداخلها إلى الشرق، وقد وضعت على جانبي المدخل لوحتان جنائزيتان(١٦).

الأسرة الثالثة: ٢٨٠٠ ـ ٢٧٢٠ ق.م

اقترن عهد الأسرة الثالثة بتقدم فن البناء، إذ انتقل من البناء بالطوب إلى البناء بالحجر وأصبحت مقابر علية القوم أكثر اتساعاً وثراء، وزادت الآثار المنحوتة عدداً وجمالاً، كما زادت الآثار المكتوبة وأصبحت أكثر دقة، ويرجع الفضل في تكديس تلك الثروات الفنية إلى حكمة كبير وزراء زوسر الوزير إيمحتب، ويعتبر زوسر منذ القدم مؤسس لأسرة منف الثالثة على الرغم من أنه ابناً وريثاً للملك سخخموي آخر ملوك الأسرة الثانية(١٧).

وقد أقام إيمحتب بوصفه كبير مهندسي الفرعون، المجموعة الجنائزية الضخمة للفرعون زوسر التي يحيط بها سور حجري كبير. اتخذت مقبرة الفرعون شكل هرم متدرج كبير أقيم إلى جانبه نموذج ضخم لمعبد اليوبيل، والهياكل التي تحيط بهذه المجموعة المعمارية هي بديل مشوه للهياكل الحقيقية. فوراء الواجهات المقامة بالحجر الجيري، كان الداخل محشواً بقطع من الحجارة الصغيرة، مما يجعل المكان ضيقاً عديم الجدوى، لكن يلاحظ أن الحجر الجيري لم يسبق أن استخدم على هذا النطاق الواسع(١٨)، وكان استخدامه فاتحة عهد جديد في تاريخ العمارة المصرية(١٩).

□ مسقط افقي وقطاع توضيحي للهرم وعلاقته بالمعبد الجنائزي ومعبد الوادي.



بني الهرم من الحجارة الجيرية البيضاء، يبلغ طول كل منها ٥٢ سم، أما طريقة البناء فكانت على الوجه التالي: بنى إيمحتب حفرة كبيرة في الصخر مساحتها ٨ أمتار، وعمقها ٢٥ متراً ثم حفر سلماً في الصخر نفسه يؤدي إلى نهايتها، وكسا قاع الحفرة بحجر الغرانيت الذي جلبه من محاجر أسوان وبنى فوق تلك الأرضية غرفتين، كسيت حوائطهما بالقشاشي الأخضر والأزرق على هيئة سيقان نبات البردى، وأقام بينهما باباً كتب عليه اسم الملك وألقابه، ثم أضيفت بعض غرف جانبية وعدة ممرات (نتيجة لتغيير تصميم الهرم)، وأحيطت هذه الغرف والممرات بسلم يؤدي إليها، حتى سطح البناء، وقد كدست الممرات المحيطة بالغرف الرئيسية (بعد دفن الميت) بالآلاف من الأواني المصنوعة من الأحجار الصلبة كالمرمر (Albaster)، والديوريت (Diorite) والبروشيا (Breccia)، والغرانيت (Granite)، والأردواز (Shist) والسربانتين (Serbentine) ولم يوجد في الأواني أي طعام، وربما كان يحفظ بها قرابين وهمية، وأقيم فوق الأرض بناء مستطيل (كان مربعاً قبل تغيير التصميم) مسطح من الحجر الجيري الأبيض الجميل على شكل مصطبة، يبلغ ارتفاعه حوالي ١٢ متراً وطوله ١٢٢ متراً، وفوق هذا البناء الضخم أقيمت خمس مصاطب أخرى بعضها فوق بعض بشكل تكون فيه المصطبة التالية أصغر من التي تحتها بشكل منتظم وكان ارتفاعها كالآتي:

الاولى حوالي ١١.٤٨م.
الثانية حوالي ١٠.٩٥م.
الثالثة حوالي ١٠.٤٣م.
الرابعة حوالي ٩.٩٢م.
الخامسة حوالي ٩.٣٩م.
السادسة حوالي ٨.٨٩م.

واتخذ البناء بعد ذلك وبعد إتمامه شكل الهرم المدرج، وكان ارتفاعه الكلي حوالي ٦١.٦ متراً. وقد أحاط زوسر هذا الهرم وما حوله من معابد بسور خارجي[٢٠] سمكه ستة أمتار وارتفاعه عشرة أمتار، وطبقته الخارجية من الحجر الجيري، ويمتد حول مساحة ١٢٠.٠٠٠ متراً مربعاً، يتوسطها الهرم ويحيط به معبدان للشمال والجنوب. وبني في جدار السور أربعة عشر باباً وهمياً، على حين لا يوجد سوى باب واحد حقيقي عرضه حوالي متر تقريباً يستطيع المرء أن ينفذ منه خلال هذا السور[٢١].

وكان إيمحتب قد صمم الأبنية الحجرية الجديدة على شكل أبنية البوص والخشب القديمة، وشرع الفرعون سخم خت في بناء مجموعة معمارية في سقارة أيضاً شبيهة بمجموعة زوسر بعد وفاته بقليل مستخدماً كتلاً حجرية أضخم[٢٢] وأعقب الدفعة الجديدة التي أعطاها زوسر للبلاد عمل إنشائي دؤوب في ظل ملوك طينة، ازدهرت تارة لمدة تزيد على أربعة قرون[٢٣].

الأسرة الرابعة: ٢٧٢٠ ـــ ٢٥٦٠ ق.م

وقد روعي في بناء الهرم ابتداء من الأسرة الرابعة أن يشيد في مداميك أو صفوف متتالية تبدو كالدرج، حتى إذا بلغت القمة غطي الهرم كله ابتداء من قمته بطبقة من الحجر الجيري أو الغرانيت، أخفت تحتها المداميك فظهر الهرم كاملاً مستوي الجوانب(٢٤) وقد أحسن المهندسون الذين نهجوا نهج إيمحتب في استخدام الحجر في البناء، وشيدوا مباني حجرية صالحة للاستعمال العملي المباشر(٢٥).


وبلغت مصر خلال الفترة التي امتدت من حكم سنفر، مؤسس الأسرة الرابعة إلى منتصف الأسرة السادسة أولى قممها الحضارية، وحققت نوعاً من الكمال في إنتاجها الفني، ولم تصل مصر في العهود اللاحقة ما بلغته أيام بناة الأهرام. وكأنما تتجسد قوة الفراعنة واستقرار حكمهم في مدافنهم الهائلة. وتمدنا المنشآت والمجمعات الفرعونية، ومصاطب الخاصة المقامة حول الأهرام، بمعظم الوثائق التي تمكننا من رسم صورة للحياة في الدولة القديمة غير أن تلك المقابر لا تحوي إلا القليل مما يساعد على إلقاء ضوء على الحياة السياسية والدينية في المقاطعات. والواقع أن ندرة الوثائق عن حياة الأقاليم هي السمة المميزة لمصادر الأسرتين الرابعة والخامسة. أما الأسرة السادسة فإنها تشهد تكاثر الكتابات الرسمية وبناء مدافن للأشراف وجبانات للعامة في جميع أنحاء البلاد(٢٦).

وكان الحكم الطويل للفرعون سنفرو هو فاتحة عصر الاهرامات الكبرى، فقد تغير التصميم الهندسي للمقبرة الهرمية إذ انتقل مكان غرفة الدفن التي كانت تحت الأرض في هرم زوسر إلى غرفة مشيدة في جسم الهرم غطيت جدرانها وسقفها بأحجار ضخمة من الغرانيت(٢٧) وكان أول هرم للفرعون سنفرو في ميدوم على طريقة الأهرام المدرجة مؤلف من ثماني طبقات فقد بنى مصطبة كبيرة من الحجر الجيري فوق غرفة الدفن وفوق هذه المصاطب التالية حتى أخذ البناء شكلاً هرمياً. إلا أنه يختلف عن هرم زوسر المدرج بأن مصطبته الثانية كانت أعلى من الأخرى بكثير، ولم يظهر البناء في درجات منتظمة إطلاقاً، إذ ملىء الفراغ الذي بين هذه الدرجات بقطع من الطوب والحجر الجيري، ثم كسي البناء كله حتى ظهر الهرم الأول الكامل، وكان ارتفاعه ٣٨م(٢٨) أما الهرم الثاني وهو المعروف بالهرم المنحي(٢٩)، فإن وجوهه ليست ذات ميل واحد، ولكن لها ميلان مختلفان، أما الهرم الثالث لسنفرو وكذلك جميع الأهرامات الأخرى حتى الأسرة الثامنة في جميعها اهرامات كاملة الأوصاف من الناحية الهندسية(٣٠).

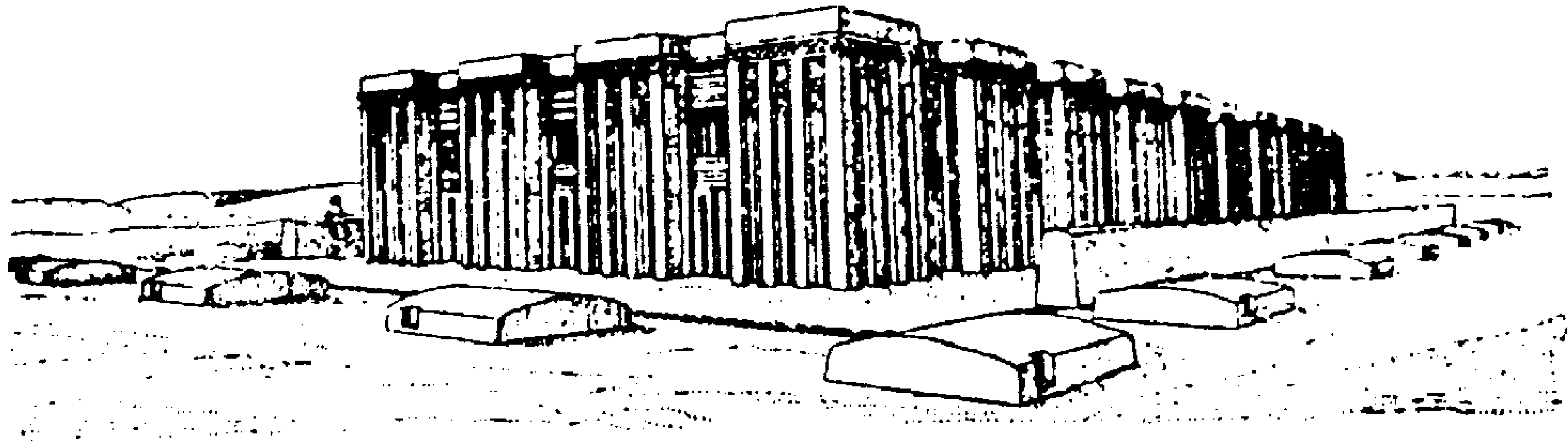
وكان بناء السقوف يتم إذا كانت غرف الأهرام ودهاليزها ضيقة، بوضع عتب طويلة من الأحجار تعتمد على الجدارين المتقابلين بحيث تكون قائمة على جانبها حتى تكون السقوف أكثر صلابة ومقاومة. أما إذا كانت الغرف والدهاليز فسيحة فقد لجأ الملك سنفرو والملك خوفو إلى عمل قباء مكونة من كوابيل يعلو كل منها الآخر، بحيث تقترب وتتلاقى في القمة ثم ظهرت طريقة أخرى أكثر بساطة وهي إقامة دعامتين مائلتين على شكل مسنم (جمالوني) فوق جداري الدهاليز الرأسيين يتلاقيان عند القمة، مع إقامة سقف أفقي بإدخال بلاطات أفقية تحت منسوب الدعامتين المائلتين وأعلى جداري الدهليز، فالسقف الأفقي هنا سقف تجميلي يفترض ألا يقع عليه أي ضغط مع إخفاء السقف الحقيقي الذي يعلوه، والذي يمكن أن يحتمل أي ثقل فوقه(٣١).

وعلى هذا النهج بنيت الأهرام بعد ذلك ولا تختلف عما قبلها إلا في أبعادها وأحجامها، كأهرام خوفو وخفرع ومنكورع. وعلى حين لم يتغير شكل الهرم الخارجي أخذت الغرف الجنائزية تصعد من جوف الأرض لتستقر في قلب المبنى ذاته، واختفت فتحات مداخل الأهرام، وأخذت تحجبها بلاطات ملساء في إحدى الجوانب، كما تنوعت الممرات الداخلية الهابطة والصاعدة، فهي أحياناً فسيحة وأحياناً ضيقة تنتهي بعدد من الأحجار التي تسد الطريق إلى غرفة الدفن، وهناك كما في هرم خوفو خمس غرف فوق غرفة دفن الملك تخفف ثقل البناء عليها(٣٢).

وكان يشيد معبد إلى جانب الهرم، ومعبد آخر في الوادي بالقرب من الأراضي الزراعية يربطهما



□ هرم زوسر المدرج بسقارة.



□ إعادة بناء المقبرة الملكية ـــ سقارة.

ممر طويل مسقوف يعيده كهنة الهرم عندما يقومون بمهام العبادة، وتصطف الأهرامات الصغيرة الخاصة بالملكات ومصاطب رجال الحاشية بشوارع مرسومة بعناية حول الهرم[٣٣].

ويظن أن ميل جوانب الأهرام كان يخضع لقواعد رياضية وهندسية سهلة الحساب على الطبيعة، مما يسر الدقة والسلامة في التنفيذ، وقد اتبعت منذ الأسرة الثالثة طريقة رص الحجارة في صفوف أفقية يعلو بعضها بعضاً، مع جعل السطحين الداخلي والخارجي مائلين، وتظهر هذه الطريقة في هرمي دهشور الشمالي والجنوبي اللذين أقامهما الملك سنفرو في صفوف أفقية من الحجارة ثم كساهما بطبقة خارجية مائلة من الحجارة[٣٤].

ويختتم الأسرة الرابعة الملك الغامض شبسكاف الذي خلف منكارع، وإنجاز إلى صف كهنة بتاح وبنى مقبرته على شكل تابوت جنائزي كبير في موقع بالقرب من مدينة منف (مصطبة فرعون) ولا شك أن هذا الخروج على قاعدة بناء المقابر على شكل أهرامات، هو دليل العداء لكهنة هليوبوليس، كما وأنه دليل على وجود أزمة سياسية خطيرة[٣٥] وفي فترة الانتقال من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة بنت الملكة خنتي كاوس إحدى بنات منكارع الهرم الرابع بالجيزة[٣٦].

الأسرة الخامسة: ٢٥٦٠ ــ ٢٤٢٠ ق.م

وكانت أهرامات الأسرة الخامسة أصغر بكثير من أهرامات الأسرة الرابعة، ولكنها تحتوي على ذات العناصر، من مدينة للأحياء القائمين بالطقوس الدينية، ومدينة الموتى التي كانت تضم مدافن أسرة الملك وموظفيه وحاشيته[٣٧] ومنذ العهد الأخير للأسرة الخامسة أي حوالي ٢٤٨٠ عمد الملك إلى استعاضة عن البناء الضخم للأهرام ببناء أهرام صغيرة بها نصوص عرفت بنصوص الأهرام، وكان هذا التحول مبعثه تحول في العقيدة[٣٨].

وتعطينا الأسرة الخامسة انطباعاً بالرخاء واستقرار الملك، وذلك من مواقع منشآتها وإن كانت ليست بضخامة منشآت الأسرة الرابعة إلا أنها لا تقل عنها إتقاناً[٣٩].

الأسرة السادسة: ٢٤٢٠ ـ ٢٢٦٠ ق.م

وبانتقال العرش من أوناس إلى تيتي مؤسس الأسرة السادسة، لا يلاحظ أي هبوط في النشاط المعماري، وتستقر مراكز الادارة في المباني الملكية بالقرب من مدينة منف. ويطلق هذا الاسم الذي اختاره الملك (Pepi) ابن تيتي لعاصمته على كل المجمع العمراني، الذي أخذ يتجمع حول القلعة الطينية القديمة عند السور الأبيض[٤٠].

أما المصاطب وهي المقابر الخاصة بعلية القوم ابتداء من الأسرة الثالثة (وحتى الثامنة) فتختلف أحجامها وتنظيمها الداخلي باختلاف العصر وثروة المتوفي. وتحتوي المصطبة دائماً على حجرة دفن تحت الأرض لوضع الجثمان، يمكن الوصول إليها عن طريق بئر خاصة تردم عبر عملية الدفن، وأما حجرات القرابين فكانت تقام فوق سطح الأرض من اللبن أو من قطع الحجارة غير المهذبة، تكسوها طبقة من الحجر الجيري الفاخر. وفي مصر العليا ابتداء من الأسرة السادسة، نجد المصاطب الخاصة تقام في

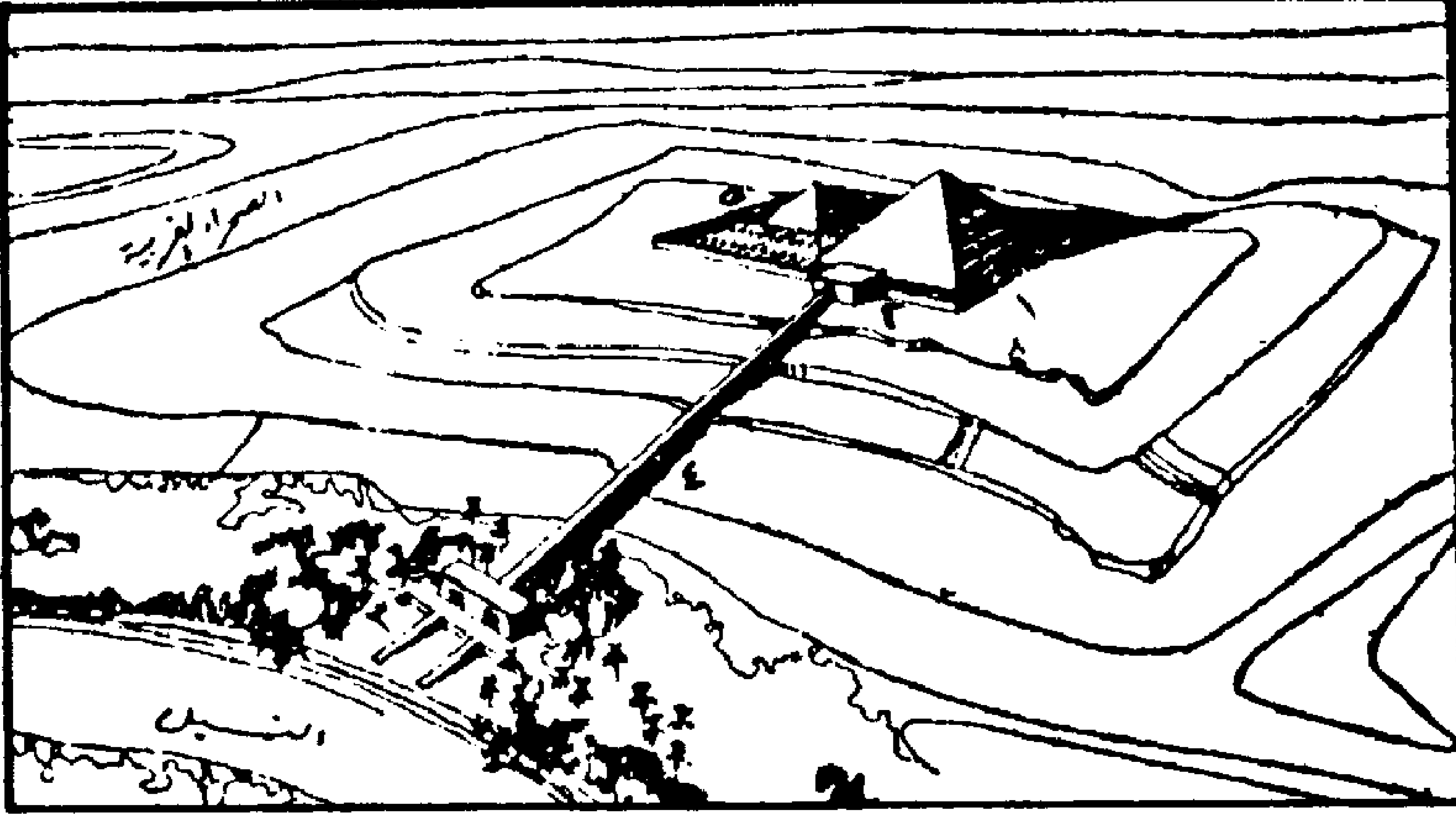
الجبانات المحيطة بالمعابد (كما في دندرة وأدفو). أما في الدلتا فكانوا يكتفون ببناء حجرات مشيدة في الحجر في أعماق الأرض (كما في هليوبوليس ومنديس). أما النموذج الذي ساد الأقاليم الجنوبية، فهو المقبرة المحفورة في الصخر والمكونة من مجموعة من الغرف المتتابعة التي تنتهي ببئر رأسية (كما في قبر وقصر الصيادين وطيبة). وكانت جثث المعدومين الذين لا قبر لهم تلقى على الرمال في الصحراء. ولكن في نهاية الدولة القديمة، وجدت عدد من الحفر البسيطة أو المبنية من الداخل، حيث يدفن بسطاء الناس مع جهاز جنائزي من الأواني والأشياء الرخيصة التي تتفاوت قيمتها بحسب حالتهم الاجتماعية[٤١].

٢ ــ **المعابد**[٤٢]: كان يتبع الهرم من الجهة الشرقية معبد جنائزي تقام فيه الصلوات على روح الميت وتقدم القرابين، وكان يشيد معبد آخر على حافة الوادي متصل بالنيل يسمى معبد الوادي ومتصل بالمعبد الآخر بواسطة طريق مرصوف مسقوف على شكل نفق وفتحات صغيرة بالسقف لدخول الضوء[٤٣] وكان المعبد، في نظر المصريين القدماء بيتاً للاله، ومكاناً مخصصاً لاقامة الطقوس الدينية، ونموذجاً مصغراً للكون في سمائه وأرضه، ومسرحاً يلتقي على منصته الاله والفرعون الذي يمثل شعب مصر، وكان لهذه النظرة آثارها في العمارة المصرية[٤٤] لذلك ارتبطت التقاليد المعمارية في مصر القديمة بالتقاليد الدينية، حتى أصبح لها قداسة دينية تفرض عدم المساس بها. ومن هنا كانت الحرية المتروكة للفنان المعماري محدودة فكان عمله يشمل تصميم المعبد على ضوء الوظيفة التي يؤديها المعبد ومساحات الأراضي الموقوفة عليه، وعدد العمال والمواشي والمواد الثمينة المخصصة له، وكان ذلك يتم بعد اختيار الكهنة للاله الجدير بالمنطقة[٤٥].

كان المعبد يتكون من جزء رئيسي ومقاصير ثانوية للالهة والالهات الأخرى، ومن مذبح أو مذابح تقام أحياناً في طريق المواكب الدينية، وقد ألحق بالمقاصير فيما بعد مبان لاقامة الكهنة ومبان أخرى للأشغال رتبت حسب أهميتها

□ **الهرم الأكبر بالجيزة.**





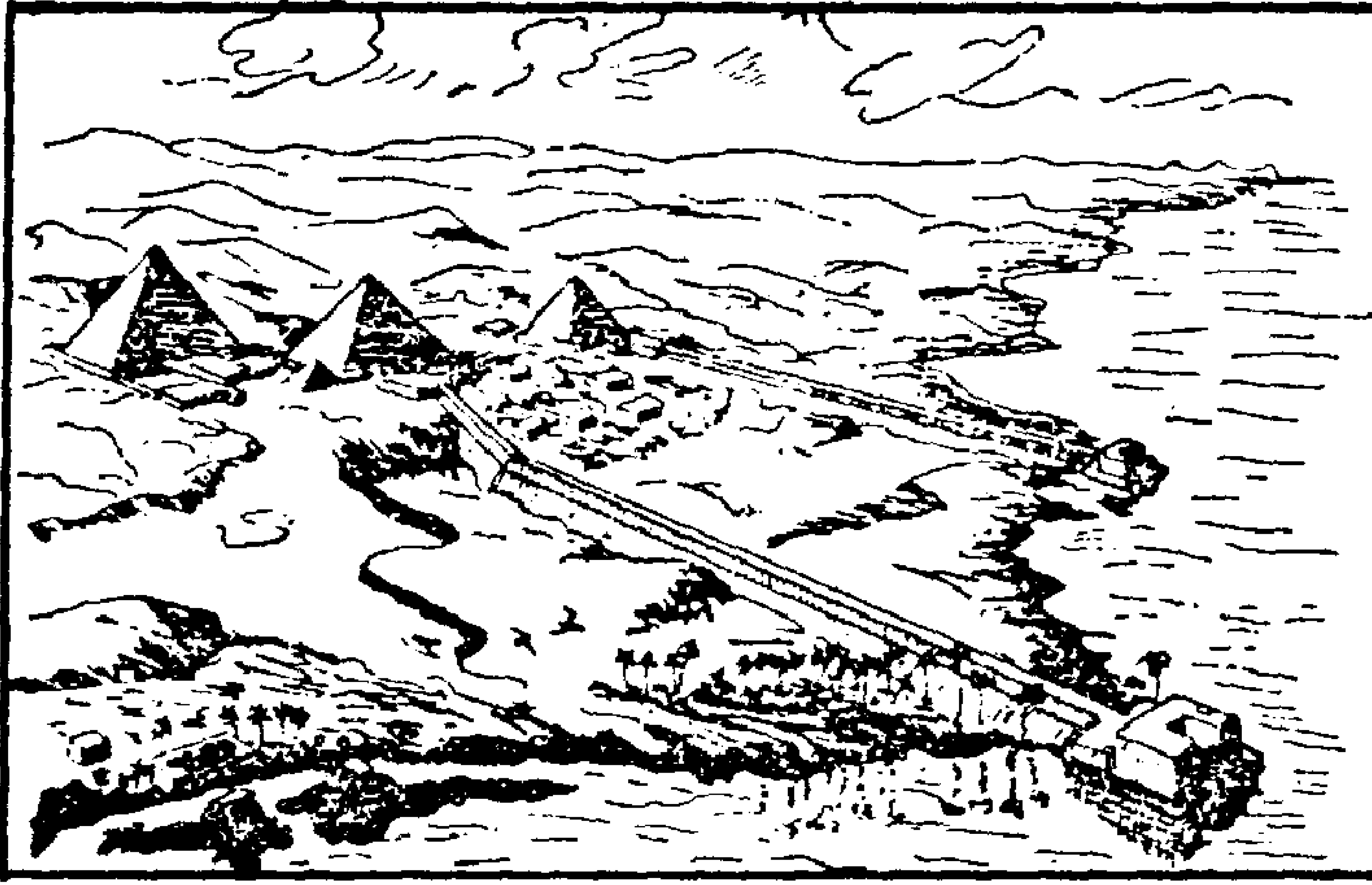
١ ــ الهرم حيث يدفن الملك.
٢ ــ معبد جنائزي للصلاة.
٣ ــ معبد الوادي للاجتماعات.
٤ ــ طريق مرصوف مسقوف.
٥ ــ هرم صغير حيث تدفن الملكة.

الطقسية والدينية والجمالية(٤٦) وكانت المعابد تضم إلى جانب ذلك أحياناً بحيرة مقدسة ينمو على جوانبها النبات كنبات البردى وزهرة اللوتس. وتحيط بالبحيرة أشجار باسقة، وأخرى كثيفة تحيط بساحات بعض المعابد. واستخدم المصريون الضوء في المعبد لبعث الحياة في تمثال الاله، فكانوا يعملون على أن يصل ضوء الشمس إلى حرم المعبد، وأن يمس تمثال الاله وحده كي يبقي ما حوله في ظلام دامس يحيط الاله بالغموض. وكان الضوء يتسلل من نوافذ صغيرة في أعلى الجدار عند نقطة التقائه بالسقف أو في السقف ذاته، وكان المعبد يبنى بحيث يضيق من الداخل تدريجياً وتعلو أرضه(٤٧) ويلاحظ أنه يوجد تناسق رائع بين خطوط المعابد الرئيسية وبين خطوط الجبال المجاورة لها(٤٨).

وكان بناء المعابد منذ بداية الدولة القديمة عملاً ميسوراً بالنسبة لبناء الأهرام، إذ أن البنّاء الذي كان على خبرة بالبناء باللبن والخشب، فقد واجهته بعض المشاكل الجديدة الخاصة فإن بناء الهرم هو أكثر تعقيداً من بناء المعبد، لأنه يحتاج إلى دقة غير عادية، إذ لا بد أن يكون كل مدماك في بناء الهرم أفقياً تماماً، وأن تكون الجدران منتظمة ملساء. ولا شك أن تحديد قاعدة تزيد على مائة وثلاثة وثمانين متراً مربعاً مشكلة مساحية كبيرة هذا بالاضافة إلى أن أهرام الدولة القديمة، كانت واجهاتها الأربعة تتجه بوجه عام إلى الجهات الأربعة الأصلية. بينما بناء المعابد ينحصر في تنفيذ الأساسات والسقوف والأعمدة والاضاءة والزخرفة على النهج المعروف(٤٩).

واستطاع المهندسون في نهاية الأسرة الثالثة التخلص من طراز معابد سقارة الالهية، الذي يعبر عن مرحلة الانتقال من استخدام الخشب إلى البناء بالحجر، فأقاموا مبان لا تقل عن أبنية زوسر(٥٠) وإن لم تبلغ البساطة التي بلغتها الخطوط في مباني الأسرة الرابعة، ويعد معبد قصر الصياغة من الأسرة الرابعة من أندر نماذج هذه الفترة، ويتوسط واجهته المستطيلة باب غير مزخرف يؤدي إلى فناء عريض قليل العمق ينتهي بسبع مقاصير مشيدة فوق قاعدة مشتركة، تتميز الوسطى بأنها أرحبها كلها، ويحيط بواجهة المقاصير إطار دقيق يعلوه طنف مقوس قليلاً فوق إفريز خال من النقوش(٥١).

وسرعان ما أخذ ملوك الأسرة الخامسة يقيمون المعابد لتمجيد الاله (رع). وإذا لم يعثر على أثر لمعبد أون (هليو بوليس) الذي يعتبر النموذج الأساسي للمعابد الشمسية فيمكن أن نتبين بعض ملامحه في بقايا المعبد الذي بناه الملك (ني ــ أوسر ــ رع) في أبو غراب شمال أبو صير، وجعل له بوابة ضخمة تربطه بمعبد الوادي الذي ينطلق منه ممر صاعد مسقوف شبيه بالممرات المفضية إلى الأهرام، وهو مائل بالنسبة لمحور المعبد ينتهي ببوابة أخرى تتوسط الجدار الشرقي للمعبد. الذي تؤدى العبادة فيه في الهواء الطلق حول كتلة ضخمة مربعة القاعدة ذات جوانب منحدرة تعلوها مسلة منحوتة من عدة كتل من الأحجار المرصوص بعضها فوق بعض، وهريم هذه المسلة هو المعروف باسم



□ معبد الوادي ومعبد الهرم والطريق الموصل بينهما.

«بنبن» ويرمز إلى الشمس وتحيط بفناء هذا المعبد أبنية العبادة[٥٢].

ويلاحظ أن المعابد والمباني الجنائزية للملوك أبناء إله الشمس في الأسرة الخامسة، أخذت تفقد الضخامة أو الاسراف في العظمة التي اتسم بها طراز الجيزة. ويبدو أنها بأعمدتها المتكررة ذات التيجان التي على هيئة زهر البردى أو سعف النخل وتكوينها الرقيق والتي حلت مكان الأعمدة المربعة، كانت أقرب إلى فن العمارة الذي ساد عهد زوسر. وعلى الرغم من أن أشكال فن الدولة القديمة عامة بقيت تتسم بمواصفات الأسرة الرابعة، فإن النزعة الطبيعية الرشيقة المألوفة عن حضارة الشمال أخذت تظهر مرة أخرى[٥٣].

كان بناء المعابد يبدأ بإرساء الأساسات التي تسبقها عملية حفر تختلف عمقاً باختلاف نوع الأرض ومقدار ثقل هذه الأساسات، فإذا كانت الأرض طينية وصل عمق الحفرة إلى ثلاثة أمتار، ثم تقام في جوانب الحفرة حواجز مبنية من اللبن، ويفرش قاعها بطبقة من الرمل بني عليها أحجار الأساس، ثم يردم الفراغ حولها كذلك بالرمل. أما إذا كانت الأرض رملية أو جيرية فإنه يكتفى بحفر حوالي نصف متر تحت مستوى سطح الأرض، ثم ترص أولى طبقات الحجارة مباشرة على قاع الحفر، وكان المصريون يشكلون الأساسات أحياناً من أحجار مختلفة الحجم أو من بقايا مبان أخرى. وقد اتبعت في سقوف المعابد طريق مد الألواح الحجرية الطويلة على جوانبها[٥٤]، ونحت وتقويس كل لوح حجري على حدة من أسفل لتبدو الألواح كأنها دعائم خشبية.

وقد ظهرت قباء عالية في الأبنية المدنية والدينية المبنية من اللبن المجفف. وذلك بإقامة جدار في نهاية الغرفة أو الدهليز أكثر ارتفاعاً من جداري الغرفة المتقابلين، ثم كانت توضع صفوف من اللبن رأسية مرتكزة على كل من الجدارين المتقابلين على أن يميل اللبن في اتجاهين. فهو يميل أولاً على الجدار المرتفع القائم في نهاية الغرفة، كما أنه يوضع مائلاً في اتجاه الجدار المقابل ـ وهكذا حتى يتلاقى جدارا القبو المائلان عند القمة، وقد أغنت هذه الطريقة عن وضع ركائز خشبية مؤقتة أو ردم المبنى مؤقتاً بالأتربة لامكان إقامة القبو فوقها[٥٥].

وقد عنى المصريون بمشكلة التخلص من مياه المطر، حتى لا تفسد الزخارف الملونة داخل المعابد إن تسربت فيها. فكانت تترك قنوات صغيرة على طول الفواصل بين الكتل الحجرية وكانت تلك الفواصل تسد بسدات حجرية، كذلك حرصوا على ألا تتسرب مياه المطر من فتحات السقوف فرفعوا أجوافها بقدر طفيف. وكان تصريف الماء يتم بجعل سقوف المباني الصغيرة مائلة ميلاً خفيفاً لكي يسيل الماء إلى جانب المبنى ويصب في قناة. أما في المباني الكبيرة فكانت القنوات المائلة تدفع الماء إلى الميازيب[٥٦].

وكان اختيار المواد ونقلها من أهم المشاكل التي شغلت المهندسين وكانت للعوامل الاقتصادية والدينية أثرها في اختيار مواد البناء، فكانت الأحجار تخصص للمعابد ضماناً لبقائها. بينما

□ هرما خفرع ومنكاوورع
وامامهما أبو الهول.



تقام الأبنية الثانوية كالمخازن والمباني الادارية الملحقة بالمعابد من اللبن، ونظراً لافتقارهم إلى الأخشاب فقد قللوا ما أمكن من استعمال الأخشاب، ولم يبق إلا آثاراً نادرة من الخشب المستعمل في المباني(٥٧).

واستعملت أنواع كثيرة من الحجارة، هي: الحجر الجيري العادي، والحجر الرملي الهش ثم الحجر الجيري الممتاز، والغرانيت، والبازلت الأسود، الكوارتز الأحمر، والمرمر، والحجر الرملي البلوري، وكانت الأحجار الرملية والجيرية الممتازة تستعمل في الطبقة السطحية الخارجية للبناء، على حين تستعمل الأحجار الجيرية العادية داخل البناء، وتستعمل الأحجار الصخرية الأكثر صلابة أحياناً للآثار المقدسة ذات الأهمية الخاصة في المعابد. غير أن مشكلة النقل كان لها اثرها في اختيار أحجام الحجارة، فبينما كان طول الحجر يبلغ ٢٥ سم في مباني الملك زوسر، فقد كانت تتراوح بين ٥٠ سم في مداميك أهرام الجيزة العليا وبين ١٢٥ سم في المداميك السفلية، ولكن أحجام الحجارة أخذت في التناقص التدريجي مع مرور الزمن(٥٨).

أما الأعمدة فقد كانت في بدايتها عبارة عن قوائم خشبية (جذوع الأشجار) تسهم مع الجدران في حمل السقف، وقد ارتبطت الأعمدة منذ ظهورها بعنصرين رئيسيين هما قمة العمود وقاعدته، ومنذ حل الحجر محل اللبن في منتصف الدولة القديمة، اخذت الأعمدة الحجرية تحل محل الأعمدة الخشبية. ويمكن أن نتبين في هذا العصر نشأة الأعمدة وتطورها: فقد بدأ ظهور أعمدة ملتصقة بالجدران غير كاملة بسبب اندماج جزء منها في الجدار حتى سميت أحياناً بالأعمدة النصفية أو المتشابكة، واتخذت عدة أشكال فهي أحياناً ذات أضلاع هندسية، وأحياناً شبيهة بجذوع النخيل أو بجزم النباتات. وقد اكتشفت أربعة نماذج لها تنتصب دون قاعدة وتعلوها أوراق نبات، كما في بيت الجنوب، بمجموعة مباني زوسر ثم ظهرت في الأسرة الرابعة الأعمدة المربعة الضخمة المنحوتة من كتلة واحدة كما في معبد الوادي للملك خفرع المشيد من كتل الغرانيت والذي ازدانت قاعته الرئيسية بثلاث وعشرين تمثالًا، أما المعبد الأعلى وهو المعبد الجنائزي فيتكون من قاعتي أعمدة وغرفتي أضيق منهما توضع فيها التماثيل. ويلاحظ في مجموعة المباني هذه التناسب المعماري بين الأعمدة والبناء، مما يتفق مع الأعمدة الغرانيتية الضخمة التي تعلوها الكتل الحجرية، مع بساطة محببة، وهذا على النقيض من الأعمدة ذات الزخارف النباتية التي سبقتها في سقارة. وظلت هذه الأعمدة عارية من الزخارف

حتى بدأت الأسرة الخامسة بزخرفة الأعمدة المربعة بنقوش محفورة. وظهرت الأعمدة على شكل أزهار البشنين وهي شبيهة بحزم النباتات البدائية، ويبدو جسم كل عمود كأنه مكون من سيقان مستديرة، يقل سمكها تدريجياً نحو القمة حيث تربط بخمسة أربطة تظهر فوقها زهرة تكاد تكون متفتحة. وظهرت الأعمدة النخيلية التي نراها في معبد (ساحورع) وني — أوسر — رع) في أبو صير، والتي يندر وجودها بعد الدولة القديمة وأخيراً الأعمدة البردية ذات الحزم الموثقة والزهرة التي لا يفصل بين وريقاتها برعم[٥٩] وقد اعتبر العمود بالاضافة إلى وظيفته الأولى عنصراً تجميلياً، فقد جوروه وجملوه بالزخارف الملونة، ونحتوها مربعة أو متعددة الأضلاع ومستديرة ومفلطحة الطرف العلوي[٦٠].

٣ — **المباني المدنية**: إن إيمان المصريين القدماء بفناء الحياة وخلود العالم الآخر[٦١] دفعهم إلى بناء منازلهم من اللبن، غير أنهم عنوا بزخرفتها فقطعوا سقوفها وجدرانها بألوان زاهية مختلفة، وقسموا الجدار الواحد أحياناً أقساماً وجعلوا لكل منها لوحاً مختلفاً، أحمراً أو أخضراً أو بلون الخشب أو الحجر، وصوروا على الجدران البيضاء في غرف الجلوس بعض صور الأفراد، أو بعض مشاهد الحياة اليومية، وزينوا لوحاتهم بإطار يعلوه شريط من الأزهار[٦٢].

وقد أتاحت الرسوم القائمة في المقابر فيما بعد معرفة الكثير عن تفصيلات هذه الدور، فقاعات الاستقبال الكبيرة ترتفع سقوفها على أعمدة، ودور الريف الفسيحة، وحظائر الحيوانات الداجنة التي تتقدمها لها صفة ذات أعمدة وتحمل الأعمدة بعض سقوفها، في حين تحيط بقصر الملك الحدائق الفسيحة التي تتخللها الجداول والبحيرات، وكانت تقام فيه حفلات الموسيقى والرقص[٦٣] وقد عثر على أول جزء من هذه المباني المدنية، التي كانت مبنية من اللبن، وكانت مرسومة رسماً تخطيطياً، ومن بينها المنازل المنفردة التي كان لها مداخلها الخاصة وغرفها التي روعيت فيها الشروط الصحية، ووسائل التهوية والنوافذ التي تسمح بدخول أشعة الشمس، وقد تجلت مهارة المهندسين الذين شيدوا هذه المساكن بخلق تخطيط منظم بديع وكونوا المدن بكل ما يلزمها من طرق وشوارع وميادين ومساكن وأنفاق وأحواض للمياه[٦٤].

●

مراجع البحث

(١) المعرفة، اللجنة العلمية الاستشارية للمعرفة، (مطبعة داغر — لبنان).

(٢) د. بدوي، أحمد ود. مختار، محمد جمال الدين: **تاريخ التربية والتعليم في مصر**، (القاهرة — ١٩٧٤).

(٣) حمد عبدالجواد، توفيق: **تاريخ العمارة والفنون**، (ط ٢، ج ١ — ١٩٧٠).

(٤) يويوت، جان: **مصر الفرعونية**، ترجمة سعد زهران، (مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٦).

(٥) صابر، محمد: **مصر تحت ظلال الفراعنة**، (مكتبة الانجلو المصرية).

(٦) حتي، فيليب: **موجز تاريخ الشرق الأدنى**، (دار الثقافة — بيروت ١٩٦٥).

(٧) عكاشة، ثروت: **الفن المصري**، ج ١، (دار المعارف — مصر).

(٨) — Hayes. Williamc: *The Seepter of Egypt*, (New York).

(٩) علامة، نعمت إسماعيل: **فنون الشرق الأوسط القديم**، (دار المعارف — مصر).

(١٠) د. عصفور، محمد أبو المحاسن: **معالم حضارات الشرق الأدنى القديم**، (دار النهضة العربية — ١٩٧٩).

الهوامش

(١) المعرفة، اللجنة العلمية الاستشارية للمعرفة، مطبعة داغر لبنان، م ٢ ص٢٩٠.

(٢) المرجع نفسه، ج٢ ص٢٩٠.

- تاريخ التربية والتعليم في مصر، تأليف د. أحمد بدوي، د. محمد جمال الدين مختار، القاهرة سنة ١٩٧٤، ص٢٣ — ٢٤.

تاريخ العمارة والفنون، لتوفيق حمد عبدالجواد، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠، ج١ ص٥٠.

(٣) مصر الفرعونية، تأليف جان يويوت، ترجمة سعد زهران، مؤسسة سجل العرب، سنة ١٩٦٦، ص٣٥ — ٣٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٥) مصر تحت ظلال الفراعنة، محمد صابر، مكتبة الانجلو المصرية، ص١٧ — ١٨.

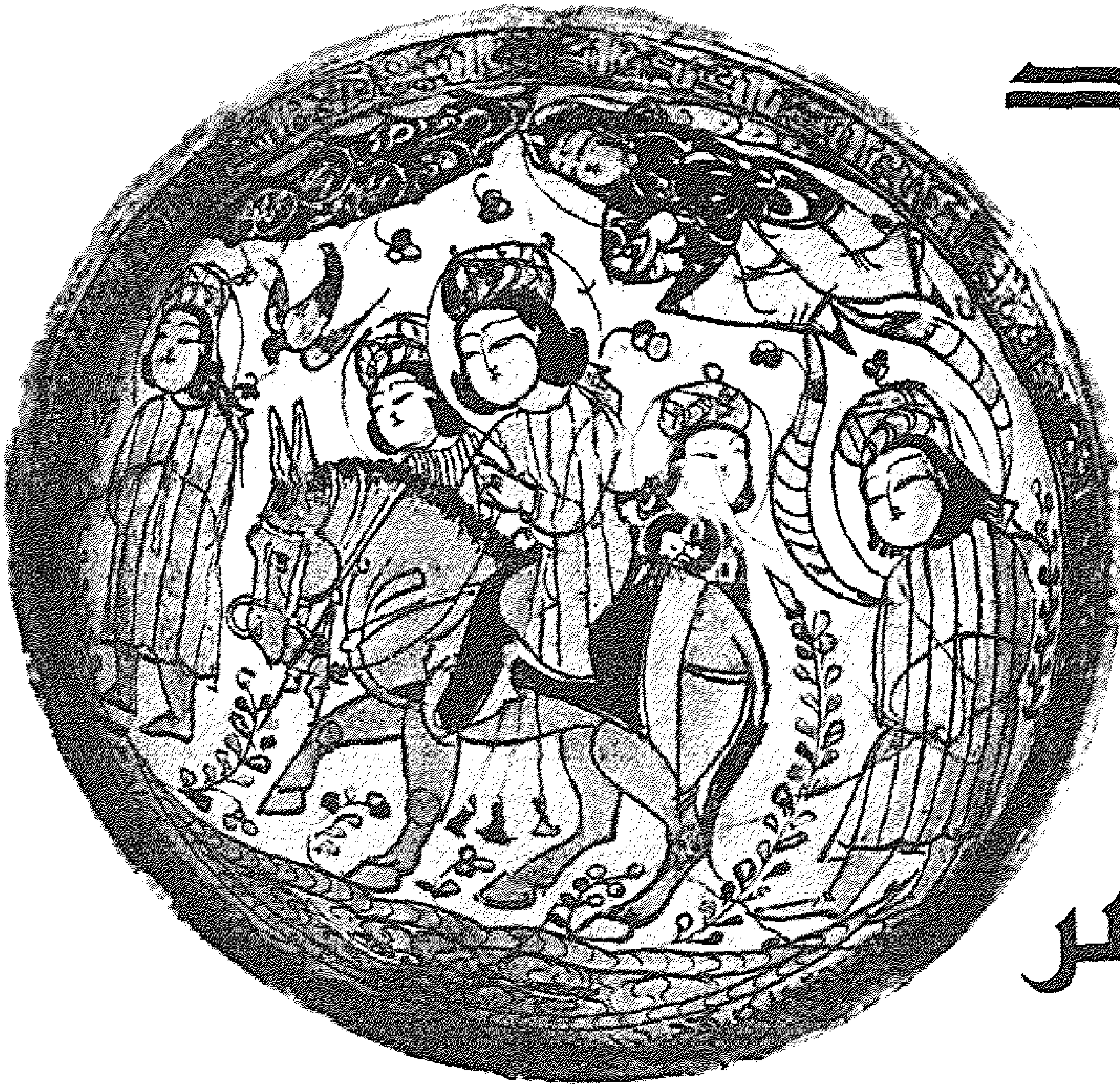
(٦) تاريخ التربية والتعليم في مصر، ص ٣٦.

- المعرفة، المرجع السابق، م٢ ص٢٩٠.

(٧) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص١٧ — ١٨.

(٨) المعرفة، م٢ ص٢٩٠.
- تاريخ العمارة والفنون، م٠ ص٥٠.
(٩) المعرفة، ج٢ ص٢٩٠.
(١٠) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص١٧ ــ ١٨.
(١١) المرجع نفسه، ص ١٧.
- موجز تاريخ الشرق الأدنى، فيليب حتي، دار الثقافة، بيروت سنة ١٩٦٥، ص ٦٣.
(١٢) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٨٤ ــ ٨٥.
- الفن المصري، لثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ج١ ص٢٧٣ ــ ٢٧٤.
— The Seepter of Egypt, By William. C. Hayes, New York, p. 52-53.
(١٣) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص ٢٤ وما بعدها.
— The Seepter of Egypt, op.cit., p.49-50.
(١٤) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٨٦ وما بعدها.
- مصر الفرعونية، ص ٣٢.
(١٥) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٨٦ ــ ٨٩.
- الفن المصري، ج١ ص٢٧٤.
(١٦) الفن المصري، ج١ ص٢٧٤.
(١٧) مصر الفرعونية، ص٣٤.
(١٨) المرجع نفسه، ص ٣٥.
(١٩) المرجع نفسه، ص ٣٤.
- فنون الشرق الأوسط القديم، تأليف نعمت إسماعيل علامة، دار المعارف بمصر، ص٧٧.
(٢٠) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٩٠ ــ ٩٤ و ١٠٦ و ١٠٧.
- الفن المصري، ج١ ص٢٧٤ ــ ٢٧٦.
(٢١) الفن المصري، ج١ ص٢٧٥ و ٢٧٨.
(٢٢) مصر الفرعونية، ص ٣٥.
— The Seepter of Egypte, p.59, 50.
(٢٣) مصر الفرعونية، ص ٣٥.
(٢٤) الفن المصري، ج١ ص٢٨٢.
(٢٥) مصر الفرعونية، ص ٣٥.
(٢٦) مصر الفرعونية، ص ٣٧ ــ ٣٨.
(٢٧) فنون الشرق الأوسط القديم، ص ٧٨.
(٢٨) مصر في ظلال الفراعنة، ص٩٤ و ٩٥.
- الفن المصري، ج١ ص٢٥٤ ــ ٢٥٦.
- مصر الفرعونية، ص ٥٣.
— The Seepter of Egypte, p. 60.
(٢٩) المعروف عند العامية بالهرم الكذاب.
(٣٠) مصر الفرعونية، ص٥٤.
(٣١) الفن المصري، ج١ ص٢٥٦.
(٣٢) الفن المصري، ج١ ص٣٨٢؛ مصر الفرعونية، ص ٣٨ ــ ٤٠.
الفن المصري، ج٢ ص٥٥٦؛ مصر في ظلال الفراعنة، ص ١٣٣ ــ ١٥٢، ١٥٩ ــ ١٦٧ و ١٧٥ بعدها.
(٣٣) مصر الفرعونية، ص ٥٤.
(٣٤) الفن المصري، ج١ ص٢٥٤.
(٣٥) مصر الفرعونية، ص ٣٩.
(٣٦) مصر الفرعونية، ص ٤٠.
. يراجع في أعمال الأسرة الرابعة:
The Seepter of Egypte, p. 61-63.
(٣٧) الفن المصري، الجزء الأول ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥.
(٣٨) الفن المصري، الجزء الأول ص ٢٠٥.
(٣٩) مصر الفرعونية، ص ٤٠.
يراجع في الأسرة الخامسة:
The Seepter of Egypte, p. 66-72.
(٤٠) مصر الفرعونية، ص ٤١.
(٤١) مصر الفرعونية، ص ٥٤ ــ ٥٥.
The Seepter of Egypt, p. 51-52.
(٤٢) يراجع:
معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ود. محمد أبو المحاسن عصفور، دار النهضة العربية سنة ١٩٧٩، ص ١٣٩ ــ ١٤١.
(٤٣) تاريخ العمارة والفن، ج١ ص١٢٢.
(٤٤) الفن المصري، ج١ ص٣٤٣ ــ ٣٤٤.
(٤٥) المرجع نفسه، ج١ ص٣٤٧ ــ ٣٤٨ و ٣٥٠.
(٤٦) الفن المصري، ج١ ص٣٤٣ ــ ٣٤٤.
(٤٧) المرجع نفسه، ص ٣٤٤.
(٤٨) المرجع نفسه، ص ٣٤٦.
(٤٩) المرجع نفسه، ص ٣٥٠.
(٥٠) راجع معابد زوسر بالتفصيل في: مصر تحت ظلال الفراعنة، ص١٠٩ ــ ١٣٠.
(٥١) الفن المصري، ج١ ص٣٨٢ و ٣٨٤.
راجع في بعض معابد الأسرة الرابعة: مصر تحت الفراعنة، ص ١٥٣ ــ ١٥٨.
(٥٢) الفن المصري، ج١ ص٣٨٤ ــ ٣٨٥.
مصر الفرعونية، ص ٤٠.
(٥٣) الفن المصري، ج٢ ص٥٦٢.
الفن المصري، ج١ ص٣٩٣.
مصر الفرعونية، ص ٥٧.
(٥٤) الفن المصري، ج١ ص٣٥١.
(٥٥) المرجع نفسه، ج١ ص٣٥٢.
(٥٦) الفن المصري، ج١ ص٣٥٦.
(٥٧) المرجع نفسه، ج١ ص٣٥٩.
(٥٨) المرجع نفسه، ج١ ص٣٦٠.
(٥٩) الفن المصري، ج١ ص٣٩٣ ــ ٣٩٤.
مصر تحت ظلال الفراعنة، ص ١١٢ ــ ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٦.
The Seepter of Egypt, p. 68.
(٦٠) الفن المصري، ج١ ص٢٦٦.
(٦١) Histoire de l'art Elie Faure 1976, p. 82-85.
(٦٢) الفن المصري، ج١ ص٣٩٠.
(٦٣) المرجع نفسه، ص ٣٩٠ ــ ٣٩٢، ٤١٠.
(٦٤) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص ١٧٨ ــ ١٧٩.

التحديد الزمني لتأريخ تاريخ العرب الحديث والمعاصر



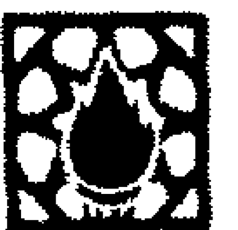
■ د. مروان عبدو

□ طاسة سيراميك من قاشان في ايران تعود للعام ١١٨٧م.

لا يوجد، حتى الآن، مفهوم موحد حول زمن محدد لبداية التأريخ الحديث العربي والدولي. هناك مفاهيم عديدة في أوروبا وأميركا بما فيها اللاتينية، وعند المنظومة الاشتراكية العالمية. وبعض المؤرخين العرب يتخذون بداية القرن التاسع عشر كبداية للتأريخ العربي الحديث. فلنستعرض مختلف النظريات العالمية والعربية والاسلامية بهذا الصدد.

من المعلوم اليوم، أن العصور التاريخية مقسمة بشكل عام إلى أربعة: قديمة، متوسطة، حديثة ومعاصرة.

١ ــ مفهوم التحديد الزمني للتأريخ البرجوازي عند مؤرخي أوروبا وأميركا



في القرون الوسطى[١] قسم العلماء ماضي التاريخ البشري إلى عالم قديم قام على أربع ممالك وهي: مملكة آشور ــ بابل، والمملكة الميدية ــ الفارسية، والمملكة اليونانية ــ المقدونية فالمملكة الرومانية. أما القرون الوسطى فقد افتكروها تكملة لعصر الامبراطورية الرومانية في مظهر (روما الثانية) أو بيزنطية.

أما انسانيو[٢] القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فقد تكلموا لأول مرة، على مفهوم القرون الوسطى (مديوم إيفوم Medium Oevum) في مقابل العصور القديمة (Antiquitas)؛ وقدموا بذلك بداية التأريخ الحديث. ومن أهم مؤشراته النضال لتخليص الفرد والمجتمع من السلطة الكلية للكنيسة الكاثوليكية. إذن، بداية التأريخ الحديث، أعلن

■ البحث من وضع الدكتور مروان عبدو، المحاضر في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الانسانية الفرع الرابع كسارة ــ قسم التاريخ.

الانسانيون تطور العلوم والثقافة تحت علم النهضة وانبعاث التقاليد الكلاسيكية.

وقد جاء في الموسوعة السياسية لعام ١٩٧٤ عن مفهوم (عصر النهضة) في أوروبا ما يلي: «عصر النهضة مصطلح على فترة الانتقال إلى العصور الحديثة (القرنان ١٥ ــ ١٦) ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، حيث نزح العلماء إلى إيطاليا ومعهم تراث اليونان والرومان. وكان لهذه الحقيقة تأثير واسع النطاق في الفن والعمارة وتكوين العقل الحديث[٣].

في النصف الثاني للقرن السابع عشر الميلادي، صار تقليداً في جامعات أوروبا تقسيم تاريخ العالم إلى قديم (سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦م)، ووسيط وحديث. لكن بداية التأريخ الحديث، كما أسلفنا القول، هو سقوط بيزنطية عام ١٤٥٣م. بداية العصر الحديث تفهم بتنوع في التأريخ البرجوازي. ففي الكتابات الكنسية والارستقراطية هيمنت لمدة طويلة فكرة بداية العصر الحديث بسقوط القسطنطينية، لما سيطر عليها العثمانيون. ولكن، هذا التأريخ هو في الواقع قليل الأهمية، بما أن بيزنطية قبل عام ١٤٥٣م كانت قد تحولت إلى أنقاض حزينة لماضي دولة عظمى. وسقوط بيزنطية لم يحدث أية تحولات جذرية في مسيرة التاريخ العالمي[٤].

وتتفوق في الكتابات التأريخية البرجوازية ــ الليبرالية، فكرة مهيمنة في الوقت الحاضر في أوروبا الغربية، تزعم أن بداية التأريخ الحديث تتمثل في ظهور المبدأ الانساني والاصلاح (ق ١٥ ــ ١٦م).

في القرن التاسع عشر انتشرت في الولايات المتحدة الأميركية وفي أقطار أميركا اللاتينية، وجهة نظر تقول أن بداية التأريخ الحديث تعود إلى الاكتشافات الجغرافية، واكتشاف أميركا بشكل خاص في عام ١٤٩٢م. وانتشرت وجهة النظر هذه في كثير من مدارس وجامعات تلك البلدان.

في أوروبا وفي ثمانينات القرن التاسع عشر قسم المؤرخ الروسي أ. ي. متشنيكوف في كتابه بعنوان «الحضارة والأنهار التاريخية العظمى»، التاريخ إلى ثلاث حقب: مرحلة الحضارات القديمة، والقرون الوسطى، وحضارة أوقيانيا. اما بداية الانتقال إلى الحضارة الأوقيانية فقد رآها في الاكتشافات الجغرافية[٥].

وينتقد مقدم الكتاب ــ الذي استقينا منه هذه المعلومات ــ هذا التأريخ قائلاً: «بلا شك فإن الاكتشافات الجغرافية نهاية القرنين الخامس عشر والسادس عشر اعطت دفعاً لتطور التجارة من جراء غزو ونهب المستعمرات. ولكنها لم تحدث التغيرات الجذرية في المجتمع. تلك التغيرات التي نتجت فقط مع الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية».

٢ ــ مفهوم التحديد الزمني للتأريخ الحديث حسب النظرية الجدلية المادية

نظرية معاصرة خرجت إلى النور في منتصف ثلاثينات القرن العشرين، تلكم هي النظرية الجدلية المادية، وهي تفسر التاريخ الاجتماعي البشري بالاقتصاد. إذ يقوم هذا التفسير على إرجاع التغيرات الأساسية التي طرأت على التطور التاريخي والأحداث التي مر بها المجتمع الانساني، إلى تأثير التغيرات المادية والنوعية، التي حصلت في قاعدته الاجتماعية ــ الاقتصادية بالدرجة الأولى. هذه القاعدة ترتكز على دعامتين: وسائل الانتاج والقوى المنتجة، وعلاقات الانتاج بين الطبقات الاجتماعية المختلفة. فالتطور التاريخي مرهون بهذه القاعدة المادية والبشرية.

هذه النظرية التاريخية الجدلية تقسم تاريخ العالم منذ القديم إلى يومنا الحاضر إلى خمس تشكيلات اجتماعية ــ اقتصادية كبرى: التشكيلة المشاعية البدائية، التشكيلة العبودية (عصر الرق والأسياد)، التشكيلة الاقطاعية، التشكيلة الرأسمالية والتشكيلة الاشتراكية الحالية. كل تشكيلة اقتصادية ــ اجتماعية تتوافق مع العصر التاريخي الذي يقابلها. وتقسم العصور إلى خمسة حسب النظرية الجدلية المادية المذكورة: العالم القديم، العبودي، القرون الوسطى، العصر الرأسمالي؛ فالعصر الحالي وهو عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية على المستوى العالمي.



إبريق ذهبي، صنع لأحد الحكام البويهيين في العراق

وتتخذ هذه النظرية بداية العصر الحديث منذ منتصف القرن السابع عشر، أي منذ الثورة البرجوازية الأولى في العالم، في انكلترا (١٦٤٠ ــ ١٦٤٨). والتي أدت إلى انتصار النظام الرأسمالي وانهزام النظام الاقطاعي (القرون الوسطى) بانتصار الثورات الرأسمالية على التوالي في الولايات المتحدة الأميركية (١٧٧٦)، وفي فرنسا (١٧٨٩).

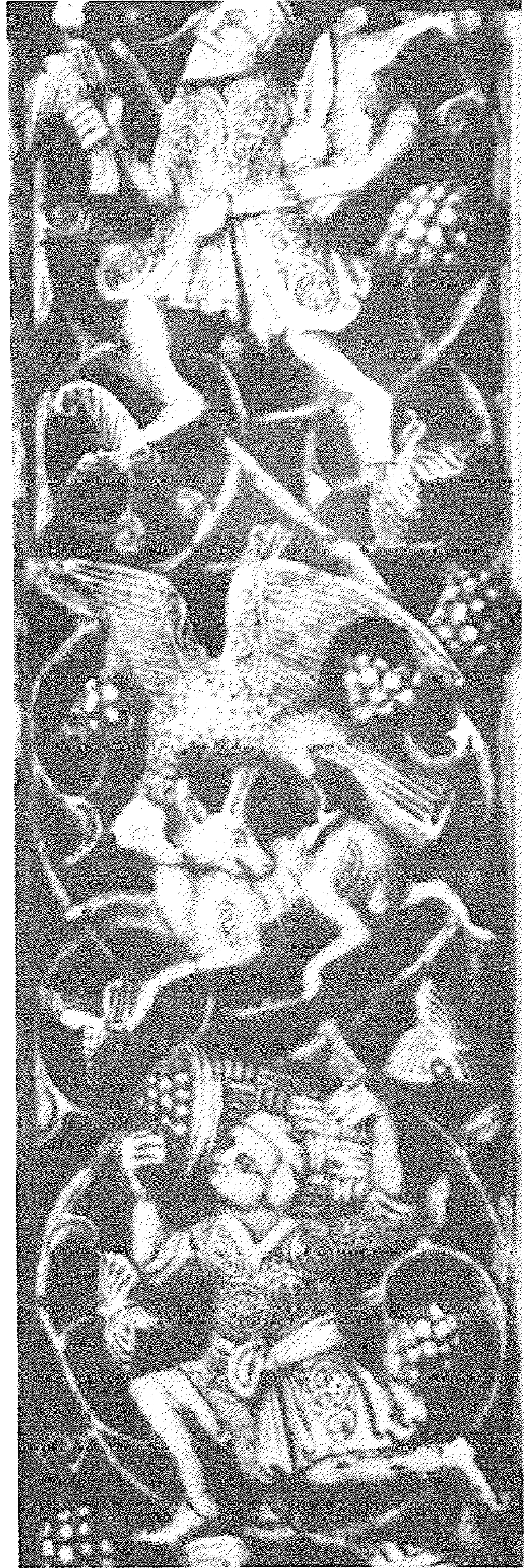
ويقسم العلماء هذه الفترة الطويلة إلى حقبتين أساسيتين:

الأولى، من عام ١٦٤٠ إلى ١٨٧٠ وهي حقبة انتصار وتمكين الرأسمالية في البلدان المتقدمة الأوروبية والأميركية. وتتبعها المرحلة **الثانية**، وهي مرحلة الرأسمالية المتأخرة. ومن سماتها نشوء الثورات البروليتارية مبتدئة بكومونة باريس عام ١٨٧١. وتمتد هذه الحقبة حتى عام ١٩١٧. الأحداث الأساسية لهذه الحقبة تكمن في انتصار الثورات البرجوازية في انكلترا وأميركا وفرنسا والبلدان الأخرى. والثورة الصناعية في انكلترا، وتطور الصناعات الكبرى، والحركات القومية والحروب وظهور البلدان القومية، ونمو الطبقة العاملة والحركة العمالية وتسارع تناقضات الرأسمالية. وظهور الاشتراكية العلمية وأول حزب ماركسي «اتحاد الشيوعيين عام ١٨٤٧».

لا يتسع المجال هنا لاعطاء تفصيل عن الخريطة السياسية في أوروبا والوضع الدولي حتى منتصف القرن السابع عشر، وكذلك، للكتابة بالمختصر عن حالة القوى المنتجة في بلدان غرب أوروبا المتطورة، وطرق ما يدعى بالتراكم الرأسمالي البدائي للقرنين السادس والسابع عشر. فيما يلي نعطي بالمختصر عن حالة القوى المنتجة وطرق التراكم الرأسمالي البدائي.

أولاً ــ حالة القوى المنتجة في بلدان غربي أوروبا المتطورة اقتصادياً:

حتى اقتصاد البلدان المتقدمة في العلاقات الاقتصادية اتسم بطابع زراعي. فكانت الزراعة أهم قطاع إنتاجي، وحيث لا توجد إحصاءات مؤكدة عن عدد السكان. فإن سكان أوروبا الغربية للقرن السابع عشر (١٦٠٠) لم يتفوقوا على ٩٠ ــ ٩٥ مليون نفس. وحتى مطلع القرن



□ احد الواح علبة صغيرة صنعت من العاج وعليها رسوم، تعود للقرن الثاني عشر ميلادي.

الثامن عشر كانت أوروبا تعد ١٨٠ مليون نسمة. عاش أكثرهم في الريف، والمدن التي استوعبت اكثر من ١٠٠ ألف إنسان كانت ظاهرة نادرة. وقد هيمنت في الزراعة، وحتى القرن الثامن عشر السهول المثلثة والصمد والآلات اليدوية. وحيثما كان هيمن العمل اليدوي، بالرغم من استعمال مكثف لبعض التقنية في طواحين الهواء والماء وخاصة في هولندا.

ثانياً ــ طرق ما يدعى بالتراكم الرأسمالي البدائي للقرنين السادس والسابع عشر:

اتسمت هذه الطرق بالنمو السريع للبرجوازية التجارية التي تملكها جشع الثراء وتراكم الرساميل الكبيرة، وظهور وتطور المانفكتورة كالشكل البدائي للانتاج الرأسمالي(٦). وبهدف تلميع تاريخ الرأسمالية، قدم المؤرخون والاقتصاديون البرجوازيون تفسيرات مليئة بالتخيل حول تراكم الرأسمال الأولي. فبعضهم عزا ذلك إلى التوفير ــ الاقتصادي في النفقات.

أما كارل ماركس بالاستناد إلى مجموعة هائلة من الوقائع برهن أن جوهر التراكم الأولي(٧) نتج عن عزل المنتجين عن وسائل الانتاج، وإفلاس ومصادرة المنتجين الصغار ــ الفلاحين والحرفيين، باستعمال الوسائل الدموية والاجبارية. ويعزي ماركس إلى الوسائل الهامة للتراكم الأولي تلك التجارة غير المتكافئة مع المستعمرات، حيث ومن أجل شراء المشروبات وبعض الأوعية الزجاجية دفع المشترون المعادن الثمينة والحجارة الكريمة. وكذلك، النهب المباشر للمستعمرات والتبادل الاجباري ووضع الخوات والأعطيات، وتجارة العبيد. وأرصدة الدولة، أي إعطاء كبار البنكيين والتجار قروضاً للدولة لشن الحروب وأعمال أخرى بفوائد مرتفعة. وسددت الدولة تلك القروض من النهب الحربي، وغلاء الفوائد المحصلة من استغلال المنتجين. وإلى جعل أراضي الأوقاف عالمية وقسمتها وبيعها بأبخس الأثمان للبرجوازية والاقطاع.

وأول مؤشر عن استملاك المنتجين الصغار هو استمرار تطويق وطرد الفلاحين من الأراضي. بدأت هذه الطريقة في انكلترا حتى في نهاية القرن الخامس عشر. كل خطوة من التراكم الرأسمالي اتسمت بالقوة والدم. أحرز استمرار التراكم



□ احد الواح علبة صغيرة صنعت من العاج وعليها رسوم، تعود للقرن الثاني عشر ميلادي.

الرأسمالي نجاحات في انكلترا في بداية القرن السابع عشر، ثم أعطته الثورة البرجوازية قفزة هائلة في ذلك البلد.

أما **بداية التأريخ المعاصر** فقد حددت بدايته الثورة الاشتراكية الأولى في العالم عام ١٩١٧ في روسيا. وأخذت كل الدول الاشتراكية بهذا التأريخ الجدلي العلمي. وحتى الكتب البرجوازية تأخذ بتأريخ التاريخ المعاصر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. ولكن التفسير لما يعتبر البداية والمضمون فمختلف تماماً. مثلاً: في فرنسا، وفي التأريخ البرجوازي يعتبرون المرحلة التي ابتدأت مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ بداية للتأريخ المعاصر.

تأريخ التاريخ المعاصر في العالم الاشتراكي ينقسم إلى ثلاث مراحل: **المرحلة الأولى**، تبدأ مع انتصار الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩. ومضمون هذه المرحلة انتصار الاشتراكية في بلد واحد، وإصابة النظام الرأسمالي العالمي بأولى أزماته العامة. ومع ذلك، بقيت الرأسمالية أقوى من الاشتراكية[٨].

المرحلة الثانية، تبدأ مع الحرب العالمية الثانية وتنتهي في أواسط الخمسينات. هنا تخرج الاشتراكية من إطار دولة واحدة وتصبح نظاماً عالمياً، وتصاب الرأسمالية بأزمتها العالمية الثانية ومؤشرها انهيار النظام الاستعماري العالمي، وتظهر دول عديدة مستقلة، وتعزز الحركات العمالية والديمقراطية، وتتعزز الحركة العمالية والشيوعية العالمية، وتتبدل نسبة القوى بين النظامين العالميين لصالح الاشتراكية، وبفضل هذا التطور ظهرت إمكانية درء الحروب.

المرحلة الثالثة، للتاريخ المعاصر تبدأ مع منتصف الخمسينات، حيث يتوطد بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، ويتمكن نهائياً النظام الاشتراكي في بلدان الديمقراطيات الشعبية. ويسير النظام الاشتراكي إلى النصر الحاسم بثقة في المباراة الاقتصادية مع الرأسمالية. وفي ظروف المباراة العالمية للنظامين تبدأ المرحلة الثالثة من الأزمة العامة للنظام الرأسمالي. لما يفقد هذا النظام سلطته على أكثرية البشرية ولا يستطيع إعادة خط التاريخ المتقدم حتى بالقوة النووية. في هذه المرحلة يظهر النظام الاشتراكي تأثيراً عارماً على مصائر الانسانية، وتفوقاً مادياً على الرأسمالية، وأبعاداً لشبح الحروب العالمية. إن تقوية الاشتراكي ستيسرُ تحطيم الاستعمار والعبور العالمي إلى الاشتراكية[٩].

نستنتج مما تقدم، أن نظرة العلماء في القرون الوسطى، والنظرة الانسانية قد خدمتا علم التأريخ بإقرار التطور التاريخي المتصاعد، وأن النظرة البرجوازية كانت الأقل انسجاماً مع نفسها. فبينما أقرت هي التقسيم التاريخي إلى قديم ووسيط، وحديث، فإننا لا نجد رأياً عاماً موحداً عن محتوى العصر الحديث، كما لا يوجد تقسيم التاريخ إلى حقب.

ونستنتج أيضاً، أن النظرية الجدلية في التحديد الزمني للعصور التاريخية هي الأكثر انسجاماً مع نفسها، لأنها أوجدت القوانين العامة لتطور المجتمع البشري منذ العصر البدائي إلى الزمن المعاصر. وتكمن أهمية هذه النظرية في تبنيها من قبل منظومة الدول الاشتراكية. فالنظرية الجدلية قسمت تاريخ المجتمع البشري منذ العصر البدائي إلى اليوم إلى تشكيلات اجتماعية ــ اقتصادية. وقسمت كل تشكيلة إلى حقب زمنية وأعطتها محتواها، مكتشفة روابط مشتركة بين العصرين البدائي والاشتراكي الحالي مع رؤية السمات الخاصة لكل منهما. كما رأت الروابط المشتركة بين أنظمة العبودية والاقطاعية والرأسمالية على أساس الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، واستغلال الانسان للانسان.

مفاهيم المؤرخين العرب في التحديد الزمني للعصور التاريخية

والمؤرخون العرب والاسلاميون المعاصرون نظروا نظرات مختلفة في تحديد مفهوم العصر الحديث، وقد أدى ذلك إلى اختلافهم في تحديد نقطة البداية أو مرحلة البدء بهذا التأريخ لتاريخ العرب الحديث. فهناك النظرة الاسلامية، ونظرة الاتصال بالحضارة الغربية، ونظرة تعتبر ثورة الشريف حسين (١٩١٦) بداية للتأريخ العربي الحديث[١٠]. وهناك نظرية إسلامية معاصرة

تتعدى العالم العربي إلى العالم الاسلامي الواسع[١١].

فالنظرة الاسلامية اعتبرت حركات الاصلاح الاسلامية بداية التأريخ العربي الحديث، تلك الحركات التي بدأت منذ أواسط القرن الثامن عشر، بدعوة محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣ ــ ١٧٩٢) في شبه الجزيرة العربية، إلى التوحيد الديني والسياسي[١٢]. وتتابعت الدعوة فكان من أبرز رجالها جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧)، الذي تزعم حركة الجامعة الاسلامية؛ وأديب اسحق نصيره المخلص (١٨٥٦ ــ ١٨٨٥)؛ ومنهم ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ــ ١٨٧١)، الذي عنى بشؤون اللغة العربية وبعثها؛ ومحمد عبده (١٨٤٩ ــ ١٩٠٥) وعبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ــ ١٩٠٢) والشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥) ورفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) رائد التنوير العربي.

ومن المؤرخين من نظر إلى الموضوع نظرة أخرى، فكان **اتصال العرب بالحضارة الغربية** بداية للتأريخ الحديث. فهؤلاء يقولون: ما دمنا نعمل للحاق بالغرب الذي سبقنا في تقدمه، فاتصالنا بالغرب يمثل نقطة البدء الحقيقية لتاريخنا العربي الحديث.

وجاء في الموسوعة السياسية[١٣]، أن العصر الحديث يرتبط بعصر النهضة العربية التي بدأت بحملة نابليون المصرية عام ١٧٨٩ وما رافقها من اتصال ثقافي بين الشرق والغرب.

ويؤيد المستشرق السوفياتي إ.ليفين هذا الرأي موضحاً اختلاف النهضة الحديثة العربية عن النهضة الأوروبية قائلاً: فعلى الرغم من أن أولى مراحل تطور العلاقات الاجتماعية الرأسمالية في أوروبا الغربية وفي بعض البلدان العربية على التوالي، فليس هناك أساس للمقارنة بينهما، إذ أنهما ظاهرتان مختلفتان من حيث الجوهر ومن حيث الشكل.

فإذا كانت النهضة الأوروبية تعكس في البداية أن وعي البرجوازية الوليدة بنفسها قد تنبّه كما تعكس عملية الثقافة البرجوازية، فإن الدافع إلى النهضة العربية خلافاً لذلك كان يكمن بادىء ذي بدء في تطلع الأوساط الاقطاعية الارستقراطية الحاكمة إلى صيانة مواقعها في صراعها مع أوروبا، كانت تبغي إحياء الحياة الثقافية بعد طول رقاد من الحكم التركي. وتشكلت النهضة العربية بوصفها ظاهرة عربية عامة، بحكم وحدة اللغة والتراث الثقافي أساساً[١٤].

وهناك نظرة اعتبرت ثورة الشريف حسين وأبنائه على الحكم العثماني عام ١٩١٦ بداية التاريخ العربي الحديث.

أما الدكتورة زاهية قدورة في كتابها «تاريخ العرب الحديث» الصادر عام ١٩٧٥ فإنها توافق على قسمة العصور إلى قديمة وحديثة ومعاصرة لكنها لا تأخذ بالنظرية الغربية التي تعتبر سقوط القسطنطينية أواسط القرن الخامس عشر بداية للتأريخ العربي الحديث، كما أنها لا تأخذ بالنظريات التي تتقيد بحادثة معينة، أو وجهة نظر واحدة تتخذ منها أساساً لتحديد بداية تاريخنا. وتعتبر د.قدورة فترة الاستيلاء العثماني على بلادنا العربية مرحلة «الركود والعزلة والتخلف». ولكنها تأخذ ببداية العصر الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر. وحيث أن اقطارنا العربية وقعت تحت الحكم العثماني بين عامي ١٥١٦ و ١٩١٨ وإن بتفاوت، وحيث أن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الحالي هما ضمن الفترة العثمانية فإني أرى عدم الانسجام في نظرة قدورة للتاريخ الحديث.

والدكتورة قدورة لم تضع نظرية شاملة عن العصور الزمنية. وربما وقعت تحت تأثير مفهوم «المركزية الأوروبية» القائلة أن بلادنا عرفت التأخر منذ القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر، وأنها أخذت تنهض بفضل أوروبا والغرب خصوصاً. ومع أن المؤرخة لا تشير إلى هذا الاستنتاج بصراحة، غير أن فترة «الركود والعزلة والتخلف» أثناء الحكم العثماني فيها شيء من النظرة الأوروبية إلى تاريخنا الحديث.

ولقد حضت المستشرقة السوفياتية، إيرينا ميخائيلوفنا سميليانسكيا نظرية «المركزية الأوروبية». إذ يظهر معظم الباحثين والمستشرقين وكأن التاريخ العربي توقف عن التطور الاقتصادي والاجتماعي ابتداء من القرن الخامس عشر وحتى أواخر النصف الأول من

القرن الماضي. وقالت د. سميليانسكيا: «لا بد من دحض وجهة النظر الأوروبية القائلة بأن المرحلة العثمانية الطويلة كانت كلها بمثابة انحطاط للسلطنة والولايات التابعة لها، ومنها الولايات العربية.. وليس صحيحاً القول، استناداً إلى الوثائق الأوروبية وحدها، أن تطور المدن والأرياف العربية كان بطيئاً للغاية أو يمر في مرحلة ركود وانحطاط منذ القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر: أي قرن السيطرة الاستعمارية الأوروبية على هذه المنطقة. لقد ربطوا تطور المشرق العربي أو النهضة العربية بالغزو الاستعماري لهذا المشرق، وذلك خطأ منهجي لا يجوز للباحثين العرب السقوط فيه. فقد كانت هنالك مؤشرات إيجابية جداً عن التطور الاقتصادي والاجتماعي لهذه المنطقة، وخاصة في القرن الثامن عشر، أي قبيل الغزو الاستعماري الأوروبي لها. وكان إنتاج الحرف، ونشاط التجار، والمردود الزراعي وغيرها تلبي احتياجات السكان وتصدر كميات هامة منها إلى الخارج وتمتاز بالجودة. وكانت الشرائح الارستقراطية في البلقان وروسيا وتركيا نفسها تفتخر باقتنائها. ومع دخول السلع الأجنبية وما رافقها من تهديم للحرف الداخلية وغزو للأسواق التجارية، ومع وقوف القوى المنفذة في المشرق العربي إلى جانب أصحاب الرساميل الخارجية وضد أصحاب الحرف الداخلية، وبسبب كثرة الحروب الفاشلة للسلطنة دون تخلي قادتها والقوى المحلية التابعة لها عن بذخهم وترفهم على حساب السكان المحليين، ومع التبدلات البنيوية في نمط الانتاج الأوروبي فمن الفيودالية إلى الرأسمالية.. هذه الأسباب وغيرها سدت الطريق على التطور الطبيعي للحرف المحلية وتراكم الرساميل فيها وتحويلها إلى صناعات كبيرة تتمتع بحماية وتشجيع القوى السياسية المسيطرة. فكانت نتيجة ذلك أن انهارت الحرف، وتشتت الحرفيون، وكثر النزوح والهجرة، وتبدل نمط الانتاج بشكل قسري مع ارتباط شديد بمراكز الرساميل الأجنبية. فهل تعتبر هذه السمات السلبية نهضة عربية؟ إنها مسألة منهجية مطروحة أمام الباحثين العرب»(١٥).

ولقد جاء هذا القول على لسان المستشرقة أثناء حوار لها مع الدكتور اللبناني مسعود ضاهر، ثم ترجم د. سهيل عامر مختصر كتابها بعنوان «البنية الاجتماعية والاقتصادية لبلدان الشرق الأوسط على مشارف العصر الحديث»، صادر من موسكو عام ١٩٧٩(١٦) والذي بنت المستشرقة على أساسه نظريتها هذه.

وهكذا، ثبتت الباحثة المستشرقة والمستعربة إ. سميليانسكيا خطأ وجهة النظر الغربية التي تقول بأن الاكتشافات الجغرافية العظمى في الغرب الحق الضرر الأكبر في التجارة الشرقية مما أدى إلى إنهاء الدور المزدهر للمدن الشرق — أوسطية.. وتبين الكاتبة بالاعتماد على الوثائق والأرقام والوقائع المتنوعة المصادر أن المدن السورية شهدت في العصر الحديث حركة ملحوظة في الترانزيت من جراء مرور الحرير الخام الايراني والقفقاسي. كما أن وتيرة حركة البضاعة الشرقية بين المدن الداخلية السورية البعيدة عن الساحل كانت تسير دون أزمات حادة والتبادل التجاري النشيط لم يتم على حساب تطور الانتاج المحلي. كما أن الترانزيت التجاري مع الخارج وبالذات مع الغرب لم يرسم حدود الامتداد الاقتصادي ولم يستطع تقليص دور المدينة السورية في القرن السابع عشر (١٧).

نستنتج أن أبحاث سميليانسكيا على المدينة الشرق — أوسطية ستحدث انقلاباً جذرياً في منهجية النظر ببداية ومحتوى وتطور الشرق الأدنى في العصر الحديث، وستوجه ضربة إلى الاستشراق الغربي، وستحفز باحثينا إلى النظر والبحث بعمق في تاريخنا القديم والوسيط والحديث — المعاصر.

النظرية الاسلامية المعاصرة لتقسيم الأعصر التاريخية

النظرية الاسلامية المعاصرة لتقسيم الأعصر التاريخية مثبتة في كتاب الدكتور اللبناني المؤرخ عمر فروخ، الصادر عام ١٩٨٠. فالمؤرخون المسلمون يودون إعادة النظر في التاريخ، في تعليله وتدوينه، كما يظهر من عنوان الكتاب «تجديد التاريخ»(١٨).

و «تجديد التاريخ» ينطلق من عدة أسس منها «تقسيم الأعصر التاريخية تقسيماً جديداً ينطبق

الموكب ثم ارسل يدك اليمنى بالدرقه



ب بها في وجه الموكب ثم اعقد بها عقده مليحه واعدها
سك الايمن وعينك الى الموكب ودر على حالك حتى تنتهي الى
شره فاضرب بيدك اليمنى على قايم السيف الذي كان في
جرده من موضع الجهاز عقده من فوق راسك ابوصه ورد
ن فرسك شمالا وغطي وجهك بالدرقه وانظر من تحتها الى
كب فبقى السيف معارضا نحو يمينك وذبابة السيف

□ فارس مملوكي بسيفين وترسين. لقد اشتهر المماليك باهتمامهم بالأمور العسكرية.

على تاريخ الحضارة الصحيحة، وفيما يتعلق بتاريخ الاسلام خاصة»، وتخلية تاريخ الاسلام من الاسرائيليات؛ وتعريب الاعلام بنقلها من اللفظ الأجنبي.. وإثباتها بلفظ أهلها..

تأخذ هذه النظرية بقسمة العصور التاريخية الكبرى إلى ثلاثة: قديمة ومتوسطة وحديثة. لكن حدود ومحتوى هذه العصور تتفق حيناً وتفترق أحياناً عن النظريات الأوروبية البرجوازية. فالغربيون كما بينا سابقاً تنتهي العصور القديمة عندهم بسقوط رومية الغربية عام ٤٧٦م بيد القوط ــ البرابرة. وتبدأ هنا القرون الوسطى لتنتهي بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، ثم تليها العصور الحديثة.

فحسب النظرية الاسلامية تمتد العصور القديمة منذ أقدم الأزمنة وتنتهي عند الهجرة النبوية أو عام ٦٢٢م. والعصور الوسطى تبدأ بالهجرة وتنتهي بفتح القسطنطينية لتبدأ العصور الحديثة، التي يقسمها إلى ثلاث حقب:

«أ ــ العهد الاستعماري على الحصر، من فتح القسطنطينة إلى حملة بونابرتة على مصر وبر الشام سنة ١٧٩٩م».

«ب ــ العهد الاستعماري، من حملة بونابرتة إلى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)».

«ج ــ العهد المعاصر، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية».

ويستخدم هذا التأريخ التقويم الهجري للفصل بين الأزمنة المختلفة، وإلى جانبه التقويم الميلادي ــ المسيحي.

والمفهوم الاسلامي هذا لا يشير إلى أي مضمون اقتصادي ــ اجتماعي، بل يطل بمفهوم الحضارات. وخاصة على الأساس الديني في القرون الوسطى المسيحي ــ الاسلامي. كما يطابق هذا المفهوم بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، لكي يبرز إلى العالم نظاماً جديداً اسلامياً.

كما تزعم هذه النظرية أن العصور الوسطى هي ملك للعرب وليس لأوروبا أي فضل عليها، كما أنه لا يجوز أن ننسب العصر الحاضر إلى الأمة العربية ولا أن نسميه بأي صفة من صفات العرب اليوم (ص ١٩).

إذن، المؤلف لا يرى أية وحدة في تاريخ العالم بل حضارات سامية أو أمم بلا حضارة «أوروبا في العصور الوسطى». من هنا يمكن القول أن المؤلف ومن يجاريه في هذه النظرية متأثرون بعلم الاجتماع البرجوازي الذي ينفي عملية التطور، وينفي ربط المدنيات المختلفة. ولا شك بأن نظرية المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي ١٨٨٩ ــ ١٩٧٥ «عن الحلقات الثقافية» التاريخية، قد أثرت على النظرية الاسلامية المعاصرة. إن تاريخ المجتمع، كما يرى توينبي لا يمكن دراسته كعملية موحدة فيها عنصرا الرابطة والاستمرار. ويعتبر «توينبي» أن ثمة مدنيات مختلفة في التاريخ، كل منها منطوية على نفسها، ولا تنتقل إلى الأخرى. وشبّه المدنيات بغابة من النخيل، كل شجرة نخل قائمة بذاتها من الناحية البيولوجية إذ لا تحتاج إلى تلقيح كبقية الأشجار. وقد ربط «توينبي» في معالجته لمشكلة القوى المحركة للتاريخ الايمان ــ كما جاء في الموسوعة الفلسفية ــ بـ «كشف الهي» باعتباره معنى التاريخ وأمل في «الاتحاد بالله» بعبادة الأفراد أو «الأفراد الخلاقين» أو «الأقليات الخلاقة»[19].

لقد تأثر «توينبي» بالفيلسوف الألماني شبنفلر، أوزفالد (Spengler Oswald) (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) الذي ينكر فكرة التقدم التاريخي، ويرى التاريخ «حضارات» مستقلة فريدة، تكوينات عضوية فائقة لكل منها مصيرها الفردي وتمر بفترات النشوء والازدهار والموت[20].

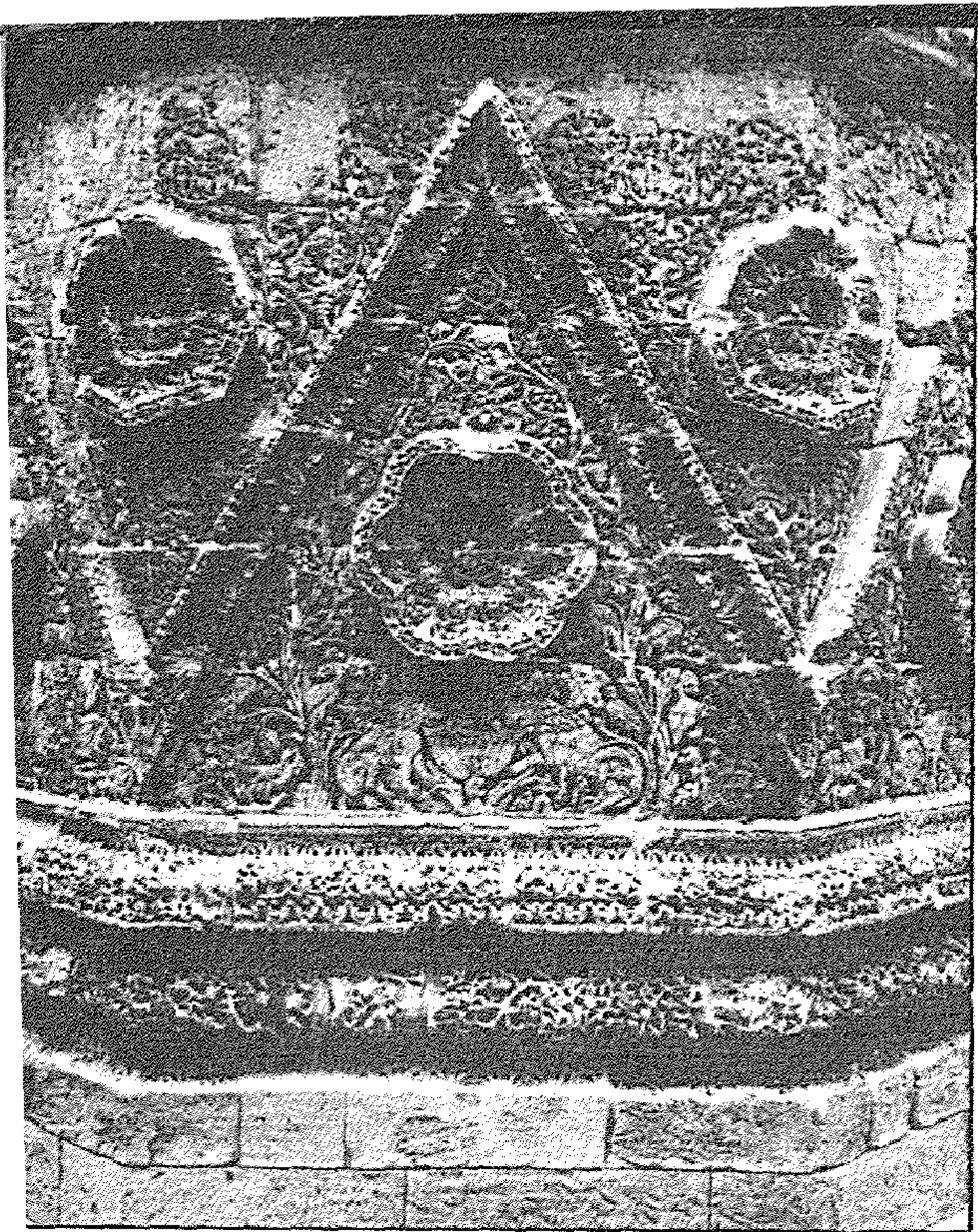
إن فكرة «الخلاء الحضاري» التي تروجها النظرية الاسلامية ليست بعيدة عن فكرة «المركزية الأوروبية» التي شرحناها سابقاً. ومفادها أن العرب في العصر الحديث والزمن المعاصر توقفوا عن التقدم والتطور؛ وعليهم أن يلحقوا بالغرب كي يتطوروا، كما لحق الغرب بحضارة العرب في القرون الوسطى.

وهكذا، نستنتج من كل ما تقدم عن النظريات المختلفة في تقسيم الأزمنة التاريخية، وتحديد نقطة البداية ومحتوى العصور التاريخية، إن النظرية الجدلية المادية هي أقوى تلك النظريات وأكثرها انسجاماً مع نفسها، وأقربها إلى الواقع والعلم الموضوعي.

وبعد كل الذي وضعناه عن النظريات المختلفة وبعد أن ندحض أن تكون حادثة واحدة معينة كبداية لتأريخ التاريخ العربي الحديث، مثل غزوة نابليون، أو قيام ثورة الشريف حسين عام ١٩١٦ لأن التأريخ يجب أن يأخذ العملية التاريخية بمجملها، والتي تنقله من مرحلة إلى مرحلة أخرى هي بالطبع أعلى من سابقتها، متقدمة عليها. إن التأريخ العربي الحديث عندما يدرس العملية التاريخية المشخّصة (المعينة والملموسة) يسعى إلى اكتشاف القوانين العامة التي تعمل في تاريخ المجتمع البشري. إنه يكشف عنها في ارتباطها العضوي الوثيق مع الحقائق المشخصة لأعمال الأفراد والطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية المعينة في زمن ما ومكان ما.

إذن، يمكن القول مع د. قدورة، «ان التاريخ مجموع حركات ومنجزات وسجل لمختلف الجوانب الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية»[٢١] بالدرجة الأولى. ولا شك، بأن النهضة العربية يجب أن نبحث عنها في أسلوب الانتاج، أي في تفكك العلاقات الاقطاعية وبناء العلاقات الرأسمالية. هذه العملية بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين، ثم أخذت تنتقل إلى العالم العربي الواسع. وكان للتفاعلات الداخلية والخارجية أثر في هذا النهوض أو محاولة كبحه مع الغزو الاستعماري على شكل بضاعة أولاً ثم رساميل ثانياً. فإحياء اللغة العربية والثقافة العربية والاصلاح الديني الاسلامي، والاحتكاك بأوروبا واستعمار بلادنا وقيام حركات التحرر الوطني. وهناك فرق كبير بين القومية الأوروبية الساعية إلى الوحدة السياسية، وبين قوميتنا العربية التي كانت تبحث عن التخلص من الاستعمار، وما زالت تصبو إلى الوحدة القومية حتى اليوم.

بالنسبة لبداية التأريخ المعاصر، يكاد يجمع المؤرخون في العالم، وفي العالم العربي على بدايته منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. مع اختلاف في تفسير محتواه بين المنظرين البرجوازيين والمنظرين الاشتراكيين العلميين، وأصحاب النظرية الاسلامية التي تأخذ ببداية التأريخ المعاصر بنهاية الحرب العالمية الثانية.



□ واجهة قصر المشتى في الأردن. أحد أشهر نماذج النقوش الاسلامية الأولى.

أما بالنسبة لما يجب اعتباره بداية التأريخ الحديث لتاريخ العرب، فإن د. قدورة تعتبر بداية القرن التاسع عشر بداية له «وحسب أن يكون فترة التغيير الممهدة إلى النهضة الكبرى. إنه هو الفترة التي انتهت في زمننا هذا إلى بعث الأمل في نهضة الأمة العربية وتحررها وقيامها بواجبها الأكمل في بناء الحضارة الانسانية ومن هنا نعتبر بهذا التاريخ لأننا عشنا فترة من أصعب فتراته وأحفلها بالأحداث سواء ما كان منها نصراً أو انتكاساً»[٢٢].

والواقع أن تاريخ العرب الحديث هو أساساً تاريخ تشكيل علاقات اجتماعية جديدة، وحركات قومية تحررية[٢٣].

إن مراحل التأريخ الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى تتميز بالفترات التالية:

أولاً: النصف الأول للقرن التاسع عشر، وهي فترة انحطاط الامبراطورية العثمانية واستقلال مصر عنها، وبداية النهضة الثقافية العربية.

ثانياً: من خمسينات القرن التاسع عشر إلى سبعيناته وفيها تنشط العلاقات السلعية النقدية

تحت تأثير تغلغل الرأسمال الأجنبي والبضاعة الأجنبية. وتظهر عوامل تفكك الاقطاعية والانتقال البطيء إلى الرأسمالية وتظهر طبقات اجتماعية جديدة، وتظهر حركة تنويرية ـ ثقافية في لبنان وسوريا.

ثالثاً: من سبعينات القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، وفيها يزداد تغلغل الرأسمال الأجنبي، والتدخل السياسي، وتصبح الامبراطورية العثمانية وولاياتها العربية أشباه مستعمرات، وتشتد الحركة القومية وتتشكل الأيديولوجية البرجوازية المعبرة عن الحركة القومية، وتظهر أفكار الاصلاح الاسلامي، والجامعة الاسلامية (شمال أفريقيا)، والنزعة القومية العربية (آسيا العربية) ودعوات الاقليمية (مصر).

رابعاً: تتميز فترة العقدين الأولين للقرن العشرين بالحرب العالمية الأولى وبالتطور السياسي، والوعي الاجتماعي البرجوازي، وبالثورة العربية الأولى. والوعي السياسي برز على شكل التنظيمات والأحزاب والجمعيات وتكوين أول دولة عربية معاصرة (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) في دمشق.

وما يميز تطور العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية أو التحول من الاقطاعية إلى الرأسمالية، بشكل غير كامل وغير نهائي فتعايش العلاقات الاقطاعية ـ الرأسمالية جنباً إلى جنب.

كما تميزت فترة التاريخ الحديث بالنسبة إلى لبنان بقيام حركات فلاحية زعزعت أساس النظام الاقطاعي في القرن التاسع عشر. كما أن الاصلاحات العثمانية بين عامي ١٨٣٩ و ١٨٥٦ ساعدت على خلق أفكار وعلاقات جديدة في الملكية العقارية. حيث حازت هذه الملكية الخاصة على شكلها الحقوقي الرسمي.

ولا شك بأن نظام الامتيازات الأجنبية قد أضعف أولوية المسلمين على سكان الامبراطورية العثمانية المسيحيين. فعززت العلاقات التجارية بين بلدان الشرق الأدنى وأوروبا مركز المسيحيين (الأرمن واليونان ومسيحي لبنان وسوريا) الذين تمتعوا بحماية قنصلية أجنبية.

وكانت الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر، ونجاحها في الاستيلاء على مكة والمدينة قد أضعفت هيبة السلطان التركي، ووضعت العنصر العربي في مواجهة العنصر التركي. فالوهابية هي أول محاولة في العصر الحديث، لبعث الحياة الاجتماعية العربية. وبرأي البعض فإن الدولة الوهابية دعت لا إلى تضامن عربي، بل إلى تضامن إسلامي[٢٤]. ●

الهوامش

(١) القرون الوسطى هي عصر نشوء وتشكل واستقرار ثم موت التشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية الاقطاعية. القرون الوسطى مصطلح عليها في أوروبا الغربية على الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والخامس عشر الميلادي. وبصدد بحثه عن «أثر الحضارة الاسلامية في قيام النهضةالأوروبية» كتب الدكتور عبدالعزيز محمد الشناوي، في كتابه بعنوان: «**تاريخ أوروبا في مطلع العصور الحديثة**» الصادر عام ١٩٦٩ ما يلي: «يطلق اسم العصور المظلمة في التاريخ الأوروبي على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس الميلادي وقيام «النهضة الوسيطة» في أواخر القرن الحادي عشر. وقد رانت على أوروبا خلال هذه القرون سحابة كثيفة الظلام من التخلف الحضاري: توارت معالم الحضارة الرومانية تدريجيا من إيطاليا وفرنسا واسبانيا وانكلترا.. واضمحلت المدن الزاهرة وأغلقت المدارس وانتشرت الجهالة.. وقد ساعد على انتشار الجهل والانحطاط العلمي أن الجرمان الذين أقاموا لهم ممالك في غرب أوروبا على أنقاض الدولة الرومانية كانوا يظهرون نفورا شديدا من التعليم، كما أن البابوات كانوا لا يشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية..» ويبين المؤلف أثر الحضارة الاسلامية التي أخذت تزحف إلى أوروبا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق الترجمة والدراسة والاقتباس وما ترتب عنها من «قيام وثبة حضارية ازدهرت في القرن الثاني عشر وأطلق عليها اسم «النهضة الوسيطة» كانت هي في حد ذاتها ثمرة من ثمرات الاتصال الحضاري بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الاسلامية. وقد أدت هذه النهضة الوسيطة إلى تمهيد طريق الرقي وتحرير العقل الأوروبي من القيود الثقيلة التي فرضتها عليه الهيئات والأنظمة المختلفة، وأصبحت النفوس مهيأة لقبول الانقلاب العظيم الذي حدث بعد قرن وبعض قرن أي في بداية القرن الرابع عشر حوالي سنة ١٣٠٠ ونعني بهذا الانقلاب النهضة الأوروبية الحديثة».

إذن، حسب كتابة د. الشناوي ينقسم تاريخ القرون الوسطى في أوروبا إلى ثلاث حقب. الأولى، وتسمى العصور المظلمة من أواخر القرن الخامس الميلادي إلى أواخر القرن الحادي عشر، حيث تبدأ الحقبة الثانية وتسمى «النهضة الوسيطة»،

وتبدأ في بداية القرن الرابع عشر «النهضة الأوروبية الحديثة».
انظر: دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي «**أوروبا في مطلع العصور الحديثة**، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص ٢ و ٣ و ٤.
وفي أوروبا الشرقية وعند كل الآخذين بالنظرية المادية التاريخية، فإن القرون الوسطى مقسومة لديهم إلى ثلاث مراحل كبرى، وهي:
أولاً ــ القرون الوسطى البدائية، من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر الميلادي؛
ثانياً ــ القرون الوسطى المزدهرة، وتمتد من منتصف القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر؛
ثالثاً ــ القرون الوسطى المتأخرة، وتشمل القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر.
انظر: فيكتور فدوروفيتش سميونوف (Victor Fedorovich Simionov) «**تاريخ القرون الوسطى**»، دار «المعارف» موسكو، ١٩٧٠، ص ٦ ــ ٧ (روسي).

(٢) المذهب الانساني: (Humanisme) هو نسق من الأفكار المبنية على احترام كرامة الانسان والاهتمام برفاهيته وتطوره الشامل وخلق الظروف الملائمة للحياة الاجتماعية. المذهب الانساني أصبح إيديولوجية في عصر النهضة (ق ١٤ ــ ١٦). وهو مذهب تقدمي يعلن حرية الفرد الانساني ويعارض القهر البدني والديني، ويدافع عن حق الانسان في التمتع وإشباع الرغبات الدنيوية. من أتباع المذهب الانساني: بترارك، دانتي، بوكاشيو، ليونارد دي فنشي، رابليه، مونتيني، كوبرنيك، شكسبير وفرنسيس بيكون. وهؤلاء مثلوا نخبة متعالية من الجماهير الشعبية. أما توماس مور وكامبنيلا فقد عبرا عن مصالح الشعب. بلغ المذهب ذروته برفع شعارات الحرية والمساواة والاخاء في القرن الثامن عشر، وهو مذهب لا ينتبه إلى مصالح الشعب. وبنى مثله العليا على حيازة الملكية الشخصية والنزعة الفردية.
المصدر: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠، الطبعة الثانية.
(٣) د. عبدالوهاب الكيالي، كامل زهيري: الموسوعة السياسية، مطبعة المتوسط، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣.
(٤) التاريخ الحديث، القسم الأول ١٦٤٠ ــ ١٧٨٠، الطبعة الثانية، إصدار دار «المعارف»، موسكو، ١٩٧٢، ص ٧ (روسي).
(٥) المصدر السابق، ص ٧ ــ ٨.
(٦) من أراد الاستزادة عن المانفكتورة: كارل ماركس: «رأس المال»، القسم الأول ترجمة محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٣٥ ــ ٦٨٥، المجلد الثاني.
(٧) حول التراكم الأولي انظر: كارل ماركس، «رأس المال»، الفصل السادس والعشرون، المجلد الثالث، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨، ص ١٠٥٠ ــ ١٠٥٦. وعن نزع ملكية السكان الريفيين: نفس المرجع الفصول التالية.
(٨) التاريخ المعاصر، مجموعة من المؤلفين، وزارة التربية، موسكو ١٩٦٢، ص ٣ ــ ٨ (روسي).
(٩) المصدر السابق، ص ٨.
(١٠) د. زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥، المقدمة.
(١١) د. عمر فروخ: تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه، دار الباحث، بيروت ١٩٨٠، ص ١٦ ــ ٢٣.
(١٢) انظر محاضرة بعنوان: المملكة العربية السعودية، للدكتور مروان عبدو. الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الرابع (فيما يختص بالوهابية وتقييم البحاثة لتلك الحركة).
(١٣) د. عبدالوهاب الكيالي، كامل زهيري: **الموسوعة السياسية**، مطبعة المتوسط، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣.
(١٤) ز. ل. ليفين: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر**، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٨.
(١٥) حوار علمي مفتوح مع الباحثة السوفياتية الدكتورة إيرينا ميخالفنا سميليانسكايا في قضايا تاريخ لبنان والمنطقة. حاورها الدكتور مسعود ضاهر. مجلة «الطريق» البيروتية، العدد الرابع، آب ١٩٨٤، ص ١٤٧ ــ ١٧٦؛ والمقتطف الذي أوردناه هنا هو من الصفحة ١٧٤.
(١٦) انظر: مجلة «الطريق» البيروتية، العدد الخامس، تشرين الثاني، ١٩٨٤، ص ١٢٤ ــ ١٣٢، كتاب المستشرقة هو باللغة الروسية.
(١٧) المرجع السابق، ص ١٢٧ ــ ١٢٨.
(١٨) مرجع مذكور، ص ١٤ ــ ١٥.
(١٩) الموسوعة الفلسفية بإشراف روزنتال، ب. يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ١٥٠ ــ ١٥١.
(٢٠) الموسوعة الفلسفية، المصدر السابق، ص ٢٥٧.
(٢١) د. زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، مذكور، ص ١.
(٢٢) د. زاهية قدورة، المصدر السابق، ص ٢.
(٢٣) استعنا على تقسيم ومحتوى هذه المراحل بكتاب «الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث...»، لـ ز. ل. ليفين، مذكور.
(٢٤) البرت حوراني: «الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ــ ١٩٣٩»، دار النهار، بيروت ١٩٧٧، طبعة ثالثة.

الزراعة وصنائعها في طرابلس (١٨٨٠ ـ ١٩١٤)

■ شذا عدرة

الزراعة، هي ذات علاقة شديدة بالإنسان ومن أهم العناصر المعيشية المتعلقة بالحياة الإنسانية، بل هي نقطة الالتقاء بين الطبيعة والقوى البشرية، وبقدر ما يقوى ويتطور هذا الالتقاء، بقدر ما تكون نتائجه إيجابية تنعكس غنى ورفاهية على الحياة الإنسانية.

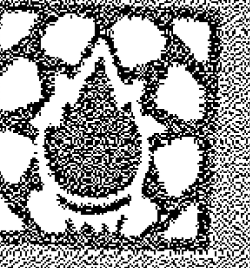
والتزاوج بين الزراعة والصناعة، ليس إلّا صورة متطورة من صور ذلك الالتقاء الطبيعي ـ البشري. وقد شهدت طرابلس والمدن اللبنانية أيضاً، منذ القدم، نماذج ناجحة من هذا التزاوج الزراعي ـ الصناعي، فكان ما سمي «بالصنائع الزراعية»[١].

إن دراسة تتناول أية ناحية من نواحي تاريخ طرابلس الحضاري، تتطلب جهداً معيناً، ليس لقلة المعلومات أو عدم وفرتها، بل لتبعثرها بين طيات الكثير من الكتب والمقالات والمؤلفات القديمة والحديثة، وانتقاء المطلوب والجيد منها هو الذي تكمن فيه تلك الصعوبة، خاصة وأن طرابلس قد لعبت على مر العصور دوراً مهماً في مختلف المجالات الحضارية. والدور الاقتصادي، خاصة بفرعيه الزراعي والصناعي، هو أحد تلك الأدوار المهمة التي قامت بها طرابلس عبر العصور[٢].

وقد كان لي أن أختار حقبة من تاريخ طرابلس الحضاري، والاقتصادي بشكل خاص، فاخترت أواخر القرن التاسع عشر ـ أوائل القرن العشرين وبالتحديد من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٩١٤م، وذلك لما شهدته المناطق اللبنانية وجميع المناطق الخاضعة للامبراطورية العثمانية بشكل عام، من تغيرات على جميع الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية[٣]. وبالتالي فإن الفترة الممتدة من ١٨٨٠ إلى ١٩١٤، ليست إلا الجزء الأخير من الحقبة المهمة الممتدة من عام ١٨٣٥ إلى ١٩١٤ التي تشكل القاعدة الأساسية لمرحلة لبنان الانتقالية من المجتمع الاقطاعي التقليدي إلى مجتمع لبنان الحديث[٤].

كانت طرابلس في تلك الحقبة من الزمن خارج نظام جبل لبنان، وتؤلف سنجق أو لواء تابعاً لولاية سورية. وكان قضاء عكار ومديريات المنية والضنية يتبعون سنجق طرابلس[٥]. وفي سنة ١٨٨٨، جعلت بيروت مركز ولاية والحق بها عدا أقضيتها الثلاثة ـ صيدا وصور ومرجعيون ـ طرابلس واللاذقية وعكا ونابلس. واستمرت على هذه الحالة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م[٦].

الزراعة وأحوالها في لبنان عامة



يعتبر لبنان بشكل عام من البلدان الزراعية التي تلعب الزراعة دوراً أساسياً في اقتصاده الوطني. وقد ساهمت الزراعة منذ القدم في إعالة الغالبية الساحقة من سكانه، فهم قد عرفوها واتقنوا فنونها خاصة فيما يتعلق بزراعة التوت والزيتون والكرم والصنوبر وبعض الفواكه والحبوب. وقد كان لهم خبرة في مواقيت الزرع وأوان الحصاد وقطف الثمار وإحراق الحطب فحماً وزرع الدخان وتحضيره[٧]. وقد ساعد خصب التربة والأنهار التي تتفجر في لبنان وتسقي منعطفاته وهضابه وسهوله وتوزع الخصب في كل أنحائه، بالإضافة إلى الأحوال المناخية الجيدة، كل ذلك جعله بلداً زراعياً بالدرجة الأولى. «فالرطوبة والجفاف مبذولان في هذه البلاد، وهما شرطان مهمان في الحياة الزراعية. ولا ينقص هذه البلاد شيء من نظام الاقليم واطراد سيره وانتظام التعاقب في المواسم والفصول. وكثرة الأمطار، حتى أن بدائع الحياة الأرضية ونضرتها المباركة تظهر في كل ناحية من أرجاء هذه البلاد ما عدا الجبال القاحلة والعقيمة في جبل لبنان وترى الطبيعة ضاحكة باسمة في وجه إنسان»[٨]، إلا ان البحث عن زراعة لبنان من الوجهة العلمية في تلك الحقبة، لأمر ميؤوس منه، لأن «زراعة

□ نهر أبو علي الذي ما زال يغذي بساتين طرابلس بمياهه

سورية(*) قد تقهقرت وبلغت إلى حد من الانحطاط يرثى له.. والعلّة الكبرى لهذا التقهقر إنما هي التواني الذي مدّ رواقه على أهل وطننا. وبينما نرى الزراعة تنمو راقية معارج الفلاح في جميع البلاد لا يكاد مواطنونا يبدون حراكاً لتحسين التربة واتخاذ الوسائل العديدة التي بلغت الحراثة في أنحاء المعمورة أوج كمالها فاستغلّ من سوانا الغلّات الوافرة من أراضيهم ونحن لم نحصل من تربة أرضنا إلّا الزهيد»(٩).

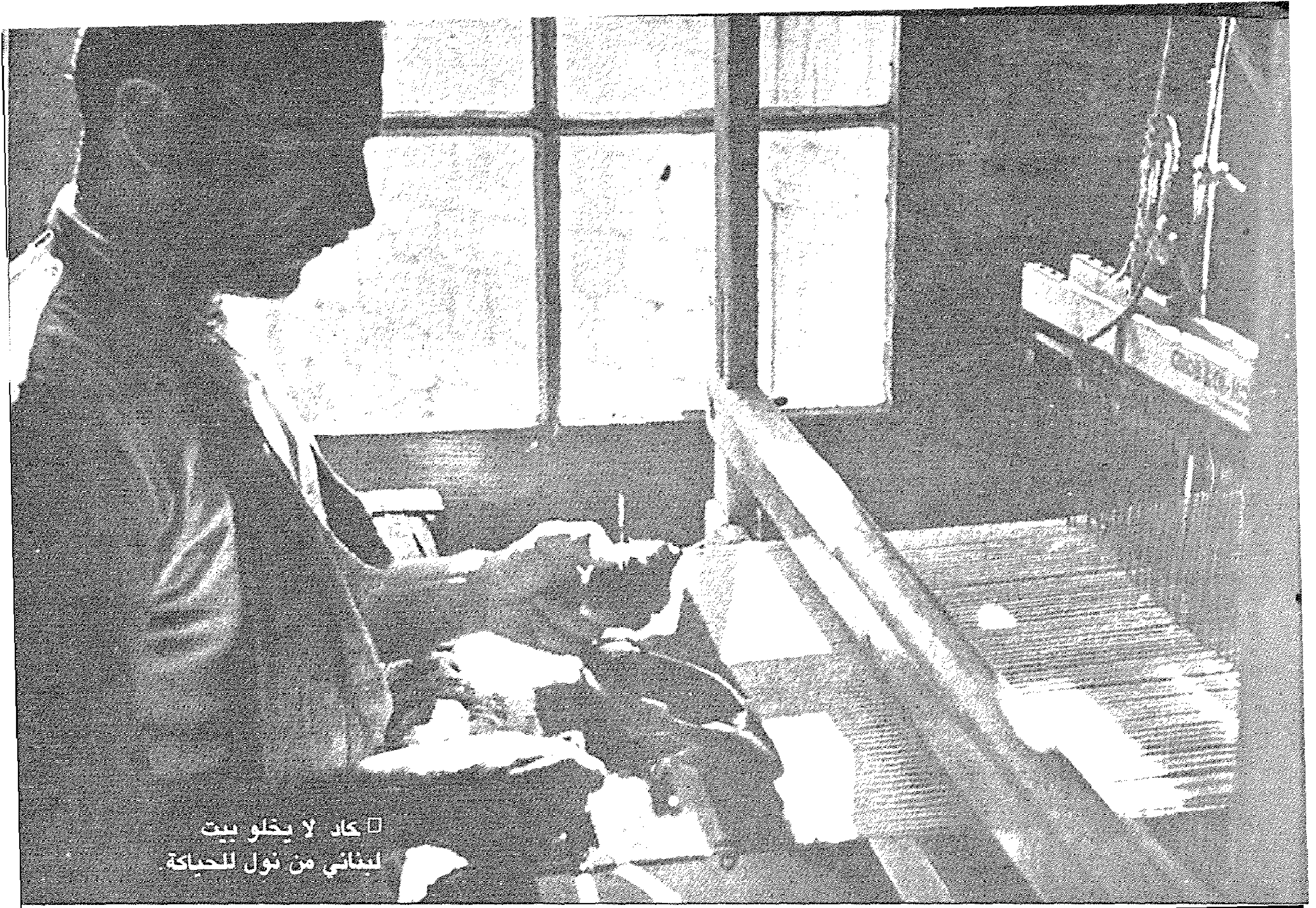
كما أن «الآلات التي تعمل في تربة هذه البلاد لا تزال ابتدائية وعلى غاية في البساطة المطلقة. ولا تزال الفائدة التي تستحصل من الزراعة محدودة جداً. ولا ينتظر استحصال المواسم والأرباح العظيمة التي تأتي بها أصول الزراعة المتناوبة أو المتكاثفة أو العناصر المنبتة الكيماوية منها أو المعدنية. ولكن يجب علينا أن ننظر بعين الدقة والاعتبار إلى تأثير الحاجيات الاقتصادية في الزراعة السورية. ولا ينكر أن سواحل الولاية البيروتية الممتدة على البحر الأبيض جامعة لقسم كبير من حاجيات الزراعة الاقتصادية مثل الطرق المعبدة وخطوطها الحديدية ووسائطها النقلية في البحر. ولا يخفى على أحد أن الزراعة تأتي بأرباح وفوائد كثيرة إذا توفرت لها مثل هذه الأسباب»(١٠).

وهكذا نستنتج أن الزراعة ــ وهي العمل الاقتصادي الرئيسي الذي كانت تعتمد عليه البلاد في تلك الآونة ــ كانت على مستوى بدائي وضيق، أي أنها لم تكن عملاً اقتصادياً تجارياً واسعاً بالمعنى المفهوم حالياً، والفائدة التي كانت تستحصل من الزراعة محدودة جداً. صحيح أن المساحات الصالحة للزراعة كانت شاسعة، إلّا أن طرق الاستفادة منها كانت عقيمة. لذلك كان مردود تلك الأراضي من المحاصيل الزراعية قليلة، بحيث لا تسمح لها بالانتقال الفعّال والناجح إلى دور الصنائع الزراعية، وهو الدور الذي يستوجب الترقّي في استخدام الفنون والوسائل العلمية الزراعية.

ولكن على الرغم من ذلك، لا نستطيع إلّا أن نستثني بعض الصنائع الزراعية، كالحرير، الصابون، التبغ، الكرمة وحتى قصب السكر. وقد أصابت جميعها بعض النجاح بفضل المزارع اللبناني. وعلى سبيل المثال، كاد لا يخلو بيتاً قروياً من بيوت أولئك المزارعين من نول يدوي لحياكة الأقمشة(١١). ففي عام ١٩٠٩م كانت عدد الأنوال في سورية حوالي (٢٠٠٠٠) نول، كان عدد الحرفيين قبل الحرب العالمية الأولى حوالي (١١٠٠٠٠) حرفي، منهم (١٠٠٠٠) حرفي في لبنان فقط(١٢). وعلى الرغم من أن تلك الصنائع الزراعية قد فقدت في وقتنا الحاضر الكثير من بريقها، إلّا أنها قد أصبحت تؤلف جزءاً مهماً من تراث لبنان الشعبي.

إن أردنا التكلم عن أهم محاصيل لبنان الزراعية في تلك الحقبة ١٨٨٠ ــ ١٩١٤، فهي تشمل الحبوب كالحنطة، الشعير، الذرة البيضاء والصفراء، والقطاني كالعدس، الحمص، الفول، اللوبياء والبقول والخضر والزراعات الصناعية وغيرها من النباتات(١٣).

والأشجار المثمرة كالتين والليمون والتفاح والإجاص والمشمش والخوخ والقراصيا والدرّاق والكرز والسفرجل والايكي دنيا والرمان. ويزرعون أيضاً، العنّاب والزعرور واللوز والجوز والتوت والفستق والبندق والنخيل والقشطة، تلك الشجرة التي قدم عنها الأديب سليم أصفر في مجلة «المشرق» دراسة، دعا من خلالها المزارعين في بلاد الشام إلى الاعتناء بزراعتها وتحسين غرسها لزيادة محصولها، وذلك للربح الذي قد تدرّه على أصحابها(١٤). وهذا يدل على أنه كان هناك وعياً وإدراكاً في مجتمع ذلك العصر، لمدى أهمية الزراعة والدور المفيد والإيجابي الذي قد تلعبه على صعيد الاقتصاد الوطني. ولكن يبدو أن هذا الوعي والإدراك قد اقتصر على الأفراد ولم يتعدّ إلى الصعيد الرسمي، أي إلى السلطات العثمانية، التي لم تعر هذه المسائل طيلة فترة حكمها الطويل اهتماماً جدّياً حتى أوائل القرن العشرين عام ١٩٠٩، حيث خصصت في الميزانية العمومية تخصيصات لمدير الزراعة ولمعلمي الزراعة في حيفا وعكا وطرابلس واللاذقية وبيروت. وأنشأت في بيروت عام ١٩١٠ داراً للحرير يصرف عليها من الميزانية العمومية(١٥). هذا إلى جانب ظهور مؤسسات للتسليف العقاري في السلطنة العثمانية منذ أواسط القرن التاسع عشر، ففي عام ١٨٦٨ ظهرت شركة تسليف


☐ كاد لا يخلو بيت لبناني من نول للحياكة.

عقاري في الأستانة تسمى «صندوق النفع العام» وتهدف إلى إقراض المزارعين بفوائد مدروسة. واستمرت هذه الشركة حتى عام ١٨٩٨ عندما أبدل اسمها إلى «البنك الزراعي العثماني» ومقره في الأستانة أيضاً[١٦].

إن هذا المسح التقريبي الذي أجريناه على أحوال الزراعة وصنائعها في لبنان بشكل عام، لا يمكن أن نستثني منه طرابلس أو أي بقعة من بقاعه. وذلك لأن الموقع الجغرافي هو واحد والمناخ وخصائص التربة تقريباً واحدة، هذا إلى جانب أن صغر مساحته لا تسمح بفرزه إلى مقاطعات زراعية تختلف عن بعضها البعض بشكل جوهري. لذلك عندما نتناول طرابلس بالحديث، فإنما نتناول منطقة من مناطق لبنان الساحلية.

الزراعة وأحوالها في طرابلس

«طرابلس الشام، مدينة تجارية تقع على البحر وتؤلف القسم الشمالي الغربي من لبنان. تشتهر بزراعة الحمضيات، القطن، الفواكه، والدخان وصيد الاسفنج وتكرير النفط»[١٧].

هذا أحدث ما جاء من وصف مقتضب لمدينة طرابلس في معجم وبستر الجغرافي. أمّا ما ذكر عن أهميتها قديماً، فقد جاء على ألسنة المؤرخين والرحالة العرب والأجانب، الذين أكثروا من الحديث عن جمال عمرانها وكثرة غلالها الزراعية وجودتها في البلاد.

فابن حوقل، رحّالة القرن العاشر، قد أعجب غاية الاعجاب بخصب تربة طرابلس التي تعود إلى نهر أبي علي، كما أعجب برخص أثمان سلعها المنتجة[١٨]. وهذا يعني أن السلع كانت كثيرة، وبالتالي يكون ذلك مؤشراً على أن الحالة الاقتصادية كانت مزدهرة آنذاك في طرابلس.

أمّا الدمشقي، الجغرافي، السوري المتوفى عام ١٣٢٧م، فيذكر أن بساتين طرابلس التي يسقيها نهر أبو علي، لا مثيل لها في العالم. ويذكر بصورة خاصة قصب السكر وأشجار الحمضيات[١٩].

ويقول ابن بطوطة، «ثم وصلت إلى مدينة طرابلس وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار وتحفها البساتين



□ الزنار الطرابلسي

ويكتنفها البحر بمرافقه العَميمة والبر بخيراته الثمينة ولها الأسواق العجيبة...»[٢٠].

أمّا أهم صناعات طرابلس في تلك الفترة، فيخبرنا عنها المقريزي، الذي يذكر أن طرابلس في أواخر الحروب الصليبية، أي أواخر القرن الثالث عشر، كانت تفاخر بأن في المدينة أربعة آلاف نول[٢١]. بينما يذكر الرحالة جون بولونر، الذي زار طرابلس عام ١٤٢٢، أن في المدينة ألفاً ومئتي (١٢٠٠) حائك يصنعون الأنسجة الحريرية والمخملية[٢٢].

هذا إلى جانب أنها كانت ودمشق المدينتين اللتين بقيتا تمونان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك، رقائق أو ناعم بشكل دقيق أو بشكل حلوى. أما الزيت والصابون فقد كانت طرابلس وبيروت تصدرانه إلى مصر[٢٣].

نستنتج من جميع تلك الأقوال، أن طرابلس قد شهدت في تلك الآونة ازدهاراً اقتصادياً كبيراً ارتكز في الدرجة الأولى على زراعتها وصنائعها الزراعية، اللذين بقيا عبر العصور يشكلان القاعدة الأساسية لاقتصاد طرابلس. ففي بداية العصور الحديثة وتحت حكم الأتراك العثمانيين، كانت أهم الغلال الزراعية والمصنوعات المصدرة من لبنان عامة، الحرير والزيت والصابون والزبيب والصوف والبضائع القطنية. وكان الحرير اللبناني يعتبر من أجود وأثمن أنواع الحرير، وكان الطلب على حرير طرابلس الناصع البياض كبيراً لأن الصنّاع كانوا يؤثرونه على غيره من الحرير في أعمال التطريز المذهب والمفضّض[٢٤].

إذا أردنا أن نعالج مسألة الزراعة والصناعة في طرابلس خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩١٤، فنجد أن التقارير التجارية للقناصل ولنواب القناصل الفرنسيين في المدن اللبنانية (بيروت ــ طرابلس)، من أهم المصادر التي تساعد في إلقاء الضوء على أحوال طرابلس الزراعية والصناعية في تلك الحقبة. وهذا بالطبع لا يقلل من أهمية المصادر الأخرى.

ويبدو أن أرشيف وزارة التجارة الفرنسية غني بالوثائق التي تتعلق بالتاريخ الاقتصادي للبنان في هذه الفترة، منها التقارير عن التجارة الخارجية والملاحة البحرية ومنها تقارير عن بعض الأنشطة الاقتصادية كإنتاج الحرير والزراعة والأحراج والصناعة والمناجم وغيرها.

وتغطي هذه التقارير الفترة الممتدة من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤، وهو عام القطع الذي أحدثته الحرب العالمية الأولى بالنسبة لتاريخ لبنان الاقتصادي[٢٥].

إن أول ما يطالع المرء من مظاهر الغنى الزراعي لأي بلد من البلدان هو الأحراج. وقد كانت تتميز بها منطقة طرابلس وجبال عكار، حيث تمركزت المناطق الحرجية فيهما إلى جانب بعض المناطق الأخرى[٢٦]. وتشغل هذه الأحراج حوالي ١٥٠ ألف دونم من قرى وسفوح لا يزيد ارتفاعها عن ١٥٠ متراً. ومعظم أشجار هذه الأحراج هي من نوع السنديان، الصنوبر، العرعر، التي تصلح لأعمال الألواح والأخشاب القصيرة التي يمكن استعمالها في الأبنية البسيطة، وشجر الأرز الذي يبلغ ارتفاع بعضه

عشرة أمتار وقطره متراً ونصف ويصلح لجميع الأعمال[٢٧].

إن الأراضي في منطقة طرابلس خصبة منبتة، يساعدها إقليم معتدل حار ورطب في ساحلها، وبارد إلى معتدل البرودة في جبلها[٢٨]. وتتألف تلك الأراضي من التراب الذي يجرفه نهر أبو علي من الربوع اللبنانية، لذا فهي على قدر كبير من قوة الانبات بسبب ما يتراكم فيها من بقايا الأحجار الكلسية والصوانية وذرات الصلصال التي تنهال عليها من أصقاع لبنان.

وطرابلس غنية بالمياه بفضل نهر أبو علي الذي ينبع من موقع تحت أرز لبنان، ومياه نبع رشعين الذي يصب في نهر أبو علي. ويقطع ذلك النهر طرابلس من مبدأها إلى منتهاها متجهاً من الشرق الجنوبي إلى الغرب الشمالي ليصب في البحر بعد أن يكون قد وزع الخصب على كل أراضيها[٢٩].

ونجد بساتين الليمون تمتد حتى تصل ساحل البحر فتشمل مساحة تبلغ حوالي ٢٥٠٠ فدان، وكانت قيمة كل فدان تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ الف غرش عثماني. وكانت طرابلس تصدر، قبل عام ١٩١٤، إلى كل من اسطمبول ورومانيا وروسية حوالي ٤٠٠٠٠٠ صندوق من الليمون كل سنة، هذا عدا ما كان يصرف منه أيضاً داخل البلاد السورية كبيروت وحمص وحماه[٣٠]. وعلى هذا فإن مواسم الليمون والحمضيات خلال تلك الفترة[٣١] قد عادت بالربح الوفير على أصحاب البساتين في طرابلس. وقد عرف أبناء طرابلس كيف يستفيدون أيضاً من وفرة إنتاج الليمون لديهم، عن طريق صناعة ماء الزهر الذي يستحضر بواسطة تقطير زهر الليمون. وقد لا نجد مرجعاً معيناً وافياً، يفيدنا بتاريخ بدء هذه الصناعة، سوى مرجع واحد قد أتى على ذكرها كإحدى المنتجات المتنوعة التي تصنع في طرابلس. وهو التقرير المرفوع بتاريخ ٨ تشرين الأول عام ١٨٩٠ من نائب قنصل طرابلس إلى وكيل القنصلية في بيروت حول واردات وصادرات طرابلس عام ١٨٨٩م[٣٢].

وإن كنّا لم نجد مرجعاً وافياً لتاريخ تلك الصناعة المحلية التي اشتهر بها أبناء طرابلس منذ آمد بعيد إلّا أن ذلك لا يخفي حقيقة وجود



□ اصابت طرابلس نجاحاً في صنعة الحرير، من حيث صنع الألبسة الحريرية كالقمصان والسترات والشالات والزنار الحريري المعروف باسمها «الزنار الطرابلسي».

معامل لاستقطار ماء الزهر إلى جانب صنع الحلويات منذ أواخر القرن التاسع عشر، كمعامل الحلاب.

أمّا الزيتون، فإن مساحة زراعته كانت تقرب من ٢٥٠٠ فدان، وتضم حوالي ٣٠٠٠٠ شجرة، كان يستغلّ منها مقدار ١٥٠٠٠٠٠ أقة(*) من الزيت[٣٣].

وقد دخل تطور كبير في تلك الفترة على إنتاج الزيتون وزيادة إنتاج الزيت الذي كان يذهب قسم كبير منه إلى التصدير ويسد الطريق أمام الزيوت الأجنبية من فرنسية أو إيطالية[٣٤]. والقسم الآخر، كان يذهب للمصابن لصنع الصابون الذي كانت الطبخة الواحدة منه تزن حوالي عشرين قنطاراً، أي ما يقارب ٥٠٠٠ كلغ(*)، يتراوح ربحها قبل الحرب ما بين ٢٠ و ٢٥ ليرة عثمانية. وإذا علمنا أن تلك الطبخات كان يبلغ عددها حوالي ١٢٠٠ طبخة، استطعنا أن ندرك مدى الربح الوفير الذي كان يجنيه أرباب هذه الصناعة التي انحصرت

تقريباً، في تلك الآونة، ببعض العائلات الطرابلسية المعينة كآل الذوق، آل عدره وآل عويضة[٣٥].

ونجد فرنسا، ممثلة بنائب قنصلها في طرابلس، قد أعطت صناعة الصابون في طرابلس المرتبة الأولى في الأهمية من بين صناعات تلك المدينة، حيث كان هناك أربعة عشر مصبنة تعمل بمعدل ستة أشهر سنوياً وتنتج ٢٥ مليون كلغ من الصابون الذي كان يصدر إلى تركيا ومصر[٣٦].

وتجدر الاشارة، إلى أن طرابلس كانت من أوائل المدن اللبنانية، إن لم تكن الأولى، التي استحضرت معصرة حديثة لاستقطار الزيت تشتغل على الجفت (بقايا الزيت المعصور) الموجود في الكورة[٣٧].

كانت صناعة الحرير حتى أوائل القرن العشرين، تمثل الصناعة الأساسية في الاقتصاد اللبناني. وكانت تعد من أهم منابع ثروة البلاد السورية بشكل عام والمناطق اللبنانية بشكل خاص. وطرابلس كان لها دور مهم في هذا المجال لا يقل أهمية عن غيره في المدن اللبنانية. لذلك نجد أن اهتماماً خاصاً قد بذل في تربية شجرة التوت، أهم الأشجار الصناعية، التي شغلت منذ القدم قسماً كبيراً من أراضي طرابلس، فالأمير فخر الدين الثاني، الذي تطورت في عهده صناعة الحرير وبلغ اللبنانيون حدّاً كبيراً من المهارة فيها، قد أمر بغرس ١٤ ألف نصبة توت في جنائن طرابلس وحدها[٣٨].

وزراعة التوت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، امتدت كثيراً في طرابلس وغيرها من المناطق اللبنانية[٣٩]، حيث كانوا يقومون بتربية دود القز على أوراقه بعد قطفها.

أمّا بزر القز، فقد ظلّ اللبنانيون أجيالاً يربون جنساً واحداً من البزر يدعونه البلدي، لونه أبيض أو أصفر. ولكن عند ظهور بعض الأمراض، كمرض الذبلان، والقرن الأحمر والفلفلي، والتي أخذت تفتك بالديدان، ابتدأوا باستيراد البزر من فرنسا وزوّجوه من الجنس البلدي فحصلوا على بزر جيد أكثر ما يصلح للسواحل. ومن ثمّ أحضروا البزر الصيني إلى البلاد، حيث يجري تبزيره مع تجديده فتحسن جنسه وأخذت أوروبا تستورد قسماً منه. فأصبحت صناعة التبزير رائجة مدة في لبنان. ويبدو أن طرابلس في تلك الفترة كانت من المراكز المهمة التي شهدت صناعة التبزير لأنه عندما انتشر نحو عام ١٨٧٢، مرض المحروق، أخذوا يأتون بالبزر من طرابلس التي لم يصلها ذلك المرض[٤٠].

وعندما اكتشفت طريقة باستور عام ١٨٧٤[٤١] لانتقاء البزر الجيد، لم ينجح أصحاب تربية القز في البلاد السورية في تطبيق تلك الطريقة، وأصبحوا منذ عام ١٨٨٠ عاجزين عن تبزير ما يكفي حاجتهم من بزر دود القز[٤٢] وأخذوا يعتمدون كلّياً على ما يستوردونه من بزر كورسيكا[٤٣].

كان إنتاج الحرير يمر بخمس مراحل مهمة، وأي طارىء سوء، جوي أو مرضي، قد يطرأ على أحد تلك المراحل، يؤثر على إنتاج الحرير.

المرحلة الأولى، تتعلق بزراعة أشجار التوت ومن ثمّ قطف أوراقه وتحضيرها لتصبح جاهزة كغذاء لديدان القز.

المرحلة الثانية، هي مرحلة تفقيس البيض، الذي تبدأ فيه دودة القز بغزل شرنقتها. وكان يتم شراء البيض بواسطة تجار كانوا يشترونه بدورهم من مصادر لبنانية أو أجنبية. وكان يقوم بعمل هذه المرحلة المزارعين، وعادة النساء منهم الذين ينقلون البيض إلى أكواخ تكون قد أقيمت خصيصاً لهذا الغرض في الأراضي المزروعة بأشجار التوت.

المرحلة الثالثة، وهي مرحلة إنتاج الشرانق التي كانت تصدّر إلى الخارج أو ترسل إلى مصانع حلّ الحرير المحلية. وفي كلا الحالتين، كان من الضروري الاحتفاظ بالشرانق داخل أفران ساخنة ليتم فيها خنق الديدان لئلا تخرج من الشرنقة وتقطع خيط الحرير المتكامل.

المرحلة الرابعة، كان يتم في هذه المرحلة وضع الشرانق في أحواض كبيرة من المياه الساخنة لازالة المادة الصمغية عن الشرنقة واستخراج خيط الحرير كاملاً، أي حلّه ومن ثمّ غزله.

المرحلة الخامسة والأخيرة، كان يتم فيها تصدير خيوط الحرير، أو يتم نسجه وتحويله إلى أنسجة حريرية على أيدي النساجين المحليين(٤٤).

بعد أن علمنا المراحل المهمة التي تمر بها صناعة الحرير، نجد أن طرابلس قد عرفت صناعة الحرير بمراحله الثلاثة وبمراحله الخمسة، أي أنها قد اكتفت في بعض الأحيان بالمراحل الثلاثة الأولى فقط، عند مرحلة إنتاج الشرانق، حيث كان لواء طرابلس يصدر كل سنة حوالي ٢٧ ألف كيلو من الشرانق إلى معامل ليون(٤٥).

أمّا صناعة الحرير بمرحلته الخامسة، فقد عرفتها طرابلس بشقّيها، التصدير إلى الخارج وحياكته في الداخل. أما التصدير إلى الخارج، فقد كان لواء طرابلس يرسل إلى معامل ليون سنوياً ٣٠٠ رزمة «بالية» من الحرير، وقبل الحرب بسنتين شرع تجار الحرير ببيع عشر حاصلهم إلى معامل إيطاليا. وكانت تباع في فرنسا رزمة الحرير الطرابلسي بثمن يتراوح بين ٤٥ و ٦٠ فرنك فرنسي(٤٦).

أمّا حياكة الحرير في الداخل، فنجده في أقمشة القمصان والحبرات والمناديل والشالات والسترات الحريرية والزنار الطرابلسي(٤٧) الذي اشتهرت به البلاد وكان يتزيّن به الأغنياء من أبناء المنطقة.

وقد عرفت صناعة الحرير في طرابلس في تلك الفترة صعوداً وهبوطاً من حيث الانتاج وبالتالي من حيث التصدير إلى الخارج. وعام ١٨٨٠ كان بمثابة نقطة تحول نحو الأسوأ بالنسبة لصناعة الحرير ليس في طرابلس وحدها، بل في لبنان بشكل عام. ويعود ذلك إلى سببين هامّين:

أولاً، بدأ السوق الفرنسي، وهو السوق الأهم بالنسبة لتسويق الحرير اللبناني بشكل عام ولحرير طرابلس بشكل خاص، فهي كما ذكرنا سابقاً، كانت تصدر جميع ما تنتجه من الحرير الخام والشرانق إلى أسواق ليون في فرنسا، وقبل الحرب بسنتين فقط بدأت تبيع حاصلها من الحرير إلى إيطاليا(٤٩). بدأ السوق الفرنسي يشهد تدهوراً في أسعار الحرير اللبناني بسبب عودة فرنسا إلى إنتاج شرانق الحرير من جديد وإلى إنتاج الحرير الخام.

والسبب الثاني، فهو مزاحمة الحرير الياباني للحرير اللبناني في الأسواق الفرنسية(٥٠)، علماً أن «الحرير الطرابلسي كان أقل ظرافة ومتانة من الحرير الياباني والصيني»(٥١).

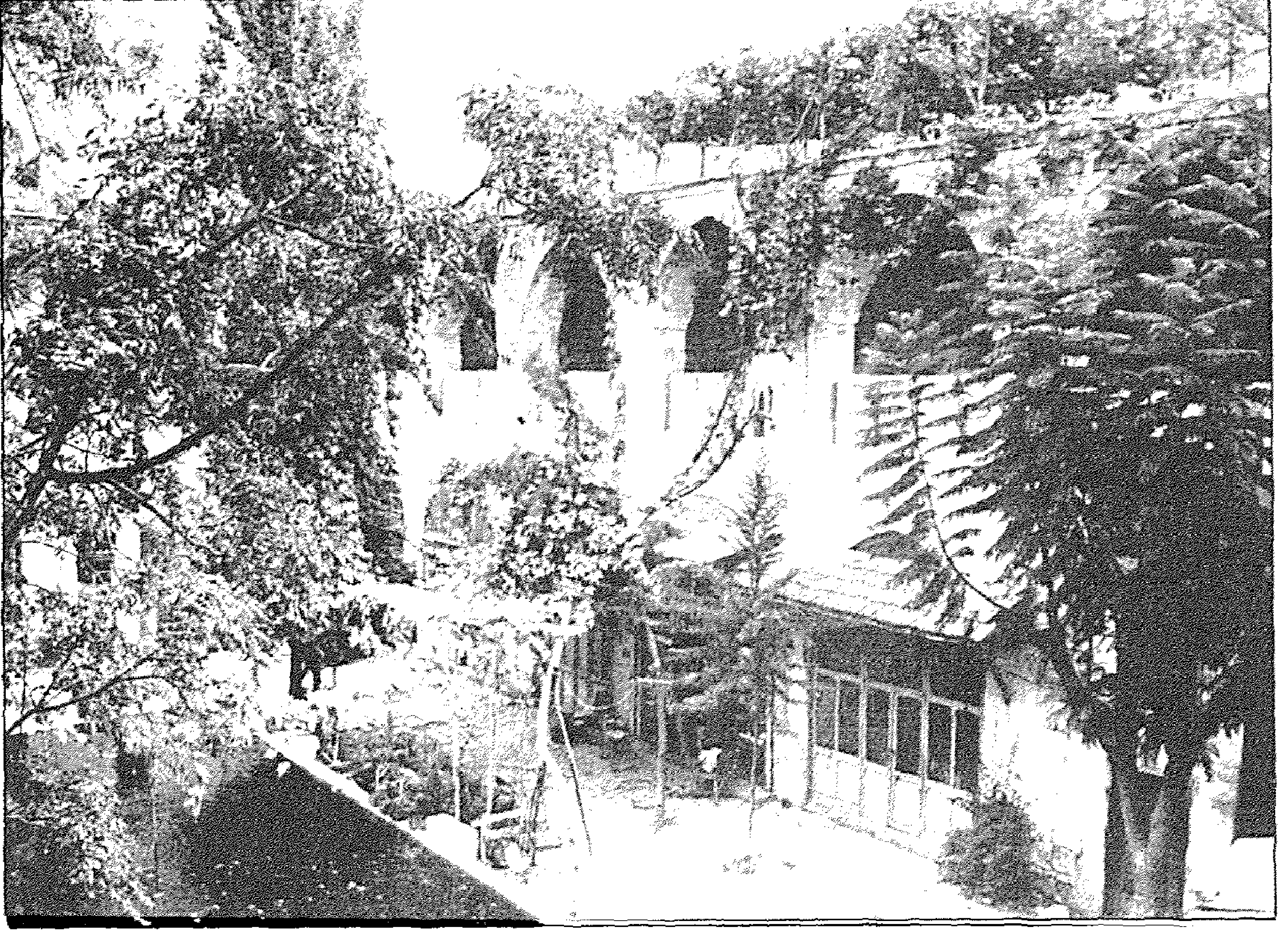
وإزاء هذا التدهور، لم يكن على أصحاب إنتاج الحرير، إلّا أن يأخذوا بالأسباب التي تزيد من حسنات إنتاج حريرهم من حيث النوعية والكمية. فالنوعية، تحتاج إلى اختيار الأفضل من أنواع البزر، أي اتقان تطبيق طريقة باستور في انتقاء بزر القز، ومن ثمّ تهيئة الأجواء المناخية الملائمة لحفظه من حيث وضعه في أماكن ذات حرارة باردة معينة، أي بمعنى أدق تحضير مشتى خاص لحفظ بزر القز يكون قليل الرطوبة متجدّد الهواء دائماً حتى يحين موعد تفقيس البزر.

ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يكن متوفراً عند أصحاب إنتاج الحرير في تلك الأيام(٥٢).

أمّا من حيث الكمية، فيبدو أن فائدتها تعتمد أيضاً على جودة نوعية بزر القز. وهذا ما نجده قد حصل بالنسبة لمحصول طرابلس من شرانق الحرير لعام ١٨٩٢ الذي كان جيداً من حيث الكمية ولكنه كان رديئاً من حيث النوعية. والسبب في ذلك، يعود إلى أن مزروعات شرانق الحرير في طرابلس وضواحيها قد تعرضت في شهر أيار (مايو) لأمطار غزيرة، وفي شهر حزيران (يونيو) تعرضت لعواصف شديدة مما ألحق ضرراً بالغاً بديدان القز عند مرحلة التفقيس، فقتل الكثير كما أصيب الكثير أيضاً بالبقع، أي بالمرض الفلفلي. ولكن على الرغم من ذلك، فقد اعتبر محصول طرابلس لتلك السنة من الشرانق جيداً، ولكنه كان رديئاً من حيث النوعية. فالشرانق كانت صغيرة الحجم وليست لها أهمية تذكر لذلك أعطت مردوداً سيئاً ولم يكن محصول إنتاج الحرير جيداً لتلك السنة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، أي في عام ١٨٩٩، نجد بعض التحسن يطرأ على كميات إنتاج الحرير وتصدير الشرانق والخيوط، حيث قد فاقت جميعها كميات العامين الماضيين، ١٨٩٧، و ١٨٩٨(٥٤).

أمّا في بداية القرن العشرين، فنجد زيادة في انتشار زراعة أشجار التوت في سهل طرابلس



□ خان الصابون، الذي لا يزال من معالم طرابلس الحضارية.

مصحوبة بمساعي لتصدير خيوط الحرير إلى الولايات المتحدة الأميركية عبر المغتربين. وهذا يعني أن تحسناً ملموساً قد طرأ على إنتاج الحرير في طرابلس من حيث الكمية والنوعية مما دفع حتى بنائب قنصل فرنسا في طرابلس إلى توجيه دعوة إلى فرنسيين لإنشاء معامل للنسيج مبرراً موقف أثرياء البلد من عدم إنشائهم لتلك المعامل بسبب خشيتهم من جشع الموظفين الحكوميين(٥٥). ولكن يبدو أن بعض المعامل لحلّ الحرير كانت قد أنشئت فعلاً في طرابلس ولكن على أيدي الراهبات اللواتي كنّا يجلبن الحرير الخام إلى معاملهن الحريرية في طرابلس، حيث تحلّل البنات اليتيمات الشرانق. وكان يبلغ مجمل ما يخرج سنوياً من الأنسجة الحريرية من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متراً، كان يقبل على شرائها التجار من أهل الشام وغيرهم(٥٦).

ولكن ما كادت الزيادة تطرأ على زراعة أشجار التوت وبالتالي نلمسها في زيادة إنتاج الحرير مع بداية القرن العشرين، حتى ابتدأ العدّ العكسي نحو التدهور والتلاشي يصيب صناعة إنتاج الحرير في طرابلس وفي كل المناطق اللبنانية. ففي عام ١٩١٠، أفاد التقرير التجاري البريطاني، أن المزارعين في بعض المناطق اللبنانية قد أخذوا يقتلعون أشجار التوت ويستبدلونه بأشجار الليمون، وهذا يعني أن ذلك كان يجري في المناطق الساحلية، حيث يزرع الليمون. ومما أكّد صحة ما جاء في ذلك التقرير البريطاني، قول نائب القنصل الفرنسي في بيروت جايمس الرّوي فلاكر بأن صناعة إنتاج الحرير في لبنان قد أصبحت بحكم المتلاشية(٥٧).

ويعزو غستون دو كوسّو، أحد القائمين بأعمال القنصلية الفرنسية في بيروت، يعزو ذلك التلاشي إلى الأوضاع السيئة التي كانت تصاحب كلّ مرحلة من مراحل تربية دود القز وإنتاج الحرير، ابتدأ من الأماكن الغير صالحة لحفظ بزر القز وانتهاء بالمعامل والآلات اليدوية والبدائية التي كانت تستعمل في حلّ الحرير(٥٨). فالشرانق كانت تحل بواسطة آلات يدوية وأجهزة

بدائية لم يطرأ عليها أي تعديل أو تطور منذ أن عرف لبنان صنعة الحرير. فجميع أعمال الحل كانت أولية تمر بتسعة مراحل بدائية[٥٩].

في الوقت ذاته، كنّا نجد المعامل الأوروبية واليابانية تعتمد في أعمال حلّ الحرير وإنتاجه على أدوات متطورة من شأنها الاسراع بالعمل وتحسينه والاقتصاد بتكاليفه. وهذا بدوره كان ينعكس سلباً على حركة تسويق الحرير اللبناني في الأسواق الفرنسية.

وما كاد يطل عام ١٩١٤، حتى ابتدأت تزداد الأراضي المستبدلة أشجار التوت فيها بأشجار الليمون والحمضيات على السواحل اللبنانية أو بزراعة البطاطا في البقاع. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى التقهقر والاهمال الذي وصلت إليه صناعة الحرير في طرابلس[٦٠] ولبنان عامة[٦١].

بعد هذا العرض الدراسي والزمني حول صناعة إنتاج الحرير في طرابلس، إحدى مراكز لبنان لتلك الصناعة، يتبين لنا أن عدم اتباع أصحاب تلك الصنعة للطرق والوسائل الحديثة في تربية دودة القز، كتطبيق طريقة باستور في انتقاء البزر الجيد وتحضير مشتى خاص ذات حرارة باردة معينة تساعد على حفظ البزر في حالة جيدة حتى يحين موعد تفقيسه ومن ثمّ حمايته من التقلبات الجوية، وافتقارهم إلى المصانع الحديثة لحلّ الحرير واعتمادهم الكلي على الأدوات اليدوية والبدائية، إلى جانب المضاربة التجارية ومزاحمة الحرير الياباني والصيني للحرير اللبناني في أسواق ليون، كلّ هذه الأسباب إلى جانب غيرها من الأسباب، كاعتمادهم على استيراد البيض من فرنسا[٦٢]، ساعد كلّ ذلك على تدهور تلك الصناعة الجميلة وتلاشيها والتي كانت حتى زمن قريب تشكل مصدراً هاماً من مصادر الدخل الوطني.

إلى جانب تلك المنتجات الزراعية ـ الصناعية الهامة، كانت طرابلس تصدر الكثير من محصولها الزراعي كالقمح، الذرة الصفراء والبيضاء، العدس، الفاصوليا، الكمون، السمسم، البطاطا، البصل، الخضار الطازجة، اللوز، الحمضيات، الخروع، العرق سوس والتبغ[٦٣].

كان يعتبر التبغ من المحاصيل الهامة في السلطنة العثمانية، إذ كان لا يقل محصوله السنوي عن ٦٠٠٠٠ طن، يصدر منه حوالي ١٢٠٠٠ طن إلى الخارج والباقي كان يستهلك داخل الولايات العثمانية[٦٤]. وكان التبغ ذو أنواع منها الريحاني والجبيلي والكوراني، أو ما يعرف بالتبغ الوطني، وقد قدّر محصوله أواسط القرن التاسع عشر في عموم سورية بحوالي ١٥٠٠٠٠ آقة. وقد اشتهر شمالي لبنان بزراعة هذا الصنف الذي كان مفضلاً في بلاد مصر[٦٥]. وعندما أنشئت شركة «حصر التبغ» عام ١٨٨٣، أخذت زراعة التبغ اللبناني بالتناقص عاماً بعد عام حتى كادت أن تنقرض[٦٦]. والسبب في ذلك يعود إلى أن تلك الشركة كانت لها صفة استغلالية من حيث أنها قد أنشئت عقب إعلان إفلاس السلطنة العثمانية، وهي التي كانت قد أوجدتها بالاشتراك مع دائنيها الأوروبيين كإجراء من ضمن سلسلة إجراءات كانت قد اتخذتها، بغية الحد من تصاعد ديونها[٦٧].

وفي عام ١٩٠٤، أصبح لتلك الشركة الحق في تحديد الأراضي والشروط التي يجب اتباعها في زراعة وتحصيل التبغ، ضمن نطاق الامبراطورية العثمانية. كما أصبح لها الحق في تحصيل ضريبة العشر عن محصول التبغ، وأعطت لنفسها حق احتكار شراء محصول التبغ المعفى من الضريبة، كما أصبح لها الحق في تحصيل جميع الرسوم الجمركية التي كانت تفرض على الصادر والوارد من منتوجات التبغ، وأخيراً، أصبح لها الحق في تحصيل ضريبة التنباك.

هذا بالاضافة، إلى أن تلك الشركة كانت تملك مصنعين كبيرين لصنع السجاير والسيجار في المناطق السورية، وكان إنتاج ذلك المصنعين يباع لصالحها من خلال تجار عملاء محليين[٦٨]، أي بمعنى أدقّ، أنها قد احتكرت زراعة وصناعة التبغ في البلاد السورية الخاضعة للسلطنة العثمانية.

إن تلك الأسباب، إلى جانب غيرها من الأسباب كمزاحمة التبغ التركي (الاسلامبولي) للتبغ الوطني، قد أدّت إلى كساد الانتاج في سوق البلاد لفترة من الوقت ما لبث أن عاد بعدها



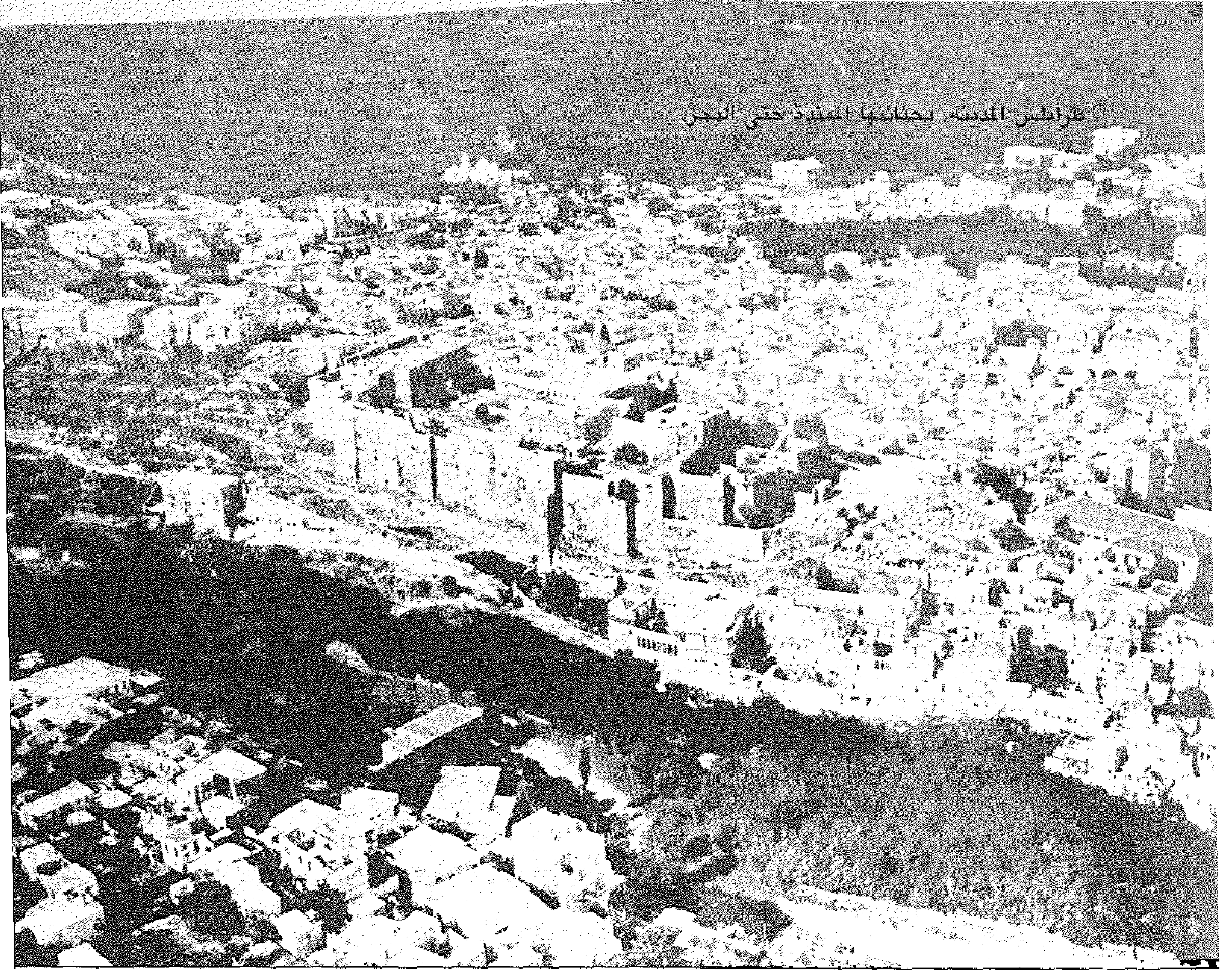
□ صناعة الصابون التقليدية التي ما زالت طرابلس تشتهر بها.

المزارعين إلى تحسين غلّات إنتاجهم من التبغ، عن طريق زراعة بزر التبغ التركي ذو الرائحة الزكية فأعطى مردوداً ناجحاً[٦٩]. أمّا التبغ الوطني، فقد بقيت زراعته جارية في شمالي لبنان، وكان يصدر منه كمية لا تقل عن ٢٠٠٠٠ آقة إلى بلاد مصر[٧٠].

الخاتمة

وأخيراً، نستنتج من هذا البحث حول أهم المزروعات الصناعية في طرابلس خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩١٤، نستنتج مدى أهمية الدور الذي كانت تلعبه طرابلس في تلك الفترة على صعيد الاقتصاد المحلي والاقليمي، وخاصة في مجال الصناعات الزراعية. فالليمون، قد استفادت من وفرة إنتاجه وصنعت منه ماء الزهر، الذي أصبح مع الأيام مادة أساسية يكاد لا يخلو منه أيّ منزل في طرابلس أو في لبنان. والزيتون، استغلّوا كثرة غلّته وصنعوا منه زيتاً وصابوناً. فأنشأوا المصابن العديدة وصدّروه إلى كلّ من تركيا ومصر. وممّا يلفت الانتباه، أن أصحاب معاصر الزيت في طرابلس لحقوا بركاب التطور الصناعي. وكانت لهم الأسبقية في استحضار أول معصرة للزيت تشتغل على الجفت. وتجدر الاشارة، إلى أنّ كلاّ من هاتين الصناعتين لا تزال حيّة إلى يومنا هذا. فمصانع ماء الزهر لا تزال ظاهرة للعيان، والمصابن لصنع الصابون كثرت حتى أصبح لها خاناً خاصاً بها، يسمى «خان الصابون»، وقد أصبحت كل واحدة من تلك الصنعتين جزء من تراث طرابلس الشعبي.

أمّا الحرير، وهو أهم صنعة لبنانية محلية في تلك الفترة، فلم تتخلّف طرابلس عن الأخذ



□ طرابلس المدينة، بجنائنها الممتدة حتى البحر.

بركابها، بل كانت أحد المراكز الهامة لانتاج الحرير وتصديره إلى الخارج بفضل خصب تربتها الملائمة لزراعة أشجار التوت وبفضل مينائها البحري.

لكن في الوقت الذي نجد فيه، أنّ كلّاً من صناعة ماء الزهر والصابون لا تزال طرابلس تحافظ عليهما، لا بل تكاد تتصدر المرتبة الأولى في صنعهما بين المدن اللبنانية، نجدها في مضمار صناعة الحرير تواكب بقية المناطق اللبنانية في تدهور تلك الصناعة وعدم الأخذ بتطبيق الوسائل الحديثة من أجل تطوير وزيادة وتحسين إنتاج الحرير فيها. فطرابلس في الوقت الذي استحضرت فيه معصرة حديثة للزيت، نجدها تغفل عن تربية بزر القز تربية صحيحة مما جعل الأعاصير التي ضربتها والمناطق المحيطة بها

عام ١٨٩٢، تنزل أكبر الضرر بإنتاج الحرير لتلك السنة.

ولكن بالرغم من كل ذلك، لا نستطيع أن نقول إلّا أن صنعة الحرير في طرابلس في تلك الفترة كانت من أهم منابع ثروتها. وقد أصابت نجاحاً في تلك الصنعة من حيث صنع الأنسجة والألبسة الحريرية، كالقمصان والشالات والزنار الحريري المعروف باسمها «الزنار الطرابلسي».

وأمّا التبغ، الذي يبدو أنه كان يحتل المرتبة الثانية في تلك الفترة، من حيث الأهمية بالنسبة لمزروعات طرابلس الصناعية، إلّا أنني لم أشأ أن أذكره عرضاً، وذلك لأن أهميته تحتّم علينا ذكره بشيء من التفصيل خاصة وأن الشركة التي تحكّمت بزراعته وإنتاجه، لا تزال أسسها قائمة حتى الآن، ولكن بعد أن تمّ تحويلها إلى شركة لبنانية وطنية تحت اسم «إدارة حصر

التبغ والتنباك اللبنانية». وبما أن طرابلس كانت تشكل لواء تابعاً لولاية بيروت في تلك الآونة، وبالتالي تقع ضمن نطاق السلطنة العثمانية، فإن الأحكام التي أصدرتها شركة حصر التبغ آنذاك، قد شملتها بالتطبيق.

وأخيراً، بعد أن ألقينا الضوء على جانب من جوانب تاريخ طرابلس الاقتصادي، نستطيع أن ندرك مدى الأهمية القصوى التي تمتعت بها تلك المدينة على صعيد من أهم الأصعدة اللازمة لتقدم الأمم وصنع الحضارات.

ولو أنّ طرابلس قد استعاضت في تلك الآونة، عن آلاتها البدائية بآلات حديثة في كثير من المجالات الزراعية والصناعية، لكان من الممكن أن يكون دورها أجدى وأكثر فعالية في المجال الاقتصادي.

الهوامش

(١) التميمي، رفيق وبهجت، محمد: **ولاية بيروت**، (بيروت، دار لحد خاصر ١٩٧٩)، ص ٨.

(٢) لمزيد من الاطلاع، انظر:
Guy le Strange: *Diary of Journey* through Syria and Palestine, (London, 1896), pp. 6-8. This is a translation of Naser Khosro's book, *Sifir-Nameh*.

(٣) Saba, Paul: «The Creation of the Lebanese Economy, Economic Growth in the Nineteenth and Twentieth Centuries». In *Essays on the Crisis in Lebanon*, Edited by Roger Owen, (London — Ithaca Press 1976), pp. 1-22.

(٤) Buheiry, Marwan: British Official Sources and the Economic History of Lebanon: 1835-1914», *DIRASAT, Lettres et Sciences Humaines*, (Beyrouth, Université Libanaise, Faculté de Pedagogie, 11e Année 13-14/1984), pp. 9-10.

(٥) الحكيم، يوسف: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، (بيروت، دار النهار للنشر، ط. ٢، ١٩٨٠).

(٦) الحكيم يوسف: المصدر السابق، ص ٢٦.

(٧) ـــ: لبنان، مباحث علمية واجتماعية، (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٦٩)، ج ١ ص ٢٠١.

(٨) كاظم، حسين: «كلمة عن الزراعة في سورية»، **ولاية بيروت**، ص ٥٧.

(*) تعني سورية الجغرافية.

(٩) اصفر، سليم: «الزراعة السورية في الزمن القديم وفي أيامنا». مجلة **المشرق** (بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٩)، ج ٢ ص ١٦٨ ــ ١٦٩.

(١٠) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ٥٨.

(١١) حتي، فيليب: **لبنان في التاريخ**، (بيروت ــ نيويورك، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٥٩)، ص ٥٧٢ ــ ٥٧٣.

(١٢) Issawi, Charles: *An Economic History of the Middle East and North Africa*, (New York, Columbia University Press, 1982), pp. 152-153.

(١٣) ـــ: لبنان، مباحث، (بيروت، ١٩٧٠) ج ٢ ص ٣٩٠ ــ ٣٩٥.

(١٤) أصفر، سليم: «شجرة القشطة»، **المشرق**، (١٩٠١) ج ٤ ص ٤١٤ ــ ٤١٧.

(١٥) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ٦٢ ــ ٦٣.

(١٦) ضاهر، مسعود: **الجذور التاريخية للمسألة الزراعية ــ اللبنانية، ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠**. (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٨٣).

(١٧) ——: *Webster's New Geographical Dictionary*, (Springfield — Massacusetts, Merriam Company Publishers, 1980), p. 1225.

(١٨) ابن حوقل، أبو القاسم محمد: **المسالك والممالك** (ليدن، طبعة دي غويه ١٨٧٣)، ص ١١٦.

(١٩) الدمشقي، شمس الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**. (ليدن، تحقيق أ. مهرن، ١٩٢٣)، ص ٢٠٧.

(٢٠) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار**، (باريس، طبعة وترجمة: C. Defrémery and B.R. Danguinatti، ١٨٩٣، المجلد ١، ص ١٢٧ ــ ١٢٨.

(٢١) المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي: **السلوك لمعرفة دول الملوك** (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ١٩٣٩ ـــ ١٩٧١) ج ١ قسم ٢ ص ٧٤٨.

(٢٢) Poloner, John: *Description of the Holy-Land* (London, tr. by Aubery Stewart, 1894), p. 33.

(٢٣) حتي، فيليب، المصدر السابق، ص ٤١٤ ـــ ٤١٥.

(٢٤) حتي، فيليب: المصدر السابق، ص ٤٨٤ ـــ ٤٨٥.

(٢٥) لبكي، بطرس: «أرشيف وزارة التجارة الفرنسية»، **دراسات في الآداب والعلوم الإنسانية** (بيروت، السنة ١١ ـــ العددان ١٣ ـــ ١٤/ ١٩٨٤) ص ٥٩ ـــ ٦٠.

(٢٦) التقرير الرابع الصادر عن قنصلية فرنسا في دمشق بتاريخ ٦ آب ١٨٩١، كما جاء في مقال بطرس لبكي: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٢٧) تميمي وبهجت: **ولاية بيروت**، ص ١٥٧.

(٢٨) ـــــ: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٢٩) ـــــ: المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٣٠) ـــــ: المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٣١) لبكي، بطرس: المصدر السابق، ص ٦٢.

(٣٢) ـــــ: المصدر السابق، ص ٦٥.

(*) ١،٥٠٠،٠٠٠ آقة تساوي ١،٨٧٥،٠٠٠ كلغ.

(٣٣) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٤ ـــ ١٨٥.

(٣٤) لبكي، بطرس: المصدر السابق، ص ٦٣.

(*) القنطار يساوي ١٠٠ رطل، والرطل بدوره يساوي ٢،٥ كلغ لذا فالعشرين قنطاراً تساوي ٢٠٠٠ رطل × ٢،٥ = ٥٠٠٠ كلغ.

(٣٥) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٣٦) A.N.F.[12] 7197, «Commerce et Navigation de Tripoli de Syrie en 1884», Lettre du Vice Consul A.O. Geofroy au Consul — Géneral a Beyrouth, M. Patrimonio du 3 Février 1885. As quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 65.

(٣٧) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤٣٦.

(٣٨) «الحرير اللبناني يعود إلى المغازل»، **النهار الاقتصادي والمالي**، عدد خاص (بيروت ٢٢/١١/١٩٧٠) ص ١٦ ـــ ١٧.

(٣٩) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤٠٨.
انظر أيضاً:
Saba Paul, «The Creation of the Lebanese Economy», *Essays on the Crisis in Lebanon*, p. 18.

(٤٠) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤١٠.

(٤١) Owen, Roger: *The Middle East in the World Economy, 1800-1914*, (London - New York, Ist ed. 1981) p. 157.

(٤٢) Owen, Roger: Ibid., p. 157.

(٤٣) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤١٠.

(٤٤) Owen, Roger: Ibid., p. 154.

(٤٥) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٤٦) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥ ـــ ١٨٦.

(٤٧) الزين، سميح وجيه: **تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، منذ اقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر**. (بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٦٩)، ص ٣٩٧.

(٤٨) Saba, Paul: The Creation of the Lebanese Economy», p. 19.

(٤٩) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٥٠) Saba, Paul: Ibid., p. 19.

(٥١) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٥٢) أصفر، سليم: «بزر دود القز، عمل الطوارىء الجوية لا سيما البرد في البزر وذكر مشتاه» **المشرق**، ١٨٩٨، ج ١ ص ٣٢١ ـــ ٣٢٢.

(٥٣) Rapport: La Campagne Sécricicole de 1891-1892 dans le Sandjak de Tripoli de Syrie, Par M.P. Savoye Vice-Consul de France A Tripoli de Syrie, le 16 Août 1892.

(٥٤) A.N.F.[12] 7197, «L'industrie Sécricicole dans le district de Tripoli Pendant la Campagne 1898-1899.» Rapport de Séjour du Vice-Consul de France à Tripoli au Ministre des Affaires Etrangères en date du 7/9/1899. As quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 68.

(٥٥) A.N.F.[12] 7197, «Note sur le Commerce de la Soie à Tripoli de Syrie» Du Vice-Consul de France à Tripoli de Syrie au Ministère des Affaires Etrangères. Communiquée au Ministère du Commerce le 19 Août 1905. As quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 69.

(٥٦) غستون دوكوسو: «تاريخ الحرير في بلاد الشام»، **المشرق** (١٩١٢)، ج (١٥) ص ٣٧٨.

(٥٧) Owen, Roger: Ibid., p. 250-251.

(٥٨) ——: Ibid., p. 251.

(٥٩) ــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤٩٤ ــ ٤٩٥.

(٦٠) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥ ــ ١٨٦.

(٦١) Consultant Général de France en Syrie: «Rapport Commercial de 1914». Annexe à la lettre de Monsieur Georges Picot, Consul Général de France à Beyrouth à Monsieur le Directeur de l'Office de Commerce Extérieur (Paris) Beyrouth le 26/10/1914, as quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 69.

(٦٢) Owen, Roger: *The Middle East in the World Economy*, p. 252.

(٦٣) لبكي، بطرس: **دراسات**، ص ٦٢.

(٦٤) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

(٦٥) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

(٦٦) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

(٦٧) Saba, Paul: «The Creation of the Lebanese Economy», p. 17.

(٦٨) Saba Paul: Ibid, p. 17.

(٦٩) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧ ــ ٤١٨.
انظر أيضاً: الجميل، يوسف: **زراعة التبغ التركي في لبنان**، (بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٩١١)، ص ٣ ــ ٤.

(٧٠) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

مصادر البحث

الـكتب:

(١) التميمي، رفيق وبهجت، محمد: **ولاية بيروت**، بيروت، دار لحد خاطر، ١٩٧٩.

(٢) الحكيم، يوسف: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، بيروت، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٠.

(٣) ــــ: **لبنان، مباحث علمية واجتماعية**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، الجزء الأول، ١٩٦٩ والجزء الثاني، ١٩٧٠.

(٤) حتي، فيليب: **لبنان في التاريخ**، بيروت ــ نيويورك، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٥٩.

(٥) ضاهر، مسعود: **الجذور التاريخية للمسألة الزراعية اللبنانية، ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠**، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٨٣.

(٦) ابن حوقل، أبو القاسم محمد: **المسالك والممالك**، ليدن، طبعة دي غويه، ١٨٧٣.

(٧) الدمشقي، شمس الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، ليدن، تحقيق أ. مهران، ١٩٢٣.

(٨) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، باريس، طبعة وترجمة: المجلد ١، ١٨٩٣.

(٩) المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، القاهرة، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، القسم الثالث، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١.

(١٠) الزين، سميح وجيه: **تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً منذ اقدم الأزمنة وحتى عصرنا الحاضر**، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٩.

(١١) الجميل، يوسف: **زراعة التبغ التركي في لبنان**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٩١١.

المقـــالات:

(١) كاظم، حسين: «كلمة عن الزراعة في سورية»، **ولاية بيروت**، بيروت، دار لحد خاطر، ١٩٧٩.
(٢) أصفر، سليم: «الزراعة السورية في الزمن القديم وفي أيامنا»، **مجلة المشرق**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، الجزء الثاني، ١٨٩٩.
(٣) أصفر، سليم: «شجرة القشطة»، **المشرق**، بيروت، الجزء الرابع، ١٩٠١.
(٤) أصفر، سليم: «بزر دود القز، عمل الطواريء الجوية لا سيّما البرد في البزر وذكر مشتاه»، **المشرق**، بيروت، الجزء الأول، ١٨٩٨.
(٥) لبكي، بطرس: «أرشيف وزارة التجارة الفرنسية»، **دراسات في الآداب والعلوم الإنسانية**، بيروت، تصدر عن كلية التربية في الجامعة اللبنانية، السنة ١١، ١٣ ــ ١٤/ ٨٤.
(٦) ـــــ: «الحرير اللبناني يعود إلى المغازل»، **النهار الاقتصادي والمالي**، عدد خاص، بيروت، ٢٢ تشرين الثاني، ١٩٧٠.
(٧) غستون دو كوسّو: «تاريخ الحرير في بلاد الشام»، **المشرق**، بيروت، الجزء ١٥، ١٩١٢.

Books:

(1) Guy Le Strange: Diary of a Journey Through Syria and Palestine, London 1896.
(2) Issawi, Charles: An Economic History of the Middle East and North Africa, New York, Columbia University Press, 1982.
(3) ——: Webster's New Geographical Dictionary, Springfield Massachusetts Merriam Company Publishers, 1980.
(4) Poloner, John: Description of the Holy Land, London, tr. by Aubery Stewart, 1894.
(5) Owen, Roger: The Middle East in the World Economy, 1800-1914, London — New York, first edition, 1981.

Articles:

(1) Saba, Paul: «The Creation of the Lebanese Economy, Economic Growth in the Nineteenth and Twentieth Centruies», Essays on the Crisis in Lebanon, London, Edited by Roger Owen, Ithaca Press, 1976.
(2) Buheiry, Marwan: «British Official Sources and the Economic History of Lebanon: 1835-1914».
DIRASAT, Lettres & Sciences Humaines, Beyrouth Université Libanaise, Faculté de Pedagogie 11e Année, No. 13-14/1984.



أحب الناس إلى الرسول:

● عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله: أي الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس للناس. قيل يا رسول الله: فأي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور علىٰ المؤمن، قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه. ومن مشى مع أخيه في حاجته، كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته؛ وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

جيسب مزّيني

١٨٠٥ ـ ١٨٧٢

□ ساعة المجد:
قائد الجمهورية الرومانية



كان مزّيني ثائر أوروبا الأول في الفترة ما بين ١٨٣٥ ــ ١٨٦٠. فحيثما طرح موضوع الثورة الحمراء في منتصف القرن التاسع عشر كان اسمه أول ما يتبادر إلى الأذهان؛ ومع أن أسماء أخرى برزت في تلك الفترة أمثال ماركس وباكونين فقد ظل في الطليعة. وعلى نقيض سلفه روبسبيير وخلفه القوي ماركس فإن تعاليمه وممارساته قد اتسمت بالمثالية الدينية السامية. فمرجعُه الأول كان الله والإيمان والواجب. فهو، في أكثر من مجال، شبيهٌ للقائد البيوريتاني الواضح الرؤيا والتفكير: الكتاب المقدس في اليد اليسرى والسيف في اليد اليمنى. ومن الأصح استبدال الكتاب المقدس برسالته المشهورة «الإيمان والمستقبل» واستبدال السيف بالبنادق المكدسة والمخبأة في جبال سافوى أو صقلية. فمن منظار اتساع كتاباته وإطار نشاطاته، يقف مزّيني مُميّزا بين الثوريين الأوروبيين. فمجموعة أعماله مثلاً تناهز المائة مجلد، كما ان ثائراً آخر لم ينظم هذا العدد الكبير من الانتفاضات. وقد عُرف عنه أيضاً رهافة الحس والكرم مما حدا بالايطاليين تسميته بالنبي أحياناً وبالقديس أحياناً أخرى.

وُلد مزّيني في جنوى في العام ١٨٠٥ من والدين ينتميان إلى الطبقة المتوسطة. فوالده كان

□ إيطاليا عام ١٨٥٩.



«ان شجرة الحرية تُصبح أصلب عودًا عندما ترويها دماء الشهداء»

مـزّيـني

■ بقلم: إ.ي. هيـلز

■ ترجمة: مكرم حداد

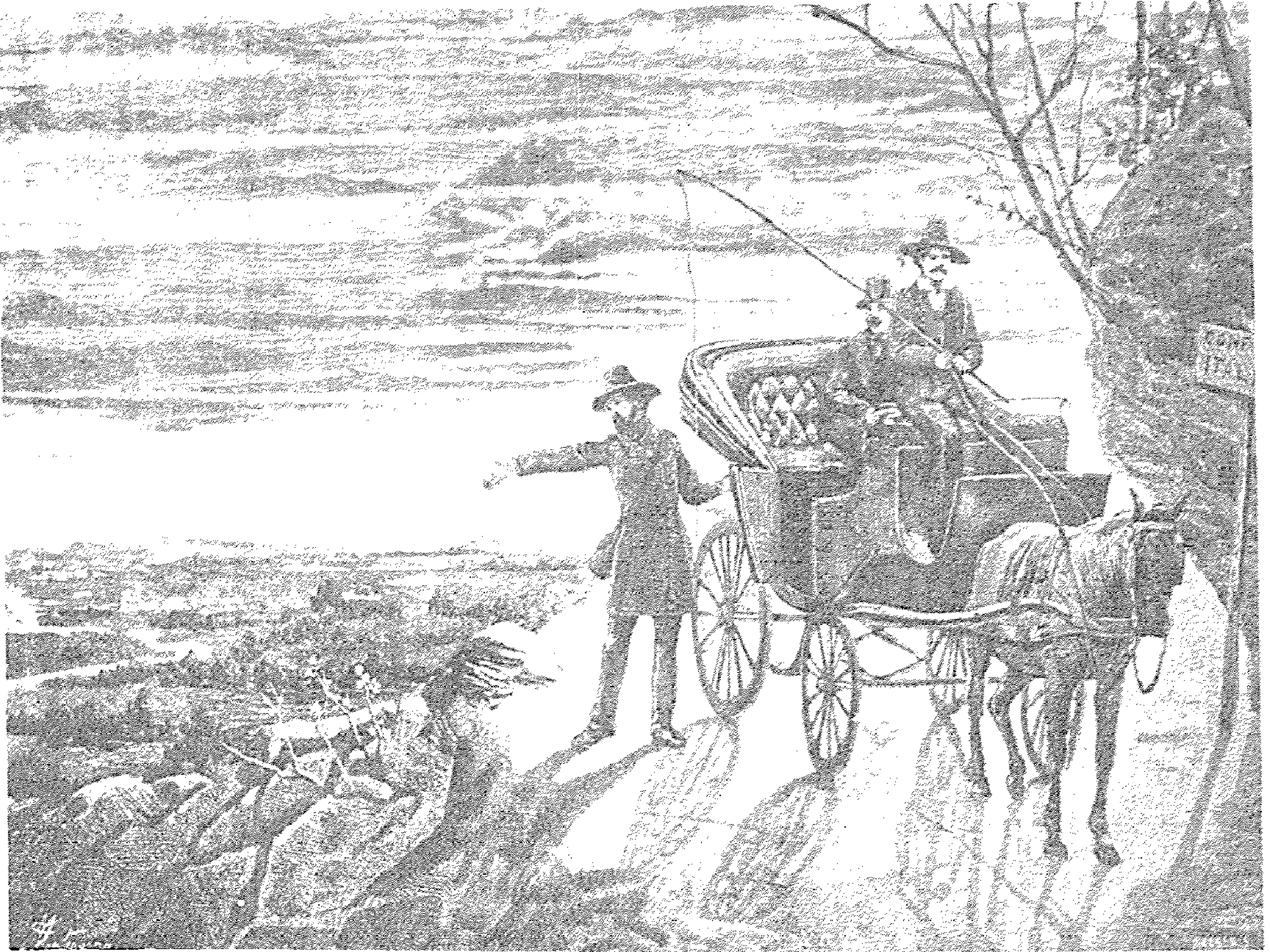
طبيباً واستاذاً جامعياً. وامه التي طبعت شخصيته بمزاياها كانت من اتباع جنسنت وهي التي اعتقدت أن ولدها هو مختار الله. ومذهب جنسنت هذا الذي نما في شمال ايطاليا يتلخصُ ايماناً بالنظام الجمهوري. من هنا ندرك أثر أمه حين كرّس مزّيني نفسه لهذا النظام السياسي.

يُضاف إلى ذلك أن هذا الشاب، وعوضاً عن متابعته دراسة الحقوق في الجامعة، انكبّ على قراءة روسّو وهيغو ولامارتين وشيلر وبايـرون وغوته (مترجماً) مما اقنع هذا الطالب الجامعي مع أن الأنظمة الملكية والأرستقراطية والكنسية هي مدعاة للضحك، وان الشعب مخدوع ومنقسم على ذاته وغارق في الجهل بفعل سياسة رؤسائه، مـع أن الشعب وحده يحمل بذور الحقيقـة ولا يحتاج إلا إلى عبقري كي يجعل هذه البذور تنضج وتثمر.

كان مزّيني مُؤمناً في تعاليمه إن الله خلق البشر أُمماً متعددة؛ إلا أن القليل من هذه الأمم نَعِمَ وتمتّع بالاستقلال والوحدة. أما الأكثريـة الباقية من ايطاليين والمان وبولونيـين وسائـر الشعوب السلافية، فكانت منقسمة ومقهورة. وفي اعتقـاده ان الايطاليـين كانـوا الأكثر تَميُّـزاً؛ فلم يكن لغيرهم هذا التراث الحضاري المجيد ولا هـذا الميـل الطبيعي والعفـوي للاخـلاص

والتضحية. فالحضارة انبعثت مرتين من روما: مرة عبر قياصرة روما؛ ومرة أخرى عبر باباوات روما. وقد حان الوقت ليكون هناك روما ثالثة هي روما الشعب الايطالي. لتكن إذن ايطاليا، التي ثارت وطردت النمساويين بالتعاون مع الأمراء والبابا، جمهورية موحدة دون امتيازات ودون نظام أرستقراطي. ولن يمضي زمن طويل لتتخلّى ايطاليا عن الدين المسيحي كي تضم في جنباتها دين الإنسانية، دين الشعوب كلها.

بهذه الكلمات القليلة يتلخص المذهب المزيني وهذه كانت رسالة الرجل الذي رحّب بملء إرادته بفكرة الذهاب إلى المنفى في مرسيليا عام ١٨٣١ حيث أسس الجمعية الثوريـة المعروفـة باسم «ايطاليا الفتاة». وبعد عدة سنوات من الدعاية الحثيثـة وبعد سلسلةٍ من المحـاولات الفاشلة لتثوير ايطاليا، التقى مزّيني بحفنة من أصدقائه في برت وأسس جمعية «أوروبا الفتاة» وهي التي تنطبقُ مبادئُها على جميع شعوب أوروبا. وفي ميثاق «أوروبا الفتاة» الموقّع عام ١٨٣٤ من قبل ١٧ شخصاً أعطى مزّيني وأصدقاؤه أول تعريف أو تحديد عقائدي للمفهوم القائل بأن على أوروبا أن تكون مجموعة متجانسة من الجمهوريـات الشعبية. وقد جاء هذا التعـريف أو التحديـد تحدياً واضحاً وصارخاً لسياسة مترنيخ في فينّا



□ مزّيني مودعاً وطنه يوم ذهابه إلى المنفى عام ١٨٥١.

ولفكـرة هـذا الأخـير حـول الحكم والنـظام السياسيين.

وفي مواجهة «تحالف الحكام المقدس» كان مزّيني يَجْهَد لإقامة «تحالف الشعوب المقدس». ومع أنه ومتـرنيخ كـان في موقعـين مختلفين، فـاحترامهمـا لبعضهما كـان قائمـاً وملموسـاً لمعرفتهما ان الخط السياسي لكل منهما كان يقوم على مبادىء واضحة. وقد التقيـا حول فكـرة احتقار الدستوريين والمعتدلين من السياسيين. فمبدأ مترنيخ قام على فكرة امبراطورية الأمة الواحدة كما كان الحال في روما القديمة.

وإن كان القرن العشرين قد أثبت صوابية نظرية متـرنيخ إلا أن هـذا لا يستلزم دحضاً لمبادىء وتعاليم مزيني. فلم يكن هذا الأخير ليرى في الدول إلا مبـادىء احتـرام الله وقـوانينـه واحتـرام حقوق الآخـرين والتمتع بـالحريـات الإنسـانية. فـالأمم بنظره كـالعائـلات تتعاون فيما بينها وتنعم بسلام دائم. أما الصـراعات وسوء العلاقات فهي باعتقاده نتيجةً للأنـظمة الملكية والأرستقراطية، وانتهاؤها رهن بقلب هذه الأنظمة. والجدير بالذكر هنا أنه ليس من قبيل الصدف أن يعمد الرئيس ولسون ولويد جورج في العام ١٩١٩ على إعادة رسم خريطة أوروبا على الطريقة المزّينيّة.

وحري بنا القول انه على الصعيد التنظيمي للثورات لم يحرز مزّيني أي نجاح يُذكر. فأهم محاولاته كانت غزو سافوي في نهاية شهر كانون الثاني من العام ١٨٣٨ حيث قاد الحملة الجنرال رامورينو إذ توجه بقواته نحو شامبري لملاقاة ثلاث ماية عنصر بولوني والماني وايطالي كانوا قد تجمعوا في بحيرة جنيف، كما قال مقـرراً أن يسبق عملية الغزو انتفاضة في نابولي وأخرى مساندة لها في تورين؛ إلا أن اكتشـاف الأمر والاعتقالات التي تلت ذلك والرسائل التي وصلت

إلى غير أصحابها وبعضها وصل ولم يُقرأ لرداءة الحبر... كلها أسباب أدت إلى الكارثة الكبرى. فالعناصر البولونية المقاتلة التي أُرغمت على البقاء في قواربها وسط بحيرة جنيف والتي مُنعت من الاقتراب من الشاطىء حدث بمزّيني التقدم إلى الأمـام في طقس بارد ودون ارتـداء عبـاءتـه مما أدى إلى إصابته بالحمى ثم نقله إلى كوخ قريب في حالة من الهذيان والمرض الشديد.

ولم تكن نتائج المحاولات في كلاريا (١٨٤٨) وميلانو (١٨٥٣) وجنوى (١٨٥٧) أحسن حالاً. من هنا يبدو من الخطأ تقييم شهرة مزّيني على اساس انجازاته في حقل التنظيم الثوري. فصيتُه ذاع كنبـي قـوي، وان فشله المتكـرر يخـدم شخصـه بحيث ثُبِّتت قوة عـزيمته ومثـابرتـه واستعـداده الدائم للتضحيـة. «إن شـجـرة الحرية»، يقـول مزيني، «تصبـح أصلب عوداً عنـدما تـرويها دمـاء الشهـداء». وفي مجـال الاستشهاد له قول مأثور أيضاً إذ يقول بمرارة: «إن خنجر الاغتيال يُصبح أكثر إيلاماً عندما يُسَن على ضريح الشهيد». ورغم محاولات مُحبّيه تبرير مسلكيته هذه حول موضوع الاغتيال، تبقى الحقيقة التي لا بد منها وهي انه حاول جاهداً ضمان اغتيال شارل البرت السرديني ولويس فيليب الفرنسي. صحيح أنه لم يكن ضالعاً في محاولتي اغتيال لويس فيليب ولويس نابليون، إلا أنه آمن أن الاغتيال هو أحد الأسلحة المتاحة للثأر. وقد اقرَّ بها كسلاح عَرَضي يُلجَأ إليـه احياناً على عكس الأسلحة الأخرى كالتبشير والتعليم والتحريض على العمل الثوري، والتي تتسم بالاستمرارية وتحتاج إلى جهد متواصل.

ورغم فشل الثورات التي قام هو بتنظيمها بقي لمزيني الوهج الثوري في انتفاضات ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩. وقـد صَحَّت توقعـاتـه حـول الثـورة الأوروبية الشاملة، وكانت جمعية «أوروبا الفتاة» قد استبصرت شيئاً من هذا القبيل. فعندما عمّت الانتفاضات باريس وفينا وروما وعواصم أوروبية اخرى أقل أهمية، ظهر جلياً أن الثورة الشعبية قد أبصرت النور وبدأت تتحقق بحيث أن مزيني الموجود في المنفى في لندن (وبعد قضائه فترة إحدى عشر عاماً هناك) دُعي إلى روما ليصبح ولمدة ثلاثة أشهر فقط رئيساً للجمهورية الرومانية



□ والدة مزيني، التي اعتبرته مختار الله.

التي لم تكتب لها الحياة أكثر من ذلك. فوجود مترنيخ في بريتون والبابا في جيتـا ومزّيني في كويرينال أظهر أن العالم قد انقلب رأساً على عقب وبالطريقة التي أرادها مزّيني شخصياً حتى ولو حصل ذلك لفترة وجيزة وبدأ كغيمة صيف.



□ مزّيني في غرفته خلال زيارته لانكلترا.

فـأتباعـه في روما أُزيلوا من قبـل التقليديـين و «تحـررت» ايطاليـا والمانيـا على يـد كافـور وبسمارك وبذلك انتهت قيادة مزيني في العام ١٨٤٩.

مهما يكن من أمر، فإن الحقبة الأخيرة من حياته كانت في بعض جوابنها مؤثرة جداً وإن لم تكن ذات تأثير كثير. فقد بقي متمسكاً بمبادئه وتعاليمه وإيمانه دون التسليم بـأي شيء إلى منافسيه؛ كما بقي مناهضاً لكافور وغاريبلدي وماركس والبابا ونابليون وفكتور إيمانويل. ومع إطلالة منتصف القـرن التاسـع عشر بدا أن أكثرية التقدميين الايطاليين متحمسـة ومجنّدة لفكرة الاتحاد بين الدويلات الايطالية برئاسـة البابا أو عمانوئيل أو الإثنين معاً. أما مـزيني، فلم يكن متحمساً ولا مجنداً للتسويات السياسية بل بولادة جديدة لايطاليا. وبعد أن توحـدت ايطاليا في العام ١٨٦٠، بدأ يشعر أنّ ما قالته رفيقته وعشيقته جيديتا سيدولي حول الاتحاد صحيـح. وقد جـاء قولهـا معبراً جـداً «لقـد استطاعوا توحيد إيطاليا ولكنهم الآن ينهشون جسدها».

مع أن المعتقدات الوطنية والديمقراطية كانت مشتركة بـين مزّيني وغـاريبلدي، إلا أن هذا لم يكن كافياً لتـوحيد مـوقفهما. كـذلك الأمر بالنسبة إلى النقاط المشتركة بين مزّيني من جهة وماركس وقادة الأمميّة الأولى من جهة أخرى. فاجتماعه الأول بكارل ماركس في لندن جعله يشعر بكره غريزي نحوه. وكان الأمر مماثـلاً بالنسبة إلى شعوره تجاه باكونين. فهذا الأخير شرع بانشاء خلايا للعمل الاشتراكي في شمال ايطاليا حيث النفوذ المزيني الكبير، كما حاول استمالة العمال المنتمين إلى مزّيني مما حثه على شن هجوم على الاشتراكية متّهماً إياها شتى التهم منها الالحاد وتقديم المصلحة على الواجب

الوطني والطغيان. بينما كان هو التوّاق أبداً ودائماً إلى الإيمان والمحبة والمساعدة المتبادلة ضمن عمل جماعي وطوعي. وقد اعتبره ماركس من بقايا الماضي الميؤوس منهم.

وفي آخر أيام حياته انشغل مزّيني كلياً بأوضاع ومشاكل العمّال، لذا اعتُبِرَ بجدارة افضل صديق للرجل الكادح ورائداً لفكرة ايطاليا الموحدة. ويوم جنازته مشى وراء النعش جمع غفير يتقدمهم ممثلو الجمعيات العمالية التي اشرف شخصياً على تأسيسها.

هكذا كان اثر شخصيته عظيماً في نفوس أبناء وطنه الايطاليين، حتى في أحلك الظروف التي مرت عليهم. فعندما تهجموا على الكنيسة في الثمانينات والتسعينات، وعندما اشتركوا بالحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥، وعندما أيّدوا موسوليني... في جميع هذه الظروف، شعر الإيطاليون أن الكثير من تعاليم مزّيني كانت تُنير خطاهم. فشهرته طغت على شهرة كافور وغاريبلدي. ولا يعود السبب في ذلك لصحة توقعاته وتنبؤاته بل للعاطفة الخالصة التي كان يَكنّها شعبه له. فاخلاصهم له كان استجابة لاخلاصه الطوعي والدؤوب لهم ولايطاليا معاً، ولايمانه بمستقبل وطنه الزاهر، مما ترك له أتباعاً كثيرين ومنهم صديق صباه برنسيبيا دي بلجيوزو الذي قال فيه: «سعى مزّيني ليصبح حليف الله؛ ولكن إلهه كان من طينة إله الثوار الفرنسيين وليس من طينة الإله الذي عبَدَه الايطاليون. مع هذا فقد نجح في سنوات قليلة بالايحاء لشعبه بكراهية السيطرة وخاصة سيطرة الغرباء وبمحبة الحرية والاستقلال لجميع شعوب الأرض».



لا بد للمحزون أن يسلى!!

● لما عزل الخليفة المعتصم بالله، وارغم على مبارحة قصر الملك، وترك أبهة الخلافة.. دمعت عيناه وقال: سبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. ولما أنزله الثوار قهراً إلى سفينة تقلع به خارج المملكة، نظر إلى قصره في أسى وحسرة، وأنشد:

يا منزلا لم تبل أطلاله ... حاشا لأطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكنني ... بكيت عيشي فيك إذ ولى
والعيش أحلى ما بكاه الفتى ... لا بد للمحزون أن يسلى

فلما سمعه أحد الأمراء أخذته الشفقة عليه، ولكنه تذكر تصرفاته التي أدت إلى خلعه فأنشد:

أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

أوصيك بأولادي

● دخل أعرابي على الحجاج وأمامه نوع من الحلوى اشتهر طاهيه بإجادته. وكان الأعرابي من المولعين بهذا الصنف. فدعاه الحجاج ومن كان حاضراً المجلس إلى مشاركته. ولم يكد الأعرابي يتذوق الحلوى ويعجب بها حتى التفت الأمير إلى الحاضرين وقال: أيها الناس كفوا أيديكم عن الأكل، ومن أكل من هذا الطبق ضربت عنقه. فكفوا جميعاً إلا الأعرابي الذي مد يده في نهم وقال: أيها الأمير أوصيك بأولادي خيراً! فضحك الحجاج وأعطاه الطبق كله.

العلوم المساعدة للتاريخ

■ د. حسّان حلّاق

من الخطأ الاعتقاد أنه بإمكان المؤرخ أن يقوم بالكتابة التاريخية اعتماداً على معلومات ومصادر تاريخية فحسب، ومن الخطأ الاعتقاد بأن التأريخ (Historio-graphy) يمكن فصله عن بقية العلوم. فبالرغم من أنه علم قائم بذاته، غير أن منهج البحث التاريخي أثبت أن للعلوم المساعدة مكانة هامة في العمل التاريخي، وأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين التاريخ وبين هذه العلوم.

فالدراسات التاريخية التقليدية تعتمد في منهجيتها على سرد المعلومات التاريخية فحسب دون أن تأخذ بعين الاعتبار ما للعلوم الأخرى من أهمية في مثل هذه الدراسات. في حين أن الدراسات التاريخية المعاصرة تحرص على ربط التأريخ بالعلوم المساعدة بما فيها الكمبيوتر.

وفي هذه الدراسة التي يقدمها د. حسان حلاق لقراء «تاريخ العرب والعالم» دلائل على ما للعلوم المساعدة من أهمية في كتابة البحوث التاريخية.

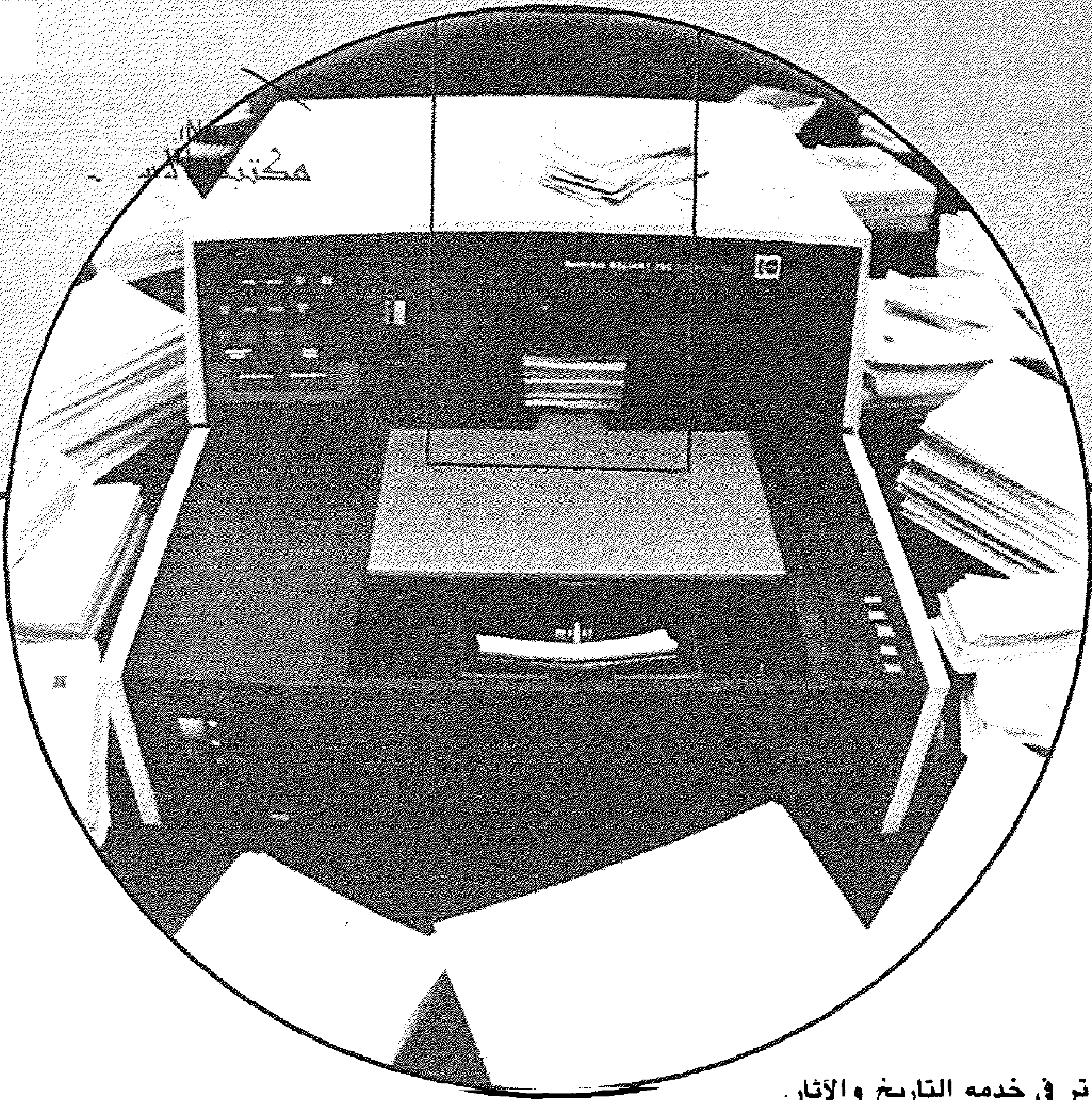
ما هو التاريخ؟ هل التاريخ علم؟



يقول «جوزف هورس» (Joseph Hours) في (Valeur de L'Histoire) «قيمة التاريخ»: إن بين التاريخ والعلوم فارقاً أساسياً يُباعد بينهما حتى المعارضة، فالعلم يبحث في الحوادث الملحوظة، عن المشابهات التي تظهر، ويكشف عن العناصر المشتركة في الوقائع حيث يتعرفها في حقيقتها، فيبحث بعد ذلك عن أسباب تكرار هذه الملامح تكراراً متشابهاً في وسط ظروف مختلفة جداً. فيصوغ لهذا الناتج احتمالات تثبت حقيقتها في ما بعد بالاستدلال العقلي أو بالاختبار. وهكذا ينتهي العلم إلى إثباتات تقرر ميزة عامة أو قوانين وتجتهد في تنسيقها في نظام.

يضيف هورس قائلاً: أما التاريخ فعلى العكس لأنه لا يرتبط بالوقائع التي يضع لها حدوداً، إلا بحكم ما هو موحد بينها. وهذا ما كشف عنه كورنو بقوة لا مثيل لها، ذاهباً إلى حدٍّ أنه لم يترك للتاريخ كحقل خاص به إلا فضلة «كل ما يرفض بطبيعة أن يخضع للعقل، وكل ما ينزل منزلة ما لا حلّ له في حدود العلاقات الضرورية لوضع نظام». ثم ختم هورس قائلاً: «بلا ريب، إن التاريخ يبحث عن الأسباب التي كانت وراء تتابعها ويجتهد في جعلها مترابطة متسلسلة، يعني يبحث للوصول إلى تفسير يرضى عنه العقل، ولكن صفة العلم تبقى غير متوفرة على حقيقتها».

أما ج. هرنشو (G. Hearnshaw) فيجيب عن سؤال: هل التاريخ علم مستشهداً بأقوال عدد من العلماء والفلاسفة والأدباء، فقد أشار



□ الكمبيوتر في خدمه التاريخ والآثار.

د. ج. ب. بيوري (J. B. Bury) (١٨٦١ — ١٩٢٧).. وهو من أشهر مؤرخي إنجلترا في الربع الأول من القرن العشرين — «من أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل». بينما أشار هرنشو إلى أن الفلاسفة الطبيعيين انبروا من ناحية ليثبتوا أن التاريخ دون العلم بكثير، في حين انبرى رجال الأدب ليثبتوا بأن التاريخ هو فوق العلم بكثير. ويذهب رجال الأدب في آرائهم إلى أن التاريخ سواء كان علماً أم غير علم، فهو لا ريب فن من الفنون.

ويرى «هرنشو» بأن التاريخ — بما للطبيعة البشرية من خصائص ثابتة، وبما للانسان من تأثير دائم على البيئة الجغرافية — يقوم على أصول تضارع قيمتها على أقل تقدير، ذرات الكيماوي الغامضة والكترونات الفيزيقي الرواغة. «إن التاريخ يبحث في الفعل وردّ الفعل الصادرين عن إنسان غير متغيّر أصلاً، وعن بيئة غير متغيرة أصلاً، ذلك هو التاريخ». ويضيف بأن التاريخ علم ولكنه ليس علماً كالفلك الذي هو علم معاينة مباشرة، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق. ومراحل بحثه الأساسية ثلاث:

١ — **مرحلة التجميع**: وهي مرحلة تجميع الوثائق وهذه المرحلة تتطلب مؤرخاً قادراً يملك ملكة فنية عالية، ودراية علمية فائقة بفقه اللغة، وقراءة النقوش والخطوط والرسائل الدبلوماسية..

٢ — **مرحلة النقد**: وهي مرحلة يفحص فيها المؤرخ عبارات الوثائق الخطية، والأدلة التاريخية ليتثبت من صحتها وقابليتها للتصديق، وصحة أصلها ودقة روايتها.

٣ — **مرحلة التأويل**: وهي من أصعب المراحل لا سيما عند كتابة تاريخ غامض أو كتابة التاريخ الذي يكثر فيه الجهل وسرعة التصديق

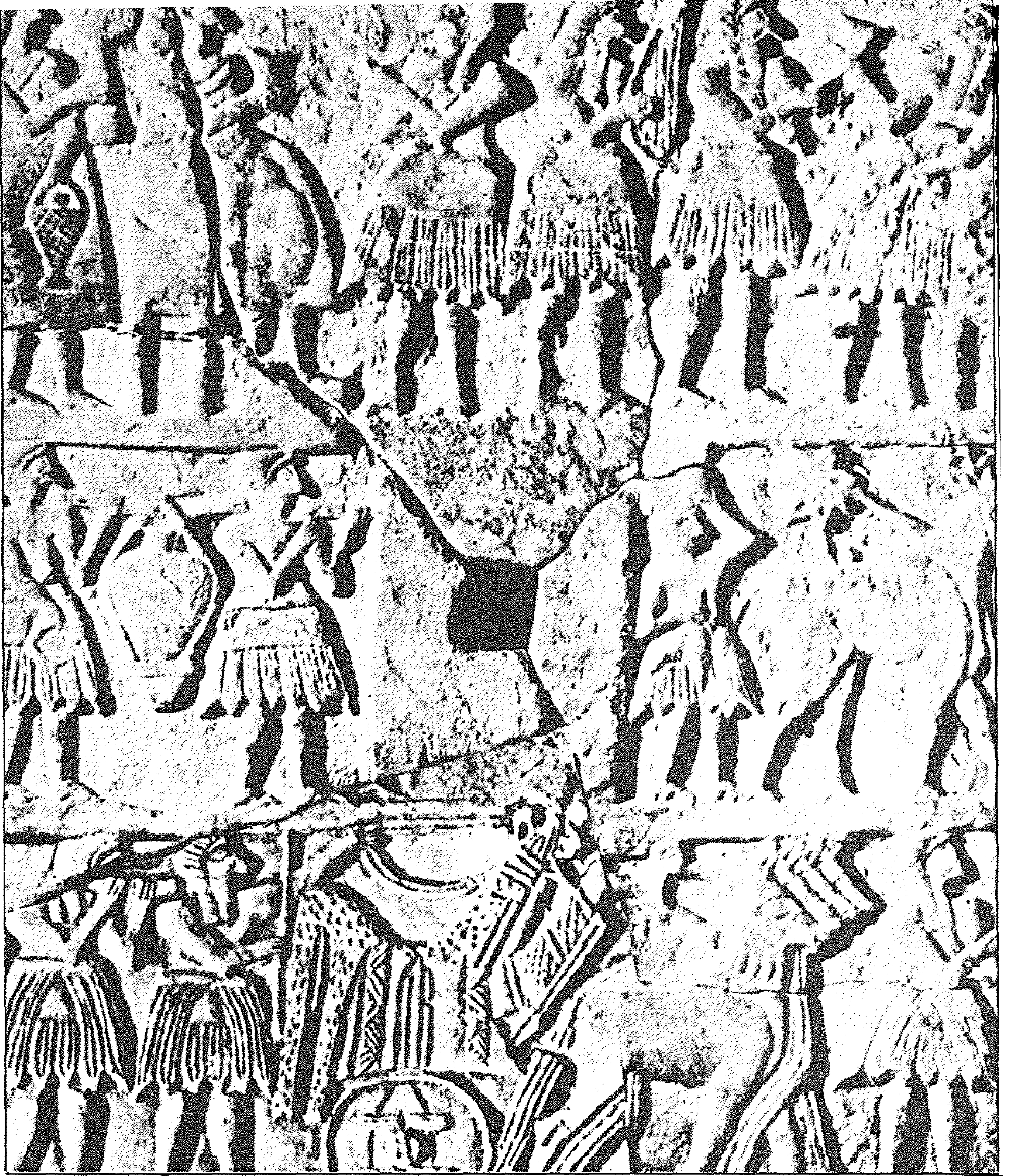
وافتراء الكذب، التي يوصف بها من كتبوا عن العصور الوسطى مثلاً، فالتأويل في هذا المجال يحتاج إلى عناية ودقة وتؤدة.

ويرى «إدوارد كار» بأن التاريخ يتكون من مجموعة كاملة من الحقائق المؤكدة التي تكون متوافرة للمؤرخ من خلال الوثائق والنقوش وما إلى ذلك، ويقوم المؤرخ بجمعها ثم ينظمها ويقدمها بالأسلوب الذي يروق له. وينقل قول العالم«اكتون» (Acton) الذي قال: «إن واترلو التي نؤرخها يجب أن ترضي الفرنسيين والانجليز، والألمان والهولنديين بالطريقة نفسها...» وأضاف «كار» أنه في المقام الأول احصل على حقائقك بصورة صحيحة ومن ثم أقحم نفسك في خطر رمال التفسير والتأويل المتحركة، تلك هي الحكمة المطلقة للمدرسة التجريبية والفطرية. إنها تذكّر بقول مأثور للصحافي الليبرالي سي. بي. سكوت (C.P. Scott): «الحقائق مقدسة أما الرأي فهو حر» (Facts are sacred, Opinion is free). ورأى «كار» بأنه مهما يكن فإن حقائق التاريخ لا تصل إلينا مطلقاً بصورة بحتة لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد. إنها دائماً تنعكس من خلال ذهن المدوّن. ومن المهم «إذا ما تناولنا عملاً تاريخياً فينبغي أن لا يكون اهتمامنا الأول منصباً على الحقائق التي يتضمنها وإنما على المؤرخ الذي كتبها». ذلك أن المؤرخ ابن عصره وابن بيئته وفي بعض الأحيان هو ابن لطائفته كما هي الحال في بعض البلدان والمناطق، وابن لحزبه كما هي الحال في بعض البلدان الأخرى، وهو مقيد بهذه الظروف بحكم اتجاهاته وانفعالاته وميوله.

ومن هنا يمكن القول بأن الحقائق التاريخية والوثائق الأصلية قد تختلط مع الاتجاهات الخاصة للمؤرخ، كما أن بعض المؤرخين قد يستخدمون وثائق بين أيديهم تخدم اتجاهاتهم الفكرية، ويغضّون الطرف عن وثائق يملكونها لأنها تدين التيار الذي ينتمون إليه. علماً أن الحكومات والدول تعمد بدورها إلى تشويه التاريخ حين تفرج وزارات الخارجية في بعض البلدان الأوروبية مثلاً عن بعض وثائقها ومراسلاتها السرية، وتمتنع عن الافراج عن بعضها الآخر. بالاضافة إلى ذلك فإن الوثائق المسموح بالاطّلاع عليها قد تشطب منها بعض العبارات أو الأسطر، وهذا كله يساهم مساهمة أساسية في تزوير الحقائق وتشويهها. فالمؤرّخ وإن اعتمد على جميع الوثائق التي وضعت بين يديه، غير أن هذه الوثائق هي بطبيعتها منتقاة ومختارة بأسلوب رسمي من قبل الحكومات والدول (على سبيل المثال وثائق وزارة الخارجية البريطانية .F.O، ووثائق وزارة الخارجية الفرنسية Quai d'orsay). بينما تعتبر مثلاً وثائق وسجلات المحاكم الشرعية أكثر صدقاً من الوثائق السياسية المنتقاة(١).

وحول علاقة التاريخ بالعلم يرى«إدوارد كار» بأن المؤرخين أنفسهم هم الذين يتحاملون على التاريخ بإدخالهم له في إطار «الآداب الانسانية». ورأى أن لا تعارض بين التاريخ والعلم ومما قاله: «إن اعتراضي الرئيسي على رفض تسمية التاريخ علماً هو أن ذلك يبرّر الانشقاق بين ما يسمى «ثقافتين» ويحافظ عليه. وهذا الانشقاق هو أحد مخلّفات ذلك التحامل القديم المستند إلى البنية الطبقية للمجتمع الانجليزي الذي صار من مخلّفات الماضي. وأنا لست مقتنعاً بأن الهوّة التي تفصل المؤرخ عن الجيولوجي أعمق أو أكثر تعذراً من الهوّة التي تفصل الجيولوجي عن الفيزيائي. لكن الطريقة لرأب الانشقاق ليست — في رأيي — تعليم العلم الابتدائي للمؤرخين أو التاريخ الابتدائي للعلماء. إن ذلك طريق مسدود قادنا إليه التفكير المشوّش. إن العلماء أنفسهم لا يتصرفون على هذا النحو، فلم يسبق لي أن سمعت أحداً ينصح المهندسين بحضور دروس ابتدائية في علم النبات. إن العلاج الذي اقترحه هو تحسين مستوى تاريخنا، أي جعله — إذا تجرأت على هذا القول — أكثر علمية، والتشدّد في ما نطلبه من الذين يتولّون هذا العمل.. إن التاريخ موضوع أكثر صعوبة من الكلاسيكيات وأنه يعادل في جديته أيّ علم آخر».

ويمكن القول بأن التاريخ بما يتميز من صفات مرنة، باستطاعته أن يحوي كل العلوم، إذ بإمكان المؤرخ ضمن اختصاصه أن يكون مؤرخاً للشعوب والدول والأحداث وفي الوقت



□ الآثار والنقوش من العلوم المكملة للتاريخ.

نفسه يمكن أن يكون مؤرخاً للعلوم والهندسة والطب والفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات.. وبمعنى آخر فإن التاريخ باستطاعته أن يستوعب مختلف العلوم والآداب وهو الوحيد القادر على احتوائها في قالبه التاريخي المميز. فالملاحظ أن هناك تاريخاً للعلوم كالهندسة والطب مثلاً، ولكن ليس في المقابل هندسة تاريخية أو طب تاريخي إنما هناك تاريخ للطب...

ويرى «لويس جوتشلك» (Louis Gottschalk) في كتابه «كيف نفهم التاريخ؟» (Under Standing History) «من المؤكد أن التاريخ علمي في منهجه، فإن ملايين الحقائق التاريخية يمكن أن تقرر بحيث تقنع غير المختصّين والخبراء على حدٍّ سواء.. فالمنهج التاريخي علمي في حدود، أي إن نتائجه تخضع للتحقيق والاتفاق بين الخبراء وعدم الاتفاق بينهم عن فهم وإدراك، وتدوين

التاريخ أقرب إلى الفن أو الفلسفة أو الجدل أو الدعاية أو الدفاع الخاص. فقد يدعو المؤرخ أحياناً، عن وعي منه، إلى الأخلاق، ويقوم بهذه العملية أحياناً عن غير قصد، وهو في هذه الحالة الثانية صاحب فلسفة.. فالكاتب الذي يظن أنه ليست لديه فلسفة للتاريخ أو الذي يعتقد أنه في معزل عن كل تأثير يخدع نفسه بنفسه، اللهمّ إلا إذا كان يتمتع بصفات لم يحرزها البشر، وهو عند ذاك أدعى إلى خداع الآخرين مما لو كان يعتمد الكذب. والمؤرخون عندما يتطرقون إلى الدفاع عن الموضوعية العلمية للتاريخ، فإنهم في الغالب يعنون قدرة المؤرخ على إثبات حقائق مفردة أو إثبات تسلسل الحوادث. فإن لم يصروا على أن تفسيراتهم الخاصة هي التفسيرات الوحيدة الممكنة الصحيحة، فليس في مقدورهم أن يزعموا بأنهم يتجاوزون المعقول كثيراً في تقييمهم واختيارهم وتوكيدهم وترتيبهم لتلك الحقائق أو التسلسلات. ولما كانت هناك عوامل كثيرة متغيرة تدخل في الأحكام التاريخية فليس المدهش هو اختلاف المؤرخين وإنما هو اتفاقهم كلما اتفقوا».

العلاقات القائمة بين التاريخ والعلوم المساعدة

وفي هذا المجال يمكن أن نطرح موضوع العلاقات القائمة بين التاريخ والدراسات والعلوم الانسانية والاجتماعية. فالتاريخ يتصف في أحد جوانبه بصفات العلوم الاجتماعية، وعلى هذا فإن المؤرخ كعالم اجتماعي أو كعالم إنساني لا يحتاج بالضرورة أن يكون ذا شخصيتين منفصلتين، إذ أنه من اليسير الجمع بينهما في شخص واحد. ولا شك في أن الايجابيات التي تعود على كلٍ من الدراسات الانسانية والعلوم الاجتماعية تزداد أهمية إذا لم يحدث في شخصية المؤرّخ انفصام. فالاختلاف بين العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية يمكن أن يظهر بسهولة، فإن كلاً منهما يعالج موضوع الانسان من حيث هو كائن اجتماعي يتميز بالذكاء والدراية، ولكن العالم الاجتماعي عادة يميل إلى التنبؤ ويلتفت للحاضر والمستقبل، في حين أن العالم الانساني لا يهتم بالحاضر والمستقبل فحسب، بل يهتم بالماضي أيضاً ويحرص على توجيه عنايته إلى هذا الماضي وسبر أغواره. ومهما يكن من أمر فلا بدّ من الاشارة والتأكيد على العلاقة الوثيقة القائمة بين العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية.

أما فيما يختصّ بالعلوم المساعدة للتاريخ، فالعلوم الاجتماعية أحدها، وهناك العلوم الجغرافية والاقتصادية والسياسية، والعلوم العسكرية أيضاً، بالاضافة إلى العلوم البحتة والآداب وفقه اللغة (Philology)، وعلم خصائص الشعوب «الأتنولوجيا» (Ethnology) وعلم الانسان «الأنتروبولوجيا» (Antropology) وكتب علوم الكرونولوجي (Chronology) (التأريخ حسب التسلسل التاريخي)، وسوى ذلك من علوم يمكن أن تقدم مادة مساعدة للتاريخ بما فيه الشعر والمعلّقات الذي قد تصوّر لنا بعض وجوه الحياة السياسية والعسكرية والدينية والصراعات القبلية...

ومن الأهمية بمكان القول إن «علم الآثار» «الأركولوجيا» (Archaeology) و «علم النقوش» (Epigraphy) تعتبر من العلوم المكمِّلة أو المساعدة للتاريخ، ذلك لأن الأثريين والمنقبين يقدّمون عادة للمؤرّخ معلومات ميدانية مستقاة من معاينتهم للأماكن الأثرية ودراسة ظواهرها العمرانية المتعددة. كما أن علماء النميات أوالمنمنمات يقدمون للمؤرّخ معلومات عن النقود التي يكتشفونها ويفكّون رموز كتاباتها، وكذلك الأختام. ولا ينسى في هذا المجال أهمية علماء الأنساب الذين قدموا قواميس للأعلام وجداول للأنساب. كما لا بدّ من الاشارة إلى أهمية المفهرسين الذين وضعوا مؤلفات عدّة ومتنوعة حددوا بموجبها أسماء المؤلفين ومؤلفاتهم، وكذلك المعاجم اللغوية، وعلماء الجغرافية الذين قاموا بتأليف مصنفات جغرافية عن البلدان. والعلوم الاحصائية سواء المتعلقة بأعداد السكان أو بالأوضاع الاقتصادية أو بالأوضاع الاجتماعية، يمكن تكريسها في خدمة التأريخ لا سيما عند الكتابة لبلد ما عن حالة سكانية أو اقتصادية. ومن العلوم المساعدة للتاريخ علم «حساب التواريخ»، وهو العلم الذي يسهّل للمؤرّخ مسألة هامة، وهي مسألة قياس ومقارنة

الزمن وضبطه. فعالم حساب التواريخ يشرح التقاويم والتواريخ العديدة التي كانت مستعملة ــ أو لا تزال ــ ويجعل بمقدورنا أن نحوّل التواريخ من تقويم إلى آخر. وهذا أمر على غاية كبرى من الأهمية بالنسبة للمؤرخين فقد تواجه الكثيرين منهم بعض التواريخ الهجرية أو العبرية أو القبطية، ويحرصون على معرفة ما تعادله في التاريخ الميلادي مثلاً. فكتب ومصنفات التقاويم تحلّ هذه المشكلة وتعرّف المؤرّخ إلى أن هذا التاريخ الهجري يعادله ذاك التاريخ الميلادي وهكذا، ومصنفات التقاويم الأجنبية والعربية موجودة في المكتبات العامة ويمكن الاستعانة بها لدى الدارسين والباحثين والطلبة. وفي الفترات الأخيرة أمكن ترتيب هذه التقاويم اعتماداً على الكومبيوتر. ومن المعروف مثلاً أن الدولة العثمانية، اتبعت في بعض فتراتها التاريخية لتواريخ الهجرية والشمسية والميلادية وكذلك كان لها سنة مالية تختلف عن السنة الميلادية المعروفة وكان على الدارس أن يقارن بين هذه التواريخ المختلفة. هذه العلوم جميعها تعتبر من العلوم الهامة والمساعدة والضرورية في كتابة التاريخ. وبالرغم من أن «كولنجوود» (Collingwood) يعتبر أن التاريخ علم مستقلّ غير أن التاريخ منفصل عن بقية العلوم يعتبر علماً مبتوراً ومنقوصاً. ومن هنا ضرورة التأكيد على عملية «التكامل العلمي» الموجودة فعلاً بصورة أو بأخرى بين مختلف العلوم. بل إن المؤرّخ البريطاني «إدوارد فريمن» (E.A. Freemen) يقول بأن المؤرّخ يجب أن يعرف كل شيء: الفلسفة، القانون، المالية، الأجناس، الجغرافيا، علم الانسان، العلوم الطبيعية.. ويضيف متسائلاً: «أوليس المؤرخ معرضاً لأن يصادف في دراسته للماضي، مسائل في الفلسفة والقانون والمالية..؟ وبقدر ما تتعدد الفروع الخاصة في المعارف التي يكون حجة فيها، يكون أكثر استعداداً لعمله الذي اتخذه مهنة له»[٢]. ومن هنا لا بدّ من الاشارة إلى ما للعلوم الاحصائية من أهمية بالغة كعلوم مساعدة في التاريخ، لا سيما وأن الدول المتقدمة استطاعت أن تستخدم هذه العلوم ليس في مجال الاحصاء البحت فحسب، وإنما في مجال الاحصاءات المرتبطة مباشرة بالدراسات التاريخية. ويمكن أن نلخص هذه العلوم المساعدة للتاريخ على النحو التالي[٣]:

١ ــ اللغة وفقه اللغة «الفيلولوجيا» (Philology): إن من واجب المؤرّخ أن يعرف اللغة كلغة يستطيع بواسطتها ترجمة النصوص وتحليلها و.. ثم إن معرفة فقه اللغة مسألة على غاية من الأهمية. بمعنى إدراك المؤرّخ للمعاني والتعابير اللغوية التي كتبت بها النصوص والوثائق لا سيما إذا كانت في تاريخ العصور القديمة والوسيطة والقرون الانتقالية الحديثة إلى القرن التاسع عشر، ذلك أن الكثير من التعابير التي كانت متداولة في السابق هي غيرها اليوم.

ولقد اعتبر حلّ رموز اللغات القديمة من العلوم المساعدة للمؤرّخ على التأريخ للحقب التاريخية المجهولة. فمنذ أن توصل العالِم الفرنسي «جان فرنسوا شامبليون» (J.F. Champollion) عام ١٨٢٢ إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية، فإن الغموض الذي كان يكتنف تاريخ مصر القديم بدأ ينقشع وينحسر، ذلك لأن المؤرخ تمكّن من الاطّلاع على النصوص والنقوش (Inscriptiones) والكتابات على أوراق البردى (Papyri)، مما سهّل المساهمة في كتابة تاريخ مصر القديم. ومنذ أن تمكن العالم البريطاني «السير هنري رولنسن» (S.H. Rawlinson) بين أعوام ١٨٤٧ ــ ١٨٥٠ من حل رموز الكتابة المسمارية لبلاد ما بين النهرين بدأت الدراسات التاريخية والأثرية تظهر تباعاً عن تلك المنطقة وتعمل على إماطة اللثام عن عالم مجهول التاريخ القديم. ومن يودّ التخصّص في حقبة تاريخية معينة عليه إتقان وإلمام باللغات التي كانت سائدة ولا تزال. ذلك أنه من اللافت للنظر أن الكثير من المؤرخين ممّن يدرسون ويعملون على التاريخ اليوناني مثلاً، لا يتقنون ولا يلمّون باليونانية أو اللاتينية، والكثير من المتخصصين في الدراسات القديمة لا يتقنون الفينيقية أو المسمارية أو الهيروغليفية، وهذا قُصُور واضح من قِبَل الجامعات الأجنبية والعربية على السواء. وكم من الدارسين يخيّل إليهم ــ دون أن يدرسوا اللغة الفرنسية واللغة

اللاتينيةالمستعملتين في العصور الوسطى ــ أنهم يعرفونهما لأنهم يفهمون اللغة الفرنسية الحديثة أو اللغة اللاتينية الكلاسيكية، ويستبيحون لأنفسهم تحليل وتفسير الوثائق والنصوص التي لا يدركون حقيقة معناها، مما يسيء إلى النص وروحيته. وما ينطبق على هذه اللغات ينطبق أيضاً على اللغة التركية التي كانت تستخدم الحروف العربية، فاللغة التركية ــ اللاتينية (بالحرف اللاتيني) هي غيرها بالحروف العربية من حيث قواعدها وتعابيرها، وإن كانت تلتقي معها في الكثير من التعابير. فمن يتقن التركية المعاصرة ليس بالضرورة قادراً على فهم حقيقة التركية القديمة. علماً أن أحداً لا يستطيع أن ينكر ما للغة التركية (بالحروف العربية) من أهمية في فهم وكتابة تاريخنا الحديث نظراً لوجود العثمانيين في البلدان العربية ما يقارب الأربعمائة سنة (١٥١٦ ــ ١٩١٨).

وما يقال عن تلك اللغات يقال أيضاً عن الخط العربي القديم الذي لا يمكن لغير المتخصصين من قراءته وتفسيره. ولهذا حرص بعض البحّاثة في التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر على إصدار قواميس مساعدة، لا تقوم بمهمة الترجمة، بقدر ما تقوم بمهمة تفسير الألفاظ والتعابير التي كانت شائعة في عصر ما. ومنها على سبيل المثال قواميس تاريخية لدوزي (Dozy) وللأب رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللهجة اللبنانية ــ السورية، كما صدر في السنوات الأخيرة كتاب للدكتور أحمد السعيد سليمان يفسر فيه التعابير الغريبة الواردة في تاريخ الجبرتي، واسم هذا الكتاب ــ القاموس: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل. وقد تجابه المؤرخ بعض العبارات المختصرة وهو الأسلوب الذي اتبعه الأوائل. وقد واجهت شخصياً وجود مثل هذه الاختصارات أو الادغامات أو التقطيعات أثناء بحثي في سجلات المحكمة الشرعية في بيروت، غير أن الدراسة والعمل المستمر يمكن أن يذللا هذه العقدة. وقد ورد عند ابن سينا في «كتاب الشفاء» مثل هذه الاختصارات، ومن يجهل معنى الاختصارات لا يستطيع فهم البحوث المعتمدة عليها، ومنها على سبيل المثال: مح = محال، مع = معلول، لامحة = لا محالة، لا ينح = لا يخلو، كك = كذلك، المقص = المقصود، ظ = ظاهر، يق = يقول، ح = حينئذ، ومنها أيضاً: ش = شوال، ص = صفر، ر١ = ربيع الأول، ج١ = جمادى الأولى...

٢ ــ علم قراءة الخطوط (Paleography):

وهو من العلوم الأساسية لدراسة أوجه كثيرة من التاريخ، منذ أقدم العصور حتى الأزمنة المتأخرة. ذلك لأنه توجد أنواع متعددة من الخطوط الشرقية والغربية هي بمثابة الطلاسم لكل من يجهل قراءتها. وهذه المعضلة واجهت الكثير من طلبة التاريخ الذين كانوا يعملون على الأرشيف الفرنسي أو البريطاني أو الايطالي في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. كما واجهت الطلبة الذين كانوا يعملون على الأرشيف التركي سواء في تركيا أو في البلدان العربية[٤]. فهناك اللغة التركية المكتوبة بخط القيرمة. وهناك الخطوط العربية المتعددة منها: الطومار، النسخي، الرقعة، الثلث، الموفي، الفارسي، المغربي، والغبار. هذا عدا الخطوط ــ الطلاسم العائدة للعهود اليونانية والرومانية والفرعونية...

٣ ــ علم التوثيق (Documentation):

وهو غير علم الوثائق، ولكن يرتبط به بصورة أو بأخرى. وعلم التوثيق هو العلم الذي يهتم بالعمل التوثيقي نفسه وحفظ المعلومات التاريخية وغير التاريخية. وهو علم تجميع واختزان وتنظيم المواد والوثائق المدوّنة لتصبح في متناول الباحث. وهو يعرف أيضاً بفن استخدام المعلومات المتخصصة، بواسطة تقديمها ونسخها واسترجاعها في الوقت المناسب، وذلك بهدف استخدامها في كشف الحقائق ودعم حق من الحقوق أو الاستدلال والبرهان على رأي أو حالة من الحالات.

والحقيقة فإن التوثيق حالة أو علم قديم يعود إلى نشوء الكتابة. ففي بلاد ما بين النهرين عثر على نصوص وسجلات محفوظة على ألواح من الطين، وفي العهد الأشوري تميزت مكتبة «أشور بانيبال» بتنظيم متقدم. وقد عثر في معبد مدينة «نفر» السومرية على خزانة ضمت آلافاً من الألواح الطينية تضمنت نصوصاً علمية وأدبية ودينية. كما عثر في مدينة «أورك» (الوركاء) على

مجموعة من القوائم ــ القواميس اللغوية. كما شهدت مصر وبلاد اليونان والرومان وبلاد المسلمين حركة هامة من حركات التوثيق والفهرسة(٥).

لقد أدرك العالم القديم أهمية التوثيق، فالأولى بعالمنا المعاصر إدراك هذه الأهمية. فمن الأهمية بمكان القول إن المؤرّخ لا يمكنه في وقتنا الحاضر الغوص في عشرات الآلاف من الوثائق والمخطوطات والمصادر والكتب والدوريات، دون أن تكون هذه المستندات محفوظة موثقة لها ارقام ورموز معينة في العقل الألكتروني «الكمبيوتر» (Computer). وعند حاجة الباحث لأيّ مصدر أو مستند يُلقم الكمبيوتر الرقم الخاص بالمصدر، وفي خلال دقائق تستحضر المادة المطلوبة، في حين أن الطريقة التقليدية في البحث عن المصادر واستحضارها قد تحتاج إلى ساعات وأيام. فهناك مكتبات في العالم تضم اليوم الملايين من الكتب والمصادر مثل مكتبة الكونجرس الأميركي ومكتبة موسكو والمكتبة الوطنية في باريس ومركز الوثائق في لندن(٦).. فكيف يمكن للباحث العودة إلى مصادره التي يتوخّاها بالطريقة التقليدية المعروفة في بلادنا؟.

والحقيقة فإن علم التوثيق أصبح اليوم من العلوم الأساسية المساعدة في كتابة التاريخ. وقد ادخلت التقنية الحديثة في علم التوثيق، ومن أهم هذه التقنيات لحفظ المعلومات ثم إعطائها للمؤرخين ولسواهم عند الطلب هي: الميكروفيلم (Microfilm) وهناك أنواع وأشكال عديدة منه، والحاسب الأكتروني (Computer). ويستتبع ذلك وجود أجهزة لقراءة الوثائق والمخطوطات (Reader) أو (Lecteur) ولهذه الأخيرة بدورها أنواع عديدة ولكلٍّ منها ميزة معينة. كما ان أجهزة الفيديو (Video) وأجهزة السلايس (Slice) تعتبر من الأجهزة المساعدة والموصلة للمعلومات التاريخية والأثرية ولسواها من المعلومات.

وتبعاً لذلك فقد قسّم المختصّون الأرشيف(٧) إلى أصناف عديدة منها: الأرشيف التاريخي، الأرشيف الجغرافي، بما فيه أرشيف الخرائط والأطالس، أرشيف رئاسات الجمهورية أو أرشيف الديوان الملكي أو الديوان الأميري أو الامبراطوري، أرشيف رئاسة الوزراء، أرشيف المجالس النيابية ويمكن أن نتدرج تحت الأرشيف السياسي، الأرشيف العسكري، الأرشيف الاقتصادي والاجتماعي، الأرشيف القضائي، الأرشيف الاداري، الأرشيف السري، أرشيف الآداب والفنون، أرشيف المؤسسات والهيئات الدينية، أرشيف الأختام والشعارات والنقود(٨).

هذا ويرتبط بعلم التوثيق علم تنظيم المكتبات الذي يعتبر بدوره من العلوم المساعدة في الكتابة التاريخية وفي سواها من العلوم والفنون. غير أن الأمر اللافت للنظر أن التطور التكنولوجي وصل إلى حد استخدام الكمبيوتر في التوصل إلى تفاصيل وجوه المومياءات. فقد قام فريق من العلماء اليابانيين في الفترة الممتدة بين ١٩٨٣ ــ ١٩٨٤ بإجراء دراسات على عدد من المومياءات من حيث التشريح والبيولوجيا والعظام بالاضافة إلى التصنيف العرقي والجنسي. ومن ثم قام هذا الفريق بتغذية الكمبيوتر بكل المعلومات المتوفرة، وبعد أن هضمها الكمبيوتر وحلّلها إلى جزئياتها فقد تمَّ التوصل إلى تفاصيل وجه صاحبة المومياء وهو وجه سيدة مصرية قديمة عاشت قبل حوالي خمسة آلاف سنة، حيث رسمها الكمبيوتر على الشاشة فظهرت بتفاصيلها الأصلية(٩). وعلى هذا فإن التكنولوجيا المعاصرة لم يعد لها حدود أو نشاط محدد، بل توسّع نشاطها بحيث بات يشمل التاريخ والآثار.

٤ ــ علم الوثائق أو علم الدبلومات أو علم الشهادات الكتابية (Diplomatics): وهو من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ. والوثائق هي كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية. فينبغي على دارس التاريخ أن يتعلم الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذي يعنيه، ولا بدّ له من أن يعرف نوع الحبر المستعمل في الكتابة وتركيبه، والأقلام التي كتبت فيها، وأنواع الورق المستعمل وخصائصه. وهناك وسائل علمية لفحص الخط والحبر والورق، بواسطة بعض العدسات المكبِّرة والمجهر. وبواسطة التحليل الكيميائي يمكن معرفة عمر الورق. وأحياناً يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمراء والبنفسجية لاظهار الخطوط غير

الواضحة أو المطموسة أو المغيّرة عمداً. كما يتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام التي تمهر بها، ومن بين هذه الأختام: أختام الشمع، أختام المعادن (الرصاص، الذهب، النحاس) ومنها المستدير، والمثلث، والبيضاوي...

٥ ـــ **علم الرنوك أو الرنكيات (Heraldry)**: وهو من العلوم المساعدة التي ينبغي عدم إغفال أهميتها: والرنوك هي عبارة عن العلامات المميزة والشعارات التي تظهر على الأختام والدروع والأعلام وعلى الملابس. ولا يدخل في هذا الاطار الكؤوس والسيوف وشعارات النسر والهلال والصليب والأسد.. وقد استخدمت الرنوك في أوروبا في العصور الوسطى، كما استخدمها السلاجقة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون. اوالواقع فإن معرفة الباحث والدارس لهذه الرنوك تجعله قادرا على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع أو الأسلحة. وفي الوثائق مثلاً قد يمحى الامضاء أو التاريخ، وفي هذه الحال تساعد العلامة الواضحة على الختم ـــ إن وُجدت ـــ في التعرّف على بعض الأمور وسدّ بعض الثغرات.

٦ ـــ **علم النميات أو النوميات (Numismatics)** وهو علم النقود والمسكوكات (nummi = Coins) وهو من العلوم الهامة في مجال التاريخ(١٠). فالنقود بما تحمله من شعارات وصور الملوك والأباطرة والشعارات أو الكتابات الدينية، وسنوات سكّها وضربها، والمعدن الذي صنعت منه (فضة، ذهب، نحاس) تقدم للمؤرخين مادة تاريخية قيّمة من الممكن أن تسدّ نقصاً في بعض المعلومات التاريخية. وهذا ينطبق على العملات اليونانية والرومانية والفارسية والعربية والمصرية...، كما ينطبق بالتأكيد على العملات المعاصرة التي كثيراً ما نرى عليها شعارات البلد ورموزه، وصور الملوك والأمراء والرؤساء مع سنيّ الضرب والتداول. وكثير من الدول لا تزال تصدر عملات (وكذا طوابع بريدية) تخليداً لذكرى معينة أو لشخصية سياسية أو ثقافية أو علمية.. ويمكن ان نضيف إلى علم النقود، علم الصنج وهو خاص بدراسة تاريخ المكاييل والأوزان.

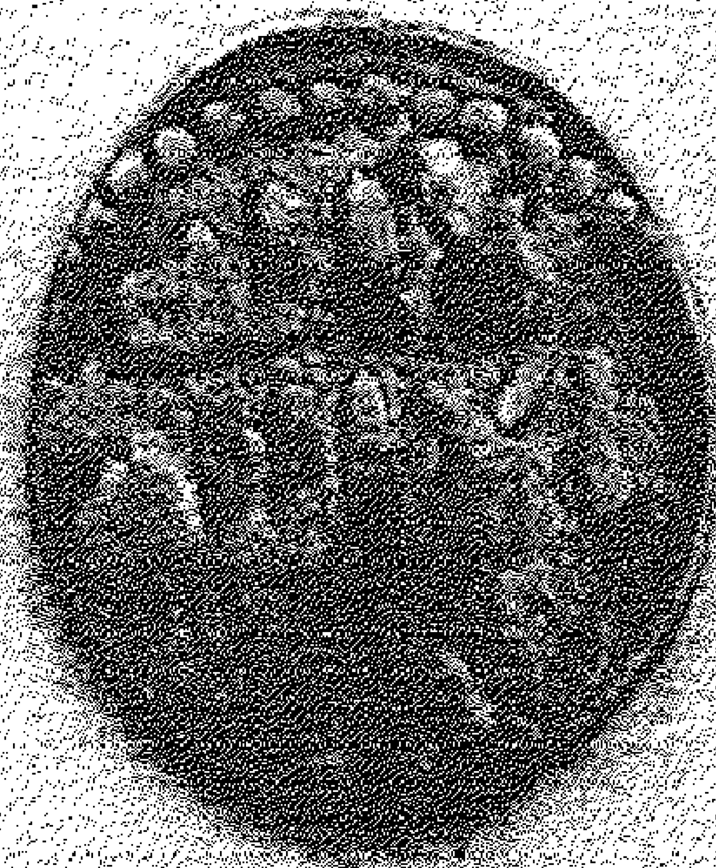
٧ ـــ **علم الببيلوغرافيا والموسوعات المتخصصة(Bibliography)**: أصبح علم الببيلوغرافيا علماً قائماً بحدّ ذاته وهو يندرج في إطار العمل التوثيقي (Documentary). ويعتبر من العلوم المساعدة في كتابة التاريخ، فالكتب الببيلوغرافية المتخصصة تجمع بين ثناياها أسماء الأشخاص والكتب والدوريات والمقالات الصادرة هنا وهناك في مجال التاريخ أو الأدب أو السياسة أو العلوم.. وهذه الببيلوغرافيات تخفّف عن الباحث المؤرّخ الكثير من المعاناة. وبالرغم من هذه المساعدة تبقى عملية البحث والتنقيب وزيارة المكتبات مسألة ضرورية للبحث عن مصادر قد تكون أغفلتها الببيلوغرافيا في موضوع تاريخي محدد، ثم تهدف الزيارة لاختيار المصادر التي أوردتها الببيلوغرافيا ذاتها.

ولا بدّ من الاشارة بأن الأوائل أدركوا أهمية العمل الببيلوغرافي، فقد أصدر اليونان والرومان بعض الموسوعات القانونية والتنظيمية، كما أدرك المسلمون أهمية هذا العمل، فأصدروا خلال تاريخهم الكثير من الكتب الببيلوغرافية المفهرسة ولعلّ أهمها: الفهرست لابن النديم، و «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، و «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل، و «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، و «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري (موسوعة جغرافية ـــ تاريخية).

كما صدر في التاريخ الحديث والمعاصر بعض الكتب الببيلوغرافية الخاصة بالبلدان أو المدن أو الأعلام ومنها على سبيل المثال: معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها للدكتور أنيس فريحة، الموسوعة اللبنانية لطوني مفرج، ولخيرالدين الزركلي «الأعلام» (١٣ جزءاً) ولعمر رضا كحالة «معجم المؤلفين» ومعجم خاص عن النساء وهما في أجزاء عديدة. وهناك كتاب خاص عن علماء طرابلس الشام لعبداڤ حبيب نوفل واسمه «تراجم علماء طرابلس وادبائها» وكتاب آخر خاص عن علماء بيروت، لكامل الداعوق وهو تحت عنوان «علماؤنا في بيروت»، بالاضافة إلى كتاب الشيخ عبدالرزاق البيطار «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (٣ أجزاء) وللشيخ

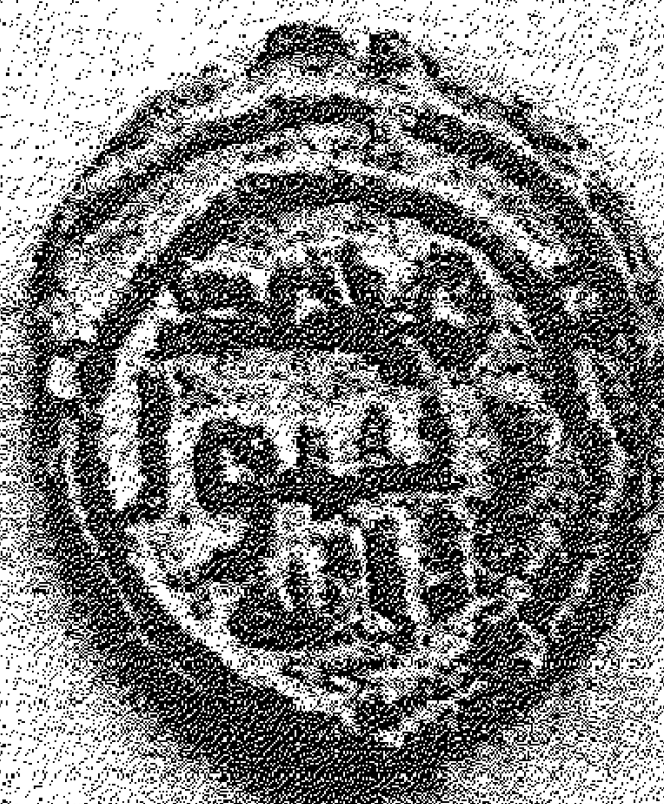
□ النقود والأختام عامل مساعد للمؤرخ في ابحاثه.

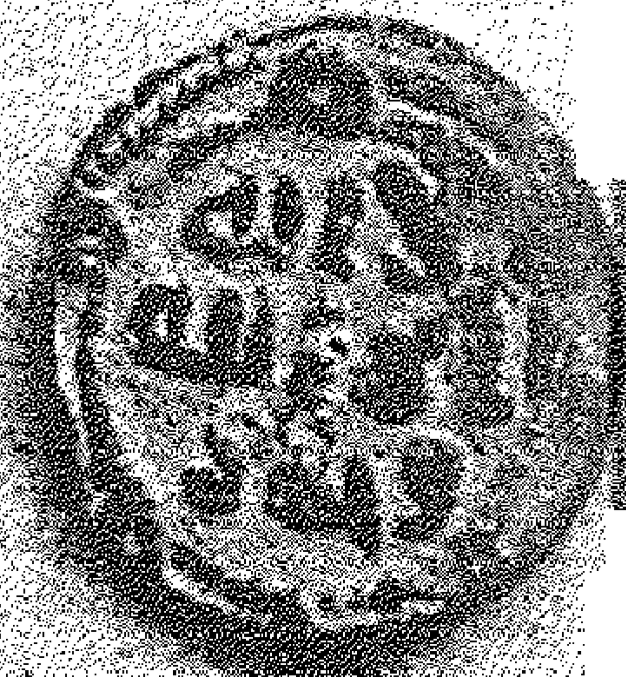






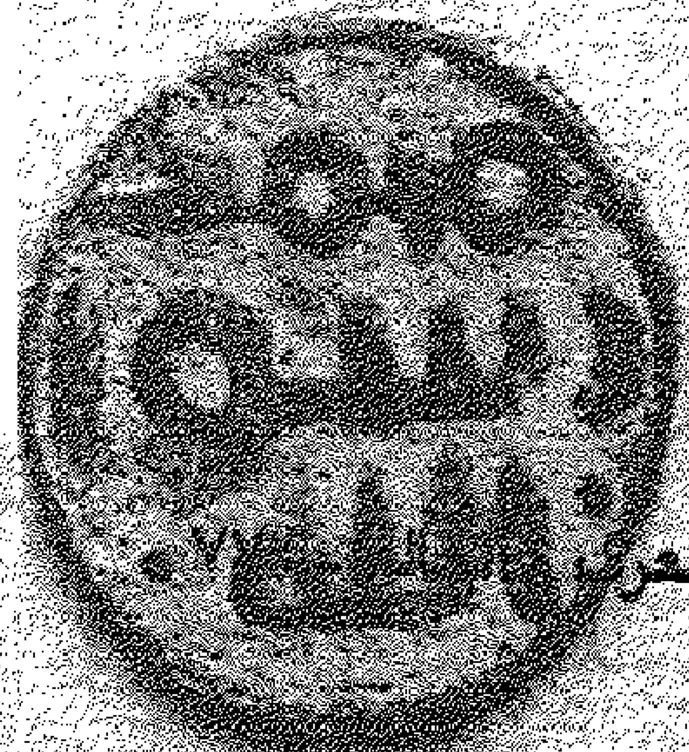












محمد جميل الشطي «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر». كما أصدرت الجامعة اليسوعية في بيروت عام ١٩٧٨ كتاباً بيبلوغرافياً عن الأب لويس شيخو تحت عنوان «الأب لويس شيخو ما كتبه وما كتب عنه» كما صدر كتاب على النمط نفسه عن «أمين الريحاني» وأين نجده وما كتبه وما كتب عنه. وفي أوائل القرن العشرين أصدر إليان سركيس في مصر كتاباً بيبلوغرافياً هاماً تحت عنوان «معجم المطبوعات العربية والمعربة». وأصدر يوسف أسعد داغر دراسات بيبلوغرافية عن الجامعة اللبنانية هما: «الأصول العربية للدراسات اللبنانية» و «قاموس الصحافة اللبنانية». كما أصدرت الجامعة الأردنية بيبلوغرافيا عن «سجلات المحاكم الشرعية والأوقاف الاسلامية في بلاد الشام» حددت بموجبها أماكنها وأرقامها وتواريخها[١١]. وكتاب «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين، وبيبلوغرافيات عديدة مما لا يتسع المجال لذكرها.

والجدير بالذكر أنه لا يمكن في هذا المجال إغفال أهمية الكتب البيبلوغرافية التي تعرّفنا إلى أماكن وجود المخطوطات وأسمائها. فهناك بيبلوغرافيا خاصة عن مخطوطات ووثائق المكتبة الظاهرية في دمشق، وعن مخطوطات ووثائق أرشيف قصر عابدين والقلعة ومعهد المخطوطات في القاهرة، وهكذا فيما يختصّ بمراكز المخطوطات والوثائق في بغداد وتونس ولندن وباريس وموسكو وواشنطن.. والاطّلاع على هذه البيبلوغرافيات تخفّف كثيراً من معاناة المؤرّخ، إذ باستطاعته إذا احتاج إلى مخطوط أو وثيقة معينة أن يراسل المعهد أو المركز، فيتم تصويرها له إذا لم يكن لديه نيّة السفر إلى الخارج.

إن أحداً لا يستطيع نكران ما للبيبلوغرافيا من أهمية على صعيد مختلف العلوم وبينها التاريخ، كعلم مساعد ومتداخل معه. وهنا أودّ أن أعطي مثالاً واحداً لا أكثر عن أهمية البيبلوغرافيا، وأتساءل: هل يستطيع أيّ باحث أو طالب دراسات عليا مثلاً أن يكتب دراسة متصلة عن الأب لويس شيخو معززة بالمصادر والأسانيد تأخذ حيّزاً هاماً في الكتابة العلمية، دون العودة والاعتماد على كتاب «الأب لويس شيخو ما كتبه وما كتب عنه»؟ حيث يجد الباحث كل ما يريده عن موضوع بحثه، وحيث يعتبر هذا الكتاب الدليل الذي يساعد ويدلّ الباحث إلى أين يذهب وإلى كيف يبحث، وفي أيّ كتاب وفي أية صحيفة.

٨ ــ **الجغرافيا**: إن الارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا. وقد أدرك العلماء القدامى وبينهم علماء المسلمين هذا الارتباط، فسخروا العلوم الجغرافية في كتابة التاريخ. فللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير في التاريخ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن يوليوس قيصر مزج في مذكراته التاريخية التاريخ بالجغرافيا، واستعان بالخرائط الجغرافية وهو ما يعرف اليوم بعلم الخرائط (Cartography) وبواسطتها استطاع أن يحدد مواقع البلدان والمناطق والأنهار والجبال والقبائل. كما وصف الواقع الجغرافي للبلدان التي غزاها ومنها بريطانيا وإيرلندة وسواها. وقد تعرفت أوروبا الحديثة إلى الكثير من جغرافيتها من خلال ما كتبه يوليوس قيصر. وقد بات من المتبع في الكثير من الدراسات التاريخية أن تمهد ليس بمقدمة تاريخية فحسب، ولكن بمقدمة جغرافية، تعرّف القارىء جغرافية البلد موضوع البحث. فالجغرافية تسلط الأضواء وتفسر الكثير من المفاهيم التاريخية. وعلى سبيل المثال فإن الباحث في تاريخ بيروت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لا بدّ له من أن يعود إلى خريطة بيروت التقليدية التي نشرتها الدولة العثمانية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني. وهي إلى الآن من أفضل الخرائط التراثية التي تحدد مناطق وأحياء وأسواق وجوامع وكنائس بيروت القديمة.

ومن المعلوم أن هناك فرعاً خاصاً في العلوم الجغرافية يعرف باسم «الجغرافيا التاريخية» وهي التي تهتم بدراسة التطور التاريخي وحركات السكان المختلفة. كما توجد فروع جغرافية أخرى منها على سبيل المثال: جغرافية السكان، الجغرافيا الاجتماعية، الجغرافيا الاقتصادية، الجغرافيات السياسية، جغرافية السلالات، الجغرافيا الفلكية والرياضية،

جغرافية التخلّف أو العالم الثالث، جغرافية الأحياء، جغرافية التربة، جغرافية البحار والمحيطات، الجغرافية المائية بالاضافة إلى الجغرافية المناخية، والجيومورفولوجيا (Geomorphology) أي علم التضاريس.

٩ ــ **الاقتصاد**: إن العوامل الاقتصادية من العوامل الفاعلة في رسم سياسات البلدان وفي التحكم بمصائرها. ويقوم الاقتصاد بدور بارز في مجرى تاريخ هذه البلدان. فما من ثورة أو حَدَث أو حرب سجلها التاريخ إلاّ وكان لها أسباب اقتصادية. ذلك أن وجوه الاقتصاد: الزراعة، الصناعة، والتجارة، من العوامل المحرِّكة للتاريخ، وهي عوامل أساسية في قيام الصراعات بين القوى الشعبية الكادحة وبين القوى المستغلة لها. والثورات الماثلة في التاريخ القديم والوسيط والحديث، كانت مطالبها وبالأحرى برامجها الأولى، تحسين المستوى الاقتصادي للفرد وللجماعة، والعمل على تنمية البلد، ومن ثم إقرار الحريات السياسية والاجتماعية والدينية. فدراسة اقتصاد بلد ما مهم جداً في كتابة تاريخه.

١٠ ــ **الآداب والفنون والعمارة**: إن هذه العلوم الانسانية والفنية والهندسية تعتبر مرآة للحياة الثقافية والفنية والعلمية، وهي تصوّر واقع الحال الذي يظهر شعراً أو نثراً ملحمة أو قصة، تعطينا صورة للمجتمع وعاداته وتقاليده ومفاهيمه. فكم من الشعر والقصص أمكن الاستفادة منها في التأريخ الاجتماعي لشعب ما أو لمنطقة ما. وكم من الرسوم والتصاوير والنحت وأنماط العمارة أمكن الاستفادة منها في التأريخ الفني والهندسي لعصور متعددة. ذلك أن أنماط المآذن والكنائس والصوامع كانت تعبّر عن واقع معين ومحدد. وإلا فلماذا بنى الطولونيون مساجد مختلفة في أنماطها عن المماليك؟ ولماذا مساجد مصر مختلفة في أنماطها عن مساجد بلاد الشام أو المغرب أو الأندلس؟. إن لذلك أسباباً تتعلق بالبيئة والمعتقدات والمؤثرات والتمازج الحضاري، وكل ذلك يفيدنا في إطار التأريخ.

وكما أن العمارة تفيد وتساعد التأريخ، فإن المستندات التاريخية تفيد فن العمارة وتاريخ هذا الفن. وعلى سبيل المثال فقد استطعت شخصياً من خلال دراستي لسجلات المحكمة الشرعية في بيروت في القرن التاسع عشر من استخلاص النظام المعماري وهندسة المنازل والدور والعمارة بشكل عام في بيروت العثمانية. وهذا النظام المعماري توصلت إليه من خلال عمليات البيع والشراء للمنازل والدُور التي كان الحاكم الشرعي يدوِّنها بكافة تفصيلاتها مع عدد السلالم والغرف والأقبية(١٢).

إن رسماً للوحة ما أو لصورة ما، قد نستفيد منه في استنتاج بعض المعلومات التاريخية والتوصل إلى معلومات جديدة. فاللوحات التي تعود إلى عهد نابليون بونابرت أو إلى عهد محمد علي باشا أو إلى عهد الملكة أليزابيت أو إلى أيّ عهد من العهود إنما تمدّنا بمعلومات تاريخية ــ اجتماعية وسياسية كالتعرّف إلى أنماط الألبسة والأحذية وأنواع السفن وأشكالها وأنواع الأسلحة والأطعمة وأدوات عديدة مستخدمة في تلك الفترة، لا سيما في اللوحات والرسوم التي تصوّر أسواق باريس والقاهرة ودمشق وبغداد وبيروت وسواها. كما أن للموسيقى دوراً تاريخياً وعاملاً مساعداً من عوامل التأريخ لا يمكن نكرانه. ويكفي أن نعطي في هذا المجال مثالاً تاريخيّاً حيّاً هو الموسيقي والمغنّي العراقي «زرياب» الذي أوجد مدرسة موسيقية في الأندلس. وكانت موسيقاه تعبّر عن واقع اجتماعي معين وذلك من خلال الموسيقى والموشحات معاً. ثم إن دراسة الصور الفوتوغرافية المأخوذة في القرن التاسع عشر ــ لا سيما من قبل الرحّالة الأجانب ــ يمكن تسخيرها تاريخياً في الاستفادة من المعالم المتنوعة التي ظهرت فيها للأشخاص وللأماكن في الكشف عن مواطن خفية (ألبسة، أحذية، مجوهرات، حفلات زفاف، معالم اندثرت للقرى والمدن). ونظراً لأهمية الصور الفوتوغرافية القديمة، فقد أُقيمت بعض المعارض المتخصصة في أوروبة وبيروت. وقد أظهرت هذه الصور العائدة للقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الكثير من الأنماط التراثية. التي يمكن تسخيرها في خدمة التاريخ الاجتماعي. ولعلّ الدارس لصور بيروت القديمة يتأكد من صحة

هذا التفسير، وهذه العلاقة بين الصور والتأريخ[١٣].

١١ ـ الدراسة والمعاينة الميدانية والسفر: إن دراسة الوثائق والمصادر مسألة هامة في عملية التدوين والتأريخ. ولكن يجب أن لا نغفل موضوع العمل الميداني لا سيما إذا كان البحث يتطلب ذلك، فيكون السفر والترحال ضرورياً. فالكتابة مثلاً عن تاريخ قصر من القصور أو مسجد من المساجد أو كنيسة من الكنائس، لا يتطلب قراءة المراجع فحسب والاعتماد عليها، بل يتطلب زيارة ميدانية لرؤية هذا الصرح أو ذاك عن قرب وعن كثب، حيث بالامكان قراءة النصوص المنقوشة على أبوابه وجدرانه. وعوضاً من أن ينقل الباحث نصاً مبتوراً أومنقوصاً، فإذا به مباشرة أمام النصوص والنقوش. أضف إلى ذلك فإن السفر بحد ذاته يوسّع المدارك، ويفتح الآفاق العلمية. وكثير هم العلماء والمؤرخون الذين اكتسبوا علومهم من خلال الأسفار والرحلات. وهناك مجموعة كبرى من الرحّالة الأجانب والعرب والمسلمين أنجزوا مؤلفاتهم التاريخية والجغرافية بعد رحلات قاموا بها في الشرق والغرب على السواء ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: روبنسون، جون كارن، عبدالغني النابلسي، عبدالرحمن سامي بك، محمد رفيق ومحمد بهجة الأثري، الشيخ محمد عبدالجواد القاياتي، بالاضافة إلى الورثيلاني، ابن بطوطة، ابن حوقل! ابن جبير، الادريسي، المقدسي...

ومن الأهمية بمكان القول إن الطالب ـ الباحث (لا سيما طلاب الدراسات العليا) لا بدّ من أن يقوم برحلات علمية ـ تبعاً لبحثه ـ إلى مراكز التوثيق في العالم ومنها على سبيل المثال: مركز وثائق وزارة الخارجية البريطانية (F.O.)، مركز وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'orsay) والمكتبة الوطنية في باريس، ومراكز وثائق أرشيف روما وفلورنسا والبندقية وفينا وبرلين وواشنطن، واستانبول.. بالاضافة إلى مراكز التوثيق في العالم العربي ومنها: وثائق المتحف الوطني في بيروت، وثائق المكتبة الظاهرية في دمشق، وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة، ووثائق ومخطوطات الجامعة الأميركية في بيروت...

١٢ ـ علم الأجناس والانسان (Anthropology) وعلم وصف الشعوب (Ethnography): تعتبر الأنتروبولوجيا والأثنوغرافيا من العلوم الاجتماعية المساعدة في مجال التأريخ، بل إن «هيوغ أتكن» يرى بأن هذا العلم هو أشدّ العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين[١٤]. ذلك لأن علماء الأجناس والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة، وتظهر بينهم في بحثها في بعض الأحيان اختلافات متشابهة في الرأي. ومهما يكن من أمر فإن ما يتوصل إليه علم الأجناس (الانسان) ممكن جداً أن يخدم المؤرخ لاستكمال أبحاثه. وقد اهتم بعض القدامى بالربط بين التأريخ والأنتروبولوجيا ـ بقصد أو بغير قصد ـ فقد حرص يوليوس قيصر أثناء كتابته لمذكراته أن يمدّنا بمعلومات خاصة عن أجناس البشر التي رآها خلال تنقلاته في فترة الحروب التي خاضها. وقد تضمنت تلك المذكرات معلومات عن سلالات الغال والجرمان والبريطانيين ومعلومات عن ثقافاتهم وأوضاعهم. وهو بذلك يكون قد مزج بين التاريخ والأنتروبولوجيا والأثنوغرافيا وأدى خدمة تاريخية واجتماعية. وهذا ما فعله ابن خلدون عندما تفرّد بتاريخ وذكر الجالية الأندلسية وأخبارها وأوضاعها أثناء نزوحها إلى المغرب في القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي[١٥].

إن علم الانسان يعالج المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشري، وانتشار البشرية على سطح الأرض، ونشوء الثقافات الانسانية، ثم يرى البعض بأن مناهج علم الآثار وعلم الانسان الفيزيائي (علم التطور الحياتي البيولوجي) هي في أساسها مناهج التاريخ مع تعديلات تتطلبها المعطيات. فعلى سبيل المثال فإن مرحلة علم الإنسان الفيزيائي التي تدور حول تطور البشر والحيوانات العليا هي في جوهرها بحث تاريخي، بل يمكن الاستفادة من هذه البحوث في مجالات التأريخ والتدوين بشكل أساسي. ولا يمكن أن ننسى في هذا المجال ما لعلم الآثار القديمة «الأركيولوجيا» (Archaelogy) من أهمية في

□ **الوثائق في خدمة التاريخ، وتجميعها يعتبر أول مرحلة من مراحل البحث التاريخي.**

● **رسالة صحيحة ومختصرة بخط الأمير شكيب ارسلان مرسلة إلى العلّامة محمد جميل بيهم في ٢٧ آب (اغسطس) ١٩٣١ يعالج فيها أهمية الاعلام والعلم والمال في نصرة العالم الإسلامي.**

لوزان ٢٧ اغسطس ١٩٣١

سيدي الاخ الفاضل

تعفو عن ابطائي في الجواب بكثرة الشواغل والشواذ . وبعد فاني اكرر شكري العظيم لك على ما اكرمتني به وشرفتني بمحض لطفك ومجرد الجميل الذي هو شنشنتك . نعم اولى بنا ان نتعب في اطلاع الاوربيين على افكارنا نحن باللغات التي يتكلمون بها لان صحفنا نحن بعضا مع بعض لا يعلمون منها شيئاً وان علم منها بعض الشيء فحكوماتهم التي هي اساطين الاستعمار وحيتان الاكل وطواغيت الظلم واماثيل الزور والمكر فهي تكتم عن شعوبها كل حقيقة من جهة الشرق . فاذا ينبغي ان ندخل على رأيهم العام بالحقائق التي تدأب حكوماتهم بطمسها ويجب بكل ما نقدر عليه تعديل هذا الرأي العام او بعضه ليكون لنا منهم خصماء ولا يعودوا بازائنا . وهذا ممكن لو قمنا بدعايتنا حق القيام لان في القوم من اذا اقتنع انصف . وقد كنا في ايام قوتنا لا نبالي برأيهم العام ونقول فليقولوا ما شاؤوا ولعنة الله على الكافرين وذلك ان رأيهم العام مهما فسد لم يكن ليؤثر بنا فعلاً . اما الآن مع الاسف تحولت الاحوال فصاروا اذا ذكروا في شيء علينا قالوه واذا قالوه فعلوه شئنا ام ابينا ونفذ قولهم في بلادنا كما في بلادهم .

اما ان توجد مطبعة ما تطبع كتابكم على نفقتها فهذا غير ممكن . لا يبذلون الا فيما يروج عندهم وهذه امور لا تهمهم ولا يتطلعون اليها . فمجلتنا نعطيها لجميع باعة الجرائد والمجلات في جنيف وثمنها فرنك واحد ولا يباع منها في كل الشهر غير عددين او ثلاثة الى خمسة . وهذا هو السبب في كوننا نوزع منها ١٥٠٠ نسخة في اوربة مجاناً حباً بنشر افكارنا وبث ما عندنا فلو تقاضيناهم عليها بدلاً ما قرأوها ولفاتنا الغرض المقصود والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اخوكم
شكيب
ارسلان

26 Avenue des Alpes Lausanne

التأريخ من حيث اهتمامه بدراسة المراحل التأريخية الطويلة التي قضاها الانسان في اكتشاف القراءة والكتابة معتمداً على الآثار القديمة أي على الأركولوجيا.

١٣ ــ علم السكان أو علم خصائص الشعوب «الأتنولوجيا» (Ethnology): وهذا العلم من العلوم المساعدة والمتصلة بالتاريخ وبالعلوم الاجتماعية بشكل عام. ويتناول هذا العلم عادة أحجام الشعوب وتكويناتها وتوزيعها الجغرافي، والمواليد والوفيات والهجرات.. ويعتمد هذا العلم بصورة أساسية على المصادر الرسمية والاحصاءات الدقيقة الصادرة عن الحكومات والمؤسسات والهيئات الرسدية المحلية والدولية. وقد ازدادت في الفترات الأخيرة إمكانيات استفادة التاريخ من الأتنولوجيا، نظراً لأهميتها وإلقائها الضوء على خلفيات تاريخية اجتماعية هامة. ومنذ القدم حرصت بعض الدول والممالك على الاهتمام بهذا العلم، وقد ظهرت مؤلفات تاريخية في العهد الأول للدولة الإسلامية اهتمت بإحصاء عدد المسلمين وأولادهم وقبائلهم وجنودهم(١٦). كما أن من مميزات منهج البحث التاريخي عند هيرودوت، هو في وصفه لشعوب الأمم المتعددة، ووصفه لعاداتهم وتقاليدهم.

وبذلك يمكن القول إن هيرودوت كان صاحب «منهج خصائص الشعوب»(Ethnology).ويعتبر كتابه أول كتاب يتحدث عن شعوب أقاليم الشرق الأدنى القديم. ولما تحدث عن البرابرة مثلاً أورد أنواع مأكولاتهم وعادات زواجهم ولغاتهم وأديانهم(١٧). وللرحالة المؤرخين المسلمين أثر كبير في وضع علوم الانتروبولوجيا والأثنوغرافيا والأثنولوجيا، نظراً لتسجيلهم عادات وتقاليد وثقافات وشعائر وأطعمة وطبقات ونوادر وغرائب وأخلاق الشعوب والمناطق التي زاروها(١٨).

١٤ ــ **علم النفس الاجتماعي**: وهو من العلوم المساعدة أو المتداخلة في التاريخ، ذلك لأن الاعتبارات النفسية تدخل تضميناً وتصريحاً في جميع تفسيرات الفعل الانساني (Action) وردود الفعل (Reaction). ولقد وضع علماء النفس الكثير من النظريات النفسية الاجتماعية، وعلى المؤرخ الباحث الاطّلاع على تلك النظريات. وبالرغم من أن هناك اتفاقاً بأن المؤرخ لن يستعمل كل هذه النظريات في أبحاثه. ولكن إذا لم يكن لمعرفته بها من غرض، فعلى الأقل عليه تجنب استخدام تلك النظريات استخداماً خاطئاً. ومن يطّلع على نظريات بافلوف وواطسن وفرويد أفضل ممّن لا يطّلع عليها، والاطّلاع على نظرية ما لا يعني بالضرورة اعتناقها.

١٥ ــ **العلوم السياسية والدراسات الحقوقية**: وهي من العلوم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ، وقد حرصت بعض كليات الآداب والعلوم الانسانية في الكثير من الجامعات، على ربط التاريخ بالعلوم السياسية، وبات لزاماً على طالب التاريخ دراسة بعض المواد في العلوم السياسية. وكما أن العلوم السياسية مساعدة للتاريخ في إمداده بالتفسيرات والوقائع السياسية، فإن التاريخ بدوره مفيد للعلوم السياسية في إمداده بالمعلومات وأسباب ونتائج الوقائع التاريخية. ومن الأهمية بمكان الاشارة إلى أن منهج البحث التاريخي المعاصر، لم يعد يعتبر أن الأحداث السياسية، فحسب هي الأساس في التركيب التاريخي. ذلك لأن المنهج التاريخي الحديث لا يعتبر أن التاريخ هو مجرد حروب وثورات ومعارك عسكرية، بل أصبح هذا المنهج يلتزم سَبْر غور أسباب هذه الأحداث من المنطلقات الاقتصادية والاجتماعية. ولا يعني ذلك أيضاً بأن التأريخ الحديث أهمل إهمالاً تاماً الأحداث العسكرية والسياسية، فتلك جزءٌ لا يتجزأ من التاريخ. ولعلّ واقع التاريخ العسكري أصبح أكثر أهمية في ميدان الكليات الحربية والعسكرية.

ومن المعروف أن من ضمن ما يهتم به علم السياسة دراسة المؤسسات السياسية والهيئات الحكومية والنظريات والمعتقدات الأيديولوجية في مختلف البلدان الديمقراطية والشيوعية وأساليب الحكم. كما أن العلاقات الدولية ناحية من النواحي التي يعنى بها علم السياسة. فكل هذه الاهتمامات لعالم السياسة تمتزج مع اهتمامات المؤرّخ. ولا يفصل بين التاريخ الدبلوماسي والعلاقات الدولية ــ إذا أمكن فصلهما تماماً ــ إلا الفترة الزمنية التي يتناولها الباحث. غير أن المؤرخ قد يفيد في هذا الميدان من دراسة أنماط التحليل والمنهجية عند عالم السياسة.

أما الدراسات الحقوقية فلها أيضاً ارتباط وثيق بالتاريخ، ولا يمكن مطلقاً إغفال أهميتها، فالحقوقي يدرس عادة القوانين اليونانية والرومانية القديمة أو الدساتير والتشريعات الانجليزية والفرنسية والأميركية. فهو يستفيد منها من النواحي القانونية وفي تطور القوانين والدساتير، في حين أن المؤرخ يوظف هذه التشريعات لدراسة التطور التاريخي وربطها بالأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي فرضت وضع هذه التشريعات أو تعديلها أو تطويرها أو إلغائها. ويكفي أن نسوق مثالاً حيّاً عن أهمية الدراسات والمجموعات القانونية كعلوم مساعدة في كتابة التاريخ. فمصادر التاريخ الروماني مثلاً لا تكمن في الكتابات التاريخية أو في الآثار والنقوش والنقود وأوراق البردى فحسب، وإنما تكمن هذه المصادر أيضاً في القوانين والتشريعات الرومانية التي تبين أن لها أهمية بالغة في كتابة التاريخ، ومن بين هذه المجموعات القانونية الرومانية: القانون الروماني، المراسيم والدساتير الامبراطورية، منشورات الحكام، قوانين التعيين، محاضر مجلس (السناتو) الشيوخ، قرارات السناتو، الفتاوى، والتفسيرات القانونية، أحكام وقرارات القناصل

والقضاة، المجموعات القانونية، الموسوعات القانونية، التشريعات[١٩].

إن الدارس لهذه المجموعات القانونية يدرك مدى أهميتها للمؤرّخ، ذلك أنه لا يمكن مطلقاً فهم التاريخ الروماني وتطور أوضاعه السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، دون الاعتماد على هذه المجموعات والتشريعات القانونية. فهي عنصر أساسي في كتابة تاريخ الرومان.

وأخيراً فإن علم الاجتماع بشكل عام يعتبر من العلوم المساعدة للتاريخ. وقد جرى البحث التاريخي على بذل اهتمام وفير بالتغيّر الاجتماعي ودراسة المجتمع. وبهذا فإنه يشمل ميدان علم الاجتماع، غير أن قصور المواد التاريخية التي يرجع إليها بعض المؤرخين وجريهم وراء مظاهر التغيّر الاجتماعي، مثل التغيير السياسي والحربي والديني، قد حوّلا اهتمام المؤرخين ــ أو بعضهم ــ عن الاطارات الاجتماعية العامة للمجتمعات الماضية. كما لا بد من الاعتراف بأن بعض المؤرخين الآخرين قد وفّقوا تماماً في توظيف مختلف العلوم المساعدة في كتاباتهم التاريخية، وأيقنوا ضرورة استخدام هذه العلوم في الوقت الذي رأوا فيه أهمية استخدامها. ●

الهوامش

(١) للمزيد من التفصيلات انظر كتابنا: أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ــ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ــ.

(٢) انظر: لانجلو أوسينوبوس: النقد التاريخي (المدخل إلى الدراسات التاريخية) ص٣٠.

(٣) انظر على التوالي: د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص٢٥ ــ ٨٠؛ لانجلو أوسينوبوس، بول ماس، أمانويل كنت: النقد التاريخي، ص٢٧ ــ ٤٠؛ هيوغ اتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص٢٥ ــ ٩٠؛ د. أسد رستم: مصطلح التاريخ، ص٦ ــ ١١.

(٤) لقد واجهتني مشكلة تفسير بعض انواع الخطوط العربية عندما كنت أعمل على سجلات المحكمة الشرعية في بيروت في فترة القرن التاسع عشر، وبالرغم من أن أكثرها مكتوباً باللغة العربية، غير أن بعضها كتب بخط يحتاج إلى دراية خاصة، وبواسطة المران والعمل المستمر استطعت التغلّب على هذه المشكلة.

(٥) للمزيد من التفصيل انظر محاضراتي عن: تاريخ الحضارة، ص١٥ ــ ١٧؛ وتاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص٧٢ ــ ٩٤.

(٦) لقد مررت بتجربة علمية حديثة عندما كنت أعدّ درجة دكتوراه دولة في التاريخ. فقد توجهت من بيروت إلى لندن بناء على نصيحة أستاذي الأستاذ الدكتور عمر عبدالعزيز عمر (رئيس قسم التاريخ في جامعة الاسكندرية وقتذاك وعميد كلية الآداب في جامعة بيروت العربية حالياً)، وقمت بزيارات عدة وطويلة لمركز الوثائق العامة (Public record office) (P.R.O.) الموجود في ريتشموند (Richmond-Kew Garden) حيث توجد وثائق وزارة الخارجية البريطانية ومراسلات السفراء والقناصل البريطانيين المنتشرين في لبنان والعالم العربي والعالم. وهذه الوثائق يسمح للباحث بالاطّلاع عليها بعد مرور ثلاثين عاماً من تاريخها. والأسلوب المتبع في «مركز الوثائق العامة» (P.R.O.) أسلوب تقني حديث يعتمد أساساً على الكمبيوتر، ومراحل الحصول على الوثائق تمر أولاً بقنوات أولية لا بدّ منها:

١ ــ يمنح الباحث ــ بعد التأكد من أنه طالب أو أستاذ أو باحث ــ بطاقة شخصية باسمه ولها رقم خاص.

٢ ــ يعطى دفتر تعليمات عن المركز وأسلوب البحث والعمل المتبع.

٣ ــ يمنع استعمال أقلام الحبر بتاتاً لئلا يسيء إلى الوثائق، ويسمح له باستخدام أقلام الرصاص.

٤ ــ يمنع من إدخال الكتب أو الملفات أو المستوعبات الورقية.

٥ ــ يعطى الباحث آلة «بليبر» (Bleeper) توضع على سترته، وهي آلة اتصال كالتي يحملها الطبيب في المستشفيات. وهذه الآلة تحمل بدورها رقماً معيناً تدوّن ملاحظة أمام الموظف المختص بأن هذا الرقم هو للباحث فلان ورقم بطاقته كذا.

٦ ــ يجلس الباحث على إحدى مكتبات مركز الوثائق، ويكون لهذه المكتبة عادة رقم معين.

٧ ــ في بدء البحث عن الوثائق هناك دليل وفهرست (Index) يضم أسماء الدول حسب الأحرف الأبجدية ولكل دولة رقم معين، فعلى سبيل المثال: (Syria 89) (Turkey 44) (Lebanon 88) وهكذا.. ويوجد في هذا الفهرس أرقام الملفات التي تضم الوثائق.

٨ ــ بعد الانتهاء من أخذ أرقام الملفات (Files) يتجه إليها باحثاً، حيث تضم بدورها عناوين

الموضوعات (Titre) ولهذه الموضوعات أرقام خاصة.
٩ ــ بعد أخذ أرقام عناوين الموضوعات يتجه الباحث للكمبيوتر لطلبها فيتم الضرب على أزرار الكمبيوتر وفقاً للتالي: رقم بطاقة الباحث، رقم البليبر، رقم المنطقة التي يعمل عليها ورقم البلد ورقم الوثيقة.
١٠ ــ في ثوان يجيب الكمبيوتر فيما إذا كانت الوثائق موجودة أم هي بحوزة باحث آخر. فإذا كانت موجودة يخبرك الكمبيوتر، وفي خلال دقائق ــ وأينما كنت في المكتبة أو الكافيتيريا... ــ يضيء نور البليبر ويعطيك صوتاً مستدعياً مشيراً إلى أن باستطاعتك استلام الملفات والوثائق من على الكونتوار والتي تصله من المكان المخصص إلى المكتبة عبر مصعد آلي متحرك. علماً أنه لا يسمح عادة للباحث بطلب أكثر من ثلاثة ملفات دفعة واحدة.
١١ ــ يتناول الباحث هذه الملفات ويقوم بدراستها وينقل منها ما يشاء على بطاقات خاصة، ثم يدوّن ملاحظاته، وأخيراً يتجه إلى مكتب التصوير (Photo-copy) ليصوّر ما يشاء ــ بثمن معين ــ بعد أن يملأ قسيمة باسمه ورقم الملف وعدد الوثائق المطلوب تصويرها. وفي خلال فترة وجيزة تكون الأوراق جاهزة حيث تعطى للباحث مرقمة بأرقام ملفاتها وأرقامها. ثم يضعها الموظف المختص في ملف خاص يأخذه معه الباحث عند انتهاء عمله في المركز في آخر النهار أو في اليوم التالي إذا شاء.
هذا موجز عمّا هو متّبع في «مركز الوثائق العامة» في لندن حيث يقدم خدمات تقنية للمؤرخين ولسواهم اعتماداً على علم التوثيق وأدواته. بينما فرنسا لم تتبع إلى الآن في مكتبتها الوطنية أو مركز وزارة الخارجية الفرنسية مثل هذا الأسلوب الحديث، إنما لا يزال الأسلوب التقليدي هو المتّبع.

(٧) إن كلمة الأرشيف يونانية المصدر من «أرخيون» (Archion) وفي اللاتينية «أركيفوم» (Archivum) وفي الانجليزية والفرنسية (Archives) وفي الألمانية (Archiv) وفي الايطالية (Archivo) وفي الهولندية (Archief) حتى أنه في اللغة العربية يتم تعريبها أحياناً بالقول: أرشيف وأرشفة. ولعل أصل كلمة «أرخيون» عربي مشتق من أرخ وورخ.

(٨) انظر: د. محمد قبيسي: علم التوثيق والتقنية الحديثة، ص٣١، ٦٤ ــ ٦٨، ٧٤، ٨٩. انظر ايضاً: تقنية أو «أصول التوثيق» Jacques Chaumier; Les Techniques Documentaires.

(٩) حافظ القباني: مومياءات مصر تدخل العقل الآلي الياباني، مجلة التضامن (لندن) أول أيلول (سبتمبر) ١٩٨٤، العدد ٧٣، ص٤٧ ــ ٤٩.

(١٠) قام بعض المؤرخين المسلمين والعرب بتأليف كتب خاصة في النقود والموازين والمكاييل ومن بين هؤلاء: المقريزي صاحب كتابي: «شذوذ العقود في ذكر النقود» و «كتاب الأكيال والأوزان الشرعية» كما الفَّ منصور الكاملي كتاب تحت عنوان «كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية». ولمحمد باقر الحسيني مجموعة من الكتب عن النقود منها كتاب: «تطور النقود العربية والاسلامية» وكتاب «العملة الاسلامية في العهد الأتابكي». ولعبدالرحمن فهمي بعض الكتب منها: «صنبح السكة في فجر الاسلام» وكتاب «النقود العربية ماضيها وحاضرها». أما ناصر النقشبندي فله كتب في «الدرهم الاسلامي» وكتاب في «الدينار الاسلامي». هذا وقد صدر لي كتاب عن النقود والدواوين تحت عنوان «تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي». عن دار الكتاب اللبناني ــ دار الكتاب المصري، بيروت ــ القاهرة ١٩٧٨.

(١١) تنسجم هذه البيبلوغرافيا مع كتابي «أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني» (سجلات المحكمة الشرعية في بيروت).

(١٢) انظر مقالنا: العمارة في العهد العثماني من خلال سجلات المحكمة الشرعية في بيروت. في المجلة العلمية ــ كلية الهندسة المعمارية، جامعة بيروت العربية ــ العدد الأول ١٩٨٥، ص٨٥ ــ ٨٩.

(١٣) في أثناء كتاباتي التاريخية التراثية عن بيروت ولبنان، استفدت كثيراً من صور بيروت القديمة العائدة للقرن التاسع عشر.

(١٤) هيوغ أتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص٢٦. للمزيد من التفصيلات حول الأنتروبولوجيا انظر: د. علي محمود إسلام الفار: الأنتروبولوجيا الاجتماعية ــ الدراسات الحقلية في المجتمعات البدائية والقروية والحضرية ــ دار المعارف ــ مصر ١٩٨٤.

(١٥) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ الأنتروبولوجيا انظر: Haddon. A.A. History of Anthropology. 20-25.

(١٦) للمزيد من التفصيلات انظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، ص٨٦ ــ ٩٠.

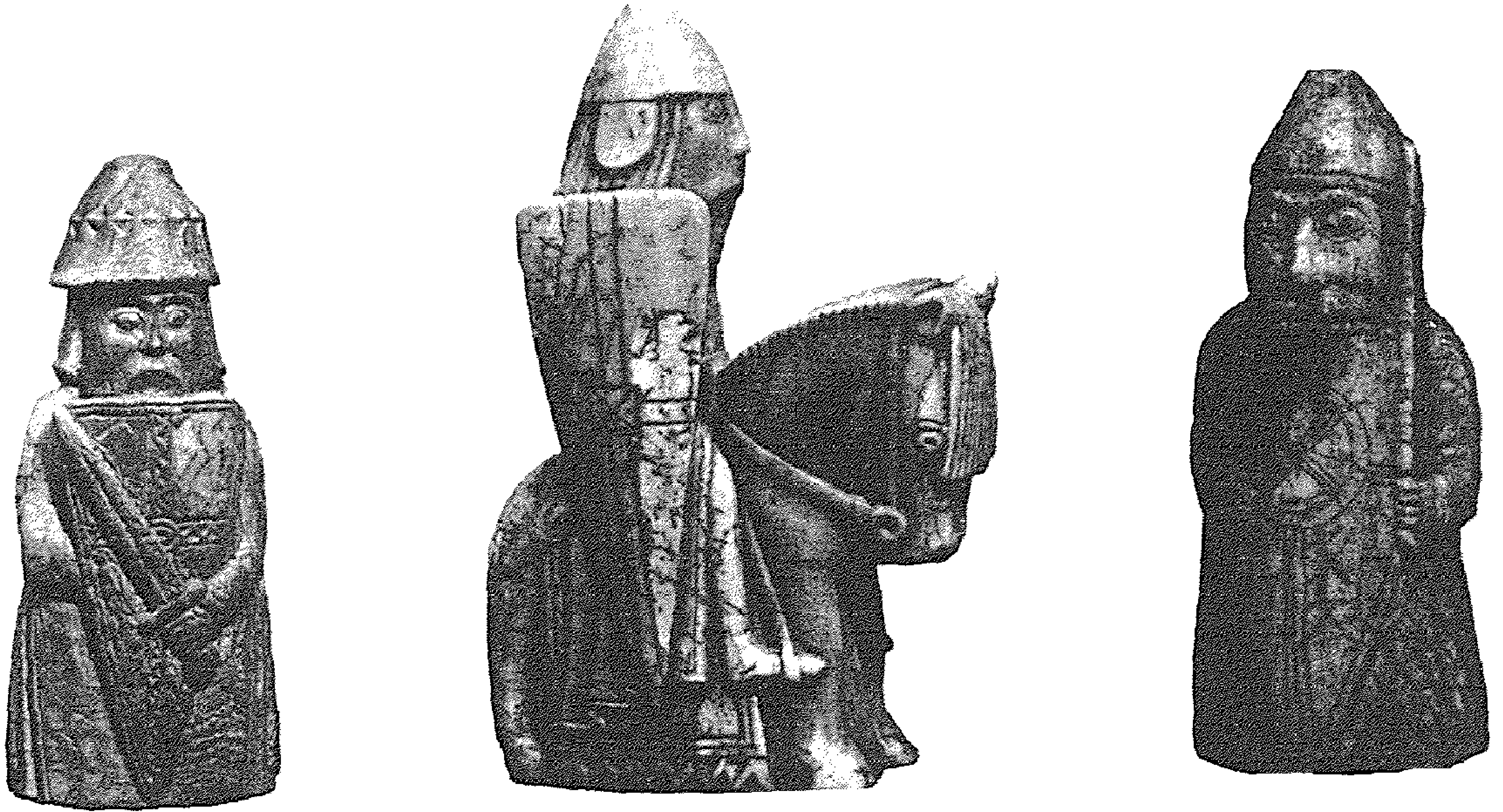
(١٧) انظر محاضراتنا: مذاهب الفكر التاريخي، ص٩ (الجامعة اللبنانية).

(١٨) للمزيد من التفصيلات عن أثر المقدسي والادريسي والبيروني وابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون في الدراسات الأنتروبولوجية والأثنوغرافية والأثنولوجية والايكولوجية (علاقة الانسان بالبيئة Ecology)، انظر: د. زكي محمد إسماعيل: الأنتروبولوجيا والفكر الاسلامي، ص٣١ ــ ٥٤.

(١٩) للمزيد من التفصيلات الوافية انظر: د. عبداللطيف احمد علي: مصادر التاريخ الروماني، ص٦٩ ــ ١٠٣.

تاريخ الشطرنج عند العرب

■ محمد مراد سكر



لا بد لي قبل أن أبدأ هذه المقدمة التاريخية من أن أذكر بأن هذه الحقبة من تاريخ الشطرنج عند العرب لا يزال يكتنفها بعض الغموض، فلم يصلنا عن هذه الحقبة إلا النذر اليسير، ذلك أن أكثر المراجع لم تعد بين أيدي العرب ويصعب علينا، بل ويتعذر أحياناً الوصول إليها،ومن القليل القليل الذي حصلنا عليه هو مخطوطتين من العراق ومخطوطة من الجامعة الأميركية في بيروت ليست بأهمية «انموذج القتال في نقل العوال» الموجودة نسخة عنها في دمشق كما في بغداد والذي حققها مؤخراً السيد زهير أحمد القيسي في العراق وقامت الحكومة العراقية مشكورة بطبعها ونشرها.



كان العصر العباسي العصر الذهبي لكافة العلوم والفنون، فيه ازدهر الطب والجبر والهندسة وعلم الحساب، والفلك، وسوى ذلك، فلا عجب إذاً، إذا ازدهر الشطرنج أيضاً، بعد أن رعاه الخلفاء وعلى رأسهم هرون الرشيد الذي كان أول خليفة من خلفاء بني العباس لعب بالشطرنج وبالنرد وقدّم اللعّاب وأجرى عليهم الرزق كما يقول المسعودي في مروج الذهب ج٤ ص٢٢٥. (علماً بأن بين الخلفاء الأمويين كثير ممن لعبوا الشطرنج).

لكن، ترى، متى بدأ العرب يعرفون الشطرنج، كيف دخل إلى بلادهم ومتى؟

هل لذلك قصة شبيهة بقصة دخول الشطرنج إلى فارس أيام كسرى؟ أم أن الشطرنج دخل مع الفتوحات الاسلامية، أم أنه دخل مع قوافل

* مقتطفات من المحاضرة التي القاها محمد مراد سكر رئيس الاتحاد اللبناني للشطرنج في تطوان في ١٩٨٥/١٠/٢٠ بمناسبة مهرجان الشطرنج.

التجار قبل ذلك، أم نقله بعض الشعراء الذين كان منهم قلة كثرت أسفارهم مثل امرىء القيس الذي نسب إليه بعضهم أبيات في الشطرنج، أم بعض الصحابة والتابعين والمسلمين الذين أتوا من خارج الجزيرة العربية وسكنوا بغداد والشام، أم سوى ذلك، سؤال حيرني طويلاً فبدأت أستقصي الكتب القديمة التي وقعت بين يدي، ربما أقع على قصة أو طرفة أو خرافة أو أي شيء آخر. ولكني لم أعثر على ضالتي في الكتب العربية إلى أن وقعت صدفة على كتاب باللغة الانكليزية كتبه (R.C. Bell) اسمه: (Board and Table Games from many civilizations)، وفي الكتاب هذا قرأت سرداً تاريخياً موجزاً لكافة الألعاب القديمة، الداما، الورق (الكوتشينة) ألعاب التسلية إلخ.. وتحت باب ألعاب الحرب أتى الكاتب على الشطرنج.

فقد جاء في الصفحة ٥٧ من هذا الكتاب ما يلي:

«خلال السنوات الخمسين التي تلت دخول الشطرنج إلى فارس كما نصّت الشهنامة، انتشر الشطرنج في البلاد العربية وفي البلاط البيزنطي، وذلك على أثر زواج الابن البكر لكسرى أنو شروان من ابنة الامبراطور البيزنطي موريس (والمعروف أن هذا الزواج الذي كان سياسياً، كان يهدف لتحقيق حلم كسرى الكبير بأن يصبح سيد آسيا وأفريقيا) (والمعروف أيضاً حسب الخرافات التي لدينا، أن الشطرنج دخل فارس أيام كسرى هذا وكان بزرجمهر وزيره هو الذي فك رموز الشطرنج التي أتى بها الهنود إليه طالبين إما فك رموزها وإما عدم فرض الجزية ذلك أن الحكم يجب أن يكون بين أيدي أصحاب الحكمة لا القوة)».

ولنتابع ما يذكره الكاتب:

«في سنة ٥٩١م، أصبح كسرى ملكاً للفرس، وبعد مقتل عمه (والد زوجته) أعلن الامبراطور موريس الحرب على الامبراطورية الرومانية واجتاح كما هو معروف آسيا الصغرى، سوريا، مصر، وشمالي أفريقيا، وانتشر الشطرنج خلال ذلك في هذه البلاد، والمعروف أن العرب اقتحموا فارس سنة ٦٤٢م».

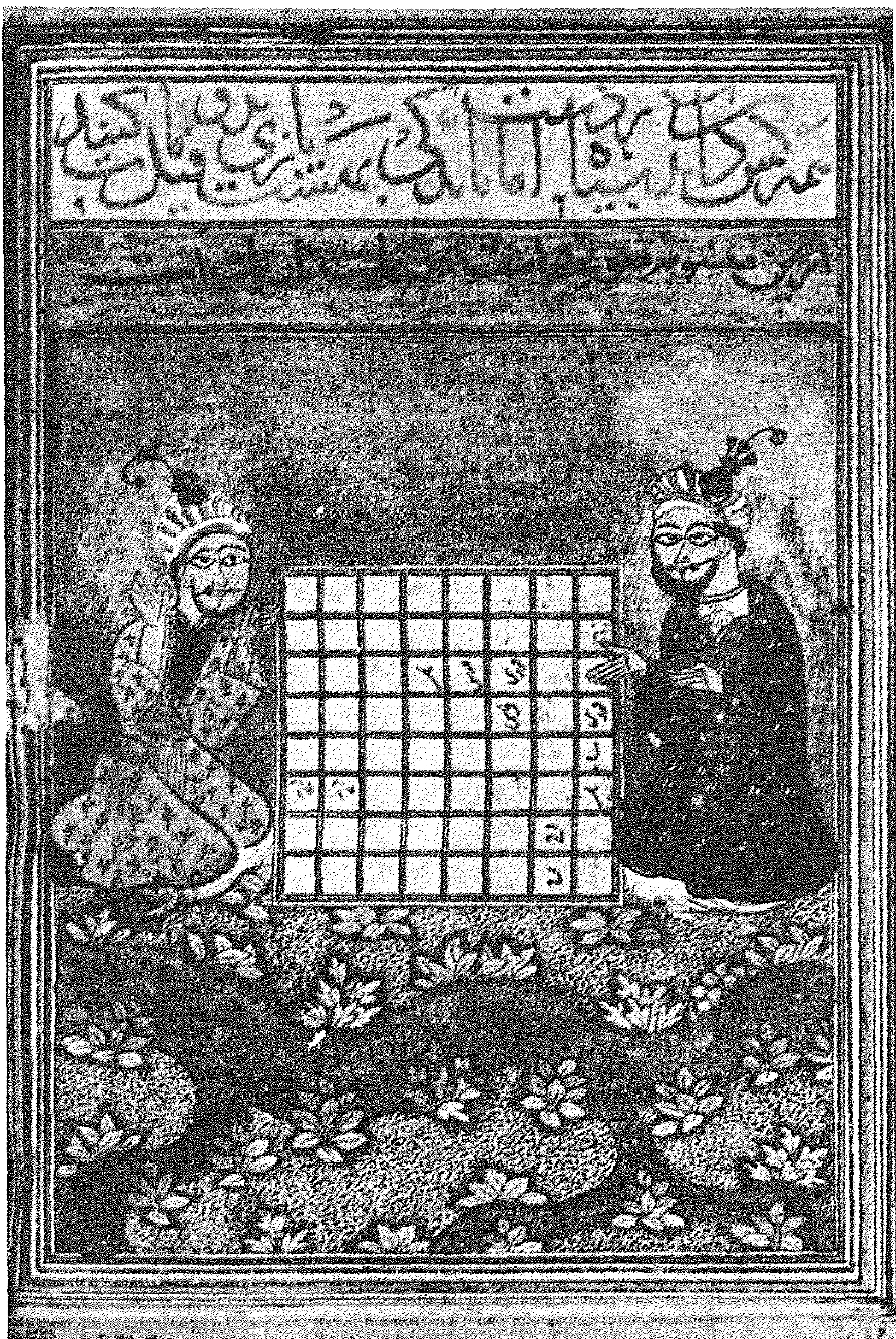
إذا كان ذلك صحيحاً، فهذا يعني أن العرب عرفوا الشطرنج قبل الاسلام، وأن انتشاره تم في العصر البيزنطي، أثناء فتوحاتهم للدول المذكورة أعلاه.

ويتابع الكاتب (Bell) فيقول: «وعلى الأغلب عرفت اليونان الشطرنج حوالي سنة ٦٠٠م، وفي نفس الوقت وصل الشطرنج إلى مكة والمدينة المنورة، وكان للشطرنج القدح المعلى في بلاط الخليفة في دمشق من سنة ٦٦١ إلى ٧٧٤ للميلاد (وبقصد العصر الأموي) وقد كان السراقسي أول من كتب في الشطرنج (الشطرنجي) والمعروف أن السراقسي توفي سنة ٨٩٩م». انتهى كلام الكاتب (R.C. Bell).

ومهما كانت نسبة ذلك من الحقيقة، فالثابت أن العرب هم أول من وضعوا للشطرنج قواعد بقي العالم يعمل بها مدة طويلة، قبل أن يُعَدِّل (بكسر الدال) طريقة تنقل بعض الأحجار ويضع الأسس الثابتة التي نعرفها اليوم.

والثابت أيضاً، تاريخياً، أن العرب هم أول من ألفوا بالشطرنج ولم يعرف العالم شيئاً عن الشطرنج قبل أن يبرع به العرب ويؤلفوا به. حتى الاتحاد السوفياتي (روسيا سابقاً) فالمؤرخون كما يقول كتاب (The Adventure of Chess)، ص٤١ لادوارد لاسكر، يرجحون دخول الشطرنج إلى روسيا إلى القرن الثامن من خلال تجارهم الذين كانوا يشترون بضائعهم من الفولغا (Volga) إلى البحر الكاريبي (Caspian Sea) ليبيعوها في مرافىء فارس، ويحملونها على ظهر الجمال إلى بغداد أكبر سوق إسلامية في ذلك العصر، لذا فقد تعلموا الشطرنج من الفرس ومن العرب بدليل أنه وجد في روسيا عملات عربية تعود إلى القرن الثامن والتاسع (والمعروف أن التجارة بين السلاف والمسلمين كانت تجري قبل السنة ٨٠٠م) وبدليل واضح أيضاً، أن طريقة اللعب التي تبعها الروس آنذاك في لعبهم هي نفسها في آسيا في ذلك الوقت.

ويقول موراي (Murray)، وقد كان اللعب عند العرب، صورة واضحة عن الحرب تملأ المرء إعجاباً بفن العرب في هذه اللعبة، ولكن ترك العرب لها وانتقالها إلى أشخاص كانوا يحاولون ابتذاذ الأموال بها، مما جعلها لا تحمل طابع



□ جولة في الشطرنج ــ من المخطوطة الفارسية القديمة «رسالة في الشطرنج».

الفن بقدر ما تحمل طابع الحيلة والخداع إلى أن أتى لوبيز سنة ١٥٦١ يعيد للشطرنج الطابع القديم، فاستعاد الشطرنج روحه النبيلة القديمة وعاد يمثل الحرب كما كان في السابق. وبعد ركوده في القرن السابع عشر أتى فيليب ستاما (وأظنه فيليب سطام) من مواليد حلب سنة ١٧٣٧م الذي لقبه المؤرخون آخر أبرز اللاعبين العرب، أتى ستاما يعيد مرة أخرى للشطرنج التألق الذي كان يعرفه العرب، ويعيد إليه روح الفروسية التي عرف بها (هذا القول للمؤرخين الأجانب).

إذاً فالطابع العربي هو الذي أحبه الناس في الشطرنج وهو السبب في انتشار الشطرنج في العالم كله.

لن أدخل في تفاصيل النهضة العربية للشطرنج فذلك بحاجة إلى مقال خاص فما يهمنا في هذه العجالة هو الناحية التاريخية فحسب، غير أني أود أن أذكر ما تركه العرب من بصمات على الشطرنج في العالم.

١ ـــ لم يكن لاسم «الملك» أي إشكال في الترجمة إلى كل اللغات، فقد كان ترجمة «لكلمة شاه» وكذلك البيدق فلفظه في كل لغات العالم تشير إلى أصله العربي.

٢ ـــ **الفرس**: ترجمت إلى معناها ـــ حصان، (Springer, Ritter, Cavalier, Knight) إلخ.

٣ ـــ **الرخ**، لم يكن معنى الكلمة معروفاً، لذلك بقيت الكلمة كما هي: Roque, Rocco, Rook إلخ.. أما الكلمة الألمانية Turm, Tour, Torre, Castle فقد استعملت بعد أن بدأت الهند بتصدير قطع الشطرنج إلى أوروبا حيث كان الرخ بشكل قلعة يحملها فيل.

٤ ـــ **الفرز** (المستشار) نسي الناس معناها فعاشت لمدة طويلة في اسبانيا (Ferz) او (Alferza) ثم تحولت إلى (Fierge) او (Vierge) باللغة الفرنسية القديمة ولكن في النهاية أطلقت عليها أوروبا اسم (Queen)، بالألمانية (Konigin)، بالفرنسية (Dame) او (Reine)، بالاسبانية (Dama).

٥ ـــ كذلك **الفيل** فقد بقيت كما هي باسبانيا، أما في إيطاليا فقد اختلف اللفظ قليلا وأصبح (Al Fierre) ولكن البصمة العربية لا تزال واضحة، الألمان أطلقوا عليه في البدء (Der alte) أي الرجل الكبير ثم لويفر (Laufer) في بريطانيا (Bishop) وهو الاسم الذي اطلقته عليه البرتغال (Bispo)، الافرنسيين (Fou) ولعل ذلك يعود إلى سوء فهم الكلمة العربية فيل كتبت (Fol) وربما كان ذلك عائداً لشكل الفيل كما كان يظهر ببعض الألعاب الشرقية، ذلك أنه على رأس القطعة التي تمثل الفيل كان يظهر ناب الفيل الذي ظنه البعض كأنه عمامة الوزير أو طرطور المجنون.

ويقول موراي ان اسم اللعبة بكل أوروبا ما عدا اسبانيا والبرتغال أتت من الكلمة اللاتينية (Scac) التي هي ترجمة حرفية للكلمة العربية شاه كما كانت تكتب باللاتينية بالقرن التاسع. أما في اسبانيا والبرتغال فقد بقي اسم اللعبة مشتقاً من الكلمة العربية شطرنج ـــ في اسبانيا(Ajedrez) و (Xadrez) في البرتغال.

ولا بد في هذا المجال من أن أشير أيضاً إلى القاعدة المعروفة في الشطرنج (Touch move) أو Pièce touchée, Pièce jouée أي أن عليك أن تلعب القطعة الملموسة، التي وضعها العرب ذلك أن العرب كانوا يعتبرون لمس الحجر وكأنه وعد بنقل هذا الحجر، لذلك كانوا يشددون على هذه القاعدة، هكذا تقضي الشهامة وروح الفروسية التي تحلى بها العرب، فالأخلاق الشريفة تقضي بأن يفي الانسان بوعده.

وهناك ترقية البيدق عندما يصل إلى الخانة الثامنة، فقد كان العرب يسمحون فقط بفرزنة البيادق، أي أن يصبح فرزاً فقط أي ملكة، أليس في هذا إشارة إلى السماح عند المسلمين بتعدد الزوجات، وقد بقي الأمر كذلك مدة طويلة من الزمن قبل أن يسمحوا بترقية البيدق إلى أية قطعة يريدها اللاعب.

الترقيم ـــ أي تدوين النقلات، فقد كان العرب (العدلى) أول من وضعه، وكان العربي (ستاما) آخر من عدله، وأقصد بذلك الترقيم الجبري الذي يعتمده الاتحاد الدولي للشطرنج والذي وضعه اللاعب العربي السوري فيليب ستاما (سطام) المولود في حلب سنة ١٧٣٧.

دخول الشطرنج إلى أوروبا

كثرت الروايات حول هذا الموضوع، فقيل دخلت إلى الأندلس عن طريق افريقيا أثناء الفتوحات الاسلامية، وذلك عن طريق جبل طارق، وانتشرت في اسبانيا ثم انتقلت إلى قصر شارلماني في فرنسا حوالي سنة ٧٦٠م، وقيل أن اللعبة كانت بين الهدايا التي أرسلت إلى شارلماني، عندما كان يود عقد قرانه على الأميرة البيزنطية (Trene)، ولعل أقرب قصة إلى الحقيقة، أن ذلك تم أثناء الحروب الصليبية، فالمعروف أن السلطان صلاح الدين الأيوبي، بسط سلطانه على مصر وسوريا، وكان للشطرنج المركز المحترم في بلاطه، ويعرف الجميع أن المسيحيين تعلموا خلال هذه الحرب، أسرار الطب العربي، ومن الممكن أيضاً أن يكونوا قد تعلموا الشطرنج، ولدى عودتهم نشروا الشطرنج في أنحاء أوروبا، ويقول موراي: انتقل الشطرنج إلى أوروبا من قبل المسلمين عن طريق أفريقيا، أما اسبانيا فقد تم عند الفتح الاسلامي، وإلى إيطاليا من قبل السراقسيين.

ومهما تعددت الروايات فالثابت منها كلها أن العرب والمسلمون خصوصاً، هم الذين نقلوا الشطرنج إلى أوروبا سواء أكان ذلك أثناء فتوحاتهم إلى إسبانيا أو عن طريق حروب صلاح الدين. ذلك أن الشطرنج الذي كان معروفاً في أوروبا ذلك الحين كان طبعةً طبق الأصل عما كان عليه الشطرنج عند العرب.

ولعل أقدم أحجار شطرنجية في العالم، والتي عرفت بأحجار الشطرنج الاسلامية، هي التي اكتشفت بالهند سنة ١٨٥٥م، اكتشفها العالم (AF. Bellasis) أثناء الحفريات التي قام بها لاكتشاف مدينة المنصورة في (Bambra-Ka-Clul) وهي تقع على بعد ٤٧ ميلاً شمالي شرقي حيدر أباد، وكانت مدينة اسلامية هدمها الزلزال قبل وقت قصير (من عصر البيروني ١٠٣٠م) وهذه القطع محفوظة اليوم (كما يقول الكاتب) في المتحف البريطاني **وإلى جانبها وجد زهر طويل قياس** (٢,٥٠ × ١,٦) وآخر مكعب (١,٦٠ × ٢,٥٠ × ٣,٤٠) مع قطع من علبة صغيرة وجدت بجانبهم. وأؤكد هنا على الزهر الذي وجد أمام أحجار الشطرنج في عودة إليه فيما بعد.

المؤلفات

المؤلفات العربية القديمة كثيرة إنما من المؤسف لم يبق منها إلا النذر اليسير وبالعودة إلى الفهرست لابن النديم هذه أسماء أهم الكتب القديمة:

— الشطرنج للعدلي.
— اللطيف في الشطرنج للرازي.
— الكتاب الأول والثاني من الشطرنج للصولي.
— كتاب منصوبات الشطرنج للجلاّج.
— مجموعة من منصوبات الشطرنج للاقليدس.
— كتاب الشطرنج لأبي العباس أحمد بن محمد السرخسي (٢٨٦هـ).

وهناك كتب أخرى للحلاج، وللمنصوبات لمؤلف مجهول الهوية، وإعجاز النصيب فيما في الشطرنج من المناصيب، ونزهة أرباب العقول في الشطونج المنقول، انموذج القتال في نقل العوال الذي ذكرنا عنه في بدء بحثنا هذا وغيرها مما كنا ذكرناه في مقالاتنا في مجلة تاريخ العرب والعالم، أعداد السنة الأولى والثانية، غير أنني أحب أن أضيف إلى هذه المؤلفات القديمة كتاب ستاما (Le Noble jeu des Echecs) الذي ترجم إلى الانكليزية سنة ١٧٤٥م (The Noble Game of Chess) والذي استعمل فيه للمرة الأولى في العالم الطريقة الجبرية التي يعتمدها اليوم الاتحاد الدولي للشطرنج.

وإلى كتابه الذي يعتبر تحفة في النهايات، وفي المسائل الشطرنجية (Les 100 Parties Desesperees).

وقد ترجمت كتبه هذه إلى عدة لغات، فرنسي، انكليزي، ألماني، هولندي، وإيطالي، وقد أعيدت طباعتها مراراً كان آخرها بعد ١٢ عاماً من صدور الطبعة الأولى.

ولا بد أن أذكر أيضاً المحاولتين اللتين قام بهما المهندس المصري جبرائيل نصره بك، وهما التعبئة وكنانة الشطرنج العصري في الأربعينات من هذا العصر.

ولا أريد أن أغمط حق بعض العرب الذين قاموا بمحاولات في هذا الموضوع إلا أن أغلبها كان ترجمة لكتب أجنبية صدرت فاسمحوا لي أن لا أذكرها تفصيلاً ذلك أن من بينها محاولات لا بأس بها إنما ليست كافية في هذا السبيل.

الإسلام والشطرنج

موضوع طالما طلب إلي أن أكتب بشأنه، والموضوع كما تعلمون جميعاً حساس جداً أخذ نقاشاً طويلاً في الماضي ولا يزال يثار من وقت لآخر في بعض الدول العربية والاسلامية.

لقد ترددت كثيراً قبل الخوض في هذا الموضوع فلست بالفقيه ولا من رجال الدين فلماذا أزج نفسي في هذا المأزق ولكني بعد إصرار بعض الأصدقاء رأيت أن أنزلق بهذا المنزلق. خصوصاً بعد أن أثارته بعض الجهات معتبرة الشطرنج محرماً وانسياق البعض مما يؤخر انتشاره الذي نسعى إليه في الاتحاد العربي للشطرنج بين شباب الجيل الصاعد. وقلت في نفسي أمامي كتب الفقه أقرؤها وأضع خلاصة ذلك وأطرحه وليبد كل رأيه ويتخذ القرار الذي يراه.

كما تعلمون حرم بعض الأئمة لعب الشطرنج قياساً على تحريم النرد وأباحه بعضهم ضمن شروط واعتبره البعض مكروهاً.

تعالوا نسترجع معاً ما كتبوه بهذا الشأن.

تحريم النرد جاء في صحيح مسلم وسنن أبي داود وابن ماجه «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله». وثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من لعب بالنرد شير فهو كمن غمس يده في لحم الخنزير ودمه». «النرد منسوب إلى الملك أردشير أحد ملوك الأسرة الساسانية التي حكمت فارس حتى سقوط دولة بني ساسان عند الفتح الاسلامي» وأحب أن أضيف أن حول هذا الحديث مقالاً وسأعود إلى ذلك فيما بعد.

وعلل الفقهاء تحريم النرد بأنه كالأزلام يعول فيه على ترك الأسباب والاعتماد على الحظ والبخت والاتكال على ما يجيء به القدر، أي أن فيه الكثير من معنى الميسر المبني على الكسب بالحظ والنصيب دون العمل والجد. ولا أريد أن أخوض بموضوع النرد فهو ليس موضوعنا اليوم إنما ذكرت ذلك لأن بعض الفقهاء في تحريمهم الشطرنج إنما فعلوا ذلك قياساً على النرد.

وقال بعضهم الشطرنج من الميسر والله قد حرم الميسر، وقال غيرهم أن اللعب بالنرد والشطرنج حرام، وقيل أيضاً أن النرد والشطرنج إذا لعبا بعوض فالشطرنج شر منها.

لماذا هذا الربط بين النرد والشطرنج وكيف يقيسون الشطرنج على النرد وكلكم يعلم إنه لا شيء يجمع بينهما. فالنرد لعبة الحظ والشطرنج خطط ومعارك على رقعة يتساوى فيها اللاعبان ليس فيها للحظ نصيب. ولن أسترسل في ذلك فأنتم أدرى بهذه الأمور.

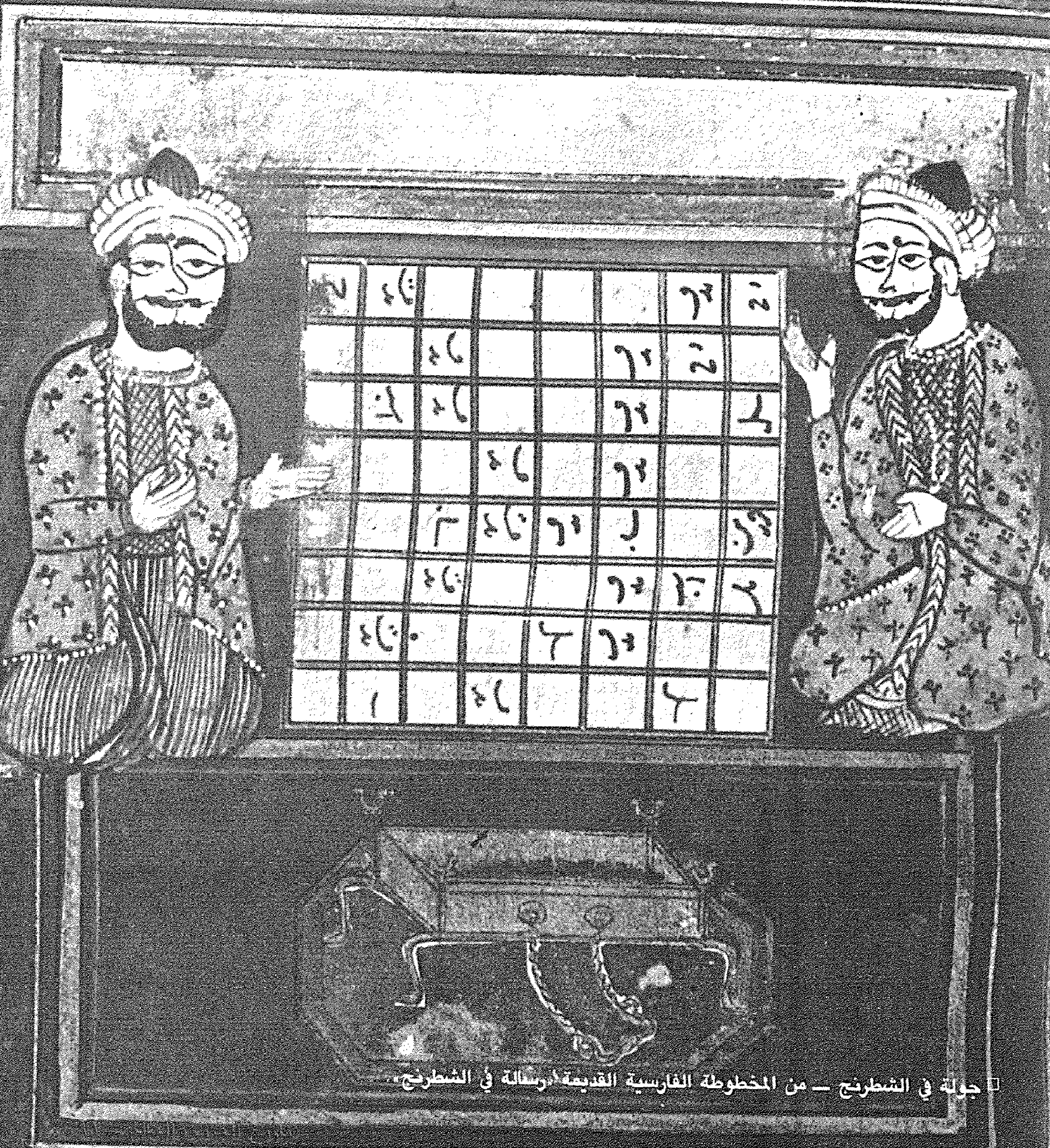
إذاً لماذا هذا الربط بين النرد والشطرنج، لماذا لم يربطوا بينه وبين الداما مثلاً، والأخيرة أقرب إلى الشطرنج من النرد وأن يكن الفرق كبيراً بينهما.

إن الفقهاء الذين حرموا الشطرنج علماء أجلاء نحترمهم ونمشي على هديهم ولا يمكن أن يخطئوا إلا إذا كانت المعطيات بين أيديهم خاطئة، صحيح أن بعضهم أباح الشطرنج بشروط واعتبره غيرهم مكروهاً ولكن لماذا كل ذلك.

لذا قمت بالبحث والتدقيق، فتبين لي أن الشطرنج في أوائل العصر الاسلامي كان يلعب على شكلين، الأول خطوة خطوة، كما نعرفه اليوم، والطريقة الثانية كان يلعب بواسطة النرد ومن هنا أتى التحريم بالقياس على لعبة النرد وليس على الداما. هنا بطل عجبي وفهمت الأسباب لهذا الربط.

سيقول قائل منكم، وكيف كان يلعب بالنرد، وإليكم القصة.

المتتبع لتاريخ الشطرنج يعرف أن كثيراً من الألعاب وخصوصاً ألعاب الحرب نشأت في الهند ثم انتقلت إلى كثير من البلدان بعد تحوير



□ جولة في الشطرنج ـ من المخطوطة الفارسية القديمة «رسالة في الشطرنج».

وتعديل. من هذه الألعاب لعبة سباق تدعى اشتابادا شبيهة بلعبة أخرى تلعب في جنوب الهند تدعى تايام، وكانت الاشتابادا تلعب على رقعة مؤلفة من ٦٤ خانة. وفي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد انبثق من هذه اللعبة لعبة أخرى جديدة دعيت شاطورنجا وهي تمثل معركة صغيرة بين أربعة جيوش يقود كلاً منها الراجا، ويتألف كل جيش من ٤ جنود سفينة، حصان، فيل، وقائد لكل معسكر حليف وهكذا تجري المعركة بين حليفين ضد معسكرين آخرين، أي ٢ ضد ٢. يتحكم بتنقل القطع نرد طويل سجل عليه الأرقام ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ و ٥. في كل رمية للنرد، الرقم الظاهر هو الذي يحدد تحركات القطع. الرقم ٢ ـ أي أن على السفينة أن تتحرك. الرقم ٣ يحرك الحصان الرقم ٤ الفيل والرقم ٥ يحرك القائد أي الراجا أو الشاه كما نسميه اليوم وله الخيار في تحريك البيدق مكانه.

إذا كان الزهر يتحكم بتحريك القطع.

وكانت اللعبة تلعب على رهان يوضع في صندوق مشترك. يرمي كل لاعب بالنرد وصاحب الرقم الأعلى يبدأ اللعب. إلى آخره، ولا أريد أن استرسل في وصف هذه اللعبة وقواعدها. ولكن المراهنات هذه منعتها الديانة الهندوسية فاضطر اللاعبون إلى تعديل هذه اللعبة بإلغاء النرد وإبعاد عنصر الحظ وتبع ذلك تغييرات أخرى أولها دمج قوى الحلفاء وجعلها قوة واحدة، وهكذا أصبح اللعب بين إثنين عوضاً عن أربعة وصار كل لاعب يملك ستة عشر حجراً. وحرف الاسم من شاطورنجا إلى شطرنج. غير أن بعض اللاعبين احتفظ بالنرد وبقي يلعب الشطرنج به. فقد ذكر بالرواية الفرنسية (HUON DE BORDEAUX) المكتوبة سنة ١٢٠٠م عن حوار بين هويون (HUON) وبنت الملك ايغورين الذي كان يلاعبها الشطرنج وكان يريدها لنفسه فاشترطت أن يغلبها بالشطرنج، أية لعبة تريدين، نقلات أم بالزهر، فأجابت بوضوح تام سنلعب دون زهر.

إذاً كان الشطرنج ولغاية القرن الثالث عشر يلعب أحياناً بواسطة الزهر وهذا يفسر أيضاً تحريم الكنيسة للعب الشطرنج في ذلك القرن.

فإذا علمنا أن الشطرنج نقله العرب إلى أوروبا. فهذا يعني بل يدل دلالة واضحة على انه كان يلعب أيضاً بواسطة النرد في أوائل العصر الاسلامي.

وتأكيداً لذلك ففي سنة ١٠٦١م كتب باتروس داميانى كاردينال أوستيا إلى البابا الكسندر الثاني، نحن نعلم أن جنون الزهر أو الشطرنج (لاحظ الربط هنا أيضاً) كان يعتبر معيباً، وهو ممنوع من قبل الكنيسة وهذا يعود إلى أن المسلمين كانوا يلعبون أحياناً الشطرنج بواسطة الزهر ولا شك أن الايطاليين عرفوا ذلك.

وأحب أن أضيف هنا هذا الخبر، الذي زاد من اقتناعي بأن الشطرنج كان يلعب بواسطة الزهر أحياناً بالعصر الاسلامي، فقد اكتشف العالم بلازيس (A.F. BELLASOS) أثناء الحفريات التي قام بها لاكتشاف مدينة المنصورة في (BAMBRA-KA-CLUL) وهي تقع على بعد ٤٧ ميلاً شمالي شرقي حيدرآباد، وكانت **مدينة إسلامية** هدمتها الزلازل قبل وقت قصير من البيروني ١٠٣٠م. اكتشف هذا العالم أحجاراً شطرنجية عرفت بأحجار الشطرنج الإسلامية وإلى جانبها وجد زهر طويل قياس (١,٦ × ٢,٥) مكعب (٣,٤ × ٢,٥ × ١,٦) في علبة صغيرة وجدت بجانبهم ولعلها أقدم أحجار شطرنجية إسلامية كاملة.

ها قد وضح لنا الآن لماذا ربط الفقهاء الشطرنج بالنرد، ذلك أنهم رأوا بعض اللاعبين يلعبونه بواسطة النرد فكان هذا التحريم ممن رأوه. وأبرز دليل على ذلك أن الفقهاء لم يتطرقوا للعبة الداما، وكلنا يعلم أن الداما أقرب للشطرنج من لعبة النرد، والداما لعبة قديمة جداً منذ الفراعنة، ولكن الداما لم تلعب يوماً بواسطة النرد، لذلك لم يأت على ذكرها أحد. فإذا ربطنا إلى ذلك محدودية تنقل الأحجار فالوزير كان يتحرك خطوة خطوة قطرياً، والفيل خطوتين فقط، لعلمنا مقدار الحظ في الشطرنج قديماً إذا لعب بواسطة النرد لذا بنظري، كانت هذه هي الأسباب الجوهرية في فتوى التحريم. أما اليوم وقد انتفت هذه الأسباب، فهل يبقى التحريم قائماً، لهذا عمدنا إلى استشارة علماء الدين في ذلك الخصوص. وقبل أن نتطرق إلى موجز

ما أفادونا به، دعونا نراجع معاً ما كتبه الفقهاء حول الشطرنج من إباحة وتحريم.

جاء في كتاب فقه السنة المجلد الثالث ص ٥١٢ تأليف السيد سابق، قال الحافظ بن حجر العسقلاني:

لم يثبت في تحريمه حديث صحيح ولا حسن، ولهذا اختلف الفقهاء في حكمه فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه. فممن حرمه أبو حنيفة ومالك وأحمد، وقال الشافعي وبعض التابعين يكره ولا يحرم. فقد لعبه جماعة من الصحابة ومن لا يحصى من التابعين.

قال ابن قدامة المقدسي الحنبلي في المغني: فأما الشطرنج فهو كالنرد في التحريم، إلا أن النرد آكد منه في التحريم لورود النص فيه أي في تحريمه لكن هذا في معناه فيثبت فيه حكمه قياساً عليه.

وروى عن أبي هريرة وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير إباحته، واحتجوا بأن الأصل الإباحة ولم يرد بتحريمها نص ولا هي في معنى المنصوص عليه، فتبقى على الإباحة، والذين اباحوه اشترطوا لإباحته الشروط الآتية:

١ ــ أن لا يشغل عن واجب من واجبات الدين.

٢ ــ أن لا يخالطه قمار.

٣ ــ أن لا يصدر أثناء اللعب ما يخالف شرع الله.

(هذا لعمري يمكن أن ينطبق على أية لعبة وليست بالضرورة على الشطرنج).

وجاء في مجلة المنار، المجلد السادس الجزء العاشر سنة ١٩٠٣م ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦ في باب الفتاوي تحت عنوان النرد والشطرنج ونحوهما، والفتوى للإمام محمد رشيد رضا.

جاء عن الشطرنج:

أما حكمه فقد اختلف فيه الفقهاء والأكثرون على أنه غير محرم، أباحه قوم بشرط أن لا يدخل فيه قمار، وأن لا يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وبديهي أن الإكثار من اللعب به وبغيره يسقط المروءة، ولا يرضاه العاقل لنفسه فهو مكروه كراهة شديدة. وقد رووا في تحريمه **احاديث لا يصح منها شيء بل هي إلى الوضع اقرب منها إلى الضعف**، ومنها حديث ملعون من لعب بالشطرنج رواه الديلمي عن أنس ورواه غيره بزيادة، والناظر إليها كآكل لحم الخنزير. وروى من حديث وائلة وإن الله تعالى ينظر في كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة، لا ينظر فيها إلى صاحب الشاه (وقد وهموا حين فسروا ذلك بالشطرنج، والحقيقة أن هذه العبارة يقصد بها التزلف للسلطان. أما الشاه بمعنى الملك في الشطرنج فهذه مسألة تأخرت في تطورها التاريخي كما هو معلوم). ورواه الخرائطي بلفظ آخر. وروى البيهقي وابن عساكر عن عمار ابن عمار أن علياً ــ عليه السلام ــ مر بقوم يلعبون بالشطرنج فوثب عليهم فقال: اما والله لغير هذا خلقتم ولولا أن تكون سنة (أي عادة) لضربت بها وجوهكم، وروى الثاني عنه أنه قال: لا نسلم على أهل النردشير والشطرنج وروايته ضعيفة، وقد روى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد (كلاهما من شيوخ البخاري) وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن علي ــ كرم الله وجهه ــ أنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم عاكفون لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفئه خير له من أن يمسها. وفي الزواجر أن ابن عمر (رضي الله عنهما) سئل عن الشطرنج فقال: هي شر من الميسر، وقال الإمام مالك: هي كالنرد. وروى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه ولي مالاً ليتيم فوجدها (أي النرد) في تركة والد اليتيم فأحرقها، ولو كان اللعب بها حلالاً لما جاز إحراقها. وقال النووي في فتاويه: الشطرنج حرام عند أكثر العلماء وكذا عندنا إن فوت به صلاة عن وقتها، أو لعب به على عوض، فإن انتفى ذلك كره عند الشافعي وحرم عند غيره. قال ابن حجر في الزواجر: فإن قلت ما الفرق عندنا بين النرد والشطرنج؟ قلت فرق أئمتنا بأن التعويل في النرد على ما يخرجه الكعبان فهو كالأزلام وفي الشطرنج على الفكر والتأمل وإنه ينفع في تدبير الحرب. ويضيف تحت عنوان: قاعدة في حكم الملاهي.

قاعدة في حكم الملاهي

إن العلة في تحريم كل حرام هي المضرة في الدين أو النفس أو العقل أو العرض أو المال،


فما لا ضرر فيه لا يحرم وما ورد به في النرد فسببه الأول أنه شبيه بالأزلام التي كانوا يلقونها في الجاهلية لمعرفة الخير والشر فإن المعول في النرد على البخت الذي يخرجه الكعبان (يأخذ كل لاعب كعبين يسمونهما اليوم زهـراً)، كما أن المعـول في الأزلام على البخت الذي تخـرجـه القداح. وقد حرم الاستقسام بالأزلام لما فيها من التغرير بالعقل وبناء الأمور على الوهم وإهمال الفكر والنظر ونهى النبـي عليه الصلاة والسلام عن النرد لما فيه من معنى الأزلام ومن التذكير بها. وأحب لكل مسلم أن يجتنبه وأن انتفت العلة عنده بأن لا يعتقد بالبخت ولا يبين حكماً إلا على سبب صحيح احتراماً للنهي الصريح.

وأما الشطرنج فقد قالوا أنه لم يكن معروفاً على عهد النبـي صلى الله عليه وسلم وذلك من دلائل وضع ما ورد فيه مرفوعاً وأما الآثار فمنها القوي ومنها الضعيف فمن لا يحتج بها فليحكم قاعدة دفع الضرر في كل لعب. وقد قال بعض أئمة الشافعية أن اللعب الذي فيه حساب وفكر يباح وما لا حساب فيه ولا فكر فهو مكروه أي أن لم يضر وإلا فهو حرام. أقول ومن اللعب ما يفيد رياضة البدن وتحريك الدم فيه وينبغي أن يكون محبوباً لا مذموماً ولا مكروهاً، وأي حرج ــ ليت شعري ــ عـلى من أنهك بـدنه أو عقله التعب من شغله فحاول ترويح نفسه أو ترويض جسمه ببعض الألعاب التي تنفعه ولا تضر غيره ولا تخل بمروءته أقول إن ترك مثل هذه الرياضات يضر أحياناً، فإذا ظن ضـرراً تركها وكان الترك مكروهاً، وإذا تحقق الضرر كان الترك حراماً، وإذا لم يكن في الفعل ولا في الترك ضرر فالفعل مباح، ما لم يخل بالمروءة كانكباب أهل الهيئات ورجال العلم والأحكام على اللعب في بيوت اللهو (القهاوي) فإن ذلك مكروه شرعاً وعقلاً بلا نزاع، والله أعلم وأحكم إليه المرجع والمصير.

وجاء في كتاب فتاوي الإمام محمد رشيد رضا تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ص ١١٦٥: السؤال: موجزه ــ نادي الموظفين فيه غرفة للهو واللعب بالنردشير (الطاولة) والشطرنج والورق (الكوتشينة) وهي مفصولة عن النادي الخ.. هل حرام أو حلال؟ الجواب: من اعتقد أن عملاً من الأعمال حرام وجـب عليه تركه البتة، إلا لعذر شرعي كالضرورة التي تبيح المحرم لذاته كأكل الميتة، والحاجة التي تبيح المحرم لعارض كرؤية الطبيب ما تحرم رؤيته من بدن المرأة أو الرجل، وإذا زال العذر عاد حكم التحريم كما كان ــ وليست مجاملة أهل الكتـاب ولا المسلمين من الأعذار التي تبيح المحـرمات. ومن تـوهـم أن التهاون بأحكام الدين من أسباب الترقي، فقد انقلبت الحقيقة في نظره إلى ضدها بل الإسراع إلى تغيير شعائر الأمة وآدابها وعاداتها التي تعد من مقوماتهـا أو مشخصاتهـا هو الذي يحـل روابطها ويمزق نسيج وحدتها، فلا ينبغي لعاقل أن يتهاون في المحافظة على ما ذكر، بل ينبغي مراعاة التدريج في ترك العادات الضـارة إذا فشت في الأمة وصارت تعد من مميزاتها، فهذا أول ما يجب التفكر فيه والاعتبار به في هذا المقام وهو مما يغفـل عنه النـاس على أن المجـاملة لا تنحصر في اللعب بما هو محرم ولا بما هـو مبـاح أيضاً، ثم أن في مسـألة اللعب بحثين أحدهما. هل الألعاب المذكورة في السؤال محرمة قطعاً وهي من الميسر أم لا؟ وثانيهما ــ هـل الدخول إلى حجرة الخطابة من النادي لسماع شيء من العلم النافع يعد محرماً لوجود حجرة فيها تلك الألعاب عند من يرى تحريمها؟

أما اللعب بالنرد فالجمهور على تحريمه، إلا أن أبا أسحق المروزي قال: يكره ولا يحرم، وهو محجوج بحديث أبـي موسى مرفوعاً في صحيح مسلم وسنن أبـي داود وابن ماجه. (من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله) وعللوا ذلك بأنه كالأزلام يعول فيه على ترك الأسباب والاعتماد على الحظ والبخت، فهو يضر بذلك ويغري بالكسل والاتكال على ما يجيء به القدر، أي فيه معنى الميسر المبني على الكسب بالحظ والنصيب دون العمل والجد، وما أشد إفساد هذا في الأمم؟ وما أبعده عن الإسلام الذي يهدي إلى الجد والسعي والعمل، ولا يمكن التقصي من تحريم لعب النرد إلا إذا ثبت أن سبب النهي عنه، أنهم كانوا يلعبون به على مال وأنه حرم لذلك، وليس عندنا نص في ذلك، وهو لا يكون من الميسر حقيقة إلا إذا كان اللعب على مال.

وأما الشطرنج، فالأكثرون على أنه غير محرم



ملك من عاج ـــ من أصل
جموعة شطرنجية قديمة
ن دلهي

ومنهم الشافعية. قال الشافعي: إنه لهو يشبه الباطل أكرهه ولا يتبين لي تحريمه. وقال النووي: إن أكثر العلماء على تحريمه وأنه مكروه عند الشافعي، أي تنزيهاً، واشترط لتحريمه أن يكون على عوض أو يفوت على اللاعب الصلاة اشتغالاً به عنها. ولا يوجد حديث يحتج به ناطق بتحريمه، وكل ما لا نص من الشارع على تحريمه فهو مباح لذاته إذا لم يكن ضاراً واستعمل فيما يضر فإن ترتب على فعل مباح حرام، حرم لهذا العارض لا مطلقاً كان يترك اللاعب بالشطرنج ما يجب عليه لله أو لعياله مثلاً. ويدخل في ذلك اللعب بالورق، فإنه لا نص فيه من الشارع! لكن قال بحرمته بعض الشافعية، وهؤلاء قد جعلوا للعب قاعدة، فقالوا أنه يحل منها ما فيه حساب وتفكر يشحذ الذهن كالشطرنج دون ما كان كالنرد أو كان من العبث. والحق أنه لا يحرم إلا ما كان ضاراً كما تقدم آنفاً. ولا شك في كراهة الانهماك في اللعب والاسراف فيه. وأما حضور الخطب والمحاضرات العلمية والأدبية في النادي فلا وجه لتحريمها بحجة أن في النادي حجرة يلعب فيها محرم لأن الحرمة إنما هي على اللاعب وعلى من يراه ولا ينكر عليه، وكذا يباح دخول اي مكان من النادي ليس فيه منكر، وقد يستحب إذا كان فيه فائدة كموادة الأصداقاء ومجاملتهم.

وجاء في كتاب أنموذج القتال في نقل العوال لابن حجلة التلمساني ص ٣٩:

قال صاحب البيان لابن عذارى المراكشي وتمامة، الشطرنج موضوع على تعلم تدبير الحرب، وربما يتعلم الانسان بذلك وكل سبب يتعلم به أمر الحرب والقتال كان مباحاً، بدليل ما روى عن عائشة رضي الله عنها وهي بنت أبي بكر الصديق، أنها قالت: مررت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم من الحبشة يلعبون بالحراب، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم ووقفت خلفه.

وقال شارح مشارق الأنوار: وقد رخص بعضهم فيه لأنه قد يعتبر به في أمر الحرب وكيدة العدو، ولكن بثلاثة شرائط، أن لا يقامر به، ولا يؤخر الصلاة عن وقتها، وأن يحفظ لسانه عن الخنا والفحش، فإن فعل شيئاً منها فهو، ساقط المروءة مردود الشهادة.

وسئل المزني رضي الله عنه: (وهو تلميذ الشافعي وله كتاب المختصر الذي يضم خلاصة الفقه الشافعي).

أقول: سئل المزني عن المتلاعبين بالشطرنج فقد قال: إذا سلمت ألسنتهما من الفحش والعدوان، وصلاتهما من السهو والنسيان، كانت أدباً بين الأخوان.

يقول الامام الشافعي، وكان لاعباً ماهراً في الشطرنج، فقد كان يلعب استدباراً (أي دون أن يرى الرقعة) إنه لهو يشبه الباطل أكرهه ولا يتبين لي تحريمه.

وروى أحمد البيهقي وهو محدث وفقيه شافعي في سننه من كتاب الشهادات قال: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ (محدث ثقة) قال: سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب يقول: سمعت الربيع بن سليمان (صاحب الشافعي وراوي كتبه وأول من أملى الحديث بجامع ابن طولون توفي سنة ٢٧٠هـ ــ ٨٨٤م) يقول سمعت الشافعي يقول: لعب سعيد بن جبير (تابعي ٤٥ ــ ٩٥هـ) بالشطرنج من وراء ظهره، فكان يقول بأي شيء أدفع؟ قال بكذا، فيقول ادفع بكذا.

وبالاسناد المذكور إلى الشافعي قال: كان محمد بن سيرين (تابعي) وهشام ابن عروة (تابعي) من أئمة الحديث، يلعبان بالشطرنج استدباراً.

وروى الشيخ أبو عبدالله محمد بن شاكر القطان في مصنفه فضائل الشافعي، أن الشافعي لم يكن يرى بأساً بها، وكان يلعب استدابارا.

قال القاضي الماوردي (فقيه شافعي توفي سنة ٤٥٠هـ ــ ١٠٥٨م) رحمه الله في الحاوي. استدل من أباحها وحللها بانتشارها في الصحابة والتابعين إقراراً عليها وعملاً بها. وروى الخصيب مولى بن يسار (٣٤ ــ ١٠٧هـ) مولى ميمونة أم المؤمنين وأحد الفقهاء السبعة في المدينة وهو عالم ثقة كثير الحديث ــ قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر بنا ونحن نلعب الشطرنج فيسلم علينا ولا ينهانا.

وروى الضحاك بن درهم (والأخير محدث ثقة، فقيه تابعي معروف) قال: رأيت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، مر

بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: ارفع ذا وضع ذا.

وروى أبو راشد (تابعي نقل كثيراً من الأحاديث عن أبي هريرة) قال: رأيت أبا هريرة (صحابي محدث) يدعو فلاناً له فيلاعبه الشطرنج.

وروى عن عبدالله بن عباس (ابن عم النبي ومن رواة الحديث) أنه كان يحسن الشطرنج ويلعب بها.

فهؤلاء من الصحابة أقروا عليها ولعبوا بها.

وأما التابعون، فروى يحيى أن سعيد بن المسيب (١٣ ـ ٩٤هـ) سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة في المدينة ـ كان يلعب بها.

وروى عن سعيد بن جبير (تابعي) أنه كان يلعب بها استدباراً، قال: كان يوليها ظهره ويقول للغلام: بماذا أدفع فيقول بكذا فيقول أنت بكذا.

وروى الزهري (توفي ٧٤١ م) أن علي بن الحسين (أي الامام زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب) كان يلاعب ابناً له بالشطرنج.

وروى أبو هريرة قال: رأيت الشعبي (تابعي جليل) يلعب بالشطرنج مع العرفاء وروى أن محمد بن سيرين كان يلعب بالشطرنج.

وهناك الكثير الكثير من الصحابة والتابعين لا يحصى عددهم كانوا يلعبون الشطرنج. ويتابع القاضي الماوردي في الحاوي:

اختلف الفقهاء فيه على ثلاثة مذاهب، أحدها وهو مذهب مالك، أنها حرام والثاني وهو مذهب أبي حنيفة، أنها مكروهة كراهة تغليظ يوجب المنع وأن لم تبلغ مبلغ التحريم، والثالث وهو مذهب الشافعي أنها ليست بمحرمة كما قال مالك ولا مغلظة الكراهة كما قال أبو حنيفة ثم قال وإن كرهنا ذلك. انتهى كلام الحاوي.

الموجز

بعد هذا السرد لكل ما وقع بين يدي من أقوال الفقهاء قديمهم وحديثهم بخصوص الشطرنج وبعد الاسترشاد بكتب الفقه وآراء رجال الدين الذين استشرتهم اسمحوا لي أن أوجز كل ذلك فيما يلي:

كان المفهوم عند الجميع أن الشطرنج لم يكن معروفاً أيام الرسول عليه السلام، وقد رأينا خلال بحثنا هذا أسماء كثير من الصحابة ممن كانوا يلعبون الشطرنج بل ومنهم من كان يتقنه مثل سعيد بن جبير (سلعب استدباراً) الحسين بن علي بن أبي طالب أبا هريرة، عبدالله بن العباس، عبدالله الزبير وغيرهم. وهذا يدل على أن الشطرنج كان موجوداً أيام الرسول عليه الصلاة والسلام. أضف إلى ذلك أني عثرت في بعض الكتب القديمة على قصيدة لامرىء القيس مطلعها: لمن طلل يقول فيها بعد وصف حبيبته:

ولاعبتها الشطرنج خيلي ترادفت
ورخي عليها دار بالشاه بالعجل

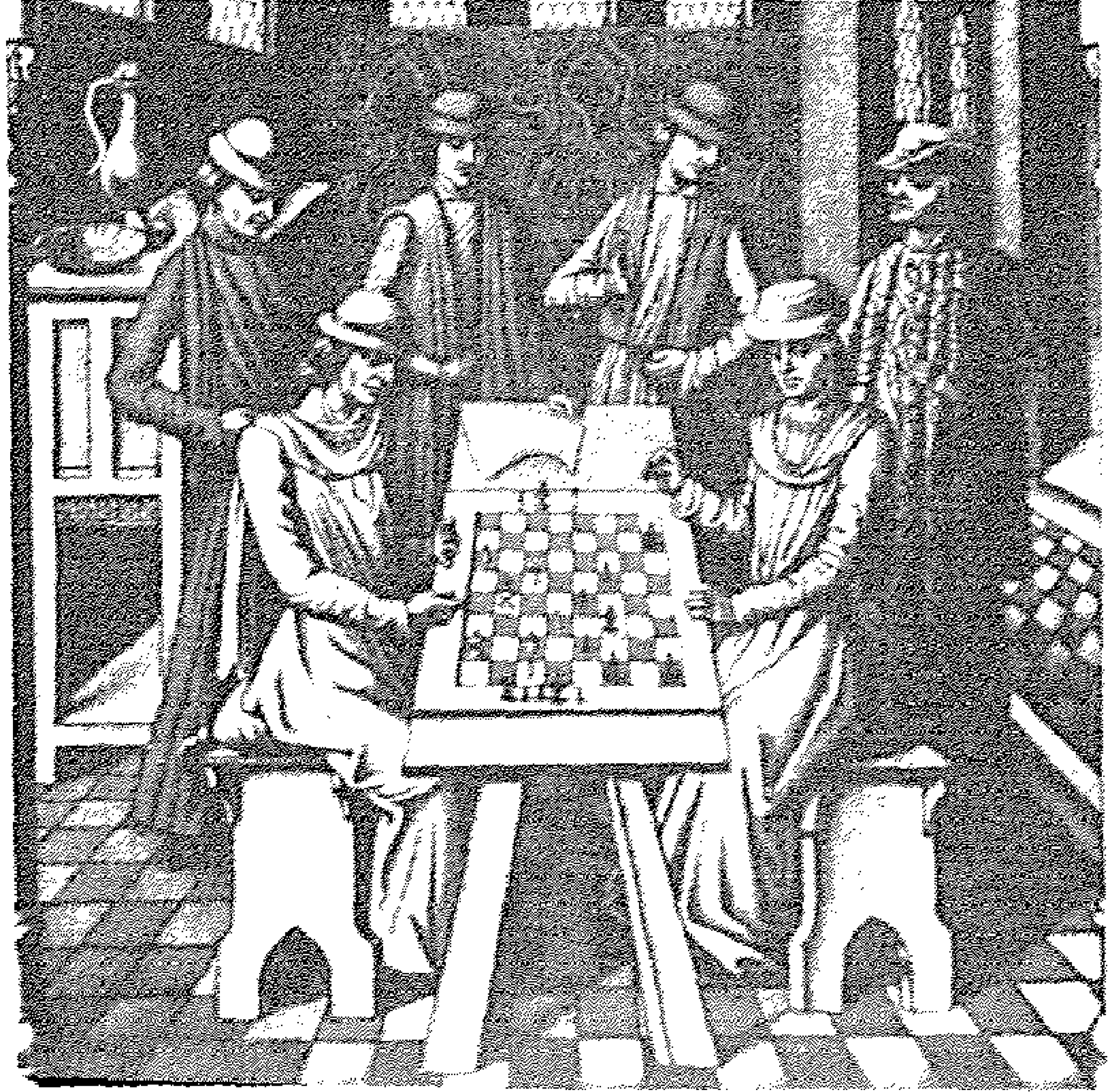
وهناك أبيات أخرى لا مجال لذكرها الآن، فإذا صحت هذه الرواية فهذا يعني أن الشطرنج كان معروفاً بالجزيرة العربية، وقد يكون على نطاق ضيق وليس بمستبعد أن يكون امرؤ القيس من لاعبي الشطرنج وهو الذي كان كثير الأسفار. المهم نستخلص من كل ذلك ما يلي:

١ ـ ليس هناك حديث واحد صحيح ذكر فيه الشطرنج صراحة.

٢ ـ لذلك غلب على ظن المؤرخين والمحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعرف الشطرنج لا بصورته النردية ولا خطوة خطوة.

٣ ـ من المرجح أن الأحاديث التي ذكر فيها النرد كانت خاصة به وحده، شاملة لتلك اللعبة المعروفة.

٤ ـ كل لفظ ذكر بجانب النرد قبله أو بعده فهو مقحم إقحاماً، لا سيما الحديث المشتمل على سجع، من لعب النردشير فهو كمن غمس يده في لحم الخنزير ودمه، فقد كانت رواية الحديث هذه متوقفة عند قوله خنزير حتى يتوافق السجع بين النردشير والخنزير ومن هنا وهم الذين ظنوا أن الشطرنج صورة من صور النرد الذي سمي في هذا الحديث بالنردشير آخذاً من كلمتين كلتاهما فارسية، ويزيدنا اقتناعاً بذلك أن العبارة المدرجة على هذا الحديث المسجوع يبدو معنى إضافتها بوضوح عندما قال ودمه. وعلى كل حال فإن أحداً من المحدثين لم يصحح هذا الحديث ولم يؤكد نظافة إسناده.



□ الملك لويس الحادي عشر على اليمين يلعب الشطرنج مع احد افراد حاشيته

٥ ــ إن مراجعتنا لأطوار لعبة الشطرنج في الأماكن التي عرفت بها تاريخياً، تميط اللثام عن حقيقة الاختلاط الذي وقع بين النرد من ناحية والشطرنج من ناحية أخرى إلى حد الايقاع في اللبس عند الذين أتيح لهم أن يطلعوا على الروايات بهذا الشأن، صحيحة أو موضوعة حتى ظن بعضهم أن كلًا منهما يؤدي مؤدي الآخر. ولم يكن هذا مستغرباً من محدثينا ولا من فقهائنا، لأن الروح التي هيمنت عليهم جميعاً كانت تملي على الواحد منهم أن يتجافى ما استطاع عن اللهو والذي يقوم على شبهة من شبهات الميسر والقمار.

٦ ــ من المعلوم أن روح الشريعة تشجيع المؤمنين على اغتنام الوقت فيما يفيد والامتناع عن قتله في الألعاب التي لا تنفع المؤمن في معاشه ولا لمعاده. فكان طبيعياً أن يتحرج فقهاؤنا من لعبة الشطرنج على ما ورد التصريح فيه (فيما صح من الروايات) محرمة اللعب بالنرد، سواء أكان في هذا النرد عوض أو مقابل أو رهان، أم كان من قبيل التسلية لأن الأصل في هذا الشأن أن يقصد المؤمن نية خالصة حتى عندما يرفه عن نفسه، فلما أضيفت إلى النرد وإلى ما يشبهه في رأيهم من لعبة الشطرنج احتمالات العوض أو المراهنة، ادخلوا ذلك ورعاً في باب الميسر والقمار، مع أن شيئاً من معناهما لا يظهر في هذه اللعبة الذكية التي تطورت كثيراً ولم تكن في البداية قائمة على أساس الحظ وإنما ابتدأت آنفاً بشكل تمرين للذهن ودربة للعقل والنفس والأعصاب.

٧ ــ لو فرض أن في إحدى صور الشطرنج العالمية التي وصل العلم بها إلى الصحابة أو التابعين أو رجال الفقه لدى حركة التشريع الأولى ــ لو فرض أن في إحدى صوره التاريخية احتمالًا لمراهنة أو عوض أو محاولة للكسب بطريق الانتظار المحرم شرعاً، فإن ما يحرم حينئذ ليس الشطرنج لذاته ولكن تلك المعاني والصور التي أدرجت عليه، وأقحمت فيه. فنقول أنه مباح لذاته حسب الأصل وإنما المحرم ما اقترن به ولم يكن من أصل هذه اللعبة الذكية.

٨ ــ إن المؤرخين للألعاب الذهنية ونظائرها (حتى القائمة على الحظ) عندما استعرضوا تاريخ الشطرنج، أجمعوا على أن هذه اللعبة انفردت منذ البداية بأنها أكبر الألعاب نصيباً وأشدها تفلتاً من ترددية الحظ، التي لا يعلم مآلها سلباً أو إيجاباً عند النتيجة.

٩ ــ إن التسرع بتحريم المباح، كالتسرع في إباحة الحرام، كلاهما خطيئة لا يسمح الشرع بالتجرؤ عليها، لأن الذي يحرم هو الله عز وجل، أما الاباحة فشأن أكده الأنبياء وبصورة خاصة خاتمهم محمد صلوات الله عليه، على أنه منحة من الله للبشر عندما لا يجدون. نصاً دالًا على الحرمة دلالة قطعية، ومثل هذه الدلالة لا تتوافر إلا من صريح الكتاب أو صحيح السنة أو إجماع السلف الصالح، ولا نملك شيئاً ذا بال في هذا الصدد، بل الذي روى لنا هو العكس تماماً، فإذا حرم الامام أبو حنيفة والامام مالك والامام بن حنبل الشطرنج تحريماً أقرب إلى الكراهة أو كرهوها كراهة أقرب إلى التحريم، فإن الامام الشافعي بالمقابل برغم كراهته إياه، بدا من الكارهين له تنزيهاً فقد لعب به حاضراً ومستدبراً، وهذا يؤكد أن القول بالاجماع في القضية باطل أساساً.

١٠ ــ وهو أهم الجميع.

إن ما ذكر من بعض الصحابة من أنهم لعبوا الشطرنج تارة أو توعدوا وأنذروا من يلعب بها

که از صاعقه عشق عکس پذیر بود و چون جام جهان نما همه چیز در وی نمود بر عکس

ایوان حسن افتاد و عکس دو دم حاصل شد از آنجا برق شوقش درخشان کردند

برگشت و شیفته حضرت شیخ مجد الدین بغدادی گشت و چون معلوم کرد که او به

بشطرنج بتحقیق راغب است از آن روی که اول تانیس و بعد از آن تشویق و آخر همه



نجم الدين كبرى يلعب الشطرنج مع تلميذه مجد الدين بغدادي — مصغر إسلامي من القرن الثالث عشر

در عرصه انس بیاد دراند تا اسبی زند شهمات شد و حضرت شیخ عراقی

در کتاب ده فصل آورده آنجا که فرموده مثنوی

یکی از عاشقان خیال ترا	بود نجم اکابر کبری
آن معین شریعت احمد	آن قرین دل و گزین احد

بعبارات فيها شدة الترهيب، لا بد أن ينظر إليه هنا وهناك نظرة تحليلية نقدية لا تتوقف عند الألفاظ والعبارات المروية، فمن جهة يمكن الظن بأن الروايات السالبة والروايات الموجبة تتعلق بموضوع غير موجود أساساً بمعنى أنها تتعلق بالنرد وليس بالشطرنج، وإنما خلط الرواة بينهما، لأنهم لم يكونوا على معرفة جيدة بالفارق بينهما. ومن جهة ثانية، قد يفترض الباحث أن بعض الصحابة والتابعين الذين ذكروا أشياء حول الشطرنج (أما سلباً أو إيجاباً) إنما رووا أحاديث موقوفة كان اللفظ لهم «للصحابة» أو أحاديث مقطوعة، أي كان اللفظ للتابعين، ولم يكن من بينها مرفوع أي من لفظ رسول الله نفسه، فقد يحتمل أن هؤلاء رأوا الشطرنج أو شاهدوا بعض الأقوام يلعبون به خلال أسفارهم ورحلاتهم وفتوحهم للبلدان، فأدلوا برأيهم اجتهاداً منهم كما وقع للكثير من السلف الصالح في الأمور التي بدأ الحديث عنها يتفاوت كثرة وقلة بعدة وفاة الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وسلم، وإذا لاحظنا أن بعضهم كأبي هريرة لم يكونوا من الحجاز، وإنما جاؤوا من اليمن (فأبو هريرة من بني سدوس، قبيلة يمنية) وأن غيره ربما جاء من بلاد الروم، من بيزنطية، وهناك إشارات إلى هذا وذاك في الروايات التي سبق ذكرها، فهذا كله يعطي الفكرة الحاسمة أن الذين تعرضوا للشطرنج بلفظه الصريح، أما أنهم قصدوا به كما استنتجنا النرد بصورة المتنوعة التي كان بعضها في أطوار التاريخ الأولى يشبه إحدى مراحل الشطرنج كما أسلفنا عن لعبة الشاطورنجا، وطريقة لعبها بالنرد بالسابق ولغاية القرن الثالث عشر عند البعض، وأما أنهم عرفوا الفارق بين الأمرين ولكنهم اجتهاداً منهم قاسوا الشطرنج على النرد.

وهكذا لا نملك أي مستند شرعي أو عقلي يحملنا على الظن (مجرد الظن) بأن تلك اللعبة المجهولة كنها وحقيقة وتاريخاً كانت محرمة. فالقاعدة الأصولية تقول: الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولا شك أن تصورهم لحقيقة الشطرنج يدل دلالة قاطعة على عجز أكثرهم وربما على عجزهم جميعاً عن الحكم عليه بالحرمة أو بالاباحة، وما دام الأمر كذلك، وما دمنا قد اطلعنا على تلك الأطوار التاريخية الخاصة بالشطرنج منفرداً. والمشتركة بينه وبين النرُد ونظائره ولما كان اطلاعنا على هذه الأمور كلها ساعدنا على التمييز بينها، ورأينا بصورة حتمية لا تقبل النقاش والجدل أن الشطرنج في صورته المشهورة عربياً وإسلامياً ولا سيما في أواخر العصر الأموي وأواسط العصر العباسي كانت خالية من المقامرة والمرهنة والعوض، وكذلك في عصرنا الحاضر، حيث إطلاقاً لمثل ذلك، فلا تدخل أبداً في باب القمار ولن يصح قياسها حتى على العاب الحظوظ.

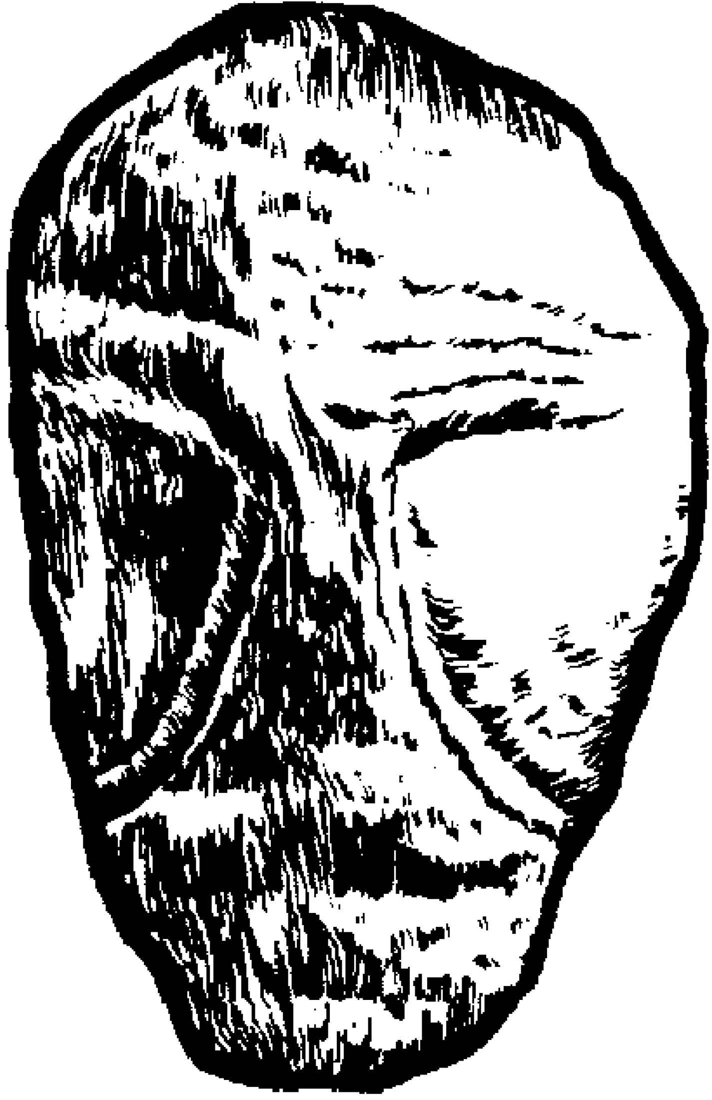
فالشطرنج (كما بدأنا هذا الحديث) هو لعبة لحمتها العقل، تشحذ الذهن، وتعلم الناس على التخطيط والتركيز، والشطرنج كما قال صاحب البيان، موضوع على تعلم تدبير الحرب، وربما يتعلم الانسان بذلك، وكل سبب يتعلم به أمر الحرب والقتال كان مباحاً. بدليل أنه ما من مدرسة حربية اليوم إلا ويتعلم بها طلابها الشطرنج، وما من قائد كبير ذكره التاريخ إلا وكان لاعباً للشطرنج.

ونسأل الله في الختام أن يكون ما رأيناه هو عين ما يستلهم من روح الشريعة التي تسمح للانسان حين يرفه عن نفسه بما يشحذ ذهنه، أنه في الوقت نفسه، يعبد ربه ويتقرب إليه، بأن أقدره على تنشيط نفسه في عبادته كما أمر عز وجل، وما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون.

أيها القارىء، لقد أوجزت لك تقريباً ما كتب عن الشطرنج، ورأينا الصريح به، ولك الأمر بعد ذلك أن تلعب به، أو لا تلعب، أن تحرمه على نفسك أو تجيزه كما فعلنا نحن في الاتحاد العربي للشطرنج، وفي كل دولة إسلامية فيها شطرنج، ولكني أحب في النهاية أن أذكرك بالحديث الشريف.

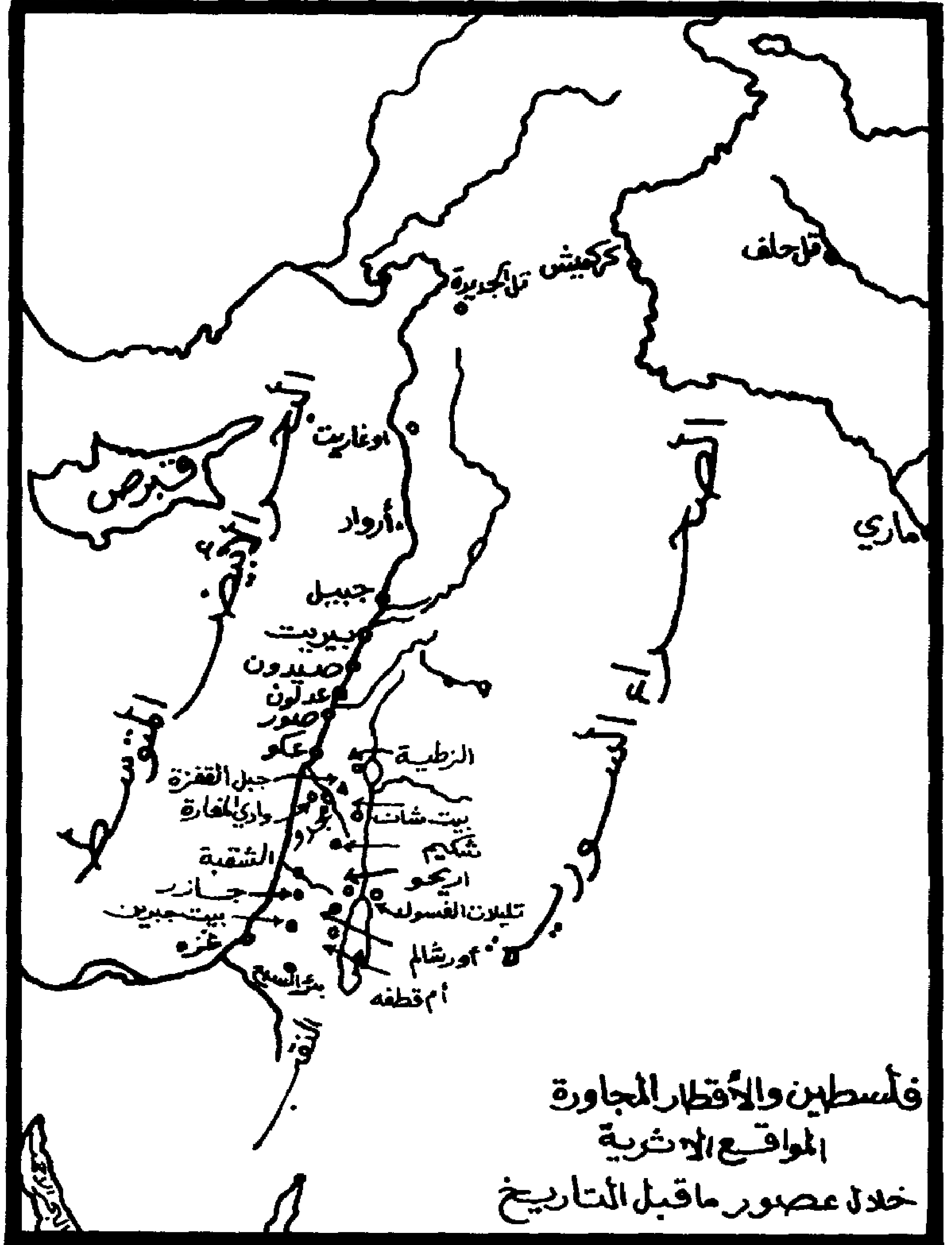
سلوا النفوس، فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد، انتخبوا لها طرايف الحكمة. والشطرنج كما قال ابن ماسويه لهرون الرشيد، عندما سأله ما تقول في الشطرنج؟ قال: يا أمير المؤمنين، وهل معرفة لطيفة أو لذة جسيمة توحد إلا في الشطرنج؟ أما علمت أن من مضى من الحكماء كانوا يسمونها قلادة الحكمة.

تاريخ فلسطين



في العصر القديم

■ عبد الرحمن المزين



□ خريطة فلسطين عليها المواقع الأثرية بالأسماء الكنعانية.



من الأزل سكن أجدادنا العرب الكنعانيون فلسطين.

ومنذ ٢٨٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد عاشوا في كهوف ومغارات الكرمل، والطابون والسخول، وفي أم قطفة، الوادي، الزطية، الأميرة، والقفزة، ووادي الأردن.

منذ ١٥٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد عرفوا استخدام النار.

منذ ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد عرفوا فن الرسم على جدران مغارات بئر السبع، وكهف أم قطفة.

منذ ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، استأنسوا الحيوانات، وهي البقر والماعز والأغنام.

منذ ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا زراعة القمح والشعير، وبنوا قراهم الأولى، ذات القباب، في عين ملاحة، وعينات، ومرتفعات وادي النطوف.

منذ ٧٨٠٠ سنة قبل الميلاد، بنوا أقدم مدينة في العالم القديم، وهي مدينة أريحا، وأحاطوها بسور ضخم.

منذ ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا نظام المباني التي تلتف حول باحة تتوسطها، والأبواب ذات الأقواس، والتحصين المعماري المكون من أبراج وأسوار وخنادق، كما بنوا أول معبد كنعاني متكامل للمعبودة «عناة»، وعرفوا أيضاً فن النسيج.

منذ ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا الفخار المحروق، والزخرفة عليه.

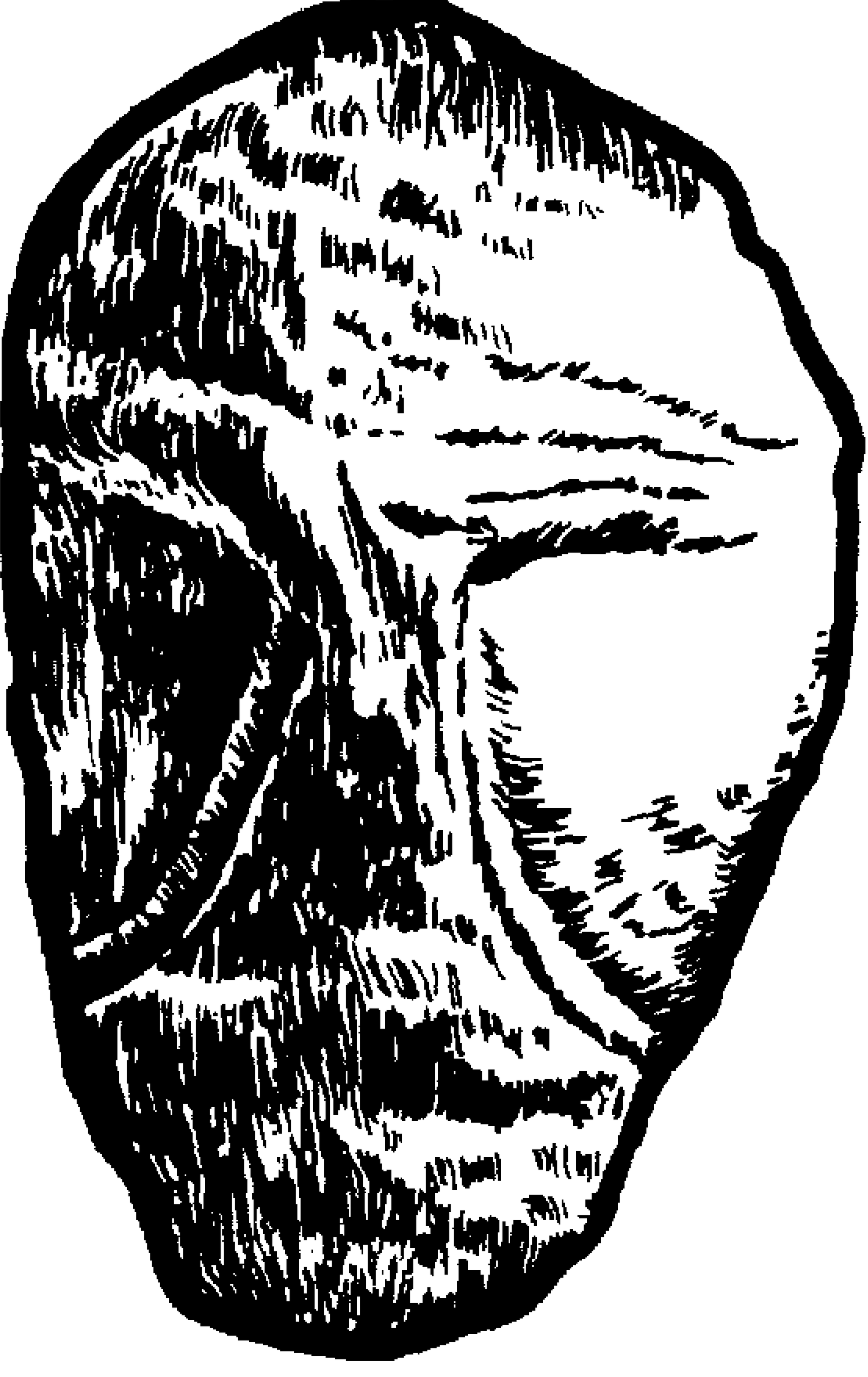
منذ ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا صناعة النحاس، والزراعة بالري، وفن الرسم بالفريسكو، وفن التطريز.

منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، قدسوا الحمام رمز السلام، وصنعوا الشمعدانات المعدنية.

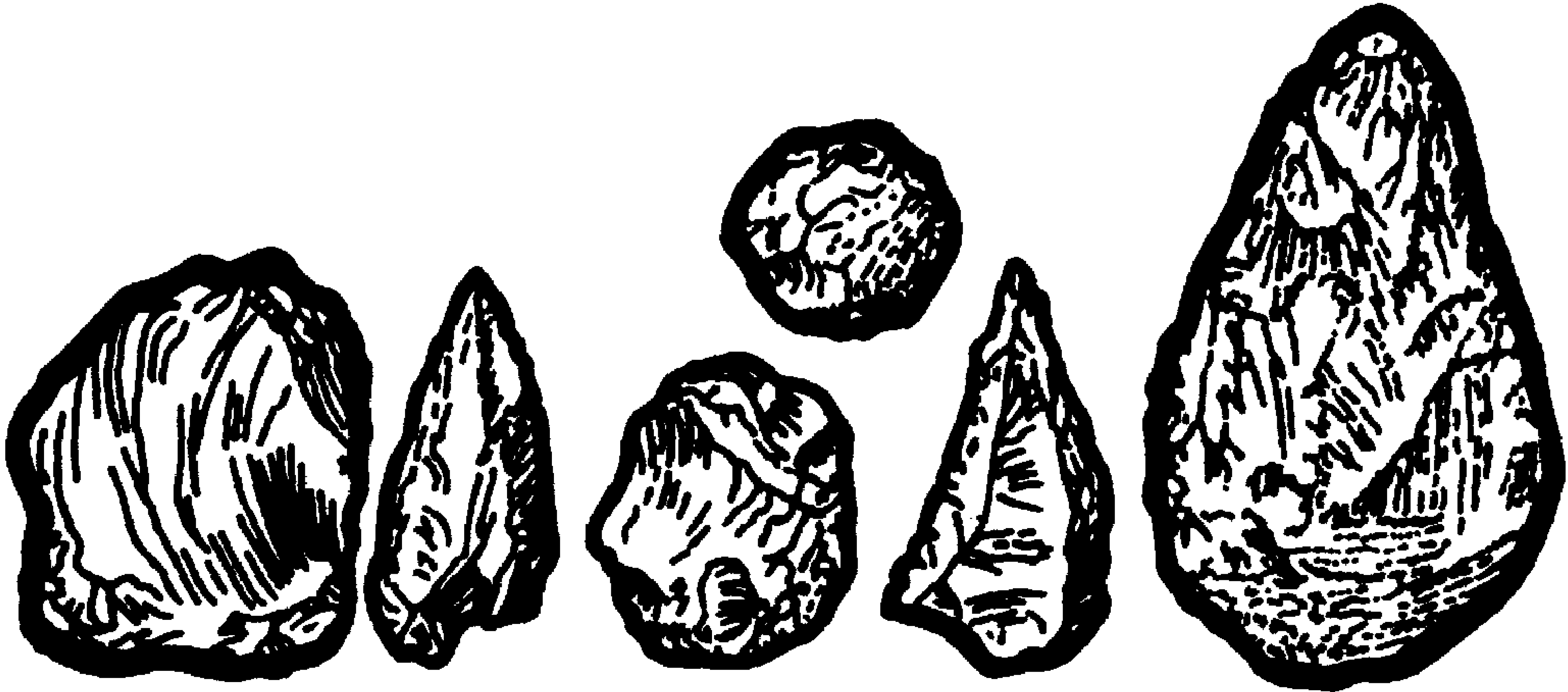
منذ ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد، ذكرت مدنهم الكنعانية، ومنها شكيم، أورشالم، اريحو، في نصوص ايبلة.

منذ ٣١٠٠ سنة قبل الميلاد، توصلوا إلى تصنيع البرونز، وأسلحة القتال، واستغلوا أرز الغور في بناء معابدهم ومساكنهم، واكتشفوا الصباغة بالأرجوان، واكتسبوا تسميتهم منها.

□ نحت يمثل احد رؤوس اهل فلسطين الذين عاشوا في العصر الحجري المتوسط وقد عثر على هذا النحت الحجري مع رؤوس تماثيل اخرى صغيرة داخل منازل قرى عين ملاحة، شمالي غربي بحيرة الحولة، وقد شكلت من الحجر. وتعتبر اقدم امثلة النحت في الشرق الادنى القديم.



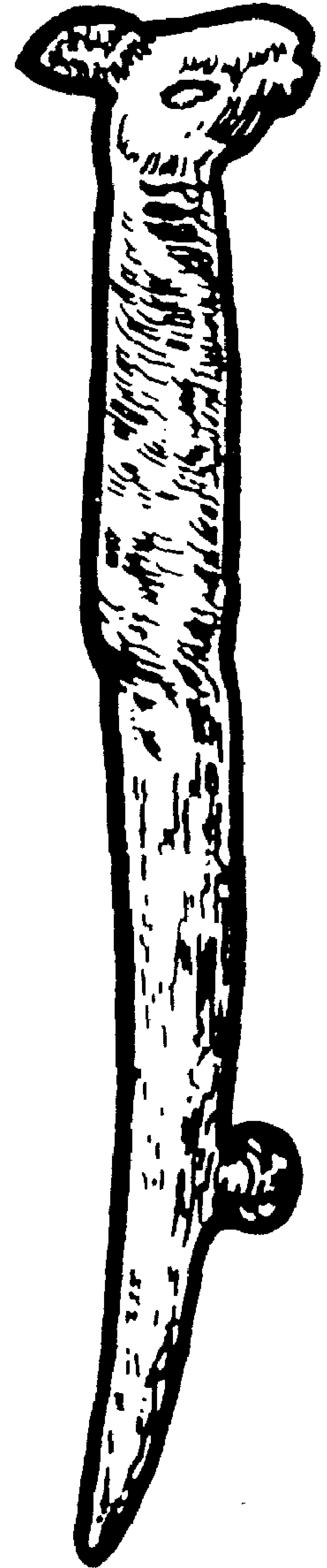
□ أدوات وأسلحة مختلفة: فؤوس يدوية، ومكاشط وسواطير، وبلطات يدوية، وقد عثر عليها المنقبون في كل مغارات وكهوف جبل الكرمل، والزطية وأم قطفة، وتاريخها يعود إلى الفترة ما بين ٢٨٠٠٠٠ ــ ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد.





□ صورة تخطيطية «لأريحا»، أقدم مدينة في العالم القديم، بنيت على مساحة تقدر بحوالي ٤٢٠٠٠ متر مربع، ويسكنها ٣٠٠٠ نسمة، وبيوتها على شكل قباب، ويحيط بالمدينة سور ارتفاعه عشرة أمتار، وأبراج دائرية من الحجر بنيت لحمايتها ويعود تاريخها إلى ٧٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

□ منجل حصاد عثر عليه في مغارة كباران، ويعود إلى مرحلة العصر الحجري المتوسط منذ ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد عثر على اعداد كبيرة من المناجل في قرية عين ملاحة وعينات ومرتفعات المنطوفية، ومدينة أريحا. وقد شكلوا مقابضها من العظم على هيئة رؤوس الحيوانات، ومنها الابل والثيران، وثبتوا على نصالها اسناناً صغيرة الحجم من الصوان.



منذ ٢١٠٠ سنة قبل الميلاد، صنعوا العربات الحربية التي تجرها الجياد.

ومنذ ١٧٣٠ ــ ١٥٨٠ سنة قبل الميلاد، قامت أول وحدة قومية بين الممالك الكنعانية في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، بل كونوا جيشاً ضارباً حكم مصر قرابة قرن ونصف قرن من الزمان.

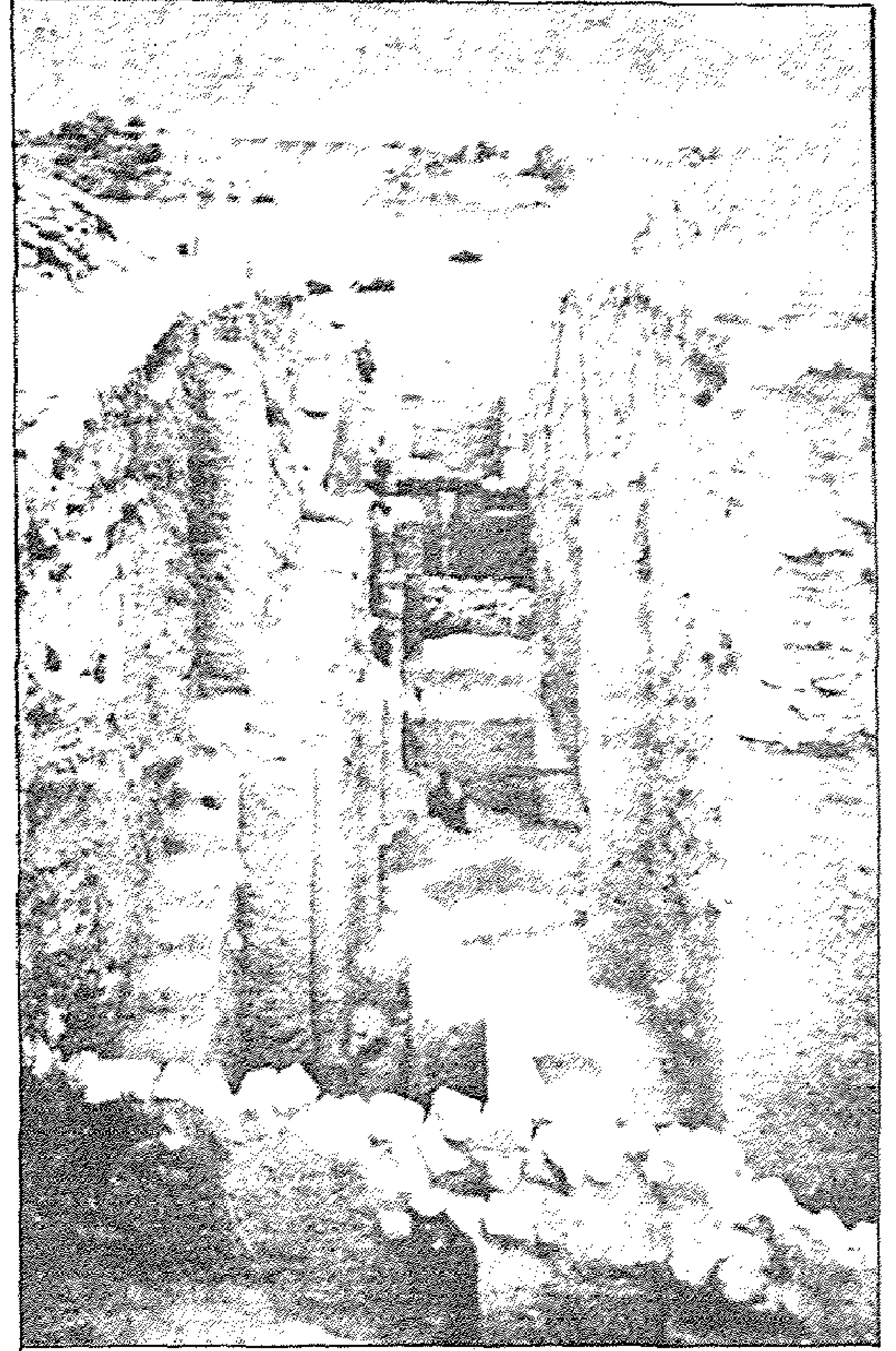
وعرفوا لدى المصريين باسم «حقا وخاسوت»، وفي العصر القبطي أطلقوا عليهم اسم الهكسوس. وقد تفوقوا في الصناعات الحربية: العربات، السيوف المعقوفة، الخناجر، السهام والرماح، الأقواس المزدوجة، الدروع، الأحزمة البرونزية. وكانت مجدو مركز الصناعات الحربية الكنعانية في مرج ابن عامر، وتعرف حالياً باسم «تل المتسلم».

كما تميزوا بالصناعات العاجية، والملابس المطرزة، والأرجوانية، ومنذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد ازدادت الصلات التجارية بين جزر البحر الأبيض المتوسط وبين الكنعانيين العرب، الذين أطلق عليهم اسم الفينيقيين. وقد استقرت جاليات كنعانية في جزر هذا البحر، وبخاصة في

مالطة، وكريت، وقبرص، منذ عصر البرونز المبكر، وكثر عددهم خلال عصر البرونز المتوسط والمتأخر.

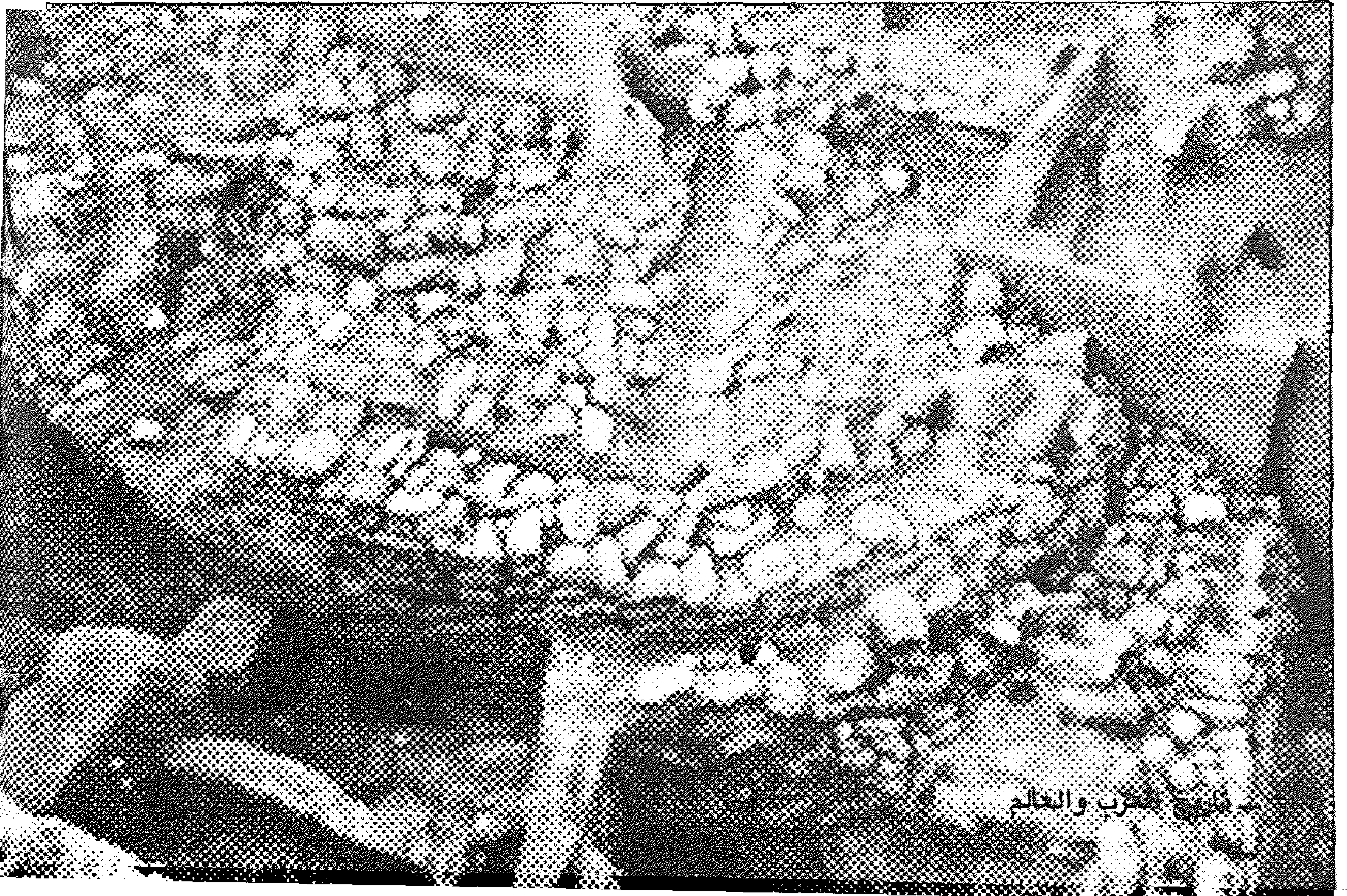
منذ سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد، قامت عدة معارك بين الجيش المصري والممالك الكنعانية «الهكسوس»، حيث رفضوا سيطرة مصر عليهم. وقد تكررت المعارك بعد ذلك، وبخاصة ما بين ١٤٠٠ ــ ١٢٠٠ قبل الميلاد، ومنذ ١٣٥٠ سنة قبل الميلاد عرفوا صناعة الأسلحة الحربية من فلز الحديد الطبيعي.

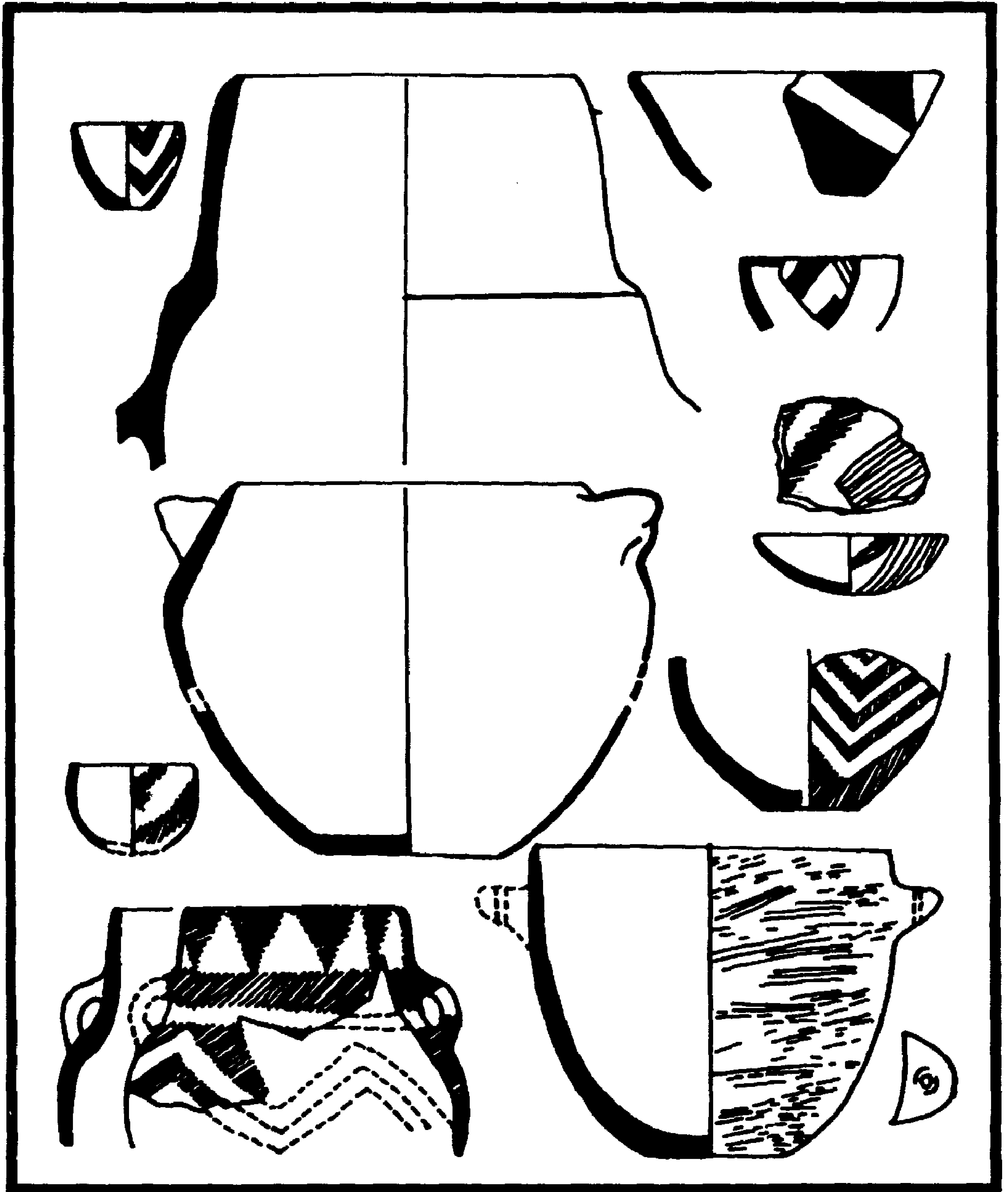
منذ سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد غذّى الساحل الكنعاني قبائلُ من جزر البحر، ومن بينها قبيلة البولستا، وهي من أصل عربي كنعاني، وكانت هذه القبائل راجعة من حيث مضت، بعدما هزمها الجيش المصري براً وبحراً سنة ١١٩٨ قبل الميلاد، باستثناء قبيلة البولستا التي استقرت بين أهلها من الكنعانيين.



□ منظر عام لتحصينات ومباني مدينة أريحا، حيث تظهر المباني التي تلتف حول باحة تتوسطها وتاريخها يعود إلى ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

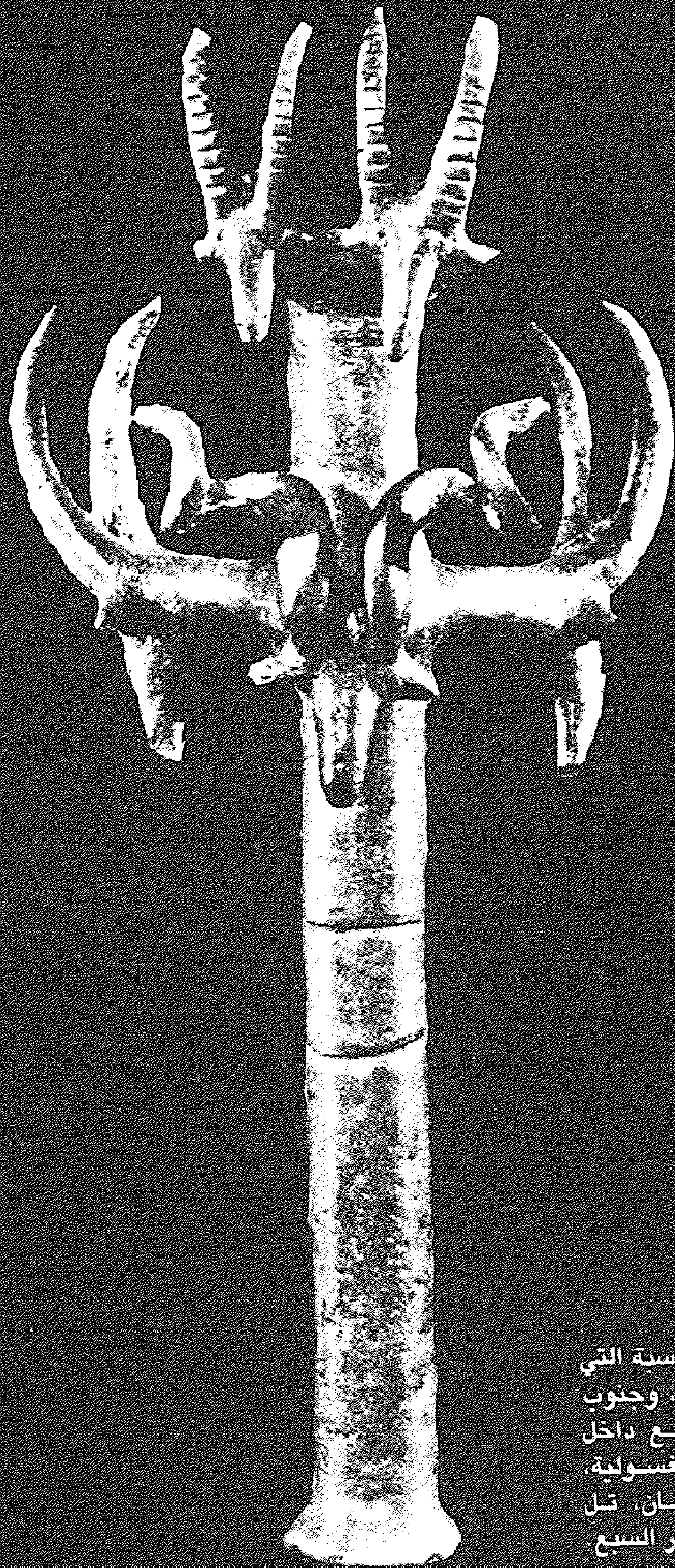
□ أحد ابراج اريحا، يعود تاريخه إلى ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد وهو دائري الشكل، ارتفاعه حوالي عشرة أمتار. بداخله سلم حجري يوصل إلى قمة البرج. ويتكون من ٢٨ درجة لصعود المقاتلين إلى الأعلى، وقد بلغ عرض درجات السلم الحجري حوالي متر ونصف المتر.



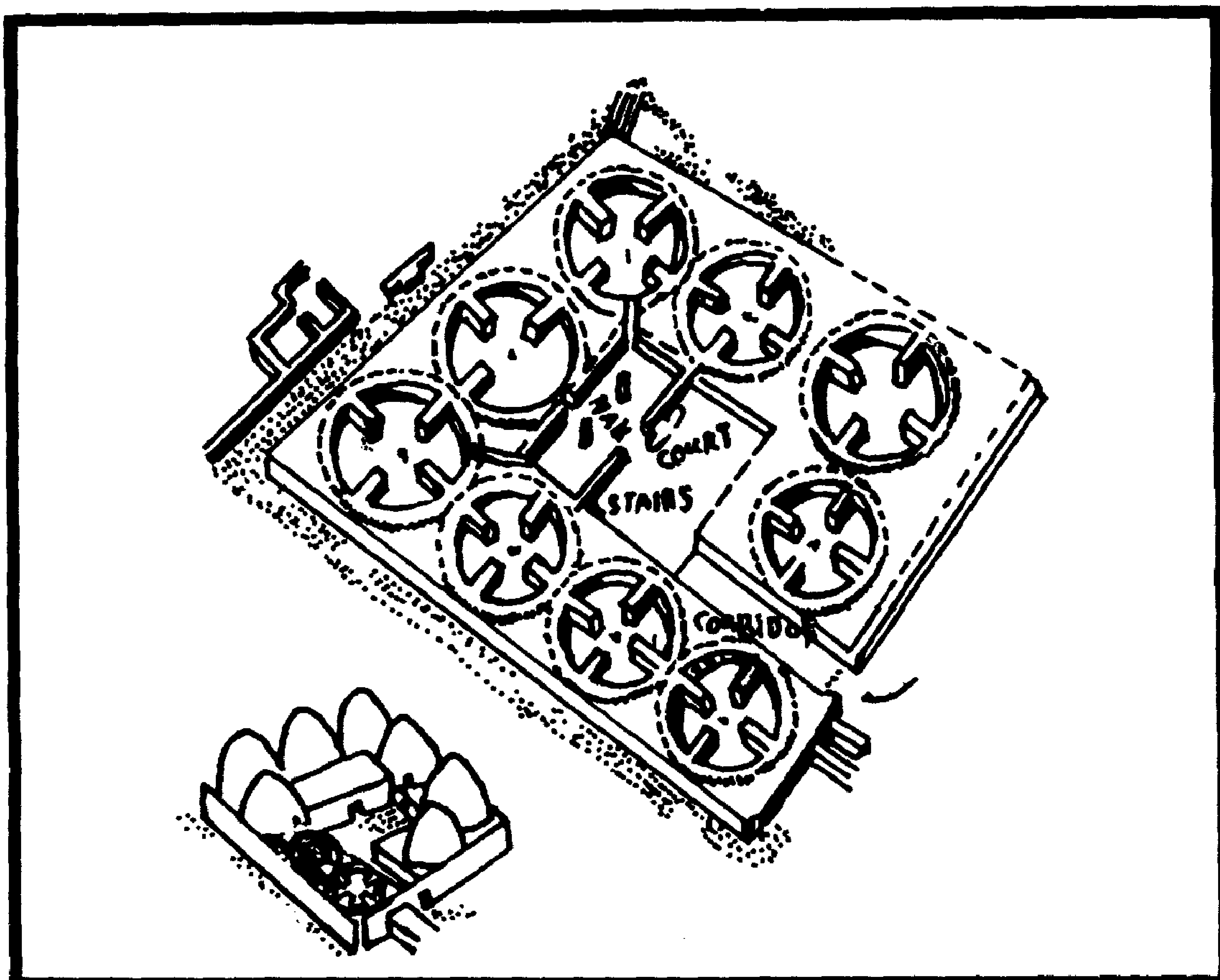


□ آنية فخارية عثر عليها في مدينة اريحا، وتاريخها يعود إلى ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

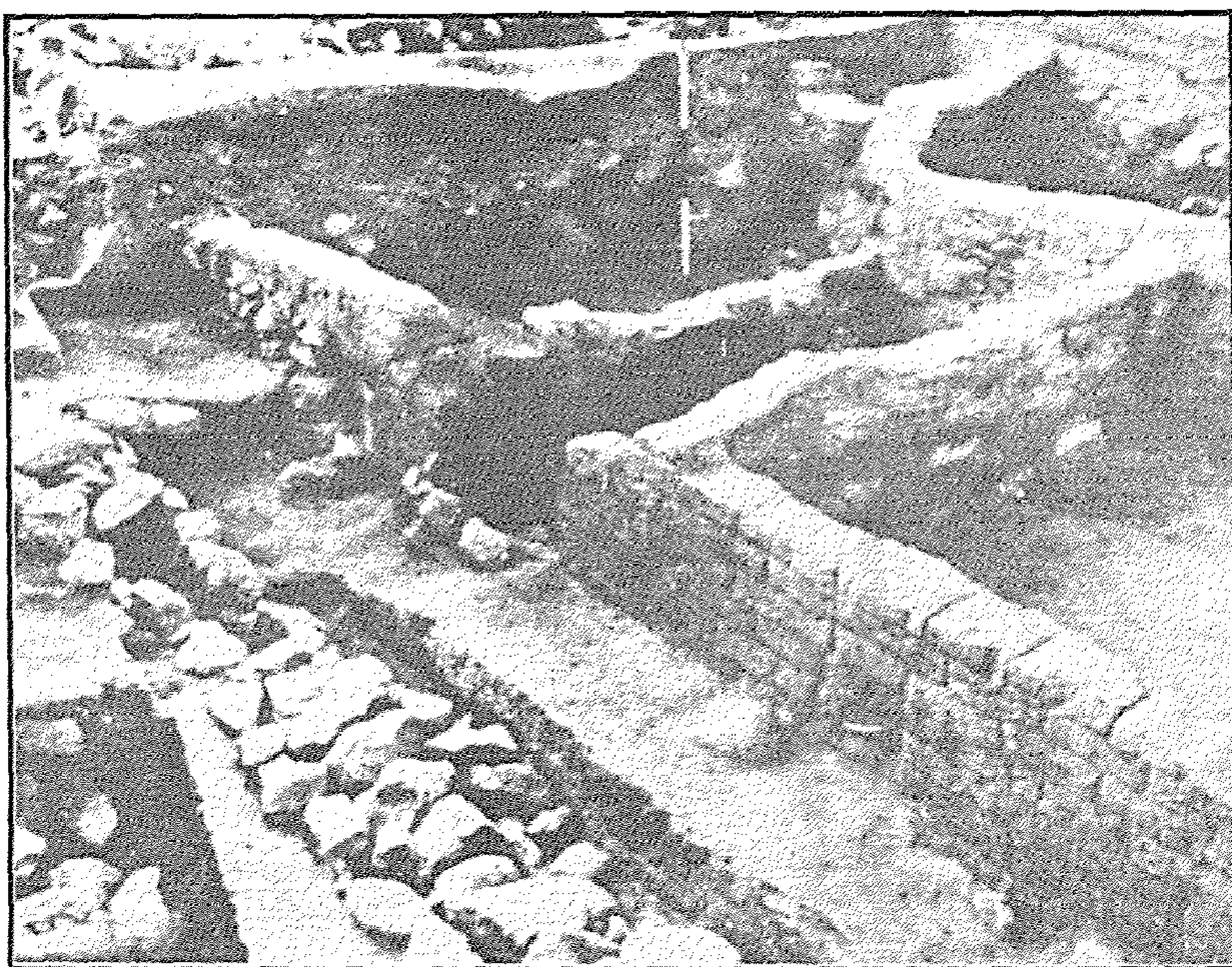
ومنذ سنة ١١٠٠ قبل الميلاد، تقريباً، تعرضت فلسطين لهجمات جماعة خليطة، وقد احتلت مدينة أريحا وشكيم وأورشالم، وذلك منذ سنة ١٠٠٠ إلى ٩٢٣ قبل الميلاد، واستقرت مجموعة من ذلك الخليط في شكيم، وأخرى في أورشالم، حاكمة هاتين المدينتين بسكانها الكنعانيين، وقد زال حكمهم من شكيم على يد سرجون الثاني، سنة ٧٢٢ قبل الميلاد، ومن أورشالم سنة ٥٨٦ قبل الميلاد على يد نبوخذ نصر. وفي هذه الفترة كانت الممالك الكنعانية في سوريا القديمة خاضعة للامبراطوريتين العربيتين: الآشورية ثم البابلية



□ أحد الشمعدانات النحاسية التي عثر عليها في وادي عربة، وجنوب بئر السبع، وكانت توضع داخل المعابد الكنعانية في الغسولية، اريحا، مجدو، بيت شان، تل الفارعة، تل جازر، غزة، بئر السبع.



□ رسم تخطيطي لمبنى عثر عليه في خربة كراك بالقرب من بيت يراح. وتاريخه يعود إلى ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد.



□ منازل من عصر البرونز المتوسط، عثر عليها في أريحا.





□ مقبرة من عصر البرونز المتوسط، يوجد بها الهيكل العظمي لصاحب المقبرة، وهو مسجى على لوح خشبي، وإلى جواره طاولة خشبية، وقطع لحم على طبق، وحول الجدار توجد جرار فخارية محتوية على سائل، وكذلك أوعية أكل وشرب، وسلة لأدوات الزينة، ونسيج.

□ حزام برونزي، وخنجر مقبضه من المرمر، وبلطة، عثر عليها في أحد المقابر الفردية بأريحا. ويعود تاريخها إلى مرحلة مبكرة من العصر البرونزي المتوسط.







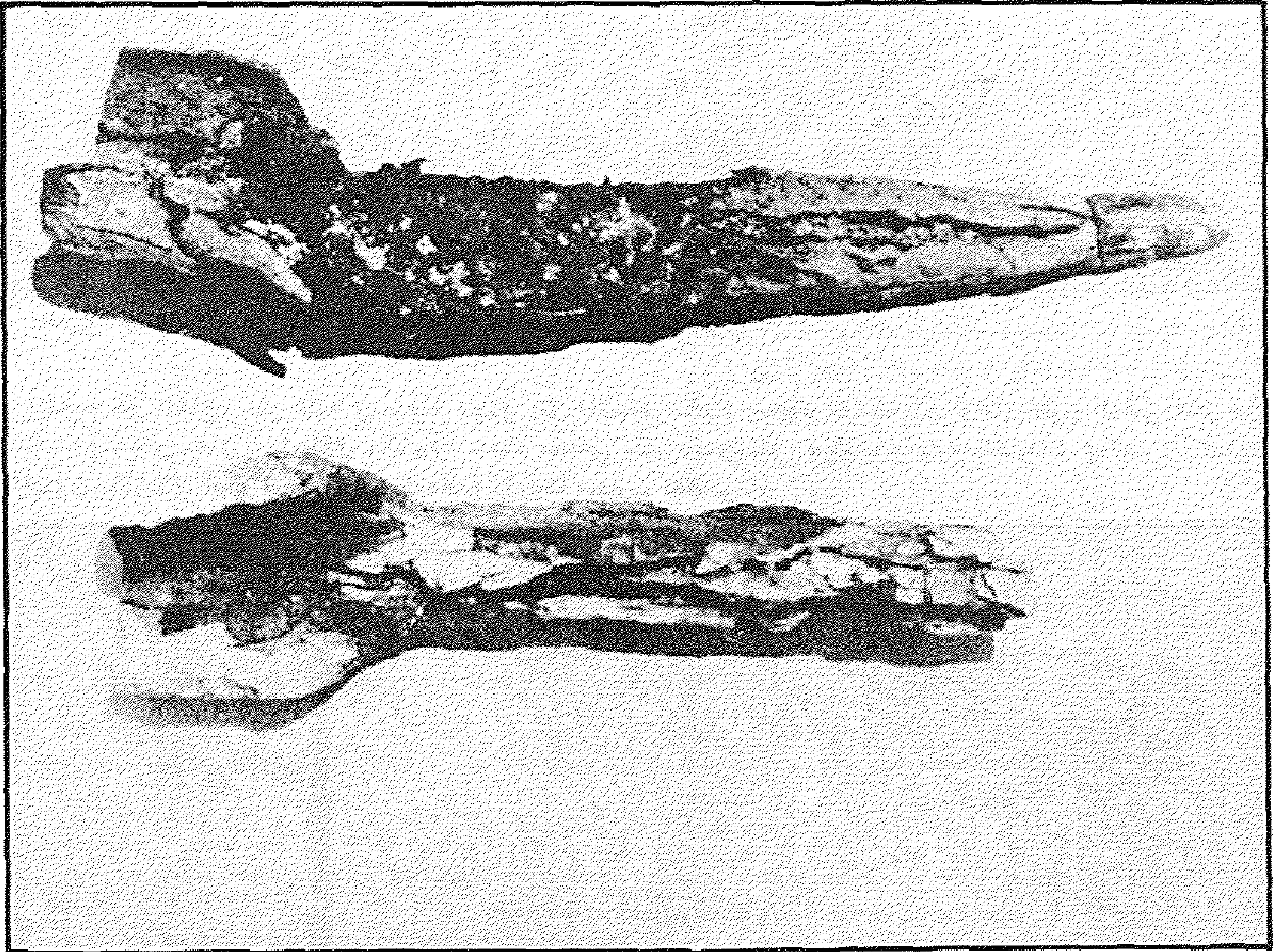
□ المدرج الروماني في بيسان (تل الحسن).

□ تطعيم على العاج، عثر عليه في مدينة مجدو (تل المتسلم حالياً) ويعود تاريخه إلى أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. والنقش يمثل «الاحتفال بالنصر» حيث يجلس ملك مجدو على عرشه، وأمامه العازفات والأسرى اليهود المكبلون بالأغلال. أمام عربة حربية كنعانية يقودها محارب كنعاني.

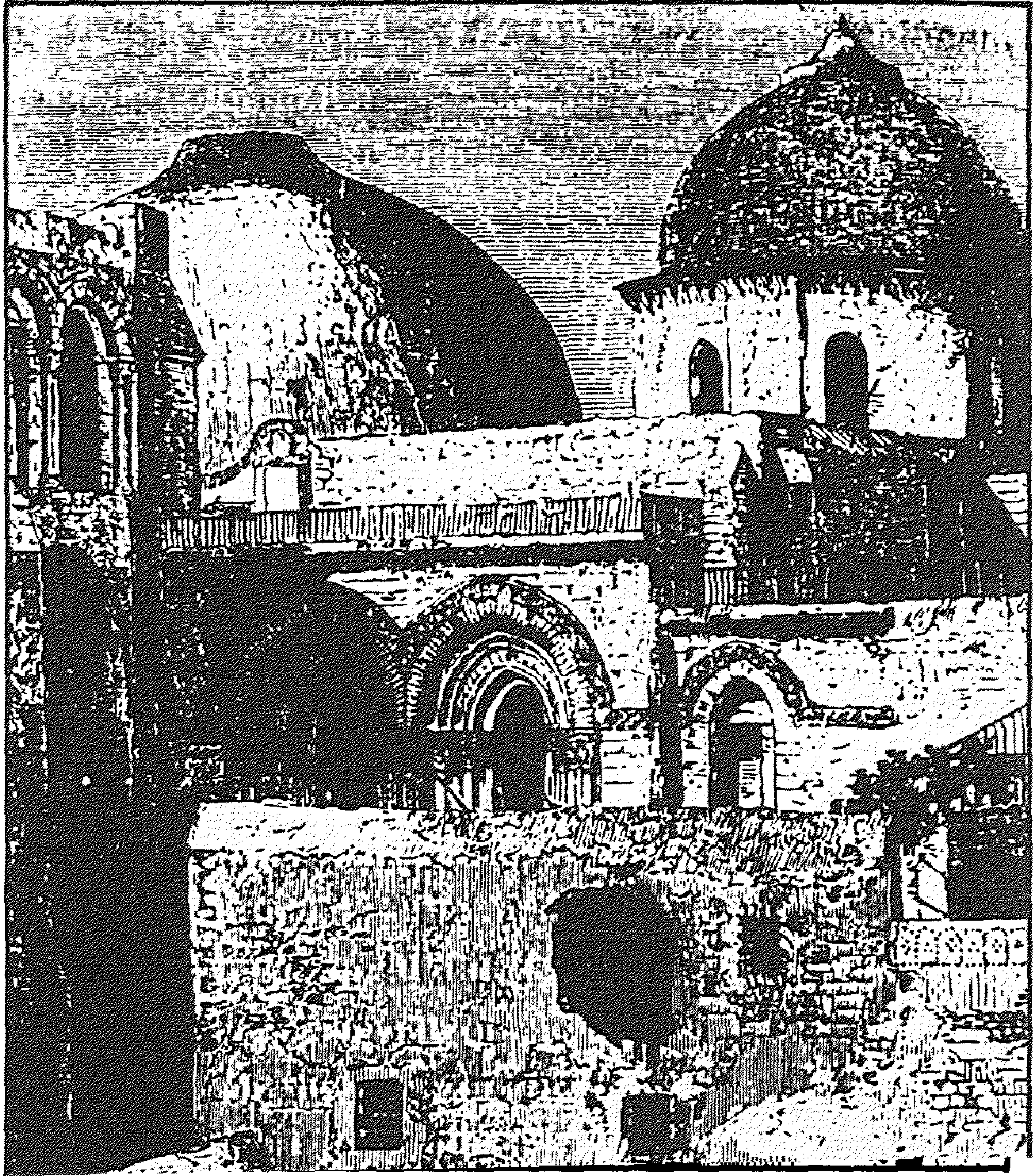




□ درج روماني من سبسطية.



□ محراث من الحديد يعود تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد. عثر عليه في مدينة اورشالم (القدس).



□ القدس القديمة

الكلدانية (٦٠٥ ــ ٥٣٨ قبل الميلاد).

منذ سنة ٥٣٨ إلى ٣٣٢ قبل الميلاد، دخلت فلسطين تحت الاحتلال الفارسي، وبقي فيها أهلها الكنعانيون العرب.

ومنذ سنة ٣٣٢ إلى ٦٣ قبل الميلاد وقعت فلسطين تحت الاحتلال اليوناني، وبقي فيها أهلها الكنعانيون العرب، حيث أطلقوا اسم السوريين، وتشمل هذه التسمية سوريا، لبنان، الأردن، وفلسطين.

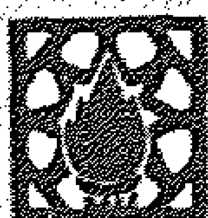
ومنذ سنة ٦٣ قبل الميلاد إلى ٣٢٣ بعد الميلاد وقعت فلسطين تحت الاحتلال الروماني. ومنذ سنة ٣٢٣م إلى ٦٣٨ ميلادية وقعت تحت الاحتلال البيزنطي، إلى أن دخل الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس سنة ٦٣٨ ميلادية، فعادت فلسطين حرة من جديد.

وأخيرا، يجدر بالذكر أن سكان فلسطين مروا بتسميات كثيرة، منذ العصر الحجري القديم وحتى الآن، ومنها «الكنعانيون»، وذلك في نهاية عصور ما قبل التاريخ إلى بداية عصر الحديد. ومن ثم «الكنعانيون الفينيقيون»، في مطلع عصر الحديد حتى بداية العصر اليوناني الروماني، وكانوا يسمون بـ «السوريين» إلى حين دخول الخليفة عمر إلى القدس في العام ٦٣٨م، ثم أطلق عليهم اسم «الشوام» وقد شملت هذه التسمية، إضافة إلى سكان فلسطين، مجموع سكان سوريا القديمة.

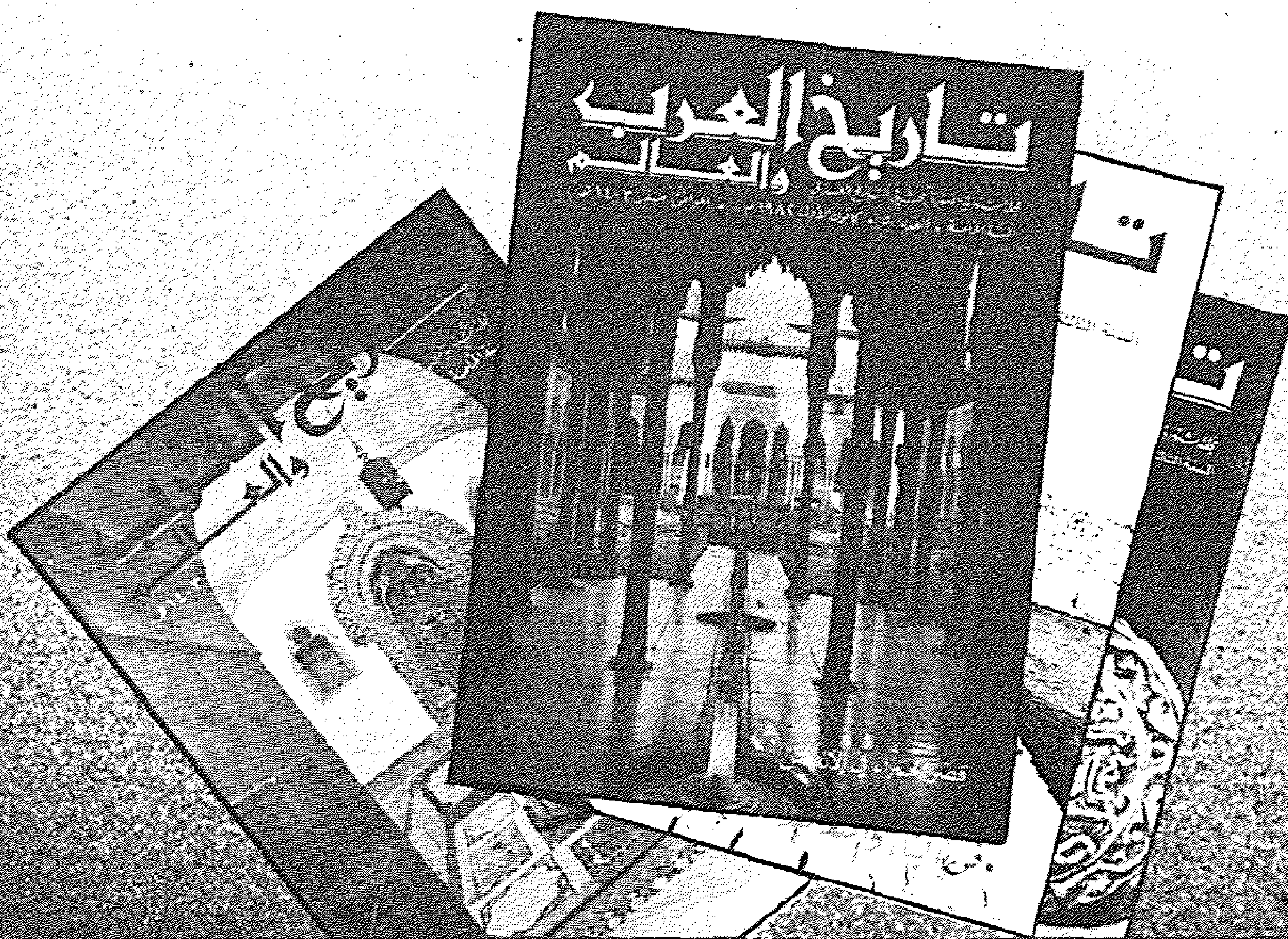
ومن الجدير بالذكر، أيضاً، أن المصريين أطلقوا على سكان سوريا القديمة اسم «البدو»، ومن ثم أطلق عليهم اسم «عريبي»، في عصر الحديد الثاني، وهي كلمة مرادفة لـ «بدوي»، كانت تطلق على كل كنعاني، أو عموري، غير مستقر في المدن. ●

تاريخ العرب والعالم

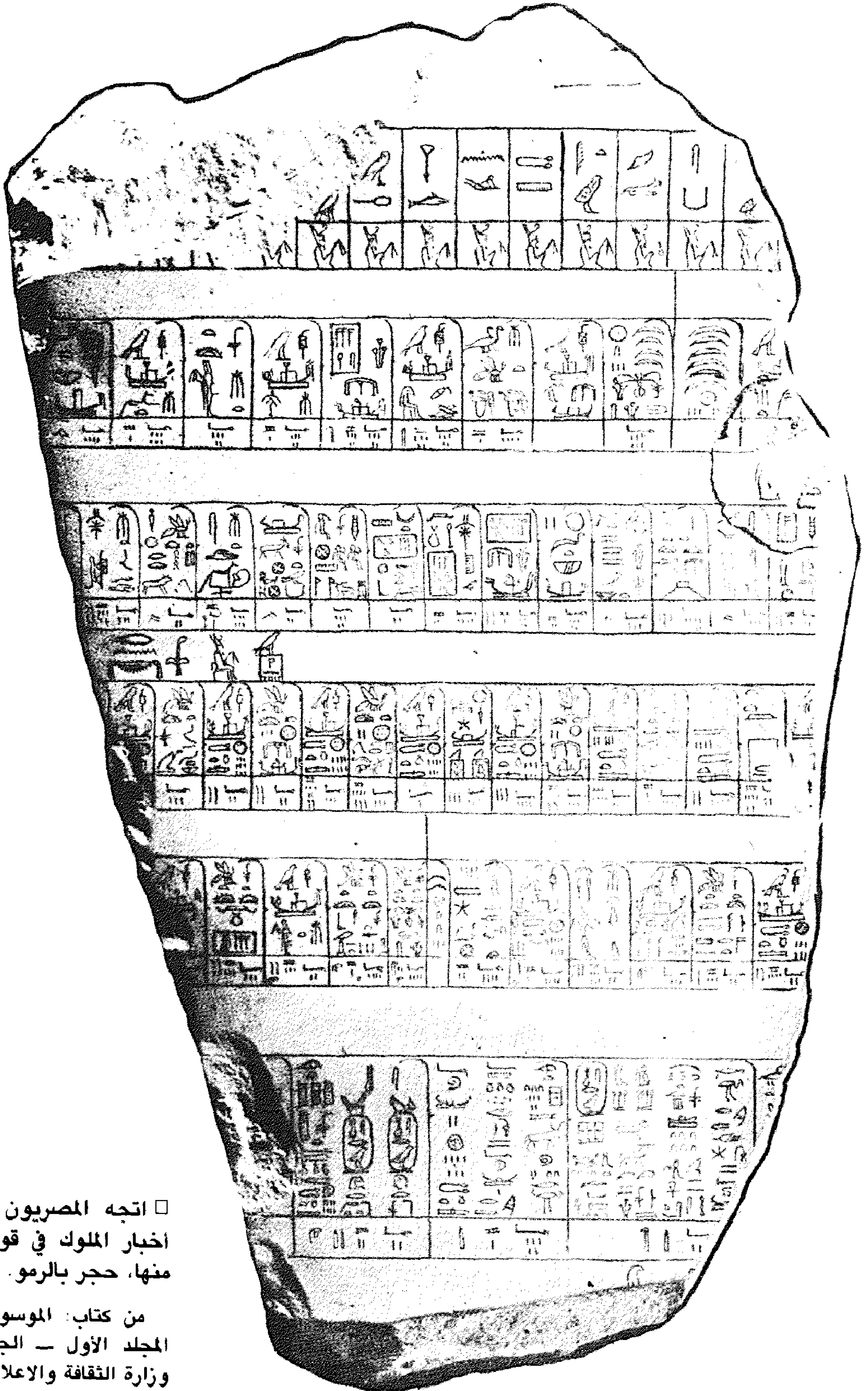
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير


بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣



□ اتجه المصريون إلى تسجيل أخبار الملوك في قوائم مترابطة منها، حجر بالرمو.

من كتاب: الموسوعة المصرية، المجلد الأول ـ الجـزء الأول ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ مصر.


عدد خاص عن سورية
تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
العدد ٧٠ • آب (أغسطس) ١٩٨٤م

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تعنى بالتاريخ والحضارة

العدد ٧٠ ـ آب ١٩٨٤

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ـ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 6 - No. 70 - August 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

□ راعينا في إخراج هذا العدد الخاص عن القطر العربي السوري التسلسل التاريخي.

الافتتاحية

سورية الموقع والتاريخ

فاروق البربير



جاء في مطلع كتاب نشر في لندن منذ تسعين عاماً ما خلاصته «يعتبر تاريخ سورية، إلى حد ما، زبدة لتاريخ العالم، وارضها ينبوع احداثه، فمن مدوناته نتعرف إلى الحضارات الانسانية المبكرة، إذ جعلت الطبيعة من سورية ارض لقاء لجميع الامم، فسورية تتطلع غرباً إلى اوروبة، وشرقاً إلى ضفاف الفرات، التي قامت فيها الحضارة الاتحادية القديمة التي ندين لها بالكثير من معارفنا العادية، وكان سكانها في الجنوب على صلة وثيقة مع حضارة وادي النيل الخالدة، وفي الشمال كانت على اتصال بجميع الشعوب «المخيفة» التي ما تزال معلوماتنا عنها قليلة.

لذلك لا غرابة إن كانت سورية ارض المعترك للقوى المتحكمة بالعالم، فالبابليون، والحثيون، والآشوريون، والفرس، والإغريق والرومان قد استولى كل منهم على بعض سورية او كلها؛ فارض سورية هي التي شهدت الصراع بين كسرى وهرقل، والعرب والبيزنطيين، وبين العرب والتركمان، والتركمان والصليبيين، وكل واحد من هذه الصراعات عبارة عن حلقة من حلقات الصراع السرمدي بين الشرق والغرب.

ولم يقتصر دور سورية على هذا، بل إنها قدمت للعالم اكثر من ذلك؛ فقد نقل تجارها اصول الحضارة إلى الشعوب الآرية في الغرب، وبعدما انتهى دورها التجاري، ووقعت اولاً تحت الحكم الاغريقي، ثم تحت الحكم الروماني، قامت بدور الوسيط، فقدمت للعالم الحياة الروحية، التي انبعثت من اراضي فلسطين، مما جعل افئدة شعوب الغرب تتجه بكل تقوى نحوها».(1)

إن ما ورد في هذا الكتاب يعد على العموم وثيقة علمية تحوي إحدى حقائق التاريخ الكبرى، إنما يمكن ان نضيف إلى ذلك بعض الاضافات والتعديلات؛ فمع الايمان بان التراث العربي كل لا يتجزأ، وان كل ما انتجه العرب الاوائل في اي جزء من اجزاء الوطن العربي هو من هذا التراث، فقد تم البرهان في السنين الاخيرة على ان بلاد الشام لم تكن جسراً انتقلت عليه الحضارات، او ارض عراك، او ان شعبها كان له دور الوسيط فحسب، بل الشام هي ارض الحضارة الأولى في التاريخ وشعبها صاحب رسالة متميزة هي رسالة العروبة عبر العصور.

اهل الشام هم الذين بذروا بذور الحضارة الأولى في افريقية واجزاء كبيرة من اوروبة، ودون الدخول بالتفاصيل، يكفي أن نتذكر أن الاسلام، وإن قام في شبه الجزيرة العربية، فاهل الشام هم الذين نقلوه إلى الصين والهند وافريقيا واوروبا؛ وعندما تعطلت إرادة الشام بسقوط الدولة الاموية، سمعنا بالشعوبية والزندقة والحزبية الدينية. وفي كل مرة هزم العرب او نزلت بهم نازلة، نجد الشام واهله تحملوا وزر الغزو والتحرير، ونستشهد هنا بوقائع الغزو الصليبي، ونتذكر انه عندما جاءت جحافل المغول جرى صدها في عين جالوت الشامية، وفي ايامنا هذه اهناك غير الشام من سد منيع في وجه التوسع الصهيوني والامبريالي؟

وصحيح أن نصيب افريقيا ودورها كان ادنى، إنما علينا ان نتذكر دائماً المصريين القدماء والسودان، والبربر، ومن المؤكد انه كان لهؤلاء ادوارهم الخاصة؛ لكن على الرغم من كل هذا، فإن بلاد الشام واقعة على طرف واحد من اهم الخزانات البشرية ومنابع الهجرة في التاريخ، والمعني بذلك شبه جزيرة العرب، فبلاد الشام بالنسبة لهذا الخزان كانت دائماً محطة اولى لتسرب بشكل متواصل، وليست نهاية لمد، لذلك طبعت الشام بالطابع العربي بشكل اصيل.

من هذا المنطلق نجد ان سورية اليوم، تلعب دوراً قيادياً بارزاً ومؤثراً في صد الهجمة الصهيونية الشرسة. ويسرنا ان نقدم للقارىء العربي، هذا العدد الخاص عن سورية، في هذه المرحلة العصيبة من تاريخنا، حين يتعرض الوطن العربي لغزوة فكرية شرسة، لا تستهدف الجيوش والحدود فقط، وإنما التشكيك بتراثنا، ليكون هذا التشكيك والهدم، مقدمة لاضعاف مقاومتنا.

ولا يسعنا في هذا المجال إلا ان ننوه بمساهمات الاخوان السوريين من كتاب ومسؤولين. وفي مقدمة هؤلاء الاستاذ ياسين رجوح، وزير الاعلام، الذي اعطانا الكثير من وقته وفكره.

فإلى كل هؤلاء الاخوان الاعزاء، من سوريين ولبنانيين الذين اعانونا على إعداد هذه الدراسات، توجه «تاريخ العرب والعالم» خالص امتنانها، معاهدة الجميع على مواصلة المسيرة حتى النهاية.

(1) The crusades, by A. Archer and C.L. Kingford, London 1984. pp 1 —2.

سورية التاريخ



□ الرئيس حافظ الأسد.

سؤال: حظيت بلاد الشام باهتمام المؤرخين على اختلاف أجناسهم وتياراتهم أكثر مما حظيت به بلاد أخرى.

هل تعزون ذلك للموقع أم للشعب أم لأسباب أخرى؟

جواب: إن هذا الاهتمام الكبير والواسع الذي تشيرون إليه في سؤالكم والذي دعا بعض المؤرخين إلى وصف بلاد الشام بأنها تشكل «خلاصة لتاريخ العالم»، يعود في تقديرنا إلى تضافر هذين العاملين معاً وأعني الشعب والموقع وبخاصة في تفاعلهما الايجابي والخلّاق مع البلدان المحيطة ببلاد الشام.

إن هذه البلاد التي تقع في قلب الوطن العربي الواسع، وعند ملتقى القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبا، والتي تشرف على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي، كانت منذ القديم وحتى عصرنا هذا، محطة بالغة الأهمية للتجارة والمبادلات الاقتصادية والحضارية بين الشرق والغرب، وتتحكم بالتالي بكثير من طرق

بين الماضي والحاضر والمستقبل

لمعالي الأستاذ ياسين رجّوح وزير الإعلام السوري

مقابلة مع رئيس تحرير مجلة «تاريخ العرب والعالم»



□ معالي الأستاذ ياسين رجّوح وزير الإعلام.

المواصلات والتجارة.

وعلى أرض هذه البلاد نشأت منذ أقدم العصور الممالك الحضارية التي عنيت بشكل خاص إضافة إلى اكتشاف المعادن والزجاج والخزف والملاحة، عنيت بالكتابة والشرائع والقوانين والتنظيمات. فعلى شواطىء هذه البلاد وقرب اللاذقية ظهرت أول أبجدية في العالم في أوغاريت والتي تعتبر أهم الأبجديات المعروفة كافة وكان لها أبلغ الأثر في نشر المعرفة والثقافة والعلوم بين البشر والمجتمعات. وفي شمالي هذه البلاد قرب حلب قامت مملكة «ايبلا» في الألف الثالث قبل الميلاد. وعلى هذه الأرض أيضاً تفاعلت أقدم الحضارات التي نشأت على أحواض الأنهار الكبرى في المنطقة وأعني النيل والرافدين، وعلى تخومها وقعت أكبر المعارك الكبرى في التاريخ القديم بين امبراطوريات ذلك العالم، وكانت من أهم مراكز الإشعاع والعطاء إبان العصور الرومانية سواء على صعيد الإدارة أو الدبلوماسية أو العقائد أو الحكم حيث ظهر منها أباطرة حكموا روما.

وعندما بزغت شمس الحضارة العربية الإسلامية غدت دمشق عاصمة أول وأكبر دولة عربية موحدة الحكم والسلطات والإدارة من اقاصي شرق الوطن العربي حتى أقاصي مغربه، واستمرت بعد زوال هذه الدولة محافظة على طابعها العربي الأصيل مواجهة أكبر التحديات في العصور الوسطى حين حملت العبء الأكبر في التصدي للغزو المغولي الهمجي الجارف والآتي من الشرق، والغزو الافرنجي الصليبي المتستر بالدين والقادم من الغرب.

ثم حملت العبء الأكبر منذ مطلع عصر النهضة العربية الحديثة في النضال ضد السيطرة العثمانية ثم مواجهة مخططات الاستعماريين الفرنسي والبريطاني قبل الاستقلال

ثم مخططات الهيمنة الأميركية والصهيونية على المنطقة العربية بعد الاستقلال. وهكذا نجد أن للشعب العظيم «وللموقع المتميز تأثير متبادل في جعل سورية، علامة مضيئة في تاريخ البشرية على إمتداده، وإلى أبد الآبدين».

سؤال: من الملاحظ أن سورية لعبت دوراً بارزاً، إن لم يكن الدور الرئيسي في تكوين وقيام الدولة العربية الواحدة الممتدة من المشرق إلى المغرب. ما هي في تصوركم إنعكاسات ذلك على دور سورية في عصر النهضة العربية الحديثة؟

جواب: لقد كان لهذا الدور البارز الذي تشيرون إليه إنعكاسات هامة على تاريخ ومسيرة نضال شعب هذا القطر، يمكنني أن أشير إلى بعض جوانبها الرئيسية في هذا المجال. إن هذا القطر الذي يقع في قلب الوطن العربي ووسطه كان نواة محور أول وأكبر دولة عربية موحدة السلطات والادارة من أقصى المشرق العربي إلى أقصى مغرب الوطن العربي كما أشرت، ولئن تفككت وحدة هذه الدولة فيما بعد بسبب سيطرة بعض عوامل التفرقة الداخلية من عشائرية وقبلية ومذهبية ساعد في تأجيجها ودعمها التحريض الخارجي، فإن تاريخ هذا القطر قد طبع بسمات خاصة أبرزها شعور أبنائه العميق والجارف دائماً بقصور المفاهيم القطرية والاقليمية وبأنهم جزء من الأمة العربية الواحدة وبأن كيانهم ليس إلا جزءا من الكيان العربي الموحد والدولة العربية الواحدة.

وانعكس ذلك بصورة جلية في نضال شعب هذا القطر وتياراته الفكرية والسياسية الدائب من أجل الوحدة وتدعيم المفاهيم القومية الوحدوية الأصيلة إيماناً منهم بأنها هي السبيل الوحيد للمقاومة الناجعة لأعداء الأمة الخارجيين ولتقدمها الحضاري ولصيانة مستقبلها.

وقد تجلى ذلك بصورة واضحة في عصر النهضة العربية الحديثة حيث لعبت سورية وقياداتها الفكرية والسياسية آنذاك الدور الأكبر في إيقاظ الوعي القومي العربي إبان العهد العثماني، وقدمت الشهداء في السادس من أيار لعام ١٩١٦ قربانا لليقظة القومية العربية وفدية خلاص من أجل إندلاع الثورة العربية الكبرى التي انطلقت من سورية صيحتها وتأسست في عاصمتها دمشق عام ١٩٢٠ أول دولة عربيةمستقلة في العصر الحديث عاشت عمر الزهور وقاتلت دفاعاً عن إستقلالها في ميسلون ضد قوات الاحتلال الفرنسي واستمرت في النضال ربع قرن حتى حصلت مجدداً على الاستقلال الوطني الكامل عام ١٩٤٦ دون الارتباط بأية معاهدات إستعمارية تكفل للمستعمر أي نفوذ وهيمنة وكانت بهذا المعنى أول دولة عربية تنال مثل هذا الاستقلال الكامل.

وقاومت سورية بعد إستقلالها جميع المحاولات الاستعمارية التي استهدفت إعادة الهيمنة ومناطق النفوذ على سورية أو الأقطار العربية الأخرى، ووقفت إلى جانب الشعب العربي الفلسطيني منذ بدء الاغتصاب الصهيوني لفلسطين عام ١٩٤٨ وتحملت وما تزال العبء الأكبر في مواجهة هذا العدو الصهيوني. وخاضت مع مصر الشقيقة أبرز حرب تحريرية في تاريخ العرب الحديث.

سؤال: لقد تصدت بلاد الشام لأقوى غزوتين خارجيتين تعرضت لهما الأمة العربية في العصور الوسطى ونعني بهما الغزو الصليبي والغزو المغولي. فهل يعني ذلك أن قدر هذه البلاد وأهلها يحملهما الدور الرئيسي في مواجهة الغزو الصهيوني الاستعماري في عصرنا الراهن؟

جواب: إن تاريخ الشعوب والأمم يعلمنا أن من امتلك الايمان الراسخ والارادة الصلبة والفكر الحضاري الخصب والمتجدد، وكانت له رؤياه القومية المحددة والواضحة يستطيع أن يواجه أعتى التحديات والمحن التي تتعرض لها الشعوب.

وقد كانت بلاد الشام هي الأرض التي انطلق منها الفاتحون العرب لبناء الدولة العربية الواحدة، وعلى تخومها وحدودها رابط الصامدون المدافعون عن ثغور العرب والمسلمين في وجه هجمات البيزنطيين، وكان هذا بالتالي دافعاً

رئيسياً لاستهداف هذه البلاد إضافة إلى دوافع اخرى من قبل الغزوين الصليبـي والمغولي.

ولقد قاومت بلاد الشام موجات غزو التتار الهمجية المدمرة لمنجزات معالم الحضارة العربية الاسلامية وصدت هجمات الفرنجة الصليبيين المتسترين بإسم الدين، وشهد تراب هذه البلاد المعركتين الفاصلتين التي تحطم فيهما إندفاع الغزو المغولي في «عين جالوت»، وبدأ إنهيار الغزو الصليبـي في «حطين».

لقد تحملت بلاد الشام العبء الأكبر في هذه المواجهة وقاتلت الصليبيين قرابة قرنين من الزمن، متشبثة بإيمانها الراسخ بالقدرة على الانتصار على الأعداء الخارجيين رافعة راية الوحدة والتوحيد واستطاعت بالبذل والتضحية والصبر أن تؤمن النصر على أعداء الأمة.

ولعل هذا ما ميز في الماضي وما يميز في عصرنا الراهن سمات الراية القومية الوحدوية التي ترفعها سورية وقدرتها على الجذب والاشعاع، الأمر الذي جعلها في أعين الكثيرين تجسد طموح العرب وآمالهم. ومن هنا تنبع في تقديرنا قوة سورية ودورها الكبير في الصراع على المصائر الكبرى التي تواجهها المنطقة.

لقد كانت سورية وما تزال في القلب من هذه المعركة التي تواجهها الأمة تاريخاً وجغرافية وإرادة. وعندما يواجه العرب في عصرنا الحاضر اشرس غزو إستيطاني صهيوني مدعوم من قبل الامبريالية الأميركية، نرى سورية شعباً وقيادة على الخط الأمامي للمواجهة في هذه المعركة، تتحمل العبء الأكبر في معركة المصير التي يتوقف على نتائجها مستقبل هذه الأمة. وهذا ما أكده، دوماً قائد أمتنا الرئيس حافظ الأسد، الذي أتاحت له محبة شعبه، وتقدير أمته استشفاف المستقبل بخلفية الفهم العميق للتاريخ، ووضع إستراتيجية مواصلة النضال لتحقيق وحدة الأمة. وحققت سورية أول وحدة عربية حقيقية في تاريخ العرب الحديث عام ١٩٥٨، وناضلت ضد الانفصال وأسقطت اركانه ومرتكزاته وكان دائماً طرفاً رئيسياً وفاعلاً وإيجابياً في كل مشروع وحدوي عربـي أو في أي تحرك عربـي وحدوي وخاصة بعد الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ التي قادها السيد الرئيس حافظ الأسد.

سؤال: **يلاحظ أن تيارات النضال القومي الوحدوي المرتبط بالاصلاح الاجتماعي قد ظهرت في سورية في العصر الحديث بصورة جلية ومبكرة عن بقية الأقطار العربية. ما هو سبب ذلك في تصوركم وما دور القيادات السياسية والفكرية في تحقيق ذلك؟**

جواب: سبق أن تحدثت عن الانعكاسات البارزة للتاريخ والموقع على دور سورية وبلاد الشام بصورة عامة في بلورة المفاهيم القومية العربية الوحدوية، لدى أبنائها وشعورهم العميق بالانتماء العربـي القومي وبأنهم جزء من الأمة العربية، وبأن تحقيق هويتهم القومية لا يتم إلا من خلال هذا الانتماء العربـي والذي يعبر الرئيس حافظ الأسد عنه أبلغ تعبير بقوله: «نحن في سورية، ولو تحدثنا عن سورية لا يمكن أن نشعر بإنتمائنا السوري أبداً، نحن لنا إنتماء أساسي هو إنتماؤنا العربـي. وفي إطار الصراع مع العدو ليست لنا قضايا وطنية إقليمية. الصراع مع العدو الصهيوني وكل ما يتفرع عن هذا الصراع هو شأن قومي عربـي. لا سوري ولا مصري ولا أردني ولا فلسطيني ولا أي شيء آخر، هو عربـي».

إضافة إلى هذه الجوانب الهامة والانعكاسات البارزة للتاريخ والموقع، لا بد من الحديث عن الشعب والمواطن والإنسان في هذا القطر. إن رأسمال أي بلد كان وما يزال إنسانها العامل المنتج، الذي يتقمص روح تاريخه وإنجازات أمته الحضارية ويصل ماضيها المجيد بحاضرها رافعاً راية التقدم والعدالة والاصلاح الاجتماعي.

وسورية التي رفعت منذ مطلع عصر النهضة العربية الحديثة راية المفاهيم القومية الوحدوية أدركت أن هذه المفاهيم لا يمكن أن تتجسد في الواقع العملي في عصرنا الراهن عصر التحولات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة وعصر الهيمنة الاستعمارية والنهب الامبريالي إلا إذا تلازم النضال من أجل تحقيقها بالنضال من أجل إقامة

مجتمع العدالة الاجتماعية والتقدم وإزالة مجتمع القهر والاستغلال.

وهكذا تلازم النضال القومي الوحدوي بالنضال الاجتماعي من أجل التقدم والعدالة وتحرير الوطن من السيطرة الاستعمارية والخارجية والاستغلال الداخلي، وشهدت مسيرة هذا النضال سياسياً وفكرياً تطوراً ملموساً في أساليب عملها وإتساع جماهيرها. وبخاصة منذ ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ وبعد الحركة التصحيحية تحولات إجتماعية وإقتصادية عميقة وملموسة تمت لمصلحة غالبية جماهيرها المنتجة وزادت من قوتها وتأثيرها، كما أقامت قوات مسلحة قوية يحسب لها حساب كبير لدى العدو الصهيوني. إن ذكر هذه الأمور ليس من قبيل التباهي أو التذكير بل محاولة للاجابة على بعض جوانب هذا السؤال.

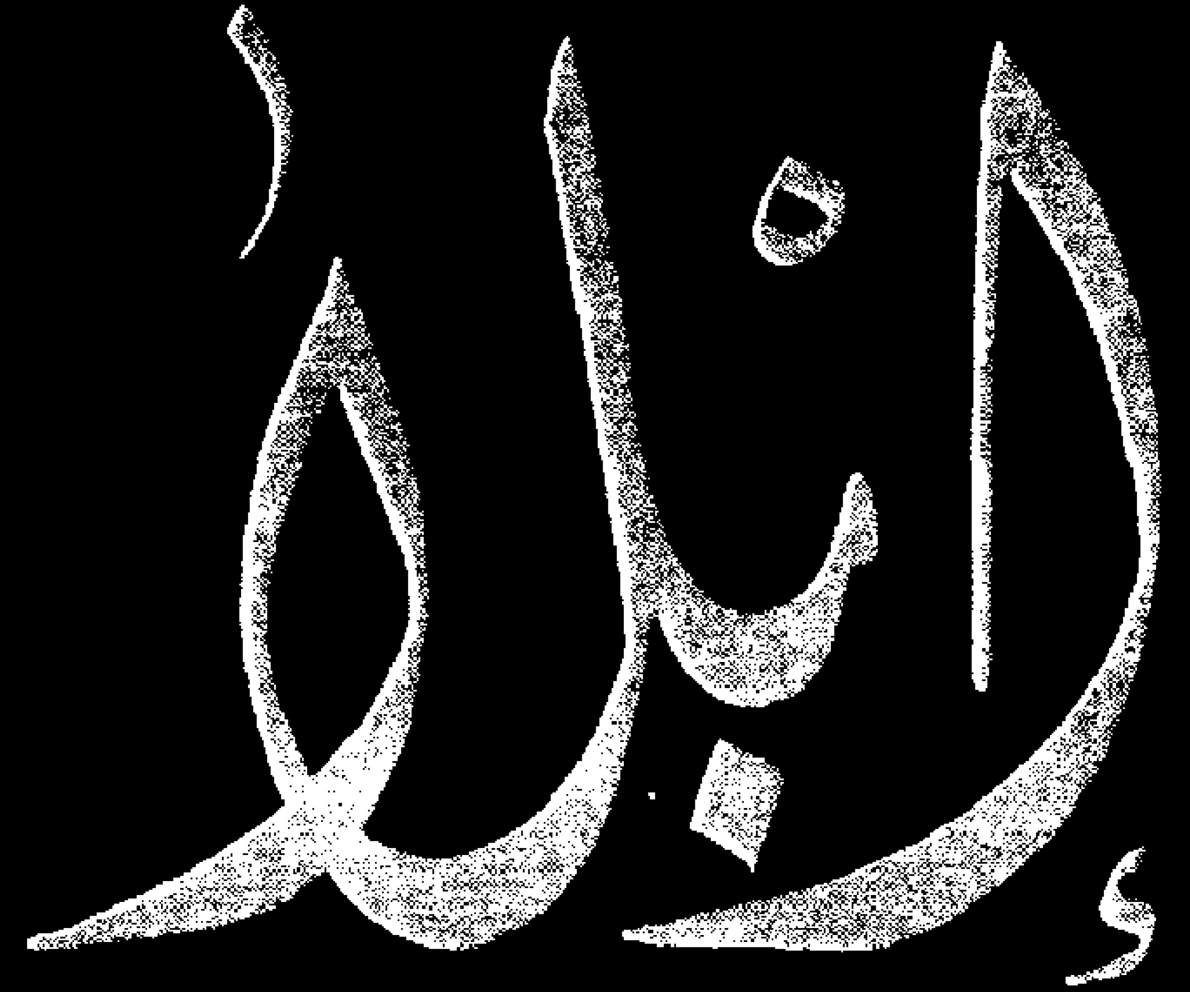
سؤال: يتحدث بعض المؤرخين الغربيين المتتبعين للصراع العربي الصهيوني عن تصدع في الموقف العربي الموحد تجاه التحدي الصهيوني الذي يواجه الأمة العربية. ما هو في تصوركم دور سورية في بناء هذا الموقف الموحد لمواجهة هذا التحدي؟

جواب: لقد كان هذا التصدع الذي تشير إليه أملاً لدى العدو الصهيوني وأعداء الأمة، منذ المواجهة الأولى مع الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، وإذاكان الموقف العربي الرسمي تجاه العدو الصهيوني خلال مسيرة هذا الصراع قد شهد تصدعاً بعد زيارة السادات للكيان الصهيوني وتوقيعه معاهدة كامب دافيد، أو عند توقيع إتفاق الاذعان مع العدو الصهيوني في لبنان في ١٧ أيار عام ١٩٨٣، كما يرى هؤلاء المؤرخون المتتبعون، فإن الموقف الشعبي العربي لم يعرف هذا التصدع، بل برهنت المقاومة الواسعة لاتفاقيات كامب دافيد وجهود تطبيع العلاقات المصرية مع الكيان الصهيوني من قبل شعبنا العربي في مصر كذلك تصاعد المقاومة الوطنية الباسلة للاحتلال الصهيوني لجزء واسع من لبنان في الجنوب ونجاح القوى الوطنية اللبنانية في إسقاط إتفاق الاذعان مع العدو الصهيوني، لقد برهن ذلك على رفض أمتنا العربية الشامل لمنطق وسياسات الاستسلام والتخاذل تجاه العدو الصهيوني.

وقد لعبت سورية من منطلق ثبات منطلقاتها القومية والاستراتيجية وبفضل قيادتها التاريخية التي يجسّدها الرئيس الأسد بما يملكه من وضوح في الرؤية وتحديد دقيق للأهداف وبعد نظر ثاقب وإرادة صلبة وتجربة سياسية غنية ومحنكة ــ الدور الرئيسي والمحرك والمستقطب لكل الجهود العربية النضالية التي أدت إلى إسقاط أبرز المكاسب التي استهدفها العدو الصهيوني من غزوه للبنان، كما أنها أسهمت في حصر جزء كبير من النتائج الخطيرة لاتفاقيات كامب دافيد على الموقف العربي.

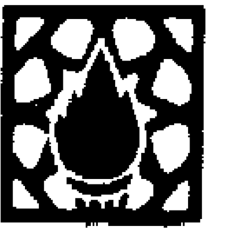
لقد لعبت سورية الدور الرئيسي في إقامة جبهة الصمود والتصدي وفي بلورة قرارات قمة بغداد التي أكدت مركزية القضية الفلسطينية بالنسبة للنضال لعربي وقومية هذه القضية، كما لعبت الدور الرئيسي في الحفاظ على قرارات هذه القمة وتطبيق مقرراتها على نحو سليم بعيد عن كل إنحراف، واستمرت في مواجهتها للعدو الصهيوني بكافة الوسائل المتاحة تناضل بكل دأب من أجل إقامة توازن استراتيجي مع العدو الصهيوني ومن أجل إقامة تضامن عربي فعال ضد العدو الصهيوني.

إن سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد في ثباتها على منطلقاتها القومية والاستراتيجية هذه، وفي نضالها من أجل بناء تضامن عربي ذي محتوى نضالي، وفي سعيها لبناء قدرتها الاقتصادية والعسكرية الذاتية وإستعدادها للنضال والتضحية وإيمانها بوحدة أمتها العربية قد برهنت على أنها قادرة على مواجهة مخططات الأعداء الصهاينة ومن يدعمهم وإحباط هذه المخططات وستظل ثابتة الموقف في وجه الهجمة الامبريالية الصهيونية واثقة بنفسها وبأمتها، مؤمنة دائماً بأن قوة العرب في وحدتهم تعمل دائماً من أجل الوحدة ولا تضع شرطاً للوحدة ــ كما قال الرئيس الأسد ــ إلا تحقيق الوحدة، إيماناً منها بأن قوة الموقف العربي ككل ستزداد وتتضاعف عشرات المرات لدى كل إنجاز وحدوي نحققه على الأرض العربية.



د. عدنان البني

مقدمة:



عالجنا موضوع اكتشاف مدينة إبلا في موقع تل مرديخ كما عالجه غيرنا في مناسبات ومواضع شتى. ومع تقدم أعمال التنقيب والدراسة لا بد من عودة إلى الموضوع في أضواء أكثر سطوعا وحداثة. وحديث الآثار، وعلى الأخص حديث المكتشفات الأثرية، فيه ثقافة وتشويق وعلاقة مباشرة بالتراث القومي والتراث الانساني وبالقضايا المعاصرة ثم إن الكشوف الباهرة كالمخترعات والمذاهب الجديدة تشد الناس إلى الحديث والجدل.

وفعلا أثير جدل كثير حول ابلا، وحول محفوظاتها بشكل أخص. وليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب فمثل ذلك حدث مثلا في مناسبة كشف حضارة أوغاريت ومن قبل عند معرفة الأساطير البابلية وشريعة حمورابي. وغير ذلك كثير. ان الخطر في مثل هذه الأحوال هي أن موضوع الجدل يلج فيه المختص وغير المختص والعالم والهاوي المتأدب، وبكلمة يتصدى له من يجب ومن لا يجب. ويثور الصياح والانفعال فلا يفهم أحد أحدا. كل يظن ــ بدوافع مختلفة ــ أنه مبعوث العناية الالهية لحسم الموقف.

وبمناسبة اكتشاف ابلا ضاعت الأبعاد الحقيقية لهذا الحدث الأثري الفريد بين الأثريين التوراثين الذي حاولوا، بغباء أو ذكاء، استغلال الحدث، وبين بعض «المدافعين» الذين ضخموا خطورة الموضوع وانفعلوا دون طائل.

ونود قبل أن نستغرق في وصف الحدث وتقييمه ــ اثريا ــ أن نؤكد أن موجة التشويش قد انحسرت تماما ــ على الأقل في الأوساط العلمية بلا استثناء ــ (راجع مقالنا عن الكتابة المسمارية وابلا في مجلة التراث العربي العدد الرابع ١٩٨١). «كانوا ثلاثة يتزعمون استغلال ابلا لتأكيد مصداقية توراة اليهود وأحيانا ربط احداثها بأحداث التاريخ الابلي وقد تراجع احدهم ومات الثاني وانعزل الثالث». وقبل أن نعرض لبعض التقديرات الجديدة للموقف، لابد من أن نعود إلى الأحداث الرئيسية في قصة ابلا كمدينة وكمملكة وكحدث اثري.

ذكر ابلا في النصوص القديمة:

إن أقدم ذكر لابلا ورد في نص من عهد سرجون ملك الأكاديين حوالي (٢٣٤٠ ــ ٢٢٨٤ق. م) بمناسبة حربه ضدها. ثم يذكر حفيده نارام سين (٢٢٦٠ ــ ٢٢٢٣ق. م) هدمه لها مع مدينة أرمان (حلب على الغالب) ويتفاخر بأنه «**استولى على المدينة التي لم ياخذها احد قبله منذ وجدت الخليقة**».

وفي القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد يذكر غوديا ملك لاغاش (تللو الحالية في العراق) استيراد الخشب من مدينة أورشو «**في هضبة ابلا**».

□ د. عدنان البني: مدير التنقيب والدراسات الأثرية ــ دمشق.

(*) شاعت كتابة إبلا بشكل (ايبلا) تاكيدا للكسر، علما بان الكسر هنا غير مؤكد وحتى إذا تحقق الكسر لا نجد ضرورة للياء. ونعطي مثلا على ذلك «إهدن» و «إبطع».



□ تل مرديخ ــ إبلا ــ باحة الاستقبال في القصر العائد للألف الثالث

وفي القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد نجد ذكرا لابلا في نص من عهد مملكة أور الثالثة. وكانت ابلا آنئذ قد أخذت تنتعش بعد خرابها. كما ذكرت حوالي ذلك التاريخ في نص من نصوص سلالة ايسن الأكادية ـ الأمورية في الرافدين.

وكانت ابلا في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد أكبر مركز سياسي في المنطقة الشمالية من سورية غير انها في عهد حمورابي تبعت مملكة حلب.

وهناك من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ذكر لتزاوج بين الأسرتين المالكتين في ابلا والالاخ (تل عطشانة السورية وهي حاليا في لواء اسكندرون السليب).

وحوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد انحدرت ابلا وتهدمت نتيجة غزوات الحثيين (ختوسيل الأول ومرسل الأول).

وقد عاد ذكر ابلا في عهد الفرعون تحوتمس الثالث (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) حيث تحدث عنها في أحد نصوص المنقوشة على عمود في معبد الكرنك بالأقصر **كمقاطعة** اجتازها في سيره نحو الفرات.

قبل مجيء البعثة الايطالية:

في ١٢ نيسان ١٩٥٥، أخبر مراقب آثار حماه مديرية آثار المنطقة الشمالية في سورية أن حوضا اثريا بازلتيا قد عثر عليه في تل مرديخ الواقع قرب بلدة سراقب التابعة آنئذ لقضاء المعرة، التل على بعد خمسة وخمسين كيلو مترا جنوبي شرقي حلب وعلى بعد كيلو مترين إلى الشرق من الطريق العام الذاهب الى حماة. وقد عزز ذلك بتقارير عن الاكتشاف. فأوفدت المديرية المذكورة لجنة لتقصي الحقائق فقدمت تقريرا في مايو ١٩٥٥ بتوقيع المساعد الفني صبحي الصواف يشيد بأهمية التل ويتصور انه موقع مدينة «تونيب» المذكورة في رقم بوغاز كوي عاصمة الحثيين. ويذكر في التقرير العثور على جزء صغير من رقيم مسماري في التل ويقترح أخيرا إجراء بعض الأسبار والحفريات فيه.

أدرج موضوع التنقيب في تل مرديخ فعلا في برنامج عمل (١٩٥٨)، ولكن في هذا العام تم الكشف عن اكثر من عشرين مدفنا في تدمر، وحول جهازنا كله إلى تدمر وبقي تل مرديخ في قائمة مواقع التنقيب المقبلة بضع سنوات، حتى جاءت المناسبة.

البعثة الايطالية والأحداث الأساسية:

جاء الأستاذ باولو ماتييه باسم جامعة روما يفتش عن موقع ينقب فيه وذلك في أيلول (١٩٦٣)، وزار بتشجيع من المديرية العامة للآثار والمتاحف تدمر والساحل والمنطقتين الوسطى والشمالية، وخلال زيارته أوقفناه على موضوع تل مرديخ.

وبعد أن مال للتنقيب في الساحل عزم على العمل في تل مرديخ. وفي ١٤ تشرين الأول ١٩٦٣، حصلت البعثة الايطالية على رخصة التنقيب الرسمية باسم معهد دراسات الشرق الأدنى بجامعة روما في تل مرديخ وآفس المجاور. وتمت المباشرة بالتنقيب في أيلول ١٩٦٤. وتم اول كشف أثري ذي بال عام ١٩٦٥. وهو عبارة عن جرن من الحجر الكلسي عليه مشاهد ميتولوجية، ويعود للألف الثالث قبل الميلاد كما عثر على منحوتة من الحجر البازلتي تمثل ربا جالسا على كرسي.

وفي موسم ١٩٦٨ بدأ التعرف على اسم الموقع اثر ظهور تمثال في السوية الأمورية في معبد الربة عشتار أقامه «**إبت لم بن أجرش خب ملك ابلا**».

إثر هذا الاكتشاف أصبح من الواضح أن المدينة الجاثية في تل مرديخ هي ابلا المفقودة.

وبعد صبر طويل وسنوات عجاف نسبيا، سعدت البعثة في ١٩٧٣ بظهور القصر الملكي لسلالة ابلا الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد وفي آب ١٩٧٤ ظهر أربعون رقيما مسماريا وفي ١٩٧٥ اخذت تظهر الرقم بالمئات ثم استكملت في ١٩٧٦.

تل مرديخ اثريا (ستراتيغرافيا وكرونولوجيا):

تل مرديخ من تلال الدرجة الأولى الذي يتصف بشكل مدينة منبسطة مسورة واكمة متوسطة يقوم عليها الحي الرئيسي الرسمي،



□ تل مرديخ ــ إبلا ــ حجرة المحفوظات وترى آثار الرفوف الخشبية الزائلة.

وهو بمثابة «الأكروبول»، تبلغ مساحة التل ٥٦ هكتارا. تل مرديخ يقوم في موقع استراتيجي وزراعي هام وكانت منطقته قديما مشجرة وفيها أحراش كما تدل النصوص.

لا نعرف متى أطلق اسم ابلا على الموقع ولكن نعرف أنه يعود على الأقل إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وليس له معنى واضح في المفردات المشتركة للغات الجزيرة العربية وقد قرب معناه من البياض أو من التفاف الشجر وما يزال الأمر قيد الدراسة.

على كل حال ان أقدم الفترات السكنية المعروفة في هذا الموقع حتى الآن يعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. وقد تؤدي التنقيبات إلى معرفة عصر اقدم.

وعلى هذا فان «الستراتيغرافية» الأثرية في تل مرديخ/ ابلا تكون من الأدنى وإلى الأعلى على الشكل التالي حسب تقسيمات البعثة الايطالية وحسب ما كشف حتى الآن.

السوية الأولى:

وتقع في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد وحتى حوالي ٢٩٠٠ قبل الميلاد وتغطي

أواخر طور العبيد وطور أوروك وجمدة نصر.

السوية الثانية:

وهي تغطي الألف الثالث (طور ما قبل السلالات المبكرة والسلالة الأكادية وسلالة لاغاش واور الثالثة في الرافدين)، وتسميها البعثة الايطالية «الفترة قبيل السورية» وتقسمها إلى اطور ثلاثة تقابل عصر البرونز القديم الأول حتى الثالث ثم الرابع (أ) والرابع (ب) وهي أهم فترات التل واغناها بالمنشآت المعمارية والمخلفات الحضارية.

السوية الثالثة:

تمتد من حوالي ٢٠٠٠ إلى حوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد وهي تقريبا تقابل تاريخيا هجرة الأموريين الكنعانين إلى الرافدين وسورية وقيام دولهم في الهلال الخصيب وتسمى البعثة الايطالية هذه الفترة «السورية القديمة»، وتقسمها إلى طورين يعادلان عصر البرونز الوسيط الأول والثاني وانتهت بمحنه حريق.

السوية الرابعة:

تمتد من حوالي ١٦٠٠ إلى حوالي ١٢٠٠ قبل الميلاد وتسميها البعثة الايطالية الفترة «السورية الوسيطة»، وتقسمها طورين يقابلهما عصر البرونز الحديث الأول والثاني ولم تسكن ابلا كلها آنئذ بل تركزت المنشآت في الأكروبول حول المعبد.

السوية الخامسة:

وهي تمتد من حوالي ١٢٠٠ حتى القرن السادس قبل الميلاد وتسميها البعثة بالفترة «السورية الحديثة» ويقابلها تاريخيا موجة الاراميين وتأسيس ممالكهم وقيام الدولة الأشورية والكدانية وتشمل ما يسمى بعصر الحديد بشكل كامل ولم تكن ابلا آنئذ إلا قرية بسيطة لا نعرف ان كانت تحتفظ باسمها.

السوية السادسة:

تغطي الفترة من سقوط الدولة الكلدانية (٥٣٩ق. م) الى نهاية العصر الهلينستي (٦٣ق.م.).

السوية السابعة:

فترة العهد الروماني المتأخر والعهد البيزنطي. ولم تترك سوى بعض القبور فيما نعرف حتى الآن.

وعلى الأسوار عند مدخل تل المرديخ رأينا كتابات عربية معروفة من العهد الأموي لا ندري ان كانت تواكبها طبقة سكنية من ذلك العهد.

ابلا من خلال التنقيب والمكتشفات:

ان هذه المدينة التي كانت رقعتها، كما ذكرنا، تغطي حوالي ستة وخمسين هكتارا كان يتوسطها حي عال «اكروبول» يضم القصر أو القصور الملكية وبعض المعابد واهمها معبد عشتار، المجدد في الألف الثاني، والمراكز الادارية التابعة للقصر، وكانت تحدق بالمدينة أسوار ضخمة ترابية مكسوة بالحجارة. وقد يبلغ سمك هذه الأسوار عند القاعدة ٦٠ مترا. وللمدينة أربعة ابواب معززة بأبراج. والمداخل مدعمة جدرانها بصفائح الحجارة البازلتية والكلسية. ومن أبواب المدينة كانت تمتد أربع طرق مشرعة نحو «الأكروبول». وفي المدينة الواطئة عدة أحياء سكنية تتخللها مساحات غير مبنية لعلها كانت تستخدم للزراعة، والابار متوفرة في المدينة، والماء يجمع في صهاريج والاعتماد الأساسي على مياه المطر.

ومنذ عام ١٩٧٣ يجري التنقيب في السفح الغربي لأكروبول التل وقد أدى ذلك لاكتشاف منشآت الحي الرسمي من الألف الثالث قبل الميلاد واهمها القصر الملكي المحفوظ أحيانا حتى ارتفاع خمسة أمتار والذي يتصف بخصائص معمارية سورية فريدة، فله قسم إداري مستقل وقسم خاص بالملك يتوسطه باحة العرش المحاطة برواق دائر كان يقوم على أعمدة عالية من الخشب. وفي الطرف الشمالي من الباحة منصة يصعد إليها بدرج صغير وكان الملك يجلس عليها خلال استقبالاته الرسمية.

وفي صدر الباحة باب ودرج يفضي إلى حجرات القصر الداخلية. وكان الدرج فيما مضى مرصعا منزلًا.



□ تل مرديخ ـ إبلا ـ منظر لمجموعة من الرقم المسمارية المتساقطة من الرفوف.

والقصر يدل على مفهوم أصيل في عمارة القصور، فالجدران تبلغ قرابة ثلاثة أمتار مع دقة في التفاصيل ومراعاة لعوامل البيئة ولحاجات الحياة المريحة. وهذا التقليد سيستمر ونراه في القصور الآرامية في سورية الشمالية، ويدوم حتى الآن في البيت العربي.

وإلى الغرب من القصر العائد للألف الثالث بني قصر جديد من العهد الأموري حوالي (١٨٠٠ ـ ١٦٠٠ق. م) ولم تزل الحفريات قائمة فيه وتحته ظهرت حتى الآن مدافن ثلاثة محفورة في الطبقة الصخرية وتضم عشرات الأواني الفخارية وفيها نماذج رائعة من الأسلحة والحلى النادرة المثال في تلك العهود وكل العهود.

والخلاصة أن المكتشفات الأثرية في تل مرديخ/ ابلا قد زودتنا، حتى قبل العثور على المحفوظات الملكية، بمعلومات وافرة عن فن عمران المدن في سورية خلال الألف الثالث وكذلك عن عمارة القصور والمعابد في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. كما أن تلك المكتشفات كانت بالغة الفائدة في معرفة بعض الفنون والحرف السورية القديمة، كالنسيج العادي والمذهب والصياغة والتنزيل والنقش والنحت والفخار في تلك القرون

المعتمة، كما أنها ألقت، بشكل غير مباشر، الضوء على العلاقات الاقتصادية وعلى طرق المبادلات والتجارة بين سورية والأقطار المجاورة كالرافدين ومصر والأناضول.

واكتشاف غطاء إناء مصري في القصر الملكي العائد للألف الثالث قبل الميلاد يحمل كتابة للفرعون بيبي الأول يوضح ويؤكد تاريخ السلالة الملكية القديمة في ابلا. كما أن العثور على جزاين من سراجين يحملان اسم الفرعون خفرع من السلالة الرابعة يعطينا فكرة دقيقة عن بداية تلك السلالة. أما عهد السلالة الأمورية الأحدث فيتأكد بأثر من الفرعون حوتب رع، الذي حكم ما بين ١٧٧٠ ــ ١٧٦٠ق. م.

ابلا من خلال نصوصها المسمارية:

في حجرة من حجرات القصر العائد للألف الثالث (ويسمى القصر G)، وعند الرواق الشرقي اظهرت معاول التنقيب عام ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ما من شأنه أن يعقد الألسنة دهشة. كل السجلات الملكية برزت دفعة واحدة أكواما متصلبة بالحريق، وقد سقطت من رفوف خشبية. وهذه الرُقم التي يصل طول بعضها إلى ٢٥ سم و ٤٠ سم كانت سليمة أو مجزاة تؤلف جميعا ست عشرة ألف قطعة أو تزيد (منها الفا رقيم سليم وستة آلاف رقيم ناقص وثماني آلاف شظية كما هو وارد في سجلاتنا الرسمية).

والرقم موضوع البحث محررة بالخط المسماري السوري بأجمل ما يكون هذا الخط الهندسي. أما لغتها فهي حسب الاصطلاح من مجموع اللهجات الغربية في الجزيرة العربية، مع سمات من اللهجات الشرقية، ولكنها عريقة في القدم، ومحتواها قمة في الأهمية من حيث وفرة المعلومات وتنوعها. وهي تتعلق بالتجارة الدولية والأوامر الملكية، وبشأن سلوك الحكومة وتصرفاتها وتقارير المسؤولين حول مشاكل الدولة الداخلية والخارجية. ومنها ما يضم وثائق معجمية ونصوصا أدبية وملاحم ورقى سحرية الخ...

وتتماثل لغة ابلا في رأي البعض مع الأكادية وفي رأي البعض الآخر مع الكنعانية وبصورة أخص مع اللهجة الأوغاريتية واللهجة المسماة بالفنيقية. أما الاتجاه الجديد فيسميها اللغة أو اللهجة الابلية دون زيادة أو نقصان. والنصوص الابلية أقدم من النصوص الأكادية بجيلين لأنها أقدم من سرجون الأكادي الذي كان أول من سجلت مآثره بالأكادية. ومهما كان من هذا الأمر فان من المؤكد بأن وثائق ابلا حققت ثورة في دراسة تاريخ الشرق القديم في الألف الثالث قبل الميلاد وأصبحت مصدرا أساسيا لتلك الفترة. وأصبحنا بفضل هذه الوثائق نعرف ستة من ملوك إبلا يؤلفون سلالة كاملة وهم:

١ ــ إجريش خلم.
٢ ــ إركب دمو.
٣ ــ أرانيوم.
٤ ــ إبريوم.
٥ ــ أبي زيش.
٦ ــ دبوجو آدا.

وفي عهد الأمير سقطت ابلا بيد نارمسين الأكادي حفيد سرجون.

كانت ابلا، كما يتضح من النصوص، مركزا لقوة سياسية كبرى وقد هيمنت على ممالك أخرى في الهلال الخصيب كماري وحلب. وكانت قوتها السياسية مستمدة من حيوية اقتصادها، فتجارها يجوبون البلاد من الأناضول لفلسطين ومن البحر المتوسط إلى الرافدين. وتذكر النصوص التجارية الابلية أسماء مدن قديمة وبلاد كثيرة جدا مما يغني معارفنا الجغرافية في عالمنا القديم، خلال الألف الثالث قبل الميلاد. ومن المدن القديمة التي يرد ذكرها «ماري/ تل الحريري» و «إيمار/ مسكنة» و «كركميش/ جرابلس» و «حران» و «أوغاريت/ راس الشمرة». وقد ذكرت سابقا أسماء كثيرة إلا أن التحفظ أخذ يشمل كثيرا من الأسماء كجبيل وغزة وعكا وسودوم وعمورا. وقد تبين ان مترجم النصوص السابق في البعثة الايطالية كان يصنع كثيرا من الأسماء، أو يقرأها قراءة خاطئة وقد لاحظ العالم استور أن علينا أن نعرف مواقع المدن المذكورة قبل أن نحاول تقريبها من الأسماء الحديثة ويرى أن سودوم هي سرمين في سوريا الشمالية ولا علاقة لها بسودوم التوراة. ويذكر

لبينسكي أن آكي لا علاقة لها بعكا في فلسطين ويذكر اسم هذه المدينة في منطقة موكيش.

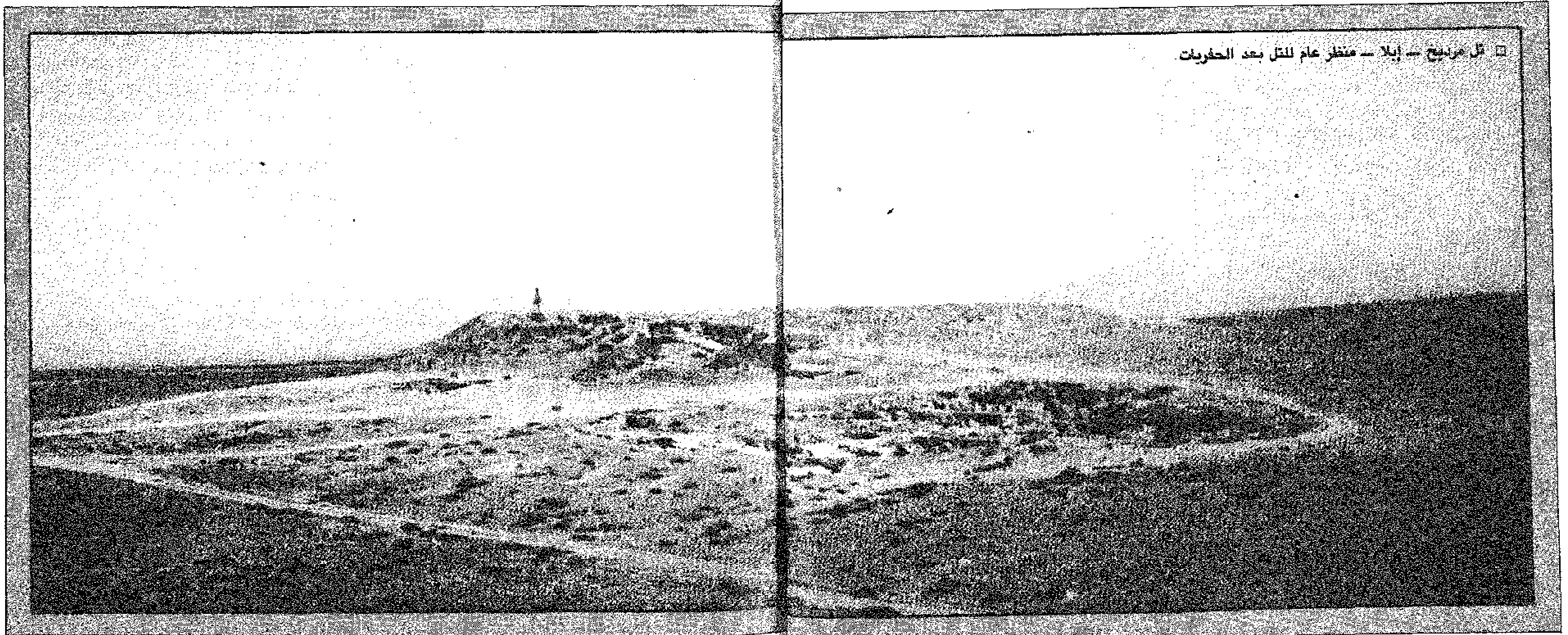
ومن أجل التجارة حاربت ابلا مملكة ماري وانتصرت عليها مرتين كما تنازعت مع أكاد على معادن الاناضول وخشب الجبال الساحلية السورية. وكانت الحرب بينهما سجالا حتى دمرها نرام سين ملك اكاد حوالي ٢٢٥٠ قبل الميلاد، كما ذكرنا من قبل، واحرق قصرها الملكي وتباهى بأنه فتح مدينة ابلا التي لم يسبق أن فتحها احد من قبل.

وأخيرا فان الرُقم أوردت نصوصا إدارية ذات صفة حقوقية ودبلوماسية وان بعضها يتعلق بوثائق المحاسبة الادارية والتي توضح التنظيم الحكومي للموظفين، كما توضح إدارة المقاطعات وأخيرا التنظيم المالي للدولة وجباية الضرائب.

ويستنتج من كل ذلك بعض المعلومات عن السكان والأوامر الملكية المتعلقة بالمسائل الحقوقية والادارية التي تقتضيها مشاكل الوراثة أو اقتسام الغنائم ولقد لاحظنا لدى اطلاعنا على الوثائق الدبلوماسية بشكل خاص، وجود معاهدات دولية احداها ابرمت بين ابلا واشور. فضلا عن ذلك، فان المحفوظات الملكية لابلا قد اظهرت بعض النصوص الادبية، حيث نرى احداها وكأنه ترجمة لمقطع من ملحمة جلجاميش الرافدية، كما ان نصوصا أخرى كانت تتعلق بالكهنوت والرقي السحرية والاناشيد، وهي ربما كانت ترجمات النصوص السومرية التي لم تعرف أصولها إلا بشكل متأخر، والتي كانت قد دونت في ما بين النهرين حوالي عام ١٨٠٠ق. م. عندما كانت اللغة السومرية قد أصبحت لغة ميتة. هذا الحصاد الوفير قلب راسا على عقب المفاهيم التاريخية التي كانت مقبولة حتى الآن حول تاريخ الشرق الادنى وهذه السلالة التي ضاع ذكرها من النصوص التاريخية المعروفة حتى اليوم ربما تكون قد سيطرت في وقت ما على المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين منطقة ما بين النهرين منطلقة من افكار جديدة، من الراجح أن الملوك الأكاديين وغيرهم تبنوا هذه الأفكار بعدهم.

وماذا حدث بعد هذا الكشف:

إن أهمية الرُقم المسمارية المكتشفة، وخاصة من حيث كميتها وظهورها دفعة واحدة تقريبا، كان أمراً فيه إثارة فريدة. وزاد في هذه الاثارة أن عضو البعثة السابق جيوفاتي بتيناتو، أخذ عن سذاجة أو عن خبث يذكر أن هذه الرقم تحوي كل شيء. وما يُسأل عن موقع أو مدينة أو اسم إلا ويقربه من بعض محتويات رقم ابلا. وذلك سهل لأن الاشارات والرموز المسمارية تحتمل تأويلات كثيرة، كما هو معروف. وكان عيب بيتناتو انه لا يقدم صورة للنصوص أو نسخا لها فيسهل بذلك مهمة التوراثيين الذين أوقعوه في حبائلهم عند زيارته للولايات المتحدة فأخذ يردد أن كثيرا من الأسماء الواردة في التوراة موجودة في نصوص ابلا. وتبنت اتجاهات صهيونية واضحة في صحافة شبه علمية، بالولايات المتحدة خاصة، حمل الأمر محمل الجد. وخاصة مجلة «الاثارى التوراني» التي يديرها الصهيوني الأميركي دافيد نويل فريدمان الذي نسج قصة علاقة ابلا بالعبرانيين من نسيج العنكبوت بضع سنوات قبل أن يبدأ بالانسحاب والتنصل.


□ تل مرديخ — إبلا — منظر عام للتل بعد الحفريات.

بعد الأوساط التوراتية المتصهينة ولجت صحافة سياسية بموضوع ابلا، بسوء نية أو على سبيل الطرافة والاثارة، وتلك الصحافة معروفة الاتجاه كالتايم والنيوزويك والديلي تيليغراف والايكونومست وقائمة طويلة من الصحف الأقل أهمية أو الأقل ضلوعا.

وخلاصة ما أوردته هذه الصحف أن حدث كشف ابلا هو حدث فريد في التاريخ لا يضاهيه حدث، وان لغة ابلا قريبة من العبرية، وان نصوص ابلا فيها أسماء أعلام وأسماء مدن توراتية، وان نصوص ابلا تؤكد صحة التوراة الحالية كمصدر تاريخي، وعلى هذا فان من المحتمل، في رأيهم، أن يكون أصل العبرانيين من ابلا. وهذه التخرُّصات رفضها العالم العلمي جملة وتفصيلا كما سوف نرى، ولكن الخطر ان هذه المقالات الرخصية كانت تتهم سورية ظلما وعدوانا بعدم الرغبة بنشر هذه الوثائق. وكان المبرز في هذا المجال الديلي تليغراف (عدد ٢٤ نيسان ١٩٧٩).

أما ان ما تحقق في تل مرديخ من كشف فريد لا يضاهيه كشف أثري في التاريخ فلا شك أن فيه كثيرا من المبالغة. ان الكشف فريد ولا شك ولعله أهم كشف في الخمسين سنة الأخيرة. ولكن يجب أن لا ننسى أن كشوفا مماثلة تحققت في القطر العربي السوري برأس الشمرة وتل الحريري وكانت في حينها أكثر دويا.

أما ان لغة ابلا شبيهة بالعبرية فالسؤال ما هي اللغة العبرية؟ ليس في دنيا المؤرخين واللغويين من يجهل أن العبرية لهجة كنعانية كتبت بخط كنعاني (فينيقي) ثم بخط آرامي. وان العبرانيين تكلموا الكنعانية وهي لغة البلاد التي تسربوا إليها، فلا يكون، إذن، التقريب من العبرية إلا للتضليل وسوء النية.

أما ان نصوص ابلا أسماء أعلام شبيهة بما في التوراة، فالأمر من البداهة بحيث لا يحتاج إلى إيضاح فهذه الأسماء، كانت منتشرة في المنطقة انتشارا كبيرا في ابلا وغيرها وفي الرافدين وهي في جلها أسماء كنعانية مركبة، مع «إيل» أي الاله وترجمتها بسيطة فاسرائيل تعني (عبدالله)، واسماعيل تعني (الله يسمع)، ومن الأسماء ما هو مصري كاسم موسى وهناك أسماء حورية وغيرها ولا مجال للتوسع هنا فيها.

هذا وان ابلا سابقة لورود العبرانيين بألف عام. بل ليس في نظام الحكم بابلا ولا في تسلسل سلالتها الملكية ولا في نظامها السياسي والاجتماعي ولا في نشاطها الاقتصادي ولا في معبوداتها وديانتها وطقوسها علاقة أو شبه علاقة ولا بشكل من الأشكال بالعبرانيين، الذين كانوا عندما قدموا بداة رحلا يجوبون الآفاق مع عيالهم ودوابهم وحسب قول ويلز (موجز تاريخ العالم، ص ٩٢) «**ولم يكونوا موحدين ولا متمدنين وليس لهم كتاب يقرأونه**»، فأين هم من الابليين الذين كانت مدينتهم، حسب تعبير باولو ماتييه، تدل على أصالة في الخصائص الفنية والمعمارية وفي المفاهيم الاجتماعية.

إننا أصبحنا نعرف علماء الآثار التوراتيين فعند كل اكتشاف أثري تهتز أعطافهم ويحملون توراتهم تحت آباطهم (حسب تعبير العالم الهولندي أشير فرنكن) ويقولون ان هذا مذكور هنا ثم يقلبون صفحاتهم كأنهم يراجعون «الدليل الأزرق». ان التوراة التي يحملها اليهود حاليا وتتشبث بها خاصة مدرسة البرايت الأثرية الصهيونية هي، أي التوراة، من تأليف اليهود في سبيهم ببابل خلال القرن الخامس أو القرن الرابع قبل الميلاد. وتلك بديهية موجودة في كل الكتب التي تعلم التاريخ ويعرفها حتى تلاميذ المدارس الثانوية. وبديهي أن هذه التوراة التي وضعها اليهود في بابل وشنعوا فيها على ملوكهم وأنبيائهم واعترفوا فيها باغتصاب الأرض وقتل الشعب قد جمعوا في أسفارها أيضا كل ما تعلموه في الوسط الكنعاني والوسط البابلي من قصة الخليقة إلى الطوفان إلى أسطورة كيريت واسطورة ولادة سرجون. الخ. باختصار أن الأثر الكنعاني والبابلي والمصري على توراة بابل شيء معروف لا يطمسه إلا الصهاينة ومن يخدم أهدافهم السياسية.

العلم يحسم الموقف:

وإزاء حملة الافتراء التي سعت لتشويه الموقف المنفتح الذي تقفة السلطات المختصة في سورية مع البعثات الأثرية الأجنبية المرخصة بالتنقيب في أراضيها ونظراً للسطحية والتفاهة

اللتين عولج بهما موضوع رقم ابلا، رأينا في المديرية العامة للآثار والمتاحف وبالاتفاق مع البعثة الأثرية الايطالية العاملة في تل مرديخ ومع جامعة روما أن نفتح ملف ابلا على الملأ.

وسعيا وراء وضع نتائج قراءة رقم ابلا تحت تصرف الأوساط العلمية في العالم بأسرع ما يمكن، وجهت الدعوة إلى الاختصاصيين في قراءة الكتابات المسمارية ـ السومرية ـ الأكادية في العالم. وألفت عام ١٩٧٨ لجنة دولية تضم العدد الأكبر من خيرة الاختصاصيين العالميين.

عقد هؤلاء اجتماعات بدمشق وروما ونظموا عملهم بشكل جيد وهم يعكفون الآن على دراسات الرقم المسمارية المكتشفة في تل مرديخ/ ابلا، كل حسب اهتمامه. وصدرت اعتبارا من العام (١٩٨١) أول دراساتهم المفصلة باسم (**نصوص محفوظات ابلا الملكية**). كما تصدر البعثة الايطالية من جامعة روما دراسات ومقالات حول مواضيع لغوية وأثرية وتاريخية تفصيلية خاصة بابلا، وذلك في مجموعتين الأولى تسمى «**حوليات ابلا ـ Annabi di Ebla**» والثانية «**دراسات إبلية ـ Studi Eblaiti**».

وفي مايو ١٩٨١، عقدت جامعة روما بين السابع والعشرين والتاسع والعشرين منه ندوة عالمية حول مكتشفات تل مرديخ/ ابلا اشترك فيها عدد كبير من علماء اللغات القديمة والآثار وأسهمنا بها شخصيا. وكان عدد البحوث التي القيت خلال هذه الندوة كبيرا أربى على الثلاثين. وكانت بحوثا منهجية وعميقة لا تراعي في الحق لومة لائم، وضعت مسألة ابلا ومكتشفاتها في مسارها الصحيح وأعطت ردا علميا جذريا على التخرصات التي سعت لترويجها عند اكتشاف محفوظات ابلا أوساط تورائية مشبوهة بعلاقتها الوثيقة بالصهيونية. وكان في حصيلة أعمال الندوة إجماع على أن أبلا لا علاقة بها من قريب أو بعيد، ولا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون ولا بشكل تقريبي ولا بأي وجه من الوجوه، بالعبرانيين أو التوراة أو قضاة العبرانيين أو ملوكهم.

ان العالم العلمي ليسخر الآن من ذلك العبث اللاعلمي الذي راج في بعض الأوساط الجاهلة بألف باء التاريخ، حتى ان كل الذين قادوا حملة التشويه والتشويش أخذوا يحاولون التنصل منها. لقد كان لتلك الحملة أركان ثلاثة وكلهم من بيئة كهنوتية تورائية:

الأول القس دافيد نويل فريدمان رئيس تحرير مجلة «الاثاري التورائي» السابق في الولايات المتحدة الأميركية والثاني الأب ميتشل داهود رئيس قسم المعهد التورائي بروما. والثالث طبعاً هو جيوفاني بيتيناتو لغوي البعثة الايطالية سابقا الذي ارتكز عليه الآخران.

لقد اعترف الأول (أي فريدمان) في مقال جديد له بأنه كان يعتمد في استنتاجاته على تصريحات شفهية كان يقولها له جيوفاني بيتيناتو أو ينقلها له ميتشل داهود. وأن الأخير أعلمه مؤخرا أن بيتيناتو اعترف بأنه أخطأ بقراءة عدد من الأسماء التي كان قربها من بعض أسماء المدن التورائية، وعلى هذا فهو يتنصل منها. وقال فريدمان أيضا في افتتاحية العدد المذكور من المجلة بما يشبه التراجع: «**لقد كانت محتوياتها (أي رقم ابلا) موضع صراع ومصدر توهمات وادعاءات معاكسة**». كما يقول في صدد المقالة المعتدلة عن ابلا التي كتبها العالم روبرت بيغس في العدد المذكور من المجلة:

«**انها حكم معتدل يجد طريقه بوضوح بين زوابع الاثارة الرخيصة وصخور الشك المفرط**».

أما ميتشل داهود (الذي توفي في العام الماضي) فيقول في رسالة كتبها لفريدمان تعليقا على مقال له نشره في مجلة «الاثاري التورائي» نفسها:

«**عندما كنت في الولايات المتحدة سمعت أن ثوركيلد جاكوبسون يشك في قراءة بيتيناتو لنصوص ابلا، وتلك الشكوك عززها تطور معرفتنا بمقاطع الكتابة الابلية**».

أما جيوفاني بيتيناتو نفسه فقد أصدر تصريحا عممه على العالم وكان قد نشر في صحافتنا المحلية قال فيه:

«**أما عن الصلات المزعومة مع نص التوراة فاني أشعر أن من واجبي أن أوضح بصورة**

نهائية أن الأنباء التي نشرتها الصحافة وجاءت في بعض مداخلات زملائنا فيما وراء البحار قد ابرزت اتجاها وخطرا، من واجبي لا أن اتنصل منهما فحسب بل ان احذر منهما الاختصاصيين».

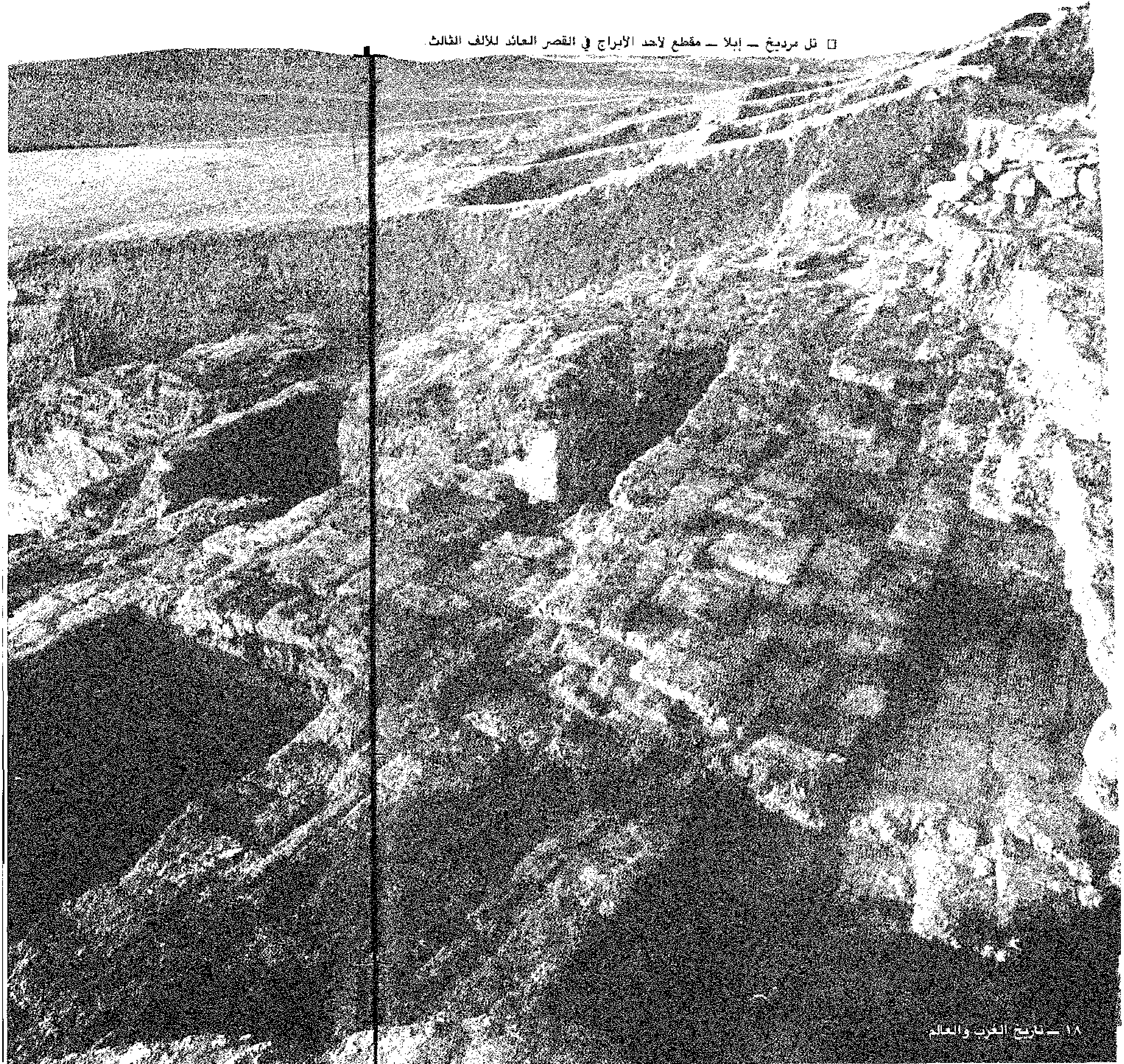
ومنذ أكثر من عام وحتى الآن ظهرت بحوث ومقالات عديدة جديدة في الصحافة العالمية تتصف بالموضوعية وتشهد على انحسار موجة الدجل، نذكر منها مقالا في مجلة (ساينس) الأمريكية، ومقابلة مع جيورجيو بوتشيلاتي وزوجته في مجلة «ميلووكي سانتيل» الاميركية، ومقابلة مع باولو ماتييه في مجلة «ايستوار» الفرنسية، ومقالا في مجلة «جيو» الألمانية الغربية.

وثمة مقال منصف لايفون ريبيرول في جريدة «لوموند» الفرنسية يمثل هذا الاتجاه الجديد حيث تقول الكاتبة خاتمة بحثها:

«ان التفسيرات الركيكة والمتسرعة (للنصوص) قد أوهمت البعض بقراءة اسم سودوم وعمورا المذكورتين في سفر الخليقة (من التوراة). كما تردد انه تم الوقوع ولو بشكل مشوه على اسماء ابراهيم وداوود... ان الاختصاصيين في اللغات السامية سرعان ما ابطلوا هذه «الاكتشافات» المزعومة وبينوا أن لغة ابلا بعيدة جدا عن العبرية وان داوود متاخر اكثر من الف عام عن ابلا». وتتابع كاتبة المقال قائلة:

«ان هذه «الاكتشافات» المزعومة كانت كافية لتثير في الصحافة الأميركية حملة لا تصدق نشرت عنها المجلة الأميركية «ساينس» في ٣١ آب ١٩٧٩ سردا جيدا لهذه القصة. وبعد أن تذكر الكاتبة الاتهامات الظالمة التي الرُقم ت لسورية والسوريين تقول: **«والآن ان كل الرقم (المكتشفة في ابلا) وحتى اجزاء الرقم التي لها بعض الاهمية قد تم التعرف إلى محتواها وسجلها قيد النشر باشراف البعثة الايطالية واللجنة الدولية... وحاليا كل مكتشفات ابلا ورقمها موجودة في متحف حلب. الأولى معروضة للناس والثانية تحت تصرف الاختصاصيين القادرين على دراستها، كما أن صورها قد نشرت بشكل واسع».** ●

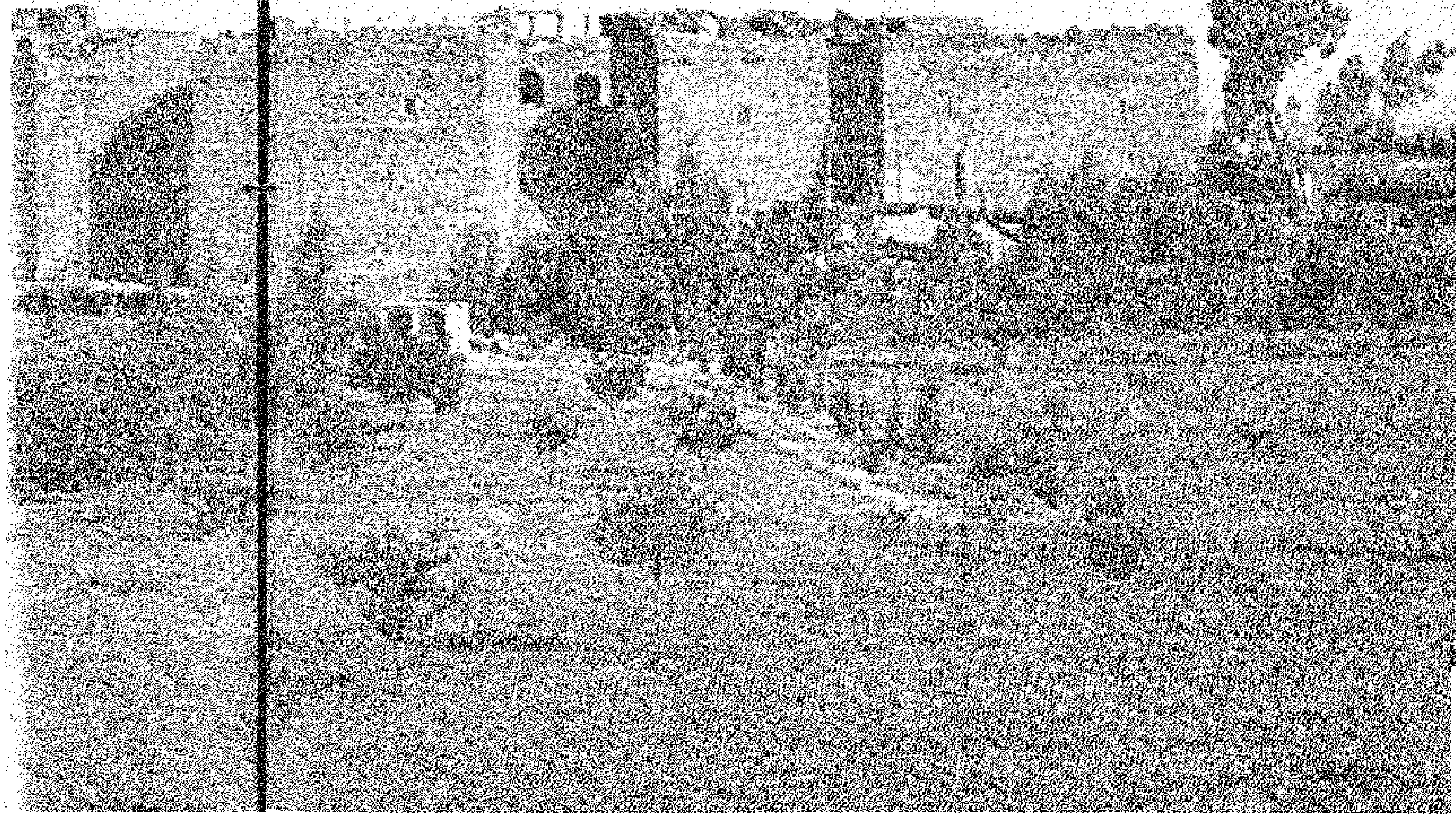
□ تل مرديخ ــ إبلا ــ مقطع لاحد الابراج في القصر العائد للألف الثالث.



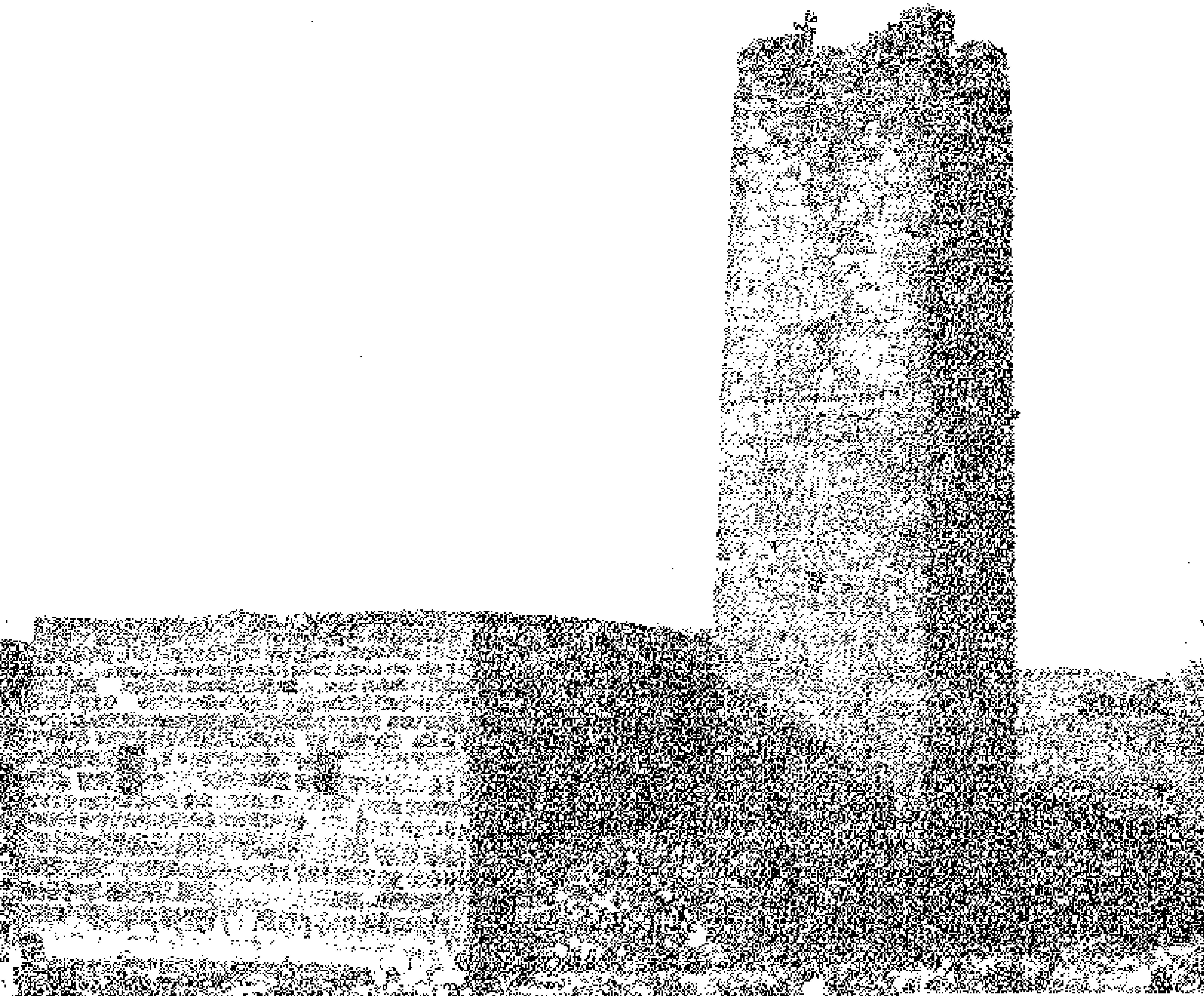
بصرى

الشاهد بآثارها على مراحل التاريخ

د. رياض العالي



□ الجانب الشرقي ومدخل المسرح وقد حول إلى قلعة.



□ منظر عام لمسجد الخضر.

لبصرى تاريخ طويل حافل، يرجع إلى ما قبل الإسلام. وآثارها ما تزال شاهدا على ما شهدته من تقلبات الأحداث، وتداول الدول. ولعل أروع ما فيها المسرح الروماني الذي استعاد بعض ماضيه، إذ رمم، وغدا ملتقى فنيا يدوم شهرا كل عام، تقريبا، تعرض فيه المسرحيات وتعزف السمفونيات، ويؤمه زوار الآثار من كل أطراف العالم. فقد بني على نحو يصل فيه الصوت من آخر المسرح إلى أعلى وأبعد مقصورة في الاطار الضخم من المقاصير والمدرجات، المحيطة بالمسرح.

□ د. رياض العالي: باحث في التاريخ والثقافة العربية



كانت بصرى محطة على طريق القوافل قبل الإسلام وبعده. تؤمها من الشام باتجاه الحجاز، أو من الحجاز باتجاه الشام، ويجد فيها المسافرون الراحة بعد عناء، والطمأنينة بعد سفر قلق طويل.

ومن المعروف لدى المؤرخين أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، مر بها أكثر من مرة، يوم كان يسافر مع عمه في القوافل الحجازية، ثم يوم تولى تجارة خديجة رضي الله عنها، زوجته الأولى.

اليوم بصرى مجموعة من البيوت المبنية من حجر البازلت، المبعثرة بين الكروم وحقول القمح، وسط سهول حوران البركانية.

ولبصرى تاريخ مشهود في الحروب، على مر العصور. فألواح تل العمارنة تذكر أن بصرى بين المدن القليلة التي ثارت ضد فرعون. وقد غدت في القرن الأول الميلادي أبرز مركز في شمال مملكة النبط الغنية. وجعلها الرومان، مطلع القرن الثاني، عاصمة الامارة العربية الرومانية

الحديثة، ومقر الجيش الثالث. لذلك زودوها بالمعابد، والشوارع ذات الأعمدة، والأبواب الضخمة، وبقوس نصر تعتبر بقاياه من تحف الآثار السورية اليوم.

وحين أصبح الرومان مسيحيين في القرن الثالث جعلوا من بصرى مقر البطريركية، ومركزاً هاما من مراكز التبشير والنقاش حول الدين. وقد زارها القرطاجي المشهور «أوريجين»، إذ اجتذبه الحوار الديني الذي اشتهر فيها. غير أن هذا الحوار تحول مع الأيام حتى غدا في القرن السادس سبب اقتتال عنيف بين اليعاقبة والنساطرة. وقد بنى اليعاقبة، بعد انتصارهم كاتدرائية ضخمة ثمانية الأضلاع، شبيهة بتلك التي كانت مبنية في شمال سوريا، وكنيسة القديسة صوفيا (أصبحت مسجد اياصوفيا) في القسطنطينية.

في هذه الفترة تحالف اليعاقبة مع الساسانيين، اتقاء هجماء البيزنطيين النساطرة، الذين طردوا من بيزنطة كل يعقوبي.

الفتح العربي:

بعد ثلاث سنوات من انتقال النبي «صلعم» سنة ٦٣٥م، كانت بصرى أولى المدن التي افتتحها العرب المسلمون. ولكنهم افتتحوها سلما، فبطريرك بصرى فتح الأبواب أمام الجيش العربي، وقد اهتدى إلى الاسلام، وانتقلت إلى بصرى جموع من القبائل واستقرت فيها، لأنها ستكون مركزا حربيا، وموقعا استراتيجيا هاما. والواقع أنها كانت قبل ذلك تابعة لامارة الغساسنة في دمشق، وقد وقف الغساسنة المسيحيون إلى جانب العرب المسلمين، في معركة اليرموك الشهيرة بين العرب والروم، مما دعم قدرات الجيش العربي على طرد الروم من ارض العرب.

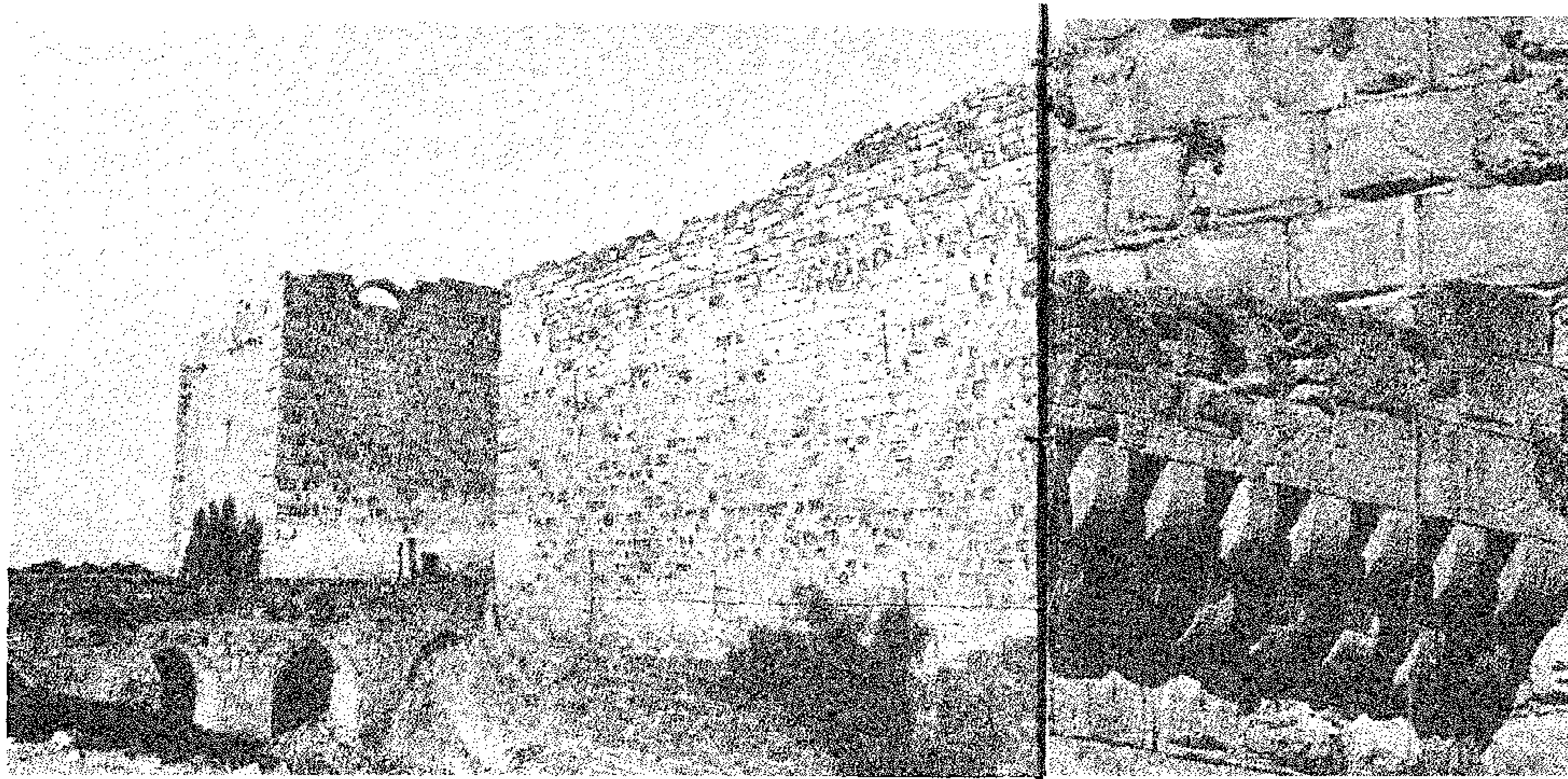
وحين جعل الأمويون دمشق عاصمتهم، أصبحت بصرى تابعة إداريا وحربيا للعاصمة.

أول مصلى:

تطلعنا بقايا الآثار العربية في بصرى على تاريخ تلك الحقبة، بما فيها من شواهد قيمة. فمن جهة نعرف أنها كانت ملتقى الطرق التجارية، ومحطة أساسية على طريق الحج، ونقطة استراتيجية خاصة في الحروب الصليبية.

في هذه المدينة التي تكاد تكون اليوم قرية، ستة وثلاثون جامعا أثريا. إذ كانت الحكومات المتعاقبة تتنافس في بناء الجوامع فيها. ولعل أول مصلًى[ويقال إنه مزار]، في القسم الشمالي من البلاد العربية، بني فيها. وهو ما يزال عند الزاوية الشمالية، لصيقا بالاسوار. ويدعى «مبرك الناقة» يستحضر هذا الاسم إلى الأذهان حادثتين: الأولى أن ناقة النبي (صلعم) بركت في ذلك المكان. والثانية أن الناقة التي كانت تحمل إلى سوريا أول نسخة من القرآن الكريم، أيام الخليفة الثالث، بركت هناك.

والمصلى مكون من غرفتين بسيطتين منفصلتين بقوس منكسرة قليلا، ومرتكزة على أعمدة من حجر البازلت، ويقوم تحتها أول محراب بني في سوريا، اتجاهه صوب مكة المكرمة، قبلة الحج.



□ استحكامات الجهة الشمالية من القلعة.

□ الجسر المتحرك الأيوبي الذي يقود إلى باب القلعة في البرج الشمالي ــ الغربي.

والمحراب مزين بالصدف، وما تزال فيه كتابة ترجع إلى العهد الأموي، وتذكر بعبور النبي (صلعم) في بصرى: «هذا المحراب مصلى النبي صلى الله عليه وسلم».

ثم بني، بعد زمن من ذاك، جامع ومدرسة، والحقا بالمصلى، الذي بات محجا عزيزا على قلوب المسلمين.

الجامع العمري:

في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي، بدىء ببناء أول جامع أموي في بصرى. وقد بني على شاكلة مسجد الرسول الكريم في المدينة المنورة. فهو عبارة عن قاعة مسقوفة، تنفتح على ساحة، يحيط بها سور تخللته عدة أبواب. أما تقنية البناء فهي بصراوية، فكل المبنى من البازلت، حتى السقوف والأدراج والأبواب، ويخلو تماما من الخشب.

إنه الجامع العمري الذي يعزى تأسيسه إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان يضم قاعة مستطيلة للصلاة، يرتكز إلى عمود أساسي، أعلى من الأعمدة الأخرى الجانبية، وثمة قنطرتان مرتكزتان إلى الأعمدة، تنفتح الأولى على الساحة التي تحد الفراغين المسقوفين اللصيقين بالقاعة. يحيط بجناحي القاعة رواق مزدوج، ذو أعمدة. أما سقف القاعة والرواقين، فمكون من صفائح حجرية تستند إلى قناطر من البازلت، بواسطة أعمدة افقية. ومصاريع الأبواب عبارة عن قطع حجرية بازلتية ضخمة. تدور بواسطة بروزين في طرفيها الأسفل والأعلى، داخلين في ثقبين في العتبتين العليا والسفلى. أما السلم فمن حجر البازلت، وهي تقود إلى السطح حيث كان المؤذن يؤذن. وهي عبارة عن حجارة بارزة من الجدار إلى خارجه.

في العهد السلجوقي اضيف إلى الجامع رواق

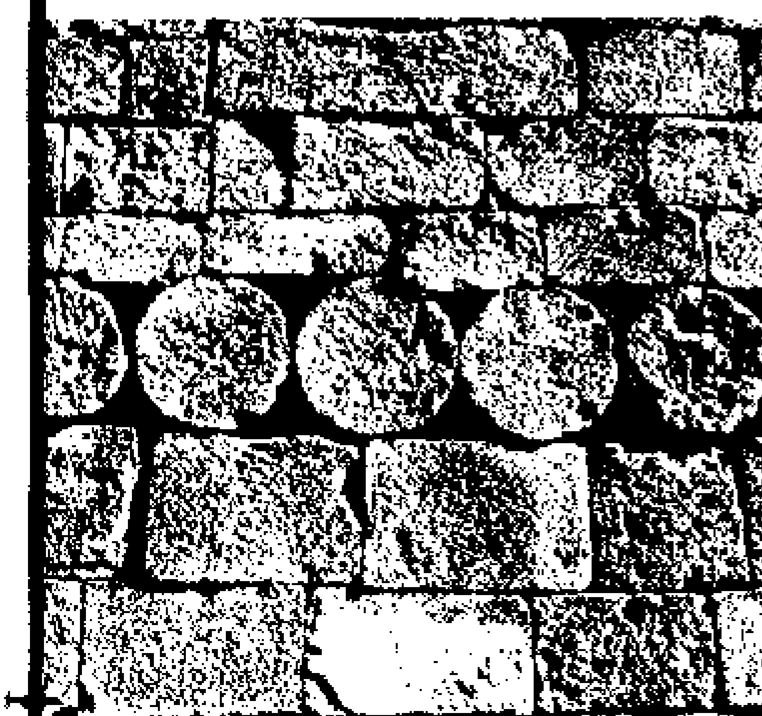
□ مخطط مدينة بصرى.

١ ديربحيرا.
٢ كنيسة بيزنطية.
٣ جامع المبرك ومدرسته ومقبرته.
٤ الجامع العمري.
٥ مسجد الخضر.
٦ القلعة العربية حول المسرح.
٧ مدرسة ابي الفدا (او الدباغة) ومستودع المياه الكبير.
٨ الحمام الايوبي.
٩ الباب الغربي.
١٠ الباب النبطي.
١١ الديكومانوس الروماني.
١٢ حمامات رومانية.
١٣ الاسواق القديمة.
١٤ الاسوار.

□ منظر عام جوي لبصرى.

آخر، في الجهة الشمالية من الساحة، وزود بمنارة مربعة، فيها فتحات صغيرة. ثم أضيف رواق خارجي في الجهة الشرقية، والجامع، رغم كل ما أضيف إليه، والاصلاحات التي أجريت عليه، والتعديلات المختلفة، ما يزال يحتفظ بوجهه الأصيل.

وتعود إلى العهد الأموي كذلك الحصون التي أضيفت إلى المسرح، ليغدو مركزا حربيا. سدت في البدء مداخله ونوافذه. وقد اتخذته القبائل القيسية واليمنية معقلا وحصنا إبان صراعها. كذلك كان له شأن في الصراع الأموي — العباسي واحتل القرامطة بصرى فترة من الزمن. ودخلت في حوزة الفاطميين فترة أخرى.



□ أعمدة متداخلة مع حجارة الجدار لتدعيمها. وهي من الطراز الأيوبي، الذي يشاهد في بناء الأبراج.

السلجوقيون يبنون مدرسة:

حوالي القرن الحادي عشر الميلادي، دخلت بصرى في حكم السلجوقيين. عام ١١٣٦ بنى كمشتكين، والي بصرى مدرسة ملحقة بمصلى المبرك، وسماها مدرسة المبرك. وهي مبنية على نحو دائري، حول ساحة وسطى مربعة، عليها قبة، لم تبق منها إلا الآثار. في طرفها الجنوبي قاعة للصلاة، وفي الطرفين الشرقي والغربي إيوانان كبيران وفي الطرف الشمالي فسحة واسعة، تنفتح مع قاعة الصلاة على الساحة الوسطى، بواجهة لها ثلاثة أبواب واسعة، أحدها أكبر من الآخرين، وكلها على شكل قناطر، تقطعها عند قطرها عتبة، ويحد الايوانيين قوسان، يستندان إلى أعمدة ضخمة. والطراز المعماري الحوراني واضح في كل ذلك.

إلى الجنوب الغربي من المصلى الأموي، منارة مربعة، اضيفت إلى مجموع البناء، ورفعت بحجارة البازلت، وزينت بنقوش، هي عبارة عن زهور وزخارف عربية، لم يبق منها إلا آثار قليلة.

جامع الخضر:

ولم يقتصر عمل كمشتكين على بناء المدرسة، فقد أعاد بناء مسجد الخضر. وهو قائم في شمال غرب المدينة، قرب نبع — يستظل شجرة قديمة جدا يقدرها ويكبرها البصراويون.

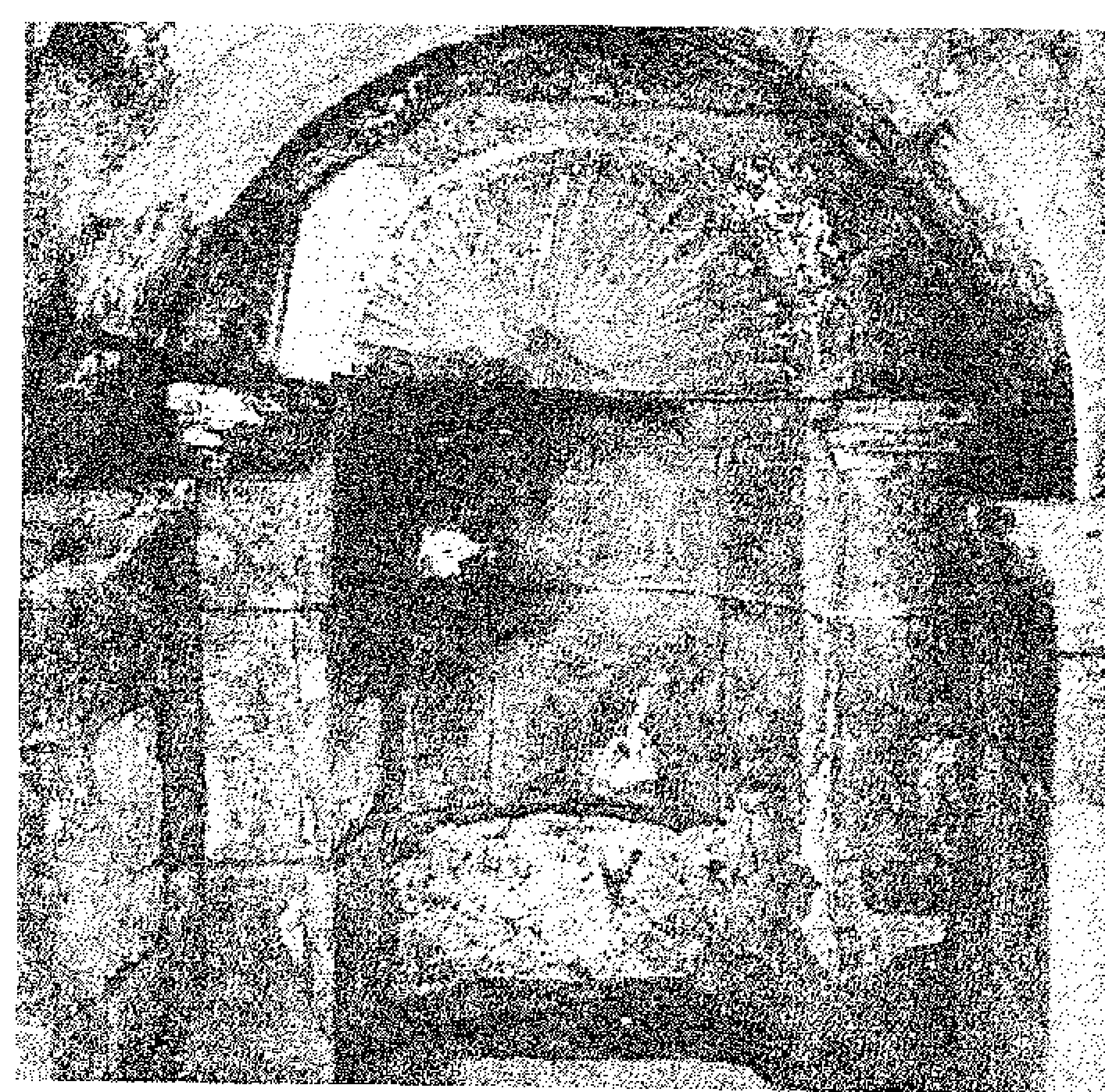
ينفتح المسجد على ساحة تحيط بها جدران بازلتية، رصفت دون بلاط، تاركة المجال لتسرب النور عبر فتحاتها، وثمة باب مصراعاه من البازلت، ينفذ إلى ساحة ثانية، مبلطة بالبازلت، تظللها أشجار التوت والتين. مقاييس قاعة الصلاة غير كبيرة ولكنها شديدة التناسق، وتطل على الساحة. وثمة فسحة مربعة، يقطعها قوسان متوازيتان، تستندان إلى أعمدة واطئة، وتحملان مسطحات السقف الحجرية. وتزين المحراب أصداف. أما المنارة فينفذ إليها عبر ممر ضيق، يقود كذلك إلى السطح.

محاولات الصليبيين احتلال بصرى:

في هذه الفترة حاول الصليبيون احتلال بصرى انطلاقا من القدس. ولكن محاولاتهم فشلت. فقد كان والي دمشق يهب بجيوشه إليها، فيرحل الصليبيون. ثم تسلم إدارتها أمير دمشق، بعد أن حاول التونتاش، واليها، تسليمها للصليبيين، لينصبوه واليا على دمشق.

كان واضحا أن بصرى ضرورية لحماية دمشق، من جهة، ولتزويدها بقمح حوران ومنتجات سهوله. لذلك قرر ولاة دمشق تحصين بصرى، فدعموا جدران المسرح — دون أن يمسوا المسرح ذاته — وبنوا برجين في الشرق

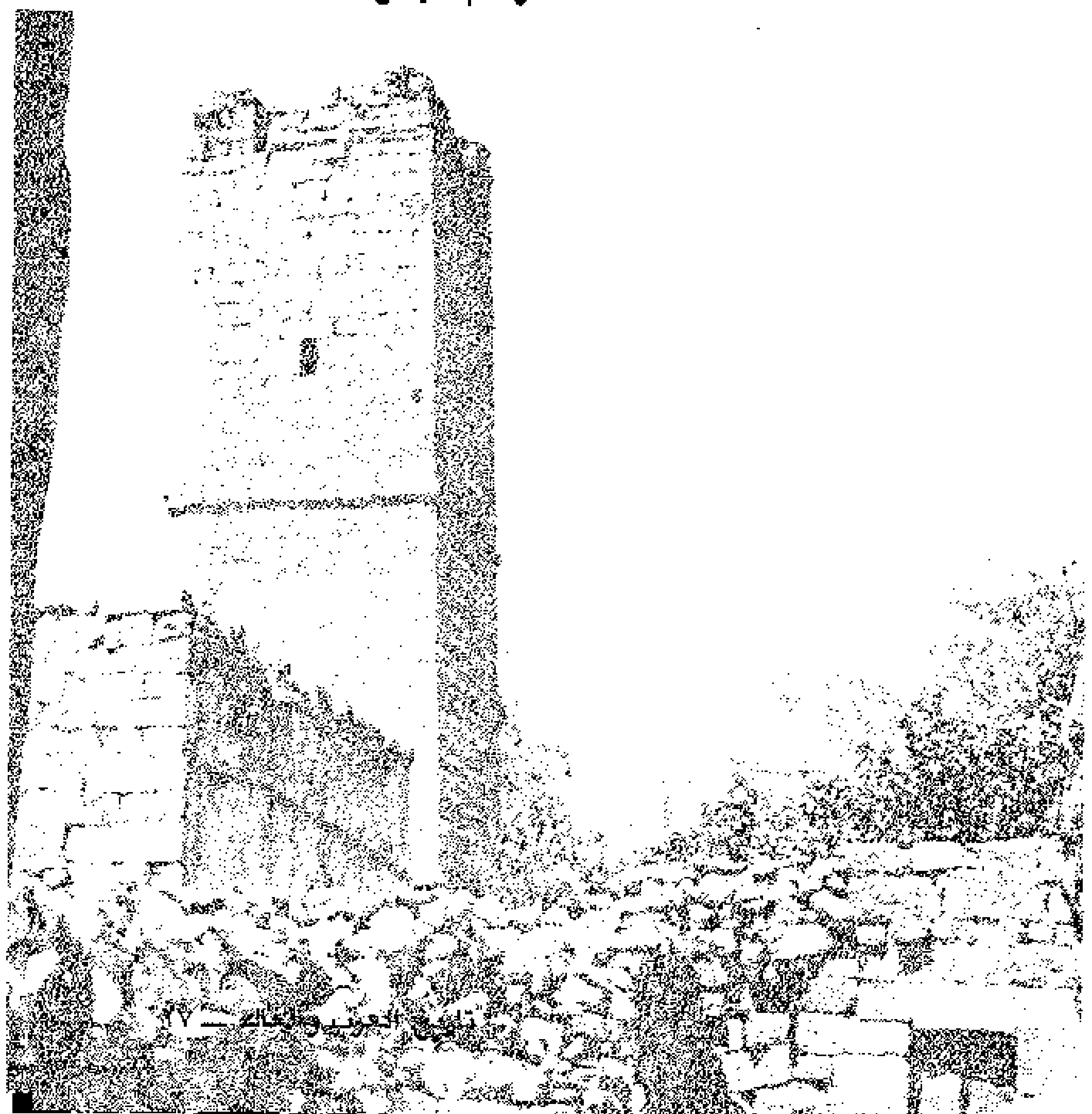
□ منظر عام لبصرى من الطائرة. وترى الابراج الضخمة.

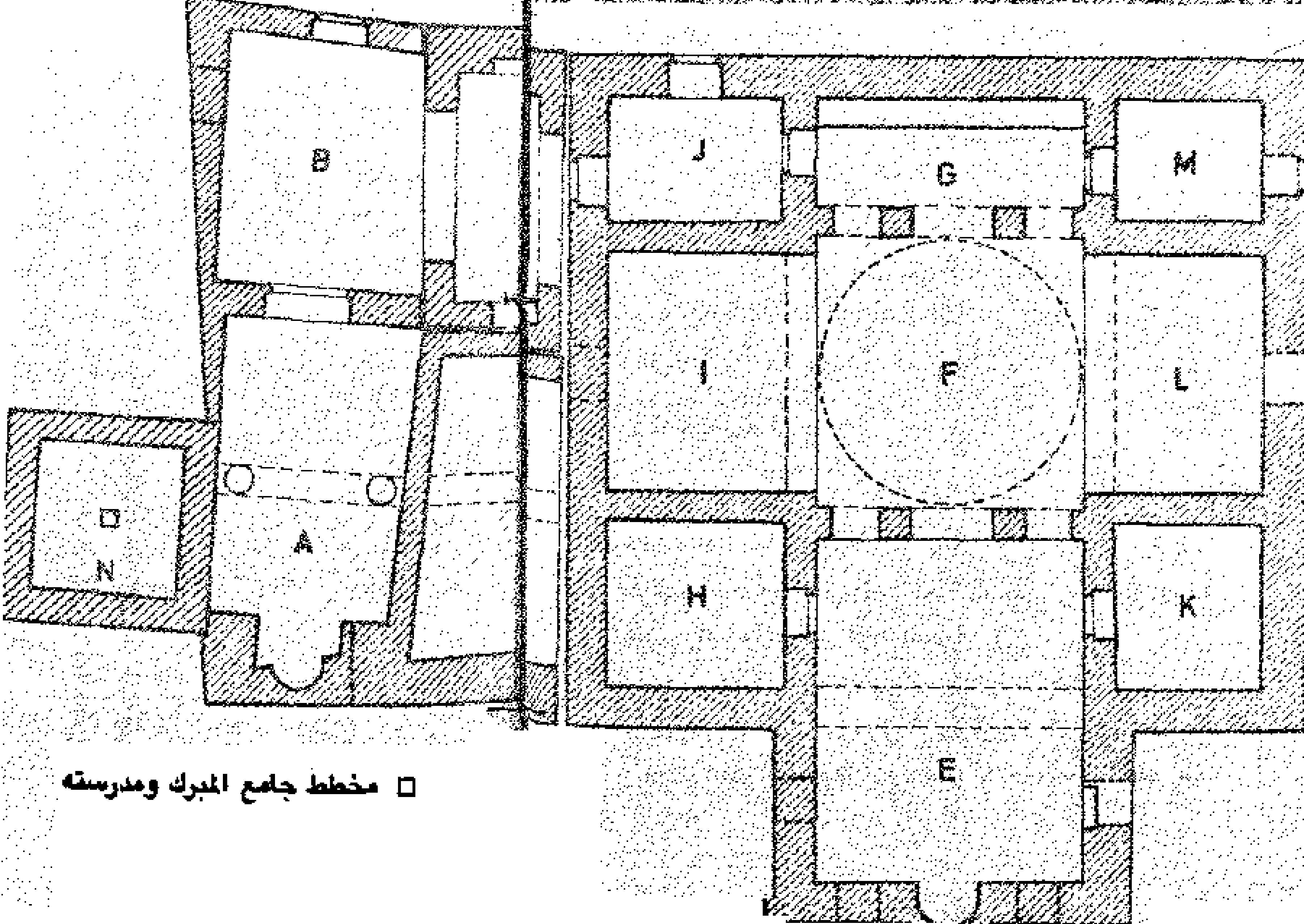


▲ □ المحراب الأموي، في مصلى المبرك.

▼ □ منظر عام للجامع الخضر وساحته

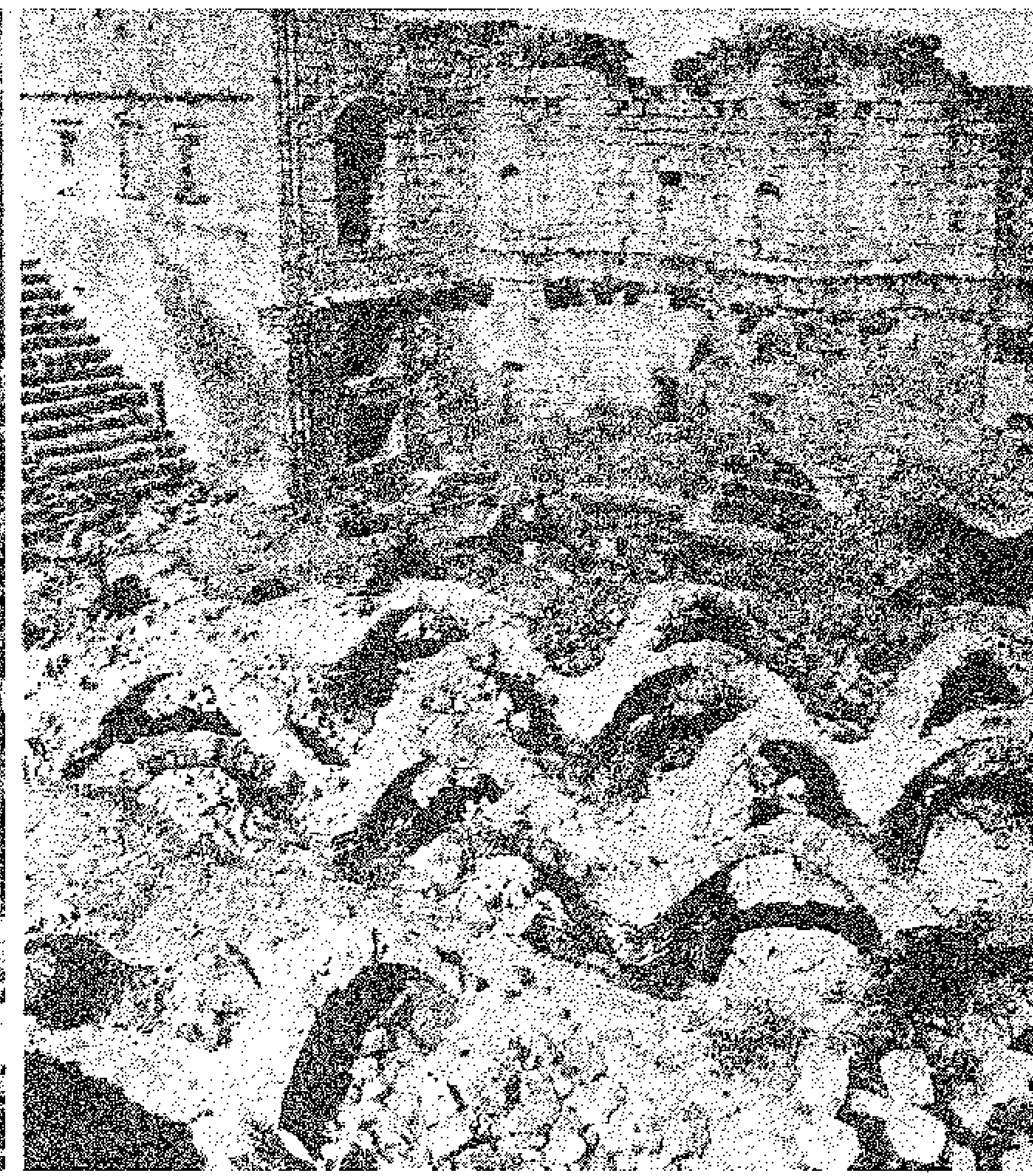
◄ □ جامع المبرك ومدرسته.





□ مخطط جامع المبرك ومدرسته





□ قباب المخازن الأيوبية. صورت قبل إزالتها.



□ المنشآت الأيوبية داخل المسرح قبل إزالتها



منذ عهد قريب.

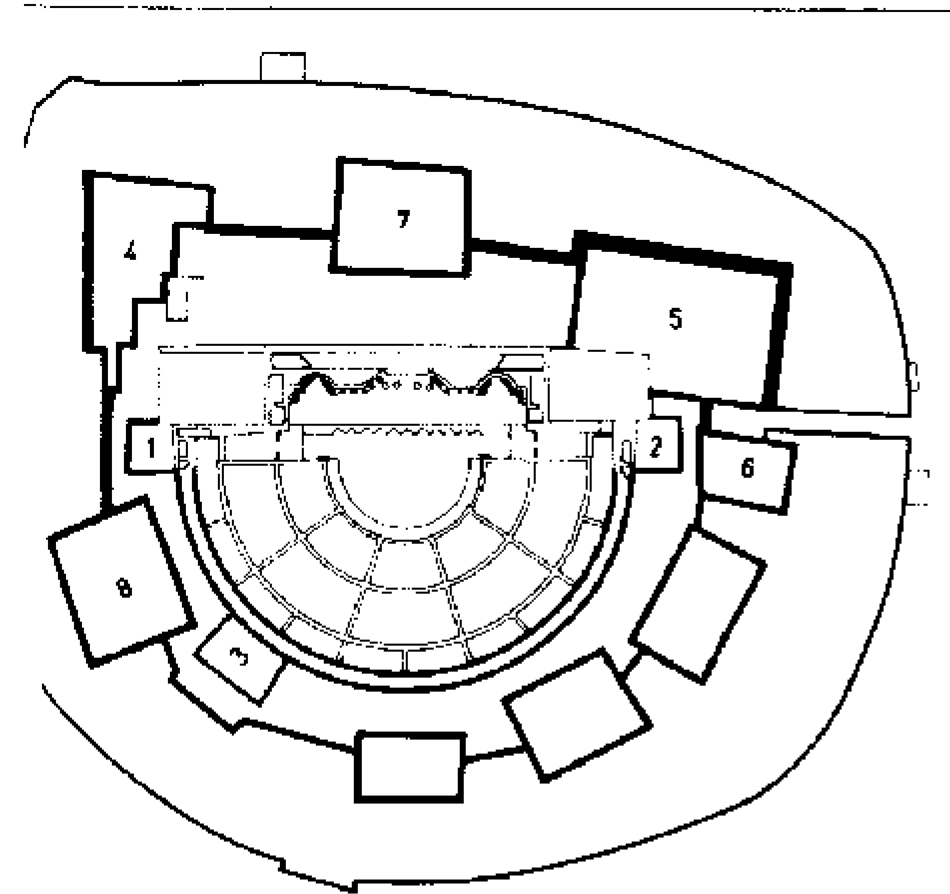


□ قاعة الصلاة المستطيلة في الجامع العمري.

والغرب. ثم بنوا برجا ثالثا، على الجناح الجنوبي الغربي من المسرح.

وفي عهد صلاح الدين، حين احتل دمشق بعد وفاة نور الدين، قدم والي بصرى إلى العاصمة، وانضم بجيشه إليه. وبدأ صلاح الدين بتدعيم بصرى، وأنهى هذا التحصين أخوه ملك الدين، فأصبح المسرح قلعة محصنة من جميع الجهات.

وقد استعان الأخوان بخيرة المهندسين، وأجروا تعديلات لم تمس جوهر البناء، وإنما حولوا المسرح إلى مستودع مياه مسقوف، يؤمن ماء الشرب خلال أي حصار، ويزود الحمام المقام إلى الشرق من المسرح. وعلى المدرجات أقيمت ثكنة وجامع، وفوقها مستودع أسلحة، هو عبارة عن قاعة كبرى مسقوفة. وخلف هذه جميعا أروقة للمرور والتحرك، يرتكز سقفها على أعمدة بازلتية.



□ مخطط القلعة المحيطة بالمسرح وترى الأبراج (١ ـ ٢ ـ ٣) السلجوقية ـ والباقية الأيوبية.

وأحيطت هذه القلعة (التي كانت المسرح) بأبنية دفاعية: ثمانية أبراج هائلة مربعة، متصلة ببعضها بممرات خاصة دائرية، مدعمة بالجدران المائلة المتينة. وأحيط كل ذلك بخندق عميق، لا يعبر عليه إلا بباب متحرك ضخم يصبح جسرا عند الحاجة، ويرفع، فيغدو جزءا من السور دونه الخندق المليء بالماء. وفوق الباب أماكن خاصة لمطلقي السهام. وأضيف إلى مجموع البناء رحى، وثلاثة مصليات.

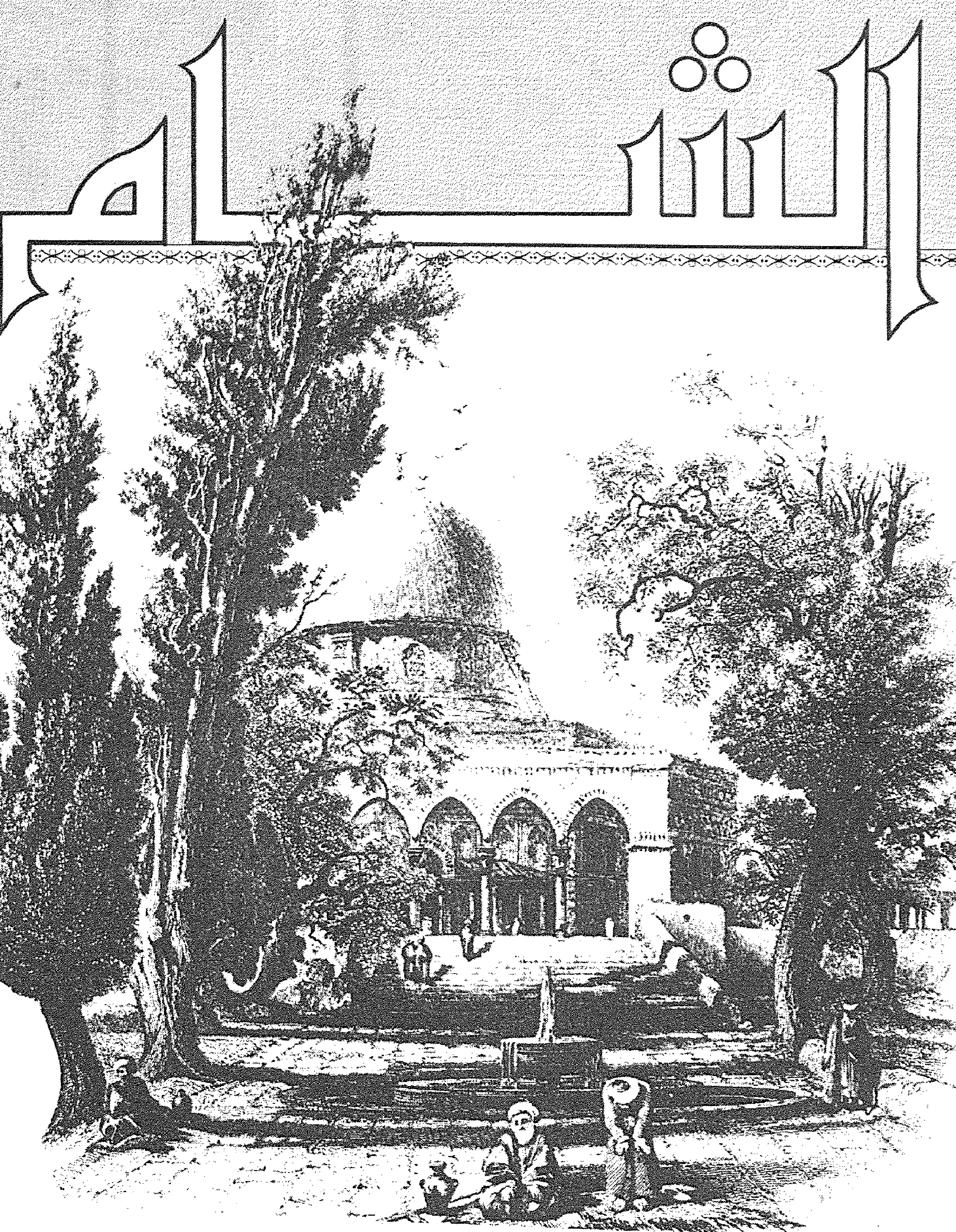
ثم دعِّم جدار الجامع العمري الشمالي بجدران سميكة جدا. وبنيت مصليات عدة، وأعيد بناء أخرى، وأنشئت مدرسة جديدة.

مرحلة الانحسار:

عام ١٢٦٠م بلغت جيوش هولاكو أسوار بصرى، ثم احتلتها ودمرتها. واستطاع الظاهر بيبرس أن يوقف زحف جيوش هولاكو، وأصبح سلطان مصر وسوريا، فأعاد بناء الحصون والقلاع في سوريا، ومنها بصرى.

ولكن بصرى في العهد المملوكي عرفت الانحدار تدريجيا، حتى فقدت قيمتها كمحطة على طريق القوافل، وكمركز تجاري ممتاز، فقد ابتعدت عنها طرق القوافل مسافة اربعين ميلا.

ورزحت بصرى تحت كاهل الاهمال والسنين، فلم تنهض ذكراها من بين الركام إلا حين قدم إليها أول الزائرين من الآثاريين، في نهاية القرن التاسع عشر. ثم توالت بعثات الدارسين، ومن ابرزها بعثة جامعة برنستون. وقام علماء معروفون، مثل كريزويل وإيكوشار وسوقاجي بأبحاث هامة في بصرى.



□ قبة الصخرة للفنان ودورد عام ١٨٧٥.

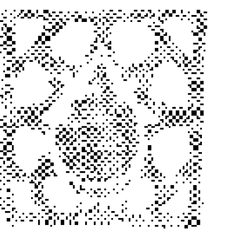
٣٠ ـــ تاريخ العرب والعالم

في صدر الإسلام
الفتح العربي - الدولة الأموية

د. محمّد مخزوم

تاريخ بلاد الشام زاخر بالأحداث الجليلة، التي يصلح كل منها ليكون نقطة بداية لمرحلة جديدة في التاريخ المحلي والعالمي، ويمتد تاريخ الشام عميقا في الزمن، فهو قد بدأ مع بداية معرفة الانسان للحياة على هذا الكوكب، وبما أن هذا التاريخ جزء لا يتجزأ من تاريخ الأمة العربية، وتاريخ العرب ولئن كان قديما، فالعرب دخلوا الباب العريض للتاريخ الانساني مع قيام الاسلام، ومع حركة الفتوحات العربية.

ودور الشام في هذه الفتوحات أنها كانت أول بلدان العروبة التي حررها العرب المسلمون، ثم كانت البلد الذي حمل الراية، وقام بأعباء الرسالة فحقق وصول رسالة العرب إلى قلب الصين وقلب أوروبة وأفريقيا، وكان هذا في العصر الأموي أزهى عصور التاريخ العربي، حيث يكفيه فخرا أنه يدعى من قبل الجميع باسم «العصر العربي» أو «عصر الدولة العربية».



المستعرض لتاريخ بلاد الشام، منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا يخرج بعدة انطباعات رئيسة حول السمات الأساسية لهذا التاريخ، تتصدرها سمة العروبة والعطاء العربي في كافة الميادين. فالعروبة صاحبت شخصية الشام ولم تتركها أبداً، على الرغم من خضوع هذه البلاد أحياناً لحكم امبراطوري خارجي؛ وفي مجريات حوادث ماضي الشام الطويل، كان للفتح العربي الاسلامي لهذه البلاد، أعظم الآثار عليها، من ذلك: تثبيت طابع العروبة فيها، وتبديل البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية. فعلى صعيد السياسة الداخلية والخارجية، تحول دور القبائل العربية من الهامش إلى الصميم، وعلى صعيد المدن، نجد قبل الفتح أن مدينة القدس كانت أهم مدن جنوبي بلاد الشام تتلوها دمشق، وأن انطاكية كانت أهم مدن الشمال وأبرزها دوراً، تتلوها قنسرين، ولكن بعد الفتح، وبسبب انتشار الاسلام، وانسلاخ البلاد عن الامبراطورية البيزنطية، وقيام الحروب الدائمة معها، ثم تأسس الخلافة الأموية في الشام، كل هذا أدى إلى تقهقر القدس حيث تقدمتها دمشق، وتخلفت في ذات الوقت مدينة بصرى، واضمحل دورها كثغر تجاري لبلاد الشام على بوابات شبه جزيرة العرب، وتأخرت انطاكية في الشمال ووصلت قنسرين إلى حالة الاحتضار، وتقدمت حلب

□ د. محمد مخزوم: الجامعة اللبنانية ــ كلية الآداب.

وتبعتها معرة النعمان. وعندما يرغب الباحث في استعراض تاريخ الشام في عصر صدر الاسلام يجد نفسه بحاجة للحديث عن وقائع حركة الفتوحات، ثم ما لحق ذلك من أحداث العصر الراشدي، فقيام الخلافة الأموية وما حققته هذه الخلافة من إنجازات.

ومع عدم الاقلال بأهمية الأحداث التي وقعت قبل قيام الخلافة الأموية، فإن الفترة الاموية هي فترة ذروة العطاء في تاريخ الشام وحتى في تاريخ العرب والاسلام.

والصلات بين عرب شبه الجزيرة قبل الاسلام وبلاد الشام كانت متينة جداً، فإلى الشام كانت إحدى رحلتي أهل مكة كل عام، وإلى الشام توجهت أنظار الرسول الكريم، فكانت قبلته ألاولى، وإليها وجه الدعاة والحملات الاولى خارج شبه الجزيرة.

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وما أن فرغ خليفته الأول من حروب الردة، حتى جهز ابو بكر الجيوش لتحرير الشام من الحكم الروماني الشرقي. ولدى التفحص الدقيق لأخبار فتوح الشام نجد خلف هذه الأخبار خطة متوازنة أخذت بعين الاعتبار الجوانب العسكرية المحصنة والجغرافية الاستراتيجية، والسياسية والبشرية، والاقتصادية، والدينية.

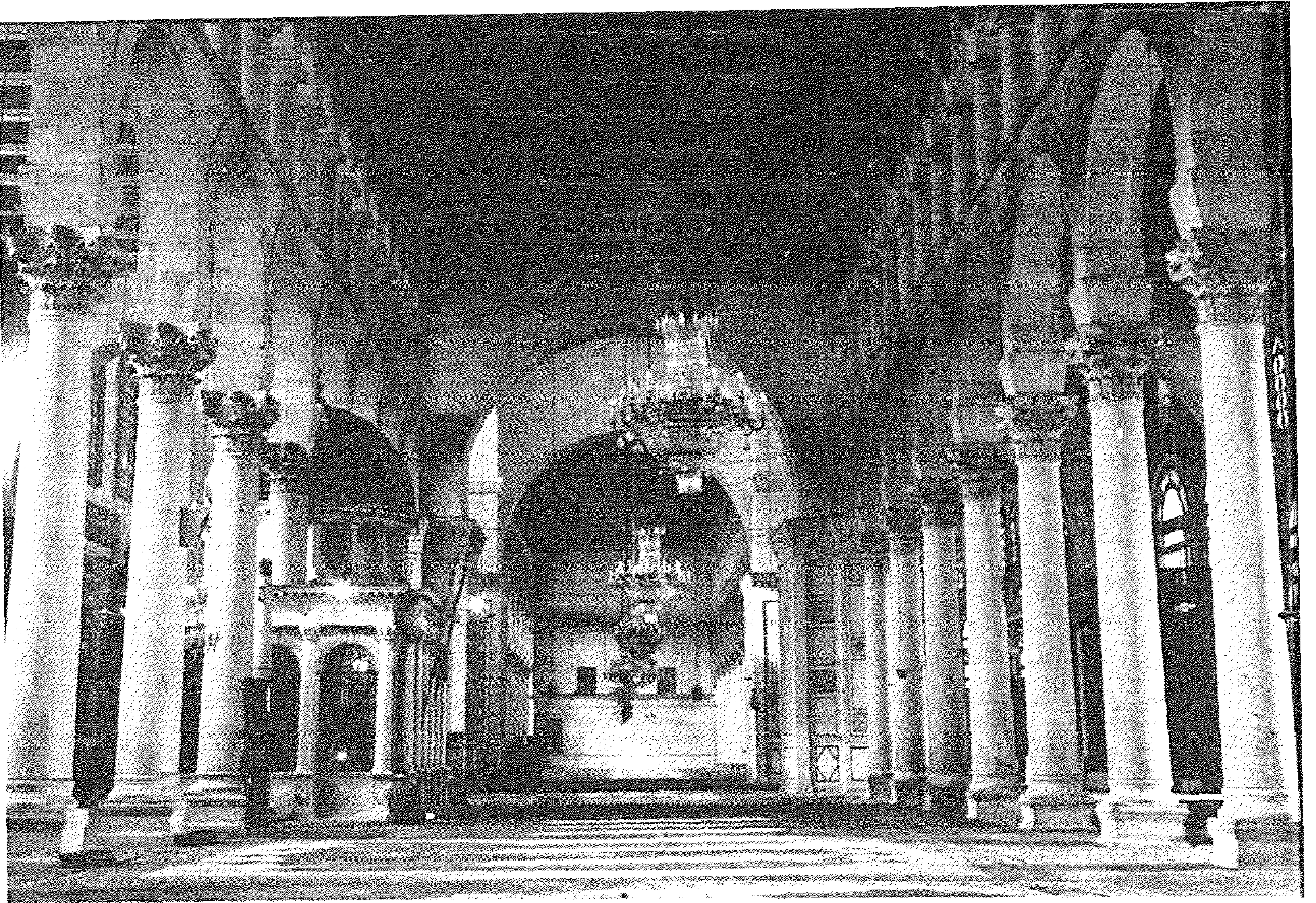
ففي سنة ١٣هـ/٦٣٤م، استنفر أبو بكر العرب في بقاع الجزيرة، وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة آلاف، ثم امدها إلى أن وصلت إلى السبعة، وجعل على راس هذه الجيوش: يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص، وارفق هذه الجيوش عدداً من مشاهير المسلمين والصحابة مثل أبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن سعيد بن العاص؛ ويبدو أن مهمة أبي عبيدة كانت العمل كضابط ارتباط وتنسيق لهذه الجيوش، وصلة وصل لها بالخلافة. ولم تتحرك هذه الجيوش كتلة واحدة، وإنما جاء تحركها على دفعات، كل دفعة ذهبت في اتجاه معين. ويرى بعض الباحثين أن سبب ذلك يعود إلى عدم وجود خطة واضحة في ذهن أبي بكر حول مهمة هذه الجيوش: أهي فتح أم غارة؟ وأن أبا بكر كان كلما وصلته قبيلة ما من قلب الجزيرة دفعها نحو بلاد الشام تخلصاً منها متيحاً لها أن تبحث عن حظها، وكان يستجيب لتطورات الأحوال.

والذي يبدو أن واقع الحال لم يكن هكذا ابداً، فأبو بكر مثله مثل بقية القرشيين كان يعرف الشام معرفة جيدة، وكان يعيش وسط آمال وخطط فتح هذه البلاد وتحريرها من سيطرة بيزنطة، وكان مما يشجع على ذلك عروبة سكان الشام، وقوة نزعاتهم الاستقلالية الوحدوية، مع ما كانت تعانيه بيزنطة من مشاكل وانقسامات سياسية وكنسية.

ولم يدفع أبو بكر القوات تخلصاً منها، إنما كان وراء ذلك خطة عسكرية واضحة تستهدف تحرير الشام أولاً، ثم متابعة الفتوحات في بقية اقطار الأرض، انطلاقاً من وضع الشام الاستراتيجي والجغرافي: فمن ساحل الشام الجنوبي يتوجه المرء إلى مصر فالشمال الافريقي فأوروبة الغربية، ومن الساحل الشمالي يتوجه نحو القسطنطينية فأوروبة الشرقية، ومن وسط الشام بالاتجاه الشمالي الشرقي نحو أعالي بلاد الرافدين فأرمينية فأجزاء كبيرة من آسيا أو إلى أوروبة الشرقية.

وحين دفع أبو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة، كان وراء ذلك خطة عسكرية قامت على العقيدة القتالية لعرب الصحراء، وقد أخذت هذه العقيدة في اعتباراتها طبيعة المقاتل العربي وأحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال وطرق القتال، وايضاً طبيعة القوات البيزنطية من كافة النواحي.

لقد جند أبو بكر قواته من قبائل الجزيرة، وأفراد هذه القبائل كانوا يتقنون من الحروب الأعمال السريعة، ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم، وكانت أسلحتهم خفيفة، ومؤنهم قليلة جداً، وبكلمة موجزة كانت قوات أبي بكر قوات غير نظامية محترفة، عليها أن تقاتل جيوشاً نظامية لاحدى أعرق الامبراطوريات في معرفة الفنون القتالية، ولذلك كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق تجمع القوات البيزنطية، ثم إنهاك هذه القوات وإضعاف معنوياتها، واخيراً إنزال ضربة قاصمة وسريعة بها، وكان هذا ما حصل.



□ الجامع الأموي من الداخل.

أرسل أبو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتعيث في كل بقعة وتدمرها، ولتجبر قوات بيزنطة على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة، وكانت القوات العربية تتجمع بين آونة وأخرى لتنزل ضربات كبيرة بالقوات البيزنطية، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطية في أكثر من معركة كبيرة كانت كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك.

ويبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكاً الطريق الموازي لشاطىء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة ــ تبوك ــ معان، فوادي الأردن، وكانت مهمة شرحبيل العمل في منطقة الأردن وسورية الداخلية، ومهمة يزيد دمشق وسواحلها، واصطدمت هذه القوات بجيوش بيزنطة فهزمتها. وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيماً في حمص، وعندما جاءته أخبار زحف الجيوش العربية، وأنباء انتصاراتها وهزائم قواته، حرك قوات ضخمة بقيادة أخيه تيودور، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي هذه إلى العرب، فكتب أبو عبيدة بخبرها إلى أبي بكر، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد قائد جبهة العراق: «أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة، والسلام عليك».

واستجاب خالد للأوامر، وتحرك نحو الشام، فاجتاز الصحراء بسرعة مدهشة، وكان عبوره إلى الشام من أعظم الأعمال العسكرية وأكثرها مغامرة وشجاعة. ونتج عن هذا العبور نتائج كبيرة، فقد ظهر بشكل مفاجىء في منطقة دمشق وجنوب بلاد الشام، فهاجم بصرى وهزم حاميتها، ثم صالح أهلها، فأصبح سيد منطقة حوران. وأربك ظهور خالد المفاجىء هذا تيودور وكان سبب إخفاق مهمته، ولقد بعثت أعمال خالد النشاط والحماس بين القوات العربية، ومن

حوران راسل خالد أمراء الجيوش العربية وطلب منهم أن يلاقوه جميعاً في منطقة أجنادين، ليس بعيداً عن الرملة.

وفي أجنادين التقت القوات العربية المتحدة التي قاربت الخمسة والعشرين ألفاً مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تيودور، وكانت هذه القوات تفوق القوات العربية عدداً وعُدداً، وهزم خالد البيزنطيين، وألحق بتيودور العار، وجعله يفر إلى أخيه، فسبب رحيله عن حمص نحو انطاكية لجمع جيش جديد، وإرساله ضد العرب لمنعهم من التقدم شمالاً.

وسقط حاكم فلسطين البيزنطي بين القتلى في اجنادين، ولقد حررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي وأعادتها عربية الشعب والحكم والعقيدة، وتشابه هذه المعركة من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية بالنسبة للعراق، ولقد حدثت هذه الأحداث كلها سنة ١٣هـ/٦٣٤م، في أواخر حياة أبـي بكر.

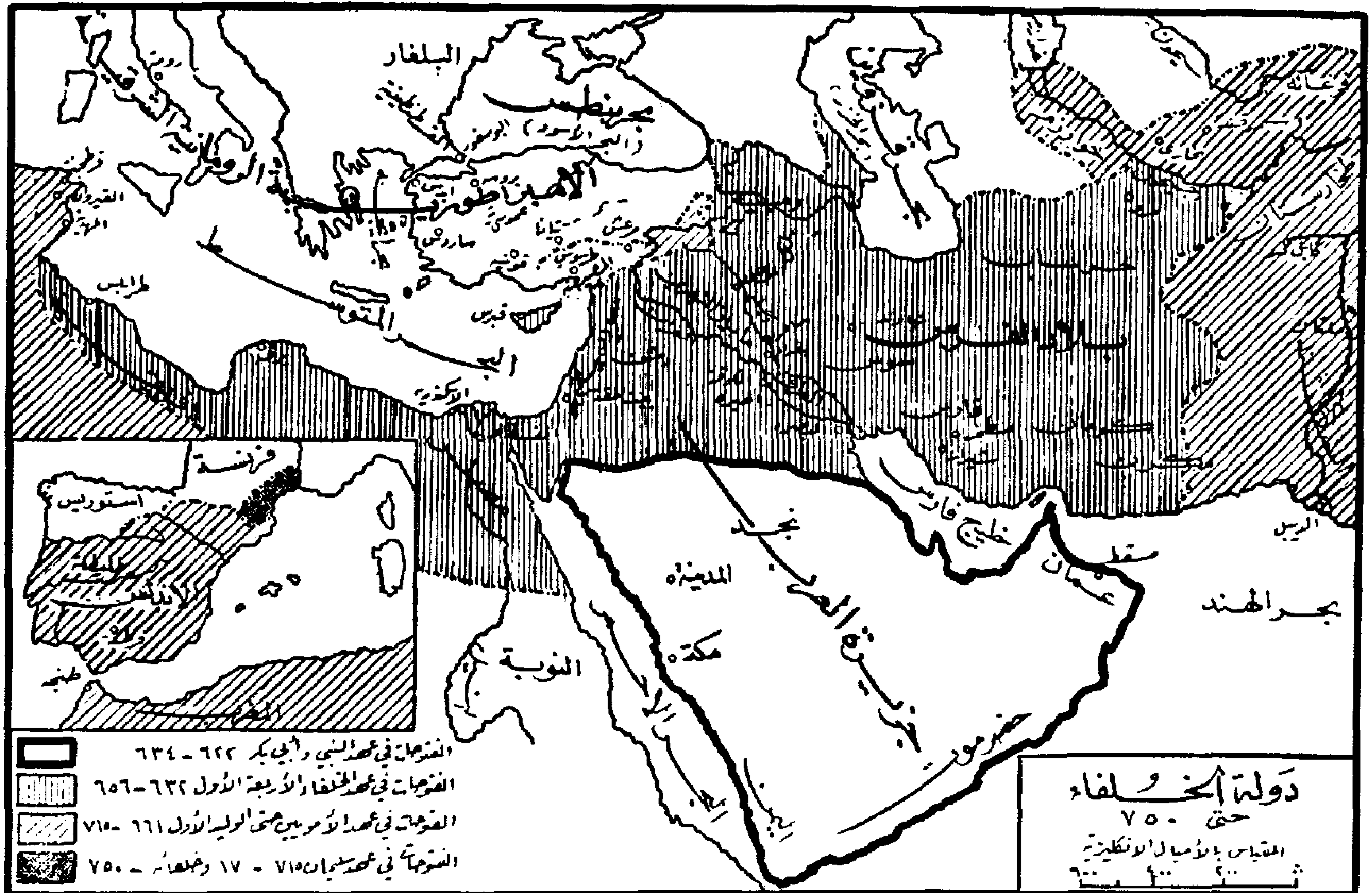
وبعد أجنادين أصبح الطريق مفتوحاً أمام العرب للتحرك نحو دمشق، وقبيل مشارف دمشق هزم العرب النجدات البيزنطية التي أرسلها هرقل في معركتين عنيفتين جداً في مرج الصفّر وفحل، ووصلوا أسوار دمشق، وأخذوا في حصارها، ولكن بعد الاستيلاء على المنطقة الجبلية المعروفة بثنية العقاب «الثنايا»، ومدينة بيروت وساحلها، فبعد عزل دمشق الكامل أخذوا في حصارها.

وفي هذه الأثناء وصلتهم أخبار وفاة أبـي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب، وافتتح عمر عهده بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام، وأحل أبا عبيدة بن الجراح محله، ولم يُحدث هذا العزل، الذي عزي لأسباب كثيرة شخصية بحتة وعامة تتعلق بمصالح الأمة، لم يحدث تأثيراً كبيراً على وضع القوات العربية إذ بقي خالد القائد المؤثر والفعال، حيث أن أبا عبيدة كان لا يقدم على عمل إلا بعد مشورة خالد، ثم بعد ذلك كان يوكل إليه تنفيذ كل ما كان يشير به عليه.

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة سقطت بعدها سنة ١٤هـ/٦٣٥م، وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالاً فتجاوزت منطقة مدينة حماه واستمرت شمالاً، وأخذ العرب يحكمون سيطرتهم على جميع أجزاء بلاد الشام ويطهرونها من الجيوب البيزنطية، ويعملون في سبيل إعادة تنظيمها؛ لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام دون أن تبذل كل ما بقي لديها من طاقات، ودون استنفاذ إمكاناتها جميعا، فجند هرقل جيشاً عظيماً جداً ضم جنسيات الامبراطورية، وزحفت القوات البيزنطية جنوباً تريد اقتلاع العرب وتحطيمهم، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي إلى أبـي عبيدة، وكان في منطقة حمص، فعقد مجلساً حربياً ضم كبار قادة قواته، وتباحث معهم في الأمر، فقر رأيهم على الانسحاب إلى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام، ومن التراجع نحو شبه الجزيرة، وقرروا أيضاً الكتابة إلى عمر بوصف حالهم وبطلب المدد.

وانسحبت القوات العربية جنوباً متخلية عن جميع المدن والأراضي التي أخذتها، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك، وكان لهذا الانسحاب أثره على القوات البيزنطية، حيث ولد الغرور في نفوس قادتها، كما دفعهم إلى إنزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب مما زاد من نفرة السوريين وكراهيتهم للبيزنطيين. والتقت القوات العربية بالقوات البيزنطية في اليرموك بالقرب من بحيرة طبرية في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن، وفي الأمام كان الجيش البيزنطي، ونشط خالد بن الوليد في إعداد خطط الحرب نشاطاً واسعاً تجلت فيه عبقريته العسكرية، وطبق خالد خططه بوعي وشجاعة، فسبب تحطيم القوات البيزنطية، وكان ذلك في صيف سنة ١٥هـ/٦٣٦م. ولا ريب أن القوات البيزنطية كانت على الأقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمسة وعشرين ألفاً.

ومما لا شك فيه أن معركة اليرموك كانت إحدى معارك التاريخ الانساني الكبرى لما نجم عنها من نتائج، فبعد هذه المعركة عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل، وتابعوا زحفهم شمالاً حتى جبال طوروس، وفرّ هرقل نحو القسطنطينية



وهو يردد: «وداعاً يا سورية، وداعاً لا لقاء بعده»، فلقد حررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي.

وبعد اليرموك استولى العرب على القدس، ونظفوا الشام كله من بقايا البيزنطيين، واستولوا على قيسارية، وأخذوا يعدون العدة لمرحلة جديدة من الفتوحات. ففي سنة ١٧هـ/٦٣٨ جاء الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام، وعقد في الجابية [قرب بلدة نوى في حوران] مؤتمراً تقررت فيه مناحي التحركات العسكرية والسياسية والدعوية المقبلة، وإثر ذلك زحفت القوات العربية بقيادة عمرو بن العاص نحو مصر، كما زحفت قوات عربية أخرى نحو أعالي بلاد الرافدين [الجزيرة]، وبعد احتلال الجزيرة دخلت هذه القوات أرمينية واستولت على غالبية أراضيها، وبعدما خضعت الشام والجزيرة للعرب، جعلوا الشام ولاية منفردة، وجعلوا من الجزيرة أيضاً ولاية أخرى، وقاموا بتقسيم الشام إلى أربع مناطق عسكرية، دعيت كل واحدة منها باسم جند، وهذه الأقسام هي: جند الأردن، جند فلسطين، جند دمشق، جند حمص(*).

* * *

وسلف القول أنه عندما سيرت الجيوش من المدينة لفتح بلاد الشام كان أحدها تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان، وقد ضم جيش يزيد فيما ضم أخاه معاوية؛ وفي أيام عمر، عندما استكمل فتح بلاد الشام جعل حكمها لأبي عبيدة بن الجراح مع يزيد بن أبي سفيان، لكن هذين القائدين ماتا في طاعون عمواس سنة ١٨هـ/٦٣٩م، فقام عمر باستخلاف معاوية مكان يزيد، وعندما مات عمر كان أمر الشام بيد معاوية وعمير بن سعد الأنصاري، وبعدما استخلف عثمان «عزل عميراً وترك الشام لمعاوية»، ثم أضاف له فيما بعد حكم الجزيرة.

ومنذ اللحظة التي صار معاوية فيها سيد دمشق، أخذ يخطط ليجعل من نفسه سيد أهل الاسلام مثلما كان والده سيد أهل الجاهلية. فقد جاء في انساب الأشراف للبلاذري أن معاوية قدم «من الشام على عمر، وقد حج عمر، فدخل عليه معاوية، فقال له عمر: متى قدمت؟ قال: الآن وبدأت بك، قال: فأت أبويك، وابدأ بهند، فانصرف معاوية فبدأ بهند، فقالت له: يا بني إنه والله قلما ولدت حرة مثلك، وقد استنهضكم هذا الرجل، فاعملوا بما يوافقه، واجتنبوا ما يكرهه،

وقـال له أبو سفيـان: إن هـؤلاء الرهـط من المهاجرين سبقوا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تخلفنا، وصاروا قادة، وصرنا أتباعاً، وقد ولوكم جسيماً من أمرهم فلا تخالفوهم، وإنك تجري إلى أمد لم تبلغه وستبلغه».

وتسلم عثمان بن عفان منصب الخلافة، ومر حكمه في البداية بسلام، لكن ما لبث أن أخذ يواجه العديد من المشاكل والقضايا، فعجز عن إيجاد الحل، ولم يعد يستطيع تحمل أعباء حكم الدولة، فانفلت زمام الأمور من يديه، وآل ذلك إلى الثورة عـليه وقتله، وبعد مقتله صار علي بن أبـي طالب خليفة جديداً، وقد ملئت فترة حكمه بالحروب الأهلية، وتميزت بعدم الاستقرار، ثم جاءت النهاية فسقطت الخلافة الراشدة، وحل محلها على الصعيد الرسمي والعملي حكم الأسرة الأموية الملكي الوراثي، وعلى صعيد المعارضة ــ الامامة من شيعية إلى خارجية.

واستولى معاوية بن أبـي سفيان على السلطة استيلاء، وانتزع لنفسه منصب الخلافة، وأسس أسرة مالكة بقوة السلاح، لا بموجب أي حق شرعي أو دعوى قانونية صحيحة، ولذلك لاقى معارضة شديدة دائمة، فاضطر إلى الابقاء على استخـدام القـوة المسلحـة، وزاد من حجم الجيوش، واعتمد في إدارته وأعماله العسكرية عـلى العنصر العربـي دون سـواه، وكان ذلك مسوغاً لطبيعة المرحلة، ومتابعة لخطط الفتح.

وقد أسهب المؤرخون في الحديث عن معاوية، فـوصفوا شخصيتـه الفذة، وذكـروا أن أبرز ما كان يميزها: الحلم، والدهاء، وحسن السياسة والكرم، وهذه الصفات ما تزال مقترنـة باسم معاوية حتى هـذا اليوم، وليس ثمـة شك أن صفات كهذه مع ما تميز به الرجل من طموح كبير، كانت وراء نجاحه في بلوغ أهدافه، ولقد أعطت مواهبه في الحكم ثمارها خلال الفتـرة الطويلة التي حكم فيها الشام، وهي فترة امتدت عبر عهود ثلاثة من الخلفاء الراشدين استطاع خلالها تأكيد سلطانه وبناء جيش قوي، حيث لم يظهر في وجهه معارضة قوية، أو انتقاد شديد لحكمه على عكس ما كان عليه الحال في بقية الولايات.

وبعدما استولى معاوية على الخلافة وتفرد بها، أعاد الاستقرار إلى أجزاء الدولة المضطربـة، وأحسن اختيـار معاونيـه، واتخـذ من دمشق عاصمة لدولته، وأجرى تعديلات كبيرة وتطورات على نظم إدارة الدولة شروعاً بمنصب الخلافة، فقد حوّل النظام السياسي في الدولة العربية من نظام قائم على نوع من الشورى إلى نظام ملكي ثيوقراطي، وبذلك كان هو «أول الملوك» في تاريخ العرب والاسلام، وهو «أول من رتب الخلافـة واقام أبهتها وأجراها على قاعدة الملك» حسب قول القلقشندي.

عـلى أننا عـلى الرغم من إيـرادنـا لهـذه الأوصاف، يجب أن نتناولها بشيء من الحذر وألا نجنح إلى المبالغة في تفسيراً عصرياً، عصريا، ذلك أن معاوية رغم اهتمامه بمـظاهر الأبهـة الملكية، ظل في الواقع يحكم ويتصرف بمثابـة زعيم مكي، يعـرف كيف يصـطنـع الرجـال ويرضيهم، وكان يحكم بالتشاور مع جهاز ضم رؤساء القبائل، ولم يتصرف تصرف المستبدين من الملوك، وهذا ما حـدا بالمـؤرخ البيزنـطي ثيوفانس إلى وصف معاوية «بالمستشار الأول»، ولم يصفه بالملك أو الامبراطور.

أما السمات العامة للدولة، فقد ظلت كما هي ثيوقراطية، الاسلام شرعتها ودينهـا الرسمي، ولعل أهم ما استحدثه معاوية من أمـور كان ما يتعلق بمظاهر الحكم من أمور لم تكن معهودة عند العرب، فقـد ابتنى لنفسه قصـراً سماه «الخضراء» وجلس على السرير، وأحاط نفسه بالحجاب، وكان أول من أقام الحـرس تمشي بالحراب بين يديه، وأوجد الشـرط لحراستـه، وانعزل أثناء الصلاة في مقصورة خاصة تحجبه عن بقية المصلين.

ومن الناحية الادارية، هناك من يـرى أن النظام الأموي الاداري في الشام كان امتداداً للنـظام القديم الذي كـان سائـداً في الشام، والموروث عن الدولة البيزنطية، ولكن ينبغي ألا ننسى هنا أن معاوية اعتمد في تنظيم إدارته على الأسس العامة التي طورها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب؛ فقد استبقى معاويـة بعض موظفي الجهاز الاداري لما قبل الفتح، الذين كانوا يكتبون بالاغريقية، وظلت هذه اللغة وقتاً غير قصير لغة الدواوين في الشام، اما في العراق



الدرهم الاموي الاندلسي، خطوة اساسية نحو تعريب الادارة.

فكانت دواوينه تكتب بالفارسية، وفي مصر بالقبطية والاغريقية، وكذلك العملة التي تداولها الناس أيام معاوية كانت هي نفسها التي سادت في الشام قبل الفتح، إنما مع بعض التعديلات العربية، وهذا الحال ينطبق على الاقاليم الأخرى، حسب التأثيرات السياسية التي كانت تخضع لها قبل الفتح العربي.

بيد أن معاوية وإن اعتمد في سياسته الادارية والمالية على تنظيمات الخليفة عمر بن الخطاب، إلا أنه أضاف كثيراً من التجديدات التي اقتضاها الحال لضبط الأمور والاشراف فعلياً على إدارة الدولة، فكان أن أظهر ديوان الخاتم مع إدارات أخرى جديدة.

وأقلقت مسألة مصير الحكم بعد معاوية هذا الخليفة، فكان أن اعتمد طريقة الوراثة، فسمى ابنه يزيد ولياً لعهده وأرغم الناس على مبايعته.

وكان من ثمرات الاستقرار الذي جاء مع معاوية، استئناف حركة الفتوحات، فاتسعت على هذا رقعة الدولة في أيامه حتى وصلت أطرافها في المشرق إلى هراة وكابل وبخارى، وبلغت الفتوحات في المغرب شواطىء المحيط الأطلسي، كما استمرت الحرب على الجبهة البيزنطية دونما توقف، وباتت تعرف باسم حرب الصوائف والشواتي.

ولم تقتصر العمليات العسكرية على اليابسة، بل تعدتها إلى البحر، فمنذ أيام الخليفة عثمان بني معاوية أسطولاً عربياً كبيراً، افتتح به قبرص أولا، ثم حطم به الأسطول البيزنطي في معركة ذات الصواري ثانياً [٣٦هـ/٦٥٧م].

وخطط معاوية للقضاء على الامبراطورية البيزنطية، بالاستيلاء على عاصمة ملكها ــ القسطنطينية ــ فجهز في سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م حملة برية ــ بحرية عملاقة بقيادة ابنه يزيد، وتمكنت هذه الحملة من حصار القسطنطينية من الجهة الآسيوية، لكنها عجزت عن اختراق أسوارها بسبب منعتها ومتانتها، ولعدم تمكن الأسطول من القيام بمهامه على أحسن وجه، حيث فتكت النار الاغريقية به، فقد أمر معاوية

بانسحاب الجيش المرابط حول أسوار القسطنطينية.

ومات معاوية سنة ٦٠هـ/٦٨٠م فتولى ابنه يزيد الخلافة، بعد أن مهد له أبوه الأرض، وروض الناس، وما أن عم خبر وفاة معاوية، حتى تفجرت الاضطرابات في بعض مناطق الدولة خاصة الحجاز والعراق، فاستخدم يزيد العنف وقضى على جميع الثورات في كربلاء والمدينة ومكة؛ لكن حياة يزيد لم تطل حيث توفي وهو في ريعان الشباب سنة ٦٤هـ/٦٨٣م، واضطرب الوضع بعد وفاته في الشام، حيث تنازل ابنه معاوية الثاني عن العرش، ثم توفي في ظروف غامضة، فأدى ذلك إلى طرح مسألة الخلافة وانقسام البيت الأموي على نفسه وإلى الصراع بين قبائل الشام، وأخيراً حسم الموقف، بأن عقد مؤتمر بالجابية، تقرر فيه اختيار مروان بن الحكم خليفة أموياً جديداً. وجهد مروان في سبيل إعادة توحيد الدولة وجلب الاستقرار إليها، فحقق بعض النجاحات، وتوفي سنة ٦٥هـ/٦٨٥م فخلفه ابنه عبدالملك، فأعاد تأسيس الدولة الأموية من جديد، وجلب إليها الاستقرار. وتفحص عبدالملك أصول الاضطرابات وأدرك مدى التغييرات والتطورات التي لحقت العرب وأهالي دولتهم المترامية الأطراف، فأعمال المعارضة حتى نهاية عصر يزيد كانت عربية محضة خاصة في العراق والمشرق، ومع أيام عبدالملك بدأت تفقد لونها العربي وتكتسب ألواناً عجمية إضافية.

وصحيح أن ما أنجزه عبدالملك بن مروان بتوحيده لأطراف الدولة كان عملاً جباراً، لكن ما أضافه إليه من أعمال كانت مؤثراتها على المدى الطويل أعمق وأكبر، فقد رسم عبدالملك سياسة لتعريب أمم دار الخلافة، وعلى هذا الأساس صدرت قرارات تعريب الادارة بشكل شامل وذلك مع النقود والاقتصاد، كما اهتم عبدالملك بالثقافة والتعليم والدعوة إلى الاسلام وتيسير سبل الدخول فيه، ففي العراق قامت مدينة واسط، وهي مدينة شامية غرست هناك لتحل محل كل من البصرة والكوفة، وكذا الحال بالنسبة للقيروان وتونس. ومن أيام عبدالملك وصلتنا أخبار أولى عمليات الاندماج بين العرب الفاتحين وسكان البلاد المفتوحة، وخاصة في خراسان مما بشر بنجاح خطة إنشاء الأمة المستعربة الجديدة. والمتتبع لسير خلفاء بني أمية بعد عبدالملك، خاصة عمر بن عبدالعزيز، يرى مدى حرصهم على الوصول بهذه الخطط إلى غاية النجاح، ولكن نجاح الثورة العباسية حطم كل شيء.

وتوفي عبدالملك سنة ٨٦هـ/٧٠٥م فخلفه ابنه الوليد، الذي قرر استئناف حركة الفتوحات. واستهدفت المخططات متابعة نفس النشاطات على المحاوز الشرقية القديمة، والسيطرة بشكل كامل على حوض البحر المتوسط وعلى منافذ في الشرق والغرب، وهكذا فتحت بلاد ما وراء نهر جيحون، وتوغلت الجيوش العربية في داخل الهند والصين وبلاد الخزر، وكمل فتح الشمال الافريقي، وفتحت الأندلس، فأصبح المنفذ الغربي للبحر المتوسط عربياً على طرفيه الافريقي والآسيوي.

كما عم الرفاه بلاد الشام، وكثرت أعمال البناء لمختلف الأهداف والنشاطات، فبني جامع بني أمية في دمشق، ومسجد الصخرة في القدس، ودور العجزة والمشافي ومعاهد العلم والتدريس، وشقت الأقنية وشيدت السدود وتطورات الزراعة والتجارة والصناعة.

وتوفي الوليد بن عبدالملك سنة ٩٦هـ/٧١٥م فخلفه أخوه سليمان، الذي عمل على تنفيذ الشطر المتبقي من خطة السيطرة على البحر المتوسط، حيث شكل حملة كبيرة، أرسلها بقيادة أخيه مسلمة بن عبدالملك للاستيلاء على مدينة القسطنطينية؛ وحاصر العرب عاصمة البوسفور طويلا وأصروا على اقتحام أسوارها، وانتقل الخليفة إلى منطقة حلب، حيث أشرف على سير العمليات، وتوفي سليمان أثناء الحصار سنة ٩٩هـ/٧١٧م، فخلفه ابن عمه عمر بن عبدالعزيز.

وأمر الخليفة الجديد بفك الحصار عن القسطنطينية وبتراجع القوات العربية، وقرر إيقاف أعمال التوسع العسكري والتفرغ تماما للشؤون الداخلية وتنفيذ خطط إنشاء الأمة الجديدة بروح جديدة وعمق أعظم، وحرارة واندفاع شديدين. وعلى الرغم من قصر مدة حكم عمر بن عبدالعزيز (توفي ١٠١هـ/٧٢٠م) فإن

الانجازات التي تمت كانت من النوعية والقبول بمكان جعلت عصر عمر بن عبدالعزيز عصراً متميزاً، ألحقه الناس بعصر الخلافة الراشدية، جاعلين هذا الخليفة الأموي خامس الخلفاء الراشدين.

ووصل عمر بن عبدالعزيز إلى الخلافة لا بفضل نسبه وتصنيفه العائلي، وإنما بفضل شخصيته المرتفعة وسلوكه المثالي. والمتتبع لحياة عمر قبل أن يمارس مسؤولية الخلافة وبعدها تستوقفه النزعة الانسانية التي كانت تغلب على تصرفاته، ويعجبه إيمانه الصرف بالمبادىء الاسلامية، وهذه صفات لازمته طيلة حياته، مضاف إلى ذلك كله أنه كان يمتلك الجرأة الكافية ليجهر بما يعتقد به مهما اشتدت المواقف وصعبت الظروف.

وسعى عمر بن عبدالعزيز إلى إحقاق الحق ورفع الظلم، فأعلن للناس: «إن الله فرض فرائض وسن سنناً، من أخذ بها لحق، ومن تركها محق، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس: يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، ويدلنا إلى ما لا نهتدي إليه، ويكون عوناً لنا على الحق، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس، ولا يغتب عندنا أحداً، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا».

كما سعى إلى إلغاء التحكم والطبقية والاستغلال، وتأمين المساواة بين المسلمين جميعاً، وعامل غير المسلمين «أهل الذمة» بالرفق والأخلاق فألغى جميع الضرائب المستجدة وغير العادلة، فقد كتب إلى واحد من عماله يقول: «انظر إلى أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه».

وأحيا عمر بهذا مشاعر المواطنة لدى شعب الدولة المترامية الأطراف، وسد الفجوة ما بين الحاكم والمحكوم، واتبع لغة الحوار مع أحزاب المعارضة، وأوجد الحلول للنزاعات القبلية، وأصلح إدارة الدولة واختار من يعاونه على تنفيذ خطط الاصلاح، وخفف الضرائب، وعندما شكا بعض الولاة إليه أن ذلك قد يؤدي إلى إنقاص الموارد، وإلى عجز في الميزانية أجابه: «إن الله تعالى أرسل نبيه محمداً هادياً لا جابياً»، وعمد إلى إيقاف التبذير بالنفقات.

ولئن افادت إجراءات عمر بن عبدالعزيز السواد الأعظم من الناس، فقد ألحقت الضرر بالمستغلين والمتسلطين، فقرروا التخلص من عمر بن عبدالعزيز، فدسوا له السم وهو ما يزال في شرخ الشباب فقتلوه، ولم يقدروا انهم بصنيعهم هذا قتلوا الشباب المتجدد للخلافة الأموية.

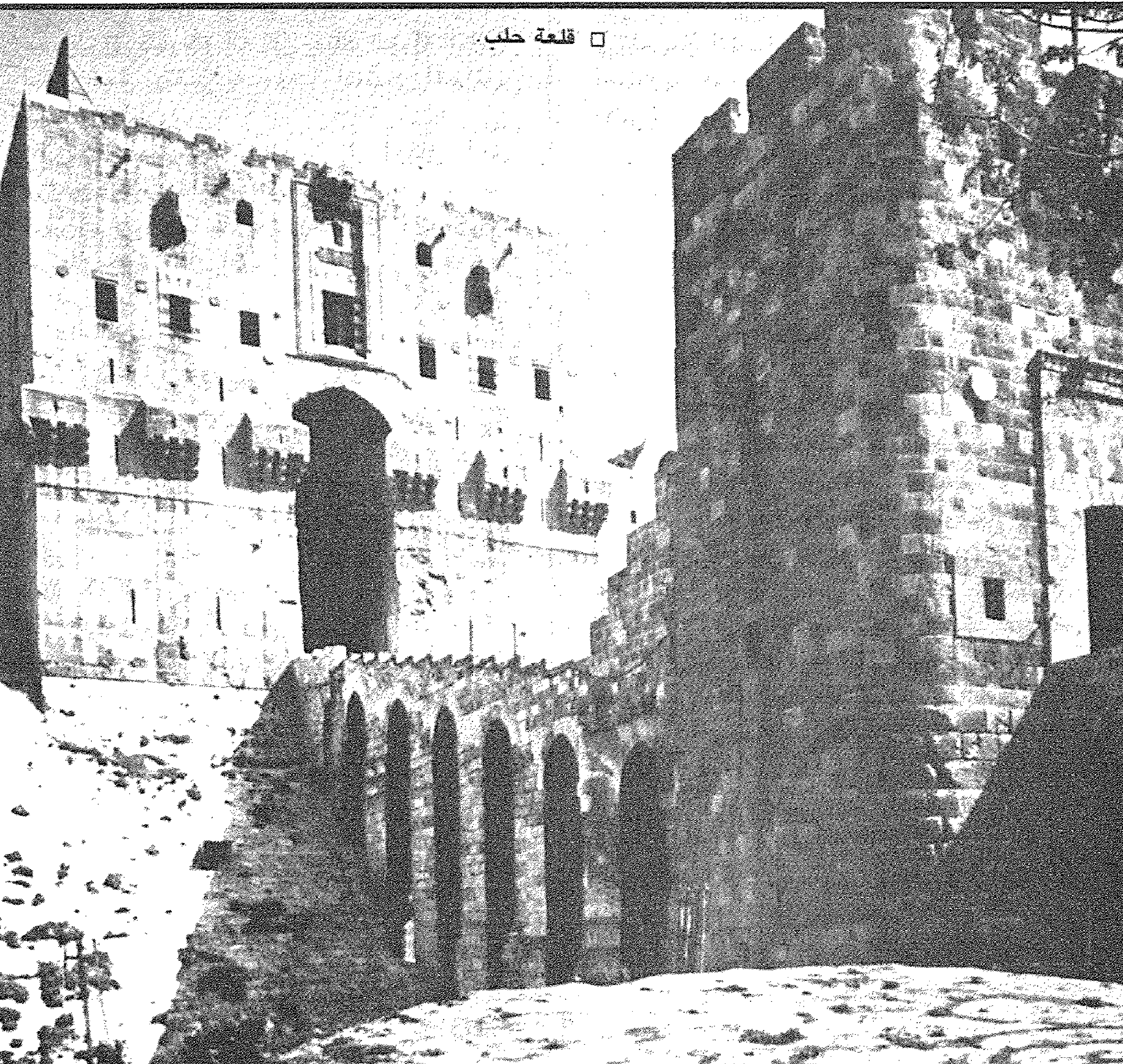
ودخلت الخلافة الأموية بعد عمر بن عبدالعزيز في دور الانهيار، وهزت أركانها الثورات التي نادت بالاصلاح والعدل والمساواة، وعانى البيت الأموي من الانشقاق الداخلي واهمل الجيش، وكاد يتحول إلى قوة بوليس لقمع الثورات، ووجدت طبقات الدهاقين الفرصة المناسبة في خراسان، فأحكمت صناعة ما يعرف بتنظيم الدعوة العباسية، التي قادت سلسلة من الاعمال أدت إلى إسقاط الخلافة الأموية، وإقامة الخلافة العباسية، التي اتخذت من العراق مقراً لها، ومن الأعاجم بطانة ووزراء. وهكذا تعطل دور الشام العربي المعطاء، ولكن إلى حين، ففي القرن الرابع هـ/ العاشر م عادت شخصية الشام ثانية إلى الظهور ونمت واشتد عودها، فصانت شرف العروبة أمام التحدي البيزنطي فالصليبي فالمغولي، وحافظت على آداب العربية وثقافتها وتاريخها شروعاً بالمتنبي فأبي العلاء المعري إلى ما لا نهاية...

(*) عدل هذا التقسيم في عهد يزيد بن معاوية حيث قسم جند حمص إلى قسمين دعيا: جند حمص وجند قنسرين.



الدولة الحمدانية في حلب

د. سهيل زكار



□ قلعة حلب.

بعدما تمت بنجاح أعمال الفتوحات العربية الكبرى في العصر الراشدي، تبدلت صورة العالم القديم بشكل جذري، وذلك لأول مرة في تاريخ الانسانية، حيث صارت الأراضي الواقعة شرقي نهر الفرات وغربيه تدار من قبل سلطة واحدة.

وانتهى العصر الراشدي ـــ كما هو معلوم ـــ بقيام الخلافة الأموية: وقد قامت هذه الخلافة بإكمال حركة الفتوحات في آسية وأفريقية وأوروبة، كما نقلت المؤثرات والنظم العربية الاسلامية، إنما تبعاً لمنطلقات ومواريث الحضارة الخاصة ببلاد الشام.



ومن المؤكد أن بلاد الشام كانت أول بلدان الوطن العربي في التاريخ تميزاً بالطابع العربي [يطلق عليه تجاوزاً ـــ السامي]. وهكذا نلاحظ أنه منذ أيام عبدالملك بن مروان تمّ صنع إنجازات كبيرة وواسعة التأثير، فقد رسمت الدولة الأموية سياسة لتعريب الأمم والبلدان المفتوحة، وأمر عبدالملك بتعريب النقود والادارة والاقتصاد. وتحدثنا المصادر المبكرة عن نجاحات هذه السياسة فتروي أن أعداداً كبيرة من سكان خراسان أخذت تتحول إلى الاسلام وتعمل على الاندماج مع العرب الفاتحين، وأن هؤلاء بدورهم شرعوا في سكنى المدن وترك المعسكرات حول مدينة مرو وسواها.

وكانت أعمال التعريب قد قطعت أشواطاً كبيرة في مصر والشمال الأفريقي، وسارت عمليات الاندماج بنجاح ملحوظ في كل مكان، وقد أخاف هذا التطور في خراسان «الدهاقين وورثة الاقطاع والكهنوت الساساني» فقاوموه مقاومة فعالة، وبعدة وسائل، عن طريق التثبيط والتسرب إلى الحركات الثورية المعارضة للنظام الأموي الشامي، وعن طريق إحداث تنظيمات تهدف إلى الاطاحة بالخلافة الأموية. ومع خلافة عمر بن عبدالعزيز قويت حركات الاندماج، وأخذت أشكال تيارات جماهيرية، وبالمقابل اشتدت حركات الدهاقين المعارضة، وأحدث هؤلاء ما عرف باسم «الدعوة العباسية»؛ وفي المصادر المبكرة رسائل قيل إنها وجهت من قبل إبراهيم الإمام العباسي إلى أبي مسلم الخراساني، تطلب منه أن لا يبقي على عربي في خراسان، حتى وإن كان رضيعاً.

ونجحت حركة الدهاقين في خراسان، وتمكنت من إسقاط الخلافة الأموية، وبذلك وجهت ضربة قاصمة لبلاد الشام، ولحركات التعريب وإقامة الأمة الجديدة التي خطط لها الاسلام، وتسلط الأعاجم على الخلافة الجديدة، ورافق ذلك قيام حركات الزندقة، ورفض العروبة والاسلام مع الشعوبية.

وحاولت بلاد الشام النهوض سريعاً والتعافي من الضربة التي نزلت بها، ويمكننا أن نرى ذلك أولاً في ثورة عبدالله بن علي ضد أبي جعفر المنصور، ثم في أعمال أخرى، فالرشيد عندما ضاق ذرعاً بتسلط الأعاجم استقر طويلاً في رافقة الرقة، والمأمون بعدما تخلص من مرو ثم من بغداد، استقر في شمالي بلاد الشام، وفي الثغور قضى نحبه، وعندما أراد المتوكل التخلص من المتحكمين الأتراك جاء إلى دمشق.

وأخفقت جميع هذه المحاولات، لكن عندما تفككت أوصال الخلافة العباسية، وظهرت الدول المستقلة، سعت بلاد الشام نحو استعادة وحدتها وشخصيتها للقيام مجدداً بدورها المرسوم، إنما حدث أن استقلت مصر الاسلامية فيمن استقل مبكراً، وحاولت مصر ـــ تنفيذاً لقواعد سياستها الخارجية الموروثة ـــ أن تحتل بلاد الشام، فنجحت بشكل عام في احتلال الجنوب والاحتفاظ به، وأخفقت في الاحتفاظ بشمالي بلاد الشام مما أدى إلى زوال وحدة البلاد، ودفع الشمال إلى الاستقلال.

□ د. سهيل زكّار: استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق.

وهكذا أخذت المناطق الشمالية تسعى للتعبير عن شخصيتها، ومن الملاحظ أن هذا السعي ظهرت ملامحه الأولى بشكل اجتماعي واقتصادي وثقافي وحضاري عام، ثم فيما بعد بشكل سياسي؛ وكان مما عجل في ظهور الشكل السياسي الأوضاع التي عاشتها الامبراطورية البيزنطية المصاقبة أراضيها لشمال الشام، فمنذ القرن العاشر، عرفت هذه الامبراطورية فترة من القوة والاستقرار لم تشهدها من قبل، وترافق ذلك مع ظهور روح حركة صليبية توسعية، يدعوها المؤرخون باسم «صليبية القرن العاشر».

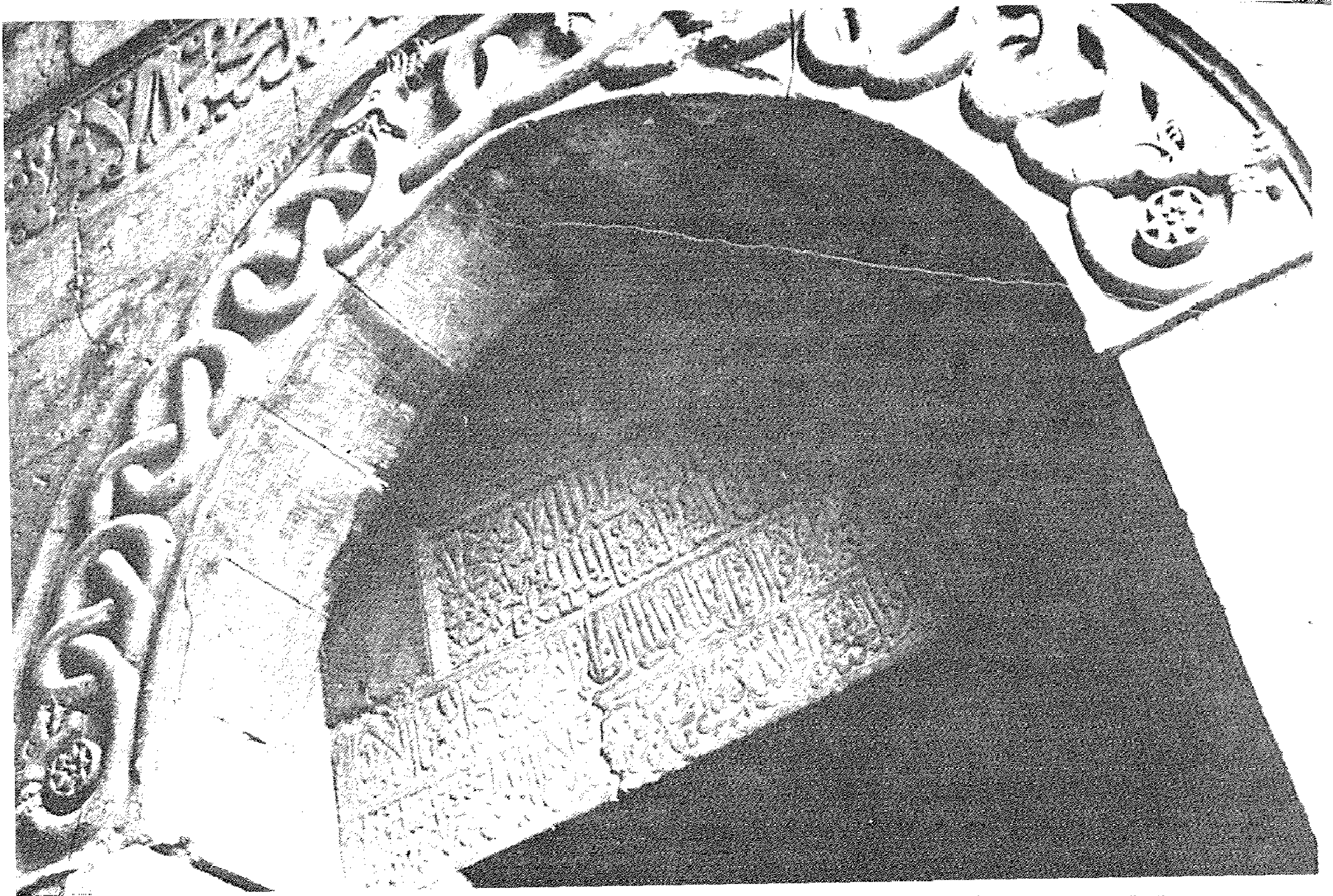
ضمن هذه المعطيات العامة يمكن فهم تاريخ الدولة الحمدانية في حلب والدور الذي اضطلعت به عسكرياً وحضارياً، ومع ذلك لا يمكن الشروع في الحديث عن تاريخ هذه الدولة دون شرح بعض المعطيات الداخلية الأخرى، وقد ارتبط ذلك بأوضاع الشام والجزيرة والقبائل العربية فيهما:

سكن الشام قبل قيام الفتوحات الاسلامية عدد من القبائل العربية كان أكثرها ــ تبعاً لروايات النسابين العرب ــ منحدراً من أصل يماني. ومن أشهر هذه القبائل قبيلة كلب التي استقرت في جنوب بلاد الشام، وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي؛ كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل إلى شمالي بلاد الشام، وكانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من أصل قيسي، وكان من أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب. وفي سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، بعد وفاة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، التحمت قوى قبائل قيس بقيادة الضحاك بن قيس وزفر بن الحارث الكلابي بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط، وهزمت قيس، وانتصرت اليمن، وكانت قبيلة كلاب ــ كما قلنا ــ أكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة، وفر زعيمها زفر بن الحارث شمالاً واعتصم في قرقيسياء (البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور بالفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة، ولم يستطع مروان أن يقسره على مثل هذا الاعتراف. ولعل من أهم نتائج هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام إلى قسمين: شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية، وخاصة كلب وتسيطر عليه، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة عن دارين: دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال، وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة وهمية تقع جنوبي حمص، وغالباً ما كانت عند الرستن على نهر العاصي.

إن قضية الأنساب العربية مع تشكل القبائل العربية قبل الاسلام، وتأثر هذا التشكل بالهجرة بعد الفتوحات الاسلامية، بحاجة إلى دراسة علمية على ضوء الدراسات الاجتماعية الحديثة وقوانينها، إنما يبدو أن من الأسباب التي ساعدت على تركز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد الشام واستقروا في جنوبيها قبل الفتوحات الاسلامية، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه إلى الشام عبر طرق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام.

المهم أننا لم نسمع بعد معركة مرج راهط بسيطرة سكنية أو سياسية لأية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام، والعكس هو صحيح أيضاً، ومع مرور الزمن اعتبرت قبيلة كلاب شمالي بلاد الشام دياراً لها، واعتبرت أي تحرك قبلي من الجنوب عملاً عدائياً موجهاً ضدها، ويلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما أقام الكلابيون الدولة المرداسية في حلب، فقد دخلت الدولة المرداسية في صراع مستمر مع الخلافة الفاطمية، وغالباً ما استعان الفاطميون بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية لأن جنودها كانوا كلبيين، وليس لحماية إمارتهم في حلب فقط، ويمكن إيجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصينة، شاعر المرداسيين، وفي حوادث مشابهة.

ويلحظ المرء أنه بعد استقلال الجزء الشمالي من شمال الشام، بات بعض الجغرافيين العرب والمؤرخين يطلق عبارة الشام ليعني بها الجزء الشمالي من البلاد. وقبل الاسلام كانت مدينة قنسرين ثم أنطاكية أهم مدن شمال الشام، وقد تأثرتا بالفتح العربي، وتراجعتا، خاصة قنسرين التي غابت شمسها، وأشرقت مكانها شمس مدينة حلب فغدت مركزاً لشمالي بلاد الشام،



□ قلعة حلب ــ باب الحيات.

وصار تاريخ الشام الشمالي هو تاريخ حلب بالدرجة الأولى، ولحسن الحظ أن تربة حلب كانت تربة تاريخية، كثرت فيها الكتابات التاريخية التي حفظت لنا تفاصيل أخبار معظم الوقائع التي شهدتها حلب ثم الشام فديار العرب والمسلمين أجمع.

وقضى موقع حلب الهام أن تكون لها أوثق العلاقات وأهمها مع آسية الصغرى في الشمال ومع الشام الجنوبي ممثلاً بدمشق، ومع إقليم الجزيرة في الشرق والشمال الشرقي، كما أنها اعتبرت بوابة العراق ودهليزاً نحو بغداد، لذا اشتد الصراع حولها بين عدة قوى محلية وخارجية، وكانت القوى المحلية صغيرة في الغالب محدودة الامكانات والموارد، بينما كانت القوى الخارجية ذات أحجام امبراطورية وموارد هائلة، ولم يكن من السهل أبداً على حلب الحفاظ على استقلالها واستمرار وجودها.

بعد هذه المقدمات ننتقل للحديث عن الدولة الحمدانية:

يعود الحمدانيون في أصلهم إلى قبيلة تغلب، وكانت هذه القبيلة من أشهر القبائل العربية وأكبرها، وكانت تقطن أعالي منطقة الجزيرة قبيل قيام الاسلام، وأثناء فترة الفتوحات، وكانت تدين بالنصرانية. ولقد رفضت تغلب بعد الفتح دفع الجزية، وسبب ذلك مشكلة كبرى للخلافة، عالجها الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بأن ضاعف ضريبة الصدقة عليها، ضمن شروط اخرى، منها أن لا تقوم القبيلة بتعميد اولادها.

وحافظت قبيلة تغلب على مكانتها في العصر الأموي، إنما تأثرت هذه المكانة بتدفق قبائل جديدة من شبه الجزيرة، كذلك تأثرت بما شهدته منطقة الجزيرة في أواخر العصر الأموي، وأثناء الحكم العباسي المبكر، من ثورات وحركات سياسية، خاصة ثورات الخوارج. وأثناء هذه الحركات ظهرت بين صفوف قبيلة تغلب أسرة زعامة هي الأسرة الحمدانية، وقامت الصلات بين هذه الأسرة والخلافة العباسية منذ عهد المعتضد، وعمل أفراد هذه الأسرة إلى جانب الخلافة ضد الخوارج، ثم بشكل انشط وأوسع

ضد القرامطة، وأثناء ذلك تكونت شخصية الاسرة، وأصبحت تشكل إحدى القوى العسكرية ــ لكن ليست الكبيرة ــ للدولة العباسية، واستخدمت الخلافة هذه القوة واعتمدت عليها في أكثر من مناسبة وبقعة، وقد وطد هذا من مكانة الحمدانيين، وورطهم في قضايا الدولة العباسية في الجزيرة ثم العراق، وأخذوا ينجذبون أكثر فأكثر نحو السلطة، ونحو بغداد.

واتخذ أوائل أفراد الأسرة الحمدانية من مدينة ميا فارقين في أعالي الجزيرة، مركزاً لهم، وتطلعوا في نفس الوقت نحو الموصل، وسعوا للسيطرة عليها، فكان أن تحقق ذلك سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٦م، إذ عين الخليفة المكتفي الأمير أبا الهيجاء والياً على الموصل، ولم يستطع أبو الهيجاء أن يولي الموصل عنايته الكلية، بل اهتم بمشاكل الصراع في بغداد، وانجرف مع تيارات السياسة في بغداد صعوداً وهبوطاً، وهكذا قضى معظم أيامه في حاضرة بني العباس، واضطر بسبب ذلك أن ينيب ابنه الأكبر الحسن (الذي عرف فيما بعد باسم ناصر الدولة) في إمرة الموصل.

وهنا لا بد قبل الاستطراد في الحديث عن ناصر الدولة وحكمه من أن نطل، ولو بسرعة، على أهمية الموصل ومكانتها: لقد كانت مدينة الموصل بسبب موقعها الجغرافي مدينة هامة ذات موارد اقتصادية كبيرة، كانت تأتيها من الزراعة والتجارة، وهي كمدينة تقع وسط سهل خصب، يمدها دجلة بالماء، وهي قريبة من البادية ومن قبائلها العربية، وهي أيضاً لم تكن بعيدة عن الأراضي البيزنطية، لكنها منذ قيام الدولة العباسية كانت دائماً وثيقة الصلة ببغداد، ومشاكل العراق السياسية، أي أنها كانت قطعة من العراق، وقد بقيت هكذا حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر ميلادي، عندما تحولت لتصبح قطعة من بلاد الشام، تشارك في مشاكلها وقضاياها.

لقد أصبحت الموصل في تلك الفترة جسراً يوصل للسيطرة على شمال بلاد الشام، ومن ثم الجنوب، ذلك أن القرن الخامس قد شهد هجرة التركمان بقيادة السلاجقة الذين جاءوا من المشرق، فكانت الموصل المحطة الأولى للانطلاق نحو بلاد الشام والانقضاض عليها، وفي تاريخ الدولة الزنكية وأحداث الحروب الصليبية مثال مبرهن على صحة هذا.

ومع أن الموصل كانت قبل القرن الخامس قطعة من العراق، إلا أنها شاركت جزئياً وبشكل فعال ومؤثر أحياناً في الحياة السياسية لبلاد الشام، لكن هذه المشاركة كانت جزءاً من المشاركة في الصراع من أجل السيادة والسلطة في عالم الخلافة العباسية.

أصبح الحسن بن أبي الهيجاء أميراً للموصل بعد أبيه، ويمكن اعتباره الباني الفعلي للدولة الحمدانية هناك، لا بل أكثر من ذلك، فقد تمثل تاريخ هذه الدولة في الموصل به، كل ذلك على الرغم من أنه مثل أبيه، قد انغمس في مشاكل الصراع من أجل السلطة في بغداد، وكان أخوه علي أثناء ذلك يساعده ويقود قواته.

ولقد نجح ناصر الدولة لفترة قصيرة من الزمن في تسلم منصب إمرة الأمراء في بغداد، لكنه أرغم على ترك بغداد والعودة إلى الموصل، وعندما وقعت بغداد في حوزة الأسرة البويهية من الديلم، قام نزاع بين هذه الأسرة وناصر الدولة، وقد اضطر ناصر الدولة أثناء هذا الصراع إلى إخلاء الموصل، واللجوء إلى حلب. وفي سنة ٣٥٣هـ، عزل معز الدولة البويهي ناصر الدولة عن إمارة الموصل، وعين مكانه ابنه أبوتغلب، وعندما ضعف ناصر الدولة بسبب شيخوخته، ضيق ابنه أبو تغلب عليه، وأعرض عن مشورته، ثم قام أخيراً في سنة ٣٥٦هـ بسجنه في إحدى القلاع، وقد توفي ناصر الدولة في سجنه سنة في سجنه سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

وقبل أن يتوفى ناصر الدولة كانت مقاليد الموصل في يد ابنه أبو تغلب، الذي لقب نفسه بالغضنفر. وبعد وفاة ناصر الدولة، قام صراع بين أولاده، وقد أضعف هذا الصراع قوة الأسرة الحمدانية؛ وقد استغل هذا الخلاف من قبل الدولة البويهية، ومن قبل عناصر أخرى محلية في الجزيرة، كان أبرزها قبيلة عقيل وجموع أكراد ميا فارقين، وفي سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م استطاع البويهيون احتلال الموصل، وجاء هذا بمثابة نهاية فعلية للدولة الحمدانية، وفي سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م حاول الحمدانيون استعادة الموصل،

وحققوا في هذا السبيل نجاحاً مؤقتاً، وأخيراً سقطت الموصل في أيدي قبيلة عقيل، وورثت أملاكها الدولة العقيلية في الموصل، والدولة المروانية الكردية في ميا فارقين.

ونعود مجدداً إلى الشام، فنجد أنه بعدما قامت الدولة الاخشيدية في مصر، قام الاخشيد بمد نفوذه إلى بلاد الشام، ولقد دخلت حلب في سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م في حوزة الدولة الاخشيدية، إنما بشكل رسمي فقط، حيث عين الاخشيد أحمد بن سعيد بن عباس الكلابي نائباً عنه وواليأ على حلب. وفي هذه الفترة وصل إلى شمال الشام والجزيرة جموع جديدة من بداة شبه الجزيرة العربية، وضمت هذه الجموع مجموعات من قبيلة كلاب، وقبيلة نمير، وقبيلة قشير، وقبيلة عقيل، ولقد سببت هذه الهجرة فوضى سياسية كبيرة في شمال بلاد الشام والجزيرة، وهكذا لم تستقم الأمور للاخشيد في حلب. وفي سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م فوض الخليفة الراضي لمحمد بن رائق أمور حلب، فجاء إلى حلب وانتزعها من نواب الاخشيد، لكن الاخشيد استرد حلب منه، وكان ابن رائق مهتماً بالصراعات السياسية في بغداد أكثر من اهتمامه بحلب، ونتيجة للصراع على إمرة الأمراء والتحكم بالخليفة العباسي والخلافة، اضطر ابن رائق إلى الالتجاء في سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٤م إلى ناصر الدولة في الموصل، وقام ناصر الدولة بقتل محمد بن رائق، ومد بصره نحو بلاد الشام، وأراد الآن أن يسيطر على القسم الشمالي من البلاد، وهكذا حصلت المواجهة بين الحمدانيين والاخشيد، ولم تكلل جهود ناصر الدولة الأولى بالنجاح، وأبقى الاخشيد ولاية حلب في يد أحمد بن سعيد الكلابي.

وكانت قبيلة كلاب متميزة بالتمزق والخلاف بين رجالاتها، والتحاسد والتناحر والبغضاء بين زعاماتها، وقد دفع هذا بعض أمراء كلاب إلى السفر نحو الموصل، فاتصلوا بعلي بن عبدالله أخي ناصر الدولة، ودعوه للذهاب معهم إلى حلب، وتسلم مقاليد الأمور فيها. وكان علي، الذي شهر بلقب سيف الدولة، حاكماً لمدينة نصيبين، وكان قد مل الصراعات حول السلطة في بغداد، وسئم من مشاريع اخيه، لذلك لاقت الدعوة الكلابية هوى في نفسه، فعزم على الذهاب، وعرض الأمر على أخيه، فوافق بعد تردد، وتحرك سيف الدولة نحو الشام بصحبة الكلابيين حيث لم يكن لديه جيش خاص به، واستطاع أن يدخل حلب دون مقاومة في ٨ ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ/ ١٧ تشرين الأول ٩٤٤م، وبذلك بدأ عهداً جديداً في تاريخ شمالي بلاد الشام.

ولم يقبل الاخشيد باستيلاء سيف الدولة على حلب، وقام صراع حاد بين الأمير الحمداني وصاحب مصر، وكانت هنالك جولات من القتال تمكن خلالها سيف الدولة من السيطرة على دمشق، وتوحيد شمال الشام مع جنوبه، لكن الدولة الاخشيدية لم تسلم للأمر، وحشدت قواتها، وكانت كبيرة، واستطاعت إيقاع الهزيمة في صفوف سيف الدولة، ولم تكتف بانتزاع دمشق منه، بل انتزعت مدينة حلب أيضاً لفترة قصيرة، وأخيراً عقد اتفاق في سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م بين الدولة الاخشيدية وسيف الدولة، ترك بموجبه حكم الشام الشمالي لسيف الدولة، وعليه يمكن اعتبار هذه السنة هي البداية الفعلية لقيام الدولة الحمدانية في حلب.

والتفت بعد هذا سيف الدولة إلى دولته، فوطد امورها، وأقام لنفسه بلاطاً فخماً أراد أن يضاهي به بلاط بغداد وغيرها من حواضر الاسلام، وجمع في هذا البلاط عدداً كبيراً من العلماء في كل فن والشعراء، وكان على رأس الشعراء المتنبي، ثم ابو فراس ومن الأدباء ابن خالويه، ثم من الفلاسفة العلماء الفارابي وعدد آخر كبير، ولقد استخدم سيف الدولة رجال بلاطه للدعاية له ولحكمه، والواقع أن شهرة سيف الدولة وعظمته قائمة على ما صنعه رجال بلاطه من دعاية له، وخاصة المتنبي، أكثر من صدورها عن أعمال جليلة قام بها أو تمت في عصره.

ولم يقم سيف الدولة داخل مدينة حلب، بل ابتنى لنفسه قصراً كبيراً خارج أسوار المدينة، حوّل إليه قناة ماء من نهر قويق، ويلاحظ هنا أنه لم يول قلعة حلب أية عناية، حيث لم يقم بترميمها ولا بتقوية دفاعاتها، كل هذا على الرغم من إحاطة المخاطر به وبدولته من كل جانب، وخاصة من الشمال حيث الدولة البيزنطية.

لقد قامت عقلية سيف الدولة الحربية على

أساس الهجوم وليس على مبدأ الدفاع، وفي الحقيقة شغل سيف الدولة معظم وقته في الأعمال الحربية ضد الامبراطورية البيزنطية، وكانت هذه الامبراطورية تعيش فترة استفاقة وتجميع قوة، وقد تهيأ لها عدد من القادة والأباطرة العظام. وخاض سيف الدولة بإمكاناته المحدودة حروباً طويلة ومعارك مريرة ضد هذه الامبراطورية، ولم تكن حروب سيف الدولة حروباً توسعية هادفة، بل امتازت بأنها كانت مجرد غارات بدون أهداف هجومية واضحة، لقد كان غالبيتها له مقاصد دفاعية.

ويلاحظ هنا أنه مهما كانت مقاصد سيف الدولة وخططه، فإن نشاطاته العسكرية أنزلت ضربات مؤلمة جداً بالبيزنطيين، مما دفع الادارة البيزنطية إلى تدارس الوضع بشكل علمي خاصة داخل مؤسساتها العسكرية، وأخيراً جرى وضع أسس استراتيجية عسكرية للتعامل معه، وقضت هذه الأسس بوضع حاميات كبيرة في بعض مراكز الحدود تحت قيادة ضباط كبار، وتجديد وسائل الاتصال السريعة بين مراكز الحدود والقصر الامبراطوري في القسطنطينية عن طريق الشارات النارية والدخان والمرايا العاكسة، ومركزة قوى مراقبة في المناطق الجبلية والمعابر الصعبة التي كانت قوات سيف الدولة تعبر منها جبال طوروس إلى داخل الأراضي البيزنطية.

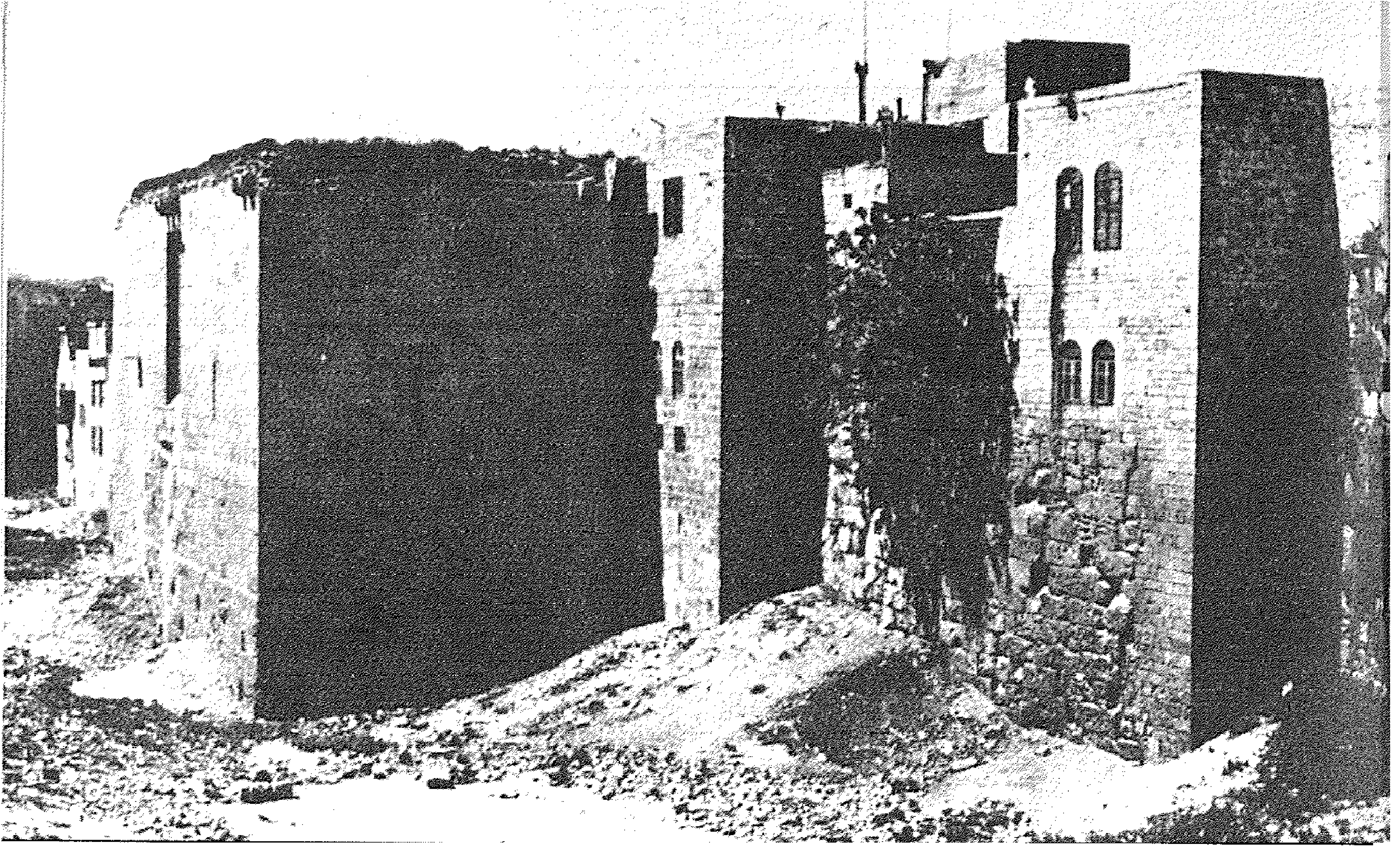
وقضت الخطط البيزنطية الآن بأن يبلغ المراقبون في الجبال القيادات الحدودية، فتسرع هذه إلى حشد قواها وإبلاغ العاصمة، وبعد عملية الحشد هذه يتم إرسال عدة كتائب من الفرسان تتولى مهام منع قوات سيف الدولة من تحقيق أهدافها بنجاح، ويطلب منها عدم الاشتباك بمعركة عامة مع القوات العربية،وفي نفس الوقت ترسل القيادة البيزنطية قواتها من المشاة نحو الممرات الجبلية، لتتمركز هناك، وتقوم بقطع الطريق على سيف الدولة وعساكره أثناء العودة، وبالفعل نفذت بيزنطة خططها هذه بنجاح تام، فأنزلت ضربات مدمرة بسيف الدولة وقواته.

وكان قد نجم عن سياسة سيف الدولة العسكرية، وتكوينه لبلاطه عدة نتائج خطيرة، فلقد احتاج بلاطه واحتاجت حملاته إلى نفقات مالية كبيرة للغاية، وقام سيف الدولة بجمع هذه النفقات من المصادرات والضرائب الثقيلة، وباللجوء إلى مبدأ رأسمالية الدولة في احتكار الاستيراد والتصدير، وفرض الأسعار الموائمة للسلطة في البيع والشراء، ولذلك شكا الناس من معاصري سيف الدولة من ثقل ضرائبه وغلظة إدارته المالية، وبرز هذا بشكل واضح في كتابات ابن حوقل الجغرافي، والمهلبي صاحب كتاب المسالك والممالك، المعروف باسم الكتاب العزيزي، وعند القاضي عبدالجبار الهمذاني إمام المعتزلة في أيامه، وتجلى في كتاب سير الثغور لأبي عثمان الطرسوسي، وغير ذلك من مصادر معاصرة، حتى أن الخليفة المعزلدين الفاطمي كتب في رسالة له وجهها إلى قائده جوهر الصقلبي أثناء العمل على فتح مصر، كتب يقول: «بنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم، وليس لهم فيها نصيب: يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم، وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة».

إن هذه الحالة ممتعة للباحث التاريخي، تزيل من أمام ناظريه غشاوة صوت الاعلام والدعاية، وتمنعه من الايمان بدور البطل الفرد، ومهما يكن الحال يعزو ابن حوقل إلى أن سياسة سيف الدولة المالية قد أرغمت بقايا قبيلة تغلب، وكان عددها يقدر بحوالي العشرة آلاف، وكانوا يدعون ببني حُبيب، أرغمتهم على ترك الجزيرة والهجرة إلى داخل الأراضي البيزنطية، والتخلي عن الاسلام، وتبني النصرانية والحرب مع بيزنطة ضد سيف الدولة والعرب والمسلمين.

ونظراً لانعدام القاعدة القبلية لحكم سيف الدولة فقد قام بتجنيد عدد كبير من الغلمان الأتراك والديلم، مثلما جرت العادة في بغداد، ولم تنفعه قواته هذه، وقام بعض أفرادها في أواخر عهد سيف الدولة بالثورة عليه.

وآل الصدام مع بيزنطة، واستراتيجيتها الجديدة إلى إنزال عدة ضربات مميتة بسيف الدولة، نجا من إحداها بحشاشة نفسه بكل صعوبة، وتمكنت بيزنطة من احتلال مناطق الثغور الحصينة، وأخذت طرسوس وأنطاكية، وتفرغت لحلب، وأخيراً تمكن البيزنطيون، في سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م من اختراق مدينة حلب، عاصمة



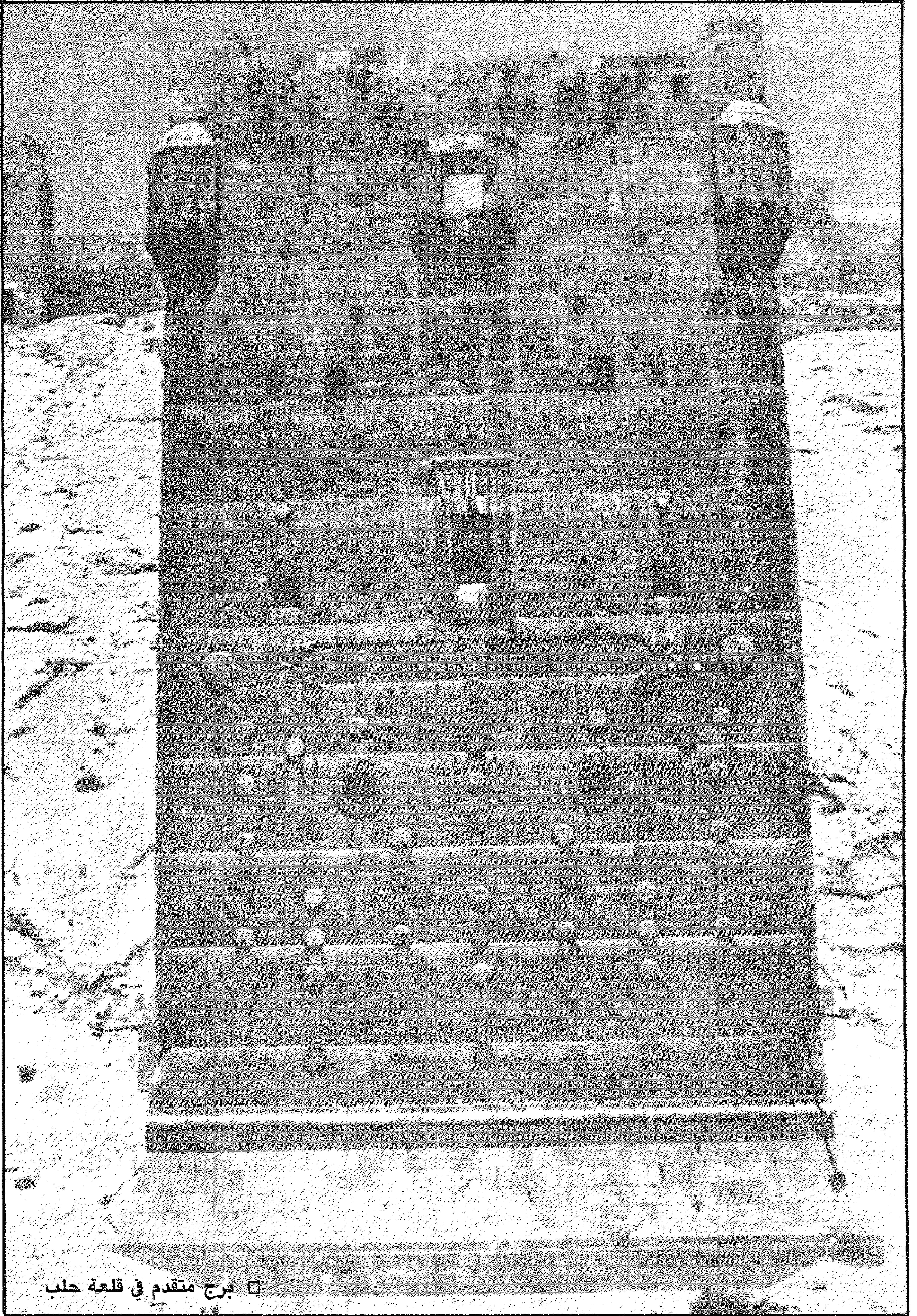
□ سور حلب مع الأبراج.

ملك سيف الدولة، ولقد دمر الجيش البيزنطي هذه المدينة الجليلة تدميراً فظيعاً، وجمع منها غنائم هائلة الكمية، واقتاد قطار من الأسرى فيه ما يزيد على عشرين ألف فتاة وفتى.

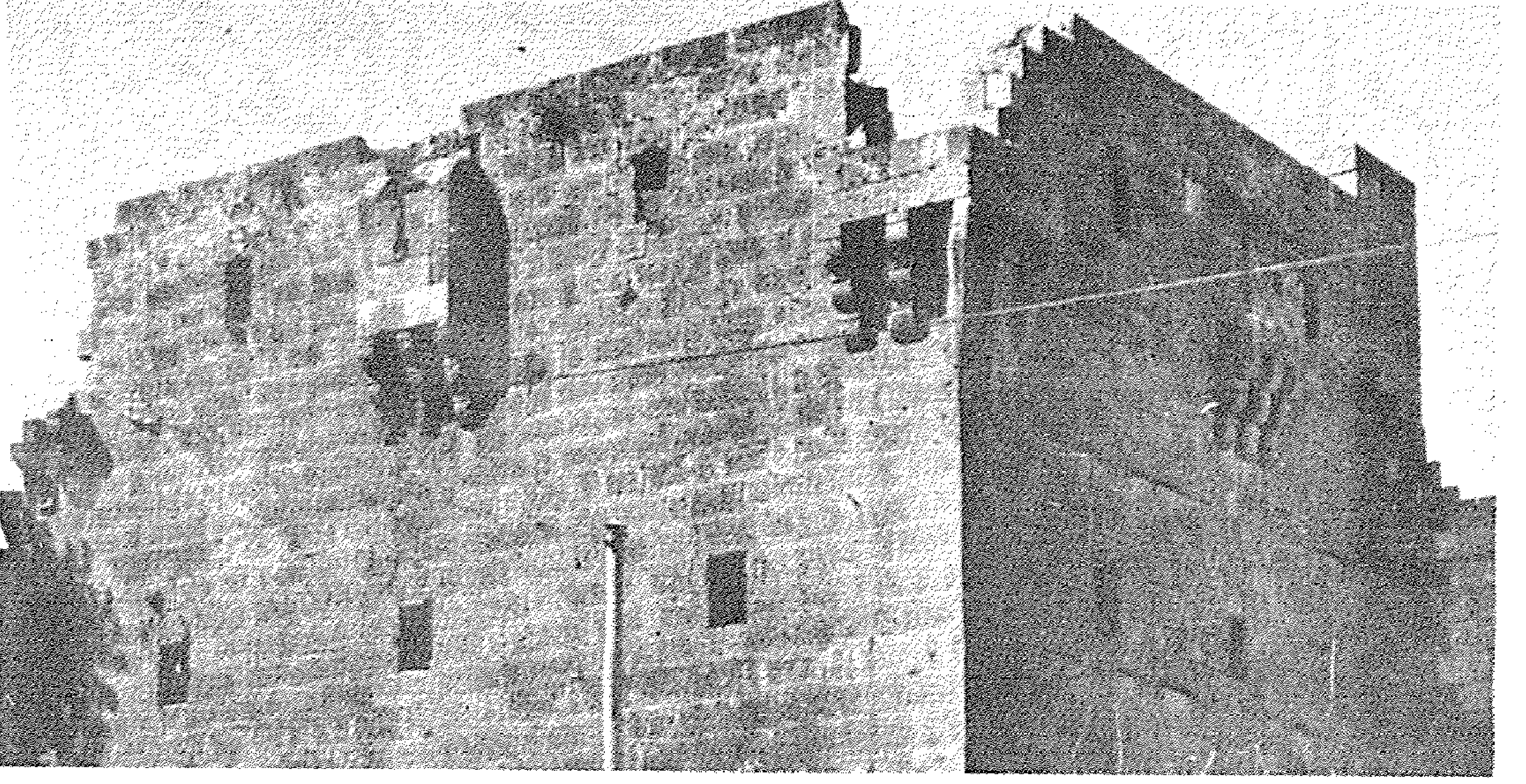
ولم يستطع سيف الدولة القيام بأي عمل ناجع، يدفع به الجيش البيزنطي عن حلب، وأثر سقوط حلب على سيف الدولة تأثيراً كبيراً سبب مرضه الشديد، كما سبب له كثيراً من المشاكل المعقدة، وهكذا انفرط عقد دولته وأخذت الثورات تتفجر ضده في كل مكان، واستمر الضغط البيزنطي عليه يستهدف تصفيته جسدياً وتصفية دولته نهائياً، وأصيب سيف الدولة بالفالج، وفي صفر من عام ٣٥٦هـ/ كانون ثاني ٩٦٧م، اشتد المرض على سيف الدولة واستبد به فتوفي في حلب، وحمل تابوته منها إلى ميافارقين، فدفن فيها.

وعندما توفي سيف الدولة، كان ولده سعد الدولة، أبو المعالي شريف في ميافارقين مع والدته، فاستدعي إلى حلب، فقدمها ودخلها، وتسلم منصب الامرة فيها، لكن إسمياً، فقد كانت مقاليد الأمور في يد حاجب أبيه قرعويه، وكان من أصل تركي. وفي مطلع عهد سعد الدولة ثار ضده خاله أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان، فارس بني حمدان وشاعرهم، ثار في منطقة حمص، وتمكن قرعويه من القضاء على الثورة وقتل هذا الشاعر المشهور.

ولم يتوقف نشاط بيزنطة وأعمالها ضد بلاد الشام زمن سعد الدولة، وكان على رأسها الامبراطور نقفور فوقاس، وقد أضعف ذلك حكم سعد الدولة. وحاول سعد الدولة مباشرة الأمور بنفسه، فمنعه قرعويه، حيث استولى على الأمور في حلب، واستبد بها، ومنع سعد الدولة من الدخول إلى المدينة، وكان ذلك في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م. واستطاع سعد الدولة تكوين قوة قادها ضد حلب، فحاصرها، فاستنجد قرعويه بالامبراطورية البيزنطية، واستغل البيزنطيون الفرصة فوسعوا ممتلكاتهم في منطقة الثغور وسواحل أنطاكية، كما استولوا على حلب مجدداً، ولم ينسحبوا منها إلا بعد وضع معاهدة مفصلة، احتفظ لنا ابن العديم مؤرخ حلب بنصها، وتعتبر هذه المعاهدة من أهم وثائق القرن العاشر، وفيها



□ برج متقدم في قلعة حلب.



□ باب الحديد.

مادة سياسية وتجارية واجتماعية ودينية هامة جداً.

وظلت حلب تحت حكم غلمان سيف الدولة حتى ما بعد سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م حيث استطاع سعد الدولة العودة إليها، ولقد خاض سعد الدولة بعض المعارك ضد بيزنطة، لكنه استنجد بها أكثر من مرة لحمايته من المخاطر التي جاءته من دمشق وغيرها، حيث كان الفاطميون قد احتلوا مصر وجنوب الشام، وفي لجة الفوضى والاضطراب توفي سعد الدولة سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م فخلفه ابنه أبو الفضائل سعيد.

وأصبح سعيد الدولة أميراً على حلب غداة وفاة أبيه، ولكنه لم يكن أوفر حظاً من أبيه، فكان أميراً بالاسم فقط، حيث أن مقاليد الأمور آلت الآن إلى يد واحد من غلمان جده سيف الدولة، وإسمه لؤلؤ السيفي الكبير.

وتمتاز فترة حكم أبي الفضائل سعيد الدولة مع الفترات التي تلتها بمحاولات الخلافة الفاطمية الملحة والمتكررة للاستيلاء على حلب، وتدخل بيزنطة المباشر وغير المباشر لحماية حلب ومنع الفاطميين من أخذها. لقد أرادت بيزنطة إبقاء حلب بمثابة دولة حاجزة بينها وبين الخلافة الفاطمية وسوقاً مفتوحة للاستيراد والتصدير.

وقد بقي أبو الفضائل في منصبه حتى توفي مسموماً في سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م ويعتبر موته هذا التاريخ الفعلي لانتهاء الحكم الحمداني في حلب.

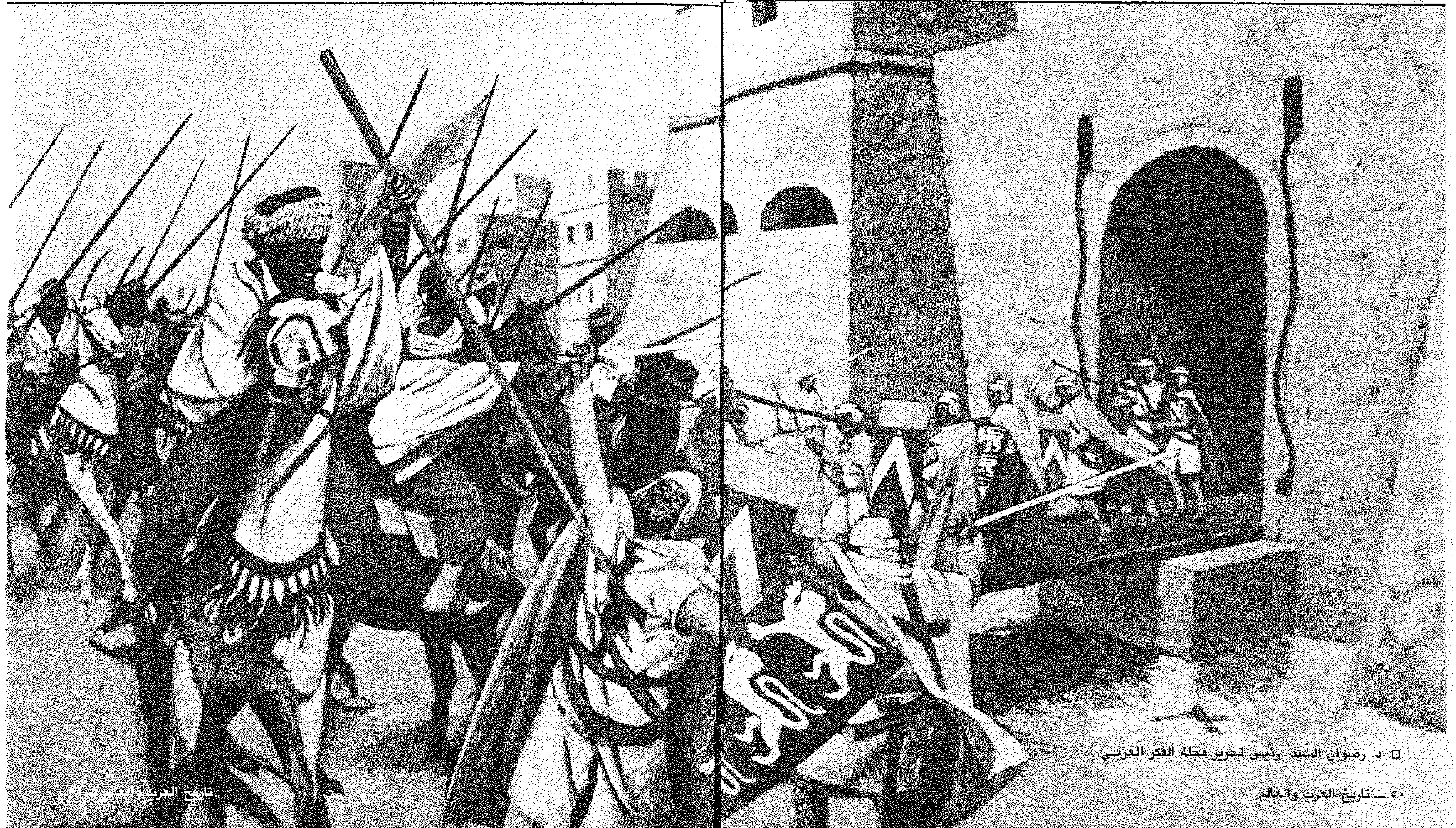
وبعدما توفي حكم لؤلؤ أولاً لفترة وجيزة باسم طغليه (سعيد الدولة) وكانا يدعيان بأبي الحسن علي وأبي المعالي شريف، واتصل لؤلؤ مع القاهرة واعترف بسيادتها، فشجعته وساعدته، فقام بنفي الأميرين الحمدانيين إلى مصر، وأعلن نفسه حاكماً منفرداً لحلب، وساعده في حكمه ابنه منصور، ويعتبر حكم لؤلؤ مع ابنه فترة انتقال مرت ما بين زوال الدولة الحمدانية، وقيام دولة جديدة أخرى في حلب، هي الدولة المرداسية، وأهم ما حدث زمن لؤلؤ وابنه منصور كان محاولات قبيلة كلاب بزعامة صالح بن مرداس السيطرة على حلب.

فقد استعادت قبيلة كلاب وحدتها تحت زعامة صالح بن مرداس، فاحتلت الرحبة (قرب الميادين الحالية) وازداد نفوذها في المنطقة ودخل صالح في صراع مكشوف مع منصور بن لؤلؤ، وعلى الرغم من تدخل كل من القسطنطينية والقاهرة في هذا الصراع تمكن من احتلال حلب سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م، فأنهى بذلك بقايا الدولة الحمدانية وأقام دولة عربية جديدة في شمالي بلاد الشام.

ابن عساكر وتحرير بلاد الشام

د. رضوان السيد

«... وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت اجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف اهلها عن كف عاديتهم، وتتابعت غزواتهم.. وامتدت مملكتهم إلى عريش مصر، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق.. وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر...»[1].



□ د. رضوان السيد رئيس تحرير مجلة الفكر العربي



كان هذا واقع بلاد الشام مطالع القرن الخامس الهجري، فقد احتلت الفرنجة سواحلها، وأحاطت بداخلها، ولم تبق إلا مدائنها الأربع التي ذكرها **ابو شامة** جزرا معزولة في بحر من مدائن احتلها هؤلاء، وغلبت عليهم خيلهم ورجلهم. ووسط هذه المحنة الصماء التي نزلت بهذا الثغر العظيم من ثغور الاسلام ولد أبو القاسم علي بمدينة دمشق عام ٤٩٩هـ، في أسرة علم وفقه وحديث وزهد.

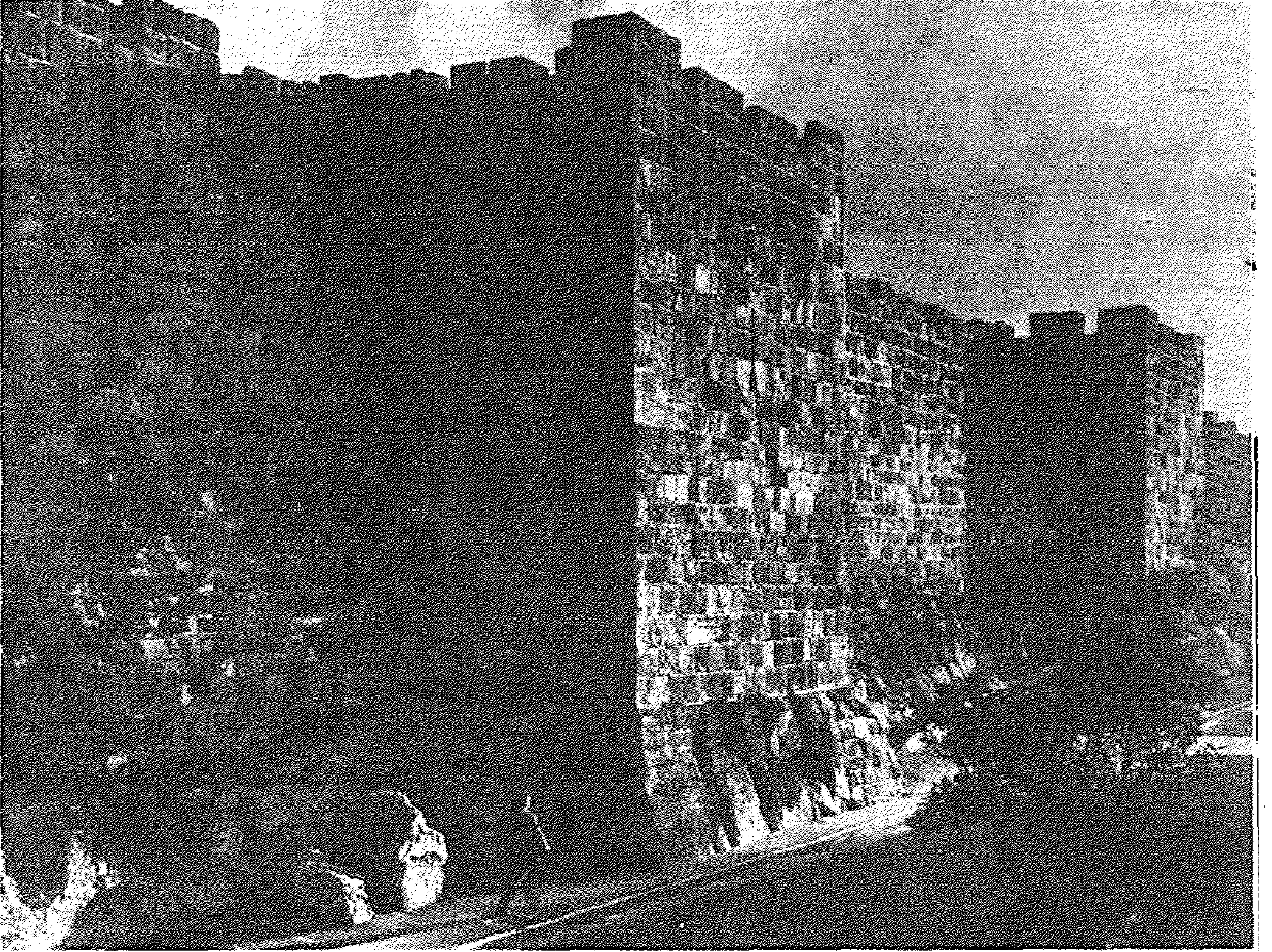
وقد درس الفتى علي على يد والده الحسن بن هبة الله أول الأمر، ثم أخذ عن أخيه الأكبر صائن الدين هبة الله، وجده لأمه يحيى بن علي القرشي. لكن دمشق وبلاد الشام اللتين كانتا تعانيان من غزوات البيزنطيين مذ ضعف الفاطميون وتراجعوا واختلفوا، ثم من غزوات الفرنجة الذين أغاروا واحتلوا، لم تعودا البيئة التي يمكن أن تشبع نهم فتىً طلعة. فما أن اشتد عوده حتى غادر دمشق والشام متابعا تلك السلسلة الطويلة من الشبان الراحلين في طلب العلم. خرج ابن عساكر إلى بغداد عام ٥٢٠هـ، وقد شدا شيئا من علم القرآن والعربية والرواية والفقه فأخذ عن علمائها، وأفادهم من محفوظاته ورواياته[٢]. ومن هناك حج وعرف علماء الحرمين، وأولئك الحجاج من كبار رجال العلم في مشرق العالم الاسلامي. وربما بدا هناك تطلعه للرحلة إلى المشرق استكمالا لرحاته العلمية، وتعرفا على عوالم العلم الاسلامي الأخرى هناك مما لم يكن شائعا ببلاد الشام أو مزدهرا ببغداد[٣].

عاد ابن عساكر إلى مسقط رأسه دمشق فوجد المحنة بالفرنجة والفتن الداخلية نتيجة ضعف الحكام وتشرذمهم على ما كانت عليه قبل رحلته. فقد قتل أمير المدينة الشجاع بوري بن طغتكين (٥٢٦هـ) الذي ظل بامكانياته الضعيفة يدفع عن البلاد هجمات المعتدين طوال خمس وعشرين عاما. ولم تستطع السلطة بدمشق بعد بوري أن تشكل التحدي المطلوب لزحوف الفرنجة. لكن وسط هذه الظلمة الحالكة بدأت أولى انتصارات المسلمين الصغيرة في مواجهة الغزاة في مكان آخر من بلاد الشام في الجزيرة وما حولها عندما ظهر صاحب الموصل عماد الدين زنكي فوحد المنطقة هناك وانتزع حصن الأثارب من أعداء الأمة (٥٢٤هـ).

* * *

وقف ابن عساكر وسط كوكبة من فقهاء دمشق ومحدثيها في قلب جماعة المدينة وعامتها، رأت مهمتها في وجه الغزو الصليبي أمرين اثنين: الجهاد والوحدة. ولسنا نملك من تراث ابن عساكر ما يعيننا على رسم صورة واضحة لرؤيته الفقهية للسلطة في عالم الاسلام في عصره، إنما كان همه أن تقوم سلطة موحدة تضم الشتات، وتضرب العدو الغازي. ويبدو انه بدأ التفكير في جمع تراث بلاد الشام في تاريخ كبير في عشرينات ذلك القرن المليئة بالأحداث. ولا شك أن رحلته إلى بغداد التي عرفته على تاريخها الذي وضعه الخطيب البغدادي (ـ ٤٦٣هـ) أطلقت النوازع الكامنة لمحاولة ضخمة كهذه، بيد أن أحداث بلاد الشام المعاصرة ظلت الدافع الأساسي. فلم يكن الحافظ ابن عساكر رجل حرب وسنان، كما انه لم يكن بوسعه في قلب جماعة بلاد الشام أن يتجاهل الأزمة المستعصية على مستوى السلطة، ومستوى مقاومة الغزاة. من هنا، كان **تاريخه الكبير** الذي يؤصل «التاريخ»، يؤصل الاستمرار والعراقة بدمشق والشام منذ بدء الخليقة وإلى ان يرث الله الأرض ومن عليها: هو القول الواضح في طريقة مكافحة الغزاة وبناء الجماعة الواحدة في عالم الاسلام من جديد[٤]. وليست مسألة **الوحدة والجهاد** مسألة تقدم هذا الأمر أو ذاك عند الحافظ. فلا وحدة بغير جهاد، ولا جهاد بغير وحدة. ففي الوقت الذي كان فيه الحافظ يؤلف تاريخ بلاد الشام، ويكتب رسائل ومجالس في عراقة كل قرية من قراها (المزة، والربوة، والنيرب، وجسرين، وبرزة، وكفربطنا، ومبنين... الخ)، كتب رسالته في **الحث على الجهاد** التي روى فيها أن «أبواب الجنة تحت ظلال السيوف». هكذا كانت بلاد الشام في نظر الحافظ تقاتل **هؤلاء الطارئين** بسيوف أبنائها، كما تقاتلهم بعراقتها وتاريخها واستمراريتها هي الباقية وهم الزائلون. فأهل الشام «حصن الأمة» وهم إلى «منتهى الجزيرة مرابطون».

إن هذا هو الفارق الرئيسي بين محاولة الخطيب حافظ بغداد، ومحاولة ابن عساكر حافظ



□ أسوار مدينة القدس (من كتاب القلاع ايام الحروب الصليبية). ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلاّد، مركز الدراسات العسكرية ١٩٨٢.

الشام. فقد كانت إشكالية الخطيب إسلامية داخلية: تنافح عن اتجاه داخل الاسلام هو الاتجاه الأشعري، وتتحفز في مواجهة المعتزلة وبني عُبيد الذين كانوا مسيطرين أيامه في مصر والشام. أما ابن عساكر فقد كان يؤصل لوحدة مجاهدة تستجمع كل شيء في وجه التمزق الداخلي والعدو الزاحف. واشعرية ابن عساكر (التي يأتي في نطاقها كتابه في الذب عن الأشعري) تأتي في المرتبة الثانية.

* * *

خرج ابن عساكر من دمشق للمرة الثانية أوائل ثلاثينيات القرن السادس الهجري في رحلة علمية باتجاه مشرق العالم الاسلامي، فزار مراكز العلم الاسلامي الكبرى هناك: همذان وتبريز وهراة ومرو وأصبهان ونيسابور. لكنه وهو يجمع الأجزاء الحديثية، ويأخذ عن كبار الشيوخ، ويعمق التلوين الأشعري في عقيدته، ظلت دمشق، وظل الشام، حاضرين في خلده وتصرفاته ومروياته. لقد بحث عن دمشق في أسانيد الأحاديث والرحلة، وبحث عن دمشق في حكايات أولئك الذين زاروها أو عرفوا رجالاتها في مواسم الحج والزيارة. وعندما رجع إلى الشام ودمشق «بسماعات غزيرة، وكتب عظيمة لم تدخل الشام قبله»، سخر ذلك كله لتاريخه الكبير، همه الأوحد في محاولته المناضلة تلك.

ووجد عند عودته أن أفكار عماد الدين زنكي الأولية حول التوحيد والجهاد في سياق واحد تتبلور في مساع حثيثة لتوحيد بلاد الشام وإخراج الفرنجة منها في الوقت نفسه، فقد توالت انتصاراته وجهوده التوحيدية حتى لم يبق غير دمشق خارج نطاق سيطرة مجاهديه. وقد أدرك الطرفان: الزنكيون من جهة، والصليبيون من جهة ثانية، ان السيطرة على دمشق هي المقدمة للسيطرة على القدس وساحل بلاد الشام، فحاول

الطرفان أن يضعا دمشق في نطاق سلطتهما. واستشهد عمادالدين أمام قلعة جعبر عام ٥٤١هـ فهاجم الفرنجة دمشق عام ٥٤٣هـ، واستطاعت جماعتها ردهم بعد لأي ومشقة. لكن النهضة الاسلامية لم تخمدها شهادة عمادالدين بل غذتها وقوتها فتابع ابنه نورالدين محمود المسيرة إلى نهايتها ودخل دمشق عام ٥٤٩هـ. هكذا لم تبق بين المسلمين والقدس غير رمية حجر:

كأني بهذا العزم لافُلَّ حَدُّهُ
واقصاه بالأقصى وقد قُضِيَ الأمْرُ
وقد أصبح البيتُ المقدَّسُ طاهراً
وليس سوى جاري الدماءِ له طُهْرُ

عندما أعلن ابن عساكر انحيازه إلى السلطة قائدة النهضة الاسلامية تلك؛ فلنورالدين ألف اربعينيته في الجهاد: «أما بعد، فإن الملك **العادل الزاهد المجاهد المرابط**.. أحب أن أجمع له اربعين حديثا في الجهاد...». إن هذه الكلمات القليلة في مطلع هذا المجموع الحديثي تحدد أسباب تأييد ابن عساكر لنورالدين: **أنه عادل في** الداخل، **والعدل موحد**، «فلم يكن الله عز وجل **ليظهر أهل فرقة على جماعة أبدا**». إن المسلمين الموحدين لا يمكن أن يهزموا، ولا شيء كالعدل يوحدهم تحت راية الجهاد المحرر. وابن عساكر يؤيد نورالدين لأنه **مجاهد مرابط**. هنا يتجاهل ابن عساكر «أصل السلطة» ـ أي مسألة شرعيتها، لصالح «وظيفيتها»[٥]. إن نورالدين يستحق الدعم والتأييد لأنه مرابط في ثغر الاسلام، ولأنه مجاهد من أجل التحرير. فإذا أضفنا لذلك عدلة بين المسلمين الذين يقودهم في حروب التحرير هذه، يصبح الاعتراف بشرعيته ضرورة منطقية. لقد تقدمت اعتبارات الوحدة والجهاد عند مؤرخ دمشق، وحافظ الشام على كل أمر آخر. وقد أدرك نورالدين نفسه أهمية محاولة ابن عساكر الثقافية لمسألتي الوحدة والجهاد فاستحثه على اتمامها. يقول ابن عساكر في مقدمة **تاريخ دمشق الكبير**[٦]: «... ورقي خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمقام الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام أبـي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر.. وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز له والاستتمام.. فراجعت العمل فيه راجيا الظفر بالتمام...».

* * *

وإذا كانت اللحظة السياسية الاسلامية حاضرة تماما في تاريخ **دمشق** الكبير كله، كما حضرت في آثار ابن عساكر الأخرى وأجزائه ومجالسه، فإن هذه اللحظة تزداد تجذراً بتحدد مضامينها عن طريق ظهور لحظتين أخريين في نطاقها الواسع: اللحظة السلفية واللحظة العربية. أما اللحظة السلفية فتبدو في تراجم ابن عساكر للرجال في التاريخ. انه يؤكد في نماذجه على اتباع الدمشقيين والشاميين بعامة سيرة السلف. يذكر ذلك في مقدمته للتاريخ، ثم في الأكثرية الساحقة لسير الرجال الذين ترجم لهم. تقف السنة عنده في مواجهة البدعة من جهة، وتقف سيرة السلف في مواجهة ابتداع بعض الخلف، وخروجهم على مفهوم الاسلام/ الدين باتجاه الفرقة أو الشرذمة. انه الاسلام الجامع الموحد والقائم على مفهوم الجماعة. فإذا كانت الوحدة السياسية تتحقق بإمام عادل مجاهد، فإن التأسيس لهذه الوحدة يقوم على عقيدة جامعة تمتد عبر آلاف الرجال منذ الصحابة الذين نزلوا بالشام ونشروا العلم وسيرة السلف فيها، وحتى الاتجاه الحديثي الأشعري المتصاعد أيامه. ولا يتجاهل ابن عساكر أولئك الذين يعتبرهم من المتبدعة أو رجال الفرق في تاريخ الشام، لكنه يترجم لهم بطريقة تشعر بتقابلها وتناقضها وسوء عاقبتها في مواجهة سلفية الكثرة الكاثرة من رجالات ذلك الثغر الاسلامي عبر الحقب المتطاولة. إن الوحدة السياسية الشامية لن تستمر إذا تحققت إلا على أساس من عقيدة سلفية واحدة. تؤسس وحدة الداخل، وتوجه جهد المسلمين لمجاهدة الخارج المعتدي بدلا من التشرذم في الداخل حول قضايا عقيدية أو فقهية. وقد بنى نورالدين للحافظ ابن عساكر دار الحديث النورية لنشر عقيدة السلف ذات التلوين الأشعري في أوساط الشادين ورواة الحديث.

أما اللحظة العربية فتبدو عند ابن عساكر استردادية متفرعة على سلفيته. إن العرب المسلمين هم فتحوا «سورية»، وحولوها إلى «بلاد

الشــام» ضمن دار الاســلام. هكــذا ارتبــط «الجهــاد» الشامي بــالعرب، كمــا ارتبــط بهم التحرير. وقد كانت تلك الأزمة الصليبية باعثا لكثير من الناس على الاعتقاد ان أولئك الذين حــرروها وصنعــوهــا أول مــرة، هم الكفيلون بتوحيدها وتحريرها للمرة الثانية. من هنا كان قول الشاعر الشامي في نورالدين:

تــدارك مــلة العــربيّ ذَبّــا
إلى ان عَــدّهُ مــنــهــا مَــعَــدُّ

إن العرب هم الكفيلون بحماية ملة **النبي العربي**، وإن نورالدين الذي تصـدى للقيام بهذه المهمة صار معديا عربيا بالاقدام على ذلك. هؤلاء العرب (الأعراب) سكان بلاد الشام الذين ينهضون لتحريرها، والذين رابطوا في ثغورها عبر العصور، ينطلقون منها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. بل انه لن تبقى أرض عربية في نهاية الزمان غير أرض الشام: «أول الناس هــلاكا الفرس ثم العرب إلا بقايا هــا هنا ــ يعني بالشام»(٧).

فلما صارت دمشق حاضرة نورالدين، رأى ابن عساكر انه لا عذر له في القعود عن تحرير باقي الأرض العربية الشامية، فلسطين:

وإن بذلْتَ لفتح القدس محتسِباً
للأجر جوزيتَ خيراً غير محتسبِ
ولست تُعْذَرُ في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملِكُ من مصر إلى حَلَبِ

وتوفي نورالدين عام ٥٦٩هــ دون أن يتاح له وضع المنبر الذي صنع لبيت المقدس في موضعه من المسجد الأقصى. لكنه كان قد أعد للتحرير عدته لا بالجهاد فقط، بل بتوحيد الشام ومصر، وبــإرادة لا تلين من أجل طرد الغــزاة «فكان لا يرى إلا الجد في غزوهم بجهده وطاقته».

وقــد اشتد حــزن الحافــظ على نــورالدين (الشهيــد)، وخشي أن تتوقف عمليــة تحــريــر القدس، لكن صلاح الدين الذي لقيه بالشام، وحضر دروسه في ربيع الأول عام ٥٧٠هــ. طمأنه إلى انه ماض في خطة نورالدين للتحرير. بيد ان الأجل لم يهمل الحافظ ليــرى المسجد الأقصى فتوفي بدمشق في رجب سنة ٥٧١هــ. وصلى عليه السلطان صلاح الدين والذي كان قد احتمل من الحافظ تأنيبا مبطنا لعدم زحفه عــلى القدس مباشرة من دمشق. وكان الحافظ قد شرع في تــأليف كتــاب جــديــد في **الجهــاد** ليهــديــه لصلاح الدين هذه المرة.

وتقول بعض كتب التاريخ إن جنديا شاميا دخــل القدس ضمن جنــد صــلاح الدين عــام ٥٨٣هــ. قرأ بالأقصى أربعين الحافظ ابن عساكر في الجهاد بعد صلاة الجمعة، وفيها:

ــ مقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة.

ــ وان أبواب الجنة تحت ظلال السيوف.

الحواشي

(١) كتاب الروضتين ١/١٠؛ وكتاب الباهر، ص ٣٢ ــ ٣٣.

(٢) قارن عن شيوخ ابن عساكر البغداديين مقالة بشار عواد معروف في كتاب «ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته/ دمشق ١٩٧٩م، ص ٤١ ــ ٧٤. وقد اعجب به البغداديون وقالوا فيما يذكره ياقوت في إرشاد الاريب ٥/١٤٤: «قدم علينا من دمشق ثلاثة ما راينا مثلهم ــ الشيخ يوسف الدمشقي، والصائن ابو الحسن هبة الله بن الحسن، واخوه ابو القاسم...».

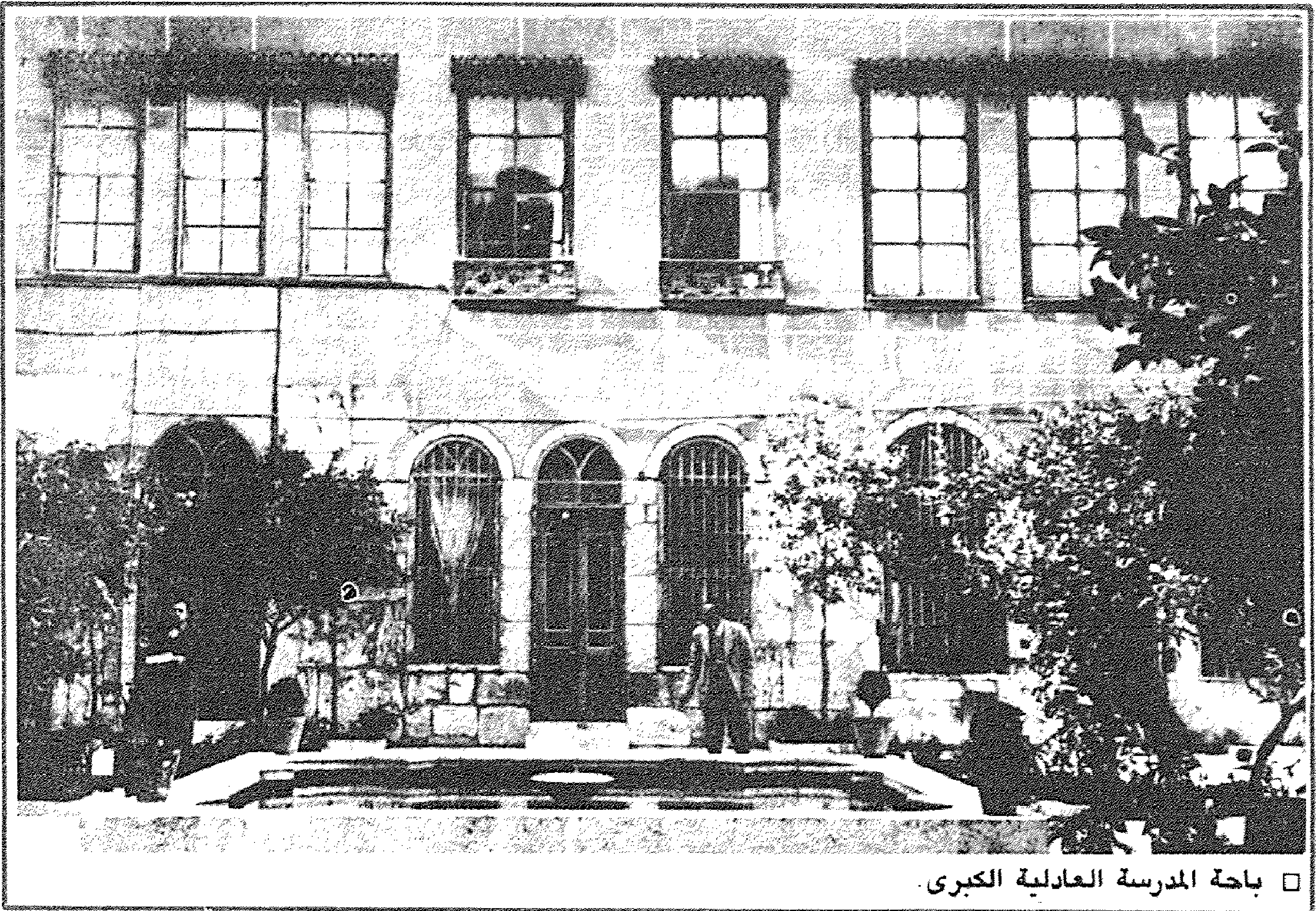
(٣) افدت كثيرا هنا من مقدمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام في كتاب: «ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته/ دمشق ١٩٧٩، ص ا ــ كه.

(٤) قارن بمقالتي بعنوان: «المأثورات التاريخية الشامية بين ابي زرعة الدمشقي وابن عساكر»، في الكتاب المذكور في الحاشية رقم (٢) ص ٥٧٧ ــ ٥٩٨.

(٥) انظر هذه المسألة في الفكر السياسي الاسلامي كتابي: «الأمة والجماعة والسلطة ــ دراسات في الفكر السياسي العربي الاسلامي»، بيروت، دار اقرا، نيسان ١٩٨٤.

(٦) تاريخ دمشق الكبير ١/٤.

(٧) تاريخ دمشق الكبير ١/٢٩٦ ــ ٢٩٨.



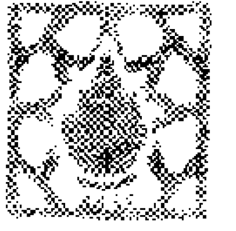
□ باحة المدرسة العادلية الكبرى.

التعليم في الشام في العصر الأيوبي

د. أمينة بيطار

الحديث عن التعليم في الشام في العصر الأيوبي، حديث يطول البحث فيه إذا دخلنا في تفاصيله، ويمكن تأليف عدة مجلدات في هذا المجال، لأن الحركة العلمية كانت نشطة، وأسباب هذا النشاط كان متعدد المناحي، إضافة إلى اهتمام الأيوبيين ببناء المدارس التي أخذت طابعا خاصا. وبرز في هذه الفترة علماء لمعت اسماؤهم، واندرجوا في أعمالهم العلمية ومؤلفاتهم في قائمة الخالدين. فإذا أردنا متابعة البحث في شخصيات العلماء، الذين كانوا أركان الحركة التعليمية، ومؤلفاتهم القيمة، ومن ثم التحدث عن الموظفين الاداريين وغيرهم، ومتابعة المدارس التي أسست وصفاتها الفنية، وأنواع العلوم السائدة في ذلك العصر بكل تفاصيلها، لعجز ذلك المقال المحدود الصفحات عن إيفاء الموضوع حقه. ولذلك سأعمل جاهدة على إعطاء لمحة عامة موجزة معبرة، أعمل فيها على إبراز أهم النقاط في هذا المجال، تاركة أمر التفاصيل في الجزئيات كل على حدة إلى مقالات أخرى بإذن الله.

□ د. امينة بيطار: جامعة دمشق ــ كلية الآداب.


تقدمت الحركة العلمية في الشام في العهدين الزنكي والأيوبي تقدما كبيرا وملموسا حتى كان حديث الناس في العهدين عن العلم والثقافة(١). كان هذا في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام من الناحية السياسية والعسكرية تعاني الكثير من الصعاب. فقد كان على القوى الحاكمة فيها مواجهة الصليبيين الذين أسسوا أربع إمارات لهم في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس وهم في أوج قوتهم(٢).

تمثلت الحركة العلمية في ذلك الوقت بانتشار المدارس المتخصصة ودور الحديث والخوانق والزوايا والمساجد، وكلها تحمل مهمة نشر العلم. فالمساجد لم تكن للصلاة وحدها، بل اتخذت كأماكن للتعليم وخاصة العلوم الدينية. وتلقى طلبة العلم فيها القرآن والحديث وفنونه، إضافة إلى علوم اللغة العربية، وكذلك كانت منازل العلماء تستخدم للغرض نفسه(٣).

ويبدو أن فكرة المدرسة الاسلامية خارج المسجد، اهتم بإنشائها ووجودها منذ أوائل العصر العباسي دون أن تتوضح وظائفها. فقد أوجد الخلفاء العباسيون الأوائل دور العلم وبيوت الحكمة لترجمة الكتب من اللغات الأخرى. وبعد ذلك ذكرت المصادر الاسلامية أسماء مدارس إسلامية مختصة، أسست في المشرق في خراسان وما وراء النهر منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وإذا كانت المدارس الاسلامية قد عرفت في المشرق منذ هذه الفترة، فلا بد أنها وجدت في غيرها من المناطق في نفس الفترة، أو في فترة لاحقة، وأن هناك إهمال في ذكرها، أو أن المؤلفات التي اهتمت بمثل هذه الموضوعات فقدت.

ومما ذكر عن المدارس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، يتضح أن الجرايات لأرباب المدارس قد عرفت. فقد رسم أبو حاتم بن حبان البستي التميمي دارا له كمدرسة، والحق بها مسكنا للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة. ولها جرايات دارة يستنفقونها. وفيها خزانة كتبه في يدي وصي سلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها في الصفّة من غير أن يخرجها منها(٤).

أما باكورة المدارس المستقلة عن المساجد في الشام، فقد تمثلت بالمدرسة الرشائية التي انشأها رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي في سنة ٤٤٤هـ في دمشق، وجعلها دارا لدراسة القرآن الكريم(٥). وتلا ذلك بعد فترة إنشاء مدارس متعددة في عهد عمادالدين زنكي وابنه نورالدين، الذي وسع مملكته التي انشأها أبوه، وسط تحديات الصليبيين الذين انزرعوا في قلب المنطقة، وكانوا لا يزالون حتى ذلك الحين يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على التوسع(٦).

لم تكن المدارس قبل عهد نورالدين في الشام تجاوز ست عشرة مدرسة، وارتفع عددها في عهده إلى ثمان وخمسين. أي بلغ عدد المدارس المحدثة في عهده وحده اثنتين وأربعين مدرسة، كان نصفها من بنائه شخصيا، إضافة إلى ما بناه كبار رجال الدولة. وقد تابع صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية وليدة الزنكية، السير على طريق سيده نورالدين، كما تابع ذلك خلفاؤه من بعده، حتى أصبح عدد المدارس في دمشق وحدها في هذه الفترة، زهاء تسعين مدرسة. ويحددها ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤هـ باثنتين وتسعين مدرسة، وتسعة عشر رباطا وتسع عشرة خانقاه.

وقد ساعد على هذه النهضة العلمية أن عددا كبيرا من سلاطين الأيوبيين كانوا من العلماء. فقد كان صلاح الدين نفسه حافظا للقرآن، وراوياً للحديث، وصاحب ذوق لطيف في رواية الشعر وحفظه. جمع بلاطه جمهرة من العلماء والكتاب، كالقاضي الفاضل والقاضي ابن شداد، وعماد الدين الكاتب. حتى قيل أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة بن حمدان ما اجتمع ببابه. وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء(٧). وكان يحضر مجالس هؤلاء العلماء، يستمع إليهم، ومن ثم فإنه يشاركهم في ابحاثهم(٨). كما برز عدد كبير من أبناء الأسرة الأيوبية في نظم الشعر وتأليف الكتب وتصنيفها من جهة، وبناء المدارس ورعاية رجالها وتأسيس المكتبات، واستصحاب العلماء والأدباء من جهة ثانية. فقد كان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين عالما بالحديث والنحو(٩). أما السلطان الكامل فالحديث عن علمه كثير، فهو يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم، وعنده شغف بسماع

الحديث النبوي. وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه يمتحن بها. فمن أجاب عنها قدمه وحظي عنده. وكان يبيت معه بالقلعة جماعة من أهل العلم ليسامروه[١٠].

كما نبغ من رجالهم المؤرخ المشهور أبو الفداء صاحب حماه، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، مؤلف كتاب المختصر في أخبار البشر وغيره من المؤلفات. وكذلك بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، المتوفى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م الذي كان شاعرا أديبا، والملك الناصر بن الملك المعظم المؤيد الأيوبي صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م. وكان من أهل العلم. اشتملت خزانته على مائة ألف مجلد، والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م. وكان راغبا في الأدب وأهله، حتى أنه أعطى لكل من يحفظ المفصّل للزمخشري مائة دينار وخلعة[١١].

وتعود أسباب نشاط الحركة التعليمية، وكثرة بناء المدارس في العصر الأيوبي إلى ما يلي:

١ ــ كان بناء المدارس في هذه الفترة، ضمن إطار حركة الاحياء الثقافي للمدارس الأربعة، ولدعم هذه المدارس في وجه خصومها عموما، التي كان لها السيطرة في المنطقة، قبل دخولها تحت طاعة السلاجقة والزنكيين ثم الأيوبيين، ويتضح هذا ويتأكد حين نذكر قول نورالدين لجماعة من الفقهاء حين استدعاهم إلى القلعة بحلب على أثر خلاف قام بينهم حول مواد التدريس في المدارس. فمنهم من مال إلى المذهب، ومنهم من مال إلى علم النظر والخلاف. فقال لهم نورالدين: «نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين»[١٢].

٢ ــ لم يكن النشاط العلمي الذي ظهر في هذه الفترة ترفا فكريا ولا إفرازا تقليديا لأجهزة الدولة، ولكنه عملية بناء ثقافي وتربوي واسع النطاق لشعب لاقى من التحديات إثر اكتساح موجات الصليبيين واحتلالها لأجزاء من بلاد الشام. وكان من غاياتها المتعددة طمس معالم الحضارة الاسلامية. فنهض أبناء الأمة وزعماؤهم الذين يعرفون كيف يحمون وجودهم ويحافظون على شخصيتهم الحضارية، ودينهم القويم، ببناء المدارس، واتخاذ الجوامع منبرا للارشاد والتثقيف عن طريق بناء الزوايا. وقد أثمرت هذه السياسة، وحقق العرب المسلمون النصر على الصليبيين في حطين وغيرها.

٣ ــ الاهتمام الكبير الذي حظي به العلماء والمدرسون. فقد وفر لهم نورالدين، ومن بعده صلاح الدين والأيوبيين عموما سبل الرعاية والتشجيع. كما وفروا لهم الدخل الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره[١٣]. ومن شدة اهتمام نورالدين بالعلم فإنه كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه، ويستقدمهم من أماكن بعيدة، ويفتح لهم المدارس الكثيرة، وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد كدافع لبناء مدرسة يقوم بالتدريس بها. فقد بنى نورالدين مدرسة لشرف الدين بن أبي عصرون في دمشق، وفوض إليه التدريس بها. وسمح له أن يوليها من شاء. وبنى لقطب الدين النيسابوري مدرسة لم يتمها[١٤].

٤ ــ كان الغاية من بناء المدارس تخريج موظفين وأساتذة متعمقين بفقه المدارس الأربعة، كيما يتولوا الوظائف الحكومية[١٥].

٥ ــ همة كل من نورالدين وصلاح الدين العالية في نشر الأمن والوقوف بحزم أمام الأعداء. فوثق الناس بحكامهم في الحفاظ على حياتهم، وانصرفوا للنهل من العلم. ولنا فيما كتبه أبو شامة أكبر دليل على ذلك، إذ قال: «حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربط، وترتيب أمورهم، والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم»[١٦].

٦ ــ كانت المدارس تدرس العلوم الدينية، لذلك قصد السلاطين والأمراء والأغنياء من تأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب. فقد رأوا فيها وسيلة لتعليم القرآن وتعاليم الدين الاسلامي، والتفقه بمذاهبه، ورجا آخرون الشهرة، وفريق ثالث كان يرى إنفاق ثروته فيما ينفع الناس، ويترك لهم ذكرى[١٧].

٧ ــ اعتمد سلاطين الأيوبيين على صناعة الحرب، وادركوا أهمية الاستفادة من تأثير علماء المسلمين والمتفقهة منهم خاصة في تثبيت سلطتهم

من جهة، والتقرب من الجماهير في المدن من جهة اخرى، ومن ثم دفعهم إلى الانخراط في الجيوش المقاتلة.

وعلى الرغم من كل ما قيل عن أسباب بناء المدارس، وأنها كانت لطمس حركات الهراتقة، فإنه يمكن القول، بأن الأيوبيين تسامحوا مع مخالفيهم في المذهب. فقد كانت المدارس في عهدهم تفتح للمذاهب الأربعة، على الرغم من انهم شوافعة. وزاد تسامحهم عندما أصبحوا بعضهم كالمعظم وابنه داود احنافا. وقد تبع ذلك حسن معاملتهم للمسيحيين شرقيين وغربيين، وكذلك لليهود. وقد بدوا أقل تشددا من الزنكيين والسلاجقة مع اتباع المذاهب الشيعية. وقد يكون ذلك بسبب تغير الظروف الموضوعية حولهم. فقد زال سلطان الفاطميين السياسي، ولوحق دعاتهم، فلم يعودوا يشكلون خطرا عليهم. أما ما كان يجري من خلافات مع أصحاب المذاهب الأخرى في عصرهم، فمرده سياسي أكثر منه ديني.

كان من نتيجة اهتمام الأيوبيين ببناء المدارس ان أصبحت الشام مركز الثقافة العربية الاسلامية، تقاطر نحوها العلماء من سائر الأقطار نظرا للتشجيع الذي نالوه من الحكام ولتوفر المناصب العلمية في المدارس، وجودة واردها نسبيا إضافة إلى توافد الطلبة الذين يتوفر لهم التعليم والجراية من واردات الأوقاف التي أوقفت على المدارس الكثيرة.

اماكن التعليم وحلقاته:

تنوعت وتعددت أماكن التعليم في هذا العصر. فقد كانت المساجد اماكن لتلقي القرآن والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية ودراسات أخرى، وكذلك فقد كانت الخوانق والربط والمدارس. وهذه اماكن لتعليم الحلقات العليا، وتقابلها الكتاتيب والمياتم للحلقات الدنيا.

(أ) الحلقات العليا:

١ ـ المدارس:

لم تختلف المدارس عن الجوامع أو المساجد في وظيفتها أو الغرض منها، إلا أنها كانت اكمل وأوفى بأغراض الدراسة المتصلة بها، ولسكنى



□ المدرسة العادليةالكبرى (الواجهة).

الطلاب المنضوين إلى العلم بها. وتنوعت المدارس، فخصص بعضهاللفقه وبعضهاللحديث وبعضها للغة العربية، كالمدرسة النحوية التي انشأها الملك المعظم في مدينة القدس[١٨]. ومدارس للطب كالمدرسة الدخوارية في دمشق، التي أنشأها ودرس بها الطبيب مهذب الدين دخوار.

أما الفئة الاجتماعية التي انشأت المدارس فهم من سلاطين الأيوبيين، وبقية أفراد الأسرة الأيوبية، بما فيها نساء الأسرة. فقد ساهمت اختا صلاح الدين في تشييد المدارس، فبنت أخته ست الشام زمرد خاتون مدرستين للشافعية بدمشق[١٩]. وبنت أخته الثانية ربيعة خاتون مدرسة الصاحبة بدمشق للحنابلة، ودفنت في فنائها. واقتدت بهما بنات أخيهما الملك العادل ابي بكر. فقد بنت حنيفة خاتون مدرسة الفردوس في حلب، ورتبت فيها عددا من القراء والفقهاء. كما انشأت مؤنسة خاتون المدرسة العادلية الصغرى بدمشق للشافعية، وبنت عذراء خاتون بنت نورالدولة أخي صلاح الدين المدرسة

العذراوية في دمشق للحنفية والشافعية[٢٠]، وغيرهن كثيرات.

كما بنى العلماء والفقهاء والأمراء والأغنياء عددا لا بأس به من المدارس، ولحق بهم بعض العتقاء والخصيان.

أوقف بناة المدارس أو فاعلي الخير الأوقاف على المدارس. حتى أن أوقاف نورالدين كان حاصلها الشهري تسعة آلاف دينار صوري[٢١]. ولا عجب في ذلك. فالمدارس تقوم بإعالة الأساتذة والموظفين فيها، إلى جانب الانفاق على من ينتسب إليها للتعلم والاستفادة. وقد عجب ابن جبير من أوقاف مدارس الشام، واخذ يحث نشأة المغرب على الرحلة إلى هذه البلاد، للارتواء من مواردها العلمية، ويؤكد لهم أن المدارس فيها فارغ البال من أمور المعيشة[٢٢].

كانت المدارس على نوعين، أحدهما كان في اصله منزل، ولذلك فإنه لا طابع خاص له. والآخر بني خصيصا للتدريس. فكان له خصائص هندسية، وخاصة الايوانات فمنها ذات الايوان، أو الايوانين، ثم ظهر فيما بعد الطراز ذو الايوانات الأربعة.

كانت المدرسة ذات الايوانات الأربعة، مستطيلة البناء، يتوسطها فناء كبير مربع يعرف بالصحن، يتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان كبير[٢٣]. وتحيط بها الحجرات في الطابق الأسفل، وغرفات في الطابق الأعلى. وكان لأغلب المدارس أروقة أمام الحجرات والغرف. وقد تكون هذه الأروقة مزخرفة بمختلف انواع المقرنصات.

وقد يختص كل إيوان بتدريس مذهب من المذاهب، وقد لا يختص. بل يمكن القول أن عدد الأواوين في المدرسة الواحدة لا علاقة له بوجه عام بعدد المذاهب التي تدرس فيها، فقد يدرس في مدرسة ذات إيوانين المذاهب الأربعة، مما يستنتج معه أن الايوان لا يدل على المذهب، وإنما يدل على طراز معماري، أو أسلوب فني في العمارة العربية الاسلامية، تتجلى فيه براعة المهندس المسلم في تجميل المدارس والقصور وتزيينها[٢٤]. ويصف لنا ابن جبير مدرسة نورالدين زنكي فيقول عنها: «ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نورالدين رحمه الله، وبها قبره. وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة، إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر»[٢٥].

لم تكن المدرسة للتدريس فقط، بل كانت مدفناً لواقفيها في الغالب، كما كان يلحق بها مسجد تؤدى فيه الصلاة[٢٦]. ومسكن للمدرس. فقد الحق بدار الحديث الأشرفية دار للشيخ المدرس بها. كما قطن الفخر بن عساكر بمدرسة الجاروخية[٢٧]. كما كان في المدرسة الرواحية سكن للمدرسين فيها. كذلك الحق بالمدرسة الصالحية سكن للمدرس[٢٨].

وفوق كل ذلك كان يلحق بالمدرسة مكتبة عامرة بالكتب النفيسة، يستخدمها الطلاب والأساتذة. وكانت المكتبة مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة، لسهولة الوصول إليها على أدق وأفضل طرق تنظيم المكاتب في عصورنا[٢٩]. وكانت الكتب توقف للمدارس من قبل الواقف، أو من قبل فاعلي الخير.

وإلى جانب المكتبات العامة، فقد كان هناك مكتبات خاصة لها قيمتها العلمية. فقد كانت كتب القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني العسقلاني، تتألف من مائة مجلدة[٣٠].

كانت المدارس في غالبيتها توقف للشافعية او للحنفية، وهناك مدارس أقل عدداً للحنابلة والمالكية، ومدارس مشتركة بين مذهبين أو أكثر، كالمدرسة الصلاحية في دمشق التي كانت للشافعية وجعل فيها قسم للمالكية.

كان المدرس يدرس بالطريقة التي يراها مناسبة لطلبته مع التقيد بشروط الواقف من حيث المذهب والمواد المقررة[٣١]. وكان يحسن إلقاء الدروس وإفهامها إلى الطلاب بدافع ذاتي، وحرصا على سمعته العلمية. كما كان المدرسون يفرضون بعض الآداب على أنفسهم، فيكتسبون احترام طلابهم وجماهير الشعب والحكام[٣٢].

لم تكن أيام الدراسة المقررة واحدة في كل المدارس. فقد كانت تتراوح بين ثلاثة أيام وخمسة من كل اسبوع حسب شروط الواقف. كما لم تكن مواعيد الدراسة محددة تحديدا دقيقا. وكانت عموما فيما بين طلوع الشمس

وآذان العصر[٣٣]. كما اختلفت العطل الدراسية السنوية من مدرسة لأخرى. وكان يسمح بعطل عارضة في أيام التشريف والمطر المانع من الحضور، وشدة الرَيح والبرد، وفي حال الضرورة غير المرضية يمكن تغيب كل من المدرس والطلبة لمدة ثلاثة أيام من كل شهر مع صرف مرتباتهم عن العطلة. ومن تغيب أكثر قطع معلومه النقدي والعيني[٣٤]. أما الاصابات المرضية فمأجورة حتى الشفاء دون تحديد زمن معين لفترة الاجازة[٣٥].

٢ ـ المساجد:

كانت المساجد معاهد للعلوم الدينية والعربية غالباً والاجتماعية والتاريخية أحيانا، والعقلية نادرا. وتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار المناهج. وخير مثال على التعليم في مساجد دمشق الحديث عن المسجد الأموي. فقد كان فيه سبع زوايا تدريسية في هذه الفترة، حظيت بعناية الكثيرين، ووقفت لكل منها الأوقاف الكثيرة. ونال بها المدرسون أجرا واسعا، وألحق بزواياه ومدارسه مساكن للطلبة والأساتذة. وقد ترك لنا ابن بطوطة، وصفا للتدريس في الجامع في كافة حلقاته فقال: «وللمسجد الأموي حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله»[٣٦].

٣ ـ التعليم في الأربطة والخوانق والزوايا:

تعددت الأربطة والخوانق والزوايا في هذه الفترة في بلاد الشام. ومطالعة في كتاب النعيمي الدارس في تاريخ المدارس تؤكد ذلك. والخانقاه بيت الصوفية ومدرستهم، وكذلك الرباط. إلا أنه بني أصلا بغاية المرابطة للجهاد. والصوفية في رباطهم متفقون على قصد واحد وعزم واحد.

كان تعليم الصوفية على قسمين، قسم إجباري غالبا ما يتعلقبالأمورالدينية واللغة العربية، وهي العلوم التي يترتب على الصوفي الاشتغال بها، ويلزم بحضور دروسها، وآخر اختياري يختاره الصوفي بحسب قابلياته واستعداده[٣٧]. أشهر خوانقهم في دمشق الخانقاه السميساطية والطواويسية والناصرية. أما الأربطة فعلى رأسها الرباط البياني[٣٨].

(ب) الحلقات الدنيا:

المحاضر أو المكاتب والمياتم:

يتم التعليم في هذه الحلقة في المساجد أو الكتاتيب. وقد ترك لنا ابن جبير وصفا حيا لتدريس الصغار في المسجد الأموي. ويرى أن حلقات تدريسهم فيه تكاد لا تنقطع طيلة اليوم. ويلقن الصبيان القرآن تلقينا. وبعد إتقانه يبدأون بالكتابة وتعلم الخط بنسخ الأشعار. ويجري للطالب بعد ختم القرآن احتفال عام يشترك فيه الطلبة وذووهم ومعلمهم[٣٩].

كانت الرغبة في تعليم الصبيان كبيرة، وهذه الرغبة من قبل الأهل والصبي والمقرىء مبعثها أنه كان لمقرئي الصغار اجراء واسع. وكان الصبيان يأخذون على قراءتهم جراية معلومة، ترغبهم في القراءة، وترغب الأهالي بإرسال أبنائهم للتعلم والكسب.

وكان في دمشق محضرة كبيرة لتعليم الصبيان وخاصة الأيتام منهم. وكان لها وقف يأخذ منه معلم صبيان الأيتام، وينفق على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم. وكان التعليم في مثل هذه المكاتب أو المحاضر ابتدائيا يتعلم فيه الصغار قراءة القرآن والكتابة والخط عن طريق تكتيبهم الأشعار التي يتعلمونها أيضا عن طريق تعلمهم الكتابة.

أركان الحركة التعليمية:

١ ـ متسلمو الوظائف التعليمية:

(أ) المدرسون:

يقف المدرسون على رأس هيئة التدريس، ويشترط أن يتوفر فيهم العلم التام بمادة التدريس وحسن الديانة والورع والتقوى.

يتم تعيين المدرس من قبل واقف المدرسة، ونادرا ما يتم بمعرفة السلطان. ولكل مدرسة مدرس أو أكثر بحسب حاجة المدرسة، وأحيانا تكتفي المدرسة بالمعيدين، وتنتظر تعيين مدرس. وكان المدرس في مدرسة، كأنه جزء منها، إذ

لا يمكن أن يحل فيها مدرس جديد عوضا عنه، إلا إذا تنازل بنفسه له إما كليا أو جزئيا، إلا في أحوال استثنائية. وقد ينتقل المدرس برأيه من بلد يدرس فيه إلى آخر للقيام بنفس المهمة، وقد يكون الدافع أن شروط التدريس افضل في ذلك البلد، لأن أنظمة المدارس ووارد المدرسة يختلف باختلاف الواقف وشروطه. وكان هناك مدارس ذات شروط ممتازة، وأوقاف كبيرة يتنافس المدرسون على التدريس بها.

كان المدرس على الرغم من علو كعبه بالعلم، يعمل على حضور المشيخات مستمعا إلى دروس غيره[٤٠]. وذلك أشبه باستمرار الاطلاع على العلوم الجديدة والكتب المؤلفة من قبل العلماء في عصرنا الحالي.

برزت أسر علمية في بلاد الشام في هذا القرن، وتسلمت التدريس في المدارس. وكان نبوغ هذه الأسر في علم بعينه أو في علوم مختلفة. فكان بنو عساكر شيوخ الشافعية في علم الحديث[٤١]. ونبغ عدد من العلماء من آل عصرون في الفقه والحديث[٤٢]. وهناك أسرة الدولعي والحرستاني والشهرزوري وغيرهم.

أشهر علماء هذا العصر، عبدالكريم الحرستاني، وأبو القاسم الحرستاني، وعمادالدين الحرستاني والصائن بن عساكر، وأبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر، وأبو المظفر بن عساكر، والقاسم بن عساكر، والقاضي كمال الدين الشهرزوري وضياءالدين الشهرزوري، وشرف الدين بن عصرون وقطب الدين النيسابوري، والدخوار، وعلم الدين السخاوي.

درج المدرسون على منح طلابهم الاجازات وهي على نوعين:

إجازة أدبية فخرية تشبه الشهادة الفخرية التي تعطى في عصرنا الحالي. وتعطى لمن يتوسم فيهم الخير وهم صغار في السن، وحتى للرضع منهم.

وإجازة علمية ـــ وهي موضع البحث في هذا المقال ـــ وتعطى للطالب الدارس من قبل الأستاذ المشرف سواء بالتدريس أو الفتيا أو عراضة الكتب ينالها الطالب بعد أن يشعر أستاذه بمقدرته وكفاءته. وبعد أن يعرضه لأسئلة متعددة ومتنوعة في كتاب بعينه أو في الفقه عامة. وفي الحديث وغير ذلك أمام جمهور الناس مناقشة علنية تشبه احتفالا خاصا يجتمع فيه أهل الفضل والعلم[٤٣]. فإذا استطاع الطالب أن يجيب على كل الأسئلة التي تطرح عليه ينال الاجازة من المدرس لا من المدرسة، يكتبها له الأستاذ ويوقعها كي لا تزور، ولا يكتفي الطالب بإجازة واحدة. فقد يسعى لنيل غيرها. وكلما زاد عدد إجازاته زادت مكانته العلمية.

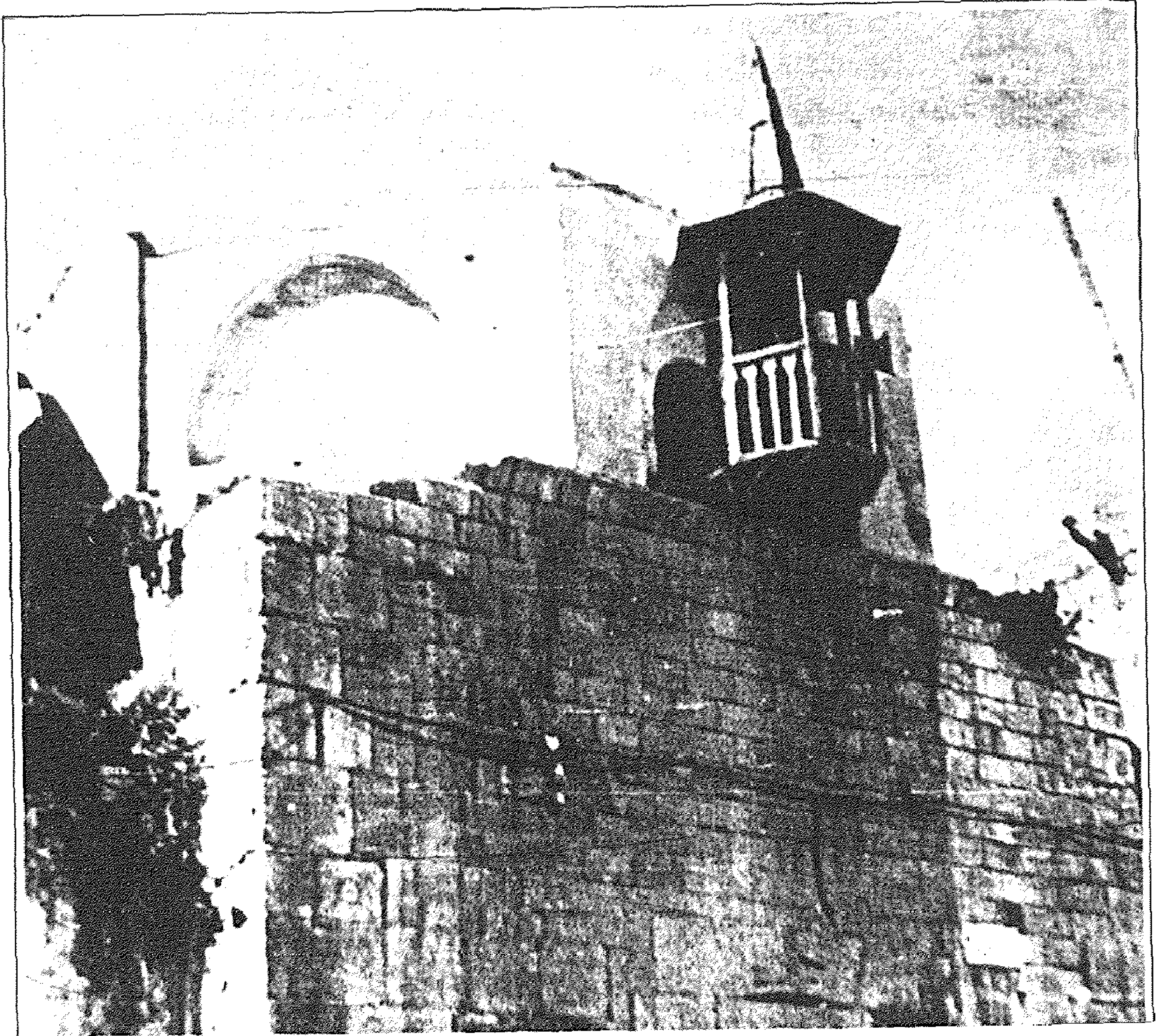
نالت المرأة حظا من العمل التعليمي، وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس. ولعبت بعض النساء دورا لا يقل أهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء. وتتلمذ على أيديهن الكثير من الطلبة. وإن إماما عظيما كالحافظ بن عساكر كان عدد شيوخه من النساء نيف وثمانين امرأة[٤٤]. يعطينا دلائل متعددة منها:

ـــ كثرة عدد النساء المشتغلات بالعلم والدين في ذلك العصر، بحيث أن محدثا حافظا كابن عساكر، سمع من نيف وثمانين امرأة، هذا فضلا عن كثرة النساء اللائي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه.

ـــ لم تكن هناك غضاضة في أن يتلقى طالب العلم علمه على يدي امرأة. بل يبدو من ثنايا التراجم التي أوردها المؤرخ ابن عساكر لبعض نساء عصره وخاصة من أخذ عنهن، مدى تقديره لهن، فيقول: «أخبرتنا العالمة ملكة بنت داود... وأجازت لي جميع حديثها..». كما وصف زمرد بنت جاولي بن عبدالله بأنها مكرمة لأهل العلم.

ولكن أين كانت المرأة تتعلم في ذلك العصر لتتفقه وتصل إلى مرتبة العلماء؟ يبدو من خلال السطور التي دونها ابن عساكر، أن البيت كان المدرسة التي تتلقى فيها المرأة علومها[٤٥].

والملاحظ أن النساء اللائي اشتهرن بالعلم والدين في هذه الفترة نشأن في بيوت علم ودين. وإذا لم تكن كذلك وكان أهلها راغبين في تعليمها، فإنهم يهيئون لها فرصة تلقي العلم عن بعض فقهاء العصر أو فقيهاته. من ذلك ما يذكره ابن عساكر في ترجمته لزمرد خاتون بنت جاولي بن عبدالله، أنها سمعت الحديث من الفقهاء: «أبو الحسن بن قيس، وأبو الفتح نصرالله بن ... وأبو طالب بن أبي عقيل



□ المدرسة الفرخشاهية: في زقاق الصخر عند مدخل دمشق الغربي، تعرف بعزالدين فرخشاه، وقفتها والدته حظ الخير خاتون زوجة شاهنشاه بن ايوب سنة ٥٧٨هـ على الحنفية والشافعية ويبدو فيها مئذنة المسجد الملحق بالمدرسة.

الصوري»(٤٦). وقد تخصص بعض المدرسين في تعليم النساء(٤٧).

نال المدرس مكانة كبيرة في هذا العصر، وبالغ الزنكيون والأيوبيون في تقديرهم، حتى جعلوا منزلتهم أعلى من منزلة الأمراء حتى حسدهم الأخيرون على مكانتهم. وكانوا يعطونهم الكثير ويجدونه قليلا قياسا إلى خدماتهم. وكان نورالدين يقول: «هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم، فلهم المنة علينا»(٤٨).

كما يؤكد المؤرخ عبداللطيف البغدادي استمرار ذلك في عهد صلاح الدين بما أورده قائلا: «لما دخلت دمشق وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحي جمعا كثيرا.. فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق، وأطلق لي أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار. ورجعت إلى دمشق، واكببت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع»(٤٩).

ولمكانة العلماء المدرسين لدى الناس ورجال السياسة، فانهم كانوا يستطيعون توجيه النقد اللاذع لهم. فقد قال الحافظ بن عساكر لصلاح الدين: «نزهت نفسي عن مجلسك، فإنني

رأيته كبعض مجالس السوقة لا يستمع فيه إلى قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نورالدين، فكنا كما قيل، كأنما على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار. فإذا تكلم انصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا. فطلب صلاح الدين من أصحابه الا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ»[٥٠].

(ب) المعيدون:

يعتبر المعيد من أعضاء الهيئة التدريسية، ويختلف هذا المنصب التعليمي اختلافا كليا عن نقيب الطلبة الذي يعتبر من جملة الطلبة. فهو المدرس الثاني، يعيد الدرس على الطلاب ويتوقف لشرح النقاط أو المشاكل التي لم يتم فهمها من الأستاذ، ربما لضيق الوقت او للاحترام الشديد من الطلبه لاستاذهم، والذي يمنعهم في كثير من الأحيان من طلب إعادة الشرح أكثر من مرة ليفهموه ويحسنوه[٥١]. كما يقرأ النص الذي يعينه الأستاذ للطلاب ويشرحه، فيهيىء الأذهان لفهم الدرس، ويراجع الطلاب فيما طلب منهم حفظه أو بحثه[٥٢]. ويكون اشتراك المعيد في التدريس مع أستاذه بداية لترقيته إلى رتبة مدرس[٥٣].

كان المجال مفسوحا أمام المعيد لينتقل إلى مرتبة مدرس، ولا بد له من أجل ذلك من أن يرحل في طلب العلم على الرغم من مشاق السفر. وغايته من هذا السفر، الاتصال بالعلماء عسى أن يجد جديدا عندهم فيتعلمه، وبعد الرحلة العلمية، غالبا ما يصبح المعيد مدرسا.

يساعد المدرس في عمله معيد أو اكثر. وممن أعاد في المدرسة النورية الكبرى شرف الدين ارسلان المتوفى سنة ٦٣٩، كان يعيد للامام برهان الدين مسعود[٥٤]، وقد أعاد ابن الصلاحي في المدرسة الرواحية أكثر من عشرين سنة. كما أعاد عبدالكريم الحرستاني بالمدرسة الأمينية عن ابن عصرون. وقد ذكر الكتبي أن ابن أبي عصرون استنابه بالزاوية الغربية بجامع دمشق، وضم إليه المدرسة الأمينية[٥٥].

كان المعيدون على درجة علمية عالية، وسمعوا عن كثيرين من كبار المدرسين. فقد سمع المعيد عبدالكريم الحرستاني من جمال الاسلام السلمي وأبي الحسين بن قبيس. ورحل فسمع ببغداد ودرس على أبي منصور بن الرزاز شيخ الشافعية ومدرس النظامية. وسمع بخراسان من عدد من المدرسين. ونتيجة لذلك فإن مكانة المعيد كانت كبيرة، وكان عدد من العلماء يأخذون عنهم.

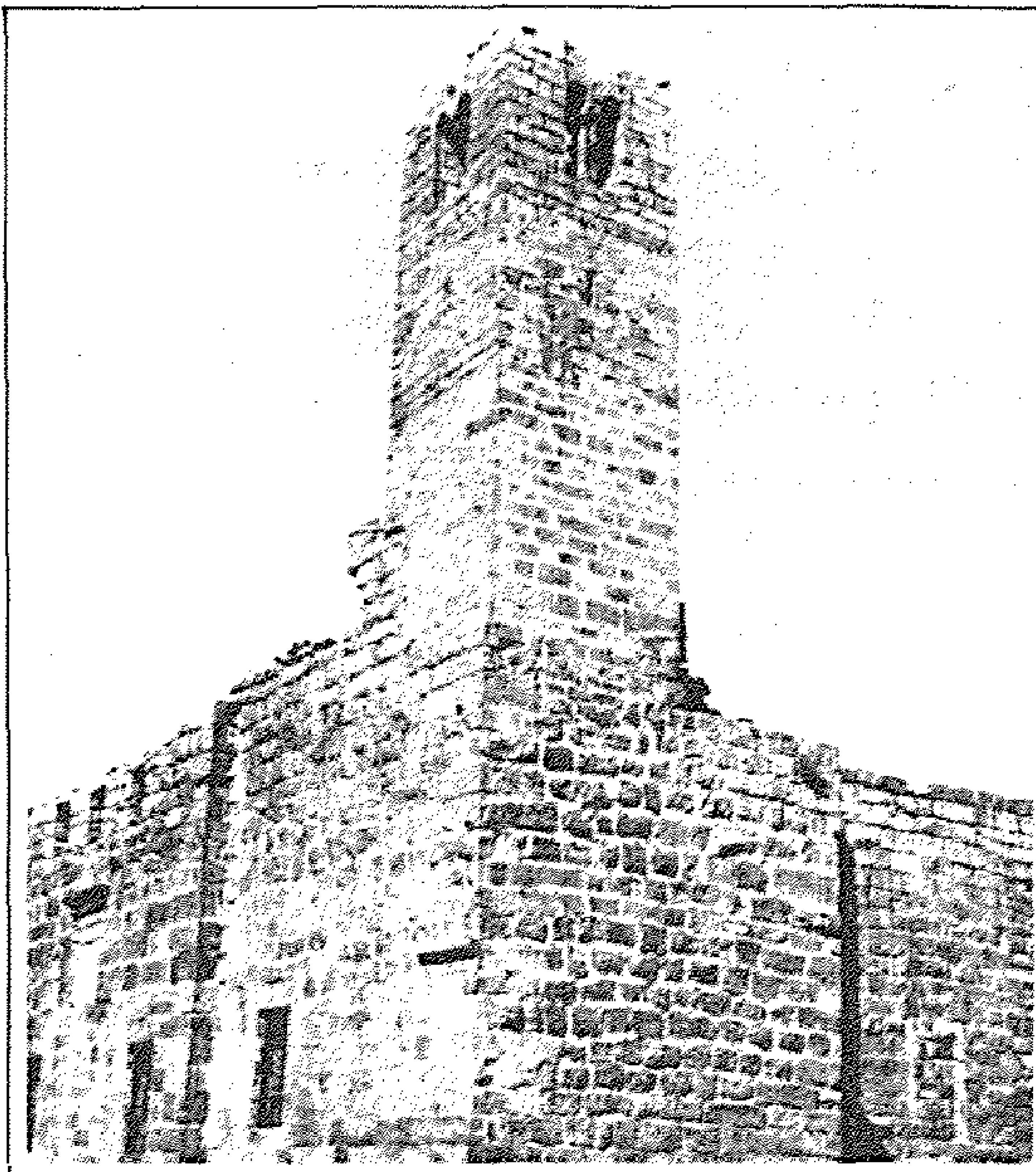
(ج) الطلاب:

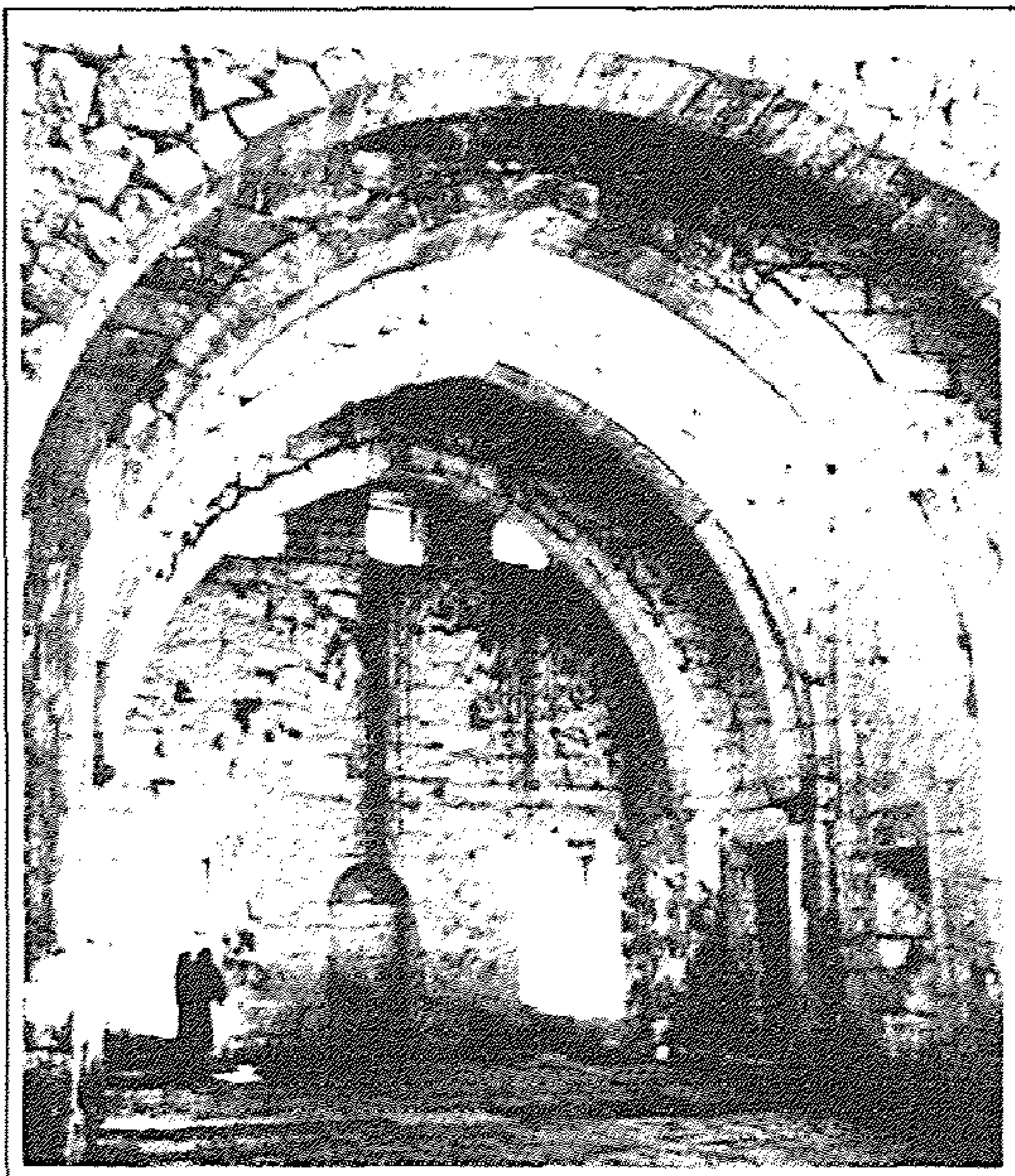
يطلق البعض عليهم فقهاء المدارس. ولم يكن يشترط سن معينة لقبول الطالب بالمدرسة، ولكن بعض الواقفين وضعوا شروطا فحواها أن تتوفر في طلبة مدارسهم قابلية التعليم واتصافهم بالفطنة والذكاء[٥٦]. كما كان من الواجب قسم الطلبة إلى فرقتين، المبتدئين والمنتهين[٥٧].

كانت مراقبة الدوام والمواظبة على الحضور هامة جدا ليتأكد الأستاذ من أن طلابه حضروا وسمعوا كل ما درس لهم ويدقق في هذا الأمر كاتب الغيبة الذي يسجل إسم كل من يتخلف عن الحضور ويرفعه إلى الناظر أو نائبه، فيخصم عليه راتبه بمقدار ما تخلف إن رأى مصلحة بذلك. كما يكتب اسم الباب الذي فاته لياطلب بأسئلة منه عند قراءة الكتاب[٥٨]. ولا ينال الاجازة منهم في التدريس إلا من اثبت لمشايخه كفاءته، وكان على استعداد لأن يزداد علما. ولا يصل الطالب إلى مرحلة متقدمة في العلم، إلا إذا أخذ عن مشاهير بلده، ورحل بعدها في طلب العلم[٥٩]. وكان الطالب يتدرج في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيها منتهيا، ويختص بعلم من العلوم التي يوثرها.

كان طلاب العلم في كل مدرسة من المدارس، يأخذون مرتبات مخصصة تكون على الغالب من الوقف المخصص للمدرسة. وقد يتأثر هذا المرتب — إذا كان الوقف زراعيا — بأحوال المواسم العامة، وقد يقل المرتب لدرجة أن الطلاب الذين يعتمدون في إعاشتهم عليه يضطرون إلى ترك المدرسة في أثناء الجائحات[٦٠].

لم يكن الطلاب من العامة فقط، بل كان الملكوك والنواب والأمراء والقضاة والفقهاء





□ مدرسة أبي الفداء، وهي مدرسة أيوبية فريدة في فن عمارتها وهندستها، فيها مصلى عليه قبة، ومئذنة. شيّدها عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م.

يحضرون الدروس أيضا. فقد حضر درس القاضي جمال الدين الحصري الذي ألقاه سنة ٦١١هـ أعيان الشيوخ والقضاة الفقهاء. وحضر السلطان المعظم عيسى بن العادل، وشيخ الشافعية فخر الدين بن عساكر وغيرهم(٦١).

كان طلبة المدرس تاج الدين الكندي من أولاد الملوك، وكان يزدحم درب العجمي ــ حيث يقطن هذا المدرس ــ من رواد المدرسة. ويقول أبو شامة مؤكدا على علو مكانة الطبقة التي تحضر درسه «ومتى ما أريد اعتبار ذلك، فلينظر في الكتب التي عليها طبقات السماع عليه، ليعلم جلالة من كان يتردد إليه».

وكان المعظم عيسى يقرأ عليه دائما، قرأ عليه كتاب سيبويه نصا وشرحا، الايضاح والحماسة وشيئا كثيرا. وكان يمشي من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين الكندي، والكتاب تحت إبطه. قال أحد طلاب الكندي فيما يرويه أبو شامة: «كنا نقرأ يوما عنده أنا ورفقائي فدخل الملك المعظم، فجلس فسكتنا. فقال الشيخ للمعظم: «إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم. فقال: لا والله إنما القراءة بالنوبة، فليتمموا، فأمرنا الشيخ فأتممنا حزبنا»(٦٢).

٢ ــ متسلمو الوظائف الادارية والعملية:

(أ) الوظائف الادارية:

ــ **الناظر**: يعتبر بمثابة مدير عام للمدرسة، فهو الذي يباشر شؤون المدرسة، وينظر في أوقافها، ويؤجر عقاراتها، ويشتري لها لوازمها ويعمر ويرمم وينظر ويصرف للموظفين رواتبهم، ويخصم من المتخلفين مقدار ما تخلفوا، ويزيد لهم في رواتبهم إن زادت الغلة، وينزل لهم فيها إن قلت. وكان يشترط فيه الأمانة والكفاية والعدالة وغيرها. وقد يكون للناظر نائب أو وكيل يعينه ممن يثق بهم.

ــ **الشاهد**: ويعتبر كالمراقب للناظر أو نائبه. فإذا باع أو اشترى أو أجر أو أعطى شيئا لأحد يكون ذلك بحضوره، ويضع شهادته على الصكوك والعقود.

ــ **المشارف**: هو المشرف على أمور المدرسة كالنظافة والخدمة وغيرها(٦٣).

ــ **الصدر**: هو الذي يجلب للمدرسة الكثير من أهل الطلب والعلم، وليس من الضروري أن يكون في كل مدرسة صدرا(٦٤).

(ب) الوظائف العملية:

كان للمدرسة مؤذن للآذان والقيام بالأمور الدينية الأخرى، وقيِّم يشرف على خزائن الكتب. وكان لهما مخصصات من وقف المدرسة.

انواع العلوم: (ثقافة العصر العامة):

ابرز سمات الثقافة في هذا العصر، الاهتمام بالثقافة الدينية من علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الاسلامي، وإلى جانبها العلوم اللغوية والاجتماعية وعلوم الطب وعلوم أخرى متفرقة.

١ ـ العلوم الدينية:

كان علماء الحديث يدرسون كتب الحديث المصنفة المشهورة. ومن اجلّ من اشتغل به في هذه الفترة الحافظ بن عساكر، وتقي الدين عثمان بن الصلاح[٦٥]. اما الفقه فكان يغلب على التدريس فقه الامام الشافعي، وبدرجة أقل فقه الامام أبي حنيفة، ويندر التدريس بالفقه المالكي والحنبلي.

اما علوم اللغة العربية وعلى راسها الأدب، فقد كان لأكثر علماء هذا العصر إلمام به، وكذلك بالنحو. ومن نحاة هذا القرن ومدرسي المادة في دمشق، تاج الدين زيد بن الحسن الكندي المتوفى سنة ٦١٣هـ[٦٦].

وحظي التاريخ بعناية الكثيرين ودرس في المسجد الأموي وفي أماكن اخرى متعددة. فقد كان أبو شامة يقرىء التاريخ درسا عاما في الجامع الأموي في دمشق[٦٧]. ومن اشهر مؤرخي هذا العصر ابن ابي طيء، والعماد الكاتب، وابن شداد، وابن الأثير، وابن عساكر وغيرهما[٦٨].

اما الطب، فقد كان في دمشق بيمارستانان قديم، وحديث هو البيمارستان النوري. وكان موقوفا على الفقراء والمساكين بما في ذلك العلاج والدواء. وإذا كان الدواء نادراً فلا يمنع عن احد[٦٩]. ومن الأطباء المشهورين مهذب الدين دخوار[٧٠] وابن ابي الحكم الذي جعل له أمر الطب في البيمارستان النوري. وقد وصلتنا صورة مشرفة لاشراف هذا الطبيب واهتمامه بمرضاه وتعليم طلابه تعتبر من أرقى الصور المعروفة. فقد كان يدور على المرضى في البيمارستان ويعتبر أحوالهم، وبين يديه المشارفون والخدام للمرضى. وكل ما يكتبه لهم لا يؤخر عنهم. فإذا فرغ من ذلك، طلع القلعة، وافتقد مرضى السلطان وغيرهم وعاد إلى البيمارستان، وجلس في الايوان الكبير حيث توجد خزانتان كبيرتان تحويان كتبا طبية. فيأتي إليه الأطباء والمشتغلون، فيجلسون بين يديه، ثم يجري مباحث طبية، ويقرىء التلاميذ، ولا يزال معهم في مباحث واشتغال ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب بعد ذلك كله إلى داره في دمشق[٧١].

كان ابن عريف النحاسين ممن نبغ في علم العقاقير، أما اللبودي وأبو الفضل عبدالكريم الحارثي فقد نبغا في الهندسة، وهذا الأخير هو الذي أصلح الساعة التي بجامع دمشق وهندس أبواب البيمارستان النوري[٧٢].

أما العلوم العقلية والفلسفية، فلم يتح لها الانتشار لموقف الأيوبيين المعارض لها. ولا يعني هذا أن العصر خلا من كل علم في هذا المجال، بل إن الحلقات العلمية لم تتناول هذه المواضيع، على حين عزل الفلاسفة، وصنفوا آثارهم في الكتمان، وأخفوها عن العوام، وأطلعوا عليها الخاصة من أصدقائهم خوفا على حياتهم[٧٣].

في الختام أقول أن العصر الأيوبي وسبقه العصر النوري، كان عصر افتتاح المدارس وعصر التعليم بحق. وقد نبغ فيه فئة كبيرة من العلماء المتخصصين في مختلف العلوم والفنون. وكان التعليم فيه حق لكل إنسان عاقل **ذكراً** كان أم انثى، **فقيراً** كان أم غني. وبلغت بلاد الشام في هذا العصر شأوا عظيما من التقدم الثقافي والعلمي، وبذت أختها مصر على الرغم من أن البلدين كانا تحت حكم الأيوبيين، وذلك لعدم قدرة الأخيرة على الملاءمة بين تراثها الماضي الفاطمي بطابعه المخالف والمباين للقيم والأهداف الجديدة.

المراجع

(١) محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق. دار الفكر، دمشق ١٩٨٢، ص ٢٥٩.
(٢) امينة بيطار: تاريخ العصر الأيوبـي. دار الطباعة الحديثة، دمشق ١٩٨٢، ص ٢١ ــ ٣٣.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية. ج ١، طبعة ثانية، ص ١١٦.
(٤) مجلة الفكر العربـي، العدد ٢٠، مقال: المدرسة الإسلامية خارج المسجد، البدايات والوظيفة والعلم، ص ٤٢٦.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس. طبعة المجمع العلمي في دمشق، جزء ١، ص ١١.
ــ محمد كرد علي: خطط الشام. مطبعة المفيد ١٩٣٨، جزء ٦، ص ٧٠ ــ ٧١.
ــ كحالة: دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية. ص ٩٩.
(٦) عمادالدين خليل: نورالدين محمود. دار العلم، دمشق ــ بيروت ١٩٨٠، ص ٣ ــ ٤.
(٧) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان، طبعة المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٥٤م، جزء ٣، ص ١٢٥.
(٨) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة ١٣٢٤هـ، جزء ٤، ص ٣٢٩.
(٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٨م، جزء ١، ص ٣١٥.
(١٠) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك. نشر زيادة، القاهرة ١٩٤٣م، جزء ١، ص ٢٥٨.
(١١) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك. طبعة دار النهضة، بيروت ١٩٧٢م، ص ١١٨.
(١٢) ابو شامة: تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين. دار الجيل بيروت، جزء ١، ص ١٣.
ــ نعمت اسماعيل علام: فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية. دار المعارف بمصر، ص ١٢٦.
(١٣) عبدالغني محمود عبدالعاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك. رسالة ماجستير، ص ٦٦.
(١٤) كحالة: المرجع السابق، ص ٩٩.
ــ ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب. جزء ١، ص ١٦٢ ــ ١٦٣.
(١٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان. دار صادر بيروت، جزء ٥، ص ٤١٥.
ــ شلبـي: تاريخ التربية الاسلامية. مكتبة النهضة المصرية، طبعة ٣، ١٩٦٦، ص ١٩٥ ــ ١٩٦.
(١٦) ابو شامة: المصدر السابق. جزء ١، ص ١٤.
(١٧) محمد كردعلي: المرجع السابق. جزء ٦، ص ٦٩.
(١٨) محمد أحمد دهمان: في رحاب دمشق. دار الفكر دمشق ١٩٨٢، ص ٣١٠ ــ ٣١١.
(١٩) ابو شامة: ذيل الروضتين. ص ١١٩.
(٢٠) محمد كردعلي: المرجع السابق. جزء ٦، ص ٨٦.
(٢١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار الكتاب، بيروت، جزء ٩، ص ١٢٥.
(٢٢) ابن جبير: رحلته. دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٨، ص ٢٠٠.
(٢٣) نعمت إسماعيل: المرجع السابق، ص ١٣٧.
(٢٤) ناجي معروف: المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، ط ٢ سنة ١٩٧٦، ص ١٢٨ ــ ١٢٩.
(٢٥) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٩٨.
(٢٦) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٤٤٨.
(٢٧) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٩ وص ٨٣.
(٢٨) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٦٨ وص ٣٢٢.
(٢٩) ابو شامة: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٦٨.
(٣٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٩٢.
(٣١) السبكي: المصدر السابق، ص ١٠٥.
(٣٢) من أجل الصفات التي يتحلى بها المدرس، انظر ابن جماعة: تذكرة السامع، ص ١٨٩.
ــ السمعاني: أدب الإملاء، ص ٦٦.
(٣٣) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٤٦.
(٣٤) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩.
(٣٥) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٥٠.
(٣٦) ابن بطوطة: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٠٨.
(٣٧) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ١٩٧.

(٣٨) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣.
ــ النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٦٤ وص ١٧٨.
(٣٩) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٩١.
ــ ابن بطوطة: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٠٨.
(٤٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٨٦.
(٤١) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٨٥.
(٤٢) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦.
(٤٣) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٦٥.
(٤٤) محمد كرد علي: المرجع السابق، جزء ٦، ص ٧٥.
(٤٥) عاشور: بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره، مؤتمر ابن عساكر، ص ٢١٧ ــ ٢١٩.
(٤٦) عاشور: المرجع السابق، ص ٢٢٠.
(٤٧) السخاوي: الضوء اللامع، جزء ١٢، ص ١٢٤.
(٤٨) عمادالدين خليل: المرجع السابق، ص ١٤١.
(٤٩) عبداللطيف البغدادي: الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر، طبعة القاهرة، ص ٨ ــ ١٠.
(٥٠) ابو شامة: المصدر السابق، جزء ١، ص ١٠.
(٥١) القلقشندي: المصدر السابق، جزء ٥، ص ٢٦٤.
(٥٢) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٢٥.
(٥٣) كحالة: المرجع السابق، ص ١٠١.
(٥٤) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٦٢٠.
(٥٥) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٦٨.
(٥٦) السبكي: المصدر السابق، ص ١٠٥ ــ ١٠٧.
(٥٧) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(٥٨) كحالة: المرجع السابق، ص ١٠٠ ــ ١٠١.
(٥٩) عبدالعاطي: المرجع السابق، ص ٢٦٢.
(٦٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٢٩٠.
(٦١) ابو شامة: ذيل الروضتين، ص ١٣٢.
(٦٢) ابو شامة: المصدر السابق، ص ٩٧ ــ ٩٨.
(٦٣) كحالة: المرجع السابق، ص ١٠١.
(٦٤) كحالة: المرجع السابق، ص ٩٥.
(٦٥) عمر موسى باشا: الأدب في الشام، ص ١٢٨.
(٦٦) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص ١٣١ ــ ١٣٢.
(٦٧) كردعلي: المرجع السابق، ص ٧٠.
(٦٨) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص ١٤٤ ــ ١٤٧.
(٦٩) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٩٨.
ــ ابن كثير: البداية والنهاية، جزء ١٢، ص ٢٧٨ وص ٢٨١.
(٧٠) النعيمي: المصدر السابق، جزء ٢، ص ١٢٧.
(٧١) النعيمي: المصدر السابق، جزء ٢، ص ١٣٧ ــ ١٣٨.
(٧٢) عمر موسى باشا: المرجع السابق، ص ١٥٣.
(٧٣) النعيمي: المصدر السابق، جزء ١، ص ٣٣٢ وص ٤١٠ ــ ٤١١.
ــ كحالة: المرجع السابق، ص ٩٦.

القهوة والمقاهي في دمشق

في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)

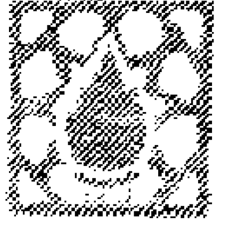
د. إحسان عباس



□ مقصف الزبداني.

كان كثير من الناس في القرن العاشر الهجري يعتقدون أن قهوة البن إنما عرفت أول ما عرفت في اليمن، ويعزون إلى الشيخ أبي بكر الشاذلي العيدروسي أمر الاهتداء إليها وإلى تأثيرها والتعرف إلى منافعها، وذلك أنه كان في إحدى سياحاته في اليمن، فمر بشجر البن فجرب أن يقتات من ثمره، فوجد على أثر ذلك أنه يبعث في النفس النشاط ويعين على السهر، وهذا نعم المعين على العبادة، فأخذ يداوم تناوله مستغنياً به عما عداه من مطعوم ومشروب، ونصح أتباعه ومريديه بتعاطيه، فابتدأ شيوعه من يومئذ في تلك البلاد.

د. إحسان عباس: الجامعة الأميركية ـ بيروت.


هنالك روايات متعددة عن بدايات القهوة وعن أول من اهتدى إليها، وكلها يتصل بالمتصوفة وحاجتهم إلى السهر، وقد يكون هذا الخبر الذي أوردته عن اكتشاف القهوة، من بين تلك الروايات المشابهة، ضربا من الأسطورة، وإن كان مرشحاً للقبول بحكم بساطته، إلا أنه في الوقت نفسه يتضمن حقيقة هامة، وهي تحديده لنقطة انطلاق القهوة، فهي بالنسبة لأقطار العالم العربي عرفت أول الأمر في اليمن ثم أخذت في الانتشار شمالاً بحيث عم شيوعها مكة والمدينة ومنهما انتقلت إلى الشام ومصر، ومن هذين القطرين تسربت إلى سائر البلاد وبخاصة إلى تركيا.

ولم يلبث انتشارها أن أثار عاصفة استنكار لدى العلماء، في كل قطر، حدث هذا أول ما حدث — خارج اليمن — في مكة لاقتران شربها ببيوت خاصة بنيت من أجل اجتماع الناس لتناولها؛ وصادفت نقمة بعض العلماء وأهل الفتوى على شربها وشاربيها يومئذ أن عيَّن قانصوه الغوري رئيس شرطة لمكة سنة ٩١٧/١٥١١ اسمه خاير بك، فجمع قضاة المذاهب الأربعة ومعهم طبيبان معروفان وعدد من شاربي القهوة وأصدر أمراً بتحريمها في ذلك العام، ووقع الجميع على المنشور القاضي بتحريمها ما عدا مفتي مكة، كما أن عدداً من علماء الدين بمصر أصدروا فتاواهم مؤيدين لذلك المنشور. وكان من أشد الناس إنكاراً لها بمصر أحمد بن عبد الحق السنباطي الشافعي الواعظ بالجامع الأزهر (المتوفى سنة ٩٥٠) وكان ذا تأثير قوي في الناس لبراعته في الوعظ وأخذ برأيه في القهوة عدد من طلبة العلم في مصر.

أما في دمشق فقد أفتى بتحريم شربها عدد من العلماء، منهم قطب الدين ابن سلطان (المتوفى سنة ٩٥٠) فكان يقول إنها من جملة المصائب التي حدثت في ذلك الزمان، وكذلك كان موقف كمال الدين ابن حمزة منها فإنه كان يسمي المكان الذي يجتمع الناس فيه لشربها «الخمارة»، ولما زار ابن حمزة مصر وجد بيوت القهوة قد انتشرت فيها، وسئل عن رجل من أهلها لدى عودته إلى دمشق فقال: هو ملازم للخمارة. فلما طلب إليه أن يوضح ما يعنيه قال: «حدث بمصر شرب القهوة، يجتمعون عليها كاجتماعهم على شرب الخمر، وهو معهم». ومن علماء دمشق الذين أنكروا قهوة البن ونادوا بتحريمها شيخ الاسلام الشيخ يونس العيثاوي (المتوفى سنة ٩٧٧)، وكان ينهى الناس عن شربها في خطب الجمعة، كما الف رسالة في تحريمها. وفي حلب دعا إلى منعها على وجه التحريم عدد من العلماء منهم قاضيها محمد بن عبد الأول الحسيني أحد علماء الروم أواخر سنة ٩٤٦؛ ثم لما دخل دمشق (سنة ٩٥٢) اتفق رايه مع راي القطب ابن سلطان والشيخ يونس العيثاوي اللذين تقدم ذكرهما في هذا الصدد، وسعوا جميعاً إلى إبطالها بدمشق، وعززوا موقفهم هذا فاستصدروا من السلطان سليمان خان أمراً بمنع شربها، فورد الأمر بذلك من استانبول سنة ٩٥٣/١٥٤٦، هذا مع أن انتشارها في استانبول وبعض المدن التركية الأخرى إنما تم في زمن السلطان سليمان نفسه، وفي عهده وبعد بضع سنوات من صدور أمره بتحريمها توجه إلى استانبول رجلان أحدهما حلبي والآخر دمشقي وافتتحا أول مقهى في عاصمة الخلافة (سنة ٩٦٢/١٥٤٤)، وعرف تفكهاً باسم «مكتب العرفان»، وأخذ يرتاده موظفو الدولة والقضاة والعلماء.

ذلك أن وقوف العلماء في وجه القهوة وصدور الأوامر السلطانية بتحريمها، واستصدار الفتاوى ضد شربها، كل ذلك لم يستطع أن يحد من انتشارها، فقد كان في طبيعتها ما يحببها إلى الناس ويجتذبهم إلى شربها، وأصبحت الدور التي تستقبل الناس لشربها ظاهرة هامة للتسلية لا تقوم مقامها التكايا أو الزوايا أو الحلقات الخاصة في الموالد والأعياد أو الحلقات العامة في الساحات والميادين أو التردد إلى المنازه والبساتين، بل أصبحت القهوة نفسها مادة لازمة في هذه التجمعات العامة والخاصة: أضف إلى ذلك أن العلماء أنفسهم لم يكونوا مجمعين على تحريمها، وإنما وجد بينهم لا من يفتي بحلها وحسب بل من يتعصب لها إلى درجة تكاد تبلغ الايمان بوجوب شربها، ومن هؤلاء في دمشق الشيخ أبو الفتح ابن عبد السلام المالكي، فقد وقف ينصر القهوة ضد الشيخ يونس العيثاوي،



□ القهوة العربية والنرجيلة.

وجرت بين الرجلين مواقف ومشاهد من أجلها ادت إلى خصومة طال أمدها؛ وحضرا مرة لدى قاضي الشام علي أفندي الشهير بقنلي وتباحثا في شأن القهوة وأورد كل منهما حججه، وكان الظهور في ذلك المجلس لأبي الفتح، وازدهاه الانتصار فذهب يتغنى بمحاسن القهوة في مقطعات وموشحات ينظمها ويذيعها في الناس. كذلك فإن كثرة أعداد الصوفية في كل بلد، وارتباط الاقبال على القهوة منذ البداية بالتصوف، جعل اطراد شيوعها امراً شبه حتمي؛ لقد أقبل الصوفية قبل اكتشافها بقرون على أكل الحشيشة بحجة أنها تساعد على السهر، ومن ثم على التهجد، ولم تستطع نداءات التحريم أن تصدهم عن تعاطيها، فكيف يصدقون من يقول بحرمة ما هو اخف منها ضرراً بكثير؟ ولقد بدأ الذين يقفون من القهوة هذا الموقف الرافض يذيعون بين الناس انها تسبب السكر، اليس ان شاربيها يسمونها «القهوة» وهي لفظة كانت تطلق من قبل على الخمر؟ ولكن التجربة اثبتت أنها لا تفعل ذلك، وإذن فلا بد من البحث عن سبب او اسباب أخرى للتحريم، لعلها تكون مقنعة، وهنا لجأوا إلى القول بإن مجلسها يشبه مجلس الخمر، وإن الذين يشربونها يتشبهون بشاربي الخمرة في إدارتها وآداب تناولها وأخذها بالدور وانهم يستخدمون لادارتها سقاة من الغلمان ذوي الوضاءة، وإن مجالسهم لا تخلو من العبث واللهو والغيبة والنميمة (وكأن هذه الأمور مقصورة على مجالس القهوة وحدها)؛ ولم يكن هؤلاء يشعرون أنهم بدأوا يتنازلون عن تحريم القهوة إلى تحريم ارتياد مجالسها أو البيوت المخصصة لتحضيرها؛ وهكذا أصبح من المتعارف بين الناس ان القهوة في ذاتها غير محرمة وإنما يحرم الجو الذي تمثله المقاهي. وعلى هذا الأساس أصبح طالبو الفتوى ممن يميل إلى التحريم يصوغون أسئلتهم بما يناسب هذا التطور فيذكرون في السؤال اقترانها باللهو والمجون، لكي يضمنوا جواباً موافقاً لما يهوون. سئل المولى أبو السعود (المتوفى سنة ٩٨٢) عن

شربها، وقرر له في السؤال اجتماع الفسقة على ذلك، فأجاب: «ما أكب أهل الفجور على تعاطيه فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتقيه». ومعنى ذلك أنه لم يقل بتحريم القهوة، وإنما بالابتعاد عما يقرّب من أهل الفجور. وحين أصبحت هذه الحقائق واضحة لا مجال فيها للاجتهاد لم تُجد نفعاً الأوامر التي صدرت ايضاً في أيام سليمان سنة ٩٦١/١٥٥٤ في صد المقبلين عليها ولا تلك التي صدرت أيام السلطان مراد سنة ٩٨٢/١٥٧٤. ومع أن هناك أوامر أخرى صدرت بتحريمها في العقدين الأول والثاني من القرن الحادي عشر، فإن الفتاوى بتحليلها قد جعلت تلك الأوامر وكأنها قائمة على غير أساس، وما نكاد نبلغ أواخر القرن العاشر حتى نجد شيوعها مستحكماً في دمشق وحلب وغيرها من المدن. ولما زار أحد الرحالة حلب سنة ١٥٧٣ وجد شربها ظاهرة واسعة الانتشار في تلك المدينة. وارتاح العلماء في دمشق كثيراً عندما استطاعوا أن يفصلوا بين القهوة وبين جو الأماكن المخصصة لها، وإذن فلتشرب في البيوت بعيداً عن كل شبهة، وعن هذا يعبر النجم الغزي بقوله، مجيباً من سأله رأيه في القهوة:

قهوة البن لا تكون حراماً
إنها لا تفيد في النفس نشوة
غير أن الذي يجيء بيوتاً
هي فيها تدار عادم نخوه
إذ يرى المرد والمعازف والنر
د وكل يلهو فيتبع لهوه
فإذا شئت شرب قهوة بن
حسوة قد أردت أو ألف حسوه
فليكن ذاك وسط بيتك مهما
لم تشب صفوها بموجب صبوه

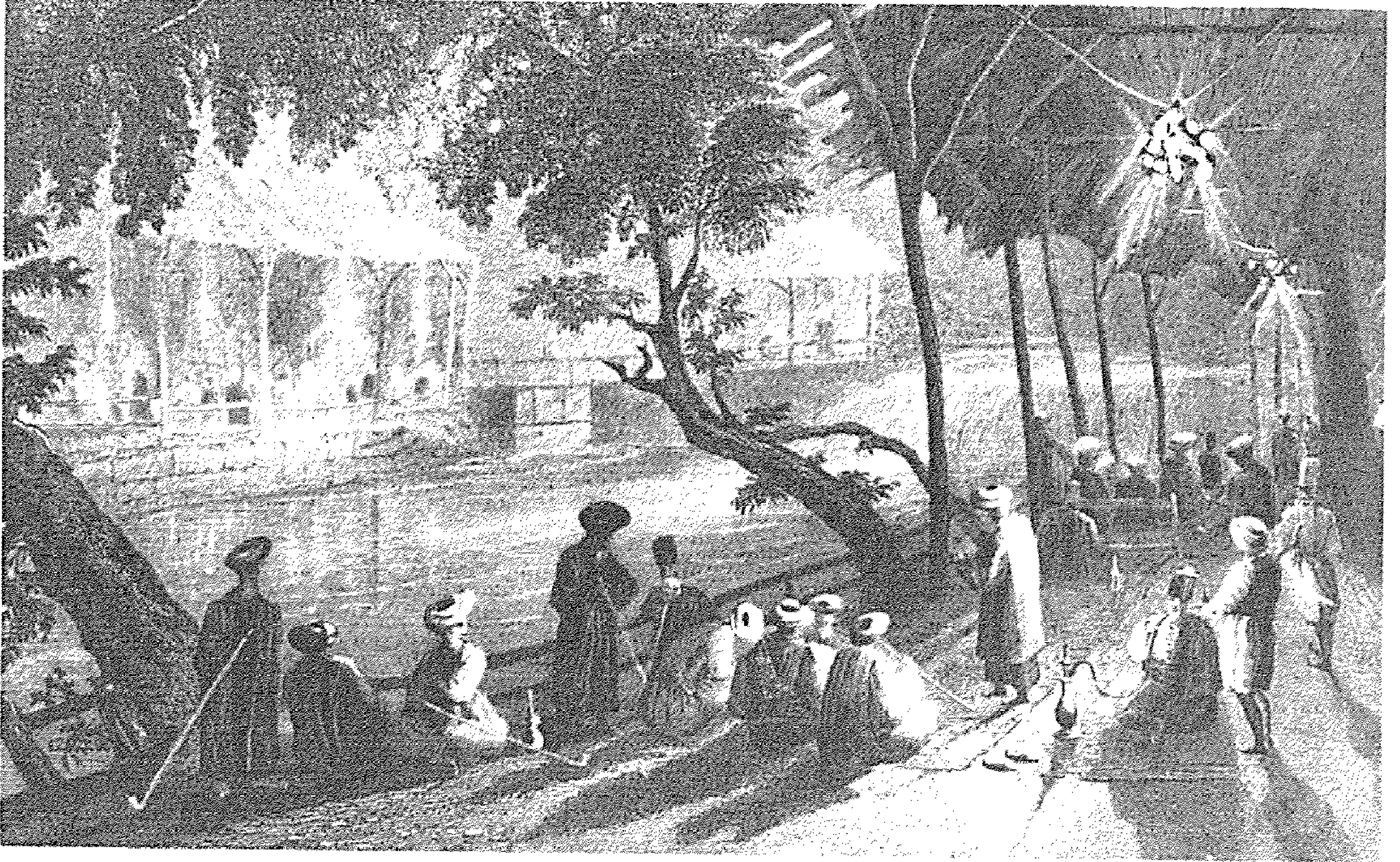
وعن هذا المعنى نفسه عبر شاعر حمصي بقوله:

أقول لأصحابي عن القهوة انتهوا
ولا تجلسوا في مجلس هي فيه
وما كان تركي شربها لكراهة
ولكن غدت مشروب كل سفيه

ويمثل موقف الشيخ أحمد العيثاوي ولد الشيخ يونس المتشدد في تحريمها حتى آخر يوم من حياته نموذجاً للمرحلة التي تلت مرحلة التشدد في النظر إلى القهوة، إذ أنه كان يراها حلالاً ولكنه لا يشربها براً بأبيه؛ ثم لما ألم به المرض ذات مرة وانقطعت شهوته نحو الطعام انقطاعاً تاماً، أمر أن تحضر له القهوة فشربها وداوم شربها نحواً من شهر.

تلك معركة طويلة دارت حول القهوة — في دمشق بالذات — طويلة لأن أول إشارة إلى الجهر بشرب القهوة في أحد المنازل (أو الزوايا) الدمشقية إنما تم سنة ٩٤١/١٥٣٤؛ يقول ابن طولون في حديثه عن بديع ابن الضياء قاضي مكة وزيارته لدمشق: «فخرج من دمشق يوم السبت منتصف ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وتسعمائة بعد أن حضر ليلة الجمعة التي قبل التاريخ المذكور عند الشيخ علي الكيزواني تجاه مسجد العفيف بالصالحية وسمع المولد وشرب هو والشيخ علي وجماعته القهوة المتخذة من البن، ولا أعلم أنها شربت في بلدنا هذه — يعني دمشق — قبل ذلك». وأضاف ابن طولون إلى ذلك قوله: «وكان عمي الشيخ جمال الدين ابن طولون يقول بتحريمها، وأمرها مشهور بمكة، ولعلمائها مصنفات في حل شربها وعدمه». وقد نتج عن هذه المعركة حركة أدبية واسعة: فكم من المقطعات والقصائد والموشحات نظمت في التغني بالقهوة وذكر محاسنها وفي مقابلها نظائر لها في ذمها والانحاء عليها، وكم من رسائل كتبت في تقبيحها وتهجينها وأخرى في مدحها وتزيينها والدفاع عنها في وجه المعارضين لها، وكم من أسئلة قدمت استدراجاً لفتاوى حولها نثراً ونظماً (ولعل هذا الأدب لا يفوقه إلا الأدب الذي دار حول الدخان والتدخين بعد ذلك).

وقبل أن يحسم النزاع بين الفريقين كانت الأماكن المخصصة لتناول القهوة قد انتشرت في دمشق، وأطلق على تلك الأماكن اسم «بيوت القهوة» أو «القهوة» أو «بيوت القهوات» ومجازا (في الشعر أحيانا) «الحانة» وعند من يستنكر وجودها «الخمارة». وقلما نصادف لفظ «المقهي». ويستعمل المؤرخ الدمشقي ابن طولون في حديثه عن منازه دمشق لفظة «المقصف» ويذكر أنه كان فيها عدد من المقاصف، ولكني لا أستطيع الجزم إن كان «المقصف» مرادفاً لبيت القهوة أو شيئاً زائداً

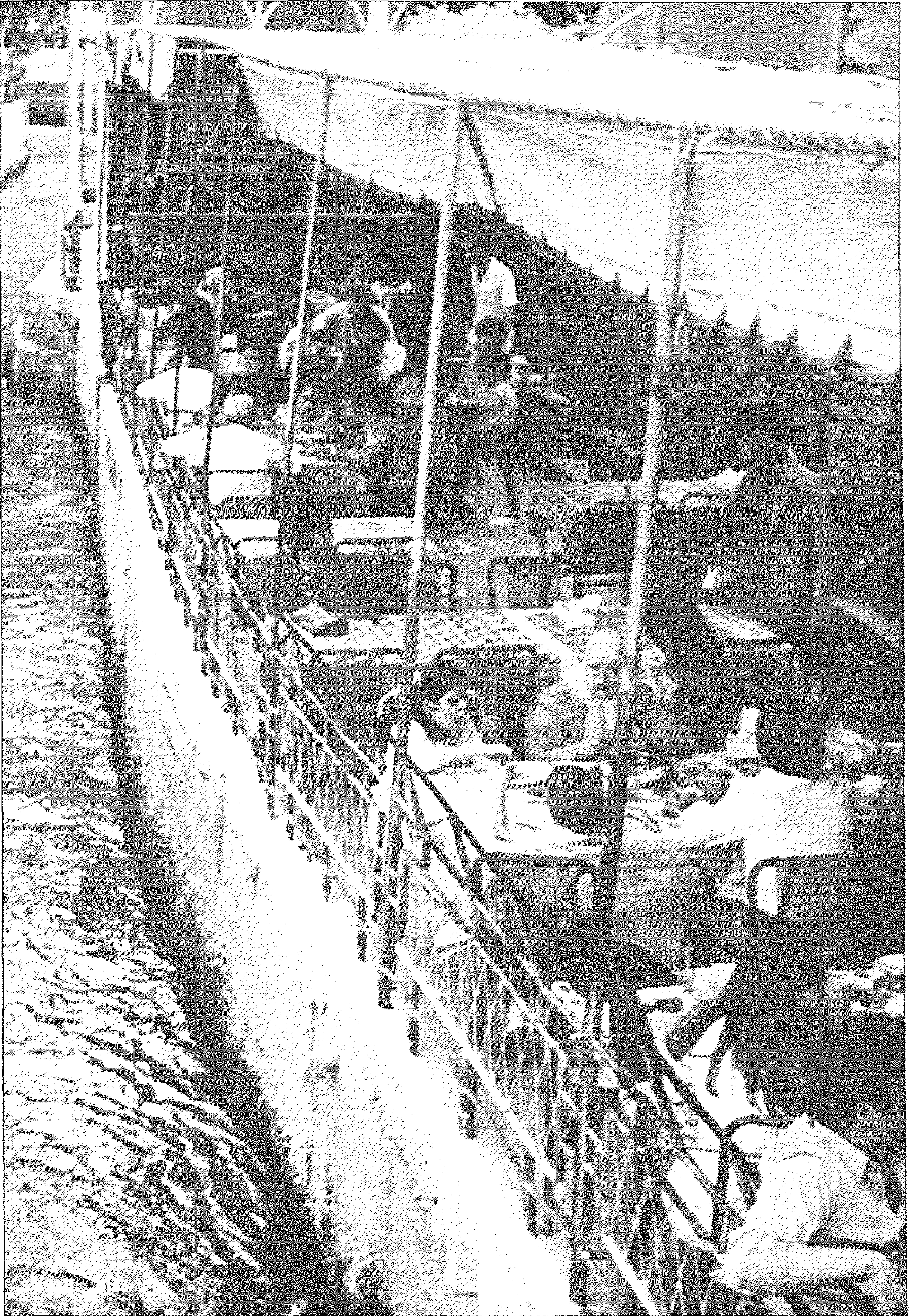


□ مقصف دمّر.

عليه. وليس لدي وصف عن طريقة تحضير القهوة في تلك البيوت، ولكن هنالك ما يؤكد أنها كانت «تطبخ» ــ كما تقول مصادر تلك الفترة ــ من «قشر» البن، وهي الطريقة التي بدأت في اليمن موطنها الأصلي؛ أما القهوة التي تصنع من حب البن فالأرجح أنها تمثل تطوراً تالياً في طريقة «الطبخ» والاعداد؛ وهنالك أخبار عن «إبريق» القهوة في ذلك الدور المبكر، ولكن ليس ثمة من إشارة إلى نوع الكؤوس أو الفناجين. وتفيد قطعة شعرية لعلي البكري الصديقي يقول فيها «وأدرها من خالص البن» أن الغش أصبح يدخل في تحضيرها، ولهذا فإنه يستشهد بقول الرسول: من غشنا فليس منا.

وقد عرفنا بعض بيوت القهوة بدمشق في القرن العاشر وبعض الذي يليه، ولكن ما تتحدث عنه المصادر من ذلك قليل، والمعتقد أن البيوت كانت كثيرة لأنها أصبحت تمثل مورداً اقتصادياً هاماً، حتى أصبحت لهذا السبب تدخل في «الأوقاف» المخصصة لدور العبادة أو لأعمال الخير؛ فقد كان هناك مقهى خارج باب السلام وقفاً على الشامية البرانية، وعمّر الأمير محمد منجك بأمر من سنان باشا (سنة ٩٩٥) خارج باب الجابية «السنانية والسوق المجاور لها والقهوة»، وعند باب البريد عمّر مراد باشا نائب الشام (سنة ١٠٠٥) سوقاً ووكالة (أي خاناً) وقهوة، ووقف كل ذلك على الحرمين الشريفين. وقبل أن يعمر هذا النائب نفسه «المرادية» في السويقة المحروقة كان مكانها مقهى أمامه حوش، وكان هذا المقهى من أشهر بيوت القهوة بدمشق، إذ كان الذي يعمل في بيع القهوة فيه هو الشيخ محمد اليتيم، وكان الحوش المجاور للمقهى مثابة «لبنات الخطا»، فاستأجره الشيخ وأخرجهن منه واتخذ فيه مسجداً وساحة لجلوس الناس، وكان إذا حضر وقت الصلاة أقام الصلاة وصلى مع من حضر من رواد المقهى والجالسين في الحوش؛ وليس لدينا ما يدلنا على مصير ذلك المقهى بعد أن ترك الشيخ بيع القهوة ولزم منزله.

إن مقهى السويقة المحروقة أو «مقهى محمد اليتيم» كان يمثل صورة غير تلك التي علقت بأذهان رجال الدين عن طبيعة المقهى ورواده، بعد أن تغير لديهم الاعتقاد الخاطىء عن طبيعة ما يشرب فيه، إذ كانت قهوته ــ بشهادة معاصريه ــ «مجمع الصالحين»، وهكذا انقسمت المقاهي الدمشقية بحسب روادها في فئتين: فئة



للهو والتسلية وأخرى للجد وشؤونه؛ وفي هذه الفئة الثانية أصبح بيت القهوة منافساً للتكية ولحلقات العلم في المساجد أو رديفاً لهما؛ فنحن نسمع أن الشيخ العارف محمد الاضطراري كان يجلس في بيوت القهوات كثيراً ويجتمع الناس عليه فيها ويأخذون عنه التوحيد والحقائق؛ وكان الشيخ فخير الشاغوري ــ وهو متصوف آخر ــ يلازم الجلوس ببيوت القهوات، ويتحلق حوله الناس ليسمعوا كلامه في الحقائق والتوحيد؛ ولا ريب في أن هذا اللون من المقاهي هو الذي كان يجتذب إليه المنشدين للقصائد والموشحات أمثال الريس محمد بن سعيد الذي كان يعمل في القهوات ليلاً ونهاراً.

أما الفئة الثانية من المقاهي فمن السهل أن نتصورها من خلال ريبة العلماء إزاءها: فهم يتحدثون عن وجود المعازف أي الآلات الموسيقية فيها، فهي على هذا موضع للتفرج بالسماع، كما انها تحتوي على الشطرنج والنرد وغيرهما من أدوات التسلية وأنواع الألعاب، ويمكن أن ندرك طبيعة الحال فيها قياساً على الحاضر؛ وكان من رواد هذا اللون من المقاهي بعض شعراء دمشق الذين يتخذون من شرب القهوة حافزاً لقرائحهم، وربما لم يكن أحمد العناياتي نموذجاً وحيداً في عصره، فقد كان من عادته كل صباح أن يذهب إلى بيت من بيوت القهوة «يكون فيه الماء الجاري مع المليح الساقي» ويشرب من قهوة البن أقداحاً، ثم يشرع في الكتابة، ويقضي نهاره في المقهى ولا يفارقه إلا في المساء وربما كان يبيت بعض الليالي هنالك، (وهذا يعني أن المقهى ربما كان يوفر الطعام أيضاً إن لم نفترض أنه لم يكن يطلب احضاره من مكان قريب)؛ وكان العناياتي ينشد ما يكتبه من أشعار لرواد المقهى، وخاصة الشعر الذي ينظمه باللغة الدارجة كالمواليا وغيرها من فنون الشعر الشعبي، وكان العامة ــ يعني المترددين على المقهى من أبناء الشعب ــ هم رواة شعره في الغالب. إننا لا نريد أن نقوّل المصادر ما لم تقله ولكننا نعتقد أن المقهى قد احتضن كثيراً من ضروب النشاط «الشعبي»، ففيه ــ ولا بد ــ وجدت قراءة السير ــ أو مهنة الحكواتي ــ مهدها الصالح لها إذ كان الحكواتي ظاهرة مهمة في ذلك القرن، وفيه تنوعت المواقف الخطابية والمحاورات الشعرية، وفيه كذلك بدأت بذور مواقف مسرحية قابلة للتطوير. إنه ليست لدينا أخبار عن كل هذه النواحي، كما أننا لا نعرف إن كان المقهى الدمشقي قد استطاع أن يجتذب إليه ــ كما فعل المقهى الاستانبولي ــ القضاة وموظفي الدولة أو من يمكن أن نطلق عليهم «الخاصة» في مقابل لفظة «العامة» التي لا تفتأ المصادر ترددها كلما تحدثت عن رواد المقاهي بدمشق؛ لعل هؤلاء استعاضوا عن التردد إلى القهوة بتوظيف «القهوجي» في بيوتهم، مثلما كان يفعل أحمد الحلبي الشهير بابن المنلا ــ وكان والده من أعيان الناس بدمشق ــ فقد اتخذ عبداً حبشياً يطبخ له قهوة البن لتقوى لديه القدرة على السهر والمطالعة؛ فإن شيوع القهوة في البيوت من شأنه أن يقصر مميزات المقهى على التسلية، ويبعد «الخاصة» عنه، لأن لديهم وسائل أخرى من التسلية. كذلك شاعت القهوة في التكايا فأغنت عن ذهاب المريدين إلى المقاهي، بل اجتذبت إليها زواراً آخرين من غير المريدين، وقد كان للشيخ محمد الجباوي زاوية بالقبيات، فكان زواره في أي وقت من أوقات النهار يجلسون عند بابها فيشربون القهوة أولاً ثم تمد لهم سفر الطعام من النقول والسكر والمربيات.

ولا نزال حتى تاريخ متأخر نسبياً في القرن العاشر نسمع من ينهى عن ارتياد المقاهي بدمشق ومعاشرة العوام فيها، إذ أن «بيت القهوة» لم يكتسب «الحل» الكامل الذي اكتسبته القهوة نفسها، فهذا النهي ينطوي على دوافع أخلاقية. أما استمرار الدولة نفسها في محاربة بيوت القهوة والنهي عنها فلعل وراءه عاملاً آخر وهو مظنة أن تكون المقاهي مجالا للحديث في السياسة وفي نقد الدولة وموئلاً صالحاً لترتيب المؤامرات. ففي عهد مراد الرابع (١٠٣٢ ــ ١٠٤٩) ــ أي بعد الفترة التي قصرنا عليها هذا البحث بقليل ــ هدمت بيوت القهوة، ثم أعيدت الكرة في زمن محمد الرابع (١٠٥٨ ــ ١٠٩٩)؛ ولكن هذا لم يدم طويلاً، إذ عادت الدولة نفسها لا إلى السماح بالمقاهي وحسب، بل تدخلت لتخفيض أسعار القهوة تخفيفاً عن كاهل الشاربين. ●

معركة ميسلون
٢٤ تمّوز ١٩٢٠

د. إحسان هندي



□ يوسف العظمة عند تخرجه من مدرسة أركان الجيش في الأستانة

□ د. إحسان هندي: جامعة العين ـ الإمارات العربية المتحدة.

يذهب بعض الباحثين في تاريخ بلاد الشام إلى تقسيم هذا التاريخ إلى ثلاث مراحل متميزة هي: الفترة القديمة، والفترة الاسلامية، فالفترة الحديثة، وفي الوقت الذي فيه إجماع على أن الفترة القديمة قد انتهت مع نجاح حركة الفتوحات العربية الكبرى، فإن الخلاف شديد حول تاريخ نهاية الفترة الاسلامية، وبداية الفترة الحديثة، فهناك من يجعل هذا مع بداية الحكم العثماني، ومنهم من يؤجل هذا التاريخ حتى حملة نابليون على مصر، ومنهم من يؤجل هذا التاريخ مجددا حتى قيام الثورة العربية الكبرى، وأخيرا ـ لكن ليس آخرا ـ هناك من يجعل هذا التاريخ مع قيام معركة ميسلون.

ومهما اختلفت الآراء إن معركة ميسلون هي نقطة البداية في التعامل مع الاستعمار الغربي الجديد، هذا الاستعمار الذي حنث بالوعود المقطوعة للعرب قبل إعلان الثورة العربية الكبرى، ولم يكتف بذلك بل بادر إلى احتلال الأرض العربية، وتمزيقها وزرع الجسم الغريب «إسرائيل» فيها، ومنذ ميسلون وحتى هذا التاريخ لم تتغير أسس الصراع ولا أهدافه النهائية، منذ ميسلون وحتى يومنا هذا شهدت أرض الشام حوادث عم تأثيرها حتى شمل العالم أجمع، لذلك مفيد أن نقف عند أخبار هذه المعركة الهامة:

(أ) الوقت:

يوم السبت في ٢٤ تموز ١٩٢٠ (من الفجر حتى الظهر).

(ب) المكان:

مرتفعات (عقبة الطين) قرب ميسلون.

(ج) الهدف:

١ ـ **بالنسبة للوطنيين**: الدخول في معركة معروفة النتائج لعدم تكافؤ القوى بغاية إقناع فرنسا والعالم كله أن سورية مستقلة ولها جيش ولا يمكن احتلالها إلا بالمرور فوق جثث أبطال هذا الجيش.

٢ ـ **بالنسبة للفرنسيين**: القضاء على جيش سورية قبل أن يستكمل تدريبه وتسليحه واحتلال سورية تنفيذا للمعاهدات السرية السابقة التي قضت بتقسيم بلاد العرب.

(د) حجم القوى:

١ ـ **القوى العربية**: كان مجموع القوى العربية التي اشتركت بالمعركة حوالي (٣٠٠٠) رجل بين عسكري ومدني بقيادة **الأميرالاي تحسين الفقير يعاونه البكباشي شريف الحجاز** وقد ضمت هذه القوى:

ـ بقايا الجيش النظامي.

ـ الحرس الملكي بقيادة مرزوق الخيمي.

ـ بطاريتي مدفعية إحداهما جبلية والأخرى صحراوية.

ـ بطارية رشاشات (٢٥ رشاشا) بإمرة صبحي العمري.

٢ ـ **القوى الفرنسية**: كان مجموع القوى الفرنسية المشتركة في المعركة حوالي (٩٠٠٠) جندي بقيادة الجنرال غوايبيه، يعاونه رئيس أركانه العامة الكولونيل بيتيلا. أما الوحدات الفرنسية التي اشتركت في المعركة فهي:

ـ كتيبة المشاة ٤١٥ بقيادة الليوتنان كولونيل ريوكرو.

ـ لواء سنغالي مكون من الكتيبتين ١٠ ـ ١١ بقيادة الجنرال بوردو.

ـ فوجان من الرماة الافريقيين **أحدهما بقيادة آبوت** والآخر بقيادة باوليتي.

ـ الكتيبة الأولى سباهيين بقيادة **الليوتنان كولونيل ماسييه**.

ـ الكوكبتان الأولى والثانية من كتيبة الخيالة السريعة الأولى.



□ ورقة وزعت ونشرت عند مجيء اللجنة الاميركية للاستفتاء.

ـ بطاريتا رشاشات عيار ٦٥ مم.

ـ ثلاث بطاريات مدفعية عيار ٧٥ مم.

ـ المجموعة الثانية من كتيبة المدفعية الثقيلة ١١٥.

ـ البطارية الثالثة من كتيبة المدفعية الثقيلة ٣٤٥ (١٥٥ مم).

ـ سرية من الكتيبة الخامسة عشرة مهندسين.

ـ السرية ٣١٤ من الكتيبة ٥٠٢ دبابات قتال.

ـ ثلاثة أسراب طائرات طراز بريغيه[١] ألقت فوق الوطنيين ٣ أطنان من القنابل.

ـ السرب الثامن طيران (١٨ طائرة من طراز ج ٦).

(هـ) خطط وترتيب الجانبين:

١ ـ خطة المدافعين وترتيبهم: اعتمد الوزير القائد يوسف العظمة خطة دفاعية ـ هجومية تتلخص بما يلي:

ـ منع العدو من اجتياز مرتفعات (عقبة الطين) شمال ميسلون مهما شدد ضغطه على قوات القلب المتمركزة هناك.

ـ قيام كل من الجناح الأيمن والجناح الأيسر بتثبيت القوات المقابلة لهما وانتهاز أول فرصة للالتفاف حول جانب العدو لقطع الطريق على قواته التي ستحصر في وادي القرن. ولتنفيذ هذه الخطة قام الوزير القائد بتقسيم قواته إلى قلب وجناحين ومؤخرة:

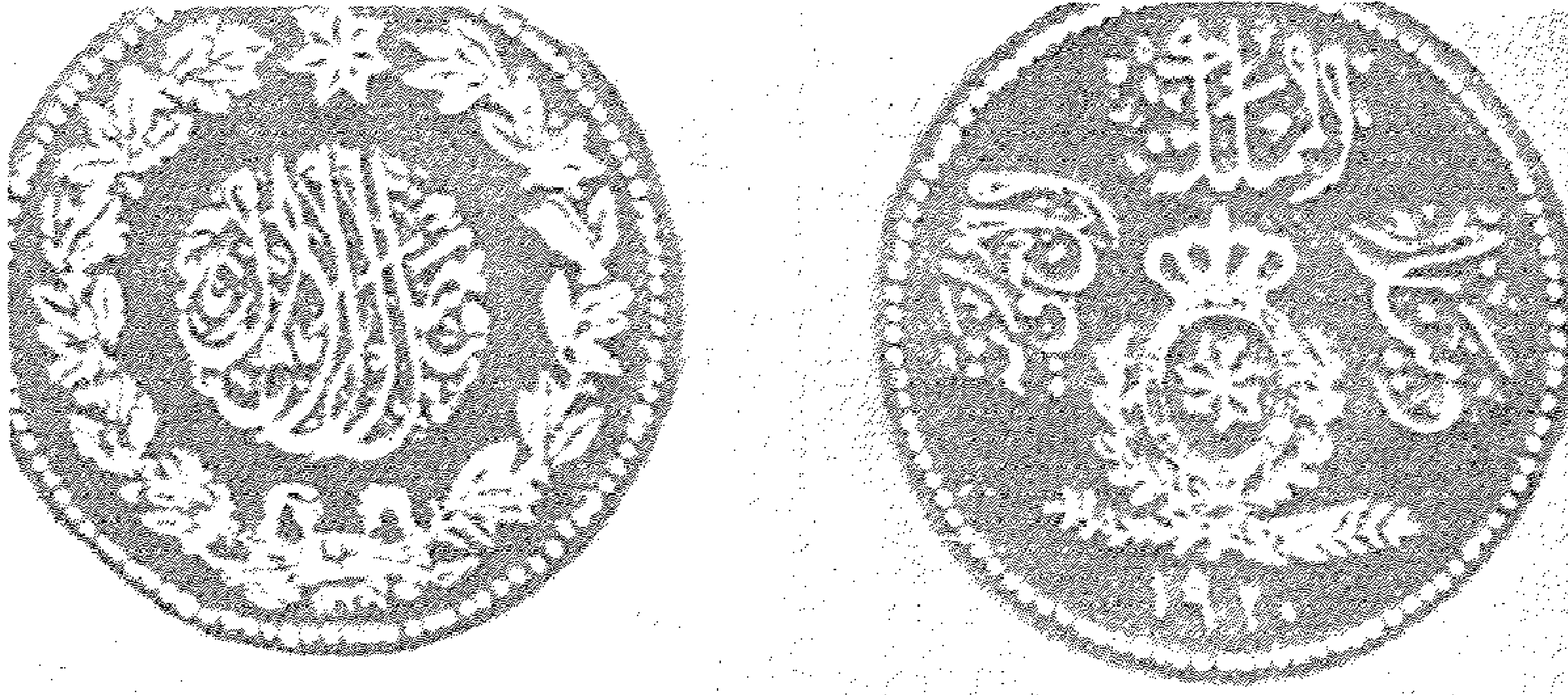
ـ **القلب**: تجمعت فيه بقايا الجيش النظامي لتقوم بالمهمة الرئيسية في الدفاع وهي تلقى ضربة العدو في محور جهده والصمود أمامه مهما كلف الأمر. وقد قاد الأميرالاي تحسين الفقير قوات القلب يعاونه البكباشي شريف الحجاز[٢].

ـ **الجناح الأيسر**: ضم هذا الجناح قوة الحرس الملكي التي كانت تعد (٦٠ فارسا) من اللواء الهاشمي مع سرية هجانة عددها حوالي (٣٠٠) هجان والمتطوعين المدنيين من الفرسان وعددهم (١٥٠) فارسا مما يجعل مجمع تعداد الجناح (٥١٠) رجال.

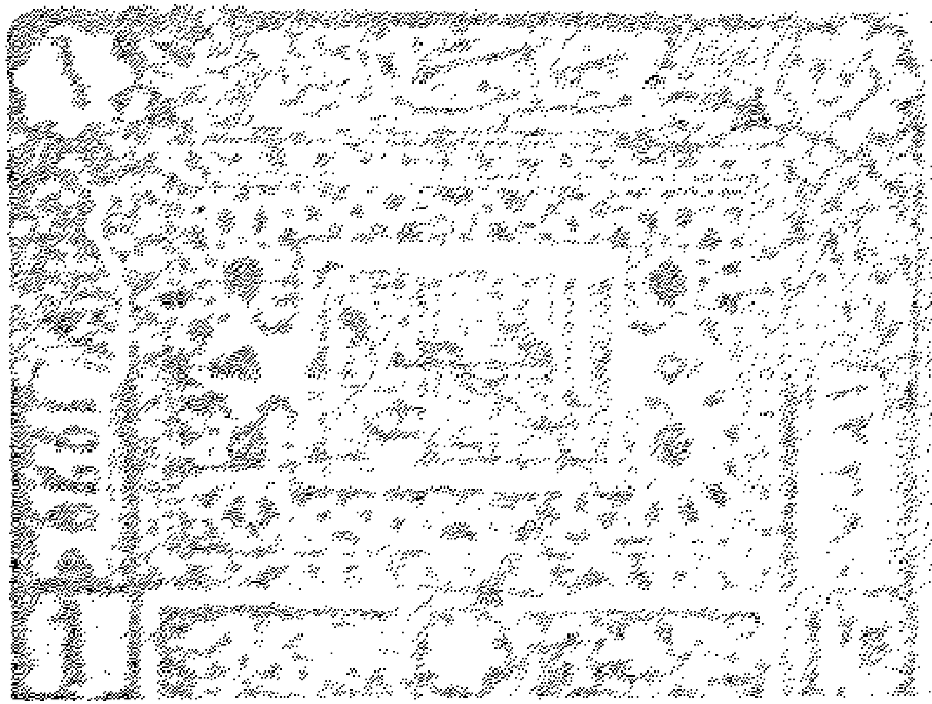
وقد أعطي هذا الجناح مهمة منع قوات الميمنة المعادية من القيام بحركة التفاف لتطويق القوات الوطنية ثم الاغارة عليها عند سنوح الفرصة باتجاه قرية جديدة يابوس لقطع الطريق على القوات الفرنسية التي تريد الانسحاب من وادي القرن نحو الخلف.

ـ **الجناح الأيمن**: ضم هذا الجناح لوائين غير كاملين من الفرقة الأولى مع المدفعية الخاصة بهذه الفرقة. وهذان اللواءان هما اللواء الأول الذي كان يقوده البكباشي حسن الهندي واللواء

□ الدينار السوري والطوابع البريدية السورية (صورة مكبرة).









الثاني الذي كان يقوده توفيق العاقل وأما مدفعية الفرقة فقد كان يقودها القائمقام أحمد صدقي الكيلاني. وقد أعطيت قوات هذا الجناح مهمة منع قوات الميسرة المعادية من القيام بحركة التفاف لتطويق القوات الوطنية، ثم الاغارة عليها عند سنوح الفرصة باتجاه فم وادي القرن لقطع الطريق على القوات الفرنسية الموجودة فيه.

ــ **المؤخرة**: وكانت تشكل مصالح الميرة للجيش وأهمها مصلحة التموين التي تمركزت في قرية دمّر بإمرة السيد لطفي الرفاعي، ومصلحة الصحة التي تمركزت مفرزة منها في خان ميسلون.

٢ ــ خطة المهاجمين وترتيبهم: تلخصت خطة المهاجمين بما يلي:

ـ **المدفعية**: تمركزت في فم المضيق[٣]، وأعطيت لها مهمة إسكات مدافع الوطنيين ودعم الهجوم الذي تقوم به عناصر المشاة قبل الوصول إلى وادي الزرزور.

ـ **الدبابات**: تمركزت مع المشاة وأعطيت لها مهمة مواكبة المشاة حتى الاصطدام.

ـ **المشاة**: أعطيت مهمة الانتشار حول الطريق العام بمعدل فوج واحد على يسار الطريق وأربعة أفواج على يمينه.

ـ **الخيالة**: أعطيت مهمة الالتفاف حول قوات الوطنيين عن طريق محور دير العشاير ـ جبل المزار الديماس.

ـ **الطيران** أسندت إليه مهمة الاستطلاع وضرب أرتال الوطنيين والتمهيد للهجوم بالقصف بالقنابل والرشاشات.

(و) سير المعركة:

بدأت المعركة مع إشراقة شمس ٢٤ تموز حين قامت بطاريات المدفعية الفرنسية بقصف الخطوط والاستحكامات السورية فأجابتها المدفعية الصديقة بالمثل. وقد تمكنت المدفعية السورية من تعطيل البطارية الموجودة في فم الوادي كما وأسقطت إحدى الطائرات. وفي الساعة التاسعة بدأت الدبابات الفرنسية بالهجوم محمية بالمشاة بمعدل ثلاثة أفواج من كل جهة، وقد أعطيت لفوج المشاة الكائن في أقصى اليمين مهمة الالتفاف على العناصر الوطنية المتمركزة على يسار الطريق، بينما أعطيت لفوج المشاة الكائن في أقصى اليسار نفس المهمة بالنسبة للعناصر الوطنية المتمركزة على يمين الطريق، وبنفس الوقت قامت الخيالة بالالتفاف البعيد على محور دير العشاير ـ جبل المزار ـ الديماس. وصمدت القوات الوطنية صمود الأبطال فظلت المدفعية السورية تطلق حتى نفذت ذخيرتها فسهل عند ذلك على مشاة العدو التقدم بحماية المدفعية والدبابات خاصة وأن الألغام السورية التي وضعت في الطريق لم تنفجر لعطل معظمها.

ولما اجتازت القوة الفرنسية وادي الزرزور، وهدد فوج المشاة الفرنسي اليميني بشكل مباشر ميسرة القوات الوطنية، لم يعد لهذه القوات نجاة إلا بالتراجع خيفة من الفناء الكامل فيما لو تم تطويقها، فبدأت بالانسحاب إلا نفرا من الأبطال يترأسهم الشهيد يوسف العظمة الذي أبى التراجع رغم إلحاح مرافقه الملازم ياسين الجابي عليه، وظل واقفا يشرف على العمليات العسكرية وبيده منظاره حتى أصيب بوابل من رشاش فرنسي فخر على الأرض شهيد الواجب حوالي الساعة ١١,٣٠ من ذلك اليوم المجيد، وعندها تراجع من كان يدافع من القوات العربية.

وقد حاول البكباشي شريف الحجاز أن يقيم خطا ثانيا للدفاع عن دمشق قرب قدسيا ولكنه اثر العدول عن هذه الفكرة حين لاحظ قلة عدد الجنود الذين بقوا معه وضعف تسليحهم.

وفي صباح يوم ميسلون قصد الملك قرية الهامة مترقبا أخبار المعركة كما أنه أمر أخاه الأمير زيد بالتوجه إلى الجبهة للاشتراك بالدفاع عن الوطن، ولكن واحدا منهما لم يصل إلى ميسلون لأنهما صادفا سائق سيارة يوسف العظمة عائدا بسيارته فارغة إلى دمشق. ولما سألاه عن الوزير أجاب (لقد انكسرنا)، فعادا وكلهما ألم وحسرة.

(ز) نتائج المعركة:

١ ـ **النتائج المادية**: خسر الفرنسيون ٤٢ قتيلا و ١٥٢ جريحا و ١٤ مفقودا[٤] بينما خسر السوريون حوالي ٤٠٠ قتيل ومعظم أسلحتهم الاجماعية التي استخدموها في المعركة.

٢ ـ **النتائج السياسية**:

ـ فتحت طريق دمشق أمام الجيوش الفرنسية.

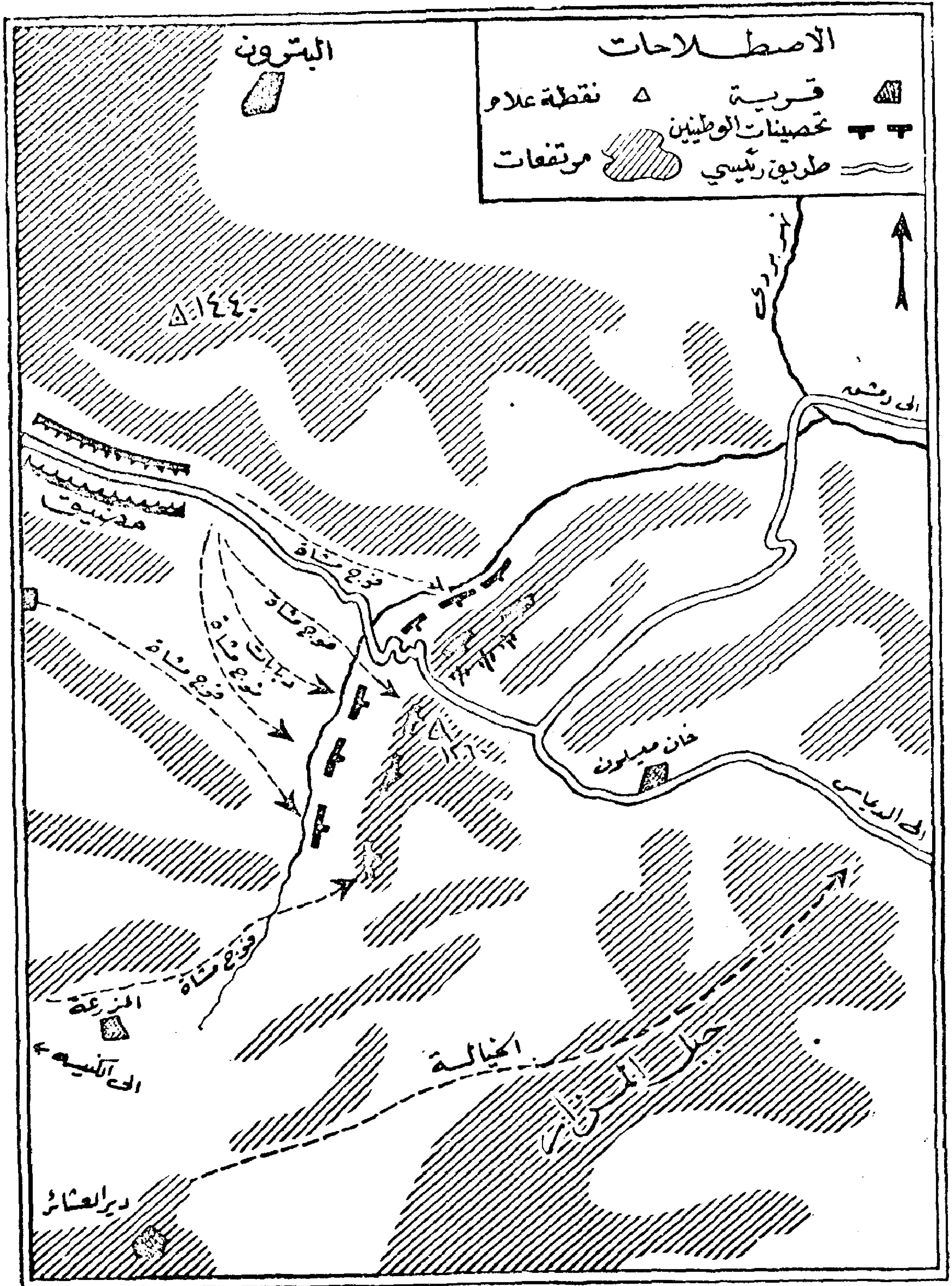
ـ أنهت عهد أول حكومة مستقلة في سورية.

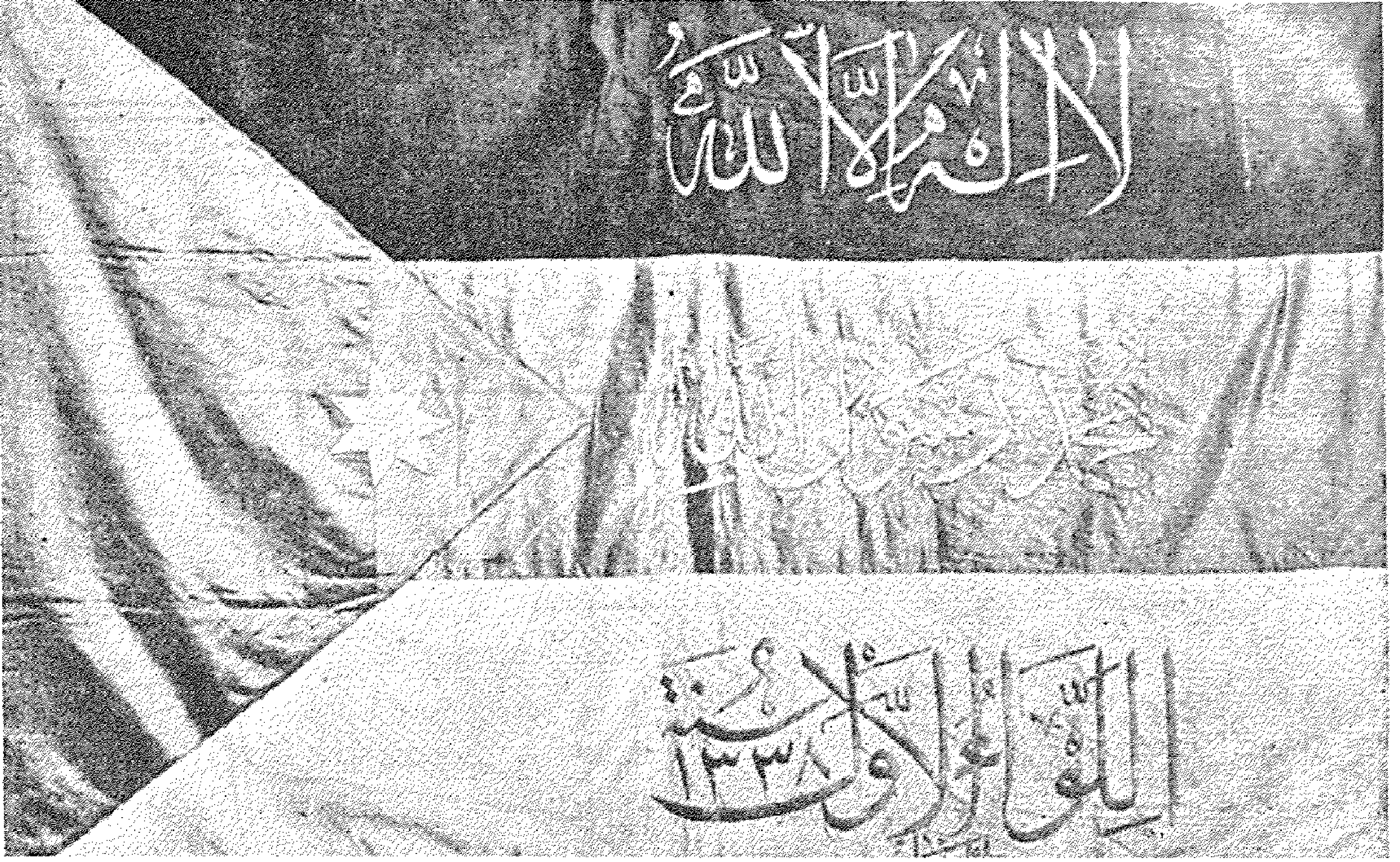
ـ أقنعت هذه المعركة السوريين بعدم جدوى المفاوضات السلمية مع الفرنسيين ولذا انصرفوا بعد هذه المعركة لكفاح دام حوالي ربع قرن حتى انتهى بجلاء الفرنسيين الكامل.

نهاية الملكية:

لم يجد الملك فيصل بدا من مغادرة دمشق مسافرا إلى الكسوة لتكون مقرا مؤقتا للحكومة بعد أن عين أمير اللواء **نوري السعيد** قائدا

□ مخطط معركة ميسلون (٢٤ تموز ١٩٢٠).





□ الوجه الثاني من علم «لواء المشاة الأول» الذي اشترك في معركة ميسلون، محفوظ في المتحف الوطني بدمشق.

لموقع دمشق، وفي نفس اليوم قام عدد كبير من الوطنيين ممن كانوا يقودون حركة المقاومة ضد مطالب الفرنسيين بمغادرة دمشق إلى فلسطين ومصر خيفة من أن يقوم الفرنسيون بالانتقام منهم(٥).

وأما الجيش الفرنسي فقد مشى من ميسلون بعد ظهر يوم ٢٤ تموز فوصل ضاحية الرقة في مساء ذلك اليوم وعسكر هناك. وفي ليلة ٢٤/٢٥ تموز قام أمير اللواء نوري السعيد قائد موقع دمشق والقائمقام جميل الألشي مرافق الملك بزيارة قائد الحملة الفرنسية الجنرال غوابيبه حيث أبلغاه أن باستطاعة الجيش الفرنسي أن يدخل دمشق في أي وقت شاء. وفي الساعة ١٦,٠٠ من يوم ٢٥ تموز بدأت جيوش الحملة تدخل دمشق وتستقر في ثكناتها، وكانت أسواق المدينة مقفلة ووجوه الأفراد القلائل الذين شاهدهم الجيش الفرنسي في الطريق عابسة واجمة حيث كان هذا اليوم أشد هولا على سورية من جميع أيام مصائبها لأنه كان يوم العار الذي لصق بالعهد الفيصلي وظل أبدا عالقا به حتى غسله السوريون سنة ١٩٤٥.

وبعد دخول الجيش الفرنسي لدمشق تلقى الملك برقية من نوري السعيد أرسلها له بواسطة مكتب البرق في محطة الكسوة، وبها يطمئنه إلى الحال ويطلب منه العودة إلى دمشق فنزل الملك عند هذا الطلب وأراد إنقاذ ما يمكن إنقاذه ولو أدى الأمر للرضوخ لبعض رغبات السلطة الفرنسية ولذا قام قبل مغادرته الكسوة بتشكيل وزارة معتدلة يمكنها التعاون مع الفرنسيين وأوصاه بترك وزارة الخارجية شاغرة إرضاء لهم(٦).

ولكن تشكيل هذه الحكومة المعتدلة لم يقدم لفيصل أية فائدة إذ أن الجنرال غوابيبه طلب الاجتماع بها بعد تشكيلها، وفي الاجتماع المذكور ابلغ أعضاءها بأنه لم يعد من الممكن استمرار فيصل في الحكم بعد أن جر البلاد إلى حافة الهلاك. ثم أمر بأن تدفع سورية عشرة ملايين فرنك تعويضا عن الخراب الذي سببته في المنطقة الغربية ونزع سلاح الجيش السوري وتسليمه للجيش المحتل مع إجبار الأهالي على تقديم عشرة آلاف بندقية.

وعندما بلغ الملك مضمون هذه المطالب أرسل برقية إلى الجنرال غورو في **٢٧ تموز ١٩٢٠** يحتج بها على التصريح الذي فاه به الجنرال

غوايبيه لأعضاء حكومة الدروبي ويتحفظ بعدم اعترافه بالقرارات التي تتخذها الحكومة بدون علمه. كما أنه أرسل في اليوم نفسه برقية مفصلة إلى اللورد كيرزون(٧) يحتج فيها على تصرف الفرنسيين في دمشق وبعث بمثلها لكافة الدول راجيا تدخلها لاحقاق الحق.

وجاء رد الفعل الفرنسي الذي أحدثه احتجاج الملك حين سلمه الكولونيل تولا(٨) في مساء اليوم نفسه (٢٧ تموز) الكتاب الرسمي التالي:

(اتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم ويكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غدا في ٢٨ تموز الساعة الخامسة صباحا).

ورغم أن فيصل بعث ببرقية احتجاج إلى غورو وسلم نصها إلى جميع قناصل الدول في دمشق فقد رأى أنه لا مناص من تنفيذ حكم القوة مهما يكن جائرا ولذا فقد قام بحزم أمتعته ليغادر في صباح ٢٨ تموز دمشق بقطار خاص رافقه به وزير معارفه السابق ساطع الحصري وسكرتيره الخاص عوني عبدالهادي وكبير أمنائه إحسان الجابري ومرافقه العسكري تحسين قدري وطبيبه الخاص الدكتور احمد قدري.

وعندما توقف القطار بفيصل في مدينة درعا يوم ٢٩ تموز وتقدم وجهاء حوران للترحيب به القت الطائرات الفرنسية فوق حوران منشورا تطلب به من الأهالي باسم قائد الحملة الفرنسية إخراج الملك في ظرف عشر ساعات وإلا فإنهم سيتعرضون لقنابل الطائرات. وتلقاء هذا الموقف الحرج غادر فيصل درعا إلى حيفا يوم ١ اب ١٩٢٠ وبعد أن بقي في حيفا عدة أيام غادرها إلى إيطاليا حيث استقر بمدينة (كومو) وهناك أعد مذكرة طويلة بسط فيها الحوادث التي تعاقبت على البلاد العربية بعد بدء الحرب العالمية الأولى وأعطى هذه المذكرة إلى الجنرال حداد باشا المعتمد العربي في لندن ليسلمها لوزارة الخارجية البريطانية.

وقد كان لانتهاء العهد الملكي في سورية أثر هام في مجرى الحركة العربية لا في بلاد الشام فحسب بل في مختلف البلاد العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني ايضا.

وبنهاية ملكية فيصل، انتهى ذلك العهد الذي دام حوالي السنتين والذي بدأ والنفوس مفعمة بعظيم الآمال وانتهى والمرارة تملأ كل قلب. ●

الهوامش

(١) تمكن الوطنيون من إسقاط إحدى هذه الطائرات في يوم ٧/٢٣ وقبضوا على طيارها في منطقة الديماس.

(٢) لا يفوتنا ان ننوه بان الاسلحة المستخدمة حتى من عناصر الجيش كانت على عدة انواع حيث كان فيها من النوع الانكليزي والالماني والتركي مما اجبر البكباشي شريف الحجاز على تقسيم عناصر القلب لثلاث مفارز حسب نوع اسلحتها وذلك ليسهل تموينها بالذخيرة إذا لزم الأمر.

(٣) انظر المخطط المرفق.

(٤) الأرقام المذكورة هنا هي ارقام ماخوذة من مصادر فرنسية عسكرية. واما المصادر العربية فقد قدرت القتلى الفرنسيين بثلاثمائة قتيل.

(٥) لقد صح ما توقعه هؤلاء الوطنيون فقد صدر حكم الاعدام ومصادرة الاملاك بحقهم من قبل المحاكم العسكرية الفرنسية بعد دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق. ومن هؤلاء: سعدالله الجابري، عبدالرحمن الشهبندر، جميل مردم، سعيد حيدر، خير الدين الزركلي، عثمان قاسم، خالد الحكيم، عمر شاكر، توفيق يازجي، يوسف ياسين، بهجت الشهابي، سليم عبدالرحمن، معين ماضي، رفيق التميمي، عزة دروزة، عبدالقادر سكر، شكري القوتلي، الشيخ كامل قصاب، نبيه العظمة، رياض الصلح، محمود فاعور، فؤاد سليم، عوني القضماني، ياسين دياب، شكري الطباع، محمد علي التميمي، رشيد طليع، الشيخ عبدالحلبي وغيرهم.

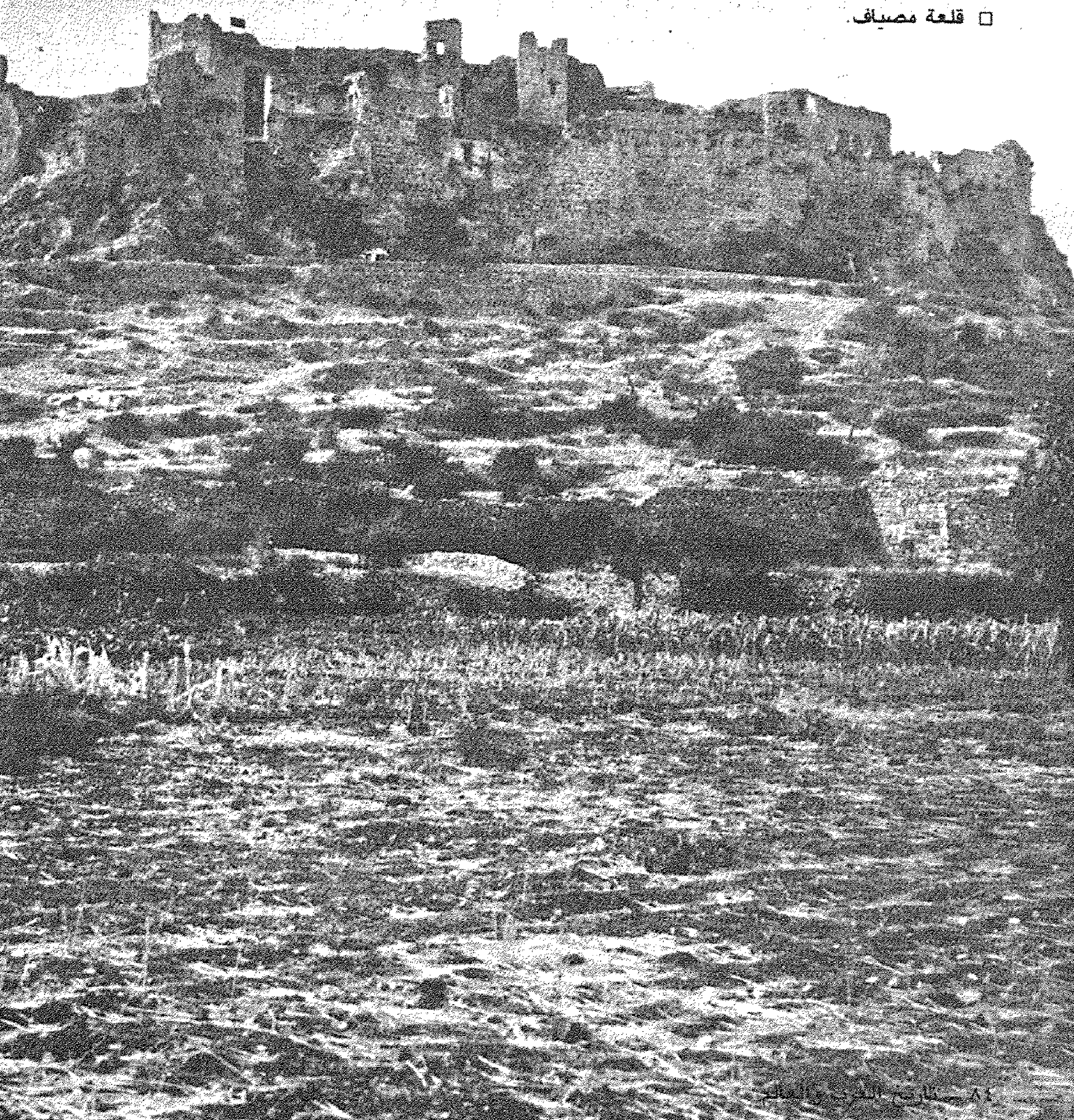
(٦) شكلت هذه الوزارة على الشكل التالي: علاء الدين الدروبي: للرئاسة، بديع المؤيد: للمعارف، يوسف الحكيم: للزراعة، عبدالرحمن اليوسف: رئيسا لمجلس الشورى، جميل الالشي: للحربية، جلال الدين: للعدلية، عطا الأيوبي: للداخلية، فارس الخوري: للمالية.

(٧) وزير الخارجية البريطانية.

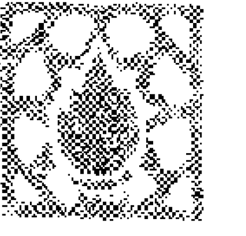
(٨) رئيس البعثة السياسية الفرنسية بدمشق.

القِلاع أيام الحُروب الصّليبيّة

تأليف: ڤولفغانغ مولر - ڤينر   ترجمة: العميد الركن محمّد وليد الجلاّد
مراجعة: الدكتور حسين سلمان سُليمان



□ قلعة مصياف.



تفتقر المكتبة العربية إلى دراسات وأبحاث تتعلق بالقلاع التي كانت أيام الحروب الصليبية، ولسد هذا النقص قام مركز الدراسات العسكرية في دمشق، بترجمة دراسة وضعها بالانجليزية المؤلف الألماني ڤولفغانغ مولّر ــ ڤينر، تكشف عن مرحلة هامة من مراحل تطور فن الحرب عند العرب، لشموله على عدد لا بأس به من القلاع التي كانت أيام الحروب الصليبية، وخاصة تلك التي استخدمت من قبل الطرفين.

فقد اضطر الغزاة تحت ضغط الحاجة،ولوجودهم في أراض غريبة بعيدة عن بلادهم، ورغبة منهم في المحافظة على ما امتلكوه، خشية أن يسترده أصحابه الأصليون المخرجون من ديارهم، إلى شغل القلاع والمدن المسورة القائمة وإشادة الجديد منها. ولم يكن من شأن هذه القلاع والمدن أن تحميهم ومواشيهم فحسب، وإنما تمكنهم من وضع أخصامهم تحت رقابتهم المستمرة. ولم يكن ذلك يتم عشوائياً، وإنما كانت هناك سلسلة من الحصون والقلاع، تحرس بعضها بعضاً على طول الشريط الضيق الذي كان يسيطر عليه الفرنجة، والذي كان يمتد على مسافة خمسمائة ميل، اعتباراً من سواحل البحر الأحمر وحتى ضفاف نهر الفرات، ولا يزيد عرضه في أقصى اتساع له عن ستين ميلاً . وانتشرت قلاع الصليبيين في شتى الأرجاء على امتداد السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وفي الأراضي الداخلية المتاخمة لحوضه الشرقي وفوق ذرى مرتفعات قبرص الصخرية، وعند الأكروبول الأثيني، وفي أعالي جبال اليونان.

وكانت متطلبات الموقف السياسي الراهن الجغرافية والاستراتيجية، على وجه العموم، والمستوطنات والتحصينات السابقة، والطرق والمخاضات والمضائق الجبلية والأماكن الصالحة لرسو السفن على وجه الخصوص، هي التي تفرض موقع كل قلعة من تلك القلاع. إلا أن أسلوب البناء، والهيكل العام للأبنية المشادة، ومخططها الأرضي في تلك المواقع لم يكن مقيداً ــ على أية حال ــ بالشروط الجغرافية والاستراتيجية وحدها، وإنما كان يتأثر ــ بالدرجة نفسها ــ بالتقاليد المعمارية المحلية الراسخة على مر العصور، في ظل تأثير التأثيرات الرومانية أو البيزنطية أو العربية أو الأرمنية، وما زلنا غير قادرين ــ بسبب معرفتنا المحدودة بفن التحصين عموماً، وفن التحصين في القرون الوسطى خصوصاً ــ على التثبت من درجة تأثر فن البناء المولد هذا بالتقاليد والخبرات التي جاء بها الغزاة الجدد من مواطنهم، ومما لا ريب فيه أن للتقاليد المستوردة دوراً بارزاً في هذا المجال، رغم أنها تأتي في المرتبة الثانية ــ مبدئياً على الأقل ــ بعد التقاليد المحلية، التي كان لها دورها الكبير والهام جداً، ذلك أن عدداً كبيراً من القلاع التي كانت قائمة قبل ذلك، ظل يستخدم على حاله الأصلي، وأن معظم القلاع التي شيدت حديثاً شيدها بناؤون وحجارة وفعلة محليون، استخدموا فيها مواد تتوفر في تلك البقاع.

وبمرور الزمن تضاءلت هيمنة التأثير المحلي على تطور العمارة وتصميم القلاع وأسلوب التحصين وصنعة البناء، نظراً للخبرة الواسعة التي اكتسبها فرسان الفرنجة طوال سنوات عديدة من الحملات العسكرية، وحرب الحصار في المناطق المجاورة للممالك والامارات التي أقاموها هنا، ويظهر ذلك بوضوح ــ في الواقع ــ في المباني الكثيرة التي يعود تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، والتي يبدو فيها طغيان تطورات مولدة مفردة، مثيرة للاهتمام على التقليد المحلي، استوردت عناصرها وصفاتها من أوروبا الغربية.

ولقد وقع اختيار المؤلف على اختيار القلاع التي تتناولها الدراسة التي وضعها، بتفصيل أكبر استناداً إلى الحالة التي آلت إليها في الوقت الحاضر بالدرجة الأولى، وإلى الظروف الراهنة أحياناً.

فلقد واجه الغزاة الصليبيون خلال مسيرتهم عبر قليقية وتحركاتهم التالية في سوريا وفلسطين، العديد من القلاع والمدن الحصينة التي كانت تابعة لبيزنطة في وقت من الأوقات والتي كان يحتلها المسلمون آنئذ. وكانت دفاعات تلك المدن تتألف غالباً من أسوار ساترة، تزينها أبراج عديدة، وتعززها

□ د. حسين سلمان سليمان: الجامعة اللبنانية ــ كلية الآداب.

خنادق أو تحصينات خارجية خفيفة. وثمة مدينة واحدة، أو مدينتان، كانتا تملكان قلعة محصنة من العهود القديمة (مثل حلب)، أو شيدت فيها أثناء الحروب العربية البيزنطية (مثل انطاكية في عام ٩٧٥).

ولم تكن التحصينات الأصلية في معظم المدن ـــ باستثناء حالات قليلة ـــ تحظى برعاية أصحابها العرب بعد الفتوحات الاسلامية، ولم تنشأ دفاعات جديدة إلا في عدد محدود من المدن الساحلية في سوريا وفلسطين (مثل عكا وعسقلان وقيسارية)، أو في مناطق الثغور المتاخمة للحدود البيزنطية العربية، حيث كان خطر الهجوم جاثماً باستمرار. واعتباراً من بداية القرن العاشر، بدأ البيزنطيون والحكام المحليون من المسلمين وغيرهم تشييد عدد من القلاع الجديدة في جوار المستوطنات القديمة، بعد أن أصبح الدفاع عن أسوارها الكثيرة صعباً. وتتميز تلك المعاقل الحصينة عن القلاع البيزنطية السابقة بموقعها المنعزل، فوق مرتفعات وعرة صعبة التسلق، وبمخطط أسوارهاالتيتحيط بها بدون تنسيق لتتماشى مع تضاريس الأرض. وكانت هذه المعاقل تجمع بين مقر السيد الاقطاعي والمستوطنة المحصنة بشكل يؤهلها تماماً لحمل إسم «قلعة» بمفهومها في القرون الوسطى (مثل قلعة صهيون).

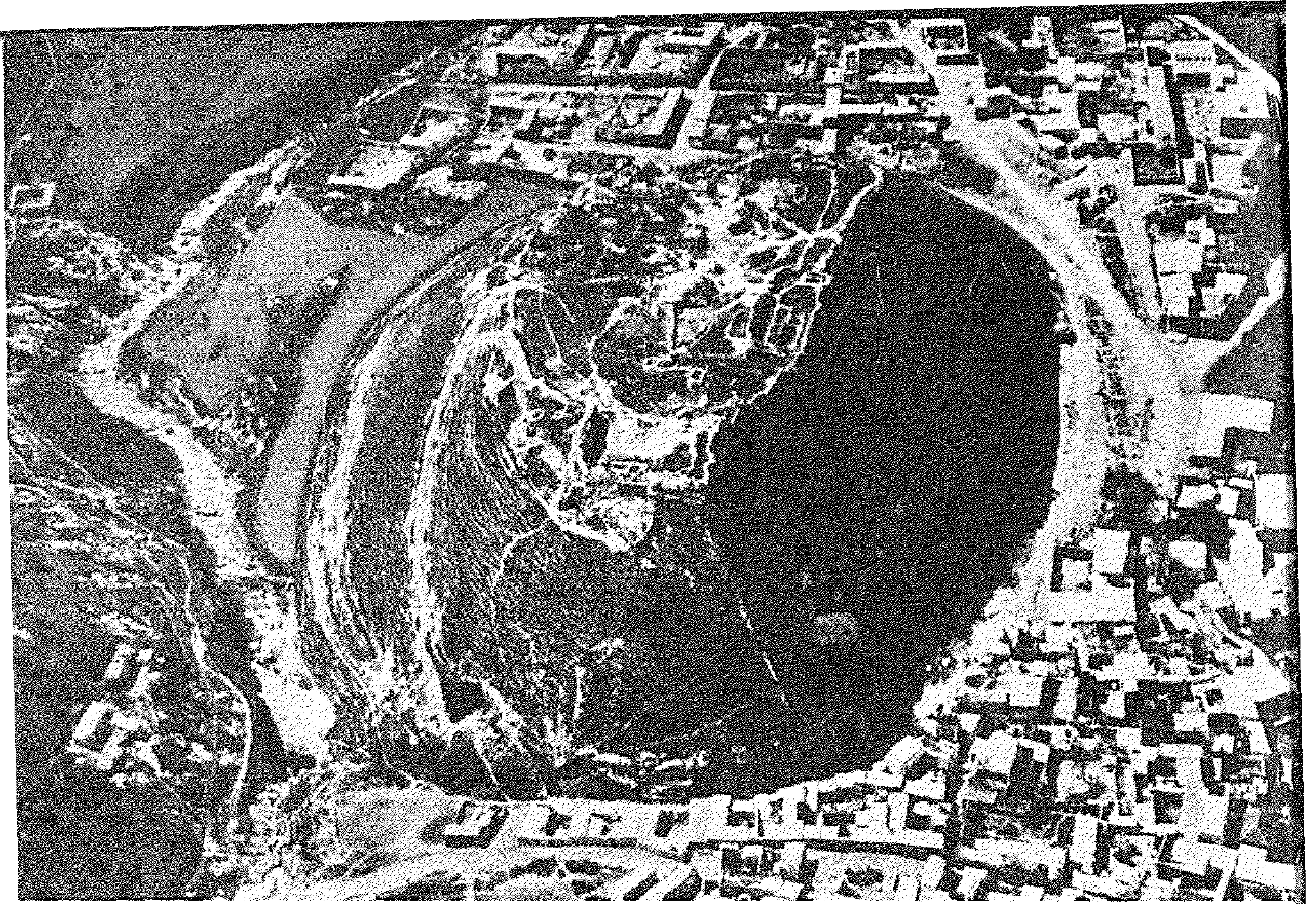
وكانت القلاع الجديدة التي شيدها الصليبيون منذ أيامهم الأولى، وعلى الدوام، قواعد هجومية مصممة لتكون مرتكزاً للقوات الفرنجية التي تحاصر المدن الساحلية الحصينة الضخمة، أو خطوط انطلاق للحملات الجديدة والغارات السريعة داخل الأراضي العربية، وذلك على النقيض من التحصينات القديمة التي استولى عليها الفرنجة وأعادوا بناء اقسام منها. وبالتالي فقد كانت معظم القلاع الجديدة ترتكز إلى مواضع جيدة الحماية ذات أهمية استراتيجية بالقرب من طرق القوافل الرئيسية أو بجوار المنافذ المؤدية إلى المدن الكبرى، وتؤمن افضل الشروط الممكنة لمراقبة الأرض المحيطة.

كذلك كان الارتباط بالنظر بين القلاع المتجاورة هاماً جداً (والمثال على ذلك صافيتا) إلا أن المبدأ الرئيسي في تلك القلاع الجديدة، كما كان شأن القلاع التي اشادها البيزنطيون والأمراء العرب في القرنين العاشر والحادي عشر، هو أنها يجب أن تنسجم مع السمات السطحية (الطبوغرافية) المحلية، وأن تستغل الميزات الطبيعية للوسط الجبلي المحيط بها أكبر قدر ممكن. وكان يشاد معقل أو برج محصن قوي بشكل خاص فوق الرقعة التي تؤمن أفضل حماية طبيعية، بينما كانت تحاط أقسام القلعة الأكثر انخفاضاً واتساعاً على وجه العموم بدفاعات أقل مناعة.

وكانت أسوار القلاع الفرنجية وأبراجها، ومعظمها مبني من الحجارة المتينة، أقوى وأمنع من تلك التي تحيط بالقلاع البيزنطية والعربية السابقة على الدوام. ولا يلاحظ وجود طراز قياسي موحد واضح الملامح بين هذه القلاع في المرتفعات الفلسطينية، بينما تطابق القلاع المعاصرة في المناطق الساحلية المستوية طرازاً ثابتاً يستند بوضوح إلى التقاليد النورماندية ومن المرجح أنها تمثل مساهمة الصليبيين الرئيسية في تطوير العمارة العسكرية في المشرق العربـي. وكانت هذه القلاع تتألف ـــ كما هو حالها في شمال فرنسا وجنوبـي انجلترا ـــ من برج متعدد الطبقات منيع للغاية (هو البرج المحصن) يحيط به سور ساتر وحيد متطاول، ويعزز في أكثر الأحيان بأبراج زاوية مع خندق عريض أو قناة مائية عريضة (ومن بينها مثلاً تل الصافية وصافيتا وقلعة يحمور). كما كانت تشاد أبراج محصنة من هذا الطراز في القلاع الكبرى (مثل ثلعة صهيون) لتعزيز النقاط الضعيفة فيها بشكل خاص، ولم تكن هذه الأبراج المحصنة موجودة في القلاع البيزنطية، وهي نادرة في التحصينات الأرمنية التي جاءت بعدها.

كذلك يشاهد وجود نماذج أولية أصيلة للشرفة الخارجية المكوّاة (المجهزة بكوى للرمي) منذ القرن الميلادي وكانت منتشرة على نطاق واسع في العصور الوسطى.

بالاضافة إلى هذه القواعد الهجومية التي كان معظمها يحتل مواضع على الخطوط الخارجية، اقيمت قلاع فرنجية عديدة على الشريط الساحلي، وعلى المنحدرات الغربية للجبال المتاخمة له. وفي المناطق الداخلية شرع عدد كبير من الاقطاعيين ـــ كبيرهم وصغيرهم ـــ يبتنون مقرات ثابتة لأنفسهم في مواقع كانت محصنة في الغالب، استولوا عليها من الأمراء العرب بقوة السلاح او بالمكيدة (مثل قلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعة المرقب) ولا يعرف إلا القليل عن المخطط الأصلي لهذه المعاقل ومظهرها، لأن معظم القلاع التي ابتناها الاقطاعيون قبل نهاية القرن الثاني عشر أو في القرن الثالث عشر على أبعد تقدير،

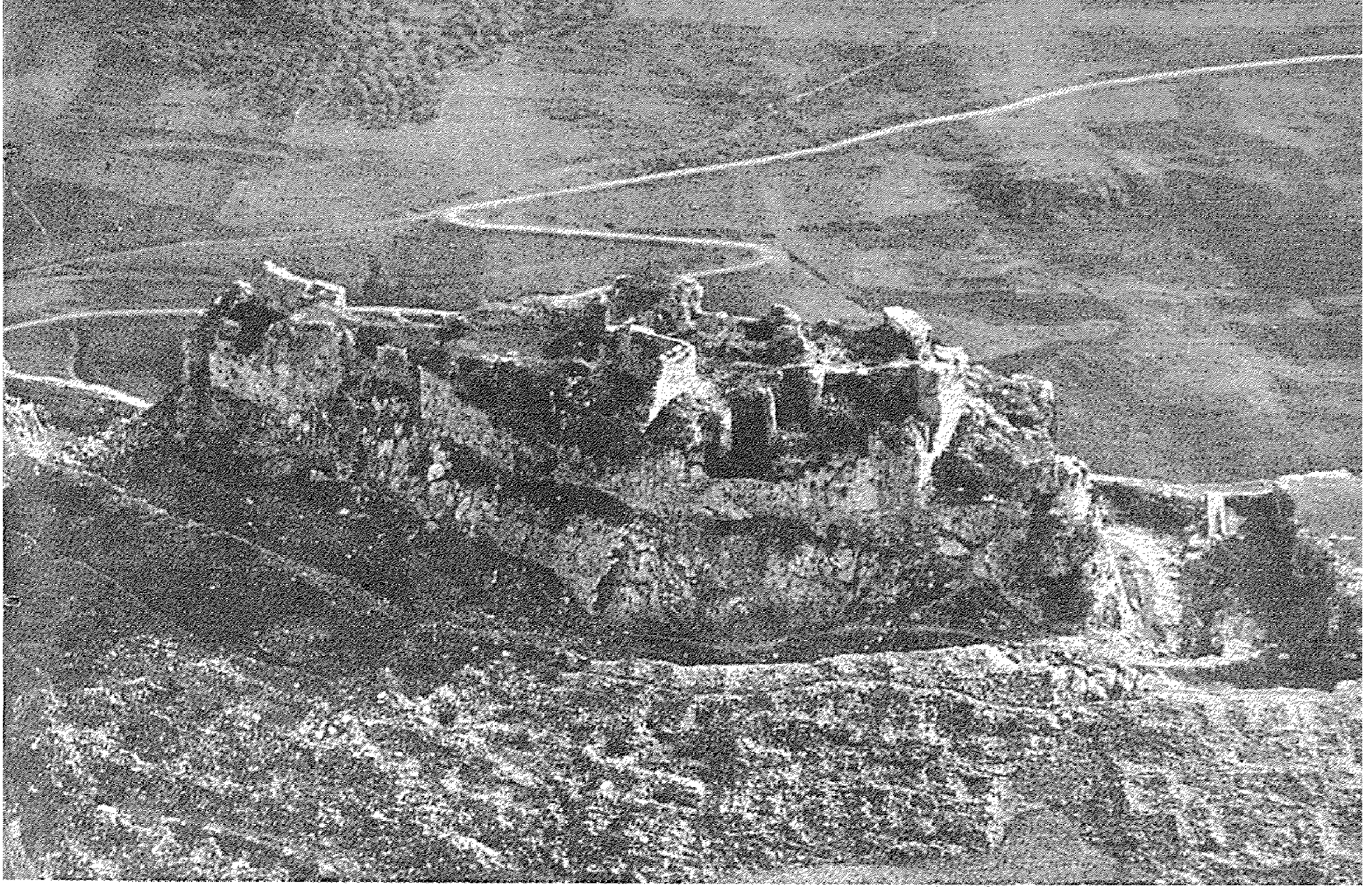


□ قلعة حارم.

انتقلت فيما بعد إلى حوزة طوائف الرهبانيات الفرسانية القوية، وخضعت لاعادة بناء وتعديل جذريين نتيجة لذلك.

وشهدت الفترة التاريخية التي تلت استسلام قائد الحملة الصليبية السادسة الملك الفرنسي لويس التاسع في شهر نيسان من العام ١٢٥٠، أن دب الضعف السياسي والعسكري في صفوف الفرنجة، فقامت بسبب ذلك ذروة التحصينات الفرنجية في المشرق ونهايتها معاً برغم هذا الضعف بالذات، فأنتجت نماذج رئيسية من القلاع ما تزال قائمة حتى الآن ونخص بذلك مجموعة التحصينات الرئيسية للمدن التي خضعت لتحسينات مستمرة اعتباراً من منتصف القرن الثالث عشر فما بعد. وتكشف هذه الأخيرة التبدل الواضح في التركيب الاجتماعي للدولة الفرنجية. فقد كانت المدن تحصن في البداية بأسوار بسيطة تحيط بها إلى درجة تجعلها آمنة ضد أي هجوم مباغت. ويدل الدفاع عند طرطوس وجبيل على سبيل المثال، على أن القلعة وحدها هي القوية إلى درجة تكفي لمقاومة حصار فعلي. وبسبب ازدياد كثافة السكان في المدن الساحلية الفرنجية التي كانت تشكل المقرات الرئيسية للسلطة الروحية والمدنية، ناهيك عن تعاظم أهميتها كمراكز للحياة الاقتصادية وطرق المواصلات التجارية، كان لا بد من الاعتناء ببنائها بشكل أفضل والاستزادة في تحصينها أكثر مما كان متبعاً حتى ذلك الحين، ما دام الخطر ما يزال محدقاً بالساحل والأرض الداخلية. ومما يؤسف له أنه لم يبق سوى القليل من هذه التحصينات، وليس من مصدر آخر لزيادة معرفتنا عنها سوى الحفريات في المدن التي خربت وهجرت، بعد أن طرد الفرنجة منها (عسقلان وأرسون وقيسارية وطرابلس)، بينما لم يبق في تلك المدن التي ظلت قائمة بعد العام ١٢٩١ (عكا وصور وصيدا وبيروت) كلها سوى اثار هزيلة لأسوار متداعية لا قيمة لها ولا فائدة أزيلت في الأزمنة التي تلت.

وعلى كل حال فإن مجموعة البقايا المتناثرة من الأوصاف المعاصرة تمكننا من الاستدلال بأن بعضاً



□ قلعة شقيف ارنون (بوفورت).

من هذه التحصينات كان قوياً للغاية، فالأسوار الثلاثية التي شيدت على الجانب البري من صور تتمتع بشهرة خاصة، ومثلها تحصينات مدينة عكا التي كانت تتألف من سور مضاعف تخفره أبراج على امتداده، وكانت الأسوار التي تحيط بهذه المدن تعزز بحصون بارزة منخفضة أو أبراج (مستطيلة الشكل عامة) مقامة بفواصل منتظمة إلى حد ما (٢٥ ــ ٤٠ متراً)، وتتحدد هذه الفواصل بمدى رمي السهام أو القذائف. وتحف بالأسوار من جهة الخارج خنادق أو أقنية عريضة تملأ بالماء غالباً مع بعض التحصينات الخارجية البسيطة في بعض الأحيان. وكانت بوابات المدن بصورة عامة جيدة التحصين، رغم أنها نادراً ما كانت تحظى بمظهر التعقيد المعماري الذي للقلعة أو معاقل الحراسة فيها. وغالباً ما كانت تحرسها أبراج ملاصقة لها، أما الوصول إلى الداخل فكان محمياً بمنعطف أو منعطفات بزوايا قائمة غالباً بالاضافة إلى سلسلة من غرف البوابات التي يمكن إغلاقها وترمى بالنار من الأعلى أو من الجوانب.

وقد جهزت جميع المرافىء لمنشآت دفاعية خاصة، ونظراً للحجم المتواضع للسفن التي كانت تمخر البحر في تلك الأيام، فقد كانت معظم المرافىء مجرد خلجان صغيرة محمية غالباً بجرف صخري عريض مع مكاسر صنعية تؤمن لها عادة حماية إضافية. وعند أطراف الجروف أو المكاسر التي تتحكم بمدخل المرفأ كانت تقام حصون أو أبراج قوية ومنيعة تمتد بينها ــ طبقاً للتقليد القديم ــ سلاسل حديدية تشكل بوابة الميناء، وكانت تنصب عندها مجانيق أو عرادات[1] لقصف السفن المعادية (حصون المرافىء في صور وصيدا وجبيل، وابراج الحصار في عكا وبيروت واللاذقية وغيرها). وكان المرفأ ينفصل غالباً عن المدينة بأسوار مانعة. أما الأرصفة فكانت نادرة جداً وكانت السفن ترسو طبيعياً على الساحل الرملي المنبسط، أو تلقي مراسيها ضمن المرفأ (الجون).

(١) العرادة: هي أصغر من المنجنيق، وكان الناس يسمونها منحنيقاً شيطانياً، وهي عبارة عن عصا فيها حبل يرمي بعد الرفل (التحريك) بالحجارة بيده كالمقلاع.



□ قلعة حلب.



□ قلعة المرقب.

وتبنى الفرنجة في إقامة تحصينات المدن القوية هذه شكلاً من اشكال العمارة المشرقية كان قد تأسس منذ زمن طويل، ولم يمكنهم تركيبهم الاجتماعي المتفاوت في بلادهم من تجاهله أو الاستخفاف به بينما استمر تطوير بناء القلاع في الاتجاه الذي تم تبنيه منذ منتصف القرن الثاني عشر، عندما[4] حدث تحول عن القواعد الهجومية الخفيفة التحصين إلى المعاقل الدفاعية الأمنع تحصيناً، أو بكلمة أخرى، كان هنالك ميل إلى تعزيز القدرات الدفاعية للقلاع المنفردة. كما أن فن تحصينات القرون الوسطى لم يعد ينتج في حينه أية ابتكارات هامة يمكن تمييزها في الواقع عن تلك التي أقيمت في العالم القديم. إذ اكتفى الفرنجة أيضاً بتكرار العناصر التي كانت تستخدم فعلاً، أو بالأحرى، راحوا يزيدون في عدد العناصر الصنعية للمعالم المعمارية التقليدية، أو يضخمون أبعادها، فاتجهوا إلى تقوية الجدران الساترة التي تعتبر العمود الفقري لأية منظومة دفاعية بحيث تقاوم القصف أو اللغم (حفر الأنفاق تحتها) أو الهزات الأرضية عن طريق زيادة سماكة البناء وإقامة الأسوار التي تستدق تدريجياً بالارتفاع (جدران الحصون المنحدرة) على الطريقة العربية، واستخدام الأعمدة القديمة مداميك داخل الجدران.

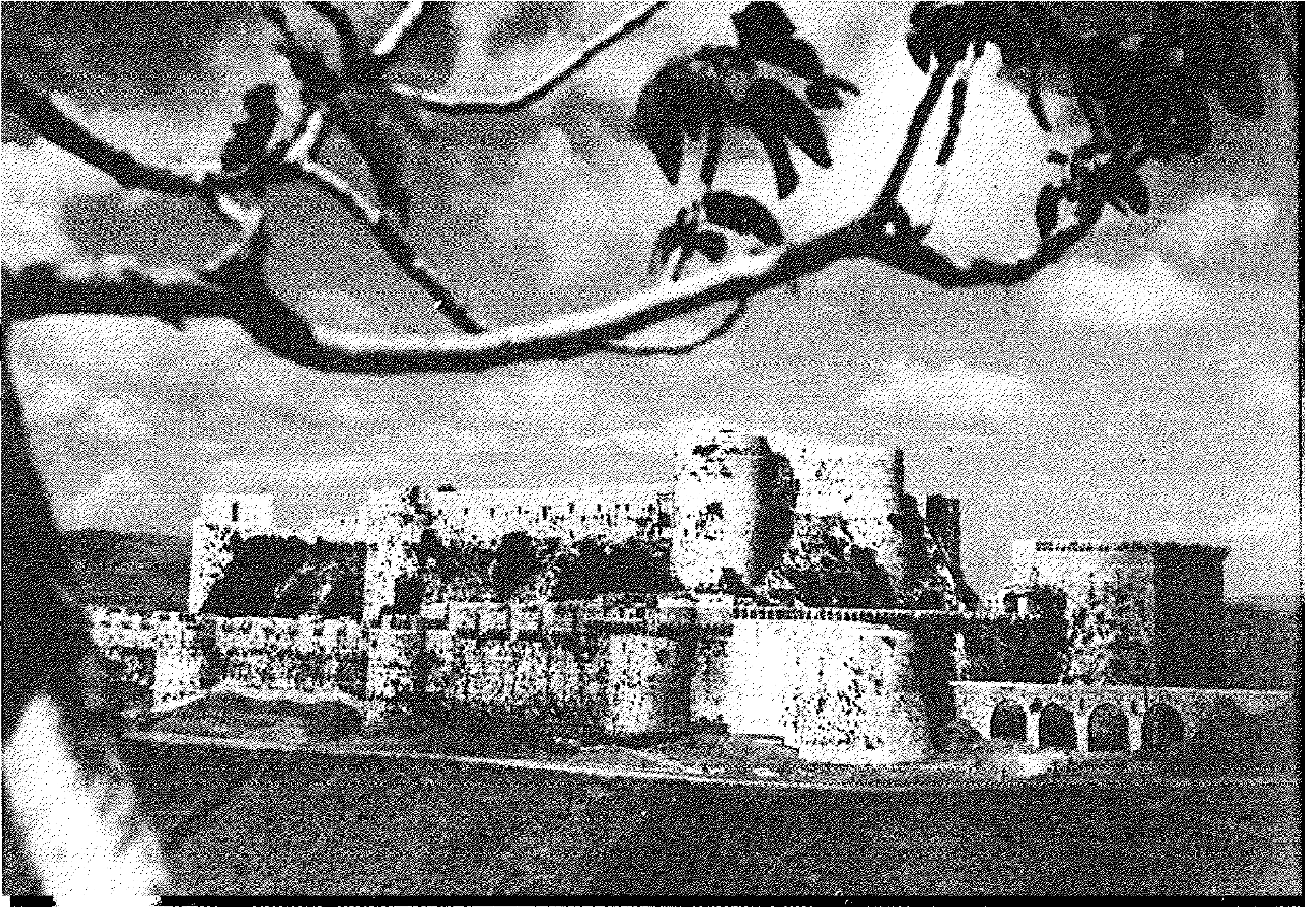
وفي الوقت نفسه كانوا يزيدون في مناعة تلك الأبنية بزيادة عدد كوات الرمي فيها، وإقامة طبقات من الشرفات الدفاعية متراكبة فوق بعضها بعضاً تخترقها فتحات للرمي، وببناء شرفات بارزة ذات كوى. وكانت الأبراج عادة مستطيلة الشكل إلا أنها أخذت تتحول احياناً إلى أشكال نصف دائرية اعتبارا من أوائل القرن الثالث عشر فما بعد، تحت التأثير الأرمني ــ على الأرجح ــ مع تقويتها بما يتناسب مع الاجراءات السابقة وتعديلها، بحيث يمكن الرمي منها على طول الجدران المجاورة لها، وبحيث يمكنها المساهمة على هذا النحو بتعزيز الدفاع عنها.

وقد ركز المعماريون العسكريون اهتمامهم بشكل خاص على بناء البوابات، رغم أن السجلات المعاصرة تحدثنا بأنها نادراً ما كانت تتعرض لهجوم مباشر من جانب المحاصرين، الذين كانوا لا يبرحون يحتشدون على طول الأسوار الساترة. ولم تكن التقوية المطلوبة لبوابات الدخول تؤمن بتقوية


□ قلعة شيزر



□ قلعة صلاح الدين
(صهيون).



□ قلعة الحصن.

الجدران والحواجز المختلفة (الشعريات الحديدية، والجسر المتحرك والأبواب وغيرها) وزيادة عدد نقاط الرمي الجانبي في الداخل فحسب، بل وبمضاعفة العناصر الصنعية بطريقة يمكن تكييفها فيها بمهارة مع الأرض، بحيث يمكن رميها جانبياً وبرمايات مؤثرة من الشرفات المحمية جيداً. وانطلاقاً من مبدأ ضرورة مضاعفة المعالم المفردة في القلعة أخذ بناؤو القلاع الجديدة يتجنبون إقامة الأسوار المفردة ويبنون عوضاً عنها أسواراً مزدوجة، بينها فسحات مكشوفة (مثل قلعة الحصن والمرقب) مع زيادة عدد الأبراج والخنادق، أو يشيدون تحصينات خارجية بسيطة، يمكن منها إبقاء المجانيق ذات المدى المحدود على مسافة آمنة من التحصينات الرئيسية. وبالاختصار يستطيع المرء أن يصور الاتجاه السائد هنا بأنه محاولة من جانب المدافعين للاقتصاد بالطاقة البشرية عن طريق مضاعفة الموانع الدفاعية وتقويتها، أو بكلمة أخرى الاستعاضة عن الانسان بالمادة بحيث يجبرون المحاصرين على استهلاك أكبر كمية من معدات الحصار والطاقة البشرية التي تتناسب معها. ولا يمكن حتى الآن تقدير الامتداد الكامل لتأثير هذه المرحلة المتطورة الأخيرة في فن التحصين في المشرق على التطورات التالية للعمارة العسكرية في القرون الوسطى سواء في فرنسا أو في إيطاليا.

تلك هي الملامح الرئيسية لتطور الفن المعماري للحصون في المشرق، كما تضمنت الدراسة وصف اهم القلاع التي ما تزال موجودة آثارها حتى اليوم، من حيث موقعها وتخطيطها وأهميتها وتاريخها اعتباراً من بداية الحروب الصليبية كما تضمن الكتاب مجموعة من اللوحات المصورة لأهم المدن المحصنة والقلاع (١٦٠) لوحة مع شرح لمحتويات اللوحة. •

القلاع أيام الحروب الصليبية ــ تاليف ڤولفغانغ مولّر ــ ڤينر. ترجمة العميد الركن محمد وليد الجلّاد، منشورات مركز الدراسات العسكرية ــ دمشق، ١٩٨٢

سورية الحديثة
الاستمرارية في التقدم

د. عادل زعبوب

التقدم قانون أصيل في تاريخ البشرية، لأن تاريخ البشرية ذاته في تقدم مستمر لمواجهة معوقات وعقبات لا حصر لها سواء معوقات طبيعية أم اجتماعية أم عملية. وجوهر التقدم يكمن في سيطرة الانسان على الضرورات الطبيعية والاجتماعية.

إن التقدم الذي يميز القطر العربي السوري خلال تاريخه الطويل والعريق، قد تعرض لفترات انحراف وإعاقة كان لا بد للثورات والانقلابات من أن تسترجع السير الطبيعي للتطور، وهذا ما يفسر لنا كثرة الانقلابات التي حدثت في سورية منذ الاستقلال في ١٧ نيسان ١٩٤٦. وعدد هذه الانقلابات حتى ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ بلغ ١٧ انقلاباً، وهذا ما شوه سمعة القطر في الخارج على أنه البلد الذي يميز بعدم الاستقرار.

إنما أيا من هذه الانقلابات التي بدأها قائد الجيش آنذاك حسني الزعيم في ٣٠ آذار ١٩٤٩ لم تتحول إلى ثورة، لأنه لم يكن لديها رؤية سياسية واضحة، ولا رؤية اجتماعية تتجاوب والتطلعات الشعبية التقدمية.

شيء من التاريخ:

بدأ تاريخ سورية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى عقب انهزام تركيا ودخول جيوش الثورة العربية دمشق في الثالث من شهر تشرين الأول عام ١٩١٨، وأعلن الأمير فيصل تشكيل حكومة دستورية مستقلة شاملة جميع البلاد السورية وأسند رئاستها إلى علي رضا باشا الركابي.

وبتاريخ ٦ آذار ١٩٢٠ انعقد المؤتمر السوري في دورته الثالثة وأصدر في اليوم التالي قراره التاريخي بإعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما في ذلك فلسطين، والمناداة بفيصل ملكا دستوريا عليها. وتألفت أول وزارة دستورية برئاسة رضا باشا الركابي، وقد عُين رضا الصلح (والد رياض الصلح رئيس وزارة الاستقلال اللبنانية) وزيرا للداخلية فيها.

وفي ٢٥ تموز ١٩٢٠ دخلت القوات الفرنسية دمشق وغادرها فيصل، وخضعت البلاد للاحتلال الفرنسي وتم تقسيم بلاد الشام إلى أربع دويلات: سورية ولبنان (تحت الانتداب الفرنسي)، فلسطين وشرقي الأردن (تحت الانتداب البريطاني)، وجزئت سورية بدورها إلى عدد من المناطق منفصلة إداريا بعضها عن البعض الآخر.

لكن هذه التقسيمات أحدثت موجة استنكار كبيرة والعديد من الثورات ضد الاحتلال الفرنسي وأشهرها الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥.

وفي ١٧ نيسان عام ١٩٤٦ حصلت سورية على استقلالها الوطني، وتم طرد الفرنسيين من اراضيها، وكانت سورية أول بلد عربي يتوج نضاله بالحصول على الاستقلال.

ولقد شاركت سورية في ٢٢ آذار عام ١٩٤٥ بتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية، كما أنه قد وجه إليها الدعوة في ٢٨ آذار ١٩٤٥ لحضور

□ د. عادل زعبوب: وزارة الاعلام ـ دمشق.



مؤتمر سان فرنسيسكو الذي عقد في ١٥ نيسان ١٩٤٥.

وفي عام ١٩٤٨، إثر احتلال الصهاينة بدعم من الامبريالية العالمية جزءا من فلسطين وطردها الشعب العربي الفلسطيني من وطنه، خاضت سورية مع الأقطار العربية المستقلة آنذاك حرب فلسطين.

وبعد ذلك تعرض القطر العربي السوري لمؤامرات استعمارية؛ وكان للقوى الوطنية والتقدمية بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي، دور أساسي في النضال ضد هذه المؤتمرات الاستعمارية، والتفت الجماهير في سورية حول حزب البعث العربي الاشتراكي وسائر القوى الوطنية والتقدمية الأخرى التي ساهمت جميعها في قيام الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨.

وكان مقدرا لهذه الوحدة الاستمرار والتقدم، إلا أن التآمر عليها كان كبيرا من الانفصاليين والاقليميين والرجعيين وأعداء الأمة العربية من الداخل والخارج التي نجحت في فك عرى الوحدة بين القطرين الشقيقين مصر وسورية في ٢٨ أيلول ١٩٦١.

ولكن ثورة الثامن من آذار التي قادها حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٦٣ أعادت إلى سورية وجهها الوحدوي العربي الأصيل، بادئة بذلك عهدا جديدا في تاريخ سورية المعاصر.

ثورة الثامن من آذار والحركة التصحيحية:

لقد كانت ثورة الثامن من آذار تعبيرا صادقا وموضوعيا عن أماني الشعب العربي السوري وتحقيقا لرغباته في الوحدة والحرية والاشتراكية، وبالتالي فهي ليست مجرد تغيير في البنية السياسية للدولة إنما انقلاب كبير حدث عندما أصبحت علاقات الأفراد الاقتصادية عائقا حال دون نمو وتقدم قوى الانتاج وعندما استخدمت الطبقة الرجعية قوة الدولة وسلطانها للابقاء على علاقات الانتاج القديمة وتدعيمها؛ لذا كان لا بد للقوى التقدمية من أن تستولي على السلطة لتحل التناقضات الاقتصادية والطبقية التي تعرقل التطور الاجتماعي.

وهكذا انصرف حزب البعث إلى التطبيق الاشتراكي ووضع موضع التنفيذ ما يمكن أن يعتبر ثورة اجتماعية شاملة. واستطاع تجاوز الأزمات والهزات التي مر بها. ولقد اعترضت مسيرة الحزب: الحرب العدوانية التي شنتها اسرائيل في ٥ حزيران عام ١٩٦٧ وكان من

نتائجها احتلال منطقة الجولان، وانحراف في السياسة العامة كان من نتائجه عزلة سورية في المجالين العربي والدولي؛ والابتعاد عن تحقيق آمال الجماهير وكان من نتائجه هوة سحيقة تفصل الحكام عن جماهير الشعب، وتسخير السلطة لاذلال المواطنين وهدر كرامتهم.

لتصحيح كل ذلك، ولقيادة حرب التحرير والبناء، والانفتاح على الوطن العربي وعلى العالم، قامت من قلب الحزب نفسه حركة تصحيحية قادها الرئيس حافظ الأسد في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠، أطاحت بفئة المتسلطين التي شوهت مبادىء ثورة الثامن من آذار وقضت على حماس الجماهير؛ وأقامت سلطة وطنية تقدمية مخلصة أعادت مسيرة الحزب والدولة إلى التوازن والانفتاح ضمن ثورة ٨ آذار ذاتها وضمن مبادئها في الوحدة والحرية والاشتراكية.

* * *

بعد الحركة التصحيحية أصبح القطر عاملا مؤثرا في السياسة العالمية بعد أن كان غائبا عنها، وذلك بفضل السياسة الحكيمة والواعية التي اتبعها الرئيس حافظ الأسد، وبفضل الالتزام القومي الذي لا يلين والذي أصبح رائد الرئيس الأسد.

فالرئيس الأسد، كما وصفه معظم من كتب تاريخ القطر في هذه المرحلة ـــ يتصف بالحكمة والروية والنظرة الثاقبة للأمور.

ولقد شهد القطر في ظل قيادة حافظ الأسد من الاستقرار ما لم يشهده منذ فجر الاستقلال، وهذا الاستقرار لم يكن له أن يتحقق لولا الثقة الكاملة المتبادلة بين القائد والشعب. فلقد آمن القائد بشعبه، ومنح الشعب قائده الثقة الكاملة؛ عرف الشعب بقائده الاخلاص والأمانة والصلابة في اتخاذ المواقف، وعرف القائد بشعبه العزة القومية والشجاعة والصدق، ولا غرو في ذلك فالقائد ابن الشعب.

* * *

بعد هذه النظرة السريعة على تاريخ القطر العربي السوري الحديث والمعاصر من المفيد أن نشير إلى أن سورية هي أول قطر عربي تعلن في وثيقة دستورية انتمآؤها إلى العروبة، فقد ورد في الدستور الذي صدر في ٥ أيلول عام ١٩٥٠ أن سورية جزء من الوطن العربي.

كما وأن النشيد العربي السوري لم يأت أبدا على ذكر كلمة سورية إنما يتغنى بالعرب وبالعروبة. لذلك ليس من المستغرب أن يطلق على سورية وبحق أنها قلب الوطن العربي.



الغلاف الأول



قصر الحير الغربي
من كتاب: روائع من
العمارة العربية الاسلامية في سورية

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير



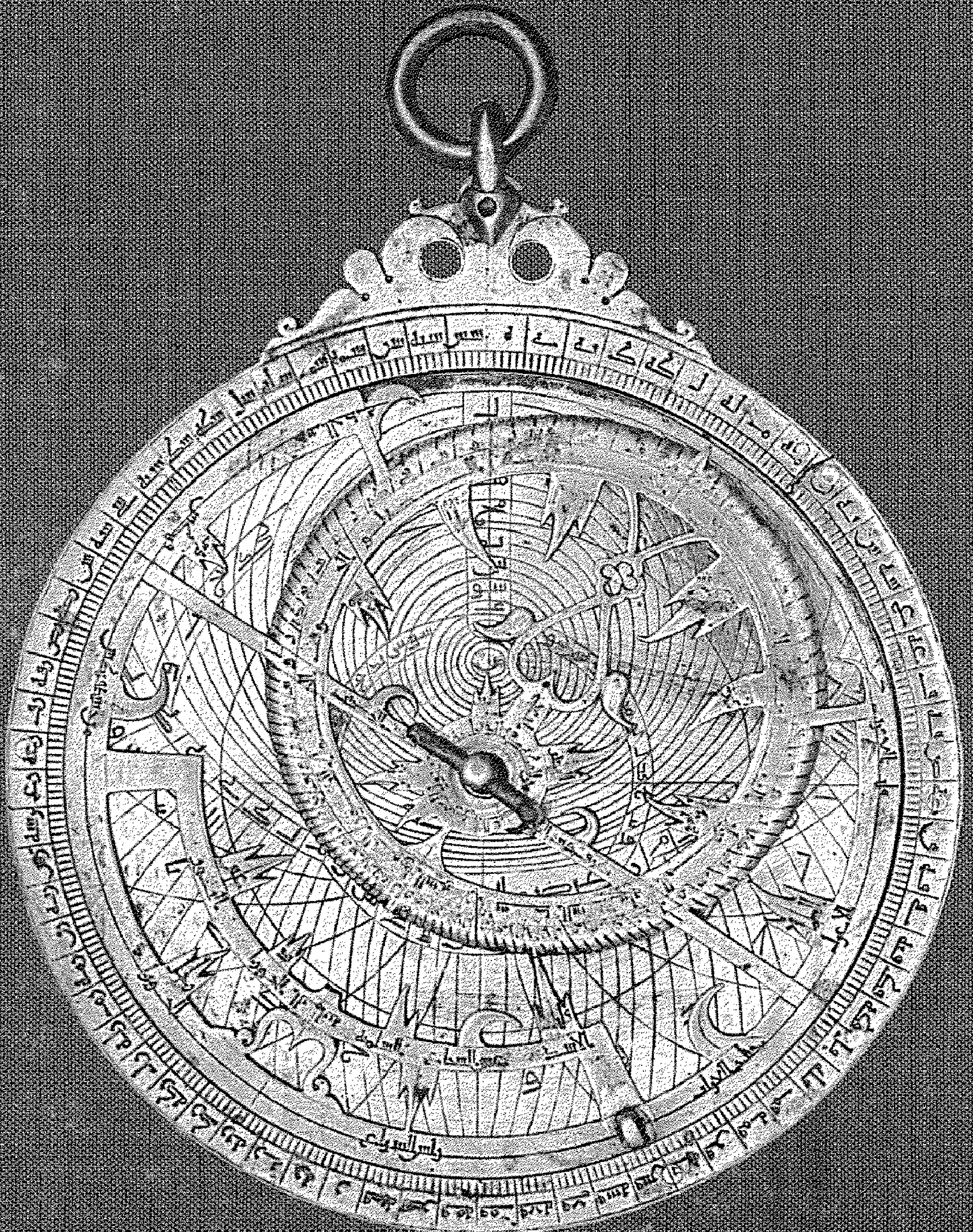
مكتبة الأسد


مكتبة الأسد
مكتبة الأسد

تاريخ العرب والعالم

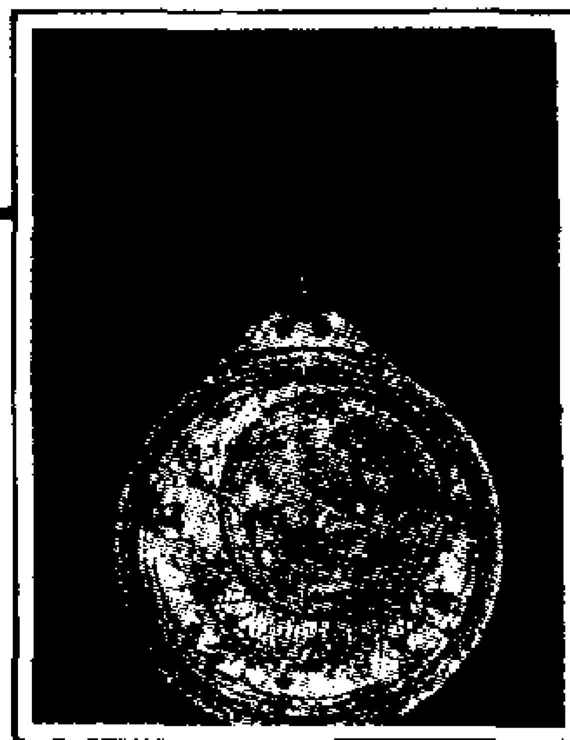
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السادسة • العددان ٧١-٧٢ • أيلول (سبتمبر) - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤م • الموافق ذو الحجة - محرم ١٤٠٤-١٤٠٥هـ



□ أسد من البرونز، متحف القاهرة، الحقبة الفاطمية.

الغلاف الأول



□ إحدى اهم الآلات التي استعملها علماء الفلك في العصور الأولى. وتعود في تصميمها إلى العالم الفلكي البغدادي ابن حسين بن احمد.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

الغلاف الأخير



□ غلاف كتاب طبي عربي يمجد بعض العلماء اليونان.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧١/٧٢ ـ أيلول ـ تشرين الأول ١٩٨٤م

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ ب بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 6 — No. 71/72 — Sep./Oct. 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION: $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



تاريخ العلوم الإسلامية والعربية

د. أحمد الحجي الكردي (*)

إن البحث في تاريخ العلوم الاسلامية والعربية يتطلب منا عرضا مجملا لتطور هذه العلوم عبر القـرون المتلاحقـة من زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومنا هذا، وبيان مدى شمولها كما وكيفا لمختلف متطلبات الفكر والنفس والمجتمع، وعـرض مشتملاتها و ميادينها وآفاقها الواسعة، ثم بيان أهم المصادر التي صنفت في هذه العلوم التي تعتبر المعين البتر الذي أمد ولا زال يمد الانسانية بفيض من الفكر والحضارة الأصيلة التي تستطيع وحدها اليوم ان تنتقل بالانسانية إلى أعلى درجات السعادة والرقي والرفاه الحقيقي، وتنتشلها مما تتخبط فيه من فوضى ومعضلات.

فإن الثقافة والعلوم الانسانية لم تولد من أول يوم على الشكل الذي نراها عليه اليوم سعة وعمقا، ولكنها وصلت إلى ما وصلت إليه بعد تطور ونماء استغرق عصورا عديدة وازمنة طويلة بذلت فيها طاقات فكرية كبيرة، عملت معا على إنضاجها وترعرعها واكتمالها.

□ جامع ابن طولون (القرن التاسع عشر).

[illegible]

من التخلف [illegible]

[illegible]

كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ [illegible]

[illegible] كانت العلوم الاسلامية في هذه [illegible] متغايرة [illegible] يحمل كل [illegible] له ولا [illegible] الأدوار المتعددة متتابعا

(*) استاذ الفقه والأحوال الشخصية [illegible]

□ محاضرة ألقيت في المؤتمر العالمي للعلوم الإسلامية الذي انعقد في [illegible] الثاني عام ١٩٨٣

متلاحقا غير متميز بعضه عن بعضها بفواصل زمنية محددة، فإننا سوف نلجأ إلى تقسيم اعتباري لهذه الأدوار نحاول فيه أن نجد شخصيتها ونفصلها عن بعضها بأهم الأحداث التاريخية التي تبرز فيها فتجعل لكل منها خصائص متميزة عن الأدوار الأخرى. ثم نلقي الأضواء الأولية على كل دور من هذه الأدوار، وأهم خصائص هذه العلوم وميزاتها فيه. وعلى ذلك فإننا نقسم هذه الأدوار إلى ستة:

١ ــ دور عصر النبي، صلى الله عليه وسلم.
٢ ــ دور عصر الخلفاء الراشدين.
٣ ــ دور عصر الأمويين.
٤ ــ دور عصر العباسيين.
٥ ــ دور العصور الوسيطة.
٦ ــ دور العصور الحديثة.

١ ــ الدور الأول

دور عصر النبي، صلى الله عليه وسلم.

يبدأ هذا الدور من عام (١٣) قبل الهجرة المصادف عام (٦١٠) للميلاد وهو العام الذي بعث فيه محمد بن عبدالله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نبيا، وبدأ القرآن يتنزل عليه فيه يأمره بالدعوة إلى ربه وينير أمامه السبيل إليها.

وينتهي هذا الدور بوفاة النبي ــ صلى الله عليه وسلم. عام (١١) هجرية، بعدما قام بإبلاغ رسالة ربه إلى بني البشر على أحسن ما يكون مصداقا لقوله سبحانه «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا[١]» فجزاه الله تعالى عن هذه الأمة خير الجزاء.

ويتميز هذا الدور بتمركز الثقافة والعلوم فيه حول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فهو المحور لها ومصدر الفكر والتشريع فيها. فلا حاكم إلا هو، ولا قائد إلا هو، ولا مشرع غيره، ولا مفتي سواه. وذلك مصداقا لقوله تعالى «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم»[٢]. وقدكان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يثقف الأمة ويربيها بالقرآن والسنة، فالقرآن وحي الله تعالى المباشر وكلامه، والسنة كلام النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفعله وتقريره المسدد فيه من الله سبحانه، مصداقا لقوله جل من قائل: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»[٣].

فالقرآن والسنة إذا هما مصدر الثقافة والعلوم في هذا العصر، ولا يوجد مصدر ثالث معهما إلا ما كان يشير به بعض الصحابة ويدونه من آراء في محضر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما يطلب منهم ذلك، ثم يقرهم عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو ينهاهم عنه، كما حصل يوم بدر حيث أشار عليه الحباب بن المنذر بتغيير موضع نزوله، فوافق على ذلك. لكن هذا لا يعتبر مصدرا جديدا غير السنة، حيث أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن وافق عليه كان ذلك من السنة التقريرية، أو رفضه اعتبر لاغيا ولا محل للعمل به.

وإلا ما كان يجتهد فيه الصحابة من المسائل التي تعترضهم في أسفارهم وغيبتهم عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم يعرضونه عليه بعد عودتهم والتقائهم به، فأما ان يقره أو يرفضه فيكون مثله مثل النوع الأول يدخل في باب السنة التقريرية ولا يستقل عنها، مثال ذلك ما روى من أن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنه ــ كان في غزوة من الغزوات فأصابته جنابة وهو عائد إلى المدينة، وكان اليوم باردا فاستشار أصحابه بالتيمم بدلا من الماء، فأشار عليه بعضهم به، وأشار بعضهم بالغسل، فأخذ بمشورة الأولين فتيمم، ولما قدموا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذكروا له ذلك فأقره على التيمم.



□ صورة آية من القرآن الكريم.

ثم أن القرآن الكريم شامل لكل العلاقات الانسانية التي يرتبط بها الانسان مع غيره، لكنه يعالج هذه العلاقات ويرسم لها الحلول، ويعالج المشكلات التي تتضمنها بشكل إجمالي على نمط ما تعالج به الدساتير في الدول الحديثة أمور الدولة. اللهم إلا بعض الأحكام والمسائل القليلة ذات الخطورة فإنه دقق فيها القول وفصل فيها الأحكام، كمسائل المواريث والحدود مثلا. وأما السنة، فإنها كانت بمثابة الشارح المبين لما اجمله القرآن والمؤكد لما جاء به، دون الزيادة عليه إلا في مواضع قليلة انفردت السنة عن القرآن ببيانها، وهذه الأمور هي أمور جزئية فرعية لم ير القرآن ضرورة إلى النص عليها. كميراث الجدة، مثلا.

ومع ذلك فإن السنة لم تستغرق الأحكام التفصيلية كلها، بل تركت كثيرا منها للاجتهاد توسعة على الناس، ولذا فإننا نجد القرآن والسنة يهتمان بالدرجة الأولى بالقواعد الأساسية للثقافة والحكم، دون خوض في تفصيلات الأمور إلا ما كان منها يعرض على النبي — صلى الله عليه وسلم — فعلا من المسائل والمشكلات فيجيب عنه ويحكم فيه.

وبهذا يكون عصر النبي — صلى الله عليه وسلم — قد وضع الأسس والقواعد التي تختط للمسلمين طريق السير إلى الله تعالى، وتنظم أمورهم بما يصلح شأنهم ويقيم العدالة في ربوعهم، بنصوص دستورية عامة مرنة فيها محل للرأي والاجتهاد، على وجه يؤمن لكل مجتمع مصالحه.

ولكن ليس هذا معناه أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قد ترك أمر التشريع في جزئيات الأحكام للسلطات المحلية في كل عصر ومصر تتصرف فيها كيفما تشاء، (فإن هذه السلطات محكومة في الاسلام بقواعد القرآن والسنة لا تخرج عنها ولا تنحرف عن خط سيرها).

بل معناه أن القرآن والسنة أفسحا المجال للعلماء المتقين أن يبذلوا الجهد في فهم نصوص القرآن والسنة، وتطبيقها في مجتمعاتهم على حسب ما يؤديهم إليه فهمهم واجتهادهم فيها بعد أن يكونوا قد وصلوا إلى مرتبة من النضج تسمح لهم بالاجتهاد. ثم هم أن أصابوا بعد ذلك فلهم أجران وأن أخطؤوا فلهم أجر واحد.

ومعلوم أن القرآن كتب على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أما السنة فإنها كانت تتناقل مشافهة على ألسنة الصحابة الثقاة — رضي الله عنهم — لم يكتب منها في عهده إلا شيء يسير سمح به النبي — صلى الله عليه وسلم — لبعض الصحابة كعبدالله بن عمرو بن العاص وغيره.

٢ — الدور الثاني

عصر الخلفاء الراشدين، رضي الله تعالى عنهم

يبتدىء عصر الخلفاء الراشدين بوفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — عام (١١) للهجرة، حيث تولى الخلافة بعده أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — وينتهي هذا العصر بوفاة علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين — رضي الله تعالى عنهم — عام (٤٠) للهجرة.

ويتميز هذا العصر بانقطاع القرآن والسنة واكتمالها بوفاة النبي — صلى الله عليه وسلم — ولكن لما كانت مشاكل الناس وأمورهم العلمية والعملية متجددة وكثيرة، ونصوص القرآن والسنة محدودة، كان لا بد في هذا العصر من إيجاد مصدر ثالث بعدهما يمد العلم والفكر بحلول للمشاكل الجديدة التي لم يتعرض لها القرآن والسنة.

ولقد وجد هذا المصدر وهو الاجماع، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا اعترضتهم مشكلة، أو طرقتهم حادثة، يفتشون عن حل لها في كتاب الله وسنة نبيه، فإن وجدوا لها حلا

فذاك، وإلا تنادوا إلى اجتماع يضم علماؤهم ومفكريهم، وتشاوروا في الأمر فيما بينهم ثم انتهوا إلى حل للمشكلة على وفق أحكام القرآن والسنة المشابهة لهذه الحادثة وهو ما سمي بالاجماع. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — طلب إلى علماء الصحابة أن لايغادروا المدينة المنورة في إمارته ليسهل عليه جمعهم واستشارتهم في كل جديد.

ولكن الصحابة كثيرا ما كانوا يخفقون في الاتفاق على حل واحد لبعض المسائل فيذهبون في المسألة إلى قولين أو أكثر، وعندها كانوا يتفرقون ويقضي كل منهم بما يراه أرجح من غيره وأقرب لما قضى فيه الله ورسوله، ولذلك فقد ظهر للتشريع مصدر جديد رابع غير الاجماع وهو القياس.

كل هذه الأمور كانت تحدث في عصر الراشدين، وتقترح لها الحلول ولكن دون أن يسجل منها شيء، فقد كانت أخبارها تتناقل مشافهة بين الصحابة يرويها بعضهم عن بعض مثلها مثل سنة النبي — صلى الله عليه وسلم — لم يكتب منها في عصره إلا النذر اليسير، وذلك يرجع لأمور عدة منها، قوة حافظة الصحابة، فإنهم لا يزالون بعصر الأمية التي كانت صفة مميزة للعرب قبل الاسلام، حيث كانوا يعتمدون على الحافظة بدل الكتابة. ومنها انشغالهم بالفتوحات الاسلامية ونشر الدعوة الحق في أرجاء الأرض مما لم يتسير معه الاشتغال بتدوين ما يتحصل من الثقافة الاسلامية. ومنها صغر المجتمع الاسلامي إذ ذاك وسهولة تداول الأفكار والأحكام فيه مشافهة، وغير ذلك...

٣ — الدور الثالث
عصر الخلافة الأموية

يبتدىء هذا الدور بتنصيب معاوية بن أبي سفيان خليفة على الدولة الاسلامية جميعها بعد وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه — عام (٤٠)هـ. وينتهي بسقوط حكم بني أمية واستيلاء العباسيين على الخلافة عام (١٣٢)هـ.

ويتميز هذا الدور باتساع رقعة البلاد الاسلامية ووصولها إلى الصين شرقا وفرنسا غربا، اتساعا سهل الكثير من الشعوب غير العربية مثل الفرس والروم وغيرهم الدخول في الاسلام. وبذلك دخل في جسم الدولة الاسلامية دماء متعددة جديدة إلى جانب الدماء العربية، ترفدها وتعضدها وتشد من أزرها.

وقد أمن هذا الاتساع للدولة الاسلامية مزيدا من الخبرات والمعارف والثقافة أدخلتها وحملتها معها الشعوب الأعجمية التي دخلت في الاسلام. وفي هذه الخبرات والمعارف صناعات وعلوم متنوعة متعددة، امتد أفقها إلى الطب والهندسة، والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية والفلسفية. كما رافق ذلك نهضة كبرى في كثير من العلوم الدينية والعربية كالتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والنحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة وغيرها مما دعت إليه الحاجة.

فلقد كثرت مسائل الناس ومشاكلهم في هذا العصر وتعقدت علاقاتهم التجارية والصناعية... ودخل المجتمع المسلم عادات وأعراف وأفكار لم يكن له بها عهد، ولا بد من عرض كل ذلك على مصادر الاسلام واستفتائها فيه ليتبين صحيح ذلك من زيفه. فإن المسلمين لا يتقبلون جديدا إلا إذا — كان متمشيا مع دينهم وثقافتهم وتراثهم، أما ما كان منه مخالفا لما عندهم ومعارضا له فإنهم يرفضونه ولا يلتفتون إليه مهما كان مصدره، ورحم الله القائل: «وزن بوزن الشرع كل خاطر».

كل ذلك كان يلح على علماء المسلمين بالتفرغ لهذه المشاكل وهذه المسائل ودراستها وبيان حكم الاسلام فيها على ضوء نصوص القرآن والسنة وما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم. ذلك بعد أن كان العلماء يمارسون

الوظائف السياسية والقيادية. والمهن الحرة، إلى جانب اشتراكهم في الفتوحات الاسلامية مع الجند جنبا إلى جنب.

وتحت هذه المطالبة الملحة بالتفرغ للفكر والفتوى والقضاء والاجتهاد تفرغ بعض العلماء لذلك في هذا العصر الأموي، وبدؤوا يتصدون للتدريس في المساجد والجوامع والمدارس ويبذلون الجهد بما آتاهم من علم وذكاء وتقوى لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة وإجماع الصحابة — رضي الله تعالى عنهم — على ضوء اللغة العربية وأساليبها المتعددة تلك اللغة التي جاء بها القرآن والسنة.

وقد كثر هؤلاء العلماء يوما بعد يوم حتى غصت جوامع المسلمين بهم في كل الحواضر الاسلامية، مكة والمدينة، والبصرة، والكوفة، ومصر، وغيرها.

كما تعددت مذاهب هؤلاء العلماء وطرقهم في فهم نصوص القرآن والسنة منبع الثقافة الأصيل لديهم تعدد أساليب اللغة العربية وطرق دلالة ألفاظها على المعنى، حيث فيها العام والخاص، والمجمل والمفصل، والمطلق والمقيد، والمشكل والمتشابه والمشترك وغير ذلك.

ومع أواخر المئة الأولى من الهجرة بدأت هذه المذاهب تأخذ أبعادها وتتضح معالمها وتستبين مناهجها وتخصصاتها.

ولقد استمرت هذه الحركة العلمية في مسيرتها طوال القرن الثاني والقرون التي بعده حيث قعدت المذاهب وانتشرت في الآفاق وكثر اتباعها ومعتنقوها المدافعون عنها، ثم بدأت تعقد المناقشات والمساجلات العلمية في مختلف مجالات العلوم، وكان يحضر هذه المناقشات كبار العلماء المتخصصين إلى جانب جموع غفيرة من الطلاب، وكثيرا ما كانت هذه المناقشات تعقد في دار الخلافة في الشام ثم بغداد بعدها تحت إشراف الخلفاء، أو في دور الأمراء في الأمصار الاسلامية. وكان لهذه المناقشات صداها وأبعادها العلمية، فقد كانت الطريقة المثلى لفحص الأفكار وإلقاء الأضواء عليها، ومن ثم نشرها في انحاء البلاد على ألسنة العلماء والطلاب في زمن لم تكن الطباعة ووسائل النشر الحديثة معروفة فيه.

وسوف نحاول فيما يلي إلقاء الضوء بإجمال على هذه العلوم التي نشأت في هذا العصر، والأبعاد التي وصلت إليها، ولكن لما كانت هذه العلوم كثيرة ومتشعبة والالمام بها كلها يحتاج إلى توسع وتفصيل ليس هذا محله، فإننا سوف نقصر الكلام على علوم: التفسير، والحديث، والفقه، وأصول الفقه، وقواعد اللغة العربية تلك التي تعتبر أهم هذه العلوم وأبرزها في تكوين الصرح العلمي والثقافي الاسلامي في هذا العصر.

١ — علم التفسير في العصر الأموي:

نقصد بالتفسير هنا تلك الدراسات والشروح التي دارت حول بيان المعنى المراد من ألفاظ القرآن الكريم، وقد بزغ نجم هذا العلم في زمن النبي — صلى الله عليه وسلم — حيث كان يسأل عن معنى الآيات الكريمة التي غمض فهمها على بعض الصحابة فيجيب عن ذلك بما يوضح معنى الآية وأهدافها وأبعادها. وبعد وفاة النبي الكريم — صلى الله عليه وسلم — تولى علماء الصحابة هذه المهمة، فكانوا إذا عرضت لهم آية غمض عليهم معناها تتبعوا سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — علهم يجدون فيها التفسير الشافي فإذا عجزوا بذلوا جهدهم في فهمها بحسب قواعد اللغة العربية التي أنزل القرآن بها. وكان أشهر مفسري الصحابة عبدالله بن عباس الذي سماه النبي — صلى الله عليه وسلم — ترجمان القرآن. وهكذا كلما تقدمت الأيام وبعد الزمن عن عصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اشتدت الحاجة إلى التفسير، وكثر العلماء المتصدون لهذه المهمة. حتى إذا ما جاء العصر الأموي، وترامت أطراف الدولة، دخل عدد كبير من الأعاجم في الاسلام، واشتدت الحاجة إلى تفسير القرآن وإيضاح معانيه، تفرغ عدد من العلماء لتفسير القرآن ونذروا أنفسهم له، حتى أضاء نجمهم فيه. وتصدوا للافادة في مختلف مساجد الدولة الاسلامية الكبيرة.

وممن بزغ نجمه في هذا العلم من التابعين، أصحاب عبدالله بن عباس — رضي الله عنهم —

كمجاهد المتوفي سنة ١٠٣هـ، وعطاء ابن أبي رباح المتوفي سنة ١١٤هـ، وعكرمة المتوفي سنة ١٠٥هـ، وطاووس المتوفي سنة ١٠٦هـ، وسعيد بن جبير المتوفي سنة ٩٤هـ، وغيرهم. أما اتباع التابعين من المفسرين فهم كثيرون جدا نذكر منهم: سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وأسحق بن راهوية، وغيرهم.

إلا أن جل التفسيرات التي صدرت عن علماء التابعين والتفسيرات التي صدرت عن النبي — صلى الله عليه وسلم — والصحابة قبلهم، لم تدون ولم تقعد في مصنفات خاصة بها على النمط الذي نرى التفسير عليه اليوم، ولكن جلها كان يتناقل مشافهة على السنة العلماء والطلاب في دروسهم ومناقشاتهم ومساجلاتهم، وقد استمر الأمر على ذلك إلى أول العصر العباسي حيث صنفت الكتب في التفسير وظهرت المذاهب فيه جلية واضحة. ومما يلاحظ أن جل هذه التفسيرات التي كانت تأتي على لسان التابعين كانت تقف عند حد المنقول عن النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه دون الزيادة عليه إلا ما كان من ذلك نذرا يسيرا، أي أنها كانت تقف عند حد التفسير بالمأثور. كما كانت هذه التفسيرات تنقل عن النبي — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه بالسند المتصل، شأنها في ذلك شأن السنة تماما، ولذلك فإنه كان من السهل تفحصها وتبين الصحيح منها من الضعيف، إلا أن هذه الطريقة لم تستمر طويلا، فقد تغيرت في العصر العباسي لعدم كفايتها كما سوف نرى:

٢ — علم الحديث الشريف في العصر الأموي:

الحديث هو ما نقل عن النبي — صلى الله عليه وسلم — من قول أو فعل أو تقرير.

وقد كان الحديث في زمن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ينقل عنه مشافهة ويتداوله الصحابة كذلك، ولما اراد بعض الصحابة كتابة الحديث نهاهم النبي — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك وقال «من كتب عني غير القرآن فليمحه» (رواه مسلم) وذلك خشية اختلاطه بالقرآن. إلا أن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان يسمح لبعض الصحابة بشكل إفرادي بكتابة حديثه عندما يأمن عليهم اللبس مثل عبدالله بن عمرو بن العاص، فقد روى عنه أنه قال: قلت لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — «يا رسول الله أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: في الرضى والغضب؟ قال: نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقا». وبقيت السنة على ذلك تتداول مشافهة إلا نذرا منها يكتبه بعض العلماء لأنفسهم إلى عهد عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي المتوفى في آخر المئة الأولى للهجرة، حيث اشتد الخوف على ضياع السنة في ثنايا الأخبار الكثيرة التي بدأت تختلق على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد أمر عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه — العلماء بكتابة السنة وجمعها من صدور الرجال. وقد وردت أخبار كثيرة عن تكليف هذا الخليفة العادل عددا من العلماء الثقات بكتابتها، منهم أبو بكر بن حزم المتوفي سنة ١٢٠هـ. ومحمد بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤هـ. وغيرهما.

ومنذ ذلك العهد تتابع العلماء على كتابة السنة والتصنيف فيها، وتفننوا في طريقة تدوينها وبيان صحيحها من ضعيفها، وقعدوا لذلك القواعد وأقاموا علما خاصا سموه (علم مصطلح الحديث). إلا أن العصر الأموي هذا لم يشهد للسنة مدونات كبرى تجمعه جمعا مدرسيا مرتبا كما هو الحال في كتب الحديث التي بين أيدينا، بل تأخر ذلك إلى العهد العباسي حيث ظهرت المدونات الكبرى في الحديث كما سوف نرى:

٣ — علم الفقه في العصر الأموي:

الفقه كما عرفه الامام أبو حنيفة (معرفة النفس مالها وما عليها). أي معرفة ما لها من الحقوق، وما عليها من الواجبات، نحو نفسها، ونحو ربها، ونحو أسرتها ومجتمعها وغير ذلك، لانه به يتميز الحلال من الحرام، ويستطيع الانسان أن يتبين معالم الطريق إلى الله تعالى.

وقد بزغ فجر هذا العلم ببزوغ فجر الرسالة، حيث كان النبي — صلى الله عليه وسلم — الفقيه الأول الذي يرجع إليه في كل الأمور والمسائل ليبين فيها وجه الصحة من

الفساد وفقا لتعاليم القرآن الكريم ونصوصه وروحه وأهدافه وقد كانت مسائل الناس ومشاكلهم محدودة في عصره بالنظر لضيق المجتمع وصغر حجم الدولة إذ ذاك. وعندما انتقل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى واتسع نطاق الدولة بعض الشيء في زمن الراشدين وكثرت المسائل والمشاكل المعروضة على القضاء، ولم تعد نصوص القرآن والسنة بمفهومها الظاهر كافية للاجابة عن هذه المسائل، عمد علماء الصحابة كما تقدم إلى الاجتهاد في هذه النصوص وحل المسائل الجديدة وفق روح هذه النصوص وعلى نسقها، وذلك بالاضافة إلى المهام الأخرى الكثيرة التي كانوا يشتغلون بها من تسيير أمور الدولة والمشاركة في الفتوحات الاسلامية وغيرها. وهكذا استمر الأمر إلى عهد الأمويين حيث أصبحت المشاكل الفقهية تجل عن الحصر وتلح على الفقهاء بالتفرغ لها ودراستها واقتراح الحلول لها وفقا لنصوص القرآن والسنة.

عند ذلك بدأ العلماء بالتفرغ للفقه والتخصص فيه فظهرت المدارس الفقهية المتعددة في الأمصار الاسلامية، كمكة والمدينة والبصرة والكوفة ومصر وغيرها. وقد كثرت هذه المدارس وانتهج كل من العلماء المتخصصين في الفقه منهجا خاصا قد يخالف المناهج الأخرى في بعض جزئياته، وذلك أمر طبيعي لا بد منه، تقتضيه طبيعة الاجتهاد، وتفاوت الأفكار.

هذا ومن أشهر العلماء الذين لمعوا وعرفوا بالفقه والاجتهاد في هذا الدور ابراهيم النخعي، والحسن البصري، وإن كان لم يصل إلينا شيء من مؤلفاتهما إلا أن آراءهم وفقههم وصل إلينا أكثره على السنة تلامذتهم الذين حفظت لنا مذاهبهم ومدارسهم الفقهية كما سوف يأتي معنا في العصر العباسي.

٤ – علم أصول الفقه في العصر الأموي:

لم يكن علم أصول الفقه قد بزغ نجمه بعد في هذا الدور بالمعنى الكامل لكلمة علم، ولكنه وجد على صورة قواعد متناثرة، وضوابط مبعثرة تأتي على السنة الفقهاء في أبحاثهم ودروسهم دون أن يفردوها بالتصنيف والتقعيد، وقد استمر الأمر على ذلك إلى العصر العباسي حيث بدأ الحنفية والشافعية بالتصنيف في علم أصول الفقه كما سوف يأتي:

٥ – علم اللغة العربية في العصر الأموي:

اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي كان العرب في الجاهلية يستخدمونها للتخاطب فيما بينهم، وقد كانوا شديدي الحرص عليها نقية صافية من أي دخيل، وكانوا يعتزون ويفاخرون بها ولا يرضون لأحد منهم أن يتحدث بغيرها، أو يدخل العجمة فيها، وعندما جاء القرآن بها ازدادت شرفا ومكانة وازداد تمسك العرب المسلمين بها أكثر فأكثر. وقد كان العرب يحفظون ويتداولون هذه اللغة مشافهة أبا عن جد دون أن يحتاجوا إلى تسجيلها في معاجم، أو ضبطها بقواعد، فأذن العربي حساسة جدا تكتشف الدخيل على هذه اللغة بسرعة فائقة وترده، ولكن اتساع رقعة بلاد الاسلام بعد الفتوحات في العهد الأموي ودخول كثير من الأعاجم في الاسلام واختلاطهم بالعرب المسلمين وبأولادهم مهد السبيل لادخال العجمة في لغة هؤلاء الأولاد والأحفاد، وهو الخطر الكبير الذي كان يخشاه العربي محافظة منه على نقاء لغته لغة القرآن والحديث الشريف. وقد سمع بعض العلماء أحد الأعراب يلحن في لغته فأثار ذلك غضبه وشكوكه، ونبهه إلى موطن الخطر وشدة الحاجة إلى تقعيد هذه اللغة بعد جمعها وحفظها.

ومن هنا بدأ العلماء تترى يجمعون مفردات هذه اللغة من فم العرب الأقحاح، ثم ينظرون فيها ويستخرجون منها القواعد والضوابط التي تحفظ نقاءها وأصالتها وتبعد اللحن عنها.

ويروى أن أول من تنبه إلى هذا الخطر سيدنا علي بن أبي طالب حيث سمع إعرابيا في العراق يلحن في كلامه فعمد إلى رقعة وكتب فيها: (الكلام اسم وفعل وحرف) فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل). ثم دفع هذه الرقعة إلى أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٧هـ وقال له (انح هذا المنحى)

فأخذها أبو الأسود وبنى عليها. وقيل أن أول من تكلم في النحو نصر بن عاصم المتوفي سنة ٨٩هـ، وقيل غير ذلك. ثم تابع العلماء بعد ذلك السير في هذا الطريق يستنتجون القواعد من اللغة العربية التي يجمعونها من فم العرب الخلص طيلة العصر الأموي إلى أن جاء العصر العباسي الذي أصبحت فيه هذه الدراسات اللغوية تشكل صرحا لعلم عظيم هو علم اللغة العربية. عندها قام أفذاذ من العلماء مثل سيبويه والخليل بن أحمد والكسائي وغيرهم بجمع كل هذه الدراسات الماضية، وتنسيقها والزيادة عليها والخروج منها بعلم عالي البنيان ثابت الأركان، حفظ لهذه اللغة نقاءها وصفاءها. وهو ما سوف نشير إليه في العصر العباسي.

وبذلك نستطيع أن نقول أن العصر الأموي كان بحق عصر البدء بتكوين المذاهب في العلوم الاسلامية والعربية، حيث أن هذه العلوم زرعت بذرتها في عهد النبي — صلى الله عليه وسلم — والراشدين بعده، ثم أصبحت هذه البذرة نبتة صغيرة في هذا العصر ثم اكتمل نموها في العصر العباسي الذي رعاها بالماء والغذاء اللازم لها حتى أصبحت شجرة كبيرة وأرفة الظلال تؤتى أكلها على أتم وجه وأكمله.

٤ — الدور الرابع

عصر الخلافة العباسية

بدأ هذا الدور بسقوط دولة بني أمية واستيلاء العباسيين على الخلافة ونقل مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد، وذلك في عام (١٣٢هـ)، واستمر إلى سقوط بغداد عام (٦٤٢هـ).

ويعتبر عهد العباسيين العهد الذهبي للثقافة الاسلامية، وبخاصة النصف الأول منه الذي انتهى بوفاة الخليفة المعتصم بالله. فقد شهدت الثقافة الاسلامية والعلوم الاسلامية نهضة واسعة في هذا العهد، وكان ذلك ناتجا عن استقرار الدولة من الناحية السياسية استقرارا وفر للعلماء الوقت والراحة والتفرغ للعلم. فازدهرت كل العلوم الاسلامية والعربية ازدهارا كبيرا، وانتشرت انتشارا واسعا، وظهرت المدارس العلمية لمختلف العلوم في شتى الأمصار، وأصبح لهذه المدارس رواد وتلاميذ ساعدوا على حفظ هذه المدارس وهذه العلوم إلى يومنا هذا. كما نشطت حركة الترجمة في هذا العصر وبخاصة في عهد الخليفة المأمون الذي نقل في عهده إلى العربية الكثير من كتب علوم الاغريق وغيرها، ونتج عن ذلك حضارة إسلامية رائعة كانت المنطلق للعالم كله، وبخاصة العالم الغربي إلى النهضة الحديثة التي يقطف العالم ثمارها اليوم. وذلك أمر شهد به الأعداء قبل أن يدعيه الأصدقاء. ولا زالت بعض كتب الطب والفلسفة والرياضيات التي خلفها علماء الاسلام مرجعا في كثير من جامعات العالم المتمدن إلى اليوم.

وقد امتاز هذا العصر عن العصر الأموي بظهور الكتب والمصنفات العلمية في مختلف العلوم، فبينما كانت العلوم عامة تتناقل في العصر الأموي مشافهة بين العلماء والطلاب في أكثرها أصبحت في هذا العصر مصنفات وكتبا يدونها العلماء ويتناقلها الطلاب ويتدارسونها ويفيدون منها، ثم ينقلونها إلى من خلفهم ليستفيدوا منها ويزيدوا عليها وهكذا دواليك.

كما امتاز هذا العصر بتقعيد المذاهب العلمية في التفسير والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم الأخرى. فبينما كانت هذه المذاهب العلمية نبتة صغيرة لما تستو على سوقها بعد في العصر الأموي أصبحت الآن في عهد العباسيين شجرة كبيرة مستقرة، ثابتة الأركان، واضحة المعالم، محدودة الحدود، مثمرة أينع الثمر.

وبذلك نستطيع أن نعتبر العصر الأموي عصر الأعداد والتهيئة العلمية للنهضة التي ظهرت في العصر العباسي.

وإذا أردنا إلقاء الأضواء اكثر من ذلك على النهضة العلمية في هذا العصر وبيان الخطوات التي قطعها كل علم فإنها على النحو التالي:

اولاً ـــ علم التفسير في العصر العباسي:

فإننا نرى في علم التفسير ظهور عدد كبير من العلماء المتخصصين، وظهور عدد كبير من المصنفات في هذا العلم الجليل، كما ظهرت مذاهب واتجاهات عدة في التفسير أهمها:

١ ـــ التفسير بالمأثور:

وذلك يعني الوقوف في معنى الآية الكريمة عندما ورد في تفسيرها في القرآن الكريم والسنة المطهرة دون الزيادة عليه. ومن أهم المفسرين في هذا المذهب.

(أ) الامام الطبري، وهو الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي عام (٣١٠)هـ. وتفسيره المسمى (جامع البيان في تفسير القرآن) أقدم وأوسع التفاسير وأجلها، حيث بلغ ثلاثين جزءا كبيرا، ولا زال المفسرون ممن جاء بعده عالة عليه إلى يومنا هذا إذا استثنينا كتاب (مجاز القرآن) الذي ألفه (أبو عبيدة معمر بن المثنى) المتوفي عام ٢٠٩هـ. فإنه متقدم عليه، وإن كان ليس مثله في السعة والفائدة.

(ب) الامام البغوي، وهو الامام أبو محمد الحسن بن مسعود بن محمد الفراء البغوي المتوفي عام ٥١٦هـ. وله تفسيرا اسمه (معالم التنزيل) وهو تفسير متوسط في حجمه كبير في فائدته.

٢ ـــ التفسير بالراي:

وهو يعني بذل الجهد في تحليل الآية الكريمة عربيا على ضوء ما جاء من شرح لها في الكتاب والسنة، دون الوقوف عند ما ورد في تفسيرها من النصوص. وليس معناه ـــ كما يظن خطأ ـــ ترك النصوص والعدول عنها إلى الرأي المجرد. فإن هذا ضلال حاشى أن يفعله مسلم بل عالم تقي.

ومن أشهر المفسرين في هذا المذهب:

(أ) الامام الرازي، وهو الامام فخرالدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرازي المتوفي عام ٦٠٦هـ. وتفسيره المسمى (مفاتيح الغيب) من أهم كتب التفسير بالرأي، وهو تفسير جامع كبير يقع في اثنين وثلاثين جزءا كبيرا، يستعرض فيه آراء العلماء في الآية الواحدة ويرتبها ترتيبا مدرسيا مفيدا يسهل الوصول إلى المعنى المراد.

(ب) الامام الزمخشري، وهو الامام أبو القاسم محمود ابن عمر الخوارزمي الزمخشري المتوفي عام ٥٣٨هـ وتفسيره المسمى بـ (الكشاف) من أعظم كتب التفسير لولا ميل مؤلفه إلى مذهب المعتزلة وانزلاقه في بعض متاهاتهم. والزمخشري هذا يعني في تفسيره بالتحليل اللغوي والفقهي مما يدل على طول باعه في هذه العلوم.

٣ ـــ التفسير الاشاري:

وهو يعني بتفسير آيات القرآن الكريم بغير المعنى الظاهر المتبادر من الفاظه بالاعتماد على إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك والتصرف. وكثيرا ما يتعذر الجمع بين هذا المعنى والمعنى الظاهر المتبادر.

هذا وقد وقف العلماء من هذا الاتجاه في التفسير مواقف متعددة، وكان جمهورهم على رفضه والابتعاد عنه ومنعه.

ومن أهم المفسرين في هذا المذهب:

(أ) ابن عربي، وهو الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي المتوفي في دمشق سنة ٦٣٨هـ. وتفسيره هو (إيجاز البيان) وهو تفسير مخطوط لم يطبع، وأما التفسير المطبوع المسند إليه فهو للكاشي وليس له.

(ب) الامام التستري، وهو الامام ابو محمد سهل بن عبدالله التستري المتوفي سنة ٢٨٣هـ. وتفسيره المسمى باسمه هو تفسير لبعض آيات القرآن الكريم فقط ولا يستغرق القرآن كله.

٤ ـــ تفسير آيات الأحكام:

وهو يعني أفراد الآيات القرآنية التي جاءت متعلقة بالتشريع بالدراسة دون غيرها، ثم سبر أغوارها واستنباط الأحكام منها، وهذا الاتجاه أقرب إلى مسلك الفقهاء منه إلى مسلك

المفسرين، ومن أشهر علماء هذا الاتجاه:

(أ) الامام الجصاص، وهو الامام ابو بكر أحمد بن علي الرازي المتوفي سنة ٣٧٠هـ. وكتابه اسمه (أحكام القرآن)، وقد عرض فيه كل آيات القرآن إلا أنه لم يعن إلا بتفصيل آيات الأحكام دون غيرها. وقد افاض في شرحه لهذه الآيات حتى عد من أعظم المراجع في بابه، وهو في ثلاثة أجزاء كبيرة.

(ب) الامام ابن العربي، وهو الامام ابو بكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الأندلسي المتوفي سنة ٥٤٣هـ. وهو بطبيعة الحال غير ابن عربي صاحب تفسير (إيجاز البيان) الذي مر ذكره، وكتابه المسمى (أحكام القرآن) كتاب جليل في بابه لا يستغني عنه طالب العلم، وقد نحى فيه المؤلف منحى التفصيل والاستغراق في تفسير آيات الأحكام وتفنيدها ومناقشتها وهو مطبوع في أربعة أجزاء كبيرة.

ثانيا ـ علم الحديث الشريف في العصر العباسي:

وأما علم الحديث الشريف فقد كان العصر العباسي بالنسبة إليه العصر الذهبي، حيث عني العلماء والمحدثون بجمع الأحاديث وتنقيتها مما علق بها من الضعيف والمكذوب، ثم تصنيفها في مصنفات. وقد اختلف علماء الحديث في كتابتهم له وتصنيفهم فيه إلى طرق متعددة أهمها:

١ ـ كتب الصحاح:

وهي تعني بجمع الأحاديث الصحيحة التي استجمعت كل شروط الصحيح التي وضعها لها هؤلاء المؤلفون، وترك ما عدا ذلك. ثم كتابة هذه الأحاديث الصحيحة حسب أبواب الفقه التي تعالجها، كباب الطهارة وباب الصلاة.. وهكذا.

ومن أشهر العلماء الذين كتبوا على هذه الطريقة.

(أ) الامام البخاري، وهو الامام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري المتوفي سنة ٢٥٦هـ. وكتابه المسمى بـ (صحيح البخاري) أهم كتب الحديث قاطبة وأصحها، حتى أن العلماء قالوا عنه (هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى). وقد نال هذا الكتاب



□ وعاء لمّاع، من مدينة راقي بالقرب من طهران (القرن الثاني والثالث عشر)

اهتمام العلماء به على مر العصور فشرحوه وعلقوا عليه. ومن أهم شروحه شرح الامام ابن حجر السقلاني المتوفي سنة ٨٥٢هـ. والمسمى بـ (فتح الباري) وهو مطبوع في ثلاثة عشر جزءا كبيرا. وشرح الامام بدرالدين العيني المتوفي سنة ٨٥٥هـ. والمسمى بـ (عمدة القارىء) وهو في أحد عشر جزءا كبيرا.

(ب) الامام مسلم، وهو الامام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفي سنة ٢٦١هـ. وكتابه اسمه (صحيح مسلم) وهو اعظم واصح كتاب في الحديث بعد صحيح البخاري، إلا أنه يزيد على صحيح البخاري بحسن تنسيقه وندرة المكرر فيه.

٢ ـ كتب السنن:

وهي تعني بجمع الحديث كله صحيحه وضعيفه إلا المكذوب منه أو المتهالك، ثم الاشارة

في أكثر المواضع إلى درجة الحديث من الصحة. وهذه الكتب ترتب الحديث على أبواب الفقه مثل كتب الصحاح السابقة ولا تختلف عنها إلا في الاشتمال على الأحاديث الضعيفة في كثير من الأحيان.

ومن أشهر العلماء الذين كتبوا على هذه الطريقة:

(أ) الامام الترمذي، وهو الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفي سنة ٢٧٩هـ. وكتابه اسمه (سنن الترمذي) وهو كتاب جليل القدر كثير النفع.

(ب) الامام النسائي، وهو الامام أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣هـ. وكتابه اسمه (سنن النسائي) وهو كتاب قيم ونفيس أيضا.

٣ ــ كتب المسانيد:

وهي تعنى بجمع الحديث الصحيح والضعيف دون الهالك والمكذوب، ثم ترتيبها حسب رواتها من الصحابة دون النظر إلى موضوعها. فيذكر أبو بكر مثلا ثم تذكر بعده كل الأحاديث التي رويت من طريقه ثم عمر وهكذا...

واشهر من الف في الحديث على هذه الطريقة هو الامام أحمد بن حنبل الشيباني إمام المذهب الحنبلي المتوفي سنة ٢٤١هـ. وكتابه اسمه (مسند الامام أحمد) وهو من اشهر كتب الحديث وأوسعها، ضمنه مؤلفه ما يزيد على ثلاثين الف حديث اختارها من نحو سبعمائة الف حديث. وهو مطبوع في ستة أجزاء كبيرة.

٤ ــ كتب المختارات:

وهي الكتب التي تعني باختيار أحاديث معينة من الكتب السابقة في موضوعات معينة خاصة، او تعنى بجمع أحاديث عدد معين من الكتب السابقة. وجل هذه الكتب تقف عند الأحاديث الصحيحة والحسنة دون الأحاديث الضعيفة.

ومن أشهر المؤلفين على هذه الطريقة.

(أ) الامام ابن الأثير، وهو الامام مجدالدين أبو السعادات مبارك بن محمد المتوفي سنة ٦٠٦هـ. وكتابه اسمه (جامع الأصول من أحاديث الرسول) ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد جمع فيه أحاديث الموطأ للامام مالك، وصحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والنسائي والترمذي، وذلك بعد تجريدها من أسانيدها إلا اسم الصحابي الأول. وهو كتاب عظيم القدر كثير النفع، جمع فيه كتبا في كتاب واحد، وقد زاد في تسهيله للطلاب والعلماء حذف الأسانيد منه وحسن ترتيبه على حروف المعجم.

(ب) الامام المنذري، وهو الامام زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى المنذري الشامي المتوفي سنة ٦٥٦هـ. وكتابه اسمه (الترغيب والترهيب) جمع فيه الأحاديث المرغبة في أعمال الخير والمرهبة من افعال الشر والاثم. وقد رتبه على أبواب الفقه بعد حذف الأسانيد عدا الصحابي الأول. والتزم المؤلف فيه ذكر درجة الحديث عندما يروى عمن لم يلتزم الصحيح. وقد طبع الكتاب في أربعة أجزاء طبعات عدة. وهو كتاب لا يحسن أن يخلو منه بيت طالب العلم.

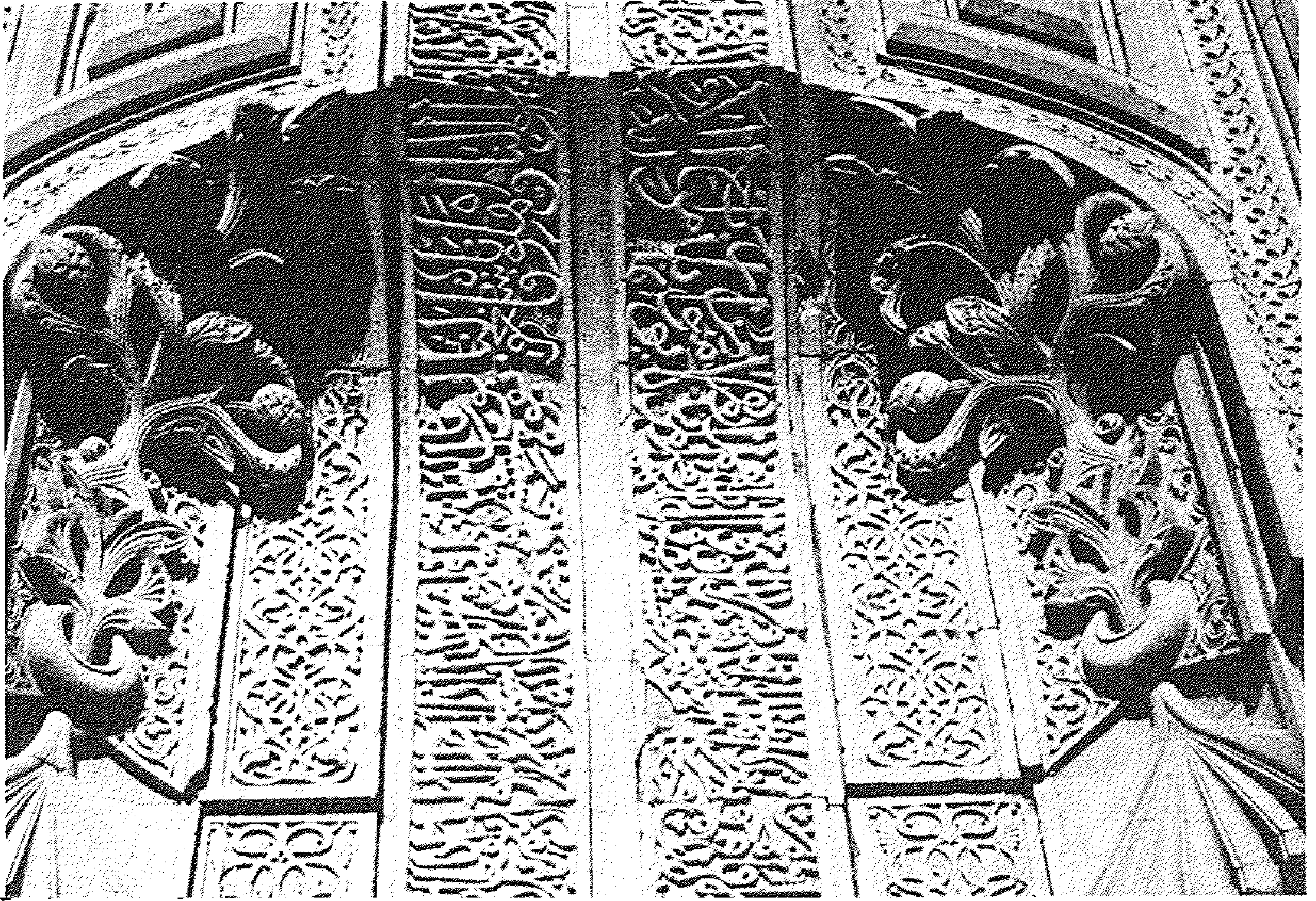
٥ ــ كتب احاديث الأحكام:

وهذه الكتب تعنى بجمع أحاديث الأحكام فقط دون غيرها. ومن ثم شرحها واستنباط الأحكام منها.

ومن أشهر من كتب على هذه الطريقة:

(أ) الامام المقدسي، وهو الامام تقي الدين أبو محمد عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي الحنبلي المتوفي سنة ٦٠٠هـ. وكتابه اسمه (العمدة في الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام). وقد جمع فيه أمهات أحاديث الأحكام مما أجمع عليه الأمامان البخاري ومسلم. والكتاب مطبوع في مجلد واحد عظيم النفع.

(ب) الامام ابن تيمية، وهو الامام مجدالدين عبدالسلام الحراني المتوفي سنة ٦٥٣هـ. وكتابه اسمه (المنتقى من اخبار المصطفى) وقد جمع فيه أحاديث الأحكام من صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند أحمد والسنن الأربعة، ثم رتبها على أبواب الفقه. ولذلك فهو عظيم الفائدة، والكتاب مطبوع في مجلدين كبيرين، وقد شرحه العلامة الشوكاني في ثماني مجلدات مطبوعة في شرح اسمه (نيل الأوطار) وهو كتاب قيم ونفيس.



□ واجهة مئذنة في قونية ــ تركيا تعود إلى عام ١٢٥٨م.

٦ ــ كتب علوم الحديث:

هذا وقد صنف في هذا العصر إلى جانب كتب الحديث كتب لنقد الحديث ودراسة رجاله وأسانيده، وبها استطاع العلماء المحافظة على الحديث الشريف نقيا بعيدا عن الزيف والكذب، وهذه الكتب منها ما يبحث في أحوال الرجال الذين نقلوا الحديث وتراجمهم واسمائهم، ومنها ما يبحث في علل الحديث وهي العيوب الخفية التي تقدح في صحة الحديث. ومنها ما يبحث في مصطلح الحديث. وأهم هذه الكتب التي ألفت في هذا العصر:

(أ) في أحوال الرواة وتراجمهم واسمائهم:

١ ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: للامام أبي عمر يوسف بن عبدالله ابن عبدالبر القرطبي المتوفي سنة ٤٦٣هـ. وهو مرتب على حروف الهجاء وجامع لأكثر الصحابة من رواة الحديث. ومطبوع في مجلدين كبيرين.

٢ ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة: للامام عزالدين أبي الحسن علي بن محمد (ابن الأثير) المتوفي سنة ٦٣٠هـ. وهو جامع لأكثر الصحابة ايضا ومطبوع في خمسة مجلدات.

٣ ــ الكنى والأسماء: للامام أبي بشر محمد بن أحمد الدولابي المتوفي سنة ٣٢٠هـ. وهو مطبوع في جزئين.

٤ ــ الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب: للامام أبي نصر علي بن هبة الله بن مأكولا البغدادي المتوفي سنة ٤٨٦هـ. وهو مطبوع في مجلدين.

٥ ــ الأنساب: للامام أبي سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المتوفي سنة ٥٦٢هـ. وهو كتاب كبير الحجم غزير الفائدة طبع منه في الهند إلى الآن ستة أجزاء متوسطة، ولما ينته طبع آخره بعد.

٦ ــ الضعفاء: للامام محمد بن اسماعيل البخاري المتوفي سنة ٢٥٦هـ. وهو مطبوع في جزء متوسط، ذكر فيه مؤلفه اسماء الضعفاء فقط من رجال الرواية ورتبها على حروف الهجاء.

٧ ــ الضعفاء والمتروكين: للامام احمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ٣٠٣هـ. وهو مرتب على حروف الهجاء أيضا ومقتصر على الضعفاء من الرواة خاصة، وهو مطبوع في جزء متوسط.

٨ ــ الجرح والتعديل: للامام عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي المتوفي سنة ٣٢٧هـ. وهو من اجمع كتب هذا الفن ومطبوع في تسعة اجزاء كبيرة ضمن (١٨٠٥٠) ترجمة.

(ب) في علل الحديث:

علل الحديث: للامام عبدالرحمن بن ابي حاتم الرازي المتوفي سنة ٣٢٧هـ. وهو من اجمع كتب هذا الفن ومطبوع في مجلدين.

(ج) مصطلح الحديث:

١ ــ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: للامام ابي محمد الرامهرمزي الحسن بن عبدالرحمن بن خلاد المتوفي سنة ٣٦٠هـ.

٢ ــ معرفة علوم الحديث: للامام ابي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفي سنة ٤٠٥هـ. وقد جمع فيه مؤلفه اثنين وخمسين نوعا من علوم الحديث وهو مطبوع.

٣ ــ الكفاية في علوم الرواية: للامام ابي بكر احمد بن علي المتوفي سنة ٤٦٣هـ. والمشهور بالخطيب البغدادي وهو مطبوع في مجلد واحد قيم.

٤ ــ علوم الحديث: للامام أبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري المشهور بـ (ابن الصلاح) المتوفي سنة ٦٤٣هـ. وهو من اجمع وأدق كتب هذا الفن، وهو مطبوع في مجلد متوسط الحجم.

هذه نبذة مختصرة عن أهم المصنفات في الحديث الشريف وعلومه مع إلقاء ضوء خافت على تطور هذا العلم في هذا العصر ذلك التطور الذي تابع سيره عبر العصور المتتالية كما سوف نرى.

ثالثا ــ علم الفقه في العصر العباسي:

يعتبر العصر العباسي بحق العصر الذهبي للفقه الاسلامي، فقد قعدت فيه قواعده، واتضحت مذاهبه ومدارسه، وكثر دارسوه وعلماؤه، حتى غدا سمحا شامخا يفاخر به المسلمون الدنيا في كل عصر ومصر.

وقد ظهر في هذا العصر أئمة أعلام في مختلف العواصم الاسلامية أسسوا مذاهب فقهية متميزة، من أشهرهم الامام سفيان بن عينية في مكة المكرمة، ومالك بن أنس الأصبحي في المدينة المنورة، والحسن البصري في البصرة، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت وسفيان الثورى في الكوفة، والأوزاعي في الشام، ومحمد بن أدريس الشافعي والليث بن سعد في مصر، وأسحق بن راهويه في نيسابور، وأبو ثور وأحمد بن حنبل وداود الظاهري وابن جرير الطبري في بغداد وغيرهم..

إلا أن كثيرا من هذه المذاهب اندثر عبر التاريخ وانطفأت شعلته وخفيت معالمه إلا ما جاء منه عرضا في مصنفات علماء المذاهب الأخرى التي خلدها التاريخ لنا. والسبب الرئيسي في اندثار هذه المذاهب فيما أظن ــ ميل أكثر علمائها إلى الاشتغال بالحديث الشريف واشتهارهم به مما كان له الأثر الأكبر في تركيز جهود طلابهم على ما عندهم من الحديث دون غيره من الفقه، هذا إلى جانب قلة طلاب بعضهم مما لم يتح معه نقل آرائهم إلى من بعدهم، كما حدث للامام الأوزاعي، فقد قال عنه أبو حنيفة «كان إماما جليلا إلا أن طلابه أضاعوه».

هذا وأشهر المذاهب الفقهية التي وصلت إلينا بالرواية الصحيحة المتواترة عن واضعيها هي المذاهب الأربعة المشهورة وهي المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي.

وإنني سوف القي الضوء الأول على هذه المذاهب بتعريف بسيط بمؤسسيها وطلابها وأهم المراجع العلمية التي حفظت لنا عنها في هذا العصر.

(أ) المذهب الحنفي:

اسس هذا المذهب الامام الأعظم ابو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي. وهو فارسي الأصل، ولد في الكوفة من أعمال العراق عام (٨٠هـ)، وتوفي في بغداد عام (١٥٠هـ).

ولذلك فإنه عاصر أواخر عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين.

اخذ أبو حنيفة العلم عن شيوخ عدة من اشهرهم حماد بن أبي سليمان تلميذ ابراهيم الضخعي وأرث علم عبدالله بن مصعود الصحابي الجليل الذي عرفه بالفقه والفتوى.

وقد أخذ عن أبي حنيفة العلم رجال كثيرون يجل عددهم عن الحصر، إلا أنه تفوق منهم أربعة بلغوا مرتبة الاجتهاد وهم:

١ ــ الامام أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري المتوفي سنة ١٨٣هـ. وهو أحظى تلاميذه عنده، وقد تولى إمامة حلقته من بعده، كما تولى القضاء للرشيد مدة حياته وكان قاضي قضاة الدولة الاسلامية، وقد ترك لنا أبو يوسف مصنفات كثيرة في الفقه والأصول والحديث أهمها كتاباه، الخراج والآثار.

٢ ــ الامام محمد بن الحسن الشيباني المتوفي سنة ١٩٨هـ. وهو ثاني تلاميذ أبي حنيفة بعد أبي يوسف، كان صغيرا عند وفاة أبي حنيفة لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره، ولهذا فإنه أتم علمه على أبي يوسف حتى عد من شيوخه، وقد تولى القضاء للعباسيين من بعده.

وقد حفظ لنا محمد هذا المذهب الحنفي في ستة مصنفات دون فيها كل آراء علماء المذهب، عرفت بكتب ظاهر الرواية وهي: الجامع الكبير، والجامع الصغير، والسير الكبير، والسير الصغير، والأصل ــ المبسوط ــ والزيادات.

وقد جمع بعد ذلك الامام الحاكم الشهيد أحد علماء الحنفية هذه الكتب الستة في كتاب جامع سماه (الكافي). وقد حظي هذا الكتاب باهتمام الفقهاء وعنايتهم به، فشرحوه وفصلوا أحكامه واستنبطوا منه، واشهر شروحه (المبسوط) لشمس الأئمة الرضي، وهو مطبوع في ثلاثين جزءا كبيرا.

٣ ــ الامام زفر بن الهزيل بن قيس التميمي المتوفي سنة ١٥٨هـ. وهو ثالث أئمة المذهب الحنفي بعد الصاحبين أبي يوسف ومحمد، اشتهر بحدة الزهن، ودقة القياس، وشدة الورع، وقد دعي للقضاء للعباسيين مرارا فأبى، فناله من ذلك الاباء بلاء شديد احتمله واحتسبه عند الله تعالى.

٤ ــ الحسن بن زياد اللؤلؤي المتوفي سنة ٢٠٤هـ. وهو رابع هؤلاء الأئمة بعد زفر، وقد اشتهر بالتقوى والورع والتفرغ للحديث الشريف.

هذا وقد انتشر المذهب الحنفي انتشارا واسعا في الدولة الاسلامية في زمن قضاء أبي يوسف ومحمد عبده، وفي زمن الدولة العثمانية التي كانت تعتبر المذهب الحنفي الرسمي للدولة. ولا زال هذا المذهب واسع الانتشار في العالم الاسلامي إلى اليوم، وهو المذهب الرسمي لأكثر الدول الاسلامية.

(ب) المذهب المالكي:

أسس هذا المذهب الامام مالك بن أنس الأصبحي عالم دار الهجرة الذي ولد في المدينة المنورة عام (٩٣هـ). وتوفي فيها عام (١٧٩هـ).

أخذ مالك العلم عن عدد من التابعين، منهم ابن هرمز، ونافع مولى عبدالله عمر الصحابي الجليل، والزهري، وربيعة الراي وهو اشهر شيوخه. وقد ترك مالك لنا مؤلفات قيمة أهمها (الموطأ).

وقد أخذ العلم عنه عدد من العلماء أشهرهم:

١ ــ عبدالرحمن بن القاسم المتوفي سنة ١٩١هـ. وهو أعلم أصحاب مالك وأحبهم إليه.

٢ ــ عبدالسلام بن سعيد التنوخي المعروف بـ (سحنون) المتوفي سنة ٢٤٠هـ. وقد صنف المدونة الكبرى التي هي أصح ما روى عن مالك، فحفظ بذلك أكثر مذهبه.

٣ ــ عبدالله بن وهب المتوفي سنة ١٩٧هـ. وقد اشتهر بالورع والزهد واعتزال القضاء رغم عرضه عليه.

هذا وقد أفاد من مالك عدد غير قليل من الأئمة الأعلام منهم الامامان أبو يوسف ومحمد تلميذا أبي حنيفة، والامام الشافعي الذي تتلمذ عليه تسع سنين في أول نشأته في المدينة، ثم تتلمذ بعدها على الامام محمد في بغداد سنتين بعد وفاة مالك فجمع بذلك بين فقه المدينة وفقه العراق، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقد انتشر المذهب المالكي في كثير من أصقاع العالم الاسلامي وبخاصة في بلاد المغرب

العربي، ولا زال كذلك إلى يومنا هذا.

(ج) المذهب الشافعي:

مؤسس هذا المذهب هو الامام محمد بن ادريس الشافعي القرشي المطلبي، يلتقي مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في جده عبدمناف.

ولد الشافعي في غزة أو عسقلان من اعمال فلسطين عام ١٥٠هـ. وتوفي في مصر عام ٢٠٤هـ. وقد نبغ مبكرا وتصدى للفتيا والتدريس في مكة ولما بلغ سن الحلم بعد.

طاف الشافعي في حياته بعدد من الأمصار الاسلامية منها بغداد ومصر واليمن، والف كتبا عدة جمعت آراءه ومذهبه، منها: الحجة، والأم، والرسالة.

اخذ الشافعي العلم عن عدد من كبار علماء عصره منهم سفيان ابن عينية، ومالك بن أنس، ومحمد بن الحسن.

كما اخذ العلم عنه خلق كثير من أشهرهم:

١ ــ الحسن بن علي الكرابيسي، اخذ العلم عنه في بغداد.

٢ ــ اسماعيل بن يحي المزني، أخذ العلم عنه في مصر وتوفي عام ٢٦٤هـ. وقد ترك لنا مصنفات عدة أهمها مختصره الشهير باسمه، والجامع الكبير، والجامع الصغير وغيرها.

٣ ــ يوسف بن يحي البويطي، أخذ العلم عنه في مصر، وهو من أحب تلاميذه إليه، وقد كانت له إمامة حلقة الشافعي بعده بوصية منه، توفي عام ٢٣١هـ.

٤ ــ الربيع بن سليمان المرادي، أخذ العلم عنه في مصر، وتوفي عام ٢٧٠هـ. عن عمر يقارب المئة سنة.

وكان أكثر الناس مجالسة للشافعي، وقد روى عنه أهم كتبه: ومنها: الأم والرسالة.

هذا وقد انتشر المذهب الشافعي في اكثر البلاد الاسلامية، وبخاصة المشرق العربي والاسلامي، إلى جانب المذهب الحنفي.

(د) المذهب الحنبلي:

اسس هذا المذهب الامام احمد بن حنبل بن هلال ابن اسد الذهلي الشيباني، الذي ولد في بغداد عام ١٦٤هـ. وتوفي عام ٢٤١هـ.

اشتهر الامام احمد بالحديث قبل أن يشتهر بالفقه، وقد خلف لنا كتابه (المسند) وهو من اجمع كتب الحديث واكثرها نفعا.

وقد امتحن أحمد في عهد المعتصم بالله بن الرشيد وسجن حتى نحل جسمه لمخالفته مذهب الاعتزال في خلق القرآن.

اخذ أحمد العلم عن الشافعي عندما قدم بغداد، كما تفقه بعدد كبير من العلماء.

وأخذ عنه العلم عدد من العلماء منهم:

١ ــ اسحق التميمي المعروف بـ (الكوسع المروزي) الذي توفي بنيسابور عام ٢٥١هـ.

٢ ــ الأثرم أبو بكر أحمد بن محمد بن هانيء الطائي الخراساني المتوفي عام ٢٧٣هـ.

وقد انتشر المذهب الحنبلي في كثير من البلاد الاسلامية، واهمها السعودية، وفلسطين، وسوريا، إلا أنه أقل انتشارا من المذاهب الثلاثة الأولى التي تقدم ذكرها على كل حال.

هذه نبذة عن كيان المذاهب الفقهية التي تأسست في هذا العصر ثم انتشرت في أرجاء العالم الاسلامي وتقبلها الناس جميعا وتلقوها بالاعجاب والاكبار. وهنا لا بد من الاشارة إلى أن هذه المذاهب بقيت إلى اليوم المذاهب المعتمدة لدى جميع المسلمين في أرجاء الأرض إلى جانب بعض المذاهب الأخرى التي لم يرتضيها ويتقبلها إلا فئة معينة من المسلمين دون غيرها كالمذهب الجعفري والمذهب الزيدي اللذين انتشرا بين الشيعة فقط، والمذهب الأباضي الذي انتشر بين الخوارج فحسب.

هذا وكل عمل العلماء المتأخرين بعد تأسيس هذه المذاهب كان دراسة هذه المذاهب والقياس عليها والترجيح بين ارائها والتدليل للأقوال التي وردت فيها وما إلى ذلك. وقد ألف العلماء من مقلدي هذه المذاهب في ذلك في هذا العصر كتبا عدة تعد إلى الآن موسوعات الفقه الاسلامي التي تمدنا بالعلم والمعرفة، ولولاها لضاع المسلمون في متاهات الجهل والضلال.

وأهم هذه الموسوعات الفقهية التي صنفت في هذا العصر.

١ ــ كتب في الفقه الحنفي:

١ ــ المبسوط: لشمس الأئمة السرخسي المتوفي سنة ٤٨٣هـ. وهو الكتاب الذي شرح فيه كتاب الكافي للحاكم الشهيد الذي جمع بدوره كتب ظاهر الرواية للامام محمد بن الحسن الشيباني، وقد تقدمت الاشارة إليه.

وهذا الكتاب هو بحق موسوعة الفقه الحنفي.

٢ ــ تحفة الفقهاء: للامام علاء الدين السمرقندي المتوفي سنة ٥٤٠هـ. وهو كتاب مطبوع في ثلاثة أجزاء متوسطة، سهل العبارة، حسن الأسلوب، كثير النفع.

٣ ــ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للامام علاء الدين الكاساني المتوفي سنة ٥٨٧هـ. وهو تلميذ الامام السمرقندي صاحب التحفة، ويعد كتابه هذا بمثابة شرح لكتاب التحفة، وهو مطبوع في سبعة أجزاء كبيرة تعنى كل العناية بالأدلة العقلية والنقلية للمذهب، مع مناقشة أدلة المذاهب الأخرى المخالفة، وبخاصة أدلة المذهب الشافعي.

٢ ــ كتب في الفقه المالكي:

١ ــ المدونة الكبرى: للامام سحنون بن سعيد التنوخي تلميذ الامام مالك المتوفى سنة ٢٤٠هـ. وقد رواها عنه الامام عبدالرحمن بن القاسم، وقد حوت المدونة فقه الامام مالك، وتقدمت الاشارة إليها. وهي الآن مطبوعة في ثمانية أجزاء كبيرة.

٢ ــ بداية المجتهد ونهاية المقتصد: للامام محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المتوفي سنة ٥٩٥هـ. وهو كتاب مختصر يجمع أصول المسائل الفقهية بعبارة موجزة جامعة، تحتاج إلى شرح مفصل. وقد طبع في جزئين متوسطي الحجم.

٣ ــ كتب في الفقه الشافعي:

١ ــ كتاب الأم: وهو من تاليف الامام الشافعي نفسه، ولكن الذي رواه عنه هو تلميذه الربيع المرادي كما تقدم، وأكبر الظن أن الربيع زاد عليه أشياء مما كان سمعه من الشافعي، وهو الآن مطبوع في سبعة أجزاء متوسطة.

٢ ــ المهذب: للامام أبي أسحق ابراهيم بن علي الشيرازي المتوفي سنة ٤٧٦هـ. وهو متن متوسط الحجم مطبوع في جزئين وقد بدأ بشرحه الامام النووي في كتاب سماه (المجموع)، ثم عاجلته المنية في عام ٦٧٦هـ. قبل الانتهاء منه.

٤ ــ كتب في الفقه الحنبلي:

١ ــ متن الخرقي: وهو متن صغير الحجم كثير النفع قام بشرحه الامام موفق الدين عبدالله بن أحمد (ابن قدامة) المقدسي المتوفى سنة ٦٢٠هـ. في كتاب كبير سماه (المغني)، وقد طبع في عشرة أجزاء طبعات عدة وهو بحق موسوعة الفقه الحنبلي، بل موسوعة الفقه الاسلامي كله، لأنه يتعرض في كل المسائل إلى آراء الفقهاء الآخرين بأمانة ونزاهة ويذكر أدلتهم ويقارن بينها بحصافة وعمق.

٢ ــ متن المقنع للامام موفق الدين بن قدامة سنة ٦٢٠هـ. وهو مجلد متوسط الحجم عني بشرحه بعد ذلك العلامة شمس الدين المقدسي كما سوف يأتي.

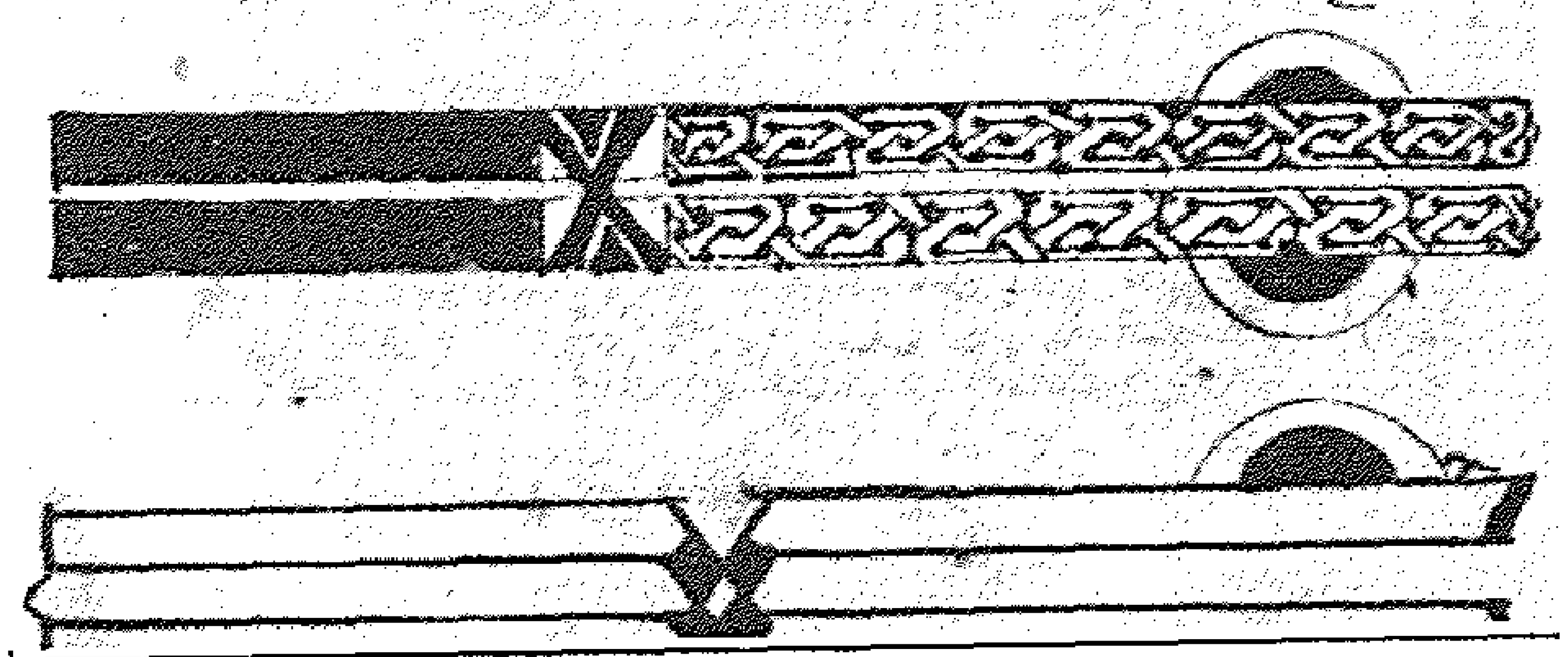
٣ ــ متن الاقناع للامام علي بن عبدالله بن نصر الزاغوني المتوفي سنة ٥٢٧هـ. وهو مطبوع في مجلد واحد.

رابعا ــ علم أصول الفقه:

بزغ نجم علم أصول الفقه بمعناه العلمي المدرسي مع نمو حركة تقعيد الفقه في أول هذا العصر. فقد كان في العصر الأموي كما تقدم مجرد قواعد متناثرة تأتي على ألسنة الفقهاء أثناء مناقشاتهم واستنباطهم، أما الآن فقد أصبح علما قائما بذاته له كتبه ومصنفاته. وأول من صنف في هذا العلم هو الامام أبو حنيفة النعمان إلا أن كتابه لم يصل إلينا وضاع في مسوداته. ثم الامام أبو يوسف تلميذه، لكن كتابه لم يبلغنا كذلك. وأول كتاب وصل إلينا فيه هو (الرسالة) للامام محمد بن أدريس الشافعي، ثم تتابع العلماء بعده يكتبون ويصنفون في هذا العلم حتى استوى على سوقه وأضحى برجا شامخا يضبط قواعد الفقه ويزنها بميزان ذهبي مستمد من الكتاب والسنة وعلوم اللغة العربية، وضوابط العقل الحصيف والمنطق السليم.

وقد يتساءل الانسان عن سبب تأخر نشوء هذا العلم رغم الحاجة إليه، والجواب أن





□ رسومات لبعض ادوات طب الأسنان.

الصحابة والتابعين كان لهم من صحبتهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرب عهدهم به وسلامة لغتهم ما يغنيهم عنه، ولكن عندما فسدت اللغة وابتعد الناس عن عصر النبوة ظهرت الحاجة لهذا العلم فاتجه العلماء عندها إلى إنضاجه والكتابة فيه.

وأهم واشهر المؤلفات الأصولية التي ظهرت في هذا العصر بعد الرسالة للشافعي:

١ ـ كتاب الأصول للامام أبي الحسن الكرخي المتوفي سنة ٣٤٠هـ.

٢ ـ كتاب الأصول لأبي بكر الرازي المعروف بالجصاص المتوفي سنة ٣٧٠هـ.

٣ ـ تأسيس النظر للامام الدبوسي المتوفي سنة ٤٣١هـ.

٤ ـ البرهان لامام الحرمين الجويني المتوفي سنة ٤٧٨هـ.

٥ ـ المستصفى للامام أبي حامد الغزالي المتوفي سنة ٥٠٥هـ.

خامسا ـ علوم اللغة العربية في العصر العباسي:

لقد شهد العصر العباسي نهضة كبيرة في علوم اللغة العربية اعتمدت على ما كان العلماء بدؤوه في العصر الأموي بعد أبي الأسود الدؤلي. فقد ظهرت في هذا العصر مصنفات كثيرة جمعت مفردات اللغة العربية ونسقتها على طريقة المعاجم، وشرحتها بما يوضح معانيها واستعمالاتها، كما ظهر علماء افذاذ درسوا هذه المفردات وتفحصوها وخرجوا من ذلك بقواعد وضوابط نحوية تحفظ لهذه اللغة صفاءها ونقاءها من خطر اللحن الذي حف بها، وألفوا في ذلك الكتب والمصنفات الهامة التي بقيت وستبقى معينا لا ينضب وأصلا لا يستغني عنه أي دارس لقواعد اللغة العربية. كما ظهر أيضا إلى جانب هذه الدراسات النحوية دراسات لغوية تسبر غور اللفظ اللغوي لتفتش عما يكنه من معنى، ثم تربط هذا المعنى بصورة اللفظ وموسيقاه وهو ما عرف بعلم فقه اللغة. وسوف أذكر الآن أهم ما صنف في هذه العلوم اللغوية الثلاثة: المعاجم، والقواعد، وفقه اللغة.

(أ) المعاجم:

١ ـ الصحاح للامام أبي النصر اسماعيل بن حماد الجوهري المتوفي سنة ٣٩٣هـ. وهو من اقدم وأدق المعاجم العربية، ومرتب ترتيبا الف بائيا. ومطبوع في ستة أجزاء كبيرة. وقد اختصره فيما بعد العلامة محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي في كتاب في جزء واحد متوسط الحجم سماه (مختار الصحاح) وهو كتاب مطبوع طبعات عدة، كثير النفع جليل القدر لا يستغنى عنه طالب علم بل طالب علوم العربية.

٢ ـ المخصص للامام أبي الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي المعروف بـ (ابن سيده) المتوفي سنة ٤٥٨هـ. وهو كتاب عظيم القدر كثير النفع إلا انه غير مرتب على الطريقة الألف بائية، بل مقسم إلى كتب وأبواب حسب المعنى الذي تنتمي إليه الكلمة، وقد طبع هذا

الكتاب وذيل بفهارس تفصيلية تسهل الرجوع إليه والاستفادة منه.

وإن هذا الكتاب يعتبر من معاجم العربية كما يعتبر من مصنفات فقه اللغة أيضا نظرا لافاضته في معاني الألفاظ والغوص فيها إلى الأعماق.

٣ ـــ أساس البلاغة للامام أبـي القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨هـ. وهو كتاب عمدة في بابه مرتب على أحرف الهجاء، يمتاز عن غيره من المعاجم بالتعرض للمعاني المجازية لكل لفظ يذكره. وهو مطبوع في مجلد واحد كبير عدة طبعات.

٤ ـــ العـين للامام الخليـل بن أحمـد الفراهيدي المتوفي سنة ١٧٥هـ. وهو أقدم معجم للعربية إلا أن بعض العلماء يشك في نسبته إليه، وقد طبع منه الجزء الأول فقط لأول مرة بتحقيق الدكتور عبدالله درويش.

(ب) القواعــد:

تضم القواعد علمي النحو الذي يبحث في حركة آخر الكلمة، والصرف الذي يبحث في بنية الكلمة.

وقـد ترعـرع هذان العلمـان في العصر الأمـوي بدءا من عهـد الراشـدين عـلى يـد أبـي الأسود الدؤلي كما تقدم، إلا أن ازدهارها واكتمالها كان في أوائل العصر العباسي.

فقـد أخذ هـذا العلم عن أبـي الأسود الدؤلي تلامذة أفذاذهم: عنبسة الفيل، وميمون الأقون، ونصر بن عاصم، ويحـي بن يعمر، وقد تابع هؤلاء التلامذة طريق شيخهم أبـي الأسود، فعملوا في تقعيد اللغـة واستنبـاط القـواعـد والضوابط منها.

وجاء بعد هؤلاء طبقة ثالثة من العلماء من تلامذتهم ساروا على نهجهم وتـابعوا طريقهم، ومن أشهر علماء هذه الطبقة أبو عمرو بن العلاء المتـوفي سنـة ١٥٤هـ. وابـن أبـي أسـحـق الحضرمي المتوفي سنة ١١٧هـ. ثم جاءت طبقة رابعة وخامسة من تلامذتهم أيضا على رأسها يونس المتوفي سنـة ١٨٢هـ. والأخفش المتوفي سنـة ١٧٧هـ. والخليل بن أحمـد الفراهيـدي المتوفي سنة ١٧٥هـ. وتلميـذه سيبويـه المتوفي سنة ١٨٠هـ.

وهكذا تتابع العلماء في التأليف والتصنيف والتعقيد والضبط إلى أن تم بناء صرح النحو والصرف لهذه اللغة، مما حفظ نقاءها وصفاءها.

وإنه لا بد من الاشارة هنا إلى أن هذا العلم نشأ وترعرع في مدينة البصره من أعمال العراق، فقد حل فيها أبو الأسود الـدؤلي ونشر علمـه الذي تسلسل من بعـده في تـلامـذتـه البصريين وهكذا إلى أول المئة الثانية للهجرة عندما انتقل من البصرة إلى الكوفة أبو جعفر الرؤاسي تلميذ أبـي عمرو بن العلاء ونشر علمه فيها. وقد تخرج به جماعة من علماء الكوفة الذين كان لهم أكبر الأثـر في حفظ العـربية وعلومها إلى جانب أخـوانهم البصريـين وعلى رأسهم الكسائي والفراء.

وبذلك نرى أنه قد تأسس في علوم العربية مدرستان أحداهما فرع عن الأخرى هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، وقد كان لكل من هاتين المدرستين علماء ومصنفات وأقوال ومخالفـات لبعض آراء علماء المدرسة الأخرى بما يسمح بفصلهما عن بعضهما واعتبـارهما مـدرستين متميزتين.

هذا ويعتبر بحق سيبويه إمام مدرسـة البصرة، والكسائي إمام مدرسة الكوفة.

ومن أشهر المصنفات العربية التي ظهرت في هذا العصر:

(أ) كتاب الفيصل للامـام أبـي جعفر الرؤاسي مؤسس مدرسة الكوفة، وهو قاصر على الموضوعات التالية: التصغير، الأفراد والجمع، والوقف والابتداء، معاني القرآن.

(ب) كتاب معاني القرآن للفراء المتـوفي سنة ٢٠٧هـ.

(ج) كتاب الحدود للفراء نفسه.

(د) كتاب سيبويه للامام سيبويه المتوفي سنة ١٨٠هـ. وهو أشهر كتاب في قواعد اللغة العربية على مر الدهر، وقد سمي عند النحويين بـ (الكتاب) لشهرته والوثوق به. وهو مطبوع في جزئين.

(ج) فقه اللغة:

١ ـــ الخصـائص: للامام أبـي الفتـح عثمان بن عمرو المشهور بـ (ابن جني) المتوفي

سنة ٣٩٢هـ. وهو من أقدم كتب فقه اللغة التي وصلتنا.

٢ ـ فقه اللغة وسر العربية للامام أبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩هـ. وهو من أكثر كتب هذا الفن فائدة.

هذه نبذه صغيرة عن تطور العلوم الاسلامية والعربية في هذا العصر ـ العباسي ـ الذي يعتبر بحق العصر الذهبي لهذه العلوم.

وهنا لا بد من الاشارة قبل اختتام هذا الفصل إلى تلك النهضة الكبيرة التي شهدها العصر العباسي في مختلف العلوم الأخرى كالتاريخ، والفلسفة، والطب، والهندسة، والحساب، والفلك، وغيرها من العلوم الكثيرة التي ظهرت أو نضجت في هذا العصر العظيم، والتي كان العامل الأكبر في إنضاجها هو حركة الترجمة التي حدثت في هذا العصر من اللغات السريانية والهندية والاغريقية وغيرها إلى اللغة العربية، تلك الحركة التي قام بها عدد كبير من العلماء العرب والأعاجم المسلمين، بل غير المسلمين أحيانا ممن توطنوا في الدولة الاسلامية.

وقد شجع العباسيون المترجمين على نقل علوم الأقدمين إليهم وأجزلوا العطاء للمترجمين، وبخاصة الرشيد وابنه المأمون الذي كان يعطي المترجم وزن كتابه فضة.

وقد أخذ علماء المسلمين هذه العلوم المختلفة فدرسوها وأفادوا منها ثم نقحوها ونقدوها وزادوا عليها وخلفوا لنا بعد ذلك تراثا ضخما من الكتب والموسوعات العلمية الكبيرة في مختلف هذه العلوم، وقد أصبحت هذه الموسوعات نواة الحضارة الحديثة في أوروبا، وبقيت تدرس في جامعاتها ردحا طويلا من الزمن، ومن أشهر الذين نبغوا في هذه العلوم حتى عرفت بهم وعرفوا بها: ابن سينا الذي بلغ إنتاجه العلمي نحو مئتين وستة وسبعين كتابا، وابن الهيثم وقد بلغ إنتاجه نحو مئتي كتاب، والبيروني والرازي والكندي، وقد بلغ إنتاج كل منهم ما يزيد على مئتي كتاب، وكذلك الجاحظ الذي بلغ إنتاجه ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين كتابا في مختلف الفنون والعلوم.

ولا بد من الانتباه هنا أيضا إلى أن دور المسلمين في هذه العلوم لم يكن دور الناقل فحسب، فقد كان المسلمون ناقلين وناقدين ومتخيرين، ولا يمكن أن ـ يخفى على باحث مخلص ما أضافوه وعدلوه من العلوم والنظريات القديمة بل ما ابتكروه واستحدثوه أيضا في مختلف هذه العلوم. حيث تركوا لنا تراثا حضاريا وعلميا ضخما هو شاهد عدل على قدرة الاسلام على بناء المجتمع الفاضل.

٥ ـ الدور الخامس

العصور الوسطى، او العصر الوسيط

العصر الوسيط مصطلح يطلقه كثير من العلماء والباحثين على الفترة التي تلت سقوط بغداد عام (٦٤٢)هـ. حتى أواسط القرن الثالث عشر الهجري.

ونحن لا نريد أن نناقش هؤلاء العلماء في دقة هذا المصطلح الآن لئلا يشغلنا ذلك عما نحن بصدده من رصد الحركة العلمية في هذه الفترة، ولأنه لا يهمنا التسمية التي تطلق على هذه الفترة بقدر اهتمامنا بحركة تطور العلوم الاسلامية فيها.

لقد حققنا في العصر العباسي أن العلوم الاسلامية وصلت فيه إلى الذروة في كافة مجالاتها وأقسامها، وقلنا أن العصر العباسي هو العصر الذهبي بالنسبة إلى هذه العلوم، وحق كل ما قلناه، فإن القرون التي تلت ذلك العصر لم تكد تزيد عليه كما ولا كيفا. ولكنها عملت فقط على بلورة تلك العلوم وتشذيبها وعقد المقارنات بينها، ثم التصنيف فيها وتبويبها وتقريبها إلى ذهن الطلاب بالشروح المفصلة والموسوعات الجامعة الفضفاضة.

والسبب في ذلك عندي هو وصول تلك العلوم إلى الذروة في العصر العباسي وعدم حاجتها للزيادة بعد ذلك إلا من حيث التبويب والتصنيف وهو الأمر الذي تم في هذا العصر، يضاف إلى ذلك شعور العلماء ببعض الفوضى السياسية والظلم والعنت في أكثر بلدان العالم الاسلامي مما حد من نشاطهم العلمي وقصر هممهم على الوقوف عندما تقدم من العلوم دون الزيادة عليها. وإن ذلك ليظهر جليا فيما سوف نستعرضه من الكتب التي تعتبر شروحا أو حواشي أو تقريرات أو تعليقات على الكتب العلمية الأولى التي تقدم بيانها.

ولكن هذا ليس معناه بحال أن العلم وصل في هذا العصر إلى طريق مسدودة وقف عندها، فإن هنالك جهودا كبيرة صرفت، وعقولا عظيمة عملت، وإنتاجا وفيرا تم إنضاجه، بل معناه أن الحركة العلمية أخذت طريقا أفقيا بدلا من الطريق العمودي الذي كانت عليه.

وفيما يلي أدراج لأهم الكتب والمصنفات التي برزت في هذا العصر في مختلف العلوم الاسلامية والعربية.

١ ـــ كتب التفسير في العصر الوسيط:

(أ) الجامع لأحكام القرآن: للعلامة أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي المتوفي سنة ٦٧١هـ. وهو من أوسع كتب التفسير وأدقها وأكثرها عناية بالأحكام، وهو مطبوع في عشرين جزءا كبيرا، وقد قدم المؤلف في الجزء الأول مقدمة هامة جدا بيَّن فيها تعريف التفسير وأنواعه ومصادره وطرقه وما يتعلق بذلك.

(ب) أنوار التنزيل: للعلامة القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبدالله ابن عمر البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥هـ. وهو تفسير مقتضب مطبوع في جزئين متوسطي الحجم إلا انه عمدة المفسرين والعلماء لدقته واحتوائه على المعاني الغزيرة في العبارات القليلة وكثيرا ما تعرض لنكات بلاغية وعلمية غفل عنها غيره.

(ج) مدارك التنزيل: للعلامة حافظ الدين عبدالله بن أحمد النسفي المتوفي ـــ سنة ٧٠١هـ. وهو كتاب متوسط الحجم طبع في مجلدين متوسطين، يقارب في حجمه تفسير البيضاوي السابق، كما يقاربه في إفادته. وهو تفسير شائع الصيت لدى العلماء والطلاب لصغر حجمه وسهولة عبارته.

(د) لباب التأويل في معاني التنزيل: للعلامة علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن المتوفي سنة ٧٤١هـ. وهو تفسير متوسط الحجم مطبوع في سبعة أجزاء جامعة مفيدة.

(هـ) تفسير القرآن العظيم: للعلامة عمادالدين أبي الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير المتوفي سنة ٧٧٤هـ. وهو مطبوع في أربعة أجزاء، تعد من أمهات كتب التفسير لاحتوائها على الأحاديث الشريفة التي توضح وتفسر الآيات الكريمة.

هذا وكتب التفسير كثيرة بعد هذه الكتب إلا أن أكثرها مأخوذ بعضه من بعض ومعتمد بعضه على بعض، فما من هؤلاء المؤلفين أحد إلا وهو تلميذ لمؤلف آخر أو شيخ له، وهكذا فإنك تجد المعنى الواحد يتكلم عنه المفسر ثم ينتشر بين المفسرين حتى تكاد لا تفقده في تفسير من هذه التفاسير، ولكن هذا لا يغض من قيمة هذه التفاسير، ولا يحول دون امتياز كل منها بأسلوب خاص وعناية واهتمامات معينة، فالفقيه تجده يكثر ويتفنن في استنباط الأحكام، واللغوي تجده يتفنن ويبدع في إظهار روعة الأسلوب ودقة التعبير وهكذا...

٢ ـــ كتب الحديث الشريف في العصر الوسيط:

لقد تشعب علم الحديث كما تقدم في العصر العباسي، وكثرت المصنفات فيه، وقد تابع الحديث سيره في هذا العصر أيضا واستمر العلماء في التأليف والتصنيف فيه وإن كانوا شأنهم شأن العلماء الآخرين عالة على كتابات من سبقهم يعملون فيها تبويبا وتنقيحا ومقارنة ونقدا...

وأهم المصنفات الحديثة التي ظهرت في هذا العصر هي:

(أ) كتب الحديث الشريف:

١ ــ رياض الصالحين: للعلامة ابي بكر محي الدين يحي بن شرف النووي المتوفي سنة ٦٧٦هـ. وهو مطبوع في مجلد كبير جامع لعدد كثير من الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تعني بتربية النفس من جميع نواحيها، ولهذا الكتاب شهرة كبيرة بين العلماء والطلاب والعامة حتى لا يكاد يخلو بيت مسلم منه.

٢ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للعلامة نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفي سنة ٨٠٧هـ. جمع فيه من الاحاديث ما زاد على الكتب الستة: صحيحي البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه والترمذي، مما هو مذكور في مسند أحمد وغيره من كتب الحديث المعتمد. وقد بين بعد كل حديث درجته من الصحة والضعف، والعلل التي تعترضه وهو مطبوع في عشرة أجزاء متوسطة.

٣ ــ أحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: للعلامة تقي الدين ابن دقيق العيد المتوفي سنة ٧٠٢هـ. شرح فيه كتاب عمدة الأحكام للمقدسي، وهو كتاب قيم مطبوع في جزئين.

٤ ــ بلوغ المرام من ادلة الأحكام: لشيخ الاسلام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢هـ. جمع فيه (١٥٩٦) من احاديث الأحكام، وهو مطبوع في مجلد متوسط الحجم نال عناية العلماء والمحدثين فأكثروا فيه الشرح والتفصيل وممن عني بشرحه العلامة محمد بن اسماعيل بن صلاح الأمير الكحلاني الصنعاني المتوفي سنة ١١٨٢هـ. وهو مطبوع في اربعة أجزاء طبعات متعددة.

٥ ــ نيل الأوطار شرح منتقي الأخبار من أحاديث سيد الأخيار: للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٥هـ. وهو شرح لكتاب المنتقى لابن تيمية الذي تقدم ذكره في العصر العباسي. وهو كتاب قيم لا غنى لطالب العلم عنه، ومطبوع في ثمانية أجزاء متوسطة.

(ب) كتب التراجم:

١ ــ تجريد أسماء الصحابة: للعلامة شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨هـ. وهو مطبوع في جزئين.

٢ ــ الاصابة في تمييز الصحابة: للعلاّمة شهاب الدين أحمد بن علي الكناني ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢هـ. وهو اجمع ما صنف في هذا الفن خاصا بأسماء الصحابة دون غيرها ومطبوع في خمسة أجزاء ومرتب على أحرف الهجاء.

٣ ــ تذكرة الحفاظ: للعلامة محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي صاحب كتاب التجريد السابق، يذكر فيه الصحابة ومن بعدهم إلى القرن السابع الهجري، مرتبا إياهم طبقة بعد اخرى مبتدأ بطبقة الصحابة ثم التابعين ثم تابعي التابعين وهكذا. وهو مطبوع في أربعة أجزاء.

٤ ــ تهذيب التهذيب: للحافظ بن حجر العسقلاني صاحب الاصابة، وهو مستوفي لتراجم جميع الرجال، ومطبوع في إثنى عشر جزءا.

٥ ــ المشتبه في أسماء الرجال: للحافظ الذهبي صاحب التذكرة، وهو مرتب على حروف المعجم ومطبوع في جزئين.

(ج) كتب علوم الحديث:

١ ــ الباعث الحثيث: للعلامة ابن كثير صاحب التفسير المتقدم، وهو مطبوع في مجلد واحد متوسط الحجم، يضم أهم قواعد علوم الحديث بإيجاز واقتضاب.

٢ ــ تدريب الراوي في شرح تعريب النواوي: للعلامة جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ. شرح فيه كتاب التقريب للنووي، وهو مطبوع في جزئين.

(د) كتب الفقه في العصر الوسيط:

لقد تابع العلماء والفقهاء في هذا العصر جهودهم في البحث والتنقيب عن الحكم الشرعي إلا أن جل عمل الفقهاء في هذا العصر كان التنقيب في كتب المتقدمين وتنقيحها والزيادة عليها أو الحذف منها أو الترجيح بين الأقوال التي احتوتها. ومن ثم كثرت الشروح والحواشي والتقريرات على كتب المتقدمين. ولكن هذا لا يعني بحال ركود حركة الابداع في الفقه بل هنالك كتب قيمة ظهرت وتعد بحق قمة في علم

الفقه إلا أنها قليلة إذا ما قيست بكتب الأقدمين إلى جانب أنها معتمدة كليا على آراء السلف واستدلالاتهم.

ولقد كان لهذه المؤلفات والشروح التي ظهرت في هذا العصر في علم الفقه أكبر الأثر في تنقيح هذا العلم وتبويبه والافادة منه، ولولاها لبقي الفقه في مسوداته الأولى بين تصانيف المتقدمين مشوشا تصعب الاستفادة منه على الوجه الأكمل.

وأهم وأشهر هذه المصنفات التي وجدت في هذا العصر:

(أ) كتب الفقه الحنفي:

١ ــ الهداية شرح بداية المبتدى، وبداية المبتدى كتاب مختصر عظيم الفائدة كثير النفع الفه العلامة علي بن ابـي بكر المرغيناني المتوفي بعد المئة السادسة للهجرة ولكنه بعدما الفه ادرك أنه صغير الحجم ضيق العبارة فشرحه في أربعة اجزاء متوسطة الحجم وسماه الهداية، فحل بذلك ألغازه وفك عقده وسهله للعلماء والطلاب.

٢ ــ فتح القدير للعلامة الكمال بن الهمام المتوفي سنة ٨٦١هـ. وهو شرح على كتاب الهداية المتقدم، وهو شرح قيم مطبوع في ثمانية أجزاء بسط فيها المؤلف الأدلة النقلية، والعقلية كما تعرض لأقوال المذاهب الأخرى وبخاصة المذهب الشافعي، وعقد المقارنة بينها، وقد كان ينتهي إلى ترجيح أحد المذاهب الأخرى على المذهب الحنفي في بعض المسائل إذا ما انتهى به الدليل إلى ذلك وفاء بالامانة العلمية.

هذا إلى جانب أن للهداية شروحا وحواشي أخرى غير فتح القدير وأغلبها مطبوع على هامش الهداية مع فتح القدير.

٣ ــ حاشية رد المحتار على شرح الدر المختار على متن تنوير الأبصار للعلامة محمد أمين بن عمر عابدين المتوفي سنة ١٢٥٢هـ. وهي حاشية جليلة جامعة لمختلف أجزاء المذهب الحنفي المبعثرة في مؤلفات علمائه، وهذه الحاشية هي شرح لكتاب الدر المختار للعلامة الحصكفي المتوفي سنة ١٠٨٨هـ. الذي هو بدوره شرح هام لمتن تنوير الأبصار للعلامة شمس الدين التمرتاشي المتوفي سنة ١٠٠٤هـ. والكتاب مطبوع في خمسة أجزاء طبعات عدة.



□ الطبيب العربـي: ابن سينا.

ويكفينا إشادة بقدر هذا الكتاب أن قال عنه أحد العلماء: لو ضاعت كتب الحنفية كلها لأغناهم عنها ابن عابدين.

(ب) كتب الفقه المالكي:

١ ــ متن سيدي خليل للامام خليل بن اسحاق بن موسى الجندي المتوفي سنة ٧٧٦هـ. وهو أم كتب المالكية في هذا العصر. وقد حظي هذا الكتاب المختصر بعناية لم يحظ بها مختصر قبله، حيث كثرت شروحه وكان أهمها:

اولا ــ مواهب الجليل: للعلامة محمد بن محمد المغربي المشهور بالحطاب المتوفي سنة ٩٥٤هـ. وهو مطبوع في ستة أجزاء، ويعتبر من أهم وأشهر شروح سيدي خليل.

ثانيا ــ الشرح الكبير: للعلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن أبـي حامد العدوي الشهير بالدردير المتوفي سنة ١٢٠١هـ. وهو مطبوع في

أربعة أجزاء كبيرة وهو أسهل شروح متن سيدي خليل واكثرها انتشارا.

ثالثا ــ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للعلامة محمد بن أحمد بن عرفه الدسوقي المتوفي سنة ١٢٣٠هـ. وهي حاشية هامة جدا لا يستغني الطلاب عنها في مراجعتهم للشرح الكبير المذكور، وهي مطبوعة في هامشه.

رابعا ــ منح الجليل: للعلامة محمد بن احمد عليش المتوفي سنة ١٢٩٩هـ. وهو مطبوع في مجلدين كبيرين.

(ج) كتب الفقه الشافعي:

١ ــ المجموع شرح المهذب: للعلامة يحيي بن شرف النووي المتوفي سنة ٦٧٦هـ. وهو شرح لمتن المهذب للامام الشيرازي، ويعد بحق موسوعة الفقه الشافعي، إلا ان مؤلفه عاجلته المنية قبل اتمامه وقد طبع في تسعة أجزاء، وجاء بعده العلامة تقي الدين السبكي المتوفي سنة ٦٥٧هـ. وتابع الطريق في إتمام شرح المهذب وكتب فيه ثلاثة أجزاء ثم عاجلته المنية قبل إتمامه ايضا، وقد طبعت هذه الأجزاء الثلاثة والحقت بشرح النووي.

٢ ــ المنهاج: للعلامة النووي صاحب المجموع المتقدم، وهو مختصر صغير كثير الفائدة، حظي بشرح العلماء له واهتمامهم الكبير به، ومن أشهر شروحه، نهاية المحتاج للعلامة الرملي المتوفي سنة ١٠٠٤هـ. وتحفة المحتاج للعلامة ابن حجر الهيثمي المتوفي سنة ٩٧٣هـ. ومغني المحتاج للعلامة الخطيب الشربيني المتوفي سنة ٩٧٧هـ. رحمة الله عليهم. وكل هذه الكتب مطبوعة ومتوفرة.

٣ ــ الأشباه والنظائر: للعلامة جلال الدين السيوطي، المتوفي سنة ٩١١هـ. وهو مطبوع في جزء متوسط الحجم.

(د) كتب الفقه الحنبلي:

١ ــ كشاف القناع: للعلامة منصور بن أدريس البهوتي المتوفي سنة ١٠٥١هـ. وهو شرح على متن الاقناع للعلامة علي بن عبدالله الزاغوني وقد تقدم ذكره.

٢ ــ الفتاوى الكبرى: للعلامة أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ابن تيمية) المتوفي سنة ٧٢٨هـ. وهو مطبوع.

٣ ــ الفروع: للعلامة محمد بن مفلح المقدسي المتوفي سنة ٧٦٢هـ. وهو مطبوع أيضا.

٤ ــ الشرح الكبير: للعلامة شمس الدين عبدالرحمن بن قدامة المقدسي المتوفي سنة ٦٨٢هـ. وهو شرح لمتن المقنع الذي تقدم ذكره ومطبوع مع المغني على متن الخرقي في عشرة أجزاء في طبعة جيدة جدا.

٤ ــ كتب أصول الفقه في العصر الوسيط:

(أ) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: للعلامة عز الدين بن عبدالسلام المتوفي سنة ٦٦٠هـ. وهو مطبوع في مجلد واحد.

(ب) أصول الفقه: للعلامة ابن تيمية صاحب الفتاوى الكبرى وهو مطبوع.

(ج) الموافقات في أصول الشريعة: للعلامة أبي أسحق ابراهيم ابن موسى الشاطبي المتوفي سنة ٧٩٠هـ. وقد نحى فيه مؤلفه منحى جديدا خالف فيه من سبقه، مما جعل المشتغلين بهذا العلم يزدادون به تعلقا وتقديرا. وهو مطبوع في أربعة أجزاء.

(د) مسلم الثبوت: للعلامة محب الله بن عبدالشكور المتوفي سنة ١١١٩هـ. وهو مطبوع في جزئين في هامش المستصفى للغزالي.

(هـ) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفي سنة ١٢٥٠هـ. وهو مطبوع في جزء متوسط جامع لمختلف أبواب الأصول في عبارة مقتضبة.

٥ ــ كتب علوم اللغة العربية في العصر الوسيط:

(أ) كتب فقه اللغة:

المزهر في علوم اللغة وأنواعها للعلامة جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ. وهو كتاب قيم يعتبر مرجعا أساسيا في فقه اللغة. وهو مطبوع في جزئين.

(ب) كتب القواعد:

لقد ظهر في هذا العصر عالمان جليلان احتلا المكانة الأولى في علم قواعد اللغة العربية



□ ابن الهيثم.

حتى غطى ذكرهما وآثارهما على من عداهما من العلماء الكثيرين، وهما العلامة جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد الشهير بـ (ابن هشام) المتوفي سنة ٧٦١هـ. والعلامة عبدالله بهاء الدين الشهير بـ (ابن عقيل).

وقد ترك هذان العالمان لنا من المصنفات ما يعتبر إلى اليوم المرجع الهام في هذا العلم. ومن اشهر آثارهما.

(أ) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: وهي منظومة شعرية جمعت خلاصة قواعد العربية نحوا وصرفا، ألفها العلامة ابو عبدالله محمد جمال الدين بن مالك الطائي الأندلسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ. وقد شرحها ابن عقيل شرحا مختصرا وافيا حل فيه معاني أبياتها، وفتح القواعد المكنونة فيها، وقد طبع هذا الشرح مع الألفية في جزئين مرات عدة وأفاد الطلاب منه فوائد كبيرة.

(ب) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: للعلامة ابن هشام، وهو شرح آخر لطيف لألفية ابن مالك السابقة.

(ج) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: للعلامة ابن هشام، وهو كتاب في جزئين كبيرين، تناوله العلماء بعد ابن هشام بالدراسة والشرح والتفصيل، وتداوله الطلاب وأفادوا منه كثيراً حتى عدَّ في قمة كتب القواعد. وقد طبع طبعات عدة. ومن أكثر شروحه ذيوعا، حاشية العلامة الأمير، وحاشية العلامة الدسوقي عليه.

(د) شذور الذهب: لابن هشام، وهو كتاب جامع لقواعد العربية في أسلوب سهل مقتضب وقد ألفه ابن هشام متناً صغيرا ثم

شرحه بنفسه، وهو مطبوع في مجلد واحد.

(هـ) قطر الندى وبل الصدى: لابن هشام، وهو كتاب مقتضب صغير في النحو يبتدىء الطلاب به دراستهم عادة.

٦ ـ الدور السادس

العصر الحديث

إن كانت العلوم الاسلامية في العصور الوسطى قد أصابها شيء من الجمود والركود في خط سيرها من الاتجاه نحو العمق إلى الاتجاه نحو السطح، فأن الركود الذي أصاب هذه العلوم في العصر الحديث كان أشد وأقسى، فحد من نشاط سيرها في اي اتجاه كان نحو العمق او نحو السطح، وجعلها ترقد في بوتقة مظلمة لا ترى النور إلا من نوافذ صغيرة قليلة لا تكاد تلقي إلا بصيصا من الضوء الخافت على ذلك التراث الضخم فتحول دون موته وفنائه.

واسباب ذلك كثيرة على راسها ـ في نظري ـ الاستعمار السياسي والعسكري والثقافي الذي سيطر على البلدان الاسلامية ردحا من الزمن فحجب عن ابصارها وميض تراثها العلمي الكبير، واورث في نفوس بعض ابنائها احتقاره وازدراءه والتبرؤ منه (والانسان عدو ما يجهل).

وقد تسبب عن هذا الاستعمار انخفاض مستوى التعليم عامة في هذه البلاد وانخفاض مستوى الاهتمام باللغة العربية خاصة، حتى أنك لتكاد تطلق على كثير ممن يدعون العلم في هذا العصر (عوام في اللغة العربية) بل هم عوام فعلا لأن لسانهم لا يطاوعهم على إساغتها في كتاباتهم ومحاضراتهم، ومحادثاتهم فيستبدلونها باللغة العامية المحلية التي يقتنونها، ويعتبرون ذلك تقدما ونضجا وبعدا عن التزمت.

ومعلوم أن اللغة العربية الفصحى هي طريقنا الوحيد إلى نبش وفهم علوم من سبقنا وإساغتها ثم الزيادة عليها، فلما انخفض مستوى اللغة العربية انقطع الطلاب والعلماء عن تراثهم وانصرفوا عن الاهتمام به فبقي راقدا على رفوف المكتبات ينتظر اليوم الذي تصحح فيه المفاهيم وتزول قبضة الاستعمار فتمتد إليه الأيدي الخبيرة للاستفادة والبناء.

وقد ساعد على تمركز هذا الركود في ربوعنا، وطول مكثه بيننا اتجاه كثيرين من قادة الفكر والعلم بيننا إلى الاعجاب بالحضارة الأوروبية وما أبدعته من علوم، واحتقار الحضارة الاسلامية وما خلفته من كنوز، مما كان له أكبر الأثر في انصراف الطلاب والمثقفين عن العناية بدراسة كنوزنا وعلومنا وتراثنا، واتهامهم لهذه المصنفات والموسوعات العلمية الرائعة بالعقم والجمود والصعوبة والقصور وعدم مسايرة روح العصر، وما درى هؤلاء أن القصور في افهامهم لا في هذه الكتب وأن العقم في طريقة تعلمهم وتعليمهم لا في طريقة تأليف وإعداد هذه المصنفات، وأن عليهم أن يكيفوا انفسهم وفقا لها، وأن يحاولوا جهدهم تفهمها وإساغتها، لا أن يتركوها ليعفوا عليها التراب ثم يتهموها بالجمود والعقم. أنه العقوق للسلف الصالح والصرح العلمي المشيد الذي ورثته هذه الأمة العتيدة عن أجدادها.

ولكنه لا بد هنا من أن أعود إلى ما كنت اشرت إليه في أول هذه الكلمة من أننا لم نعدم في هذا العصر نوافذ متفرقة يدخل منها النور إلينا وسط ذلك الظلام الدامس الذي نعيش فيه، فهنالك علماء أفذاذ استطاعوا أن يدعوا في العلم، وأن يتابعوا طريق السلف الصالح في السير فيه، إلا أن هؤلاء قلة في اكوام أدعياء العلم والمعرفة الذين لم ينالوا من الثقافة الاسلامية إلا ما سمح لهم به المستشرقون ومن طعموا على موائدهم، وقدموه لهم في مؤلفات براقة مزورة تدخل الشكوك إلى نفوسهم وتطبعهم بطابع خاص، يجعلهم يتنكرون لتراثهم وعلمهم، ويقعون

في الأخطاء، ويتيهون في متاهات تنحرف بهم عن خط إسلامهم.

وإنني فيما يلي سوف أحاول استعراض بعض المصنفات العلمية التي استطاعت أن تحافظ على نقاء تراثنا. وتسعى جهدها لمتابعة السير فيه إلى الأمام ترتيبا، وتبويبا، وتخريجا، وترجيحا، وتبسيطا، على سنن ما كان يفعله العلماء في العصور الوسطى، دون استقصائها، وذلك مخافة الحيف أو الزلل أو الاطراء أو الغمط، على أن جل هذه المؤلفات ايضا كان همه الأول التبسيط والتذليل لعلوم السابقين وجعلها تلائم طبيعة العصر ومستوى الثقافة فيه، اكثر من الاهتمام بالابداع والبحث والزيادة على ما كتبه واعده السلف الصالح.

وكم كان بودي لو يخصص هؤلاء العلماء بعض جهدهم للعمل على رفع مستوى الطلاب إلى ذلك التراث إلى جانب النزول بالتراث إلى مستوى هؤلاء الطلاب. فإن في هذا الرفع وصلهم بتراثهم العتيد، وفي ذلك التذليل قطعهم عنه واتخاذ واسطة بينهم وبينه هي الأستاذ او الكتاب الحديث، ولكن لعلي التمس لهؤلاء العلماء بعض العذر في أن التبسيط بمقدورهم أما الارتفاع بمستوى الطلاب فإنه يفوق طاقتهم وخارج عن حدود وسعهم، لأنه بحاجة إلى تضافر الجهود ومعاونة المسؤولين لتغيير طبيعة المناهج العلمية والثقافية التي عليها العمل في البلدان الاسلامية.

ولكنني على أي حال أرى أن بوسع العلماء عمل الكثير من أجل رفع المستوى. وأول ذلك القيام بتحقيق كتب السابقين والتعليق عليها بما يجعلها قريبة محببة إلى طلاب العلم، وغير ذلك. وهو أمانة الله في أعناقهم، عليهم أن ينهضوا بها ويقوموا بواجبها في حدود طاقتهم وإمكاناتهم.

كما إنني أود أن أنبه إلى خطر كبير وخطأ فادح تسير عليه جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية في العالم الاسلامي، وهو استبدال المراجع العلمية بالمذكرات الجامعية، حيث يعمد الأستاذ إلى كتابة مذكرة يجمعها ويلفقها من عدد من المراجع ويقدمها للطلاب في أسلوب سهل مبسط يغنيهم في كثير من الأحيان عن الرجوع إلى المراجع الأصلية في المادة المدروسة، ويؤمن لهم أكبر



□ رشيد رضا.

حجم ممكن من المعلومات في أقل وقت وأسهل طريقة.

فإن ذلك في نظري خطر فادح ينبغي التنبه له، لأن العلم ليس بحفظ الجزئيات، وإن هذه الجزئيات هي أول ما يتبخر من الذهن عقب الامتحان بأيام إن لم يكن بساعات، إنما العلم هو اتساع المدارك والقدرة على المحاكمة والمناقشة والتحليل والتركيب، وهذا لا يتأتى بحفظ الجزئيات بأي طريق كان، إنما يحصل ببذل الجهد واستنفاذ القدرات، وبقدر الجهد المبذول يحصل النمو في الحواس المدركة، وهذه المذكرات المستحدثة توفر للطالب كثيرا من الجهد فتحرمه بذلك كثيرا من العلم. وإنني في هذا لا أدعو لتعقيد العبارات والايهام في المصنفات، وتحويلها إلى ألغاز، ولكنني اشير إلى أن زيادة التسهيل تقضي على العلم وتستأصله.

هذا إلى جانب أن هذه المذكرات تقطع الطلاب عن مراجعهم التي سوف يحتاجون إليها في مستقبل أيامهم، وتتركهم حيارى أمام أي معضلة تصادفهم في مستقبل أيامهم لم يكونوا قد درسوها في مذكرة أستاذهم.

هذه لفتة نظر مخلصة أحببت أن لا تفوتني وأنا أشير إلى وضع الحركة العلمية في عصرنا الحاضر، فإنها أمانة في عنقي بعدما أدركت خطورتها على علومنا وجيلنا.

بعض المصنفات العلمية التي ألفت في العصر الحديث

١ ـــ في التفسير:

(أ) تفسير المراغي: لفضيلة الشيخ أحمد مصطفى المراغي المتوفي منذ مدة غير طويلة وهو كتاب قيم سهل نحا فيه مؤلفه منحى بسيطا، حيث أنه يذكر الآيات التي يريد تفسيرها متتابعة ثم يتبعها بشرح الكلمات الغامضة، وبعدها بشرح إجمالي يبين الاطار الذي تدخل فيه هذه الآيات موضحا السباق والسياق، وبعد ذلك يبتدأ بالشرح التفصيلي للآيات محل التفسير. وهو مطبوع في ثلاثين جزءا متوسطا.

(ب) تفسير المنار لفضيلة الشيخ محمد رضا تلميذ العلامة محمد عبده، وهو شرح قيم مطبوع قسم منه في ثلاثة عشر جزءا. وقد ضمنه مؤلفه آراء الامام محمد عبده كلها تقريبا، ولذلك فإن بعض الناس يعزوه إليه بدلا من رشيد رضا. وهو يمتاز بالتحليل الواسع والاستدلال المنطقي والفلسفي في كثير من الأحيان.

(ج) التفسير الواضح لفضيلة الشيخ الحجازي، وهو من علماء الأزهر المعاصرين، والكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات، وقد انتهج فيه مؤلفه منهج تفسير المراغي المتقدم.

٢ ـــ في الحديث:

(أ) قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لفضيلة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي المتوفي سنة ١٣٣٢هـ. وهو كتاب قيم في علوم الحديث ومطبوع.

(ب) منهج النقد عند المحدثين لفضيلة الدكتور الشيخ نورالدين عتر من العلماء المعاصرين، وهو كتاب جامع لعلوم الحديث في أسلوب جديد وتبويب حديث. وهو مطبوع في مجلد متوسط.

(ج) التاج الجامع للأصول لفضيلة الشيخ منصور بن علي ناصيف من العلماء المعاصرين وهو مطبوع في خمسة أجزاء جمعت ما في الكتب الخمسة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، بعد حذف أسانيدها وتبويبها تبويبا جديدا يسهل الرجوع إليها واستخراجها.

(د) السنة قبل التدوين: لفضيلة الدكتور محمد عجاج الخطيب من العلماء المعاصرين وهو مطبوع في مجلد كبير.

٣ ـــ في الفقه:

(أ) التشريع الجنائي الاسلامي: لفضيلة الأستاذ عبدالقادر عودة المتوفي منذ مدة قريبة وهو مطبوع في جزئين متوسطين، يعرض فيهما المؤلف أحكام الشريعة الاسلامية في الجنايات إلى جانب أحكام القوانين الوضعية فيها، بأسلوب سهل مرتب مقارن.

(ب) الجريمة والعقوبة في الشريعة الاسلامية: لفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة من العلماء الذين توفوا قريبا وهو كتاب على نحو الكتاب المتقدم إلا أن لكل واحد من الكتابين ميزات تجعل الآخر لا يغني عنه، وهو مطبوع في جزئين كبيرين الأول للجريمة، والثاني للعقوبة.

(ج) المدخل الفقه العام: لفضيلة الأستاذ مصطفى الزرقاء من العلماء المعاصرين، وهو مطبوع في جزئين كبيرين عرض فيهما المؤلف الفقه الاسلامي في أسسه العامة ونظرياته الكلية على نحو جديد مبدع، أفاد منه الطلاب والعلماء فوائد جمة، حتى أن بعضهم قال: لو لم يكن له غيره لكفاه، وهو كتاب لا يستغني عنه طالب الشريعة والحقوق معا.

(د) مدخل إلى نظرية الالتزام العامة في الفقه الاسلامي: لفضيلة الأستاذ الزرقاء نفسه، وهو على نمط الكتاب الأول ويعتبر جزءا ثالثا له.

(هـ) فصول من الفقه الاسلامي العام:

لفضيلة الدكتور الشيخ محمد فوزي فيض الله من العلماء المعاصرين. وهو كتاب جامعي مؤلف لطلاب السنة النهائية في كلية الشريعة، يضم فصولا متعددة من الفقه الاسلامي، وهو مطبوع في مجلد كبير، نحا فيه مؤلفه منحى الفقه الاسلامي المقارن، حيث أنه يعرض فيه المذاهب الفقهية ويناقشها ويحلل أدلتها.

(و) نظرية الضرورة: لفضيلة الدكتور الشيخ وهبه الزحيلي من العلماء المعاصرين وهو كتاب قيم في بابه مطبوع في مجلد متوسط يعالج فيه مؤلفه نظرية الضرورة معالجة مقارنة بين الفقه الاسلامي والقوانين الوضعية.

٤ ـــ أصول الفقه:

(أ) مذكرات في أصول الفقه: لفضيلة الشيخ أبي النور زهير من العلماء المعاصرين، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء متوسطة تضم مختلف أبواب هذا العلم، وهو عبارة عن اختصار واختزال لبعض كتب المتقدمين في هذا الفن.

(ب) أصول الفقه: لفضيلة الشيخ محمد الخضري وقد توفي منذ سنين قليلة، وهو كتاب قيم جدا ينحو فيه مؤلفه منحى علماء السلف في تبويب وشرح فنون هذا العلم بعبارة فيها وضوح وسهولة. وهو مطبوع في مجلد متوسط.

(ج) أصول الفقه: لفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة، وهو مطبوع في جزء متوسط، وقد حلق فيه مؤلفه في دراسة وتوضيح بعض النقاط على نحو فريد.

(د) علم أصول الفقه: لفضيلة الشيخ محمد شاكر الحنبلي وهو من الذين توفوا أخيرا وهو مطبوع في مجلد متوسط جامع لأكثر أبواب هذا العلم بترتيب مدرسي سهل.

(هـ) ضوابط المصلحة لفضيلة الدكتور الشيخ سعد رمضان البوطي من العلماء المعاصرين، وهو مطبوع في مجلد يبحث في المصلحة المرسلة ويفند أنواعها وأقسامها على طريقة مقارنة مستوعبة.

٥ ـــ في علوم العربية:

(أ) المعجم الوسيط، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو مطبوع.



□ الشيخ محمد عبده.

(ب) في أصول النحو: لفضيلة الأستاذ سعيد الأفغاني من العلماء المعاصرين، عرض فيه لأمهات مسائل النحو، كالاحتجاج في اللغة، والقياس، والاشتقاق، والخلاف بين النحاة بأسلوب علمي مبسط. وهو مطبوع.

(ج) الموجز في قواعد اللغة العربية: لفضيلة الأستاذ الأفغاني أيضا، وهو كتاب جامع لقواعد النحو والصرف والاملاء بأسلوب سهل واضح مبسط معتمد على الأقوال الراجحة، بعيد عن الخلافات النحوية التي كثيرا ما يشتبه أمرها على الطلاب فيضيعوا في متاهاتها. وهو مطبوع.

(د) جامع الدروس العربية: لفضيلة الشيخ مصطفى بن محمد الغلاييني المتوفي سنة ١٣٦٤هـ. وهو كتاب جامع لقواعد النحو والصرف والاملاء أيضا بأسلوب مدرسي مبسط ومطبوع في ثلاثة أجزاء.

(هـ) فقه اللغة: لفضيلة الأستاذ محمد المبارك من العلماء المعاصرين وهو مطبوع في جزء متوسط.

(و) البلاغة تطور وتاريخ: لفضيلة الدكتور شوقي ضيف وهو من أجمع ما صنف حديثا في هذا الفن. ومطبوع.

الهوامش

(١) الآية (٣٦) من سورة الأحزاب.
(٢) الآية (٣ ــ ٤) من سورة النجم.
(٣) الآية (٣) من سورة المائدة.

الطرق التجارية في العصور الوسطى [١]

سلع ومتاجر [٧]

د. نقولا زيادة

تحدث د. نقولا زيادة في المقال السابق (العدد ٦٢ ــ ٦٣) عن اربع من السلع التجارية الهامة وهي ــ الملح والتوابل والاخشاب والبن.
وفي هذا المقال يتناول أربعا أخرى من السلع التجارية الرئيسية وهي: البخور والذهب والحرير والرقيق.

٥ ــ البخور



لسنا ندري متى بدأ الانسان يحرق البخور في معابده وهياكله. وكل ما استطاع الباحثون أن يتأكدوا منه هو ان هياكل مصر كان البخور يحرق فيها منذ حول سنة ٣٠٠٠ق.م. ولسنا نحسب إلا أن هياكل بابل وفينيقية وفلسطين كانت تعاصر الهياكل المصرية في استعمال البخور. ومن الثابت انه لم يكن ثمة هيكل في العالم القديم لم يحرق فيه البخور. وقد أخرج تارن أن الهيكل في القدس كانت فيه غرف مخصصة لخزن البخور. ونعرف ان هيكل أمون تلقى في سنة واحدة في القرن الثاني عشر ق.م. ما يعادل ٢,٢٠٠ جرة و ٣٠٠ ميكال من البخور. وكان كهنة بابل يحرقون ألف وزنة من البخور في السنة الواحدة. ولما نظم دارا الكبير امبراطوريته طلب من التجار العرب أن يقدموا له الف وزنة من البخور في السنة بدل ما يترتب عليهم من العشور. وقد ارسل الاسكندر الكبير خمسمئة وزنة من البخور من غزة وحدها هدية إلى معلميه. إلى هذا كله يجب أن نضيف ما كان يستهلك من البخور في البيوت والحفلات الخاصة.

ويبدو، على ما ارتأى رتينز أن الأصل في استعمال البخور هو للبركة من جهة ولطرد الأرواح الشريرة من جهة أخرى. ومن هنا كانت شجرة البخور تعتبر شجرة مقدسة. وقد كان استخراج عصيرها، لتجفيفه وبيعه، حكرا على رجال من أسر معينة. وكان استخراج العصير ترافقه طقوس دينية خاصة، لأن القوم كانوا يعتبرون ان الرجل كان ينتزع دم الحياة من حي له صفة الهية.

وقد كانت المصادر التي يحصل منها القدماء على ما يحتاجون من البخور هي: جنوب شبه جزيرة العرب الممتد من حضرموت إلى ظفار، ومنطقة في شرق إفريقية تمتد من الصومال إلى رأس غودفروا؛ والهند. وكان أجود انواع البخور وأغلاها قيمة هو الذي يأتي من جنوب شبه الجزيرة والمعروف باللبان. وكان المر، وهو صنف من أصناف البخور، تنمو أشجاره في المناطق المحيطة بالبحر الأحمر في الجزء الجنوبي منه. إلا ان المر لم يبلغ درجة البخور الأصلي في نظر الناس.

وكان وصول البخور، أما من بلاد العرب نفسها أو من الصومال وجوارها أو من الهند وما إليها، بالنسبة إلى مصر وبابل وبقية البلاد

□ نقولا زيادة: يحمل شهادة دكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن. درّس في الكلية العربية في القدس. وعمل استاذ للتاريخ العربي في الجامعة الاميركية ربع قرن وله من المؤلفات بالعربية: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٤٣)؛ والرحالة العرب (القاهرة، ١٩٥٧)؛ ولمحات في تاريخ العرب (بيروت، ١٩٦٢).
وقد ترجم عدة كتب عن الانكليزية منها: تاريخ البشرية (لارنولد توينبي، بيروت، ١٩٨١ ــ ١٩٨٢).



المجاورة، يتم على أيدي التجار العرب فقط، وعبر الأجزاء الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة. أما البحر الأحمر فلم يدخل السباق إلا في القرون السابقة للميلاد. وسبب ذلك هو ان القوارب الصغيرة التي كان الانسان القديم يستعملها ما كانت تصلح للشواطىء الصخرية والمرجانية الخطرة المحيطة بالبحر. لذلك فانه يتحتم علينا أن نتعرف إلى الطرق البرية التي كان البخور ينقل عليها من حضر موت، حيث كان يجمع هناك أو يحمل من الأماكن الأخرى إليها.

ونحن نستطيع أن نجد ثلاثة طرق يبدأ كل منها في حضرموت، وتلتقي جميعها في مأرب. وهذه هي أقدم طرق البخور المعروفة. ومن مأرب يتجه الطريق شمالا إلى الجوف فنجران فَطَرَبة فالطايف. وحري بالذكر ان كلا من هذه المحطات هي واحة أو مجتمع مياه. والا لما كانت تصلح مراكز للتجارة، كائنة ما كانت المتاجر المحمولة. فإذا انتقلت القوافل إلى مكة كان عليها أن تريح زمنا، وأن تبدل الحيوانات والرجال. ذلك ان المنطقة الواقعة إلى الشمال من مكة كان يصعب اجتيازها على أهل الجنوب. وبعد ذلك كانت القوافل تنتقل من مكة إلى يثرب أو المدينة مغربة نحو المنطقة الساحلية كي تتجنب المنطقة الجافة الصعبة بين المدينتين. ومن يثرب أو المدينة كانت القوافل تتجه إلى العلا وهي ديدان القديمة ثم إلى البتراء. ومن هذه المدينة — الواحة — المتجر كان الطريق يتشعب إلى فرعين: واحد يتجه إلى غزة ومنها إلى مصر، وآخر يذهب إلى دمشق ومنها عبر تدمر ودورا (الصالحية) إلى بلاد ما بين النهرين.

وهذا هو الطريق الذي كان البخور ينقل عبره حتى يصل إلى بابل القديمة. وهو، كما نرى، طريق طويل جدا. ولكن كان هذا ضروريا، إذ ان حيوان النقل الذي كان يستعمل في الأزمنة الأولى كان الحمار. وهذا لا يستطيع اجتياز المناطق الصحراوية الجافة. فلما دخل الجمل إلى بلاد العرب، وكان ذلك في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، تبدلت الطرق بعض الشيء. ذلك بان الجمل هو حيوان الصحراء الممتاز فهو الذي يستطيع تحمل العطش والجوع. والتبديل الرئيسي الذي طرأ على تجارة البخور هو ان القوافل أخذت تتجه من نجران شمالا في شرق عبر وادي الدواسر وواحات الافلاج والخرج واليمامة إلى بلاد البحرين على الخليج العربي. ومن الاحساء (الحسا) كانت تسير الطريق شمالا إلى العراق. وبذلك قصرت المسافة التي كان يقطعها تجار البخور في نقله من حضرموت إلى أرض الرافدين. وكان ثمة تغيير آخر وهو ان القوافل أصبحت تنتقل من مكة إلى يثرب او المدينة رأسا، أيضا لأن الجمل كان يتحمل الأحوال المناخية الصعبة.

وقد جرب المصريون الحصول على البخور من أصقاع اليمن رأسا عن طريق البحر الأحمر حتى في الألف الثالث قبل الميلاد، لكنهم لم يوفقوا بسبب صعوبة الشواطىء هناك. وقد جربت الملكة حتشبوت ذلك ثانية في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وتم لها ذلك. إلا ان اضطراب شؤون مصر فيما بعد أوقف هذه الحملات البحرية إلى بلاد بونت، كما كان المصريون القدامى يسمون المنطقة المحيطة بجنوب البحر الأحمر ومخارجه إلى المحيط الهندي.

لكن لما استقر الأمر للبطالمة في مصر ونظموا شؤونها أنشأوا أسطولا في البحر الأحمر. وبذلك نشطت التجارة كثيرا، وقامت المنشات التجارية هناك. وصارت بضائع الصومال وجزيرة سوقطري وجنوب شبه الجزيرة تنقل بحرا إلى برنيتشي على البحر الأحمر وغيرها. ولكن ضعف البطالمة فيما بعد أضعف التجارة، وكثر القرصان في البحر الأحمر. وعاد إلى الطريق البري ازدهاره.

وأخيرا احتل الرومان مصر وأعاد أغسطوس قيصر السلم إلى العالم الروماني، وأدرك قيمة البحر الأحمر التجارية، فأرسل حملة إلى بلاد العرب بقصد احتلال اليمن للسيطرة على المركز الرئيسي للتجارة هناك. فقد أصدر أمره إلى غالوس، القائد العام للوحدات الرومانية في مصر، ان يسير بعشرة آلاف جندي. وطلب من الأنباط ان يمدوه ببعض الجنود وأن يقوموا بمهمة التموين والارشاد.

قامت الحملة من ارزينوى التي كانت على مقربة من مدينة السويس الحديثة. ونقل الجنود عبر البحر الأحمر إلى لوكي كومي (الحوراء



□ كان البخور المستورد من جنوب جزيرة العرب يستعمل بكثرة في الطقوس الدينية في العالم القديم. تمثل الصورة جرح شجرة البخور كي تتحلب عصارتها فتجمد وتصبح اللبان او اطر كما المستعمل لما ذكر. (الصورة من محفورة من سنة ١٥٧٥).

أو القرية البيضاء) الواقعة على مقربة من ينبع. ومن هناك بدأت الحملة البرية إلى مأرب قاطعة مسافة تقرب من الفين وخمسمئة كيلومتر. بدأت الحملة في ربيع سنة ٢٤ قبل الميلاد، ووصلت بعد صعوبات كثيرة إلى نجران، فحاصرتها واحتلتها، والتقت جيشا عربيا إلى الجنوب من هذه المدينة وانتصرت عليه. ومع ان الرومان انتصروا في معارك صغيرة أخرى، فانهم اضطروا أخيرا إلى الانسحاب، فارتدوا على أعقابهم دون أن يصلوا إلى مأرب. دامت الحملة ستة شهور، وانتهت بالفشل.

إلا ان التجارة في البحر الأحمر في أيام أغسطوس كانت مزدهرة. فقد ذكر سترابو ان مئة وعشرين سفينة سافرت في سنة واحدة إلى الهند من ميوس هرموس على البحر الأحمر. على انه يجب أن نذكر ان التجارة خارج البحر الأحمر ظلت، لقرون طويلة تلت، حكرا على العرب. وظلت تجارة البخور في أيديهم. وكل ما يمكن أن يضاف هنا ان الاهتداء إلى مواعيد هبوب الرياح الموسمية سهل على العرب التجارة مع الهند، وزاد الكميات المنقولة من تلك البلاد من المتاجر المختلفة، وظل البخور مع التوابل في مقدمة ما يحمل من هناك.

٦ ـ الذهب

للذهب، في حياة الانسان، منزلة خاصة. ذلك انه معدن لا يتأثر بالعوامل المختلفة التي تؤثر في غيره من المعادن. ومن ثم فانه يحتل مكانا خاصا سواء أكان ذلك المكان خزائن المثرين أم صدور الحسناوات، وجيوب المقامرين أم زنود الجميلات. والذهب يوجد في مناطق متعددة من الدنيا. فقد استخرج الذهب، ولا يزال يستخرج أحيانا، في هنغاريا واسبانية وفي أكثر البلاد الآسيوية والافريقية وفي أميركا الشمالية. ومع ذلك فإن الكمية التي استخرجت منه إلى اخر القرن التاسع عشر لم تتجاوز عشرين ألفا من الأطنان، حسب تقدير العارفين.

وقد كان البحث عن الذهب والسعي وراءه ظاهرة من ظواهر المجتمعات المتمدنة منذ فجر التاريخ المدوّن. ففي العصور القديمة كان الذهب يحصل عليه غالبا من اسية الصغرى وسيبيريا والتبت، ولو ان مصر العليا عرفت أيضا باستخراج الذهب. ولنذكر بعض الأرقام للتدليل على الكميات التي كانت المجتمعات المختلفة تحاول خزنها من الذهب «لما استولى الاسكندر الكبير على اكبتانا [همذان] وجد في خزائنها ما يساوي مئتي مليون دولار من المعادن الثمينة. أما برسيبوليس عاصمة الامبراطورية الفارسية فقد حصل الاسكندر منها على ما قيمته مئة وخمسة وثلاثون مليونا من الدولارات. وقد كانت ثروة البطالمة في مصر تقدر بنحو تسعمئة مليون دولار».

في إبان ازدهار الامبراطورية الرومانية كان الاقبال على المتاجر المستوردة من الأقطار الشرقية النائية كبيراً، وأهم هذه كانت المجوهرات والأقمشة الحريرية والتوابل والبخور. وكانت الامبراطورية تدفع ثمن هذه الأشياء كلها بالذهب أو الفضة. وقد كانت التجارة واسعة بحيث إن الذهب كاد أن ينعدم في الامبراطورية في القرن الثالث للميلاد. وكان ذلك واحدا من الأسباب الرئيسية للاضطراب الذي عانته

الامبـراطوريـة، والذي أدى في النهـايـة إلى سقوطها. فقد قدر جـاكوب في كتـابه **تـاريخ المعادن الثمينة** ان الذهب الذي كان في نطاق الامبراطورية في أيام أغسطوس قدر بنحو ألف وثمانمئة مليون دولار، فانخفض إلى الربع بعد اقل من أربعة قرون!

وفي العصور المتوسطة كانت المناجم تغل قليلا من الذهب، بحيث ان المستخرج كان بالكاد أن يكفي الحاجات القليلة نسبيا. وهذه الحاجات كانت، على الأقل من أوروبة، قليلة إذ ان المجتمع كان اقطاعيا زراعيا. لكن اكتشاف العالم الجديد والاهتداء إلى ذهبه في القرن السادس عشر أدى إلى انتقال كميات كبيرة من الذهب إلى أوروبة في أوائل العصور الحديثة. وفي هذه الفترة دخلت افريقية أيضاً ميدان استخراج الذهب بكميات كبيرة.

وفي عهـد ازدهار الامبـراطوريـة العـربيـة الاسلامية كان الذهب يأتي، في الغـالـب، من اجزائها الغربية. فقد كان ثمة مركزان رئيسيان للتبر الواحد حول العلاقي التي تقع شرقي النيل بـين أسـوان وعيـذاب والثـاني في السـودان الغربـي. وقد نقل اليعقوبـي أخبار العلاقي في **كتاب البلدان** فقال ما خلاصته: هذه المنطقة هي معادن التبر. وأكثر من بالعلاقي قوم من ربيعة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية. ووادي العلاقي معادن للتبر، يعتمل فيه الناس ولكل قوم، من التجار وغير التجار، عبيد يعملون في الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر ثم يسبك. وينقل التبر إلى عيذاب حيث يأتي التجار فينقلونه إلى أسواق الدولة الاسلامية.

اما المركز الثاني للتبر فهو السودان الغربـي. ويقول الادريسي ان السودان ويقصد ما نسميه نحن السودان الغربـي، بلاد التبر وانه اكبر غلة عند السودان وعليه يعول صغيرهم وكبيرهم. وكانت القوافل التي تجتاز الصحراء الكبرى آتية من الجنوب تحمل الذهب وتعود محملة بالملح.

وقد استمر السودان الغربـي مصدرا للذهب حتى العصور الحديثة. وكان الطريق الرئيسي لتجارة الذهب من سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى إلى مـالي في غرب افـريقية عن طريق ايوالاتن أو ولّاطو. وكان السفر من سجلماسة إلى ولاطة، على رواية ابن بطوطة، يحتاج إلى شهرين عبر الصحراء. ومن ولاطة إلى مالي كانت القوافل تجتاز المسافة في شهر وبعض الشهر. إلا ان هذا الجزء من الطريق لم يكن صحراويا تماما. وكان أهل مالي يحملون تبرهم إلى ولاطة دون أن يسمحوا لأحد بالاطلاع على مصدره.

وقد جرب الكثيرون، عبر قرون طويلة، أن يكتشفوا مصدر التبر السوداني، لكن محاولاتهم لم تنجح، وظل الأمر سرا نحو ألفي سنة، أي إلى القرن التاسع عشر. وكان كل ما عرف، من أيام القدامى حتى أيام الادريسي، وبعده، هو ان تجار الذهب هم أهل ونغرة؛ ولكن أين تقع ونغرة.

وحري بالذكر ان الاتجار بالذهب كان يسمى التجارة الصامتة. فقد روي أن تجاره هناك كانوا ينقلونه إلى المكان الذي يقبل عليه تجار الملح لمبادلته بالتبر. فيضع التجار الملح على شاطىء النهر ثم ينسحبون بحيث لا يرون، وعندها يقبل تجار التبر فيضعون منه ما يعتقدون انه يساوي الملح ويختفون أيضا. ويعود تجار الملح فـان أعجبتهم الكميـة أخذوا الذهب وتـركوا الملح، والا أظهروا عدم رضاهم بالاختفاء ثانية. وعندها يزيد تجار الذهب الكمية حتى يـرضى أولئك. وهكذا فإن تجار البضاعتين لا يلتقون قط. وبهذه المناسبة فقد روي أيضا ان تجار الحرير في أواسـط اسية كـانوا يبيعـون حريـرهم بهذه الطريقة. ومع ان الرواية تبدو صحيحة، فإن غرابتها تغلب على احتمال كونها حقيقية.

في أواخر القرن السادس عشر كان يتـولى شؤون المغرب الأقصى السلطان المنصور. وقد رغب هذا في الاستيلاء على مملكة سنغي القائمة حول تمبكتو على نهر النيجر، اعتقادا منه انها كانت مصدر الذهب. فجهز حملة كبيرة مؤلفة من نحو أربعة الاف مقاتل مجهزة بالبنادق والمدافع ومعها ثمانية الاف من الابل وألف من الخيل. وقـد خرجت الحملة من مـدينة مـراكش عام ٩٩٨/ ١٥٩٠ واجتازت المسافة إلى كبرا، وهي نيف وألفان من الكيلومترات، في مئة وخمسة وثلاثين يوما، بما في ذلك أيام الاراحة.

واستـطاعت الحملة أن تنجـح في مهمتهـا فاحتلت تمبكتو وغوا عاصمة مملكة سُنغي. وقد روى اليفرني في **نزهة الحادي** انه لما فتح على

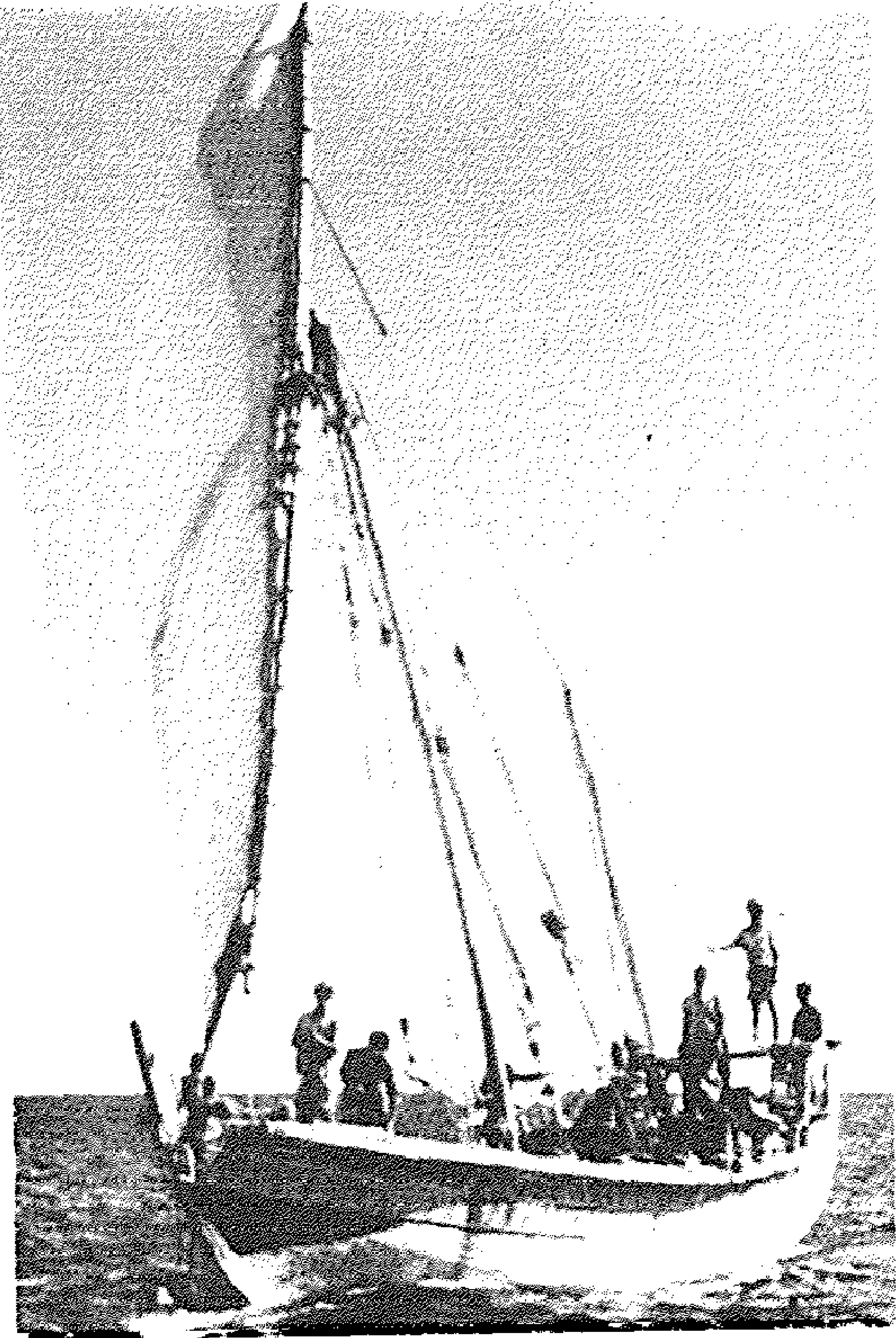
المنصور الممالك السودانية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي. وكانت ببابه كل يوم مطارق كثيرة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الاقراط والحلي. وبسبب هذه الكميات الكبيرة من الذهب التي وصلت إلى البلاط المغربي سمي المنصور «الذهبي».

ويبدو ان الرأي الذي ساد بلاط المنصور هو ان معادن الذهب تقع في الأقطار السودانية التي وجهت الحملة إليها. لذلك بعد ان أصاب القواد النصر، كان المنصور ينتظر أن يتبعوا ذلك بالوصول إلى التبر ومصادره. لكن ذلك لم يتم لأحد، لأن مصادر التبر لم تكن هناك، وانما كانت إلى الغرب منها في ونفرة. والواقع ان الجيش المغربي استولى على الأسواق التي كان التبر ينقل إليها، اما مصادره فقد ظلت مجهولة. والذهب الذي حمل إلى بلاط المنصور لم يزد على ما كان يمر بالأقطار السودانية قبلا. والفرق هو ان التبر كان من قبل يأتي ثمن ملح ومتاع ومتاجر، فأصبح الآن يصادر باسم السلطان.

وظلت مصادر التبر في ونفرة مجهولة إلى القرن التاسع عشر، إذ ثبت انها مالي وهي البلاد التي ورد ذكرها عند الجغرافيين والمؤرخين الاسلاميين وهي جزء من غانة الحديثة وجوارها الشرقي.

٧ ــ الحرير

الحرير صيني الأصل، وقد عرف هناك منذ الأزمنة المتوغلة في القدم. على أن أقدم نص صيني عن الحرير يعود إلى نيف وثلاثة آلاف سنة، أي إلى القرن الثاني عشر ق. م. وقد ظل الحرير مدة طويلة وقفا أو حكرا على القصور الملكية وكبار رجال الدولة وأمراء الدويلات والأثرياء وكبار رجال المجتمع. ويبدو، بحسب ما لدينا من النصوص، أن الحرير الصيني لم يصل حتى أواسط آسية نفسها إلا في سنة ١١٥ ق.م. لما فتح شانغ كيان طريق القوافل المتجهة من الصين غربا. وبعد ذلك بمدة قصيرة وصل الحرير إلى دولة الفرثيين، وعرف في ديار الشام ومصر في القرن الأول ق.م. وهذا هو



□ كان الزورق، ولا يزال، الوسيلة الرئيسية للتنقل.

الوقت الذي كان الرومان فيه يحتلون هذه البلاد، فتلقفوا تجارة الحرير واستعماله مع ما اخذوه من المشرق.

وكان الحرير المادة الرئيسية في الاتجار بين العالم الروماني والصين، إذ كان ذلك يكون تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها.

والطريق الذي كان تجار الحرير يسلكونه برا كان يبدأ عند سلوقية أو المدائن (كتيسيفون) وهما على دجلة، ويتجه شرقا مارا بجبال زغروس إلى أكبتانا (همذان) ومرو وبكترا (بلخ) وسمرقند وكشغر، ثم يجتاز تركستان وحوض تاريم حتى يصل منطقة هيسيان ــ فو وهي بلاد الحرير. إلا أن هذا الطريق كان يمتنع على القوافل أحيانا إذا كانت الدولة القائمة في بلاد ايران على خصومة مع الشرق أو الغرب. فيقل الاتجار عندها على هذا الطريق، ويعتمد التجار الطريق البحري عن طريق الهند إلى البحر الأحمر فمصر أو الخليج العربي إلى ما بين النهرين.

فإذا وصل الحرير سلوقية نقل إلى صور وصيدا وانطاكية والاسكندرية. وفي الموانىء



□ هذا الحرير الذي كان ينقل من الصين خيوطا كان ينتهي به الامر ان يصبح ثيابا انيقة تزين اجساد السيدات، فتكسبهن جمالا فوق جمالهن (من القرن السادس عشر) من كتاب: (La Route de la Soie; L. Boulnois).

الفينيقية كان يعالج بالأصبغة المختلفة، واشهرها الأرجوان، وعندها يصبح لباس الأباطرة وفيما بعد لباس كبار رجال الكنيسة. وحرى بالذكر أن تدمر والبتراء وحران كانت مراكز هامة لقوافل الحرير.

وقد أخرج الأمير موريس شهاب أنه في حول سنة ٣٠٠ للميلاد كانت الليبرة الواحدة (أي حول نصف كيلو) من الحرير الخام تباع في البلاد الفينيقية بنحو ٧٥٠ فرنكاً من الذهب. فإذا نسجت وصبغت بالأرجوان أصبح ثمنها ما يقرب من مئة ألف من الفرنكات.

وظل إنتاج الحرير حكرا على الصين، والاتجار به خاضعا لمن يتولى شؤون ايران إلى أواسط القرن السادس للميلاد. ففي سنة ٥٥٣ حمل راهبان بعض بذور القز في جوف عصيهما خفية إلى شرق البحر المتوسط. وعندها باشرت تلك المنطقة بانتاج الحرير. وفي ذلك القرن انتشرت صناعة الحرير في لبنان بسبب جودة المناخ لزراعة التوت وحفظ الشرانق صيفا ومهارة الصناع في خدمة الحرير نسجا وصباغة.

وكان للفتح العربي في القرن السابع للميلاد اثر أي أثر في انتعاش صناعة الحرير والاتجار به. فمن الجهة الواحدة وقعت بلاد انتاج الحرير الأسيوية، أي ايران وسورية ولبنان تحت نفوذ دولة واحدة، امتدت غربا إلى الأندلس، فزالت القيود التي كانت تحول دون التجارة الحرة حيث كانت. ومن الجهة الثانية كان ثمة ثروة ضخمة تتجمع في بلاط الخلفاء أولا ثم في بلاطات أمراء الأطراف. وهؤلاء كلهم كانوا ينفقون الكثير على الكماليات ومنها الحرير الذي لم يكتف الناس به ثيابا الآن، بل استعملوه سجوفا وغلائل ومفارش واغطية ووسائد وحتى بسطا.

والأهم من المتاجرة بالحرير من شرق الامبراطورية العربية إلى غربها كان انتشار انتاجه. يقول: الأمير موريس شهاب في ذلك.

«سارت الجيوش الاسلامية في فتحها نحو الغرب وزرع اللبنانيون والسوريون على طريق الفتح أسماء مدن أوطانهم كطرابلس وصيدا وقرطبا وما شاكلها. ونمت في مراحل الفتح تربية دود الحرير ومصانع حياكته. ووجدت هذه الصناعات في جنوب الأندلس ارضا خصبة فنشأت فيها وازدهرت وما مضى القرن إلا وأصبحت مدينة ألمرية من أنشط المدن في هذا الحقل وكانت الأنوال الدائرة فيها تتعدى الثمانماية. وبلغ عدد الأماكن التي تتعاطى تربية دود القز في الأندلس الثلاثماية وما فوق. ولم تكتف دولة غرناطة بإنتاج ما يلزم صناعاتها من حرير بل اصبحت تصدره إلى الأقطار الأخرى. ونزل العرب جزيرة صقلية فألحق أمراؤهم بقصورهم الطرازات النشيطة الكثيرة الإنتاج».

إلا أن الصين ظلت، مع ذلك، تصدر الحرير غربا. وقد كان للحرير الصيني منزلة خاصة في خزائن الثياب في القصور، الملكية منها وغير الملكية. وظل الطريق البري القديم هو الذي يستعمل. ويعدد الأستاذ برتولد شبولر المراكز الرئيسية على هذا الطريق، بدءا من بغداد، إذ يتجه الطريق إلى ايران عبر جبال زغروس ثم يمر بهمذان والري ودامغان ونيشابور ومرو الشاهجان وآمل. ويجتاز الطريق بعدها بلاد ما وراء النهر عبر بخارى وسمرقند ووادي فرغانة وأزغند. وكل هذه الأماكن كانت داخل الامبراطورية الاسلامية. أما خارج هذه فكان الطريق يخترق جبال تينشان وحوض تاريم إلى واحة ترفان.

وكما كان الطريق البحري يستعمل من قبل، كان يستعمل في العصور الوسطى أيضا. وكانت البصرة وسيراف ثم جزيرة قيس (كيش) وهرمز فيما تلا ذلك من العصور أهم الموانىء في الخليج العربي. وعلى البحر الأحمر كانت القُصَيرْ والسويس مركزين هامين في مصر.

وحرى بالذكر أن الحرير أخذ، في أواخر العصور الوسطى، يتجه من الغرب إلى الشرق. ونختم هذا العرض الموجز ببعض ما ذكره الأمير موريس شهاب عن نسيج الحرير في بعض الأقطار الشرقية.

«وفي القرن الثاني عشر أعجب الادريسي بما شهده في انطاكية من حرير مموِّج أو مقصَّب وكانت هذه الحرائر مثل حرائر طرسوس مقصبة في شدتها بخيوط من الذهب أو الفضة. وعندما دخل السلطان قلاوون مدينة طرابلس لم تكن لتعد أقل من أربعة آلاف نول. ولم تكن هذه



□ هذه الصورة هي لقطعة من القماش الحريري تعود صناعتها إلى العصر العباسي، وتظهر الجمل ذا السنامين. من كتاب: (La Route de la Soie; L. Boulnois).

المدن تتاجر بما تنسجه أنوالها فحسب بل تأتي ايضا بالحرائر من البلاد البعيدة كالعجم او الصين. وكان اقبال الغربيين في أكثر الأحيان أكبر على النسائج اللبنانية والسورية لما فيها من جودة ولأن أثمانها دون أثمان ما يؤتى به من أواسط آسيا أو أقاصيها».

«كان الحجاج الجنويون يعودون من الأراضي المقدسة حاملين النسائج والحرائر والطلب يتكاثر على هذه النسائج فتضطر مراكب البندقية إلى المكوث طويلا في مرفأ صور بانتظار الفراغ من تجهيزها».

«وبعدما كانت الحرائر الشرقية محصورة الاستعمال في تزيين المذابح وجدران الكنائس انتشر تذوقها في قصور الأمراء والفرسان وبيوت أصحاب الثروات، وتسربل الأمراء والفرسان والأشراف ونساؤهم وبناتهم بالألبسة الحريرية يخرجون من دورهم مرتدين إياها بينما الأكليروس وحده ارتداها فيما سبق في الحفلات الدينية. وألبست المعابد الخاصة بالحلل الحريرية وصنعت من الحرير الأعلام وأغشية الأسرة وازدانت الخيام بالحرائر وتدلت من الشرفات سجادا ونسائج. وغذّت هذه العادات والحفلات الحاجة إلى الحرائر فنشط طلبها من الشرق نشاطا كبيرا. لكن مهاجمة المغول لصيدا وفتح السلطان قلاوون لطرابلس وتدمير الأشرف خليل لصور وما جرى من حروب في لبنان في أواخر القرن الثالث عشر حد من هذا النشاط وأوشك أن يأتي عليه».

٨ ــ الرقيق

كان الرقيق، حتى القرن التاسع عشر، جزءا أساسيا من حياة المجتمعات البشرية، بحيث يكاد يكون من المستحيل أن تعرف جماعة بشرية لم يكن بين أفرادها أرقاء. ولعل ما يميز مجتمعا عن آخر يكمن في الأسلوب الذي كانت الجماعة تعامل فيه الرقيق، من حيث الحدب عليهم أو تشجيعهم على الانعتاق أو تشجيع الأسياد على عتق الرقيق. ونحن إذا استعرضنا هذه القضية وجدنا أن الرقيق كان يستعمل في خدمة البيوت وفي المصانع على صغرها وفي المزارع أحيانا. وفي بلاد اليونان القديمة كان الكثيرون من المعلمين والمؤدبين من الأرقاء. وثمة مجتمعات استخدمت الرقيق في الجند الخاص بصاحب السلطان على نحو ما صنع العباسيون بالرقيق التركي والمولى اسماعيل المغربي بالرقيق الأفريقي. بل أن المماليك الذين حكموا مصر



□ تعتبر «المدينة» من المحطات الرئيسية للقوافل التجارية.

وديار الشام قرنين ونصف القرن كانوا كلهم، سلاطين ونوابا وزعماء جند واداريين، رقيقا ابتيع كل واحد منهم في سوق الرقيق.

والرقيق كان مصدره الأكبر أسرى الحرب، لكن حتى في المجتمعات غير الحربية كان يمكن الحصول على الرقيق في الأسواق. أما النخاسون، أي تجار الرقيق، فكانوا يحصلون على هذه السلعة بوسائل مختلفة. منها أن البعض كانوا يتصيدون الرقيق، وخاصة في أواسط أفريقية، ويحملونه إلى الأسواق. وكان بعض الآباء يبيعون أبناءهم لعجزهم عن اطعامهم. وقد عرفت المجتمعات القديمة الرقيق عن طريق بيع الشخص نفسه أو زوجه أو أولاده وفاء لدين عليه. فإذا كان الرقيق من هذا النوع الأخير كان معنى هذا أن العبيد كانوا من أهل البلد نفسه.

اما في الأحوال الأخرى فقد كان هؤلاء المسترقون ينقلون من بلد إلى بلد.

ففي بابل القديمة لم يكن أسرى الحرب ولا حتى الأرقاء من أهل البلد يكفون لسد حاجات الزراعة والصناعة والخدمة المنزلية. ومن ثم فقد كان التجار يستوردون الرقيق من الأقطار المجاورة والبعيدة. وقد درس مندلزون الرقيق في بلاد ما بين النهرين القديمة وخلص إلى نتائج هامة حول الموضوع. فمن ذلك أن تلك الحضارة القديمة عرفت رقيق الدولة، وهؤلاء كانوا أسرى الحرب؛ وكان هناك رقيق الهيكل وهم الذين كانوا يعملون في الأرض التابعة للهياكل ومصالحها الصناعية. هذا بالاضافة إلى العبيد الذين كانوا ملكا للأفراد طبعا. وقد توصل إلى أن العبد كان يساوي بين عشرة وخمسة عشر شاقلا من

الفضـة في أيام بـابل الأولى. امـا فـي أيام الكلدانيين والفرس فقد ارتفع ثمنه إلى ضعفي ذلك وأكثر. والرقيق الماهر كان يبلغ ثمنه نحو مئة شاقل من الفضة. وكان عدد العبيد في بيت من البيوت يتوقف على ثروة صاحبه. فقد كان ثمة من يملك مئة من الرقيق. إلا أن الأسر المتوسطة الثراء كانت تقتني بين اثنين وخمسة من العبيد.

وقد كان العالم اليوناني الروماني يستخدم الرقيق في مجالات مختلفة. فبالاضافة إلى ما ذكر كان العبيد يقومون بالأعمال الكتابية لأسيادهم، بل كثيرا ما كان هؤلاء يولونهم ادارة مصالحهم التجارية أو الصناعية. ذلك بأن الأحرار، خاصة في أثينا، ما كانوا يرغبون في الأعمال التي يطلب منهم فيها اطاعة الرؤساء المباشرين. وقد كان في اثينا، في القرن الرابع ق.م.، حسب تقدير جونز نحو عشرين الفا من الرقيق. وكانت الكثرة من هؤلاء تعمل في مناجم الفضة في لوريوم. وكان ثمن العبد الواحد العادي، في ذلك الوقت، يتراوح بين ١٢٥ و ١٥٠ دراخمه. أما إذا كان العبد صَناع اليدين فقد يصل ثمنه إلى ستمئة دراخمة.

في أيـام الامـبـراطور أغسـطوس شـنت الامبراطورية الرومانية حروبا كثيرة في مناطق واسعة متباعدة، لذلك كثر الرقيق في الأسواق. إذ كان أسرى الحـرب من اسبانيـة والمانيـة ومنطقة الألب الدينارية يباعون فيها. لكن انتهاء الحروب أدى إلى نقص في الوارد من الرقيق (ويبدو أنه في القرنين الأول والثاني للميلاد كان أكثر الرقيق من أقطار الامبراطورية نفسـها). ومن هنا ارتفع السعر ارتفاعا كبيرا. فعنـدنا ما يدل على أن الرجل الحاذق كان ثمنه يصل إلى نحو سبعمئة دينـار، والمرأة تسـاوي اربعمئة دينار، بينما دفع ثمن بنت في السادسة من عمرها مئتا دينار. وعادت الحروب إلى الامبراطورية في القـرن الثالث للميـلاد واختل الأمن في أكثـر أجزائها منذ ذلك الحين، لذلك عاد التجار إلى سرقة الرقيق أو خـطفهم. ومع ذلك فقـد ظل الطلب، خاصة في رومة، أكثر من العرض. وقد كانت جزيرة ديلوس احد اكبر أسواق الرقيق في شرق البحر المتوسط لقرون عديدة.

وقد كان للاسلام فضل كبير في تحسين احوال الرقيق من حيث المعاملة والتشجيع على العتق.

ولكن ظل الرقيق ملازما للمجتمعات المختلفة التي نشأت في اطار الدولة العربية الاسلامية. وقد اخرج متز أنه في القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي، «كانت في مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقية أسواق للرقيق الأسود. وكانت قوافل هذه البلاد تجلب الذهب والعبيد من الجنوب. وكان الثمن الجاري للعبد حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة مئتي درهم. أما العبد الحاذق أو الفنان فقد يصل ثمنه إلى مئات الدنـانير. وقـد تشترى الجـارية بـألفـين من الدنانير».

وكـان ثمن العبيد البيض يـزيد عن ذلك، وخاصة حينما انقطع سيل الرقيق من الأندلس، وظل المصدر الوحيد هو أسواق بزنطية وارمينية. وقـد كان الرقيق الأبيض يصـل إلى المملكـة الاسلامية في عز ازدهارها بن طرق ثلاثة. أولها الطريق الذي ينقل عليه العبيد من البلغار عند مصب نهر الفولغا، وكانت سوقهم الرئيسية في سمـرقنـد. والطريق الثـاني كـان طريق رقيق الصقالبة، من المانية إلى الأندلس ثم إلى الموانيء البحرية في ايطالية وفرنسة. وكان تجار الرقيق يدفعون ضرائب باهظة أثناء نقلهم الرقيق. ففي مدينة كوبلنز كان يدفع عن كل رأس ما يعادل اربعة دنانير. أما الطريق الثالث فكان يتجه من براغ إلى بولونيـة والروسيا، ومن هنـاك ينقل الرقيق إلى أجزاء المملكة الاسلامية الشرقية.

وكانت أقطار افريقية الغربية تزود أسواق شمال أفريقية ومن ثم أسواق غيرها بالرقيق الأسود حقبة طويلة من الزمن. وكانت كومبي وغوا سوقين في الجنوب وسجلماسة سوقا في الشمال. وقد زار الحسن الوزان، المعروف بليون الأفريقي، حوض النيجر وكتب عن غوا، عاصمة مملكة سنغي، ما خلاصته: أن تجار السودان يذهبون إلى هذه المدينة ليختاروا ما يحتاجون إليه من الأقمشة الأوروبية التي كان يحملها إليها التجار المغاربة. والمدينة كانت غنية بالحبوب واللحوم، لكن الأشجار والفواكه فيها معدومة. وكانت سوق الرقيق فيها غنية، والأسعار مرتفعة. فالولد في سن الخامسة يباع بست دوقات. إلا انه يذكرنا دوما أن أغلى انواع المتاجر هو الملح.

●

تاريخ بدء الزراعة

إنسان العصر الحجري سعى إلى التجريب والاكتشاف كما يفعل اليوم

د. ابراهيم فريد الدّر

حصاد قديم على النيل



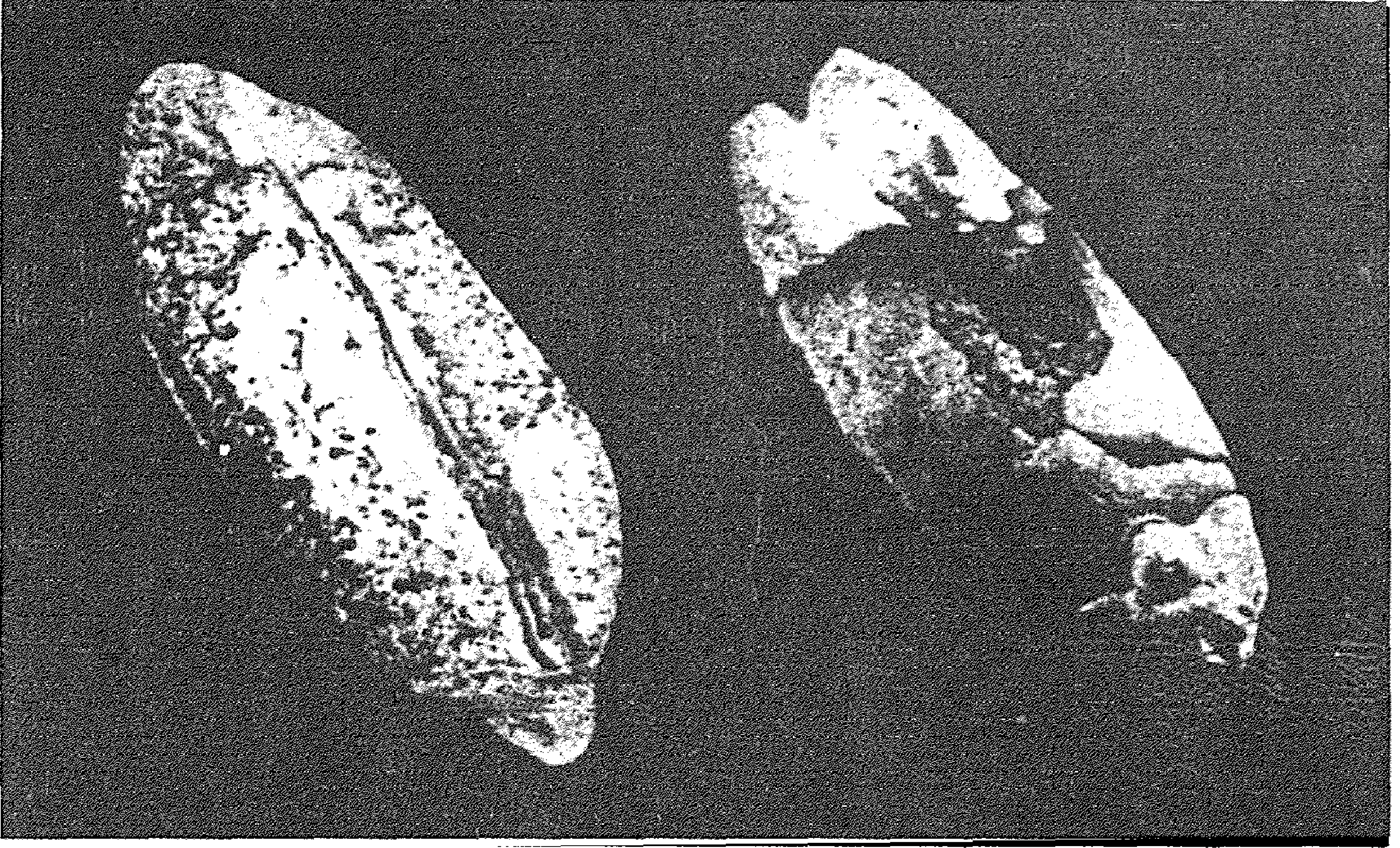
زرع المزارعون القمح والعدس والحمص والتمر والكبّار الشائك لثمانية الاف سنة قبل أن تأتي السجلات على ذكر بدء الزراعة.

كان ذلك فتح تاريخي جليل حين تحول الانسان الصياد إلى انسان فلاح. كان الانسان جوالا يجمع ما تيسر من حبوب ونبات ويصيد ما يسنح ثم استقر ليعالج الأرض ويبني المدن، فبدأت بذلك الحضارة الانسانية.

معلومات جديدة

ظن العلماء أولا ان الزراعة بدأت قبل ١٠,٠٠٠ سنة بعد انتهاء عصر الجليد الأخير. وكان البدء في غربي جنوب اسيا حيث تنمو اليوم أنواع من القمح البري والشعير. وظنوا ان ما دفع الانسان إلى الزراعة نقص الموارد البرية وارتفاع عدد السكان. لكن حفريات جديدة قام بها خبراء من جامعات ومؤسسات كثيرة غيرت كثيرا من الظنون. ظهرت نتائج البعثة العالمية أواخر ١٩٨٢ والمزيد منتظر.

□ د. ابراهيم فريد الدر: استاذ الكيمياء الحياتية في كلية الطب في الجامعة الأميركية، بيروت.



□ حبة القمح (يمين) وحبة الشعير (شمال). وجد العلماء حبوب القمح والشعير في مقر للمزارعين من ١٧٠٠٠ سنة واكثر. الحبوب المكتشفة خشنة، منقطة بالاسود، وفيها شرم خشن عند نقطة التعلق بالساق، مما يدل على حبوب محصودة بعد زرعها. اما الحبوب البرية فهي ناعمة.

وادي الكُبَّانية

تدل الحفريات في وادي الكبانية، منطقة نائية ومعزولة في صحراء مصر الغربية ان الأفارقة كانت تفلح الأرض من قبل ١٨,٥٠٠ سنة حين كان الجليد جاثما على وجه الأرض الأوروبية. زرعوا القمح والشعير والعدس والحمص والتمر والكبار الشائك. اعتمدوا مساحات يغمرها النيل حين يفيض، كما بقي ذلك أساس الزراعة لثلاث عشرة سنة أخرى حتى بدأت الحضارة الفرعونية المعروفة، واستمر النهج نفسه إلى عصرنا الحاضر.

وتدل الحفريات ان بدء الزراعة لم يؤذن ببدء إنشاء القرى ذلك ان ذلك الانسان بقي جوالا يقيم مؤقتا حيث الأرض تصلح للزرع، ولم يطرح الصيد والجمع، فكان الزرع موردا ثالثا لخزانة طعامه وشرابه، وتثير هذه الاكتشافات سؤالا قديما حول أسباب تحضر الانسان إذ انتفت العلاقة الزمنية المباشرة بين بدء الزراعة والحضارة معا.

مناخ الكُبَّانية

لم يكن وادي الكبانية انذاك على غير حاله الحاضر. أنهر بسيطة تشق تلاله الرملية، والأنهر تجف غالبا لقلة الأمطار، التي لا تسقط إلا مرة كل ١٥ سنة. لكن مستوى النيل كان انذاك أعلى مما هو عليه الآن، فكان الفيضان يطال القسم الأسفل من الوادي، فيتكون ما يشبه الحوض المائي الغني بالتربة الخصبة. وكان ذلك القسم من الوادي غنيا بالأسماك والطير من بط ووز، وأعشاب على حافتي الوديان الصغيرة، ترعاها قطعان من الحيوان. أما خارج هذا الشريط الحياتي فكانت الصحراء كما هي اليوم. ولقد وجد الخبراء اثار السكن على مرتفعات رملية مشرفة على الوديان والسهول.

الآثار والنبات والحيوان

بالرغم من جهل الخبراء لنوع الانسان المزارع انذاك، فانهم جمعوا تفاصيل كثيرة حول طريقة حياتهم اليومية، نتيجة ما وجدوه من

مخلفـاتهم. واستطاع الخبـراء تحديـد الدورة السنوية للقـوم خلال تقلب الفصـول. وجدوا الحبوب، وأكثرها بزور، ووجدوا حجارة للطحن والدق، وأجران، وسكاكين حجريـة، وقشاطات لسلخ الحيوان من جلده. كل الأدوات كانت على أشكال من الصغير إلى الكبير.

يبدو ان القوم لجأوا إلى المرتفعات الرملية مرتين كل سنة، أولهما خلال اب وأيلول حين كان الفيضان يشتد أواخر الصيف، وكانوا يعتمدون الصيد خلال ذلك، بما فيه السمـك. أما عنـد انحسار الفيضان وجفاف المستنقعات فكـانت الأسماك تموت، ولقد وجد العلمـاء كثيرا من عظامها، وأكثرها من سمك الجِرِّي (Catfish).

زرع وحصد

لا ريب في أن المنـطقة السفـلى من وادي الكبانية كانت جذابة لانسان العصر البالي: سمك في النهر، وز وبط في المستنقعات، عليق وشـجر وعشب على ضفاف المياه، وإبل ترعى السهول الخضر، مع غيرها من القطعان. وبعد أن تجف المنطقة وتعود إلى قحطها يتركونها ويعتمـدون الصيد، وجامعين ما حصدوه من حبوب وبزور. ويبدو ان الزراعة لم تكن على نطاق واسع، ذلك ان تحضـير الأرض كان محـالا عليهم انذاك لفقدان المحراث، فزرعوا في أرض سهل نبشها. والثابت أيضا انهم كانوا يدفنون البزور والحبوب في أرض وحلة قليلا، ويغادرون في الخريف إلى منـاطق قريبـة من النيل حيث يمكثـون حتى الشتاء، ثم يعودون إلى الكبانية استعداد لموسم الحصاد. ولا يزال بعض المزارعين في هذا العصر يتركون الأرض إلى أجل معلوم ويعودوا ليحصدوا ما زرعوا من قبل!

منطقة إسنا

تدل الآثار المكتشفة ان أهل العصر البالي استوطنوا إسنا ١٥٠ كيلومتر شمال الكبانية، حيث نبش العلماء أدوات حجرية مثل تلك في الكبانية. وتدل الحفريات ان بعد الحصاد كان القوم يطحنون الحمص، أما العدس فكان يترك كما هو أو يدق إلى عجين في جرن كالذي وجده الخبراء. ويظن الخبراء ان ذلك الانسان اعتمد



□ يجد العلماء جورة فيحفرون ليستجلوا ما تحت السطح من آثار مدفونة.

الصيد في الربيع والصيف، توفيرا لما جمعه من حبوب التي استعملها حين كان الصيد يخف.

صحيح ان القمح والشعير وحبوب أخرى نمت برا، لكن الانسان «دجنها» وزرعها في مناطق لا تنبت فيها تلك الحبوب عشوائيا. ثم ان القمح البـري يختلف شكـلا عن القمـح «الداجن»، والفحص المجهري للنماذج المكتشفة تدل على ان القمح كان من زرع الانسان.

القمح البري والقمح المزروع

المعروف ان الحبوب التي تسقط عن أمها برا، تكون خالية من بقايا الساق التي تحمل السنابل. الحبـة تنضج وتسقـط خالصـة من الشوائب كـالقش والتبن. أما التي يحصـدها الانسـان فتكون معلقة بقليل من ساقها، ولذلك يلجأ الفلاح إلى هـرس ناعم للحصـاد، ليفرق بـين الحبة وشوائبها... للحبوب المزروعة غالبا، شرم خشن نتيجة الذر والكسر على حـدود اللصوق بـين الحبوب والنبات الأم. أما البري فهو ناعم نتيجة سقوطه تلقائيا بعد جفافه (راجع الصورة) ومن أهم البراهين على ان حبوب الشعير المكتشفة هي



□ خريطة تمثيلية: ظهرت الزراعة في مناطق مستقلة، لنباتات او حبوب استساغها اهل المنطقة فزرعوها.
١ ــ مصر وادي الكبانية قبل ١٨٠٠٠ سنة: قمح، شعير، عدس، حمص، تمر وكبار شائك.
٢ ــ إفريقيا الوسطى، التاريخ غير معروف: الرز الافريقي ــ القهوة، وبطاطا اليام والسرغم (نبات له ورق مثل الذرة وقصب السكر).
٣ ــ العراق، الهلال الخصيب، ٩٠٠٠ سنة: القمح، الشعير، البازيلا، والعدس.
٤ ــ المكسيك، قبل ٩٠٠٠ سنة: الفول، وبعده الذرة، البندورة، القطن.
٥ ــ اميركا الجنوبية قبل ٨٠٠٠ سنة: فول ليما، وبعده البطاطا وفستق العبيد.
٦ ــ الصين، قبل ٥٧٥٠ سنة: الملفوف والذرة البيضاء، وبعد ذلك الصويا.

من النوع المزروع كونها ملتوية قليلا. وهذا الالتواء غير معروف الا في أنواع من الشعير المزروع. وبما ان خشونة الحبوب المزروعة والتوائها لا تثبت فيها الا بعد مرور أجيال من الزرع، فإن ذلك يدل على زرع متعمد بدأ قبل ١٨٠٠٠ سنة بكثير. ثم ان الانسان القديم اختار من حيث لا يدري أنواع الحبوب التي تتشبث بأمها بشدة. فالحبوب حتى في سنبلة واحدة تختلف بمتانة تعلقها فيسقط منها الضعيف.

الانسان القديم عالم

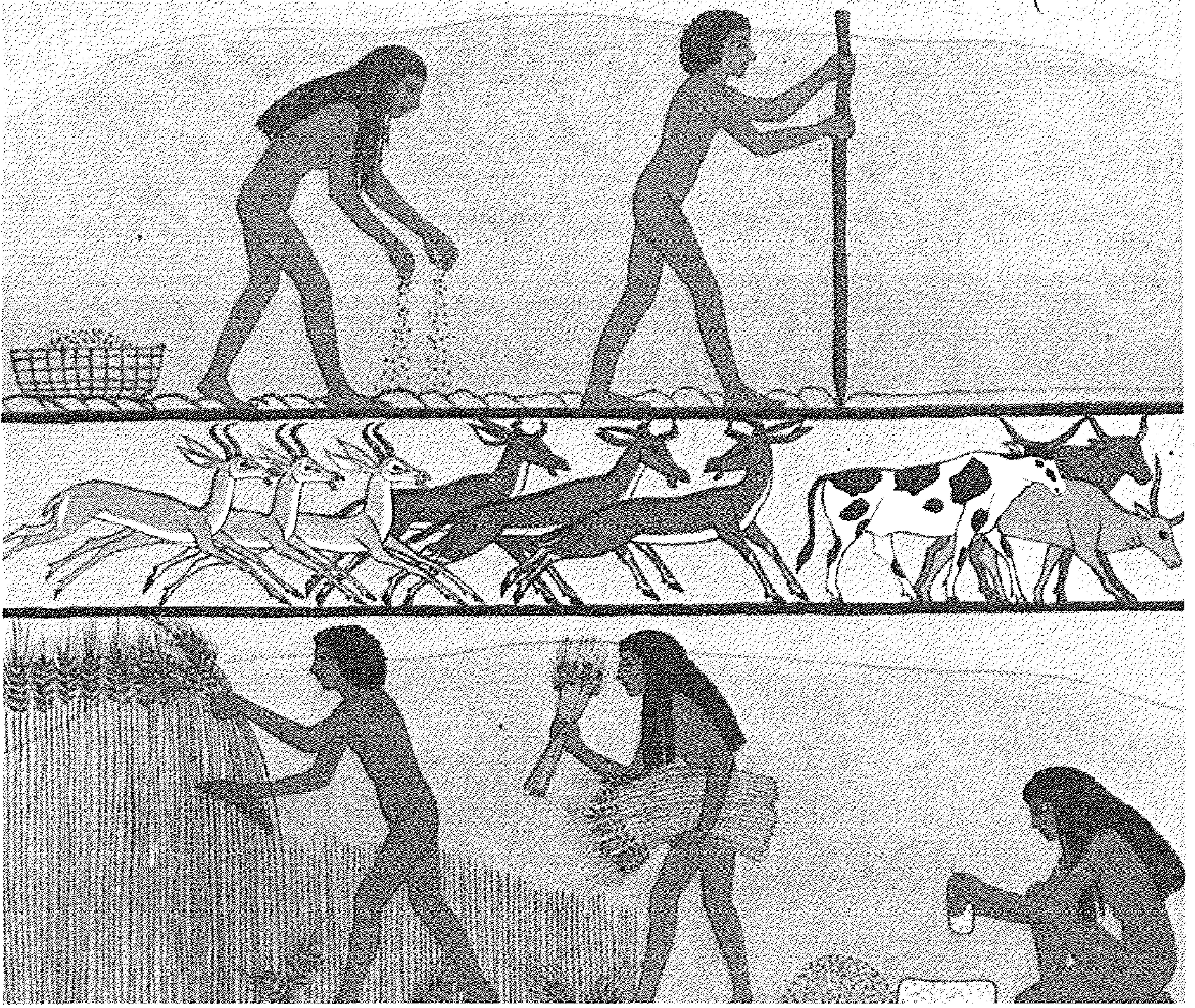
وهناك من الأسباب ما يوجب الاعتراف بان الانسان القديم لم يكن عشوائيا في عمله إذ اتبع نظاما معلوما في معالجته للنبات وللحيوان خلال سعيه نحو الطعام فاتقن التربية والانتقاء لما يساعده على البقاء آنذاك. وفي بعض أعماله جذورا بدانية لما نسميه اليوم (الهندسة الوراثية).

الفواكه

النبات، لا يحفظ كالحبوب، ليتعرف العلماء إلى أنواع الفواكه والخضراوات التي استعملها الانسان القديم. لكن الخبراء يعلمون بثبات ان رجل أوروبا أكل العنب من أربعمئة الف سنة. وفي جنوبي افريقيا طواحين حجرية أكبر من تلك المكتشفة في الكبانية بمرتين.

الكبانية جزء من تراث

تنقض حفريات الكبانية العقائد المألوفة حول شؤون الانسان القديم ومدى تقدمه أو مهارته.



□ تركت الحضارة الفرعونية سجلا جميلا لأعمال أهلها في قبورهم صور تشهد على ما دجنوا من حيوان ونبات. الزرع والحصاد وتربية الحيوان، كلها كانت من شغلهم.

ما وجده العلماء في الكبانية هو جزء من حضارات أو تقاليد كانت منتشرة على طول وادي النيل. فخلال الحملة العالمية لانقاذ الآثار التي أخذ سد أسوان العالي يهددها، وجد الخبراء طاحون عمره ١٤,٥٠٠ سنة، واكتشفوا أحجارا رقيقة الحد كالسكين والمنشار والمنجل. لم يجدوا الحبوب، لكنهم وجدوا في الترسبات النهرية غُبَيْريات العفن الصدئي الذي يلوث القمح، وغبيريات جرثومية لنباتات منقرضة وغير معروفة اليوم. ووجدوا أيضا ذرات الطلع للقح الشعير.

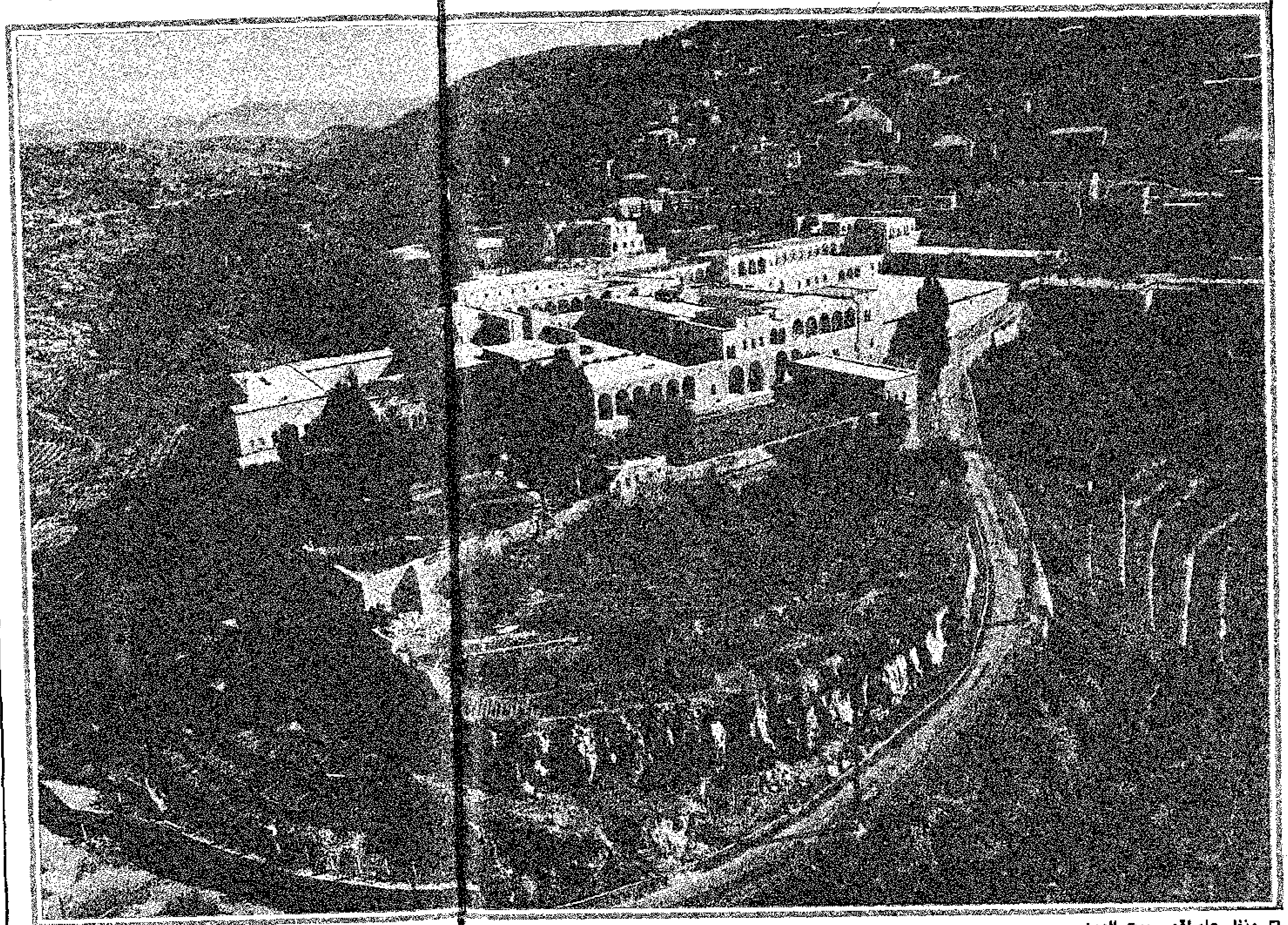
كل هذه الآثار تدل على ان الكبانية كانت واحدة من مجتمعات زرعت وحصرت اختلاف أشكال الأدوات يدل على وجود مجتمعات مختلفة، لكنها واحدة في جوهر استعمالها لتلك الأدوات.

إنسان سعي

وليس ما يدعو إلى القول بان الانسان لجأ إلى الزراعة والتدجين الحيواني تحت ضغط الحاجة من قوت وسكن. بقي القوم في صحراء قاحلة بالرغم من ان وادي النيل واسع، وفيه غنى لهم عن صحراء جافة. بقوا ليمارسوا ويراقبوا زرعهم وأعمالهم وان كانوا يغادرون الصحراء إلى وقت معلوم. الزراعة اعطته فرصة ليروي غليله إلى زيادة معرفته، فأضاف إلى حياته عنصرا جديدا ولو بقي بعد الزراعة صيادا جوالا إلى أجل غير قصير. وهذا يوجب إعادة النظر في تاريخ الانسان القديم ومراجعة العقائد السائدة حول بداءته وشؤونه.

الإصلاحات الاجتماعية والمظاهر الحضارية الأولى في المرتفعات الجبلية اللبنانية

د. حسين سلمان سليمان



□ منظر عام لقصر بيت الدين.

استفاد الأمير بشير الشهابي الثاني من فترة الهدوء والاستقرار التي شهدتها بلاد الشام الجنوبية بعد وفاة والي صيدا احمد باشا الجزار (١٧٧٦ ــ ١٨٠٤)، واتخاذ خلفه سليمان باشا العادل (١٨٠٤ ــ ١٨١٩) سياسة اصلاحية تتعارض كليا مع أسلوب سلفه في الحكم. فسعى الأمير إلى الغاء بعض العادات الاجتماعية القديمة التي كانت تسود المرتفعات الجبلية اللبنانية، ومن تلك العادات «احتفال الحداد»[1] اي مظاهر الحزن المبالغ فيها على الموتى.

فقد كان هذا الاحتفال يجري، بصورة خاصة لدى الأسر الاقطاعية البارزة في المرتفعات اللبنانية، بطريقة تدل على زيادة إبراز جاه الأحياء اكثر ما تدل على مظاهر الحزن، فقد اعتادت تلك الأسر عند وفاة أحد أفرادها البارزين، على إجراء احتفالات حزن لمدة سبعة أيام. فيدعى إلى المأتم كل العائلات الاقطاعية وأبناء قرى جبل الدروز، وتستأجر النادبات المشهورات مقابل أجر ضخم، فالبكاء والعويل وأناشيد المديح التي تغنى بلحن محزن كئيب، هي المهمة التي تقوم بها هذه الجوقة على اكمل وجه. وفي أوقات الاستراحة من الندب والعويل تمثل بعض مشاهد من حياة الفقيد، فكانوا يلبسون شخصا من خشب أجمل ثياب المتوفى، ويدججونه بالسلاح من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، فيمر من أمامه جميع رجاله مسلحين، وتتبعهم خيوله وقد جهزت بكامل عدتها وجللت سروجها بقطع من القماش الأسود. ثم يحملون هذا الشخص على محمل ويطوفون به جميع أنحاء القرية، اما ليشهد قتالا أو سباق خيل، وفي كثير من الأحيان ليحضر الولائم وتناول المرطبات وخاصة القهوة. وفي خلال كل هذه المشاهد كانت الندابات يتبارين بالتفجع والصراخ الحاد، وكثيرا ما كان يحدث مشاجرات دامية خلالها نتيجة التسابق على حمل النعش. ويمتنع أهل الميت عن الاغتسال والحلاقة لمدة أربعين يوماً، ويفرض على جميع سكان اقطاعه ارتداء الثياب السوداء اللون، ولا تستثنى من ذلك القمصان التي لا تخلع ولا تبدل إلا بعد انقضاء أربعين

□ د. حسين سلمان سليمان: الجامعة اللبنانية ــ كلية الآداب ــ الفرع الرابع.

يوما. وتؤدي نفقات هذا الحداد عائلة المتوفي فترسل إلى كل من شاركوها حدادها، كل ما يلزم حتى الصابون ليغسلوا ثيابهم التي لبسوها بناء على رغبتها[٢].

وكان الأمير بشير كارها لتلك العادات، ويرى بأنها تتنافى مع احترام الارادة الالهية ويتوجب الغاؤها، وبوفاة شقيقة الأمير حسن ـــ حاكم كسروان ـــ بتاريخ ١٨ آذار ١٨٠٨، قرر الأمير بشير تثبيت ما كان عازم على تنفيذه، فأمر بإبطال اجراء «احتفال الحداد» المذكور، ومنذ ذلك الحين الغيت هذه الاحتفالات البالغة النفقات لدى العائلات الاقطاعية في المرتفعات الجبلية اللبنانية[٣].

واتخذ الأمير بشير اجراءات لحفظ جبل الدروز من الأوبئة التي كانت تنتشر في المدن المشرقية بحيث كان يذهب ضحيتها اعداد غفيرة من السكان نتيجة الجهل وعدم الوقاية. ورغم أن المناخ النقي في المرتفعات الجبلية اللبنانية كان يحد من انتشار الأمراض السارية، ففي كثير من الأحيان كان ينتقل الطاعون إلى قرى تلك الجبال، قادما في أغلب الأحيان من مصر أو استامبول إلى بلاد الشام مارا بالمدن التي تفصل تلك البلاد عن العاصمتين المذكورتين ويسبب وفاة أعداد غفيرة من السكان[٤]. «بمدينة البصرة غاية ما بلغ اشتداد فعله خمسة عشر ألفا وأفنى خلقا كثيرين... أنه أفنى من الناس خمسة عشر ألفا وكذلك بغير أماكن من جزيرة العرب...»[٥].

ولكي يتجنب الأمير بشير انتشار هذا الوباء في المرتفعات الجبلية اللبنانية الخاضعة لسلطته، ادخل في سنة ١٨٠٦ التلقيح واستخدم في البداية بين الأسر الاقطاعية ولم يلبث أن عم البلاد. ولم يكتف بهذا الاجراء فقط لمنع انتشار الطاعون في جبل الدروز، ففي سنة ١٨١٣ على اثر انتشار هذا الوباء في مدينة عكا «ومات ماينوف عن الثلث ما فيه من المدينة من الناس»، وسرعان ما ساد أيضاً في بلاد الشام الداخلية والساحلية على السواء. أصدر الأمير بشير أمراً باتخاذ إجراءات غير معروفة في باقي بلاد المشرق، ومن ذلك فرض على زعماء قرى الجبل، أن كل من يصاب في قراهم بالطاعون أن يبادروا فورا بنقله مع جميع أفراد بيته إلى معسكرات خاصة أقامها لهذا الغرض، وكل من اقترب من المطعونين يتم عزله في معسكرات مماثلة وجعل الجميع تحت الرقابة الشديدة. كما أقام دوريات متحركة ومراقبين في كل المنافذ المؤدية من الساحل إلى الجبل، لمنع قدوم الأغراب ومنع الاتصال بمدن الساحل، وحظر على العمال الموسميين الذين انتقلوا في تلك السنة إلى بيروت للقيام بأعمال تتعلق بإنتاج الحرير، من العودة إلى بيوتهم في الجبل إلا بعد اختفاء الوباء من المدينة، ومنع جميع «المكارية» الذين يمرون على الطرقات الرئيسية التي تصل بيروت ببلاد الشام بعدم دخول الجبل، وأقفل كل الحوانيت والفنادق الموجودة على الطرق المذكورة. وبذلك حفظ الأمير بشير جبل الدروز من الطاعون الذي كان منتشرا في مدن الساحل وفتك بأعداد ضخمة من السكان[٦]. وحدثنا عن ذلك المؤرخ الأمير حيدر الشهابي[٧] بقوله.

«سلم الله دير القمر والبلاد من الطاعون بسبب تدبير الأمير...».

وإذا كان الطاعون بمثابة الكارثة التي كانت تلقي الرعب بين أهالي الشام، بسبب الأعداد الكبيرة من الضحايا التي كان يسببها هذا الوباء، فإن قدوم الجراد كان يلحق بهم نكبات اقتصادية، فيأكل الأخضر واليابس معا، ولا يكتفي بذلك فقط، بل يفقس بيوض لا تلبث أن تفرخ فتأتي على ما تبقى. واعتقد الأهالي أن هذه المصيبة التي كانت تحل بهم، إنما هي نتيجة ازدياد الفجور والفسق، والغرور والغلاء والشرور[٨]، فيحاولون التخلص من الجراد بوسائل بدائية للغاية. إما عن طريق استقدام نوع من الطير يدعى السمرمر، كانوا يعتقدون انه يفتك بالجراد، فيحرصون على الاتيان به إذا نزل الجراد بأرضهم، واعتقدوا أن هذا الطير لا يأتي إلا تابعا نوعا خاصا من الماء، يؤتى به خصيصا من عين ماء بين أصفهاء وشيراز. فإذا نزل الجراد بأرض حلب إليها من تلك العين ماء، بحيث أن حامل الماء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه، فيبقى طير السمرمر فوق راس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء إلى أن يصل



□ الأمير بشير الشهابي الكبير.

إلى الأرض التي بها الجراد، فتقع عليه الطيور وتقتله[٩].

كما لجأ الأهالي إلى أساليب أخرى، عن طريق كتابة الأدعية والمراسلات لتعلق على الزرع[١٠]، وفي أحيان أخرى كان يخرج سكان المدن بالأعلام والطبول، إلى قبور الأولياء طالبين منهم أبعاد هذا الخطر والضرر عن ديارهم، وأشار إلى ذلك المؤرخ أحمد البديري[١١] الحلاق بقوله عن أهالي دمشق:

«قصدوا زيارة السيدة زينب واستغاثوا عندها بكشف البلاء عن العباد».

أما في المرتفعات الجبلية اللبنانية فقد تصدى الأمير بشير الشهابي الثاني لهذا الخطر، بإتخاذ اجراءات حاسمة تحول دون انتشاره. فكان يرسل رعاياه إلى الحقول والبراري ويحدد على كل فرد أن يجمع مقدار نصف مد من بيوض الجراد، وعين أشخاصا معينين «مباشرين» للاشراف على ذلك العمل، تنقل إليهم البيوض ليتم إبادتها في الحرق والرفس فيما بعد. أما ما كان قد فقس من بيوض الجراد، فكان يأمر بجمعه ثم اقامة حفر خاصة لطمه أو حرقه بها، ولم يعف الأمير بشير أحدا من أهالي الجبل من المشاركة في أعمال المكافحة، بما في ذلك الأمراء أبناء عمه وحاشيته، وبذلك كانت المرتفعات الجبلية اللبنانية تسلم من أذى الجراد. وقد حاول باشا عكا تقليد الأمير بشير في ذلك، فاتخذ سنة ١٨١٩ في البلاد الخاضعة لحكمه المباشر، اجراءات مماثلة لتلك التي قام بها الأمير بشير، وقاد بنفسه حملة لمكافحة غزو الجراد، لكنه لم يستطع أن يحقق نجاحا لأن رعاياه كان ينقصهم النظام[١٢].

وسعى الأمير بشير إلى تنشيط التجارة في جبل الدروز، عن طريق تأمين الشرطين الرئيسيين لذلك، وهما اقامة الأمن واقرار العدالة في البلاد. فبالنسبة للعنصر الأول أمر سنة ١٨١٢ بالغاء ضريبة «الخفر» على الطرقات، وهي ضريبة كانت مقررة منذ أجيال قديمة، على الطرقات الرئيسية التي تصل بيروت بدمشق، والتي تمر عليها أعداد كبيرة من القوافل التجارية، وكان هناك مركز لجبايتها عند خان الحصن والمديرج والناعمة ومينائي جونية وجبيل. وسبب هذا الاجراء في تشجيع المبادلات التجارية وانتقال القوافل[١٣].

ولم يكتف الأمير بشير بهذا الاجراء بل سعى إلى تسهيل المواصلات والانتقال ما بين طرق الساحل والجبل، فأقام سنة ١٨٠٩ جسرا عند نهر الكلب لتأمين اتصالات المقاطعات اللبنانية الشمالية بالجنوبية، ثم أمر سنة ١٨١٤ باقامة جسر على نهر الدامور(*) عمل فيه مئة وخمسون بناء وكلف مئة ألف قرش، كما أمر بترميم نهر الكلب ورصيف جونية[١٤].

ولم يكتف الأمير بشير بتسهيل المواصلات الساحلية، بل سعى أيضا إلى تسهيل تلك المؤدية إلى الجبل، وكانت على درجة كبيرة من السوء «تشبه دروب الماعز أكثر من أن تكون طرقا لتنقل البشر»[١٥]. وقد اعتبر سكان المناطق الجبلية هذا النقص كمكسب، حتى أن الأمراء والمشايخ كانوا يعارضون تحسين الطرق المؤدية إليهم[١٦]، بل أنهم أيضا وفقا لرواية فولني[١٧] كانوا يعملون على زيادة وعورة المنافذ المؤدية إلى الجبل لكي يحولوا دون وصول قوات الولاة الأتراك إليهم. لكن الأمير بشير كان نظره أبعد من ذلك، إذ وجد أن امتداد سلطته على كل الأنحاء يتطلب ازالة كل العوائق، كما أنه يسهل العلاقات التجارية بين السهل والجبل، فأمر بشق طريق يصل دير القمر ببيروت[١٨].

اما فيما يتعلق بالعدالة فقد كانت تجري عن طريق رجال الاقطاع، الذين أجيز لهم النظر في الدعاوى العامة، فكان الاقطاعي يقوم بدور القاضي ويحكم وفقا للعادة، بحيث كان من حقه أن يصدر أحكاما بالسجن والجلد. أما الجرائم الأكثر خطورة والتي عقابها الاعدام أو التشويه الجسدي، فقد كانت من اختصاص الأمير الحاكم[١٩]. وحين ازدادت سلطة الأمير بشير شعر بضرورة توحيد جميع فئات السكان، فبدأ باتخاذ اجراءات بهدف فرض سلطته التامة على الجميع[٢٠]، فسحب من المقاطعجية امتياز النظر في القضايا المدنية، وأحال هذه الأمور إلى قضاة اختصاصيين معينين من قبله، ينظرون فيها على أساس الشريعة الاسلامية في المناطق الدرزية والاسلامية، وعلى أساس القوانين العامة والمجموعات القضائية في المناطق المسيحية، وأنيطت بحكام المقاطعات سلطة تنفيذ أحكام المحاكم المختصة في القضايا المدنية[٢١]. وأقام محكمتين واحدة في دير القمر والأخرى في غزير، ووزع عددا من أمراء آل شهاب في مختلف أرجاء الجبل، وخول لكل منهم حق النظر في الدعاوى والفصل فيها، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تأمين فعالية أكبر للسلطة المركزية[٢٢].

وأعطى الأمير بشير العدالة انتباها خاصا بغرض كسب ولاء ومحبة السكان، وصار دقيقا في اصدار أحكامه القضائية والاتيان بسرعة بالمحتالين والمعتدين والمتهمين[٢٣]، بواسطة قوة حربية غير منظمة من الشرطة «حواليه»، لم يرتفع عددها إلى أكثر من ألف خيال وألف ومئتين مشاة، استقر الجانب الأكبر منهم في قصره في بيت الدين، في حين توزع الباقي في مختلف أنحاء الجبل[٢٤]. وعند حصول قضايا عنف يصار تحقيق رسمي، ويستنفر قوة للبحث وجلب المجرمين، ونادراً ما كان هؤلاء ينجون من العقاب، ويمكن ذكر عدد من القضايا التي تم القبض فيها على مجرمين، رغم فرار بعض هؤلاء إلى خارج البلاد[٢٥].

اقامة قصر بيت الدين

وبانتزاع الأمير من الاقطاعيين امتياز النظر في الدعاوى العامة، وبتمكنه من ضرب القوى المحلية البارزة في جبل الدروز، تطلع إلى اقامة نصب تذكاري لسلطته وعظمته، فسراي دير القمر لم تعد مناسبة لتكون مقرا للحكومة، فهو مهدد فيها بكل لحظة بقيام ال نكد باضطرابات قد تطيح به. فتطلع إلى الانتقال إلى مقر جديد للحكم واختار قرية بيت الدين(**) لتحقيق هذه الغاية، فهي ذات موقع جميل تعلو عن سطح البحر نحو مئتين وخمسين مترا، كما أنها المكان الأول الذي نزل به عند قدومه إلى الشوف من غزير، ويعتبرها فأل خير للمجد والعظمة والخيرات والنعم التي ينعم بها[٢٦].

وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت بيت الدين مجرد جبل أجرد، لا يقطنه الناس وإنما يرتادونه لقنص الحجل، وكان قد أقام عليه بعض اتقياء الدروز خلوة لمجالسهم الدينية[٢٧]. وبعد زواج الأمير بشير من الست شمس شهاب أرملة ملتزم حاصبيا، اشترى بجزء من مالها قمة من الجبل تعلو حوالي ثلاثين مترا عن الأرض المحيطة بها، وتشرف على البحر من الجهة الغربية وشرع يبني عليها بيتا للسكن[٢٨].

ولم تشر المصادر إلى السنة التي بوشر بها في البناء وقد تكون فور زواجه[٢٩]، ويعتقد بأن زوجة الأمير كانت تقطن في الأقبية وانجبت فيها أبناءه الثلاثة، بينما كان زوجها يقيم في سراي دير القمر[٣٠]. وبعد شراء الجبل شجع الأمير بشير أصحاب الأملاك، والتي كانت كلها قاحلة جرداء إلا من بعض النباتات البرية، بمكافأة جزيلة لمن يقوم بحراثتها وغرسها بالنصوب. فأقيمت بالمناطق المنحدرة مصاطب غطيت بالتراب، ووزعت فيها النصوب التي تتلاءم مع المناخ من زيتون وكرمة وتوت وتين. وبالتدريج تغيرت طبيعة المنطقة، وتحولت الأرض البور إلى جنائن خضراء في غاية الجمال[٣١].

وفي عام ١٨٠٧ باشر العمل باقامة القصر[٣٢]، فأتي بالبنائين ليس فقط من مختلف القرى اللبنانية ولكن كذلك من حلب ودمشق[٣٣] واستنبول وايطاليا[٣٤]. واستخدم في بناء القصر أو «سراي الحكم» والمقاصف، مواد محلية من إنتاج الجبل، سواء من حجارة وبلاط وأخشاب وحديد[٣٥].

وحين أشرف البناء على الانتهاء شعر الأمير



□ صالون الاستقبال في قصر بيت الدين.

بشير، أن اكتمال السراي يتطلب امرا ضروريا للغاية، إذا لم يسع لتأمينه يكون كل ما تكلفه من نفقات مسرفة قد ذهب هباء. فالماء الموجودة لا تكفي لمن سيسكن السراي، من حاشية وجند وموظفين وأتباع ومن يفد إليه من زوار وأصحاب حاجة، بعد أن تنقل إليه دوائر الحكم. ورغم بعد منابع المياه عنه فقد سعى لتأمينها(٣٦).

فعلى بعد ثلاث مراحل من بيت الدين يوجد نبع الصفا بالقرب من عين زحلتا، وتنحدر مياهه الغزيرة لتصب بالقرب من سهول صيدا ولكي يؤمن الاستفادة من هذه الهبة الطبيعية خطرت له فكرة جريئة لكنها غير عملية، فقد سبق لمياه الباروك أن مدت إلى قصر المختارة، وامنت حاجته من المياه، فلماذا لا يقوم الصفا بعمل مماثل في بيت الدين(٣٧).

وفي عام ١٨١٢ باشر في هذا العمل واستدعى كل رعاياه في جبل الدروز لتنفيذه، وصدرت أوامر لكل مقاطعة بتزويد عدد معين من العمال في وقت معين، وحمل المقاطعجي مسؤولية حضورهم في الوقت المطلوب والمكان المحدد. وكان كل فرد مجبرا أن يساهم في يومي عمل مجاني في السنة، واشتغل في انجاز هذا المشروع حوالي ثمانين الف رجل، دون أن يتكلف الأمير الحاكم أية نفقات من مصادره كأجور لهم(٣٨).

وبالرغم من السخرة التي فرضها الأمير بشير على كل رعاياه، فقد احتاج إلى أكثر من مئتي الف قرش، استدان بعضها وفرض البعض الآخر بمثابة ضريبة، على الأمراء والمشايخ والأعيان والأحبار والرهبانيات وكل من وجده قادرا على الدفع، وخلال فترة زمنية ــ لم تتفق المصادر(*) على عددها ــ من العمل الشاق، أتم المهندسون حفر قناة في منعطف الجبل، وأوصلوا المياه إلى بيت الدين(٣٩). وامتدح هذا العمل المعلم بطرس(٤٠) كرامة بقوله:

صاح قد وافى الصفا يروي الظما
بشراب كوثري العَبِسِ
وافاض الشهد في روض الحمى
لجلا الغمِّ وبرء الأنفسِ


وفي عام ١٨١٤ تم انجاز بناء السراي فاتخذت الطراز التركي الممتزج بالطراز الايطالي وضمت سراي الأمير وثلاثة مقاصف لأبنائه، وتألفت السراي من مدخل واربعة أجنحة. وتميز المدخل بفخامته ويبلغ علوه خمسة عشر مترا، كله مبني من الرخام الوطني والأجنبي الفاخر، ومزين بنقوش في غاية الجمال، تمثل اشكالا هندسية لنباتات وتصاوير شتى. تعلوها الطغراء(***) السلطانية المحلاة بالذهب(٤١).

وتعتبر الدار الكبيرة المعدة لجلوس الأمير، اهم أجنحة السراي وتعرف باسم «قاعة العامود»، لوجود عامود من الرخام في وسطها(٤٢)، وطول هذه الدار حوالي أربعين مترا وبعرض مماثل. وفي صحن هذه الدار بركة بيضاوية الشكل، طولها نحو خمسة أمتار وعرضها من الوسط نحو مترين ونصف المتر وعمقها متر واحد، يصب فيها الماء من أفواه اربعة ميازيب من النحاس متقابلة على شكل أسود. والدار مبلطة بالبلاط الجميل النظيف المتخذ من مقالع الجبل، وزين سقفها بنقوش من الذهب، وكسيت الجدران بالديباج بينها كتابات بديعة تشتمل على آيات قرآنية(٤٣).

وفي صدر الدار إلى شمال الداخل قاعة كبيرة شاهقة، جمعت بين الزخرفة واتقان الصنعة، وبين النقوش الجميلة والبناء الفخم. ويبلغ ارتفاع سقفها نحو ستة أمتار، وفوق قوس الباب يرى الجالس في صدر القاعة مقابله أبياتا شعرية(٤٤).

ويلي قاعة العامود في الفخامة جناح الحريم، ويرقى إليه بدرجات من الرخام، مع درابزين من النحاس المموه بالذهب المشبك من كل الجهات. ويتميز هذا الجناح باتساعه واختراق الشمس والهواء له من كل الجهات، ويشتمل عدة دور متداخلة على غرف للشتاء وأخرى للصيف. وفي وسط الدار بركة بيضاوية الشكل في غاية الجمال، طولها ثماني أذرع بعرض أربع أذرع عند الوسط ثم تضيق باستدارة، وفي وسطها نافورة يرتفع ماؤها بالفضاء إلى علو ثلاثين ذراعاً(٤٥).

ويتصل جناح الأمير بآخر مخصص للضيوف الغرباء ويشتمل على قاعات وغرف واسعة، وفي وسطها بركة مستديرة قطرها متر ونصف المتر وعمقها متر، وهي منحوتة من حجر واحد وفي وسطها نافورة. وللدار مستراحان متقنان في كل



حمامات قصر بيت الدين

منهما ميزاب متين من الحجر الصلد، تجري فيه المياه ليلا ونهارا ويجري في كل منهما من الماء مقدار فم القربة. في حين خصص للضيوف الأخصاء من أقاربه أو الذين ينحدرون من بيوتات الجبل السبع، جناحا خاصا في الجهة الغربية من السراي، تميز بأنه أكبر وأكثر اتقانا من ذلك المخصص للغرباء[٤٦].

وأقام الأمير في داخل السراي حماما فخما حوى كل أسباب الراحة والزينة، ويضم عدة أجران من الرخام الأبيض الجميل يدخل إليه الماء بغزارة. ويشتمل على نحو عشرين غرفة كل واحدة مستقلة عن الأخرى، وفي كل غرفة جرنان واحد للماء البارد وآخر للماء الساخن، يصب فيها الماء من أفواه تماثيل من النحاس. وللحمام مكان واسع للاستراحة متقن الصنع، قام ببنائه وهندسته أمهر صناع دمشق فأفرغوا فيه كل ما اكتسبوه من المهارة[٤٧].

وككل قصور زعماء العائلات الاقطاعية في المرتفعات الجبلية اللبنانية، حرص الأمير بشير ان يقيم أمام هذه السراي الضخمة ميدانا كبيرا، يعرض فيه سلطته ويستقبل فيه أصدقاءه وضيوفه وكبار الشخصيات الوافدة إلى قصره، حيث يتم إظهار مقامه ومكانته الاجتماعية. وكان يبلغ طول ميدان بيت الدين حوالي مئة وخمسين مترا وبعرض ستين مترا، وقد أنفق الأمير في تسطيحه وجعل أرضه جاسية نفقات باهظة[٤٨]. ويتم الدخول إلى هذا الميدان من بوابة كبيرة، في طريق عرضها نحو ستة أمتار معقود فوقها بالحجارة، وعلى جانبي الطريق أقبية كبيرة واسعة كان يقيم فيها حرس الأمير. وفوق هذا البناء دار كبيرة واسعة لمماليكه وإلى جانبها دار أخرى ينزل بها الضيوف العاديون، واتخذ من أحد الأقبية مخزنا للبارود[٤٩].

كما ابتنى الأمير على الجبل المطل على السراي، ثلاثة قصور سميت مقاصف لكل من أولاده الثلاثة (خليل وأمين وسعود)، وهذه المقاصف على مقربة من بعضها، بحيث لا يفصل الواحد عن الآخر كيلومتر، واشتمل كل منها على نحو خمسين مسكنا عدا الأقبية التي تحتها، وأدخل الماء إلى كل منها بصورة بديعة. ولكل من هذه المقاصف الثلاثة دار سماوية، طولها نحو خمسين مترا وعرضها كذلك، وحديقة تحتوي على ما لا يعد من أصناف الشجر المثمر وغير المثمر المغروس بكل اعتناء[٥٠].

اما بالنسبة لتكاليف هذه الأبنية فقد أشار جرجس[٥١] صفا، نقلا عن أحد العاملين في خدمة الأمير ــ كان أطلع على نفقات هذه القصور ــ بأنها بلغت ستة آلاف وخمسماية كيس. وبأن أجرة عامل البناء كانت في اليوم ثلاثين بارة ثم صارت قرشا ونصف، في حين كانت أجرة المعلم في اليوم من خمسة قروش إلى سبعة، وكلهم يأكلون ويشربون على نفقة الأمير.

الهوامش

(١) حيدر الشهابي. الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان. مخ. نشره أسد رستم وفؤاد افرام البستاني تحت عنوان «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. ٣ أجزاء، بيروت: ١٩٦٩. انظر ج ٢ ص ٥٢٣. هنري غيز. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن. تر. مارون عبود، جزءان، منشورات دار المكشوف، بيروت: ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠. انظر ج ٢ ص ١٣٢ ــ ١٣٣.

(٢) المكان نفسه: هنري غيز. مصدر سابق، ج ٢ ص ١٣٢ ــ ١٣٤.

(٣) المكان نفسه، هنري غيز، مصدر سابق؛ ج ٢ ص ١٣٢ ــ ١٣٤.

(٤) هنري غيز. مصدر سابق، ج ١ ص ٢٤١ ــ ٢٤٣.

(٥) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (B.E1) بيروت، محفظة رقم ٦.

(٦) حيدر الشهابي. مصدر سابق، ج ٣ ص (٥٩٠ ــ ٥٩١).

(٧) الغرر الحسان. مصدر سابق، ج ٣ ص ٥٩٠.

(٨) أحمد البديري الحلاق. حوادث دمشق اليومية، مخ. حققه د. أحمد عزت عبدالكريم، مطبعة لجنة البيان العربي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٥٩، انظر ص ٩١.

(٩) المرادي. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، (٢١٤ ــ ٢١٥).

(١٠) أحمد البديري الحلاق. مصدر سابق، انظر هامش ص ٧٣.

(١١) حوادث دمشق اليومية، ص ٩١.

(١٢) حيدر الشهابي: مصدر سابق، ج ٣ ص (٥٧٦ ــ ٥٧٧) و ٦٢٩.

(١٣) المصدر نفسه. ج ٣ ص ٦٥٠.

(١٤) المصدر نفسه. ج ٣ ص ٥٨٠.

(١٥) Churchill, Henry Spencer., Mount Lebanon..., London, Saunders and otley, 1853. 3 vols. see v. 3, p. 272.

(١٦) Loc.cit.

(١٧) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، جزءان.

(١٨) Churchill. op.cit. v. 3, p. 272.

(١٩) سميليا نسكايا، ا.، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر. تع.، عدنان جاموس، راجعه وقدم له سالم يوسف. دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٢. انظر ص ٣٣.
Perrier, Ferdinand., La Syrie sous Le Gouvernement de Mehemet-Ali Jusqu'en 1840. Paris, 1842. Voir p. 311; Aouad, Ibrahim., Le droit privé des Maronites au temps des Emirs Chehab 1697-1841, Paris, 1933. Voir p. 121.

(٢٠) Churchill. op.cit. v. 3, p. 259.

(٢١) Aouad. op.cit. p. 121; Perrier. op.cit. p. 311.

(٢٢) Churchill. op.cit. v. 3, p. 260.

(٢٣) لمزيد من المعلومات انظر .(273-274) Ibid. pp.

(٢٤) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة Turquie (M. et D.) مجلد رقم ١٢٢ وثيقة رقم ٢٣ صادرة عن بيروت بتاريخ ١٠/٢/١٨٣٣.

(٢٥) لمزيد من المعلومات انظر Churchill. op.cit. V. 3, p. 263.

(٢٦) لحد خاطر. بين أمير وراهب. الكسليك، ١٩٧٠. انظر ص ٩٤.

(٢٧) يوسف ابراهيم يزبك. (كيف ولماذا بني قصر بيت الدين) **مجلة اوراق لبنانية** م ١ ص (٣٩٦ ــ ٣٩٧)؛ عيسى اسكندر المعلوف. الأمير بشير الكبير المعروف بالمالطي، زحلة، ١٩١٤. انظر ص ٤٤.

(٢٨) المرجع نفسه. ص ٣٩٧.

(٢٩) المكان نفسه.

(٣٠) المرجع نفسه. ص (٣٩٦ ــ ٣٩٧).

(٣١) Churchill. op.cit. v. 3, pp. (263-264).

(٣٢) Chebli, Michel., Une Histoire du Liban à l'époque des Emirs, 1635-1841. Beyrout, 1955. voir p. 242.

(٣٣) Churchill. op.cit. v. 3, p. 265.

(٣٤) لحد خاطر. مرجع سابق. ص ١٧٥.

(٣٥) جرجس صفا. (سراي الأمير بشير في بتدين) مجلة **الكلية** م ١٨ ص ٤٠ و ١١٥، سنة ١٩٣١ ــ ١٩٣٢؛ جوزف نعمة. صفحات من لبنان. جزءان، دير القمر، ١٩٧٧. انظر ج ١ ص ٦٤.

(٣٦) لمزيد من المعلومات راجع: المرجع نفسه. ص (١٢٣ ــ ١٢٤)؛
Churchill. op.cit. V. 3, pp. (266-269).

(٣٧) Ibid. pp. (267-268).

(٣٨) جرجس صفا. مرجع سابق، **الكلية** م ١٨ ص (١٢٣ ــ ١٢٤).

(٣٩) Burckhardt, John Lewis., Travels in Syria and the Hogy Land. London, 1822. See p. 194.

(٤٠) سجع الحمامة او ديوان المعلم بطرس كرامة. مخ، نشره سليم ناصيف، بيروت ١٨٩٨، ص ١٣٧.

(٤١) اسماعيل حقي. لبنان مباحث علمية واجتماعية. جزءان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠. انظر ج ٢ ص ٦١٨.

(٤٢) جرجس صفا. مرجع سابق. **الكلية** م ١٨ ص (٤٠ ــ ٤١).

(٤٣) اسماعيل حقي. مرجع سابق. ج ٢ ص ٦١٨.

(٤٤) جرجس صفا. مرجع سابق، **الكلية** م ١٨ ص (٤٠ ــ ٤١).

(٤٥) المرجع نفسه. (ص ٣٩ ــ ٤٠).

(٤٦) المرجع نفسه. ص (١١٦ ــ ١١٧).

(٤٧) المكان نفسه.

(٤٨) المرجع نفسه. ص ١١٧؛
Churchill. op.cit. v. 3, p. 265.

(٤٩) المكان نفسه.

(٥٠) المرجع نفسه. ص (١١٢ ــ ١١٣).

(٥١) (سراي الأمير بشير) **الكلية** م ١٨ ص ١١٤.

(*) تضاربت الأقوال في تفسير كلمة بيت الدين، ففي حين يشير يوسف ابراهيم يزبك أن الكلمة من السريانية ومعناها بيت الحكم أو بيت الدين، وبأنها كانت في الأصل مدينة عريقة ولكن لا يعرف عنها شيء قبل أواخر القرن الثامن عشر، انظر (كيف ولماذا بني قصر بيت الدين) **مجلة اوراق لبنانية** م ١ ص ٣٩٦. أما جرجس صفا فيرى أن الكلمة مشتقة من «بيت ديانا» وهي آلهة الصيد عند السكان الأقدمين، بدليل أنه يوجد على بعد ساعة من بيت الدين صورة للصيد منقوشة على صخرة هناك لا تزال ماثلة الآن للعيان، انظر (سراي الأمير بشير في بيت الدين) مجلة **الكلية** م ١٨ ص ٣١.

(**) أشار جرجس صفا بأن شق القناة استغرق نحو ست سنوات.

(***) الطغراء شعار ورثه العثمانيون عن السلاجقة وهو عبارة عن نقش متداخل معقد باسم كل سلطان، كان يستخدم كتوقيع للسلاطين العثمانيين يوحي بالعظمة ويصعب تقليده، ثم تحولت تآليفا فنيا وانتشرت في كل أنحاء العالم الاسلامي والعربي.

الصور من مجموعة وزارة السياحة اللبنانية

معابر الطب العربي إلى الغرب

د. محمود الحاج قاسم محمد



□ د. محمود الحاج قاسم محمد: «عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب».

«فتح العرب تحت راية (الاسلام) نصف العالم في مدة قرن واحد ثم كان أعظم همهم... أن يضموا إلى عظمة الفتح عظمة العلم فلم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب كما يقول لوكليرك قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا... كان في بغداد نحو مئة مترجم ينقلون كتب اليونان إلى العربية والسريانية وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في اسبانيا مركزا لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية»(١).

فهكذا اقتبسوا علوم أمم سبقتهم وأخرى عاصرتهم مستفيدين منها وبعد أن هضموها أضافوا إليها الكثير من اكتشافاتهم وتجاربهم العلمية الخاصة ثم جعلوا بقية الأمم تستفيد منهم ومن علومهم بنفس الطريقة التي استفادوا هم فيها من الأمم الأخرى ونجيز لأنفسنا القول بأن بعض العلوم والمعارف لولا اهتمام العرب والمسلمين بنقلها وشرحها وتطويرها لضاعت وعفا عليها الزمن.

لم يكن في العالم المتحضر فيما بين منتصف القرن الثامن والقرن الخامس عشر علم طبي يعتد به إلا ما كان منه عند العرب والمسلمين وما عند غيرهم لم يكن إلا نقلا عنهم، ولم يشك احد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب والمسلمين في الطب علما وعملا وتنظيما هذه حقيقة تاريخية هي الأخرى متفق عليها.

في هذا الوقت بالذات كانت أوروبا تتخبط في دياجير الجهل والظلام وتعسف رجال الدين ضد العلم والعلماء خاصة بعد انهيار الحضارة الاغريقية الرومانية نتيجة للغزوات البربرية التي قامت بها القبائل الشمالية حيث قضت عليها قضاء مبرما بعد أن كانت هذه الحضارة هي العلامة المميزة لأوروبا، وما عندهم من العلم والثقافة كان محصورا في مكتبات أكثرها في الأديرة وبعضا منها في قصور حكام الاقطاع وجل ما كانت تحويه هذه المكتبات من الكتب كانت دينية للهداية وتواريخ حياة القديسين، وحظ الطب منها قليل جدا، لا يكاد يذكر وهذا القليل لم يكن في احسن الأحوال علما يعتد به وإنما كان عبارة عن معلومات بدائية متوازنة جامدة لدى بعض الرهبان الذين كانوا يتولون معالجة المرضى.

«ودامت حال الطب على هذا النحو حتى حرم جمع أساقفة تلرمونت في سنة ١١٣٠م ثم لطران في سنة ١١٣٩م وتورني سنة ١١٦٣م على القساوة مزاولة الطب، فأصبحت هذه المهنة حرفة علمانية. وقد قارن هذا التغيير ظهور أول جامعات على وجه التقريب فانحدر الطب إلى اتجاهات جديدة رسمها إلى حد كبير ما اكتسبه من الشرق»(٢).

أما الطرق التي سارت فيها العلوم العربية ومنها الطب إلى الغرب فكانت:

١ ـ طريق اسبانيا (الاندلس):

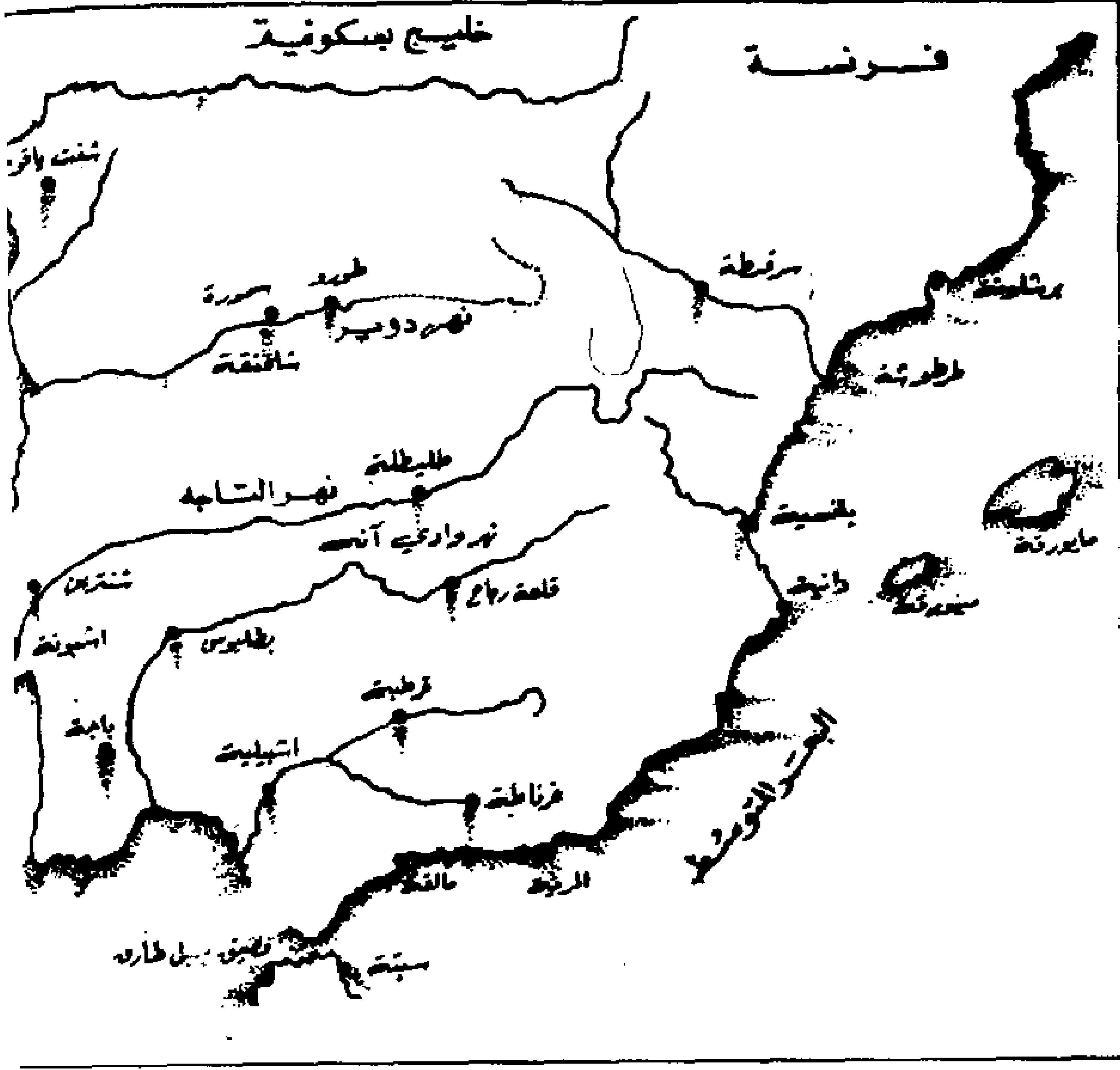
لقد استمر تواجد العرب المسلمين في الأندلس مدة ثمانية قرون (٩٢ ـ ٨٩٧هـ/ ٧١١ ـ ١٤٩٢م). وقد حملوا طيلة هذه القرون مشعل العلم والحضارة، واعتمدت جميع مراكز التعليم في أوروبا على طليطلة واشبيلية وقرطبة حيث كان المستعربون وطلاب العلوم يشدون الرحال إليها وفي عام ٩٢٥ أرسل أوتو الكبير ملك الالمان راهبا من اللورين إلى قرطبة فدرس العلوم والثقافة العربية وحمل معه المخطوطات العلمية العربية وبنفس الوقت أدخلت العلوم العربية إلى الجزر البريطانية واشهر هؤلاء جربرت أو البابا سلفيستر الثاني المتوفي سنة ١٠٠٢م حيث كان من أوائل المهتمين بالثقافة العربية وهو الذي أدخل الأرقام العربية إلى أوروبا بدل الأرقام الرومانية.

واستمرت طليطلة محافظة على مركزها العلمي حتى بعد غزو الفونسو لها واحتلالها حيث أنشأ فيها المطران ريموند عام ١١٢٠ حركة ومدرسة واسعة للترجمة واستدعى إليها علماء من مختلف الأديان ليقوموا بنقل الكتب والعلوم العربية وترجمتها «كما كانت بغداد فيما سبق مركز نقل الثقافة اليونانية إلى العرب. ولكن شتان بين الاثنين. فإن المعربين العرب كانوا على جانب عظيم من النزاهة في النقل والمقدرة في العربية واليونانية معا ومن التضلع في الموضوع الذي يترجمونه. كما كانوا يتمتعون بعناية الحكام ومعونتهم المادية والمعنوية. بينما كان المترجمون الأوروبيون الذين نقلوا العلوم العربية إلى اللاتينية قليلي المعرفة باللغة التي ينقلون عنها وفي الموضوع الذي ينقلونه وبعضهم كانت تنقصه النزاهة».

«وقد أمها العلماء من أوروبا وانكلترا ومنهم جيرارد كريمونا وميشال سكوت واديلارد من بات وروبرت من سشتر وحنا الاشبيلي وهرمان الدلماسي وخلافهم. ومن المترجمين أيضا جند يسالفي (رومونيكو كنزالس) وبلاطون التريبوري ومرقس الطليطلي والباموس وجيرارد سابيوتا وغيرهم»(٤).

ومن مدرسة اشبيلية أيضا (١٢٠٤م) تخرج كبار الفلاسفة الغربيين وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة والمعاملات حتى عام ١٥٨٠م. واشهر المترجمين من العربية إلى اللاتينية كان جيرارد الكريموني (المتوفي سنة ١١٨٧م الانكليزي اللسان والمنشأ والمتوطن في اسبانيا) حيث قام بترجمة أكثر من سبعين مؤلفا عربيا وكان نزيها وذا كفاءة عالية في الترجمة وحسن الاختيار للكتب التي ترجمها ومن ذلك القسم الجراحي من كتاب التصريف للزهراوي وكتاب المنصوري للرازي والقانون لابن سينا. وكان موسوعيا في الترجمة حيث قام أيضا بترجمة كتب في علوم أخرى غير الطب كالفلك والفلسفة والرياضيات والأدب.

ومن بين المترجمين حنا الاشبيلي الذي ترجم بعض تآليف ابن سينا وقسطا بن لوقا والفرغاني



□ خارطة اسبانيا (الاندلس).

ودومنكس غند سالنوس بن داوود العبري وجند يسالفيني ترجم كليات ابن رشد وأرجوزة ابن سينا وتعليق ابن رشد عليها. كما ترجم كتابي النفس والشفاء لابن سينا. وهومانوس الدلماسي ترجم في تولوز كثيرا من كتب الطب والفلك. وفي تاريون ترجم إبراهيم بن عزرا مؤلفات البيروني.

وكان ادرلار الباني أول المستشرقين الانكليز الذي ترجم للاتينية عام ١١٢٦ فهارس المجريطي في الفلك والرياضيات والذي كان لكتاباته أثر فعال على روجر باكون وعلى تأسيس الطريقة العلمية التي نسبت لباكون ويقال بأن أحد الأساتذة العرب ذهب إلى انكلترا من اسبانيا لالقاء محاضرات في الطب.

ولا بد من ذكر شيء عن الراهب فيتوس الذي كان له الأثر الأكبر في نقل آراء ابن النفيس حول الدورة الدموية الرئوية.

ولد سرفيتوس في اسبانيا سنة ١٥١١م وقرأ في سرقسطة في اسبانيا ثم تولوز في فرنسا وبازل في سويسرا ثم ذهب إلى باريس وعمل مع فيزاليوس في التشريح وفي سنة ١٥٥٢ الف كتابا ضخما اسمه بالعربية «إعادة المسيحية» حكم عليه بالموت حرقا بسببه وفي هذا المؤلف وصف مرور الدم من الشريان الرئوي إلى الوريد الرئوي عن طريق الرئة.

٢ ـ طريق فرنسا:

ولقد كانت كاطولينا أيضا مركزا آخر لاشعاع العلم العربـي وهي تشكل جزءا كبيرا من فرنسا الحالية وتعتبر مونبليه إحدى مدنها الساحلية التي كانت في البداية عبارة عن محطة صغيرة لقوافل المسافرين بين ايطاليا والاندلس ثم ارتفع شأنها في القرن الحادي عشر فشـرع العلماء العرب أو المتحلين بالثقافة العربية يتدفقون إليها حيث وضعوا فيها أسسا لمعهد علمي عـظيم وبذلك تحولت هذه القرية الصغيرة إلى مركز كبير للتجارة والعلوم والثقافة. ولما بدأت شمس المدنية. العربية بالغروب عن الأندلس في نهاية القرن الثـاني عشر بسبب التعصب الشـديـد الذي اتصف به ملوك الاسبان هجر عدد كبير من العلماء العرب الأندلس قاصدين مونبليه وبذلك كان لهم الفضل في رقيها، وفي سنة ١٢٢٠م قام الكاردينال كونراد بتأسيس مدرسـة مونبلييـه ونظمها عـلى شبه مـدارس الطب الاسلاميـة: واحتل الطب الاسلامي مركز الصدارة في برنامج التدريس فيها طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر، فكان الأساتذة يشرحون كتب ابن سينا والرازي والزهراوي.

ويعطينا كتاب الدروس والمفاتيح فكرة دقيقة عن برنامج مدرسة مونبلييه من سنة (١٤٨٩ إلى سنة ١٥٠٠م). واللائحة التالية تبين عدد الكتب التي كانت تدرس كل عام وأهمية المكانة التي كان يمثلها ابن سينا في تلك الأيام(٥).

والشخصيات التي خدمت في مونبلييه جيرارد كريموني، والامينجو بلازن، زبيارودي كابستان، وجان حكيم، وأرنولد فيلانوف الذي ساح طلبا للعلوم العربية والذي يعتبـر أخصب المؤلفـين إنتاجا بالنسبة لزمانه وأكثرهم تأثـرا بالآراء الطبية العربية ومن مؤلفاته القانون الصحي.

ويقال بأن مدرسة مـونبلييه في ذلك الوقت أصبحت مركزا رئيسيا لدراسة الطب وتميزت على مدرسة باريس بكثرة ما فيها من المخطوطات الطبية المهمة وبالأخص العربية منها.

وقد حصل في باريس ما حصل في مونبلييه وساليرنو من قبل، فكان تنظيم وبرنامج تدريس المـدرسة نسخـة من السابقتين، وقصة لويس الحادي عشر مع كتاب الحاوي للرازي تشير إلى قيمة هذا الكتاب في ذلك العصر.

فقـد أراد هذا الملك أن يضـع نسخة من الحاوي في مكتبته، وطلب من مكتبة الجامعـة إعارته إياه لنسخه. وبعد مناقشات عديدة بين الأساتذة قـررت الجامعـة إعارة الكتـاب بعد الحصول على كفالة مالية، مشكلة من (١٢ طاقما فضيا للمائدة ومئة ريال من ذهب).

٣ ـ طريق صقلية وايطاليا:

كانت صقلية تعيش التأخر والجهل قبل أن يفتحها العرب المسلمون وقد تم فتحها أيام بني الأغلب في أوائل القرن الثالث الهجري حوالي سنة (٨٧٧م) بقيادة أسد بن الفرات. ومن ثم وبعد أن مدنوها أصبحت من أهم المراكز لنشر

	١٤٨٩	١٤٩٠	١٤٩١	١٤٩٢	١٤٩٣	١٤٩٤	١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٧	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠
ابن سينا	٤	٣	٤	٤	٦	٥	٥	٤	٦	٥	٤	٣
جالينوس	٢	٠	٢	٠	٣	٢	٤	٢	٣	٢	١	٤
ابقراط	١	٠	٠	١	٢	١	١	٠	١	١	١	١

عدد الكتب في برنامج مدرسة مونبلييه

وقد بقي الطب الاسلامي يحتل مركزا مهما في تاريخ الدروس حتى منتصف القرن السادس عشر، وكان الأساتذة المستعربون (وهم الذين يدرسون كتب الأطباء العرب دون غيرهم) كثرة بالنسبة لبقيـة الأساتـذة، ومن بين الأسـاتذة الثقافة العربية الاسلامية في أوروبا.

فأنشئوا في باليرمو العاصمة أول مدرسـة للطب في أوروبا ومنها انتشر الطب إلى ايطاليا وكدليل على التأثير الفاعل للثقافة العربيـة في ايطاليا في تلك الحقبة إنشاء مدرسة لتعليم اللغة

العربية في جنوا وإدخال كثير من الألفاظ والاصطلاحات الغربية إلى اللغة الايطالية.

وكان تسامح الحكام المسلمين في صقلية كعادتهم في كل مكان حلوا فيه عاملا مباشرا في ازدهار الثقافة والعلوم والفنون فيها حيث شملت لغات العالم العلمية الثلاثة في ذلك الزمن وهي اللاتينية واليونانية والعربية وتم نقل المؤلفات من لغة إلى أخرى وبذلك أصبحت صقلية خير نموذج لامتزاج الثقافات وصاحبة مدنية لاتينية يونانية عربية فريدة.

نبغ كثير من المترجمين في صقلية منهم فرج بن سليم اليهودي المعروف عند الغرب باسم «فاراجوت» أو «فراريوس» الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي وكتاب تقويم الأبدان لابن جزلة البغدادي. وألف سكوت أكثر كتبه في صقلية.

ونبغ في صقلية كثير من الأعلام العرب منهم الادريسي الجغرافي العربي المشهور الذي رسم الكرة السماوية وخريطة العالم لأول مرة. أما أشهر من نبغ في الطب من العرب فكان ابن جلجل الصقلي صاحب كتاب تاريخ الأطباء والحكماء. وأبو سعيد بن إبراهيم المغربي الصقلي مؤلف كتاب المنجح في التداوي وأحمد بن عبدالسلام الشريف الصقلي صاحب كتاب الأطباء في الأمراض من الفرق إلى القدم.

لم يتوقف الزحف العربي الاسلامي في حدود جزيرة صقلية وما جاورها، بل اتجه لفتح ايطاليا نفسها فقاموا بغزوات ناجحة شملت وسط ايطاليا وشمالها بما فيها روما. وقد ساعدت هذه الفتوحات على نشر الثقافة والعلوم العربية وعلى تقوية الصلات العلمية مع الثقافة اللاتينية لدى الطليان فنتج عن ذلك التقارب حركة علمية نشطة دفعت بأوروبا سراعا وبشكل أساسي في طريق الصحوة العلمية والنهضة الفكرية.

وإن مركز الاشعاع الطبي في جنوب ايطاليا كان في مدينة ساليرنو حيث ازدهر الطب العربي على يد أساتذة من العرب وغيرهم وفي أواخر القرن الحادي عشر وبفضل عدد من المترجمين الأكفاء أمست هذه المدرسة معينا لا ينضب للثقافة والعلوم العربية ودعامة صلدة للنهضة



□ الطبيب والفيلسوف العربي ابن سينا

العلمية الأوروبية وزعيمة مدارس الطب في أوروبا.

كان على رأس هؤلاء المترجمين قسطنطين الافريقي (١٠٢٠ ــ ١٠٨٧م) الذي ولد في قرطاجة في تونس وساح في البلاد العربية حيث اتقن اللغة العربية بجانب معرفته للغة اللاتينية.

وانتقل إلى ايطاليا حيث اتصل بأمير مدينة ساليرنو جيزوفلو وأخيه الطبيب. ثم أمضى معظم حياته في دير مونت كاسينوا حيث قام بترجمة الكتب العربية وبالتأليف. عمل بعض الوقت في مدرسة ساليرنو الطبية، فأثر فيها تأثيرا بالغا بترجمته عددا من الكتب الطبية العربية للاتينية، وإدخاله التعليم الطبي العربي فيها. كما أنه كان يكتب أيضا في (القانون الصحي) الذي كان يحرره عدد من أساتذة مدرسة ساليرنو. ويذهب

البعض إلى أنه كان مسلما ولكنه كتم دينه خوفا من الاضطهاد الذي كان سائدا ضد الاسلام والمدنية العربية خلال الحروب الصليبية.

من الكتب التي قام بترجمتها كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي ابن العباس المجوسي، وكتب إسحق بن سليمان الاسرائيلي في البول والحميات، وكتب جالينوس وابقراط المعرّبة سابقا إلى اللاتينية. ويأخذ عليه البعض عدم نزاهته حيث كان ينقل من الكتب العربية وينسبها لنفسه وعلى الرغم من ذلك فإن أثر كتبه بقي لفترة طويلة من الزمن في أوروبا مما حدى بالكثيرين تسميته برائد الطب العربي في أوروبا. ومن أشهر التراجمة في ساليرنو عدا قسطنطين الافريقي كان «فرج بن سالم» الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي ومؤلفات حنين بن إسحق إلى اللاتينية.

وكان لتلاميذ مدرسة ساليرنو أثر بالغ في نقل العلم إلى سائر جامعات أوروبا، حيث ذهب قسم منهم إلى مدرسة مونبلييه وآخرين إلى نابلي، وذهب بيير جيل دي كوربي بعد ذهابه إلى نابلي إلى جامعة باريس. واستمرت هذه المدرسة محتفظة بهذه المكانة العلمية حتى سقوط مدينة ساليرنوا في يد هنري السادس، عندها تدهورت الحركة العلمية فيها واضمحلت مدرسة ساليرنوا نهائيا في سنة ١٤٠٠م.

ثم سارت أغلب الجامعات الأوروبية مثل باليرمو ومونبلييه وبدوا وباريس وأوكسفورد بنفس الطريق معتمدة العلوم العربية أساسا في برامجها التدريسية، حتى أن الطب العربي ساد تعليم الطب في أوروبا طيلة القرون الوسطى.

٤ ــ الحروب الصليبية:

استمرت هذه الحروب بين (١٠٩٧ ــ ١٢٧٢م). تعرف الغربيون خلالها على العلوم العربية وتعلموا اللغة العربية، وبرز منهم علماء أحبوا هذه اللغة وتتلمذوا على الأساتذة العرب، منهم ادلارد بات الذي اشتهر بنشاطه العلمي بين (١١١٥ ــ ١١٤٢م)، حيث عاش في الشرق لسنوات عديدة وألف كتبا عديدة فيها الكثير من الآراء العلمية العربية، كما قام بترجمة عدد آخر من الكتب العربية إلى اللاتينية.



□ الطبيب العربي: ابن النفيس.

وهناك مترجم آخر نشط في تلك الفترة وهو ستيفانو دوبيزا الذي عاش في انطاكية نحو سنة ١١٢٧م وقام بإعادة ترجمة كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس المجوسي.

وكان في طليعة ملوك الغرب الذين استفادوا من العلوم العربية (فردريك الثاني) امبراطور المانيا الذي عقد اتفاقية مع الملك الكامل الأيوبي خلال الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ ــ ١٢١٩م) حيث اتصل بنوابغ علماء العرب، فقرب إليه عبدالحق بن إبراهيم بن نصر فيلسوف الأندلس حينذاك، كما درس وترجم الكثير من الذخائر العربية وأهدى الكثير من الكتب الطبية والفلسفية إلى جامعة بولونيا. وبعث بمسائل رياضية وفلسفية إلى الملك الكامل وقد نجح في حلها عالم مصري وآخر من الموصل في العراق. وكان له مترجم ومنجم يسمى (ثادري تيودور) وهو مسيحي من انطاكية بالشام يقوم بترجمة الكتب العربية. وكان يعمل عنده أيضا (ميخائيل سكوت) حيث وضع له نقلا عن العربية خلاصة لاتينية لمؤلفات أرسطو مع شرح ابن سينا وسماه «ملخص ابن سينا». وساهم المرضى والأطباء من المحاربين العائدين أيضا في نقل كثير من الوصفات الطبية العربية إلى الغرب وكان المحط الرئيسي لهم لدى العودة مدينة ساليرنو حيث أفادوا في دفع الحركة الطبية في مدرستها.

٥ ــ الرحلات:

يعود فضل انتقال النفوذ العلمي العربي من الشرق إلى الغرب عن طريق الرحلات إلى نوعين منها:



□ لويس الحادي عشر.

نوع قام به العلماء العرب أنفسهم نتيجة الاتصال المستمر بين الشرق والغرب عبر افريقية واسبانيا من جهة والعواصم العربية من جهة أخرى «ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد في نقل الأفكار والآثار العلمية، ولم تكن الرحلة إلى مكة للحج فقط، بل كانوا يعملون الرحلة في طلب العلم نفسه وقد عين لوكلير مواد من هذا القبيل فقال، إن محمد بن عبدون ذهب من الأندلس إلى مصر وكان يمارس التطبيب في مستشفى الفسطاط وأن ولدي يونس الحراني ذهبا يحصلان الطب في بغداد وبقيا عشر سنوات كما ذهب عمر بن حفص إلى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب الأطباء من الغرب إلى الشرق كانت الأطباء تأتي من الشرق إلى الغرب وتقصد سلاطين العرب في اسبانيا، فكانت الكتب نظير الطنافس الحريرية والحلي والجواهر يؤتى بها من الشرق إلى الأندلس[٦] حتى اجتمع في خزانة قرطبة زهاء ستمائة الف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً». ومن بين هؤلاء أبو مروان بن زهر الأندلسي الذي ذهب إلى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هنالك زمناً طويلاً[٧].

أما النوع الآخر من الرحلات فقد قام به الرحالة الغربيون طلباً للتجارة والسياحة وتلقي العلم. فعلى سبيل المثال (ماركوبولو) صاحب الرحلة السياحية المشهورة. و (ليوناردو دافنشي) الذي ولد في بيزا عام (١١٨٠م) وخلال عمله في التجارة في (بجاية) في الجزائر تعلم الحساب وزار طوروس وسبته وتونس وتردد على مكتبات الاسكندرية ودمشق وناقش كبار العلماء في القاهرة ودرس كل ما حوته مخطوطات كبار الرياضيين من الإغريق والهنود والعرب فنبغ في ذلك وبعد أن عاد إلى إيطاليا تنبه إليه القيصر فردريك الثاني وضمه إلى خلصائه من العلماء. فهناك ألّف الكتب وعلم الغربيين الأرقام العربية والصفر العربي.

والطبيب الايطالي (الباجو) الذي عاش حيناً من الدهر في الشرق الإسلامي حيث ذهب خصيصاً لدراسة اللغة العربية وللاطلاع على النصوص العربية في أصولها وبخاصة مؤلفات ابن سينا والذي في سنة ١٥٤٧م نشر في البندقية ترجمة لاتينية لأجزاء كثيرة من شرح تشريح القانون[٨] لابن النفيس والحاوي على أفكار ابن النفيس حول الدورة الدموية.

ومن هؤلاء أيضاً تيودوروس الأنطاكي الذي قرأ للفارابي وابن سينا واقليدس ودرس الرياضيات دراسة عميقة على يد العالم العربي كمال الدين يونس (الذي ولد في الموصل عام ١١٥٦م وتعلم في النظامية ودرّس في الكمالية في الموصل والذي حل المسألة الهندسية التي طرحها فردريك الثاني) ثم جذبت تيودور شهرة فردريك الثاني فغادر الشرق ليعمل في بلاطه[٩] مع جملة من كان عنده من العلماء في ترجمة الكتب العربية ونقلها.

الهوامش

(١) الشطي، د. أحمد شوكت: العرب والطب، ص ١٢٣.
(٢) غليونجي، د. بول: ابن النفيس ـ سلسلة اعلام الاسلام (٥٧)، ص ١٤٨.
(٣) خيرالله، د. امين اسعد: الطب العربي، ص ٢٠٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٥) حجازي، الدكتور عبدالرحيم: الطب الاسلامي عامل اساسي في خروج أوروبا من عصر الظلام ـ بحث قدم للمؤتمر العالمي الأول للطب الاسلامي. بالأصل نقلا عن ارشيف جامعة مونبلييه الكتاب الخامس لسنة ١٧٦٧.
(٦) الشطي، د. أحمد شوكت: العرب والطب ص ١٢٤.
(٧) ابن ابي اصيبعة، ص ٥١٧.
(٨) غليونجي، د. بول: ابن النفيس. ص ١٤٢.
(٩) هونكة، سيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب. ص ٩١ ـ ٩٢.



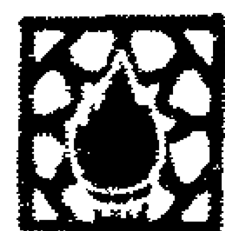
البحث عن الوثائق

عبد التواب شرف الدين

على الباحث أن يتجه إلى البحث عن الوثائق والأصول التاريخية اللازمة لدراسته بما تشمله من المعاهدات أو المراسلات، أو التعليمات أو الأوامر أو المذكرات أو القوانين... الخ، والتي كانت تحفظ عادة عند الملوك أو الأمراء أو عند بعض رجال الدين، أو عند بعض الزعماء أو رجال السياسة أو رجال الحرب أو عند عامة الأفراد أو عند تجار الوثائق.

وليس من الضروري أن توجد وثائق وافية عن كل حوادث التاريخ، إذ تنطمس آثار كثير منها وتزول دلالته، بتعرضها في ظروف مختلفة للتلف أو الضياع، مثل ظروف الثورات أو الحرائق أو الرغبة في التخلص منها وإتلافها عمدا، حينما تكون في حوزة من لا يفهم قيمتها التاريخية، أو من يهمه منع الأفكار، والحوادث التي كانت تحملها في طياتها وثناياها لم تكن في الوجود. وعلى ذلك فكثيرا ما يجد المؤرخ فجوات في مجرى التاريخ، لا يمكنه أن يملأها وستبقى حلقات كثيرة من التاريخ مجهولة إلى الأبد، وليس هناك ما يمكن أن يعوض عن ضياع تلك الوثائق[1].

١ ــ البحث عن الوثائق قديما:



لاقى الباحثون والمؤرخون القدامى صعوبات جمة في سبيل الوصول إلى الوثائق التاريخية، وإذا كانت الحوادث التي قصدوا الكتابة عنها قريبة نسبياً من العهد الذي عاشوا فيه فإنهم كانوا يرجعون إلى روايات بعض الأشخاص الذين شهدوا الحوادث، ويقارنون بينها، وينقدونها، ويستخلصون منها ما يمكن الوصول إليه من الحقائق التاريخية.

على أن هذه الطريقة لا تكون سليمة دائما لتعرض الروايات الشفوية للتحريف والتغيير، وإن كان تدوين الروايات الشفوية من شأنه أن يوقف، في الغالب، ما يكون قد دخل عليها من التغيير عند الحد الذي سجلت فيه(٢).

وقد حولت الفتوحات الاسلامية مجرى الروايات المأثورة عن القبيلة دون تغيير في خصياتها، بينما حافظت الروايات الجديدة محافظة واسعة النطاق على الاتصال القديم بين الشعر والنثر إلى جانب المبالغة وعدم الدقة المعهودين في الكتابات القديمة، وهذا من شأنه التأثير في التاريخ الاسلامي من حيث أن تلك الروايات المأثورة هيأت المواد التي استقى منها المؤرخون المحدثون في تدوين تاريخ الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية.

لقد اعتمد هشام بن محمد الكلبي المتوفي في عام ٢٠٤هـ (٨١٩م) في بحوثه على المصادر والوثائق المكتوبة، وقد خطا هذا العمل المقول باستناده إلى الوثائق المحفوظة في كنائس الحيرة والأسانيد الفارسية التي ترجمت له، خطوات واسعة نحو التأليف التاريخي القائم على أساس العلم.

وفي صدر الاسلام، نجد بداية تأليف التاريخ العلمي باللغة العربية، وهي ترتبط بالبحث في حياة النبي وأعماله هو ما يتتبع رجوع أصل هذا التنظيم إلى مجموعة الأحاديث النبوية، وبخاصة الأحاديث المتصلة بغزوات النبي، وكانت المدينة المنورة، موطن الدراسة ومعهدها ولم يختص أحد التأليف في المغازي قبل القرن الثاني للهجرة في مواطن أخرى غير المدينة، وذاك الارتباط بالأحاديث الذي ترك أثر لا يمحى في أسلوب التأليف التاريخي بالاعتماد على الاسناد يفسر التغيير البالغ الذي ظهر منذ ذلك الحين في الصفات المميزة لرواية حوادث التاريخ وتمحيصها عند العرب.

وقد اعتمد محمد بن سعد المتوفي، سنة ٢٣٠هـ (٨٤٤ ــ ٨٤٥م) على الوثائق والأسانيد التي وقعت تحت يده في مصنفه: «كتاب الطبقات» في سيرة النبي وصحبه والتابعين.

وما برح في مجال الشك وجود وثائق محفوظة في المدينة كانت في ذلك العهد من المراجع التي يرجع إليها، وقد توافرت الدلائل على وجود وثائق في العصر الأموي بدمشق والعراق معا. وفي أوائل القرن الثالث، اضطره التقدم من جديد في طريق التأليف التاريخي بفضل اتساع نطاق الحضارة المادية، وبفضل ظهور استعمال الورق الذي أسس أول مصنع له في بغداد عام ١٧٨هـ (٧٩٤ ــ ٧٩٥م).

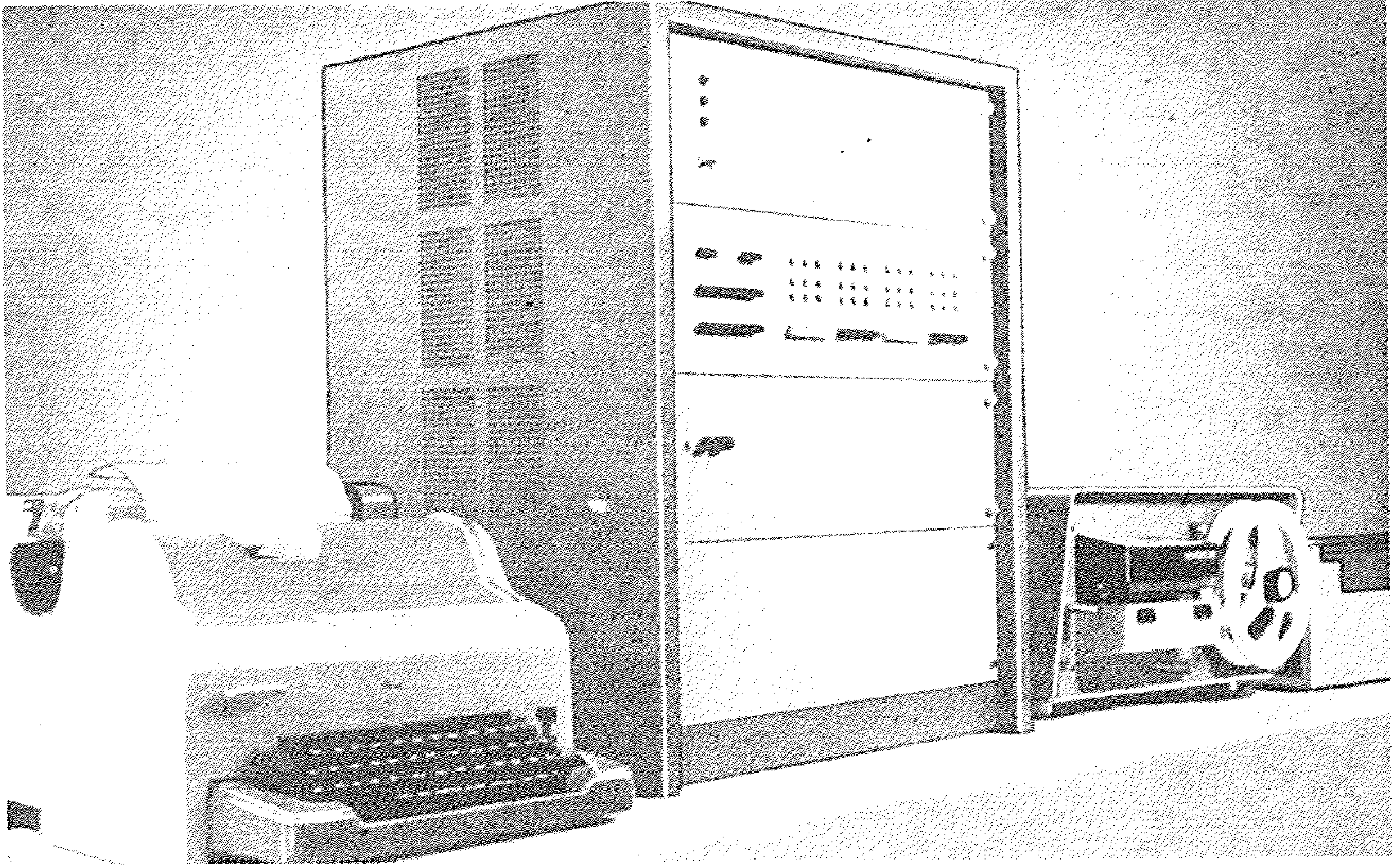
ولكن هذا الابتكار لم يقض من فوره على عادة تناقل مجموعات المواد، بوساطة الرواة، تلك الطريقة التي ظلت مرعية إلى نهاية القرن الثالث.

إن بداية التأليف التاريخي بمعناه الأعم، أي التوفيق بين المواد المستمدة من السيرة والرسائل ومصادر أخرى، بغية إدماجها في رواية تاريخية واحدة متماسكة، إنما ترجع إلى منتصف القرن الثالث، واقدم مؤلف سار على هذا النحو والنهج القديم، هو أحمد بن يحيى البلاذري المتوفي عام ٢٧٩هـ (٨٩٢م)(٣).

٢ ــ البحث عن الوثائق في فهارس المكتبات:

رأينا كيف أن طريقة التأليف التاريخي اعتمدت على الرواية في نفس الوقت، اعتمدت على ما أمكن الوصول إليه من وثائق وبعد استخدام الورق، وما حدث من تقدم حضاري، ظهرت الفهارس التي تشتمل على محتويات المكتبات ودور الوثائق وبهذا سهل على الباحثين تحديد الوثائق الخاصة بموضوعاتهم.

إن التاريخ يصنع من وثائق، والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم، ومن الواضح أن أي فحص نقدي، وأي تأويل للوثائق يسبقه التساؤل، عما إذا كان ثم وثائق،



وما مقدارها، وما مظانها. وقد أطلق على موضوع البحث عن الوثائق في المانيا اسم الهورسطيقا.

ولن تكون الهورسطيقا ميسورة تماما إلا إذا وضعت إثبات وصفية لكل مستودعات الوثائق الموجودة، وكانت هذه الاثبات مشفوعة بلوحات وفهارس أو كانت لها كشافات عامة. بيد أن العلماء المحصلين والمؤرخين كثيرا ما يكونون في حاجة إلى معلومات عن الوثائق لا تهيؤها الاثبات والفهارس الوصيفة لأجيال طويلة لقيت فيها الكثير من الاهمال، ولكنها نقلت أخيرا إلى مخزن جديد تتوفر فيه وسائل الاضاءة والنظافة، كما أصبحت موضع اهتمام المسؤولين بالدير وعنايتهم.

وهذه المجموعة من المخطوطات والوثائق دونت فيما بين القرن السادس والقرن التاسع عشر، ويبلغ عدد المخطوطات ٣٣٣١ مخطوطة. مكتوبة بإحدى عشر لغة هي:

العربية والسريانية والحبشية والفارسية واليونانية والسلافونية والجورجيانية واللاتينية والبولونية والتركية والروسية.

والجانب الأكبر منها في اللاهوت والكتب الكنسية والدينية وقليل منها في الفلسفة والموسيقى والرياضة — والفلك والتاريخ والجغرافيا والاجرومية والطب والقانون.

أما الوثائق فيبلغ عددها (١٧٤٢) وثيقة، منها (١٠٧٢) وثيقة باللغة العربية و (٦٧٠) وثيقة باللغة التركية، وهي تتضمن عهود ومراسيم (٥)، ومنشورات وفرمانات (٦)، ومعاهدات وفتاوى وحجج (٧)، ومحاضر وأوامر إدارية وقد ظهرت عدة فهارس وكتالوجات لمحتويات مكتبة دير سانت كاترين في سيناء من وثائق ومخطوطات، وذلك في الفترة من عام ١٨٨٦ إلى عام ١٩٥٢، وقد تضمن بعضها جانبا من المخطوطات، بينما كان البعض الآخر أكثر شمولا فاحتوى بيانا بكافة المخطوطات والوثائق، ومن أهم هذه الفهارس:

١ — فهرست «جارت هاوزن» الذي صدر سنة ١٨٨٦م.

٢ — فهرست «بتشفتن» سنة ١٩١١ — ١٩١٤م.

٣ — فهرست «هافن» سنة ١٩٢٣م.

٤ — فهرست «مار» سنة ١٩٤٠م.

وقد تعرضت هذه الفهارس لبعض المخطوطات اليونانية.

٥ ــ فهرست «مس لويس» سنة ١٨٩٤.
وقد تعرض لبعض المخطوطات السريانية.
٦ ــ فهرست «جبسن» سنة ١٨٩٤.
وقد تعرض لبعض المخطوطات العربية.

٧ ــ فهرست «مراد كامل» وهو يقع في جزئين، وقد صدر عام ١٩٥١م، ويتضمن جميع مخطوطات ووثائق مكتبة سانت كاترين، وقد قام بإعداده بناء على طلب الجامعة العربية.

٨ ــ فهرست البعثة الأميركية الذي ظهر عام ١٩٥٢م ويقتصر على المخطوطات والوثائق التي قامت البعثة الاميركية بالاشتراك مع بعثة جامعة الاسكندرية بتصويرها عام ١٩٥٠.

٩ ــ فهرست عزيز سوريال عطية، وهو مختصر ويشتمل على جميع المخطوطات والوثائق العربية بمكتبة الدير، وقد صدر بالانكليزية عام ١٩٥٤ ونشرته دار هوبكنز بالولايات المتحدة الأميركية.

١٠ ــ الفهرست التحليلي للمخطوطات والوثائق العربية صدر منه الجزء الأول، وهو ترجمة للأصل الانجليزي الذي ألفه عزيز سوريال عطية، وهو تحليل محتويات مكتبة دير سانت كاترين من الوثائق والمخطوطات التي تشتمل عليها ومكتوب باللغة الغربية[٨].

٤ ــ البحث عن الوثائق في دور الوثائق الأخرى:

إن كثيرا من الوثائق العربية والتي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى، قد فقدت جميع نسخها الأصلية التي كانت محفوظة في دواوينها الأصلية، كما لم يصلنا من النسخ الأصلية لهذه الوثائق في البلاد الأجنبية سوى عدد بسيط جدا، فعلى سبيل المثال، لا الحصر، قدر العلماء عدد الوثائق العربية الأصلية ــ التي صدرت عن الدواوين المصرية، والمحفوظة في دور الوثائق الأوروبية، بثلاث وعشرين وثيقة وهذه الدور هي:

دار البندقية، وفلورنسة، وبرشلونة، ويعتبر هذا العدد من الوثائق التي حفظتها هذه الدور، قليل جدا، إذا ما قيست بالحجم الحقيقي للوثائق العربية الخاصة بتاريخ علاقات كل مدينة من هذه المدن مع مصر الاسلامية في عصورها المتعاقبة، الفاطمية والأيوبية والمملوكية، هذا فضلا عن ضياع جميع الوثائق العربية التي كانت محفوظة في دور الوثائق الأوروبية الأخرى التي كانت تربطها بمصر علاقات تجارية، غير أنه يلاحظ في نفس الوقت أن معظم دور الأرشيف والوثائق في هذه المدن قد حفظت الجانب الأكبر من الترجمات الخاصة بهذه الوثائق العربية سواء باللغة اللاتينية أو باللغات الفرنجية المشتقة منها، هذا بالاضافة إلى الوثائق الأوروبية المرتبطة بهذه العلاقات والتي تعتبر مكملة للوثائق العربية في دراسة تاريخ هذه العلاقات[٩].

٥ ــ البحث عن الوثائق في كتب مصطلح الوثائق:

إذا كانت الوثائق العربية الأصلية التي كانت محفوظة في ديوان الانشاء في مصر، على سبيل المثال، وهو الديوان الذي كان يعتبر مسؤولا عن إصدار وحفظ أصول وصور الوثائق قد فقدت جميعها، فإنه مما يعزينا عن ذلك، أن صورا من هذه الوثائق، وهي اكثر نسبيا مما حفظته لنا دور الوثائق قد ضمنها بعض مؤرخي مصر الاسلامية كتبهم[١٠].

ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخين من عمل منهم في ديوان الانشاء مثل:

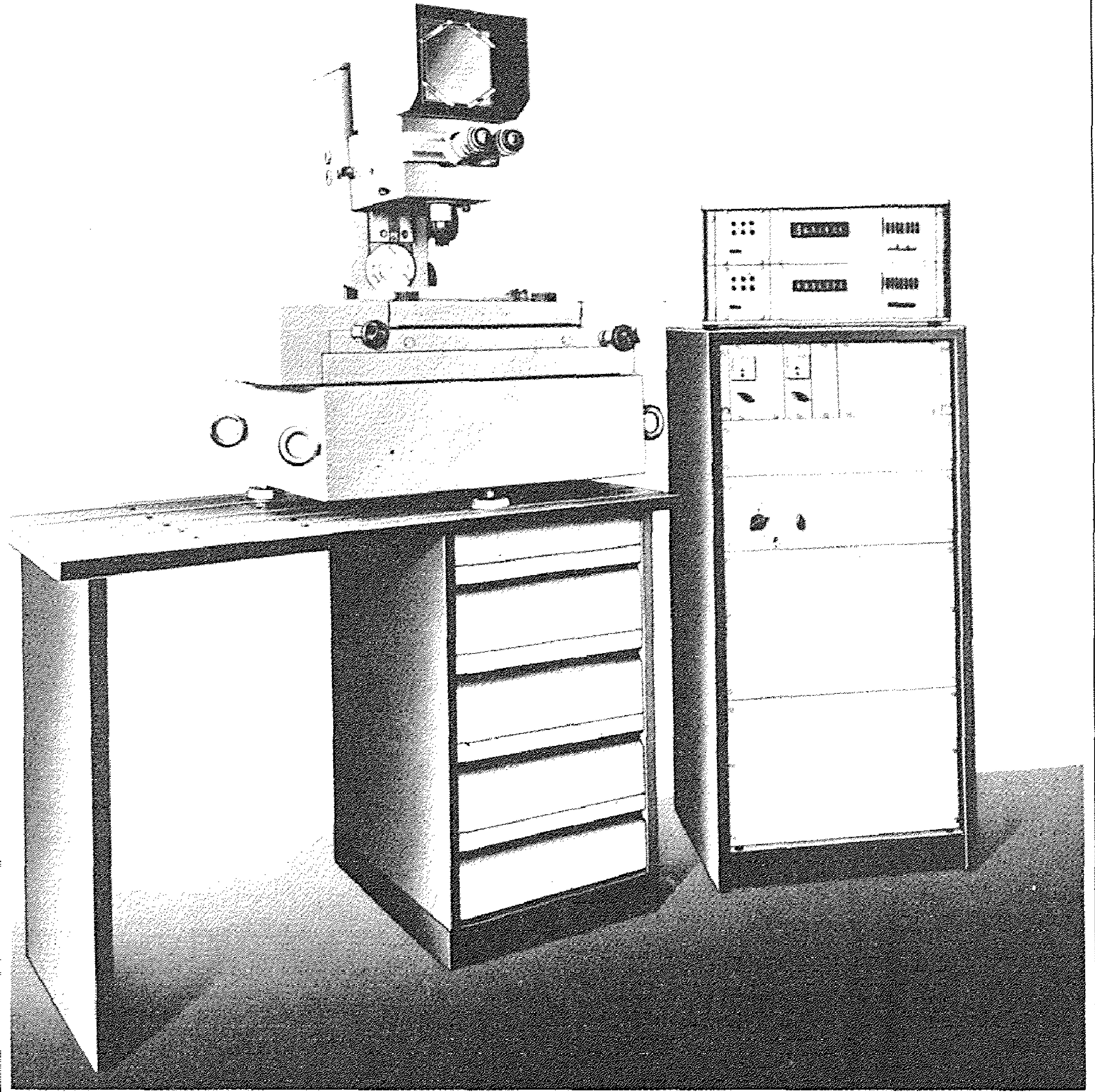
(أ) محي الدين بن عبد الظاهر: «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور». القاهرة ١٩٦١. انظر الصفحات ١٥٦ ــ ١٦٣، ١٦٥ ــ ١٦٩.

(ب) شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري: «مسالك الابصار» في ممالك الامصار (لا يزال مخطوطا). وقد اشار القلقشندي في اجزاء كثيرة من موسوعته «صبح الاعشى» إلى أنه ينقل عنه.

(ج) القلقشندي، أبي العباس أحمد: «صبح الأعشى في صناعة الانشا». القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٨ ــ ١٤ جزءا.

انظر: الجزء السادس ص ٢٧٤؛ الجزء التاسع ٢٥١؛ الجزء الثالث عشر ٢٩٠، ٣٢١، ٣٤٠؛ الجزء الرابع عشر ٧٣، ١٠٩.

فهؤلاء أتاح لهم عملهم في ديوان الانشاء لفترات زمنية طويلة نقل نسخ عديدة مما كان

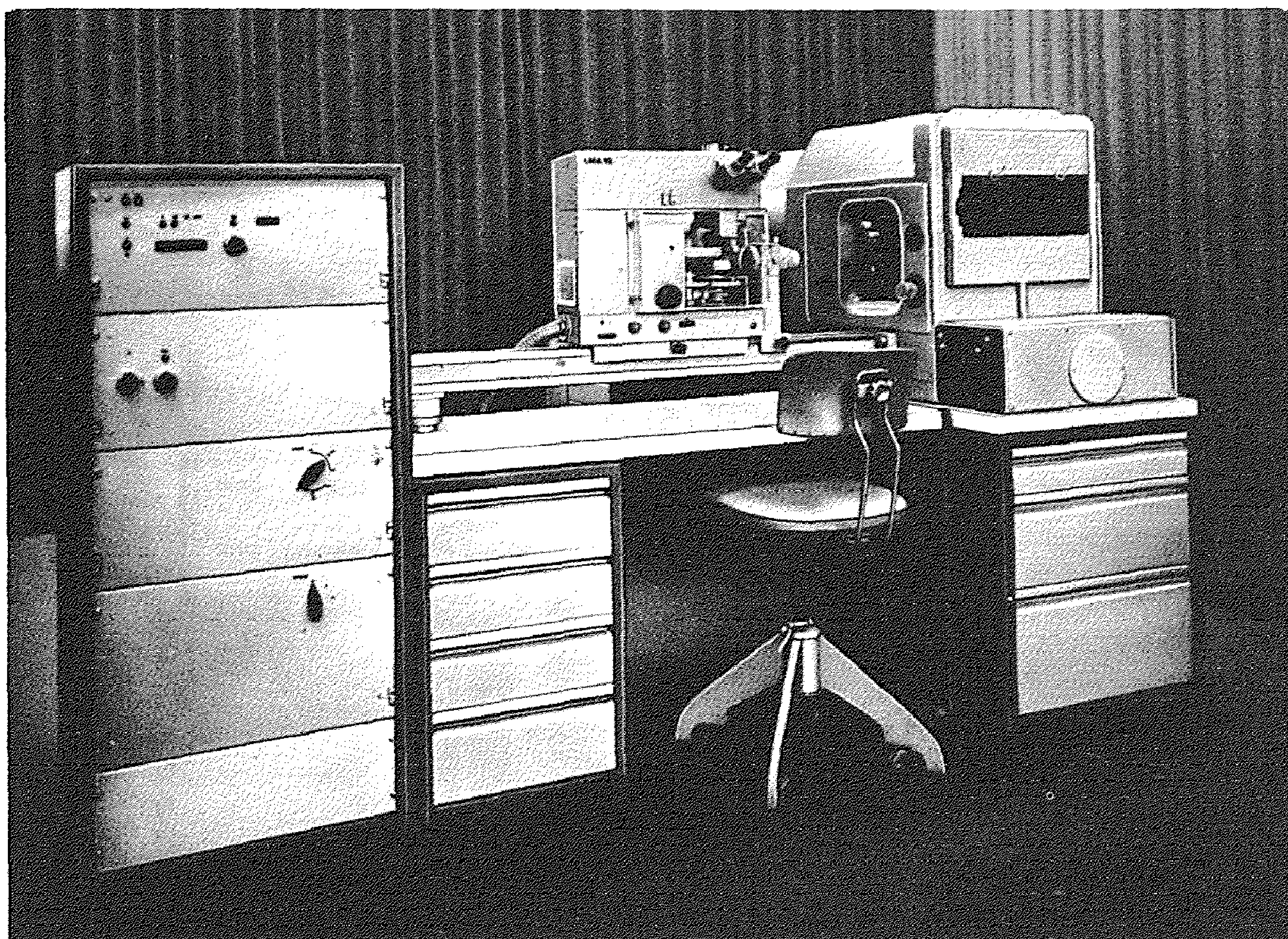


تحت يد كل منهم من الوثائق المحفوظة في الديوان.

٦ ــ نموذج تطبيقي لمحاولات البحث عن الوثائق:

تحاول الدول جاهدة الرجوع إلى وثائقها الأصلية، وتصحيح تاريخها بالاستناد إلى هذه المصادر الهامة، وفيما يلي نرى محاولات إحدى الدول العربية الفتية وهي دولة الكويت:

وهي دولة ناشئة أرادت كتابة تاريخها من واقع الوثائق فبحثت في كل المراجع، وفتشت عن الرواة المعاصرين والمؤرخين الموثوق في رواياتهم، وشكلت اللجان العلمية لهذا الغرض وكان من اختصاص مركز التراث القومي بجامعة الكويت، تجميع الوثائق القومية لتوضع تحت تصرف



الباحثين عن تاريخ الكويت والخليج العربي، ومن أهم الوحدات الهامة بمركز التراث القومي.

وحدة الوثائق والمخطوطات

وتقوم بالخدمات الوثائقية التالية:

(أ) البحث عن أماكن وجود الوثائق والمخطوطات التي تهم الكويت والخليج العربي سواء لدى الأفراد أو المكتبات الخاصة أو المكتبات العامة وغيرها بالبلاد العربية والأجنبية.

(ب) الحصول على هذه الوثائق والمخطوطات في صورتها الأصلية أو على هيئة ميكروفيلم أو ميكروفيش أو زيروكس أو غير ذلك من وسائل الاستنساخ الحديثة.

(ج) تنظيم هذه الوثائق والمخطوطات، وفهرستها وتسجيلها والقيام بإجراءات حفظها وصيانتها.

(د) الخدمة المرجعية من هذه الوثائق والمخطوطات[١١] وقد قسم الباحثون[١٢]، وثائق الكويت بما يشمل ذلك منطقة الخليج العربي إلى الأقسام التالية:

اولا ـ سجلات وزارة الهند:

(أ) وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية وسجلات للوكلاء التابعة لها.
(ب) وثائق المكتبة السياسية والسرية.
(ج) المذكرات السياسية السرية.
(د) وثائق القسم السياسي والسري لوزارة الهند.
(هـ) المراسلات والأوراق الخاصة.

ثانيا ـ مكتب السجلات البريطانية:

(أ) سجلات وزارة المستعمرات.
(ب) الأوراق السرية والخضراء.
(ج) أوراق مجلس الوزراء البريطاني.
(د) الأوراق والمراسلات الخاصة.
(هـ) سجلات وزارة الخارجية البريطانية.

ثالثا ـ المصادر الأولى الخاصة بالكويت

والخليج العربي المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني.

رابعا ـ وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة.

خامسا ـ ما دونه الرحالة الأوروبيون في هذه الفترة.

سادسا ـ الرواية المحلية الكويتية.

سابعا ـ الكتب العربية والافرنجية.

وبعد... فالأمل كبير في الجهود الدولية التي تبذلها الهيئات الدولية.

مثـل:

١ ـ المجلس الدولي للوثائق.

٢ ـ الفرع الاقليمي العربي للوثائق ـ التابع للمجلس الدولي للوثائق.

٣ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٤ ـ المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم.

وذلك في سبيل البحث عن الوثائق وتجميعها والاستفادة منها وتيسير ما تشتمل عليه من معلومات علمية للباحثين، وقد ظهرت بوادر هذه الجهود في نتائج الاجتماعات التي عقدها الفرع الاقليمي العربي للمجلس الدولي للوثائق (عربيكا) في روما، يوليو عام ١٩٧٢، وفي بغداد، سبتمبر ١٩٧٣[١٣].

المراجع

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥، ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٨، ٦٩.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة). القاهرة، دار الشعب، مادة تاريخ.

(٤) لانجلوا وسينوبوس: المدخل إلى الدراسات التاريخية. ترجمة عبدالرحمن بدوي ضمن مجموعة نصوص اجنبية اخرى تحت عنوان: «النقد التاريخي» القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٣، ص ٥، ١٤، ٢٣، ٢٤.

(٥) عبداللطيف إبراهيم: في مكتبة ديرسانت كاترين ـ دراسة في الوثائق العامة في العصور الوسطى مجلة جامعة أم درمان الاسلامية، عدد (١)، ١٩٦٨.

وانظر ايضا: زينب محفوظ هنا: التطور الدبلوماتي لمراسيم ديوان الانشاء بدير سانت كاترين من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري. القاهرة، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة، ١٩٧٠. (رسالة ماجستير محفوظة بالمكتبة العامة لجامعة القاهرة، رقم ٨٤٠).

(٦) حسن صبحي: من محفوظات دير سانت كاترين. مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ـ ١٩٦٤، مجلد (١٨)، ص ٤٨ ـ ٦٢.

(٧) عبداللطيف إبراهيم: ثلاث وثائق فقهية من وثائق ديرسانت كاترين. مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٣، مجلد (٢٥)، عدد (١).

ويقوم كاتب هذا المقال بإعداد دراسة دكتوراه موضوعها «الوثائق العربية الخاصة في مكتبة دير سانت كاترين ـ دراسات ونشر» وذلك تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبداللطيف إبراهيم أستاذ الوثائق ورئيس قسم الوثائق والمكتبات بجامعة القاهرة والمعار حاليا لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

(٨) جوزيف نسيم يوسف: دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي المحفوظة في مكتبة ديرسانت كاترين في سيناء. مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٦٤، مجلد (١٨)، ص ١٧٩ ـ ١٨١.

(٩) احمد دراج: الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوروبية ـ مصر الاسلامية، بحث ضمن ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس ـ أبريل ١٩٦٩. جزءان، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠، ١٩٧١، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(١٠) عبدالتواب شرف‌الدين: دراسة لكتب المصطلح وطريقة إعداد الوثائق الديوانية رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٠. (محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة العامة، رقم ٨٢٣).

(١١) بهاء الابراهيم: مركز التراث القومي بجامعة الكويت. مكتبة الجامعة (الكويت) ١٩٧٣، المجلد الثاني، العدد الثاني، ص ٥٦.

(١٢) جامعة الكويت: مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي المحفوظة في دور السجلات البريطانية، عرض وتعليق الدكتور جمال زكريا قاسم. الكويت، جامعة الكويت، ١٩٧٢.

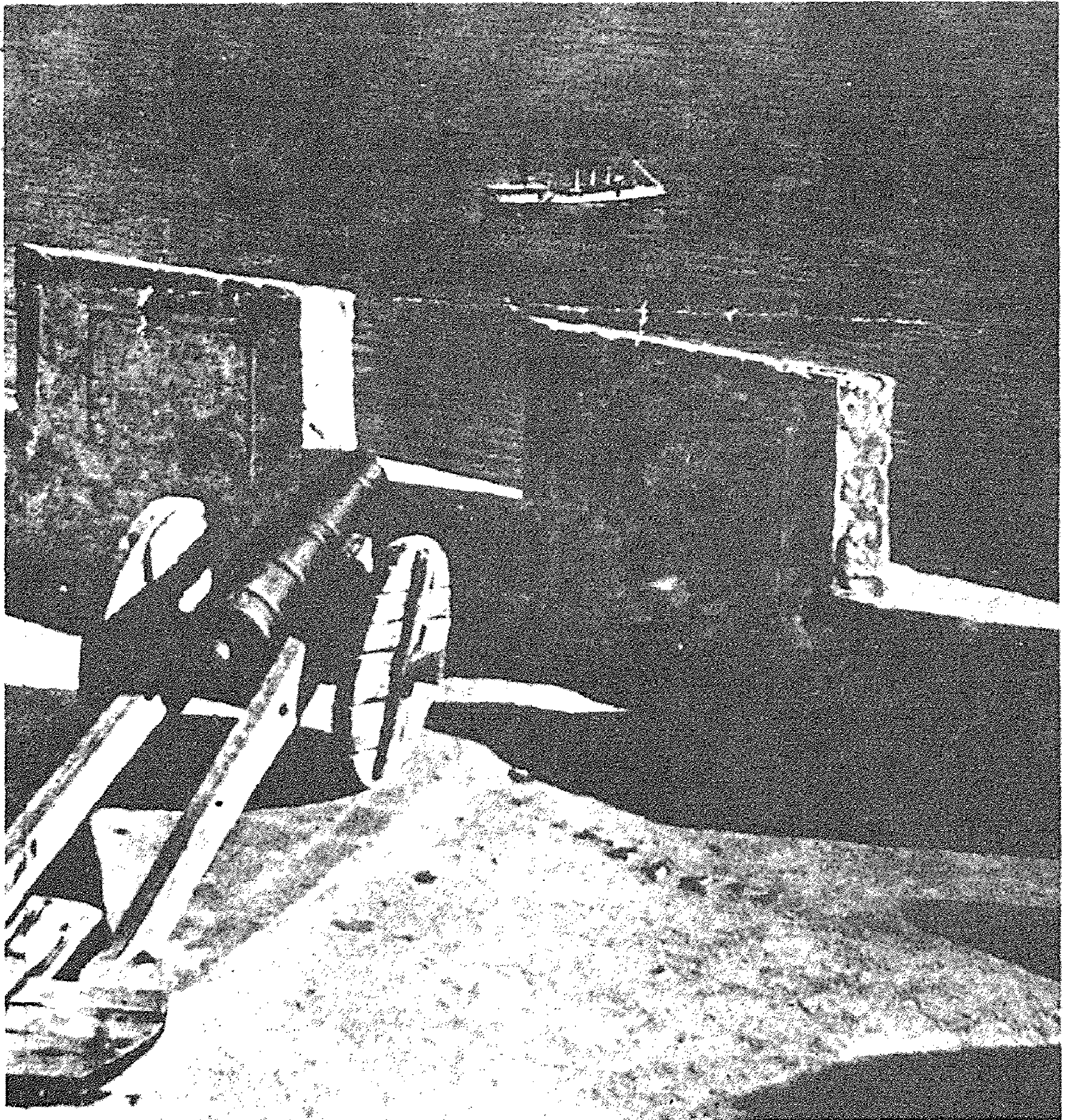
وانظر ايضا: احمد مصطفى ابو حاكمة: تاريخ الكويت. جزءان. الكويت، مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٣. الفصل الأول من الجزء الثاني ـ القسم الأول بعنوان: مصادر تاريخ الكويت في القرن التاسع عشر، ص ٢ ـ ٣١.

(١٣) جواد علوان محمد: المؤتمر الثاني للمجلس الدولي للوثائق ـ الفرع الاقليمي العربي. مكتبة الجامعة (الكويت)، ١٩٧٤، المجلد الثالث، العدد الثاني والثالث.

أغادير والمسألة المغربيّة

الإنزال الألماني في أغادير

د. رياض العالي



□ مدفع فرنسي يقصف المدمرة «بانتر» التي رست أمام شاطىء اغادير

في الفترة التي كانت القوى العظمى تقتسم القارة السوداء، حافظت دولتان، في مطلع القرن العشرين، على استقلالهما، وهما المغرب، والحبشة.

استمرت الحبشة في تحدي كل محاولات الاحتلال حتى عام ١٩٣٦. وكانت محاولة إيطالية جرت لاحتلالها عام ١٨٩٦. فاصيبت الجيوش الايطالية بضربة قاصمة. أما المغرب فحرص على عزلته، التي كانت توحي بتماسك الداخل، والحفاظ على حضارته التقليدية.

ويبدو ان الخلافات بين الدول الكبرى، هي التي سمحت للمغرب بالاستمرار على وضعه. ولكن الوضع لم يكن ليستمر إلى الأبد خاصة وان مطامع الدول الكبرى في المغرب، كان لا بد أن تلتقي على حساب شعب المغرب واستقلاله.

نظام الحكم في المغرب



كانت الأسرة الشريفية ــ الحاكمة حالياً ــ ما تزال تحكم المغرب منذ القرون الوسطى. وتنتمي الأسرة إلى النبي (ص) وتتولى السلطتين الدينية والدنيوية.

وكانت مدينة فاس، مركز إقامة السلطان، ولم تكن الواردات كافية. فالضراب قليلة، والبدو، وهم كثرة، لا يدفعون ضريبة. ورجال الاقطاع، وخاصة الأمراء ممن ينتمون إلى العائلة المالكة، يستغلون ولا يدفعون، ويسيطرون على مساحات واسعة، يسخرونها لمصالحهم الخاصة. فلا تستطيع الدولة أن تفرض عليهم قانونا. ولولا التعاضد بينهم وبين السلطة، ضد الأخطار الخارجية، والداخلية أحيانا، لتمزقت البلاد شر ممزق.

لفتت المغرب انتباه الغربيين منذ وفاة مولاي الحسن، عام ١٨٩٤. فجعل الحاجب با أحمد، أصغر أبناء السلطان الراحل، عبدالعزيز يرتقي العرش وعمره ثلاث عشرة سنة. واستغل با أحمد الفرصة فعين نفسه الوزير الأكبر، وظل يحكم البلاد حتى ١٩٠٠، تاريخ وفاته، موفرا كل المنافع لأسرته.

مع ذلك كان الوضع المالي، عند وفاة با أحمد جيدا، إذ لم تستنفد أموال الخزينة، كما تركها مولاي الحسن.

أما السلطان عبدالعزيز فلم يكن يكترث للحكم، وكان يفضل أن يكل أمره لمن يثق به، وقد وكله إلى الوزير فاضل غرنيط، أو وزير الحربية مهدي المنبهي. وكان ميالا إلى التقنية الغربية وأولع بشراء آلات التصوير، والفونوغرافات، أو الدراجات الهوائية. وهذا ما جعل الجمهور يلفظ حول «السلطان الذي يتعامل مع أدوات الملحدين». وسهل لأخصامه سبيل الدس عليه، والدعاية ضده.

ومما حرّض عليه رجال الاقطاع والأمراء، انه وضع مشروعا للاصلاح المالي، والغى الامتيازات، ونظم جباية الضرائب فاستغل بوحَماره الوضع وأعلن نفسه سلطان، وحفز الكثيرين على الثورة ضد السلطان. وجعل تازا عاصمة مراكش الشرقية التي غدت تحت حكمه. ودحرت جيوش السلطان الشرعي، واندلعت الحرب الأهلية، وهذا ما لم تكن فرنسا ترغب فيه، بل كانت تتمنى أن يبقى المغرب موحدا تحت سلطة حاكم واحد.

فرنسا والفوضى المغربية

وضع حزب المعمرين، الذي يقوده أوجين إتيين، في خطته التدخل في المغرب، بعد أن امتنع عن ذلك طويلا. وكانت شخصيات جزائرية دعت إلى وضع المغرب تحت الحماية مثل تونس. وكان إتيين يفضل تطوير التأثير السياسي والاقتصادي الفرنسي، في المرحلة الأولى، لاقامة علاقات وطيدة، تمهيدا للمرحلة التالية.

□ د. رياض العالي: باحث في التاريخ والثقافة العربية.

اعلن، دولكاسي، الذي غدا وزيرا للخارجية في حزيران ١٨٩٨، أن فرنسا لا تستطيع الوقوف على الحياد تجاه أي تدخل خارجي في المغرب، الذي يقع على حدود الجزائر، التي كانت تحت الحكم الفرنسي. وكانت فرنسا تستطيع الاحتجاج بأي تدخل مزعوم، كأن تحرض رجال القبائل على التسرب عبر الحدود الجزائرية، فينقض الجيش لاحتلال مراكش.

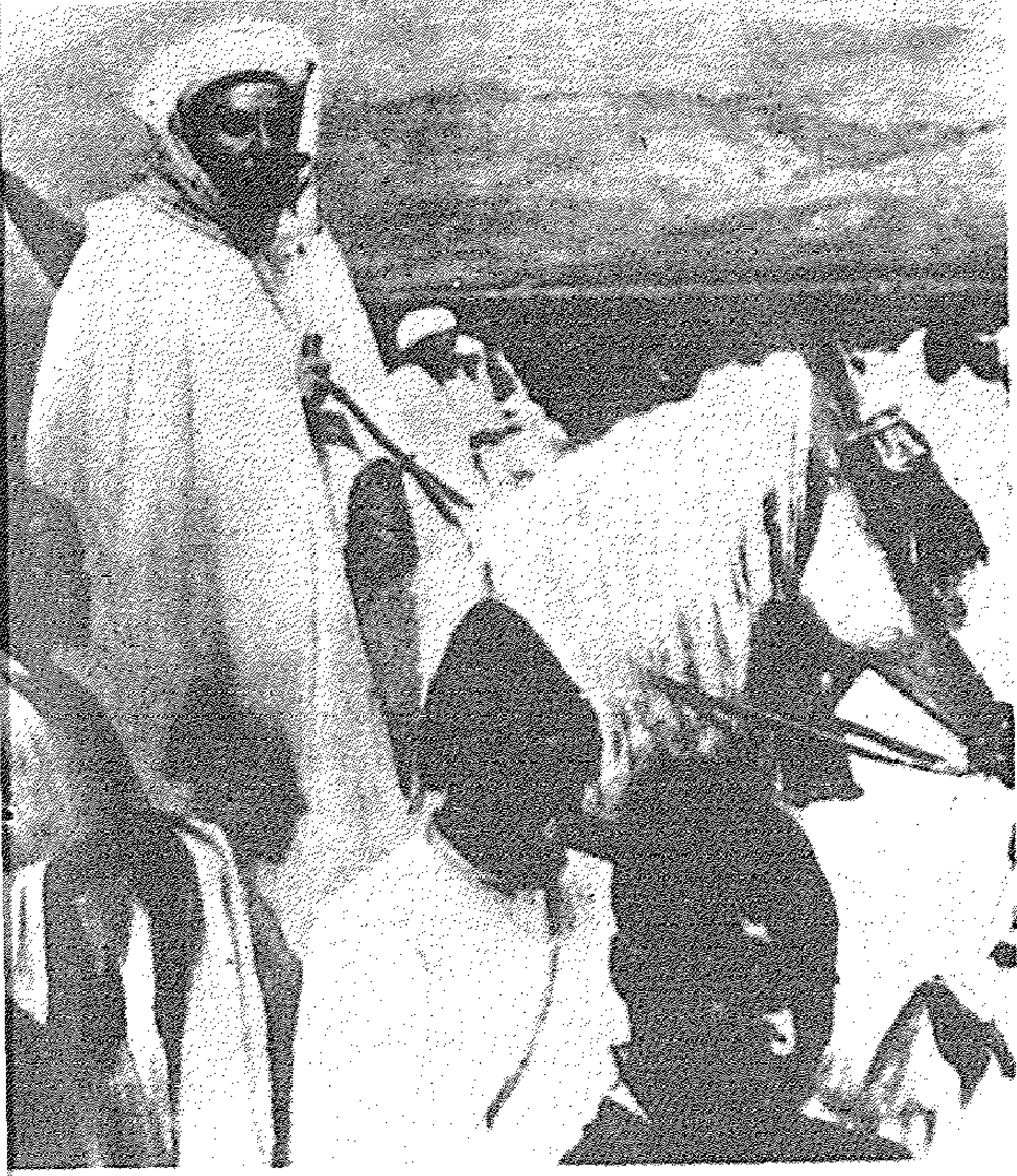
وقد أتاح مقتل أحد التجار لدولكاسي أن يضع ركائز التدخل الأولى. ورحب السلطان عبدالعزيز بالاعتماد على فرنسا في إعادة الهيبة إلى مملكته، وفي قروض تغطي العجز الحاصل في الخزينة.

وطبق جونار، حاكم الجزائر الجديد، ومساعده الكولونيل ليوتي، السياسة الفرنسية الجديدة.

وحين كلف ليوتي بقطاع عين صفرا عام ١٩٠٥، توغلت قواته داخل المغرب حتى بلغت مولويا. ومنذ ذاك بدأ تمزق المملكة الشريفية، يتسارع، والقضية المغربية تأخذ حجما عالميا. ذلك ان عدة قوى بدأت تكشف عن اهتمامها بالقضية: إسبانيا التي تمركزت منذ عشرات السنين على الشاطىء الريفي. انكلترا التي كانت تجارتها ناشطة في المغرب وكان لها عدة مستشارين في بلاط السلطان. المانيا التي لم تظهر على المسرح إلا متأخرة، والتي لم يسعدها أن ترى دولة أخرى تسيطر على أرض افريقية، وتستغل مواردها، بينما مطامع الالمان كبيرة فيها.

كان دولكاسي يحاول جعل القوى الأخرى «لا تهتم» كثيرا بحوض المتوسط، من الجانب الافريقي. وقد كسب حياد ايطاليا بأن أطلق يدها في القسم الشمالي من ليبيا، اما المفاوضات مع اسبانيا عام ١٩٠٢ فكانت صعبة. فأظهر دولكاسي كرما زائدا بأن اعترف «بالحق التاريخي لجارنا الجنوبي» ووعد بإعطاء إسبانيا ثلث مراكش. ولكن طمع اسبانيا بالمزيد من الأرض المغربية جعلها تؤجل الجواب.

اما بريطانيا المستقرة في جبل طارق والحريصة على التجارة والممر الحيوي، فلم تبق مكتوفة الأيدي، وكانت تمثل وحدها اربعين بالمائة من التجارة في المغرب. ولم تكن العلاقات حسنة بين باريس ولندن. ولم تفد الاتصالات التي جرت



□ مولاي حافظ حين ثار ضد اخيه واعلن نفسه سلطانا.

عام ١٩٠٢. وفي نيسان ١٩٠٣ جرت المفاوضات بين الطرفين ٨ نيسان ١٩٠٤ وقعا اتفاقية (وقعها لانسدون عن بريطانيا، وبول كامبون عن فرنسا)، أعلنت فيها فرنسا عن تخليها عن أي حق في مصر، وبالمقابل تتيح بريطانيا لفرنسا ان تتمركز في المغرب، شرط إتاحة الحرية للتجارة، وعدم تسليح وتقوية ضفة مضيق جبل طارق الافريقية.

واضطرت اسبانيا أن ترضى بالقليل بعد ان رفضت الكثير، إذ خشيت أن تفقد كل شيء في النهاية، وحصلت على سوتا، ومليلة، وقسم كبير من الريف، واتفق على أن تبقى طنجة مدينة دولية. ولم يكن للمغرب أن يحتج، فلم يكن يملك القوة للدفاع عن وجوده.

تدخل المانيا

اطمأن دولكاسي لموقف القوى الثلاث، التي لم تكن لها — حسب زعمه — مطامع في حوض المتوسط.

وكان هذا الخطأ في أصل أول «ازمة مغربية».



□ ممثلوا السلطات المحلية في فاس يستقبلون الجنرال موانيـي الذي انزل قواته في المدينة بحجة انقاذ الاوروبيين المحاصرين في المدينة.

ففي ١٩٠٢ سمح الحكم الفرنسي بتوظيف رؤوس أموال في المملكة المغربية. وكانت تلك خطوة أولى للتسرب ثم فرض الحماية. في كانون الثاني ١٩٠٥، ارسل وزير الخارجية بعثة إلى فاس بأمرة سان روني تاياندي، لتقترح عـلى السلطان مساعدة مستشارين ماليين وحربييـن لاعادة النظام إلى المملكة. ورغم أن السلطان عبدالعزيز اهتم بالاصلاحات والأعمال الضخمة المقتـرحة، فـإنه لم يخـدع عن الهـدف، وان استقـلال بلاده أصبـح في اللعبة. ولما كـان لا يستطيع أن يعمد إلى اللعبة البريطانية، فقد لجأ إلى العملاء الألمان الكثر في فاس: وقد أكدوا له أن القيصر يصر على أن يكون الحامي الطبيعي للبلدان الاسلامية التي تهددها أخطار التوسع الافريقي.

لم يكن لالمانيا مصالح اقتصادية حيوية تدافع عنها في المغرب. ولكنها لم يكن يرضيها أن تهمل عند طرح شؤون دولية خطيرة. وقرر غلاة الالمان انه لا بد أن تحصل المانيا على حصتهـا من المغرب عند تقسيمه. وقرر مستشار المانيا بولو، ووزير خارجيتها هولشتاين ضرورة إعادة اعتبار المانيا في السياسة الدولية.

كان أي تدخل الماني سيسيء إلى فـرنسا، ويعرقل مسـاعيها، خـاصة وان روسيـا كانت مشغولة بحرب اليابان.

في هذه الأثناء كـان غليوم الثاني على ظهر طراد في المتوسط قبالة طنجة، فقرر أن تكون محطته لفترة. وذلك في ٣١ اذار ١٩٠٥. وقد استقبله ابن عم السلطان، واخذت الصحافـة الأوروبية أحاديث منه جاء في بعضها: «إني أزور سلطان المغرب، السيد المستقل. والمغرب الحر يجب أن يكون مفتوحا للمنافسة السلمية بين الأمم جميعا، دون رقابة أحد، من أي نـوع كانت». هذه التصريحات وقعت وقوع الصاعقة على العاصمة الفرنسية. وظن دولكاسي أن المانيا «تبلف» وانه ليس بحاجة لرأيها ليفرض إرادته على السلطان، واعتقد ان غليوم الثاني وبولو لن يشنـا حربـا في المغرب. ولكن رئيس الوزراء لم يكن من رأيه. وفي الوقت ذاته طلب السلطان عبدالعزيز عقد مـؤتمر عـالمي لدرس برنـامج الاصلاح الذي اقترحته فرنسا. وخيل إليه أن يحفظ استقلال بلاده بتدويـل قضية المغـرب،


Six Pages — 5 Centimes

LA LIBRE PAROLE

La France aux Français!

Directeur : EDOUARD DRUMONT

Ames de Vaincus

Le Conflit Franco-Allemand

VA-T-IL S'APLANIR ?

Menus Propos

LE VAINQUEUR

ECHOS

Billet du Matin

□ السبت ٩ تموز ١٩١١.

واللعب على خصومات الدول الكبرى.

تذمرت الأركان الفرنسية من إمكان خلق أزمة خطيرة في الوقت الذي كان فيه الحليف الروسي مشغولا بالشرق الأقصى.

كانت بريطانيا تسيطر بحريا. ولكن ما المساعدة التي يمكن أن تقدمها لفرنسا إذا ما غزيت. وقد نصح البرلمان بالتروي، خوف أن يقود التصلب إلى الانتحار.

مؤتمر الجزيرة

كان رئيس الوزراء، روفيي، قد اختار: فهو مستعد للتفاوض، والذهاب إلى حد الاقتراح بتعويض المانيا بمستعمرات، شرط السماح لفرنسا أن تكون حرة التصرف في شمال افريقيا. ولم يخف ذلك على رادولن سفير المانيا في فرنسا. فاتصل هذا بدولته وأفهمها العرض، وإمكان التخلي عن الوزير دولكاسي.

٣٠ أيار ١٩٠٥ أبلغ السفير الألماني رئيس الوزراء الفرنسي ان بلاده لا يسرها بقاء دولكاسي في الكي دورسي.

السادس من حزيران اقترحت المانيا عقد مؤتمر عالمي لدرس القضية المغربية. نصح دولكاسي الوزارة باستبعاد العرض. ولكنه وجد الجميع غير مكترث لرأيه، وشعر انه وحيد فاضطر إلى الاستقالة. بعد ثلاثة اسابيع أعلن روفيي موافقته على الاقتراح الألماني. وعقد المؤتمر في ١٦ كانون الثاني ١٩٠٨، وضم اثنتي عشرة قوة بينها الولايات المتحدة. وكانت فرنسا تطمع في أن يعطيها المؤتمرون ورقة بيضاء للتدخل في المملكة الشريفية. وكان يمكن منح اسبانيا الورقة ذاتها، لولا أن المانيا كانت راغبة في إرسال بوليس دولي مكون من بلجيكا وسويسرا وهولندا، ليشرف على الوضع في المغرب.

أيدت انكلترا وروسيا فرنسا وفاجأ المندوب الايطالي فيسكونتي فينوستا بتأييد فرنسا. واتخذت الولايات المتحدة الموقف ذاته، وأعطت النمسا هنغاريا مندوبيها توجيهات بالاعتدال. السابع من نيسان ١٩٠٦، انتهى المؤتمر بإعطاء فرنسا وإسبانيا حق مراقبة الموانىء المغربية، شرط إنشاء بنك مركزي تنشئه وتسهم فيه كل القوى. وهكذا تفوقت فرنسا في المؤتمر، ولم تنجح محاولة المانيا، ولكن الحماية رفضت، وعطل تدخل غليوم الثاني وبولو كل ما بناه دولكاسي. كما ترك المؤتمر لالمانيا حق التدخل في الشؤون المغربية، مما أزعج فرنسا، وغدا إزعاجها في المستقبل متوقعا دائما، وبالتالي اصبحت الأزمات متوقعة كذلك، وباتت أرض المغرب مسرحا لامكان التصادم في كل لحظة بين الفرنسيين والألمان.

استمرت الفوضى في المغرب. لم يكن عبدالعزيز قادرا على إخضاع بوحَمَاره. وفي الريف بسط ريزوني حمايته وقانونه. وفي مراكش كان مولاي حافظ، أخو السلطان، يتآمر على أخيه. وقامت تظاهرات عدائية للأوروبيين، بمذابح ضد الأوروبيين. في اذار ١٩٠٧ اغتيل الدكتور موشامب في مراكش حين سرت شائعات انه جاسوس. في ٣٠ تموز ذبح الجمهور في الدار البيضاء، عددا من العمال معظمهم فرنسي. على الحدود الشرقية، تقدم جيش فرنسي بقيادة



□ كاريكاتور بدا فيه الهر الفرنسي يسحب الكستنا من النار ليطعم الهر الالماني.

ليوتي، فاحتل أوجدة، وأضعف مقاومة بني سناسن.

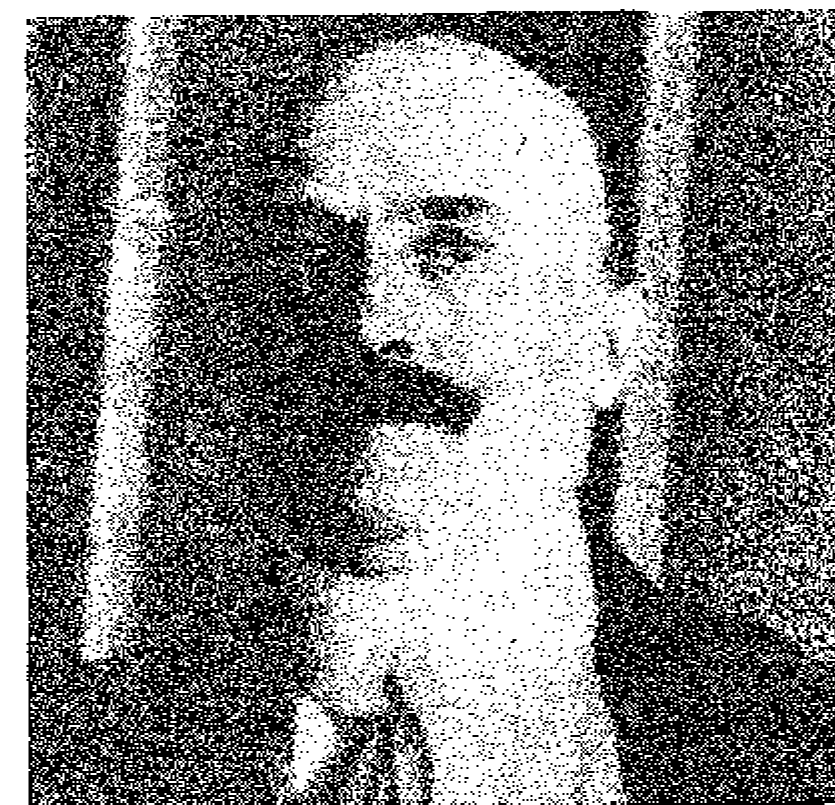
وقد أخضع كل القسم الشرقي من المغرب خلال شهور. وفي القسم الغربي كان الوضع غامضا. فقد تغلغلت قبائل الشوايا في الدار البيضاء، حيث كانت الفوضى الشاملة سائدة. ولجأ الأوروبيون إلى الفن خوفا من أن يذبحوا. وطلب الممثلون القنصليون النجدة، فقصف طراد فرنسي المدينة، ونزل منه الجنود لحماية انسحاب الأجانب. في آب ١٩٠٧، أعاد الجنرال درود النظام والأمن إلى المدينة. وفي الوقت ذاته أعلن مولاي حافظ نفسه سلطانا على مراكش. وتفاقم الوضع، وسمح الحكم الفرنسي لرجال الجيش بالتدخل. وبين أيلول ١٩٠٧ وأيار ١٩٠٨ استطاع الجنرال داماد، بسط الأمن على مناطق السهول المغربية، ولكن الحرب الأهلية بين حافظ وعبدالعزيز استمرت. غير ان السلطان الشرعي، عبدالعزيز، رأى جيشه ينهار في اب ١٩٠٨، فالتجأ إلى طنجة. واعترفت الدول الكبرى بخلفه.

الأزمة المغربية الثانية

٢٥ أيلول ١٩٠٨، نجم حادث أثار الأزمة الفرنسية الألمانية الثانية في المغرب: فقد هرب ستة من الفرقة الأجنبية بينهم ثلاثة من الألمان، واوقفوا في الدار البيضاء وفي الوقت الذي كانوا فيه على وشك الابحار إلى أوروبا، وهم يحملون أوراقا رسمية المانية.

طالب بولو بإطلاق سراحهم الفوري. وأنذر بسحب سفيره من فرنسا. لم يتراجع كليمنصو. وتوصل الطرفان إلى حل وهو الرجوع إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي.

كانون الثاني ١٩٠٩ اقترحت المانيا مشروعا مشتركا. وجرت مفاوضات سريعة، واتفق الطرفان، ووقعت الاتفاقية في ٩ شباط. وفي الوقت ذاته أعلنت فرنسا تمسكها بشرعية الحكم الشريفي، وباستقلال المغرب. وأعلنت المانيا انها حرصا منها على مصالح «فرنسا السياسية الخاصة» في المغرب تؤكد انها لا مطامح لها غير اقتصادية في المغرب.









□ مولاي حافظ يوقع التنازل عن العرش بحضور بعض اعوانه، وبإشراف الجنرال ليوتي وبعض اركانه. وقد طبق نظام الحماية بعد التنازل.

تسلم رئاسة أركان الجيش الفرنسي، يصارح رئيس الوزراء أن أمل فرنسا في أية معركة مع المانيا ضعيف. ولكن بريطانيا دعمت فرنسا. وألقى لويد جورج خطابا رنانا، وأعلن تحرك الأسطول البريطاني.

الأول من اب، تراجع كيدرلين عن بعض المطالب، وقرر القبول بقسم من الكونغو. وكان رئيس الوزارة الفرنسية كايو على خلاف مع وزير خارجيته، فأجرى مباحثات سرية مع الالمان (البارون فون شون) تطاوحت المفاوضات. في سبتمبر سحب الألمان بعض رؤوس أموالهم من المغرب، مما أزعج أصحاب رؤوس الأموال، فطالبوا بالتهادن.

١١ تشرين الأول وقع الاتفاق بالحروف الأولى ونص على: الحفاظ على المصالح الاقتصادية الألمانية في المغرب. كل ما تحتاج إليه الخطوط الحديدية. مد خط طنجة — فاس. بالمقابل لا «تعترض» المانيا فرنسا في عملها في المغرب.

اتفاق مرفوض

وقع الاتفاق نهائيا في ٤ تشرين الثاني ١٩١١. وأعطت فرنسا المانيا جزءا هاما من أرض الكونغو. وحصلت على ممر قرب تشاد. ولكن الاتفاق لم يرض الالمان ولا الفرنسيين. فقد قالت الدبلوماسية الالمانية: إن المانيا لم تنل من الاتفاقية إلا أراضي مستنقعية، وذباب تسي — تسي. ولام رجال الأعمال الفرنسيون كايو لسببين: الأول انه أجرى محادثات سرية مع الالمان؛ والثاني انه أعطى جزءا من الكونغو، وهي «أرض فرنسية»، لا يجوز التفريط بها. وكثرت الانتقادات حتى سقطت حكومته في ١٣ كانون الثاني ١٩١٢، وشكل بوانكاري الحكومة الجديدة.

٣٠ اذار ١٩١٢ حققوا في المغرب نظاما للحماية شبيها بالنظام في تونس. ●

فن الحفر على الخشب

قسم التوثيق والأبحاث



□ «المزين البغدادي» ولسان حاله يقول: «انا الشيخ الصامت، وليس لعلمي ومعرفتي حدود.. قرات الكتب ودرستها، ومارست الأمور وعرفتها، وحفظت العلوم واتقنتها، وتعلمت الصنعة واحكمتها، وانا قليل الفضول، ولاجل هذا أدعى بالصامت الرزين».

«الحفر لفيزي»

لم يحظ سفر عربي باهتمام المستشرقين ككتاب «ألف ليلة وليلة»، فهو من اكثر المؤلفات رواجا وأوسعها انتشارا وأبلغها أثرا في نفوس الناس. حكاياته تحلق بالقارىء في أجواء الخيال وتفيض بروحانية الشرق وجماله، فهي تتناول أخبار الانس والجن، وأخبار الوحوش الكواسر وأخبار القرى والمدائن، وأخبار الكنوز المرصودة والجواهر الفريدة، كتاب ألف ليلة وليلة عالم صاخب، نابض بالحركة مشرع بالحكمة. حكاياته غنية بألوانها وموسيقاها فكانت مصدر إلهام لكثير من الفنانين والرسامين والموسيقيين. وقد صدرت منذ ما يزيد على المائة سنة ترجمات عديدة لهذا المؤلف ازدانت بالرسوم الفاخرة التي تصور أحداث لياليه أدق تصوير، فكانت بمثابة نافذة يطل منها الغرب على الشرق.

□ يمتاز كتاب الف ليلة وليلة بتلك الطريقة الفذة في سرد الحكايات التي ياخذ بعضها في رقاب بعض، ومنها حكاية «القلندري الثاني الذي كان يعمل حطابا لكسب قوته اليومي». «الحفر لتوماس وليامز».





عندما كان «ريتشارد بيرتون» عاكفا على ترجمته لكتاب «الف ليلة وليلة»، التي حظيت بشهرة واسعة، لم يفته أن يضع تعليقا قصيرا عن النيل من ترجمة سبقه إليها «وليام ادوارد لين». ويقول «بيرتون» في تعليقه على ترجمة «لين» التي ظهرت في عام ١٨٦١ أنها لم تلاق ما لاقته من نجاح إلا بفضل ما تزدان به من نقوش قام بتصميمها فنان يدعى «وليام هارفي». ومع ما في تعليق «بيرتون» من تحامل ظاهر على منافسه المستشرق «لين»، إلا أنه يلقي أضواء على فن الحفر على الخشب الذي اشتهر به «وليام هارفي» والذي استوحاه من الليالي العربية التي اتخذها مادة يزين بها رسومه ونقوشه. فتصاميمه تشمل فن الزخرفة العربي بجاذبيته وطرافته، والكتابات الكوفية بجمالها وغرابتها. وقد ازدان مطلع كل فصل من فصول مجلداته الثلاثة بالزخارف الرأسية والنقوش الصغيرة التي تصور بإيجاز أحداثه ووقائعه. وتشهد الرسوم المنقولة عن تصاميم حفرها «هارفي» على الخشب على ما بلغه هذا الفن من رقي ورفعة باعتباره من أصعب ألوان الفنون قاطبة وأكثرها دقة وأجملها تعبيرا.

وفن الحفر على الخشب ليس حديث عهد، بل يرجع تاريخه إلى زمن المصريين القدماء. فهم كانوا يحفرون الحروف الهيروغليفية على قوالب من الآجر ثم يكبسون القوالب على قطع من الطين. ثم جاء الصينيون واستعملوا الحفر على الخشب لطبع الرسوم والنقوش المختلفة على القماش. وبعد عدة قرون استعمل الرومان الطريقة نفسها لطباعة الحروف الأبجدية والأرقام.

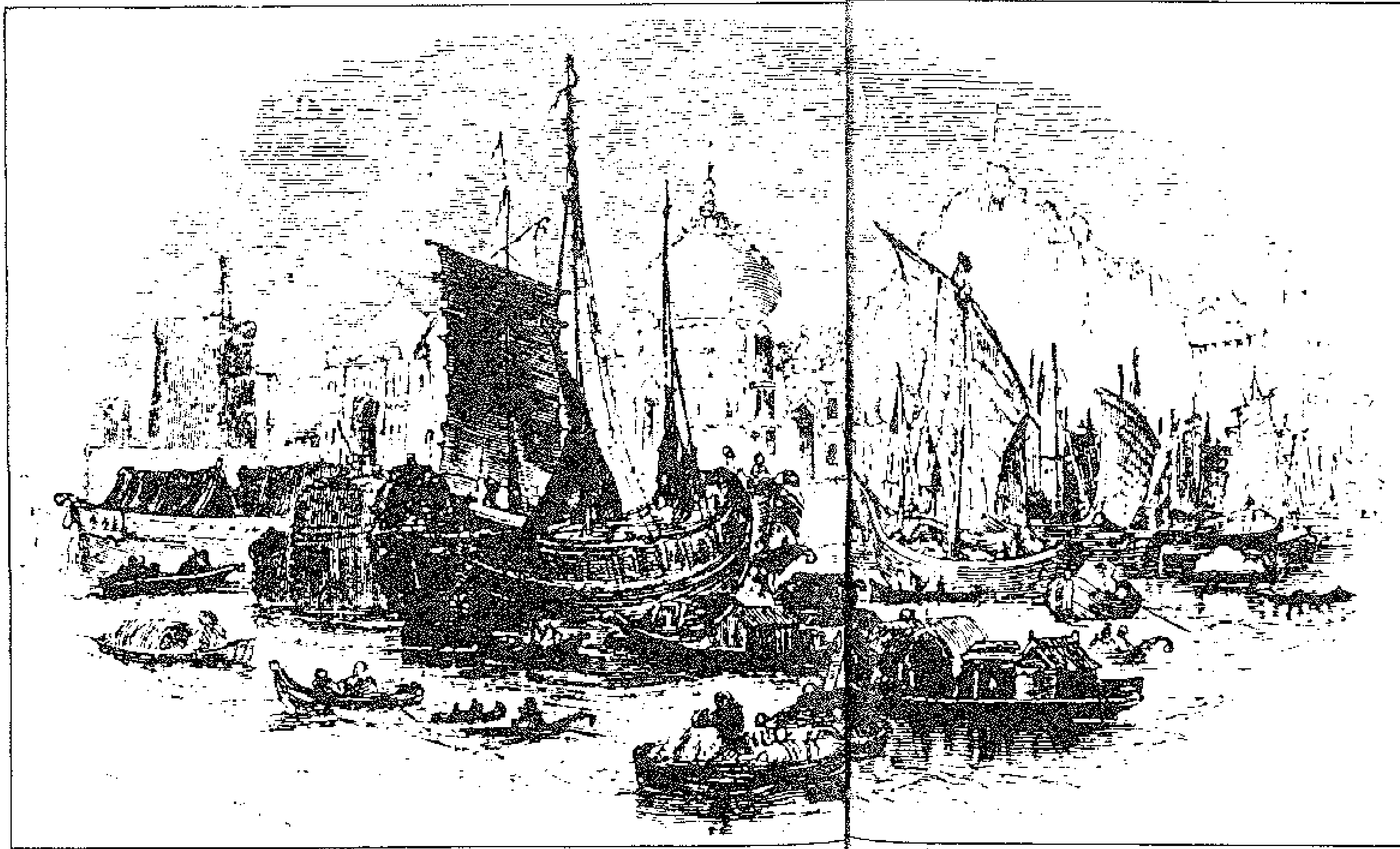
وكان الحرفيون أبان العصور القديمة يعمدون إلى قوالب من الخشب ليحفروا على سطوحها رسوما أو أشكالا أو خطوطا بارزة أو عميقة بحبيبات بلورية صغيرة قاسية، ثم يقطعون الزوائد الخشبية، لتظهر عند طبعها على شكل خطوط سوداء. وكان بالامكان أيضا تحبير تلك



□ «السندباد البحري، وقد تحطمت سفينته في السفرة الخامسة يرى وهو يساعد عجوزا وقد حمله لينقله إلى الجانب الثاني من الساقية. وما درى انه قد حمل «مارد البحر» على كتفيه الذي سرعان ما لف ساقيه حول عنق السندباد محاولا خنقه فمادت به الارض واسودت الدنيا في وجهه ووقع على الارض مغشيا عليه.
«الحفر لتوماس وليامز».

النقوش وطبع الرسوم الايضاحية التي تزخر بها الكتب. ومع مرور الزمن حظيت هذه الطريقة برواج كبير وأصبحت تعد الطريقة المثلى، وبالتالي مهدت الطريق أمام طباعة الكتب على نطاق واسع.. وهكذا تقدمت صناعة الحروف المنفصلة.

وفي أوائل القرن السادس عشر أدخل «ألبرت دورر» تحسينات جمة على هذا الفن حتى وصل به إلى درجة عالية من الرفعة والرقي. إلا أن استعمال المعدن وخاصة القصدير بدلا من الخشب في هذا المضمار أدى إلى التقليل تدريجيا من انتشار طريقة الحفر على الخشب، وهكذا

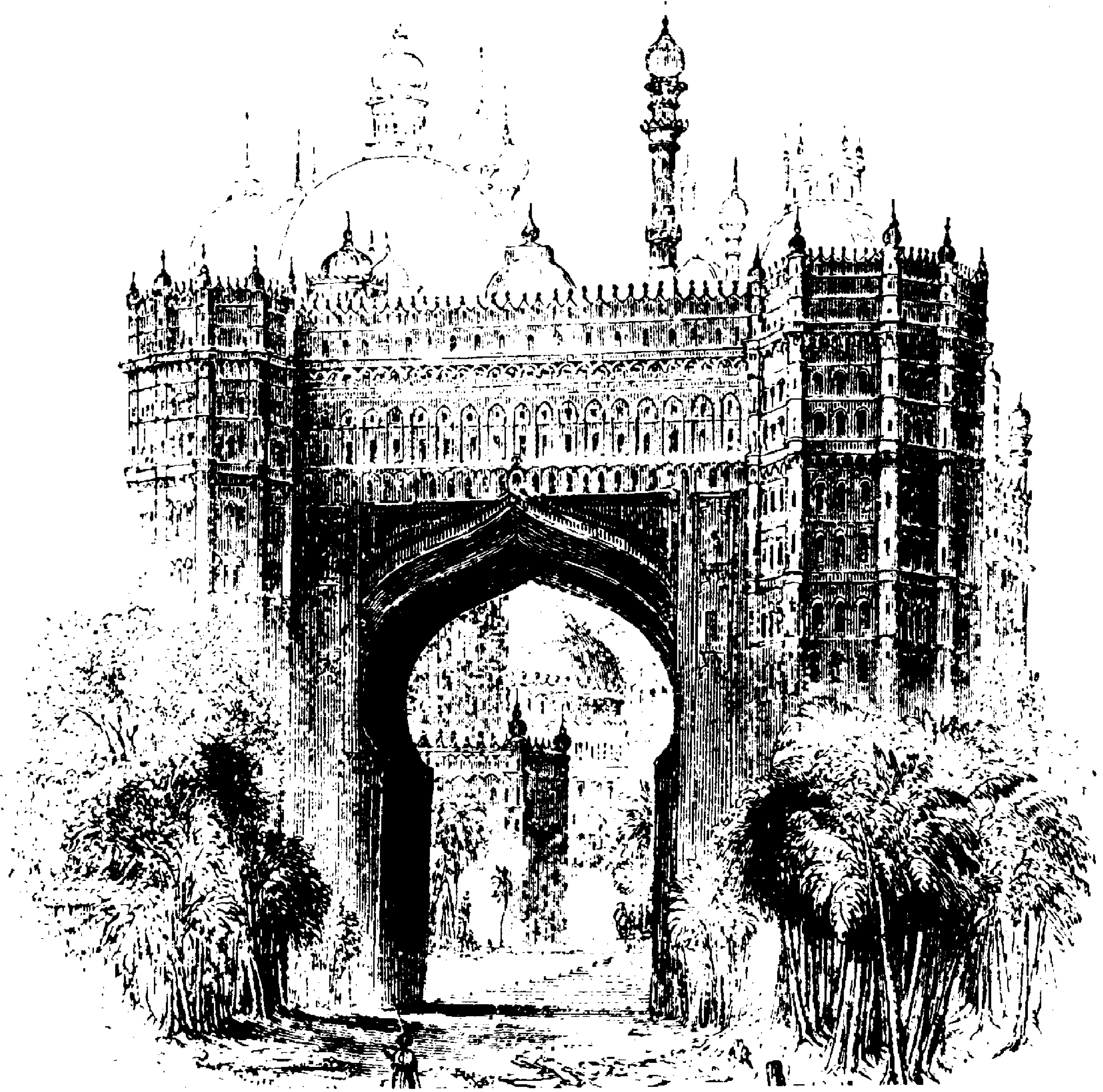


□ «حياة الاجيال السابقة هي خير درس للأجيال القادمة، هكذا قدم وليام لين ترجمته لكتاب الف ليلةوليلة، واتخذ من قصة «حسن الصائغ البصري» دليلاً على ذلك، حين اقلع بمركبه من ميناء البصرة، الدائب الحركة، فألقت به الأمواج إلى جزر «واق الواق».
«الحفر لويبر».



تضاءل استعمال الخشب في هذا الفن تضاؤلا كبيرا حتى أصبح فن الحفر على الخشب في بداية القرن الثامن عشر من الفنون الصائرة إلى الزوال.

ومع مولد الثورة الصناعية التي اجتاحت أوروبا في أواسط القرن الثامن عشر، ظهرت هنالك أدوات جديدة مكنت رجال الصناعة من تطوير أسلوب جديد في فن الحفر على الخشب وهو أسلوب يختلف اختلافا بينا عن الأسلوب التقليدي القديم، فبدلا من قطع الزوائد الخشبية حتى تظهر الخطوط السوداء عند الطبع، عمدوا إلى حفر أخاديد في الخشب على شكل (٧) تظهر عليها اليوم «الحفر على الخشب»، ومع أن هذه الطريقة لا تضاهي طريقة الحفر على المعدن بوضوح معالمها وجلاء خطوطها، إلا أن تكاليف الحفر على المعدن الباهظة بسبب طبع كل لوحة معدنية على حدة، من جهة، والتحسينات المستمرة لطريقة الحفر على الخشب من جهة

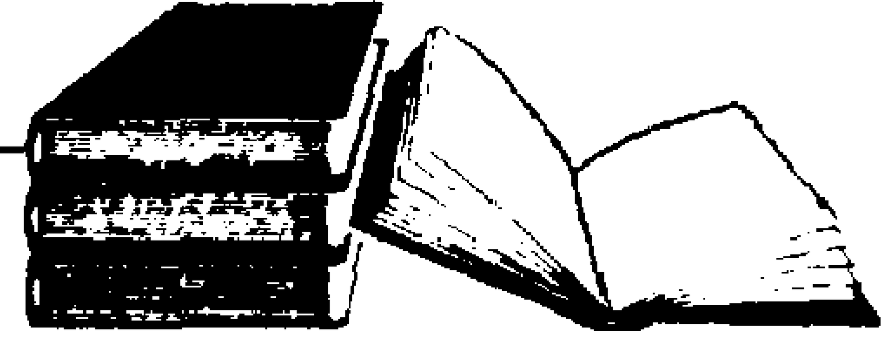


□ «اكتشاف ارم ذات العماد» التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، والتي يقال أن حصى شوارعها كان من الجواهر النادرة وغبارها من المسك النفيس. ومن غريب الصدف ان يعثر على ذلك الفردوس الاسطوري «عبدالله الجمال» بينما كان يفتش عن جمله الضائع في اليمن.

«الحفر لويمبر»

أخرى، أتاحت الفرصة لهذا الفن أن يظهر من جديد بعد أن كاد أن يتلاشى ويندثر. وبظهور الفنان الاسكتلندي «توماس بويك» (١٧٥٣ ـ ١٨٢٨) خطا هذا الفن خطوات واسعة إلى الأمام، حتى تفوق على فن الحفر على المعدن. ولم يقتصر عمل هذا الفنان على إنتاج الرسوم الفنية الممتازة، بل قام أيضا بتعليم هذا الفن إلى عدد كبير من التلاميذ البارزين، أمثال «وليام هارفي». وقد بلغت تلك النقوش التي صممها «هارفي» حدا من الجمال، بحيث أصبحت تعتبر من أروع الأمثلة لفن الحفر على الخشب تظهر بين دفتي كتاب. فهي رسوم جميلة الزخرفة مترفة إلى أقصى الحدود، وقد بلغت من الدقة في تصوير حكايات الف ليلة وليلة حدا جعل كثيرا من الفنانين ينقلون عنها «تابلوهات» محفورة على الخشب.

●





الصورة التقليدية للمجتمع المديني

د. عمر عبد السلام تدمري

صدر مؤخرا عن معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية ـ الفرع الثالث ـ (طرابلس) كتاب جديد للدكتور خالد زيادة، الأستاذ في المعهد المذكور، بعنوان «الصورة التقليدية للمجتمع المديني» وهو يتناول: «قراءة منهجية في سجلات محكمة طرابلس الشرعية، في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر».

وبإصدار هذا الكتاب، يكون الدكتور زيادة قد فتح الباب على مصراعيه أمام الباحثين والمهتمين بدراسة الوثائق العثمانية، لتنال سجلات محكمة طرابلس ما تستحقه من العناية والاهتمام من أساتذة الجامعات لدراسة كثير من النواحي: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتجارية، والدينية، والعمرانية، وغير ذلك من مجالات البحث الواسعة التي توفرها بمجلداتها الضخمة.

فقد مر الوقت الكافي الذي يجعل من الدولة العثمانية، والفكرة العثمانية جزءا من تاريخ مضى، إذ لم تعد العثمانية واقعا قائما كما كانت في بداية القرن الحالي. والجيل الراهن من الباحثين والمؤرخين لم يعاصر الفترة العثمانية، وبالتالي ليست لديه أية أفكار خاصة عن مرحلة أصبحت، بحق، من التاريخ الماضي. لذلك فإن العودة إلى دراسة المرحلة العثمانية والاعتماد على وثائق تنتمي إلى القرون (١٧، ١٨، ١٩) صارت من نصيب البحث الأكاديمي، ولا تحمل اليوم أية مضامين أيديولوجية بذاتها، لكن الأمر لا يتعلق بكتابة تاريخ جامعي مجرد، فإن كل شيء يدعو اليوم إلى البحث عن جذور مشاكلنا في التاريخ القريب، ويمكن للأكاديميين أن يقدموا جهودا مخلصة في هذا المجال.

إنها دعوة مخلصة يوجهها الدكتور زيادة إلى المتخصصين والباحثين لسبر أغوار التاريخ العثماني، وإبراز الحقائق دون تغليف بوجهات نظر مسبقة، فسجلات المحاكم الشرعية تعرض الوقائع المجردة كما هي في الواقع دون خلفيات، وقد تأكد لدينا بعد التمحيص والبحث أن سجلات محكمة طرابلس الشرعية هي الأوفر عددا، والأقدم عهدا بالنسبة لمثيلاتها في لبنان كله.

وقد وضع الدكتور زيادة مدخلا منهجيا لدراسته في الفصل الأول من الكتاب، تناول فيه الوثائق وأهميتها وأنواع القضايا التي تشتمل عليها، مع إحصاء شبه متكامل للسجلات، ويؤرخ، بإيجاز، ولكن بعمق وشمولية، لطرابلس

□ د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، استاذ التاريخ الاسلامي، الجامعة اللبنانية، فروع طرابلس.

العثمانية، فيربط بين دور المدينة الرائد في الميدان السياسي والحضاري، في تاريخها القديم والوسيط، مع تواصل هذا الدور في بدايات العصر العثماني، إلى أن يطرح السؤال المحدد: «لماذا فقدت ولاية طرابلس استقلالها في نفس الوقت الذي كانت الولايات الأخرى تصلب نواتها المدينية التي ستكون قواعد دول المستقبل؟».

لا شك في أن سياسة الأمير فخر الدين المعني، (السياسية) نحو بني سيفا أمراء طرابلس وعكار، و (الاقتصادية) نحو طرابلس، وإن بشكل غير مباشر، هي التي تسببت في تدهور مكانة طرابلس ودورها القيادي في «ساحل الشام» هذا إلى جانب عوامل أخرى لا يمكن أن تفصل عن بعضها. فقد كانت طرابلس حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر المرفأ الرئيس على ساحل الشام، وكانت لا تزال تحتفظ بمجالها الإداري والسياسي من شمال اللاذقية حتى جنوب جونية، إلا أن هذا الامتداد الجغرافي كان يضم تنوعا مذهبيا ودينيا فريدا، من العلويين، والموارنة، مع أقلية ارثوذكسية مدينية وريفية. وطرابلس بالاضافة إلى كونها موقعا تجاريا يتحكم بتجارة دمشق وحلب الخارجية، فقد كانت مدينة زراعية تستند إلى وفرة إنتاجية تخدم دورها التجاري أيضا، كما أنها لم تكن مركزا مدينيا في محيط ريفي، بل شكلت مع حماه وحمص مثلثا مدينيا نشطا على المستوى التجاري والصناعي. وبالنتيجة، فإن الأسس القوية التي يمكن لطرابلس أن تؤسس عليها استقلالها، هي ذاتها العناصر التي أفقدتها استقلالها النهائي.

وفي الحديث عن «عثمانية طرابلس» لحظ الدكتور زيادة الازدواج الواضح بين لغة السجلات، في: النص والمضمون. فتدهور طرابلس الاقتصادي منع قيام نواة مدينية صلبة تسعى إلى استقلالها الذاتي، فقد سلمت النخب المحلية ــ العلماء بوجه خاص ــ بارتباطها بالدولة. وهذا الارتباط حفظ تقاليد ثقافية ــ دينية ــ اجتماعية، انعكست في لغة النص. لكن هذا الارتباط لا يتطابق تماما مع واقع عيني يتمثل بتطورات البنية الاجتماعية، عجز الخطاب عن ملاحظتها، فهو يواصل المفهوم التقليدي للقانون والسلطة، بينما يعكس المضمون المعطيات المستجدة اقتصاديا وديموقراطيا. فالواقعة الواحدة يمكنها أن تعكس الوجهين معا في وقت واحد. ولذا يتطلب الأمر وضع خط فاصل بين سلطة جهاز الحكم، وبين سلطة الخطاب من حيث هو انعكاس لذهنية، أيديولوجية تملك سلطة مستقلة نسبيا عن الواقع، عنوانها «الكتاب الشرعي والخطاب المرعي» كما جاء في الفصل الثاني من الكتاب، حيث حصل تطور ملحوظ في القرن الثامن عشر، حين أصبحت لغة القضايا والوثائق المسجلة تفصح عن تمييز بين نوعين من النصوص ونوعين من الصلاحيات، فتحولت جميع القضايا تقريبا، التي هي من اختصاص القاضي وتقع تحت نظره إلى اللغة العربية، فأصبحت الالتزامات تسجل بالعربية، وكذلك إقرارات الأصناف، وكذلك الوقفيات وقضايا العتق بالاضافة إلى تنصيب الموظفين في وظائفهم، بينما احتفظت الفرمانات الصادرة في استامبول والبيورلديات الصادرة عن الوالي بلغتها التركية. وقد حمل هذا التمييز «اللغوي» فصلا بين نوعين من الاختصاص، وشكلين من السلطة والرقابة. وهذا التمييز لا تفسير له، رغم كون بعض الولاة كانوا من العرب، وخصوصا من آل العظم الدمشقيين. فحتى هؤلاء احتفظوا بالتقليد المتبع في إصدار المراسيم غالبا بالتركية.

إن من اطلع على سجلات محكمة طرابلس وتصفح وثائقها التي تعد بالآلاف، لا يسعه إلا أن يبدي إعجابه بالطريقة التي استخدمها الدكتور خالد زيادة في تركيزه على كثير من النصوص الهامة المتنوعة، والتي افرد لكل منها أو لبعضها عناوين وفقرات خاصة، فوردت ضمن السياق مع التحليل والدراسة والعرض المشوق، وقد استخدم عناوين فصول الكتاب بذكاء حيث اختار المصطلحات والتعبيرات الواردة في نصوص السجلات للدلالة على المضمون، فمن «الكتاب الشرعي والخطاب المرعي» إلى «الدستور المعظم» وصولا إلى «المدينة المحمية»، وتحت هذه العناوين للفصول، تتدرج العناوين الفرعية المفصلة لمحتويات الدراسة، حيث بحث (للوالي) الذي يقف على رأس جهاز الحكومة في ولايته، و (للحكومة) بجهازها الاداري وما تختص به من شؤون مالية وعسكرية، وما تضمه من موظفين:

كالمحاسبجي، والتذكرجي، والروزنامجي، والجبه خنجي، والجوقه دار، والقبوجي باشي، ووكيل الخرج، يجتمعون في سراي طرابلس «دار السعامة»، وهي تسمية ترجع إلى عصر المماليك. اما الجهاز العسكري فيشتمل على قائد الانكشارية ــ آنما الينكجرية ــ ومحافظ قلعة طرابلس «الدزدار»، وضابط الراجلين (الرجالة) المستحفظين بالقلعة، والابراج الحربية المنتشرة على ساحل المدينة الشمالي، والتي ورثها العثمانيون عن المماليك، فضلا عن «الصوباشي» و «العساس باشي» اللذين يقومان بمهمة حفظ الأمن في المدينة، في النهار والليل، يعاونهما مساعدون في مناطق الولاية خارج المدينة، مثل كاتب الناحية، وجابي الميري، وتابعه، في طرطوس، وعكار، والكورة، والظنية (الضنية حاليا)، والهرمل، والشعرا (نواحي النبك)، والزاوية، وصافيتا، وبشري، والبترون، وجبيل.

واختص الفصل الرابع بـ «الحاكم الشرعي» الذي يأتي في مرتبة تالية للوالي من حيث السلطة، ولكنه يتمتع بسلطات لا حصر لها بالمقارنة مع «قاضي» المحكمة في عصرنا، وهذا التعدد في المهمات لا يمكن الوقوف على شموليته إلا بدراسة السجلات والوثائق واحدا بعد واحد، ووثيقة تلو وثيقة، وقضية أو دعوى إثر أخرى، فالحاكم الشرعي هو: قاضي الأحوال الشخصية، والقضايا المستعجلة، ومحكمة التجارة، والاستئناف، والجزاء، والجنايات، وديوان المظالم، وقاضي العسكر، وتوجيه الوظائف الدينية، وتثبيت أو عزل مشايخ الحرف، والاشراف على الأوقاف، وتعيين المتولين عليها... وهو صلة الوصل بين الوالي والأهالي فيما يختص بشؤونهم وإنفاذ أوامر الحكام السياسيين، وقد أحاطت الوثائق مجلس الحاكم الشرعي ومنصبه الخطير بما تستحقه من التقدير الرفيع، فصيغت النصوص بعبارات التفخيم والاجلال، واستهلت، غالبا: «بمجلس الشرع الشريف المعقود بديوان طرابلس الشام، أجله الله تعالى، لدى متوليه مولانا وسيدنا أعلم العلماء الأعلام، تاج الموالي العظام، والحبر البحر الهمام، الحاكم الشرعي..» و «أقضى قضاة المسلمين، أولى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، المختص بمزيد عناية الملك المعين، مولانا طرابلوس شام قاضيسي زيد فضله...».

ثم تتابع عناوين الموضوعات، من «رجال الدين»، إلى «الأهالي، الأغنياء والفقراء، حتى «الأصناف»، أنواع الطوائف المهنية الحرفية التي كانت تشكل الحياة المدينية، مثل: الخبازين، الفرانين، البوابجية، العقادين، الحلاقين، الحمّاميّين، المعماريين، النجارين، الدباغين، الحمالين، التجار، الخياطين، الاسكافيين، القصابين، الحياك، الخضريين، الفاكهانيين، الحدادين، الطباخين، القزازين، القاوقجية (نوع من الطرابيش)، النطفجية، القوافين (الحلاقين)، العطارين، الأكمكجية، الباشجية، المومجية، النحاسين، الكوكجية، السمرجية، السراجين، النعالين، الطاوقجية، الزبراونجية، السبوقجية، البلانجية، الشعارين، الترزية، الحبالين، السرموجية، الياقزجية، الصياغين، الصباغين، البزازين، الصابونجية، اللبادين، الحمصانيين، الملاحين، الدلالين، البورغنجية، المبيضين، النهوبجية، النشارين، الشحادين، الوتارين، المشدية، السعاة، البلاسة، العرقجية، السمانين، السماكين، البياطرة.. وغيرهم.

ويدرس الدكتور زيادة تطور العمران في طرابلس من حيث الاتساع والانحسار، فيحصي المحلات أو الحارات التي كانت تتألف منها المدينة. ومنها ما تزال تحمل أسماءها القديمة حتى الآن، ومنها ما تغيرت أسماؤها، وهي: التبانة، ساحة عميرة، قبة النصر، اليعقوبية، الجسرين، باب الجديد، التربيعة، حجّاري النصارى، حجّاري المسلمين، سويقة النوري، القنواتي، آق طرق، زقاق الحُمُص، سويقة الخيل، مسجد الخشب، المزابل، الشيخ فضل الله، العينات، الصباغة، الرمانة، آلاي كوز، الناعورة، اليهود، القواسير، عديمي المسلمين، عديمي النصارى. ثم يلحق بآخر الكتاب خريطة تبين مواقع هذه المحلات.

والكتاب دراسة جادة غزيرة المادة العلمية، تعتبر ممهدة لفهم تاريخ طرابلس العثماني، اجتماعيا، واقتصاديا، ودينيا، وعمرانيا، وهو يستحق التقدير. ●

في يوم القادسيّة*

كان ابو محجن الثقفي[1] من المعاقرين للخمر، المحدودين في شربها، اقام عليه عمر بن الخطاب الحد مرارا، وهو لا ينتهي؛ فنفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه حرسيا[2]، فهرب منه ولحق بسعد بن ابي وقاص، وهو في حربه مع الفرس وكانت حرب القادسية.

ولما بلغ ذلك عمر كتب إلى سعد بحبسه، فحبسه في القصر، وتطلع ابو محجن إلى الحرب، فرآها مشتعلة، فذهب إلى سلمى بنت ابي حفص ــ زوج سعد، فقال لها: هل لك في خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عني وتعيرينني البلقاء[3]؛ فللّه علي إن سلمني الله أن ارجع إليك حتى تضعي رجلي في قيدي؛ فقالت: وما انا وذاك؟ فرجع يرسف في قيوده، ويقول:

كفى حَزَناً ان تَردِيَ الخيلُ بالقَنَا
وأُتْرَكَ مشدوداً عليَّ وثاقِيا
إذا قمتُ عنَّاني الحديد وغُلِّقَتْ
مصاريعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المُنَادِيا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخْوَةٍ
فقد تركوني واحداً لا آخا لِيَا
وقد شفّ جسمي انني كلّ شارقٍ[4]
أُعالج كَبْلاً[5] مُصْمتاً قَدْ بَرانِيا
فَلِلّهِ دَرِّي يوم أُتْرَكُ مُوثَقاً
وتَذْهَلُ عني اسرَتي ورِجالِيَا!
حَبِيساً عن الحرب العَوَانِ وقد بَدَتْ
وإعمالُ غيري يومَ ذاك العَوَالِيَا
وَلِلّهِ عهدٌ لا اخيسُ[6] بعهدِهِ
لئن فُرِجت ألّا ازورَ الحَوَانِيَا[7]

فقالت له سلمى: إنس استخرت الله ورضيت بعهدك، واطلقته.

فاقتاد أبو محجن الفرس، واخرجها ثم ركبها، ودب عليها، وفي ذلك اليوم اظهر من شجاعته عجبا. ولما تحاجز أهل العسكرين اقبل ابو محجن حتى دخل القصر، ووضع نفسه عن الدابة، واعاد رجليه في القيد، وقال:

لقد عَلِمَتْ ثقيفُ غيرَ فخرٍ
بأنَّا نحنُ اكرمُهُمْ سيوفا
واكثرُهم دروعاً سابغاتٍ
واصبرُهم إذا كَرِهوا الوقوفا
فإن أُحْبَس فقد عرفوا بلائي
وإن اُطلق اجرِّعْهُمْ حُتُوفا

فقالت له سلمى: يا أبا محجن؛ في اي شيء حبسك هذا الرجل؟ فقال: أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية؛ وأنا امرؤ شاعر، يدب الشعر على لساني، فينفثه أحيانا، فحبسني لأني قلت:

إذا مِتّ فادفنّي إلى اصلِ كَرْمةٍ
تروّي عِظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنَنِّي بالفَلاةِ[8] فإنني
اخافُ إذا ما مِتُّ ألّا أذوقُها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر ابي محجن، فدعا به وأطلقه، وقال: إذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، فقال: والله لا احببت لساني إلى قبيح ابدا.

(*) مهذب الاغاني: ٢ ــ ٤٨؛ الخزانة: ٣ ــ ٥٥٣؛ الاغاني: ٢٠/١٣٨؛ الكامل لابن الاثير: ٢ ــ ٢٣٢؛ المسعودي: ١ ــ ٤٢٣.

(١) ابو محجن إسمه وكنيته على المشهور، اسلم سنة ٩ هـ، وسمع من النبي، صلى الله عليه وسلم، وروى عنه، وكان جوادا كريما من الفرسان المشهورين في الجاهلية والاسلام مات سنة ٣٠ هـ

(٢) الحرسي: واحد حرس السلطان.

(٣) البلقاء: فرس سعد بن أبي وقاص.

(٤) أصل الشارق: اليوم الذي فيه الشمس، والمراد كل يوم.

(٥) الكبل: القيد.

(٦) خاس بالعهد: غدر ونكث.

(٧) الحانية: الدكان، وهو يريد امكنة بيع الخمر.

(٨) الفلاة: الارض المهلكة.

فنون الأناضول

د. سامي زكي

تمثل الأناضول ـ الموطن الأصلي للأتراك ـ حلقة الوصل بين آسيا وأوروبا. ويذكرنا الكوبري العائم ذو الطابقين الذي يصل بين شطري اسطنبول اننا في نقطة اللقاء التاريخي بين عالمين وحضارتين. تعاقب على هذه القنطرة الأرضية في آسيا الصغرى الكثير من الحقب التاريخية المتميزة، والتقت فيها شعوب متعددة وحضارات مختلفة من بلاد الرافدين ومن فارس والهند والصين وكذلك من أوروبا. وانصهرت على ارضها عناصر من الحضارة الاغريقية والرومانية البيزنطية وحضارات الشرق. وفي العصور القريبة تولى الحكم فيها العثمانيون (نسبة إلى قبيلة من الشعب التركي سميت باسم مؤسسها عثمان) الذين كونوا امبراطورية كبيرة امتدت حدودها في القرن السادس عشر من هنغاريا وبحر الأدرياتيك إلى العراق ومصر...

استهدف معرض المجلس الأوروبي الثامن عشر أن يقدم هذا التاريخ الطويل من خلال الفنون التي أنتجتها هذه اللقاءات الحضارية المتعاقبة. وانتقيت لهذا الغرض ٥٠٠٠ قطعة

□ د. سامي زكي: باحث في العلوم الاجتماعية.



□ نقوش بارزة ـ سيدة تجلس على كرسي، وتلف ذراعيها حول رجل مريض، ارتفاع ٧٥ سم. نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد. متحف اللوفر.

عبر خمسة آلاف عام في معرض المجلس

الأوروبي الثامن عشر في اسطنبول

□ راس رجل من البرونز، القرن الثاني بعد الميلاد، متحف الحضارة، انقرة.





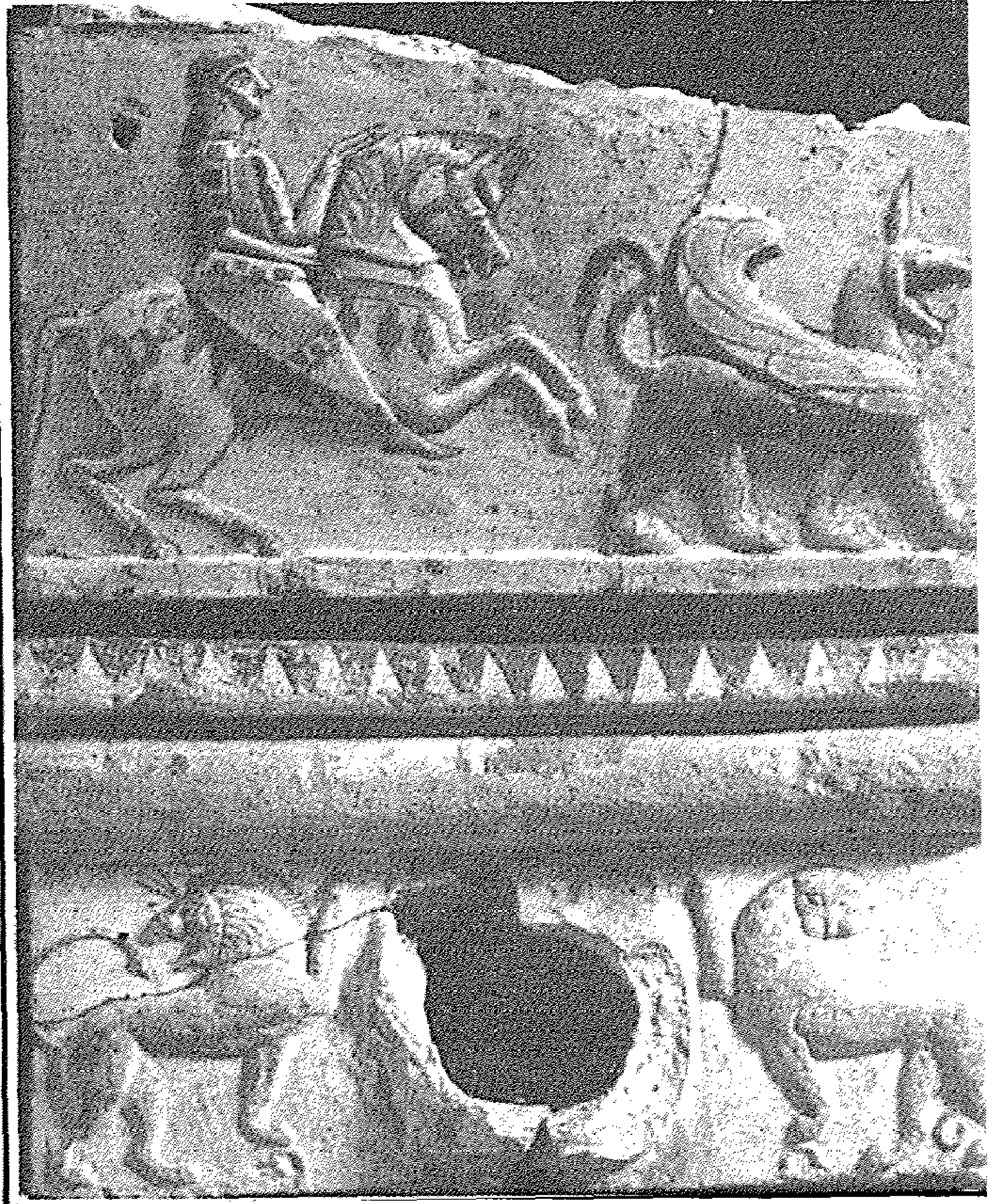
□ جـزء من صحفـة. سراميـك أو خـزف. العصر السلجوقي. القرن الثالث عشر. قونيا



□ جزء من بلاطة، مثمنة الأضلاع. العصر السلجوقي. القرن الثالث عشر قونيا لم تنشر بعد. حفريات عام ١٩٦٥/١٩٦٧.

□ نقوش بارزة — متحف الآثار في اسطنبول. النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد.

□ علاقة للقدور. بداية العصر البرونزي. بداية العام الألف الثالث قبل الميلاد، متحف ملاتيا.









□ جزء من بلاطة. متحف قونيا. القرن الثالث عشر الميلادي. حفريات ١٩٦٥/١٩٦٧



□ جرة بمثزاب، منتصف القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد. متحف الآثار. اسطنبول.



□ إبريق كبير باربعة اذان. القرن الثامن قبل الميلاد. متحف الاناضول، انقرة.

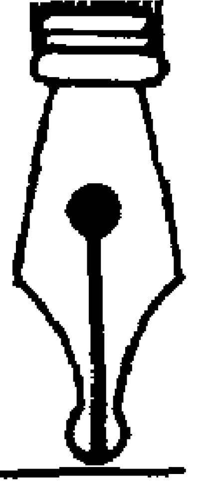
فنية من نحو ٥٠ متحفا تركيا، واستعيرت مجموعات فنية أخرى من البلدان الأوروبية لاستكمال هذا العرض. وانقسم المعرض إلى قسمين:

القسم الأول: من العصور الأولى حتى نهاية البيزنطية.

القسم الثاني: من حكم السلجوقيين حتى نهاية الامبراطورية العثمانية.

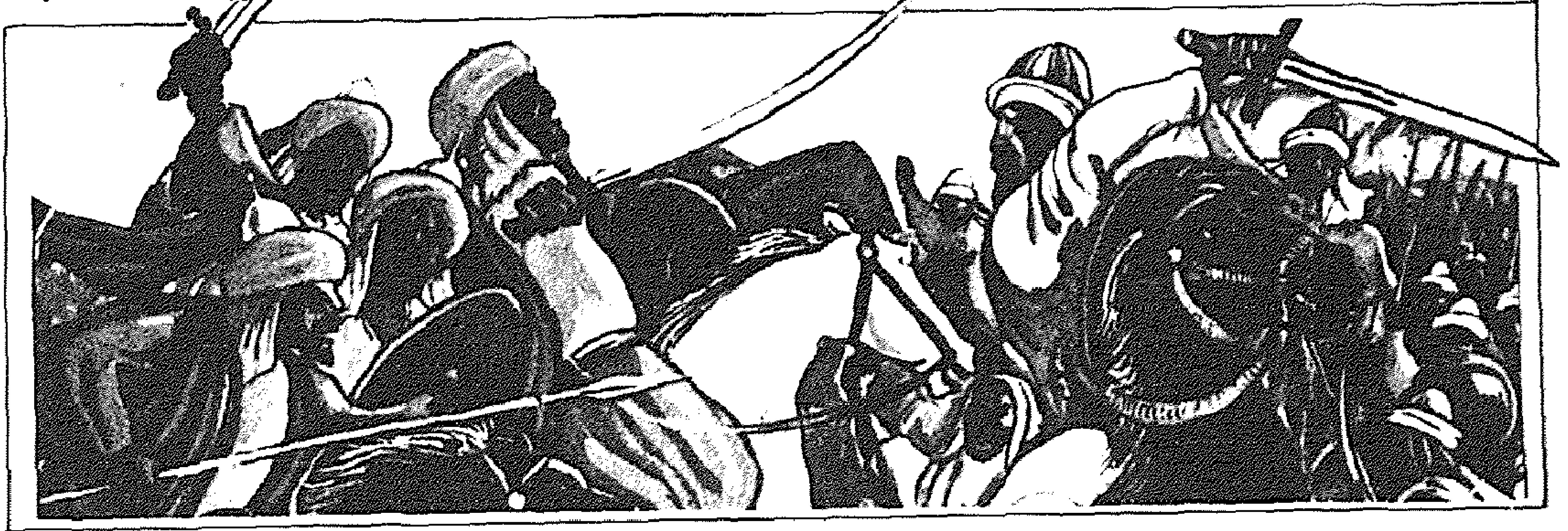
على انقاض السلاجقة في آسيا الصغرى قامت الدولة العثمانية كقوة كبرى في بداية القرن الخامس عشر، ومع صعود العثمانيين، واستيلاء «محمد الفاتح» على مدينة القسطنطينية، مركز الآثار البيزنطية، تكون طراز فني جمع في طياته تيارات مختلفة: تيار بيزنطي سلجوقي في العمائر وبناء المساجد، وتيار إيراني في الخزف والنسيج والتصوير، وتيار آخر وثيق الصلة بالغرب نجد آثاره في هندسة القصور والمساجد ذات القباب وزخارف الجدران والسقوف، ونجد كذلك بعض التأثيرات الأوروبية في نقوش الأقمشة المخملية. وعلى الرغم من مختلف التأثيرات فقد احتفظت جميع فنون هذه الحقبة بطابعها الاسلامي المميز الذي يلمسه الناظر لأول وهلة. فجميع هذه التأثيرات قد انصهرت في مفهوم الفن الاسلامي.

●



أبو عبيدة بن الجرّاح القرشيّ الفهريّ

فاتح بلاد الشام - سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين



أكرم تكريم لهذا القائد العربي الاسلامي قول الرسول العربي صلى الله عليه وسلم فيه: «هذا أمين هذه الأمة».

ولد ابو عبيدة بن الجراح سنة ٤٠ قبل الهجرة الموافقة لسنة ٥٨٤م. وتوفي سنة ١٨ هجرية الموافقة ٦٣٩ ميلادية في خلافة عمر بن الخطاب، بعد إصابته بالطاعون وهو بطريقه إلى القدس للصلاة في المسجد الأقصى حيث وافاه الأجل ودفن في بلده عمواس على بعد أميال خمسة من بيت المقدس.

كان هذا الرجل الأمين التقي من أوائل الذين دخلوا الاسلام وأبلوا بلاء حسنا في الجهاد في سبيله، فقد شهد معركة بدر وكان من الحماسة لدينه ورسوله ولقومه ان اضطر مرغما لقتل والده المشرك في هذه المعركة.

كذلك حارب مع الرسول في معركة أحد وثبت مع الرسول (صلعم) حين انهزم المسلمين وولوا الأدبار.

وبعثه الرسول (صلعم) في ٣٠٠ رجل فيهم عمر بن الخطاب إلى حي جهينة وهو موقع على البحر الأحمر في مهمة غاية في الصعوبة ونجحوا بها رغم كل شيء.

وكذلك شهد فتح مكة وكان في مقدمة موكب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان لدور أبو عبيدة في معركة اليرموك أثرا بالغا في هذا الانتصار الرائع للمسلمين وشهد له ثقاة علماء التاريخ بقوته ودوره وخططه التي برع بها وهو ما يسمى الآن التكتيك والاستراتيجية وكان أول من استخدم هذه الأساليب الحربية المتقدمة وكان لها بالغ الأثر في الانتصار في هذه المعركة الحاسمة.

كان أبو عبيدة بن الجراح من انجب تلامذة مدرسة الرسول القائد العظيم، إلى درجة أن الرسول (صلعم) كان يحبه ويعزه وكانت مكانته كبيرة في نفس رسول الله وواضح ذلك بقول الرسول (صلعم) لوفد من نجران ساله أن يرسل لهم من يرضاه ليحكم بينهم، فرد رسول الله (صلعم):

«سأبعث معكم رجلا أمينا حقا أمين» وبعث لهم أبو عبيدة بن الجراح. وكان الرسول (صلعم) يقول عنه «إن لكل أمة أمينا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وكان أبو عبيدة معروق الوجه حفيف اللحية، طويل القامة ناتيء الوجنات وكان يتمتع بمزايا غاية في الانسانية والرقة وقد انعكست هذه الصفات عليه كقائد عسكري، ونرى ذلك واضحا عندما طلب أهل بيت المقدس منه أن يصالحهم بحضور عمر بن الخطاب، وكان لهم ما أرادوا.

وكانت هذه ميزة ينفرد بها أبو عبيدة بشكل واضح وجلي.

وكان أبو عبيدة زاهدا في الدنيا وسلطانها ومناصبها حتى عندما اتوا إليه ليبايعوه كخليفة للرسول فقال لهم:

«اتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة» قاصدا بذلك أبو بكر الصديق. إشارة للآية الكريمة «إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا». صدق الله العظيم.

وكان لا يكترث ولا يهتم بمتاع الدنيا من أموال وعقارات وتصرفاته خير دليل على ذلك.

وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى والاخلاص لعقيدته فكما أشرنا سابقا قتل أباه يوم بدر بعد أن حاد عنه وتجنبه، وعندما تألم لذلك الحادث نزلت الآية الكريمة فيه «ولا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا اباءهم رأوا ابناءهم أو إخوانهم، أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه» صدق الله العظيم.

وحاول عمر بن الخطاب إبعاده عن منطقة الوباء في بلاد الشام وكتب إليه يستدعيه لمشورة عاجلة فرفض ترك جنوده وأجاب عمر وكان قد عرف ما يقصده: «يا امير المؤمنين، قد عرفت حاجتك إلي، إني في جند المسلمين لا أجد نفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه فخلني عن عزيمتك».

ولم يشهد المسلمون فجيعة بعد الرسول وابي بكر اشد وقعا عليهم واكثر حزنا لهم من فجيعتهم بهذا الرجل الصادق الأمين. قال معاذ بن جبل يبكيه: «إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله اني رأيت من عباد الله قط أقل حقدا ولا أبر صدرا ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا انصح للعامة منه، فترحموا عليه».

وكانت سمعته كقائد فذ وحلمه الدافق ورفقه الواسع وسعة صدره وأمانته وصدقه وحبه للسلام قد سبقته إلى بلاد الشام وأهلها، أحبوا هذا الرجل القائد الفذ ويسروا مهمته وكان ذلك واضحا لأن أكثر المدن سلمت له بعد صلح وبذلك حقنت دماء المسلمين والعرب.

وكان أبو عبيدة قائدا عسكريا فذا يرابط مع جنوده دائما ويمكث معهم لا يفارقهم وتبع أوامر رؤساءه وكان من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خطوة يخطونها سويا. وكان بعيد النظر يدخل في حساباته أسوا الاحتمالات ويسد كل الثغرات التي يمكن للعدو أن يتسرب منها.

وكان أبو عبيدة بن الجراح صحيح القرار غير متسرع في إصداره، ذا إرادة قوية نافذة ونفسية طيبة هادئة لا تتبدل في حالتي النصر والتراجع، وشخصيته قوية وله قابلية بدنية ممتازة، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويحبونه وله ماض ناصع مجيد.

وهكذا دخل أبو عبيدة بن الجراح التاريخ من أوسع الأبواب بمواقفه الجريئة وجهاده الدائم الصبور الذي أدى إلى فتح بلاد الشام — سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين — هذه المنطقة التي أمدت المسلمين والعرب بسيل جارف من المجاهدين بسيوفهم وبأقلامهم وفكرهم.

وكأني بأبي عبيدة ينادي من وراء الغيب متحسرا متأسفا عما جرى ويجري في هذه البلاد..؟!

فعسى أن يجود لنا التاريخ العربي ببطل له بعض هذه الميزات ليعيد تسطير التاريخ بشكل إنساني مترفع كما فعل أبو عبيدة... والأمل بالله كبير... لأن هذه الأمة ليست بعاقر.

فارس عينه

المراجع:

(١) القرآن الكريم.
(٢) قادة فتح بلاد الشام ومصر — للواء الركن. محمود شيت خطاب.



كتب وردتنا

□ من منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

— **صفحات من تاريخ جبل عامل**
دار الفارابي — الطبعة الأولى ١٩٧٩ .....
— **وكل الجهات الجنوب**
الطبعة الأولى، ١٩٧٩ ....
— **شهادات على حاشية الجنوب**
دار الفارابي — بيروت — الطبعة الأولى ١٩٨١ .... حبيب صادق
— **وجوه ثقافية من الجنوب (٢)**
بيروت — ١٩٨٤ ....
— **معاً من أجل الجنوب**
معاً من أجل لبنان
وقائع ومقررات «المؤتمر الثقافي النقابي الأول في لبنان من أجل الجنوب» الذي انعقد في بيروت ١٤/٩/١٩٧٩ ....
— **المقاومة الوطنية اللبنانية طريق التحرير والوحدة**
بيروت ١٩٨٤ ....
— **دراسات حول جنوب لبنان**
بيروت ١٩٨١ ....
— **من دفتر الذكريات الجنوبية**
دار الكتاب اللبناني — بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨١ ....
— **من دفتر الذكريات الجنوبية (٢)**
دار الكتاب اللبناني — بيروت ١٩٨٤ ....
— **الأبعاد السياسية لقضية الجنوب اللبناني**
بيروت ١٩٨١ ....
— **الدليل، معرض جنوب لبنان**
كتاب وشظية
بيروت ١٩٨١ .... تقديم وإشراف: حبيب صادق
— **في رحاب الخيام**
شعر الشيخ عبدالكريم صادق ١٨٩٠ — ١٩٧٢
دار الأقلام — بيروت ١٩٨٤ .... تحقيق وتقديم: حبيب صادق
— **حُسْنُ العواقب (رواية)**
الهوى والوفاء (مسرحية)
بيروت، ١٩٨٤ .... تأليف: زينب فواز
تحقيق: فوزية فواز

بسم الله الرحمن الرحيم   وما توفيقي الا بال

جوامع المقالة الاولى من كتاب جالينوس في المعجونات وهي التي يذكر فيها اسمـ

سه بنفسه بن يحيى النحوي الاسكندراني على حد الجوامع اخرجه لانه اسقط ما لا يحتاج اليه من الكتاب

ع التي يحتاج اليها فصيرها اساسا وبنى عليها كتابه   ذكر اسماء الاطبا الذين تقوا الدرياق واحد بعد و

ده كل واحد منهم على صاحبه ممن تقدمه ونقصانه عنه وهم تسعه

